

اللاعبون في الثورات العربية  
تعبيرات وأشكال مبتكرة

التجهيز وفرز الألوان: أبجد غرافيكس،  
بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة:

الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم  
بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

كتاب باحثات 16  
2014 – 2013



هيئة التحرير  
حُسن عبود  
آمال حبيب  
رضوان السيّد  
آمال قرامي

## اللاعبون في الثورات العربية تعبيرات وأشكال مبتكرة

أنجز هذا الكتاب بدعم من :

معهد التعليم الدولي (IIE)

الديار للهندسة والم

بيروت 2014

ISBN: 978-9953-0-3137-8

جميع الحقوق محفوظة

© 2014، تجمّع الباحثات اللبنانيات

مركز توفيق طيارة الاجتماعي

تلفون / تليفاكس: 96100-1-739726

Email: info@bahithat.org

الموقع الإلكتروني: www.bahithat.org

الآراء الواردة هنا تعبر عن رأي المؤلفين ولا تعكس بالضرورة آراء المؤسسات  
المانحة ولا آراء تجمّع الباحثات اللبنانيات.

التوزيع

جداول للنشر والترجمة والتوزيع

راس بيروت، شارع كاراكاس، بناية البركة، الطابق الاول

ص.ب: 5558-13 شوران - بيروت - لبنان

Tel: 00961-1-746638 /637

Email: info@jadawel.net; d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

السعر 20 دولاراً أميركياً أو 25000 ليرة لبنانية

## المحتويات

- IX تجمع الباحثات اللبنانيات ..... الأمانة العامة
- XII المقدمة ..... هيئة التحرير

### الجزء الأول: شهادات شخصية حيّة

عليا إبراهيم

ثورة الصورة... المهم ان لا تسقط الكاميرا، عندها فقط ينتهي الحلم ..... 3

فوزية أبو خالد

الاستشفاء من شراسة السرطان بمطلع الربيع العربي ..... 13

خولة دنيا

المرأة السورية والثورة المضاعفة ..... 21

هند رجوب

نور طفلة لاجئة «بيتها» مغسل الموتى... تشبهنى أو تشبه سوريا ..... 27

غادة الشهبندر

ثورة الشباب ... والنساء 25 يناير 2011 مصر ..... 31

نادية الكوكباني

مطامعهم من الثورة كانت أكبر من احتياجنا لها! ..... 37

حمادي المسعودي

قصيدة «إرادة الحياة» لإبي القاسم الشابي ..... 41

سليم معوض

47 ..... ثورة التناقضات في بلاد الأرز

## الجزء الثاني: كتابات ودراسات

### محور 1: اللاعبون والفئات الصاعدة

عبير ابراهيم أمينة

55 ..... المرأة في الثورة الليبية بين تصدّر المشهد وتهميش الأدوار

شيرين أبو النجا

102 ..... من الاستثمار إلى الاستقطاب: النساء المصريات يرسمن الفضاء والخطاب  
(مقال باللغة الانكليزية)

ليلى العبيدي

140 ..... الدور السياسي للنساء التونسيات في الربيع العربي  
(مقال باللغة الانكليزية)

عمرو صلاح الدين علاء

141 ..... الفاعلات النسويات «هدى الصدة، ميرفت التلاوي، منى ذو الفقار»:  
قوة ضاغطة داخل لجنة الخمسين المصرية

آمال قرامي

167 ..... التونسيات والمسار الانتقالي: تطّعات وتحديات ونضالات

سبرين سعد، ستيفان بازان وأديس تسفا

210 ..... حرب المعلومات على الشبكة العنكبوية في منطقة الشرق الاوسط  
(مقال باللغة الانكليزية)

منى يحيى المحاقري

211 ..... المرأة اليمنية: من التهميش الى الثورة

## محور II: الثورات العربية: نماذج مبتكرة

رفيف رضا صيداوي

233..... حين تفرض الثورة نموذجا: مصر مثالا

سعدة كلاكش، ستيفان بازان وكريستوف فاران

شبكة لكل الفصول: الشبكة في العالم العربي كموتل للتغيير

265..... (مقال باللغة الانكليزية)

## محور III: التعبيرات في الثورات العربية وأشكالها المبتكرة

منى أباطة

ترجمة وإعداد هدى طالب

269..... الترهيب والمقاومة والمخيال الجندي في الغرافيتي القاهرية

وظفاء حمادي

287..... تجليات الثورات العربية في التعبيرات المسرحية الشبابية المتغيرة

نادر سراج

311..... خطاب الاعتراض «ارحل» أنموذجا

هند الصوفي

331..... «البيتا» اليمينية بين الأرخيتايب والثورة العربية

إبراهيم العريس

357..... بعض سينما الربيع العربي: رؤية نقدية تحليلية

ميسون علي

371..... الثورة كسؤال للفن: الغرافيتي مسرح الشارع

منى فياض

397..... الجسد حامل للثورات وفاعلها

عمر كوش

شعارات التأسيس في الثورة السورية وتسميات أيام الجمع ..... 423

محور IV: المسيحية والإسلام في الثورات العربية

رضوان السيد

وثائق الأزهر خلال الثورة وآفاق الإصلاح الإسلامي ..... 453

الجزء الثالث: رصد بيبلوغرافي

فاطمة شرف الدين

ما يكتب عن الربيع العربي: بيبلوغرافيا مشروحة قصيرة ..... 475

هدى طالب

مراجعة مقال «التوجهات السياسية والجمالية والأخلاقية للمبدعات

التونسيات 2011-2013» ليليا العبيدي ..... 513



## تجمّع الباحثات اللبنانيات

تجمّع الباحثات اللبنانيات (أو «باحثات») كما يشار إليه محلياً، كأفراد ومجموعة) تجمّع مستقل لا يبغي الربح تقوم عضواته بأبحاث ونشاطات علمية في لبنان والعالم العربي. تشكّلت فكرة التجمع في أواخر الحرب اللبنانية إذ رفضت الباحثات في جزئي المدينة المقسّمة التقسيم الطائفي وأصُرْنَ على وحدة الشعب، راغبات في متابعة التبادل الفكري والثقافي على الرغم من عنف المعارك، وبدأن يجتمعن للمناقشة في قضايا فكرية تهّم الباحثة وتدعم إنتاجها العلمي والبحثي. حين انتهت الحرب كانت هذه الاجتماعات قد أخذت أهمية في حياة الباحثات دفعتهن إلى المتابعة وإنشاء هيئة منظمة للتجمّع بناءً على «العلم والخبر» الصادر عام 1992 تحت رقم 182/أد.

يضمّ التجمع حالياً نحو أربعين عضوة جميعهن باحثات في مختلف ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية بالإضافة الى سائر العلوم الاقتصادية والقانونية والتطبيقية والتكنولوجية. ان معظم عضوات التجمع أستاذات جامعات من كافة الجامعات ومراكز البحوث العلمية في لبنان بالإضافة الى كون بعضهن كاتبات وباحثات مستقلات.

يقوم التجمع بعدة أنشطة متفرقة ودورية. أهمها كتاب سنوي يصدره حول موضوع معيّن. إلى جانب ذلك يعقد التجمع لقاءات شهرية للتداول في أبحاث جارية لمناقشتها وتبادل الآراء حولها، كذلك هناك مؤتمرات ينظّمها التجمّع، تُنشر أوراقها في كتاب أعمال عائد للمؤتمر.

بتأثير الظروف التي يعيشها العالم العربي اليوم ارتأى التجمع أن يكون عنوان كتاب باحثات هذا العام (كتاب عدد 16) «اللاعبون في الثورات العربية: تعبيرات وأشكال مبتكرة»، وأن يكون موضوع العدد المقبل «نحن والزمن». مزيد من المعلومات عن إصدارات التجمّع الخامس عشرة متاحة على موقع التجمّع على العنوان التالي: [www.bahithat.org](http://www.bahithat.org)

الامينة العامة

نازك سابا يارد

## مُقدِّمة

أثارت حركات التغيير العربية حماساً هائلاً لدى كافة الشعوب العربية وفي العالم، باعتبارها إيداناً بتحوّلات اجتماعية وسياسية وثقافية زاخرة. ومنذ ذلك الحين، أي منذ مطلع العام 2012 تصاعد لدينا الاهتمام نحن في «باحثات» بضرورة المتابعة والمعاينة والقراءة الاستطلاعية لهذه اللحظات الحاسمة في تاريخ مجتمعاتنا وحاضرها ومستقبلها.

ولا تحرّكنا عصبيةً من أي نوع عندما نقول إننا أحسنا بفرادة ما يحصل - وليس بالنسبة لأحداث الثورات الأخرى في العالم فقط؛ بل بالطبع بالاختلاف الشاسع عما كان يحدث في العالم العربي خلال عقودٍ وعقودٍ من انقلابات أو اضطرابات أو عنفٍ مسلّح. فالشبان والشابات وجميع فئات الشعب يخرجون علناً وبعشرات الألوف ومئاتها إلى شوارع وساحات تونس والقاهرة وصنعاء ودرعا وحمص وبنغازي يطلبون الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية ومكافحة الفساد، وإسقاط الأنظمة، وإحلال الحكم المدني. تجلت الفرادة إذن في حركات السلم الشابة والتي مضت على سلميتها في كل ناحية، حتى في البلدان العربية التي ما كانت فيها مطالبات واضحةً بإسقاط الأنظمة. وعندما بدأت الانتكاسات بسبب عنف القوى القديمة والتدخلات الإقليمية والدولية وبروز الإسلاميين السياسيين والجهاديين، اعتبرنا أنّ القوى الجديدة قد نجحت في تونس ومصر، وأنه حتى في البلدان الأخرى فإن هذا التغيير لا مردّ له مهما طال الأمد.

إستناداً إلى هذه القناعة، أردنا وضع كتابٍ عن الثورات لا يقع في التكرار والإزدواجية مع الأدبيات العربية والأجنبية التي بدأت تُنشر في الموضوع. لقد أردناه كتاباً يلبي حاجةً فعليةً وسط المفاهيم والمصطلحات ومتطلبات التنمية التي تستدعيها المجتمعات الحديثة، لاسيما تقرير منظمة اليونسكو الأخير عن العام 2013، باتجاه توسيع القنوات المحلية للتطوير.

لقد سميننا الكتاب: «اللاعبون في الثورات العربية، تعبيرات وأشكال مبتكرة». وقد آثرنا مصطلح «اللاعبون» على مصطلح «الفاعلين» للسعة التي مثلها الحراك الشاسع، ولأن مصطلح اللاعبين يوحي بالحرية والمرونة، ومتجذّر في هذا التوجه التنموي البناء والواعد. إنه تأكيدٌ على عناصر الابتكار، ومُغايِرٌ للتحليلات السياسية والتاريخية والعالمية، بهدف التطرّق بطريقةٍ جديدةٍ لمسألة التغيير والثورة. لقد كانت المفاهيم السائدة عند نشوب الحركات التغييرية، لا تنحصر بمقياسٍ اقتصاديٍّ ضيقٍ. فجاءت الحركات بمثابة ظواهر تشير إلى تعدد المداخل لتحقيق التنمية الشاملة، مثل التنمية البيئية، والتنمية البشرية والاجتماعية، والتنمية الاقتصادية، تقاس بتطور «الرصيد» البيئي، أو «الرصيد البشري والاجتماعي». إنّ توجّه التنمية الشاملة يشكّل تقاطعاً وتداخلاً لهذه المداخل والأحجام والمقادير فيما بينها. فلا تنمية بيئية من دون تنمية بشرية وإجتماعية تتيح للفرد حريات وتمكينات وقُدُرات لبلوغ الخدمات الأساسية في التربية والتعليم والصحة والتدريب وفرص العمل، ومجابهة الفقر والتدهور البيئي. وانطلاقاً من هذه المجالات الكفاحية للسير نحو التمكن من انتزاع الحقوق الأساسية في العدالة والمساواة والمشاركة.

إنّ هذا التقاطع والتداخل في المجال التنموي بين الخدمات الأساسية والحقوق الأساسية، أدخَلَ مفاهيمَ جديدةً على التنمية البشرية، فجرى التركيز في نطاقها على عنصر المشاركة من جانب فئات الشعب العريضة في اتخاذ القرار وصنعه. ومن ضمن ذلك إشراك الفئات المهمّشة (المرأة، والشباب، والأقليات، والجمعيات، والنقابات، والبلديات.. الخ)، بحيث ما عاد القرار شأنًا نخبويًا، بل صار شائعاً وتناولته أو تناوشته الفئات الجديدة المقبلة على مداخلة الارتكاز الجديد من "أسفل إلى أعلى"، وهذا معنى مصطلح «اللاعبون الجدد»، الذي يفيد بظهور نمطٍ جديدٍ للتعبير والتغيير ابتدعه اللاعبون الذين دخلوا على حصون القرار، فحوّلوها إلى ساحاتٍ مفتوحةٍ، فيما صار يُعرفُ بديمقراطية المشاركة.

إنّ النتيجة الأولى إذن لهذا الحراك التغييرية التداخلي بين مفاهيم ومجالات الخدمات الأساسية والحقوق الأساسية، كانت ظهور اللاعبين الجدد، الذين سعوا

ويسعون للتمكّن في العملية التنموية الشاملة التي تغيّر من بيئات القرار وتوسّعها باتجاه ديمقراطية المشاركة.

أمّا النتيجة الثانية لهذا التقاطع والتداخل واندماج فئات وجهات جديدة في العملية التغييرية والتنموية فهي دخول عنصر الإبداع والابتكار. فالفئات الجديدة الداخلة على العملية تملك أساليب وأدوات جديدة تسهم في تنمية المجتمعات. ما عادت التنمية محصورةً بالصادرات والواردات فقط، بل هي تتقاطع وتشارك مع بقية المجالات. ويشارك اللاعبون الجدد بطرائق مبتكرة تنمي القدرات والإمكانات ذات المردود الاقتصادي والبشري والاجتماعي. وهذه التنمية للرصيد الاقتصادي، بقدر ما هي تنمية للرصيد البشري. لقد اصطنعت المفاهيم التنموية الجديدة مصطلحات ووسائل جديدة مثل الاقتصاد المبتكر والصناعات الثقافية والصناعات المبتكرة. بل إن تقرير اليونسكو الأخير يذكر أو يستعمل مفهوم: «المدن المبتكرة»، و«الفئة أو الطبقة المبتكرة». إن المجموعات المهنية والتقنية الجديدة تُنتج بالإبداع في مجال عملها سلعاً جديدة. وهكذا فقد صار الابتكار هو العنصر الأساسي في التغيير، يتجلى في الواقع بالسعي لما هو جديد، وفيه خيالٌ ومبادرة. ولأنّ القائمين على الحركات التغييرية هم من الشباب والشابات؛ فإنّ الابتكار بدا في أعمال اللاعبين الجدد هؤلاء.

لقد حمل عنوان كتاب «باحثات» عن الربيع العربي ثلاث مفردات: اللاعبون والابتكار، والتعبيرات. والتعبيرات هي الجديد الثالث أو النتيجة الثالثة للحراك التغييري، والتي أردنا التركيز عليها هنا أيضاً. فالتعبيرات الثقافية أو الرصيد الثقافي يبدو في أشكال التعبير عن هذا الجديد بصورة واضحة مثل الشعارات والغرافيتي والصورة والرسم على الجسد والمسرح والسينما والموسيقى والغناء. هذه التعبيرات الثقافية هي بحد ذاتها حسب تقرير اليونسكو، طاقة ثقافية تتركز في دوائر صغيرة تتوسّع بالتدريج وبسرعة لتلهم الحركات الديمقراطية الحديثة وتدفعها انطلاقاً من قناعة الجميع أن حرية التعبيرات الفنية هي مقوم أساسي للمجتمعات الحرّة.

يتوزع كتاب تجمّع الباحثات اللبنانيات عن الربيع العربي على ثلاثة أجزاء.

أما الجزء الأول فيتضمن شهادات شخصية حية من ناشطات غالباً من سائر بلدان الربيع العربي، وحتى عن لبنان كتب سليم معوض شهادةً بعنوان: ثورة التناقضات في بلاد الأرز. أما الشهادات الأخرى فهي من سورية ومصر واليمن وتونس. وبعض هذه الشهادات مؤثرٌ بالفعل كشهادة الشاعرة السعودية فوزية ابو خالد. فالكاتباتُ يجمعهنَّ همٌّ واحدٌ هو تجاوزُ التسجيل إلى المشاركة. وقد اختارت كلٌّ منهنَّ الزاوية التي اعتقدت أنها بواسطتها ومن خلالها تنتقل من صفة المراقبة إلى التزام الشهادة. فالشاهد شهيدٌ بمعنى ما، لكنه اختار أن يؤجّل شهادته ليندمج في لحظة المشاهدة.

أما الجزء الثاني فهو بعنوان: كتابات ودراسات. وقد انقسم إلى أربعة محاور. المحور الأول: اللاعبون والفئات الصاعدة، ويصحّ اعتباره دراسة حالات. كتبت شيرين أبو النجا عن النساء المصريات في الثورة. وكتبت عيبر إبراهيم أمينية عن المرأة في الثورة الليبية. وسجّلت ليليا العبيدي وزيرة شؤون المرأة خلال الثورة (يناير- ديسمبر 2011) نضال التونسيات السياسي ومساهماتهن التاريخية في الإصلاح الديني ومسار العلمانية. فأضفت الى بحث آمال قرامي عن التحديات التي تواجه التونسيات بين التحرر البورقيبي والمحافظة الثورية معرفة حول «دور النساء التونسيات» لتصبح تونس المقياس (تابلو دو بور) او النموذج الإيجابي للثورة. وكتب فريق عمل في الجامعة اليسوعية في بيروت عن الشبكة العنكبوتية ودورها في حرب المعلومات والصراعات انطلاقاً مما يحصل في المنطقة العربية قبل وبعد الثورات. وفي مقال ثاني يبيّن الفريق كيف ان الشبكة بمختلف أوصافها المعقّدة واستخداماتها تمثّل نظاماً حياً متكاملاً وبيئة محفّزة للتغيير هيأت الظروف الملائمة للاعبين الجدد للنهوض بالثورات العربية. وكتبت منى المحاقري عن الثورة باعتبارها فرصة وإخراجاً للمرأة اليمنية من التهميش الى الثورة. وفي المحور الثاني: الثورات العربية، نماذج مبتكرة، كتبت رفيف صيداوي عن النموذج المصري في التغيير وابتكاراته. وأما المحور الثالث في الجزء الثاني هذا فهو بعنوان: التعبيرات في الثورات العربية وأشكالها المبتكرة. والتعبيرات المقصود بها الأشكال الإبداعية التي ظهرت على أيدي الناشطين الجدد من مثل شعار «ارحل» الذي استخدم في مصر وتونس وفن الجرافيتي (مقالتان) والمسرح وسينما الثورة والصورة الفوتوغرافية.

وانفردت الزميلة د. منى فياض بقراءةٍ لظهور الجسد والمسيرات الحاشدة بوصف الجسد وحركته تعبيراً عن إرادة التغيير. وانفردت الزميلة عمر كوش بمقالة رائعة عن الشعارات التأسيسية في الثورة السورية وتسميات أيام الجمع. وأما المحور الرابع فهو عن الحوار الديني في الثورات. وقد كان المفروض أن يكتب فيه ثلاثة أو أربعة كتب خاصة من اللبنانيين والمسيحيين الأقباط. لكن الأمر اقتصر في النهاية على مقالةٍ واحدة كتبها زميلنا الدكتور رضوان السيد عن بيانات الأزهر خلال الثورة وإمكانات الإصلاح الإسلامي.

أما الجزء الثالث من الكتاب فسميناه رسداً بيولوجرافياً. وقد تضمنت مقالتي: واحدة للزميلة فاطمة شرف الدين جمعت فيها مختارات مما كُتب عن الربيع العربي باللغتين العربية والإنجليزية. وقدّمت لنا الزميلة هدى طالب مراجعة للدراسة الأنثروبولوجية ليليا العبيدي، عن التوجهات السياسية والجمالية والأخلاقية للمبدعات التونسيات - عام 2011.

لقد كان العمل على هذا الكتاب لأكثر من عامٍ يلي حاجه ويطرح مفاهيم، فالثورات نفسها هي حدث مبتكر ومفاجئ وكنا نشعر بأنفسنا بالإبداعات كطاقة لها رصيدها البشري والديمقراطي. وقد شارك في الكتاب ثمانية وعشرون مؤلفاً بينهم واحدة وعشرون سيّدة من سائر البلدان العربية، وبخاصة المقيّمات في بلدان الثورات. ورغم الجهد المُضني والطويل ما أمكن تجاوز كلِّ وجوه النقص. لكننا ظللنا وفياتٍ وأوفياء للفكرة الأصلية: اللاعبون، الابتكار، الإبداع التعبيري.

ونودُّ أن نشكر تجمّع الباحثات اللبنانيات، والمحكّمين والمحكّمات من داخل التجمع وخارجه ومُساعدة الأعمال الإدارية في التجمّع. كما نودُّ أن نشكر الباحثات والباحثين ببلدان الربيع العربي والذين واللواتي ما قصّرن ولا قصرنوا في الإسهام رغم الظروف الأمنية الصعبة في مصر وتونس وسورية وليبيا واليمن.

ولولا دعم ديار للهندسة والمعتز هولدنغ، ومعهد التعليم الدولي IIE، لتعدّر علينا نشر هذا الكتاب. فلهم الشكر والامتنان جميعاً.

هيئة التحرير

الجزء الأول

شهادات شخصية حية

## ثورة الصورة...

### المهم أن لا تسقط الكاميرا، عندها فقط، ينتهي الحلم

#### عليا إبراهيم

مع اقتراب ثورات العالم العربي من عامها الرابع ها هي داعش وأخواتها تسيطر على «الصورة» بشكل شبه كامل. «صورة محترفة» عالية الجودة لشبان لا يفوق عنفهم إلا تخلفهم. نجحوا حيث فشلت الأنظمة بفرض فكرة أن الديكتاتورية - في حلّتها الدينية هذه المرة - مصير لا مفر منه أمام شعوب المنطقة.

إنجازات داعش العسكرية على الأرض، سواء كان في العراق أو قبل ذلك في سوريا، ليست وحدها التي كرّست التشدّد الإسلامي مع ما يحمله من انتهاكات لحقوق الإنسان كحقيقة وحيدة تواجه مستقبل المنطقة.

فداعش أو ما تمثله من سلطة يمكن القضاء عليها أو على الأقل الحدّ من امتدادها وتثبيت رقعة سيطرتها بتسوية سياسية أو ضربة عسكرية. ما سيبقى بعد ذلك، ما لن يمحي، هي «الصورة التي طبعت في الأذهان»، ليس عن أفراد داعش فحسب، بل عن مجتمعات كاملة أخرجت كل هذا العنف.

غير مهم أن داعش لا تملك بيئة حاضنة تؤمن استمراريتها، كما ليس مهم انه وفي كثير من مناطق نفوذها وعلى الرغم من المبيعات العشائرية المحكومة ببراغماتية المصالح، رُفضت داعش. وكان عليها أن تفرض سلطتها بعنف تفوق على عنف النظام في بعض الحالات. ليس مهم حتى إن كثيرين من أمراء داعش غريبون عن مناطق سيطرتهم، وهم من المنبذيين في مجتمعاتهم، ومن بين هذه المجتمعات مجتمعات يفترض أنها طليعية على صعيد الحقوق الفردية. المهم أنها في المرحلة الحالية قد نجحت في أن تصادر حاضر الربيع العربي، وربما مستقبله، بعد أن «صادرت صورته».

«الصورة» هنا، أهم وأقوى من أيّة حقيقة على الأرض، عسكرية كانت أو



سياسية أو اجتماعية. التظاهرات السلمية في سوريا لم تتوقف في أكثر من منطقة ولا حتى ليوم واحد، هذه حقيقة وحاصلة. ولكنها اليوم خارج «الصورة»، هذا ما يجعلها بأهمية ما لا يحصل.

«صورة داعش»، ليست محطة عنف فريدة في الربيع العربي الذي كانت شرارته الأولى «صورة إحراق محمد البوعزيزي لنفسه». «صورة التعذيب الذي تعرّض له خالد سعيد» التي ألهمت ساحة التحرير، و«صورة واقعة الجمل» التي شكلت نقطة تحول أساسية باتجاه سقوط النظام في مصر وصولاً إلى «صورة حمزة الخطيب» في سوريا. «صور»، كانت على الرغم من عنفها تحمل معاني الثورة، وما تفرضه من أمل لأن مصدر العنف فيها كان الأنظمة التي أخرجت بطشها من عثم المعتقلات إلى ضوء الشوارع، أمام عدسات الناشطين الذين راحوا يصوّرون، ويوثقون وينشرون ويفضحون.

حتى العنف الموجود في صفوف الثوار، صور ووثق، ولكنه لم يتمكن من فرض نفسه كظواهر اجتماعية. «صورة الرجل الذي أكل قلب ضحيته» كادت تنافس «صورة حمزة الخطيب» من حيث الانتشار، ولكنها بقيت «صورة فردية لم يتبناها أحد». لم تشكل كتيبة عسكرية تحمل اسم آكل القلوب الذي بقي على الرغم من كثرة انتشار صورته وصمة عار على جبين «الثورة». هنا تماماً تبدو خطورة داعش متجاوزة حدود انتشارها الجغرافي. على مدى أكثر من سنتين استطاع الحراك المدني في سوريا أن ينتج ثورة التقى المشاركون فيها مع ثوار دول الربيع العربي الأخرى على قيم مشتركة حرية ومواطنة وعدالة اجتماعية... النشطاء السوريون حتى وإن كانوا قد فشلوا بإسقاط النظام، فهم نجحوا ومنذ الأشهر الأولى لثورتهم بنزع شرعيته. حصل ذلك بشكل أساسي بعد نجاحهم بكسر «الصورة المركبة» التي اجتهد النظام في تثبيتها على مدى عقود: صورة الأب القائد الأبدي في الداخل، صورة النظام الداعم للمقاومة الممانع لإسرائيل عريباً والدولة العلمانية ضامنة حقوق الأقليات دولياً...

في دراسة تحت عنوان «صورة الشهيد في الأداء والنشاط الإلكتروني السوري»، يتحدث إدوارد زايتير عن نجاح الناشطين السوريين بكسر حصريّة النظام لعدد من القيم التي اعتمد عليها لتثبيت شرعية حكمه على مدى أربعة عقود ومن بينها مفهوم

الشهادة. فالشهيد في ظل نظام البعث كان من رفض الإمبريالية، كالشهداء الذين أعدمتهم السلطات العثمانية في ساحة المرجة وسط دمشق، ومن قاتل الصهيونية كشهداء حرب 73 مع إسرائيل. على مدى فترة حكمه، وفي تقليد ورثه أبنته بشّار من بعده، عمد حافظ الأسد على تثبيت فكرة أن الشهداء سقطوا دفاعاً عن الوطن والنظام. فكرة كان يثبتها عبر «صورة تبث مرتين في السنة» يظهر فيها واضعاً أكاليل الورود على أضرحة الشهداء ومتناولاً الأزهار من أبناء شهداء آخرين.

ما نجح الناشطون به بحسب زياتر هو استعادة ملكية الشهيد، فهو بعد الثورة أصبح من يسقط متحدياً النظام وليس دفاعاً عنه.

المعركة كانت في هذه المرحلة بين الخير والشر، والخيار بين الديكتاتورية والديمقراطية... اليوم ها هي داعش تكسر «صورة الثورة في سوريا» ومن وراءها «صورة الربيع العربي» مستخدمة الكثير من أسلحته. المعركة صارت معركة قوة، والخيار بات محصوراً بين نظام البعث وخلافة البغدادي.

هكذا هي «الصورة اليوم»، حتى وإن كانت صورة مفروضة، وحتى إن كانت «صورة منقوصة».

ولكن ماذا عن من هم «خارج الصورة»؟ ماذا عن «الصورة البديلة»؟ تلك «الصورة المسروقة» و«الصورة المهربة» و«الصورة المهزوزة» «منخفضة الدقة» التي فاجأ السوريون بها أنفسهم قبل أن يفاجئوا العالم كله، ماذا عنها؟

### «حياة الصورة»: بطولة على جانبي العدسة

مما لا شك فيه أنه على الرغم من الخبرة التي راكمها الناشطون الذين تحول عدد لا بأس به منهم إلى مصورين محترفين، بعضهم بجهودهم الخاصة وآخرين بسبب التدريب الذي خضعوا له، وعلى الرغم من تحسن جودة منتجهم بسبب التقنيات المستخدمة، إلا أن القيمة الحبرية لـ «صورة الثورة السورية» تراجعت بشكل جذري على مدى السنوات الماضية. لم يحصل ذلك فقط كنتيجة حتمية لكسر الحصار المفروض من قبل النظام الذي منع الإعلام التقليدي من الدخول إلى سوريا وتغطية ما يحصل فيها خلال المراحل الأولى من الثورة، ولا حتى كنتيجة للمنافسة غير العادلة مع «صور الحرب الأهلية» الأكثر «حديثه» و«صور

داعش وأخواتها» والأكثر إغراء خلال المرحلة الأخيرة، ولكن أيضا وبشكل كبير بسبب تراجع قناعة من هم خلف الكاميرا بجدوى ما يقومون به.

تقول هبة خالد، وهي ناشطة من ريف دمشق، إنها في السنة الأولى للثورة كانت مقتنعة بأهمية الإنجاز الذي كانت تحققه في وجه النظام. «النظام كان يكذب، كان يقول لا توجد دبابات، كنت أحمل لقطه الدبابه وهي تقصف وأسرع هاربة بها إلى بيروت... الآن لم يعد عندي هدف فضح النظام، فأنا أعرف أن العالم كله يعرف وأن هذه المعرفة لن تتغير شيء».

هبة هي الفتاة نفسها التي بقيت تضحك في كل مرة نجحت فيها «بتهريب الثورة عبر ثيابها الداخلية» كما كانت تقول. دورها، كان تهريب «الصورة الممنوعة» إلى خارج الحدود السورية ومن بعدها إلى العالم عبر مكاتب القنوات التلفزيونية العربية ووكالات الإعلام الأجنبية.

خوفها كان يفوقه معرفتها أنها ليست وحدها، وأن إلى جانبها الآلاف من الناشطين والناشطات الذين ربطوا مصائرهم بمصير ثورتهم. ف«الصورة التي هربتها» كان آخرون قد «سرقوها» كانوا هم أيضا ينتمون إلى شبكة من الناشطين المدنيين راحت تكبر يوما بعد يوما. وما كانت وسائل الإعلام التقليدي إلا واحدة من القنوات التي اعتمدوا عليها «لثبيت صورة ثورتهم»، الأمر الذي كان بنظرهم شرطاً أساسياً من شروط بقائها.

فلولا انتشار «صورة حمزة الخطيب»، على سبيل المثال لا الحصر، لما كانت التظاهرات. ولو لم تكن التظاهرات، لما كانت «الصورة التي خرجت إلى العالم» لتؤكد أن ما يحصل في سوريا جزء من الربيع العربي، وأن الاحتجاجات المطالبة بتغيير الأنظمة التي شاهدها العالم من ساحات تونس ومصر واليمن ها هي تلقى صداها في إدلب وحمص في منافسة مباشرة مع الصورة التي دأبت وسائل إعلام النظام على تثبيتها للقول إن ما يجري في سوريا أعمال تخريبية وجزء من مؤامرة دولية ضدها.

أما النقطة الأهم، انه لولا خروج هذه الصور إلى العالم، لما كانت حقيقة حصولها مهمة. هذا درس تعلمه السوريون جيداً، وما تفاصيل مجزرة حماه التي بقيت مطمورة أكثر من ثلاثة عقود إلا فصل من فصوله.

إذا كانت المشاركة بالتظاهرات هي الخطوة العلنية، إن لم نقل العملية، الأولى باتجاه كسر حاجز الخوف، فإن التصوير في التظاهرات كان بمثابة النظر في عين الخوف وتحديه بشكل مباشر.

يقول عامر مطر، مدير «مؤسسة الشارع للإعلام والتنمية» إن الثورة بالنسبة له بدأت في الثاني من يناير من العام 2011 مع الاعتصام الأول أمام السفارة المصرية. مهمته كانت التنسيق مع فنان من أجل كتابة لافتات يحضرها لاحقاً إلى مكان التظاهرة. مطر، الذي درّس الصحافة في جامعة دمشق، وبدأ عمله الصحفي، كان يمتلك كاميرا ولكنه لم يتجرأ على إحضارها. بعد ذلك، في التظاهرة أمام السفارة الليبية في شهر فبراير، أحضر الكاميرا ولكنه لم يستخدمها. يقول «وحدهم عناصر الأمن كانوا يصورون مستخدمين كاميرات هواتفهم، أنا لم أمتلك الشجاعة الكافية.» حاجز الخوف هذا سقط مع امتداد رقعة الاحتجاجات. كان لا بد من التوثيق، عامر وكثير غيره بدأوا بالتصوير. عند اعتقاله للمرة الأولى في شهر آذار، اعتقلت الكاميرا معه في البداية، كان التصوير عبر استخدام كاميرات خفية بشكل أقلام أو نظارات يتم شراؤها في بيروت، وتبلغ قيمة الواحدة منها حوالي المئة دولار. أسبوع بعد أسبوع راحت بقعة الناشطين تتوسع بموازاة تحسن نوعية المادة التي كانوا يقدمونها.

«عندما حصلت على كاميرا، شعرت أن لدي مسؤولية كبيرة، وإن أموراً مهمة تعتمد علي، لم أشعر أن شجاعتي استثنائية، كل من كانوا من حولي كانوا مثلي،» تقول ريم حلب، التي أصيبت بطلق ناري أثناء تصويرها لزميل لها كان قد سقط هو الآخر بنيران النظام في تظاهرة أمام جامعة حلب.

في البداية كانت المادة التي عمل الناشطون على «سرقتها» بضعة دقائق من المادة الخام، غير المهنية، وفقاً لأية معايير. مع الوقت صارت المشكلة بكثافة المادة، ما فرض على الناشطين أن يبدأوا هم بعملية المونتاج (القص) لإرسال أفضل ما لديهم، وصولاً إلى كتابة النصوص وتحضير التقارير الكاملة.

سوء «نوعية الصور» تقنياً وفتياً، على الأقل خلال المرحلة الأولى من الثورة، دفع ناشطون آخرون إلى الابتكار من أجل إسماع صوتهم وتثبيت صورة ثورتهم متكئين بشكل أساسي على وسائل التواصل الاجتماعي. فكانت عشرات صفحات

الفايسبوك وآلاف المقاطع على يوتيوب (حتى شهر يوليو من العام 2012 كانت شبكة شام الأخبارية وحدها قد نشرت أكثر من 122000 مشاهدة وحصدت أكثر من 32 مليون مشاهدة) وكانت «الصورة» حافلة بكل أنواع الفنون من الدمى والرسوم المتحركة إلى الجرافيكس والجرافيتي إلى الموسيقى والفيديو كليب. «الصورة التي سعى الناشطون إلى نشرها» صارت مع مرور الأسابيع والأشهر بمثابة توثيق لمراحل واشكال مساهماتهم من جهة وتأثير هذه المساهمات على حياتهم الخاصة من جهة أخرى.

«فاجأتنا الثورة، كل هذه الطاقات، كل هذا الإبداع... فاجأتنا أنفسنا، وهذا إنجاز لا عودة عنه.» تقول علا رمضان.

«معركة الصورة» التي بدأ الناشطون وكأنهم يكسبوننها بسهولة، لم يتنازل عنها النظام الذي سعى هو الآخر إلى تفعيل ماكيناته الإعلامية والدعائية لتشويه «صورة المعارضة» من جهة (عبر تقارير قصيرة ومطولة مفبركة لدعم نظرية أن المعارضة عبارة عن عصابات مسلحة مأجورة من الخارج) وتجميل «صورة العائلة الحاكمة» من جهة أخرى (صور الرئيس وهو يزور حمص، فيلم السيدة الأولى وهي تستقبل أمهات الشهداء في عيد الأم وهو إنتاج أعاد إلى الأذهان إلى حد بعيد «صورة تحقيق مجلة فوغ» تحت عنوان «زهرة الصحراء» عن السيدة السورية الأولى أسمى الأسد، والذي اضطرت المجلة بعد أشهر على بداية الثورة أن تسحبه وتعتذر عن نشره).

### ثورة من دون قائد... أبطال «خارج الصورة»؟

من جهة إذاً، النظام الذي لم يوفر جهداً لتثبيت «صورة القائد»، وعند المقلب الآخر داعش التي تقوم بالأمر ذاته، إذ إن «صورة البغدادي» مثلاً، بداية كقائد وصولاً إلى موقع الخلافة، كانت قد دمغت في الأذهان حتى قبل ظهوره العلني الأول.

بين النقيضين ضاعت «صورة القيادات» في صفوف القوى المعتدلة على الرغم من أن أي من المناطق لم تفتقر إلى أبطالها المحليين. أغلب هؤلاء استطاعوا أن يفرضوا قيادتهم كرموز للثورة بعد مقتلهم أو غيابهم القصري. ينطبق ذلك على مروحة الناشطين من باسل شحادة إلى رزان زيتونة ورفاقها مروراً بالأب باولو، وعلى من وصلوا إلى مراتب القيادة العسكرية على الجبهات بعد ان

كانوا في الصفوف الأولى أيام التظاهرات السلمية امثال محمد حاف في سراقب أو الضباط المنشقين أمثال عبد القادر الصالح (الحجي مارع) ويوسف الجادر (أبو فرات).

جزء من عدم بروز هذه الشخصيات على المستوى الوطني كان وجوب السرية بالعمل تفادياً لاستهداف النظام، وهو الأمر الذي حصل بالنتيجة بكثير من هذه الحالات. ولكن جزء من ذلك أيضاً متعلق بنزعة لدى السوريين برفض فكرة «القائد» الواحد أو حتى بـ «حصر الصورة» بشخص واحد. يرى طلال ديركي، مخرج فيلم «العودة إلى حمص» أن غياب «القائد» مشكلة كبيرة في الثورة، وأساسها أن السوريون رفضوا صورة «البطل» الخارجي فيما الداخل «حقل ألغام» لم يسمح بحماية «القادة» ولا بحماية إنجازاتهم.

«نحن مخترقون حتى النخاع الشوكي»، يقول طلال في الحديث عن القيادات متوقفاً عند قصة بطل فيلمه عبد الباسط الساروت كواحد من أبرز وجوه وأصوات الثورة السورية. نجم كرة القدم الذي قاد التظاهرات في حمص، مغنياً إلى جانب امرأة علوية هي الممثلة فدوى سليمان. الطليعي في حمل السلاح دفاعاً عن ثورته... آخر الخارجين من حمص بعد حصارها الذي ظهر مؤخراً بصورة المناصر لجبهة النصرة.

«عبد الباسط كان قاب قوسين أو أدنى لكي يكون رمزاً للجميع، لكن تجربة الحصار وقسوتها لم تترك له غير أن يكون لفئة ذات توجه ديني... مات كل من كانوا معه وجاع وانهمز، والنصرة أوتته وحمته من عملاء النظام داخل الحصار. نحن كنا في الخارج، نحن وشعاراتنا وحياتنا الجميلة تركناه وحيداً».

بحسب من يعرفونه عبد الباسط الساروت لم يذهب إلى النصرة إنما أشاد بهم وفق تجربته الشخصية، وهو لن يكون سلفياً، بل انه يروج لـ «صورة» انه صار سلفي في بحث عن انتصار ما، أو تبرير ما.

إنه يدخل إلى «ما بقي من صورة ثورته» ليكون هو «داخل هذه الصورة» ما بقي من ثورة آخرين كثر مثله لم يجدوا لهم مكاناً لا في صور معارضة الخارج، ولا تحت رايات الجهاد السوداء.

## «ثورة الصورة»

«الصورة» من دون شك قاتمة، ولكن الاعتماد عليها بشكل كامل لتقييم الوضع خاطئ اليوم، وبنفس مستوى الخطأ قبل الثورة، يوم كانت «الصورة» تدل على أن شؤون سوريا بخير. وراء «خير» سوريا كانت نواة كل ما كشفته السنوات الثلاثة الماضية، وهنا «معركة الصورة المقبلة».

فبموازاة تراجع الدور الخبري للصورة، تقدّم دور آخر قد يكون أكثر أهمية، أقله على المديين المتوسط والطويل. فننون الكاميرا التوثيقية منها والسينمائية أثبتت أنها «الورثة الشرعية» لـ «صورة الثورة السورية». تجربة فيلم «العودة إلى حمص» الذي عرض في مهرجانات عالمية، وحاز على جائزة الفيلم الوثائقي الطويل في مهرجان ساندانس لم تكن الوحيدة، إذ إن عددا كبيرا من المصوّرين الهواة انتقلوا إلى مرحلة إنتاج الأفلام الوثائقية. حتى المحترفين أصلاً كان عليهم إعادة النظر بما يقدمونه. تجربة مجموعة أبو نضارة التي تأسست قبل عام من اندلاع الثورة في سوريا بهدف تقديم صورة بديلة عن الحياة في سوريا خارج إطار الإعلام الرسمي والرقابة، جديرة بالوقوف عندها. المجموعة التي حصدت جائزة أفضل فيلم وثائقي قصير في مهرجان ساندانس عن فيلم «سورية: يوميات الزمن الحاضر» قدّمت منذ بداية الثورة، وبشكل أسبوعي أفلاماً قصيرة نجحت من خلالها بأن «تحرّر الصورة» من سياقها الواقعي لتغوص في عمق الأحداث ومنها إلى عمق المجتمع السوري.

يقول شريف كيوان المتحدث باسم المجموعة إن أهم ما جرى على مستوى «الصورة خلال السنوات الثلاثة الماضية» كان خلق علاقة مباشرة بين السينمائيين والجمهور الواسع. الأمر الذي كان مستحيلاً قبل الثورة، من جهة لأن النظام كان يمنع أي مخاطبة مباشرة للجمهور العريض، ما جعل من هذا الجمهور في كثير من الأحيان جمهوراً افتراضياً غير مضمون الوجود. ومن جهة أخرى لأنه لم يكن هناك من وسيلة إعلامية تشجّع على الإنتاج خارج إطار المواضيع المتفق عليها: معارضة، دين، إسرائيل.

فكرة الأفلام التي أعطت دور البطولة للسوريين العاديين كانت: إن المشاهد، أينما وجد، وأياً كان موقفه، مما يجري في سوريا، يجب أن يفكر بنفسه عند مشاهدة «الضحية السورية». الأمر الذي ينقل «صورة ما يجري في سوريا، من الحضيض

اليوتيوبي، إلى ذاكرة الإنسانية جمعاء.»

«الكاميرا هنا تجسد العلاقة بين المخرج والجمهور المفترض، قبل الثورة كانت الكاميرا ذليلة لأن المخرج عينه ترف، والجمهور مختبئ، بعد الثورة صار لها أجنحة، لأن المخرج ينظر إلى الواقع بعين ثابتة وهو يعلم أن الجمهور ينتظر منه نظرة جذرية من دون موارد.»

النظرة الجذرية هذه لا تخلو من الأمل. فالمساحة للأمل والحب والخيال موجودة في أفلام أبو نضارة... وهي موجودة في حياة هبة خالد التي فقدت ثقتها بالعالم الذي لم يفعل شيء أمام الصور التي ساهمت هي بتهريبها، ولكنها لم تفقد ثقتها بالثورة، وما حملته من ثورات شخصية تساهم هي اليوم بحفظ ذاكرتها. «الصورة لم تعد للحاضر، إنها للتاريخ»، لو لم تكن الكاميرا، لما كانت لي ولا لأي من السوريين ذاكرة... المهم أن لا تسقط الكاميرا، عندها فقط، ينتهي الحلم.»





# الاستشفاء من شراسة السرطان

## بمطلع الربيع العربي

فوزية أبو خالد

رائحة حرية في الإرجاء

فمن يحدس إتجاه الرياح

2011/1/11م

هل كنت أحدس ولو بنسبة واحد في الألف وأنا أستقبل العام الميلادي الجديد بنزق وغرور فيما أتقل بين مضائق الواقع وفضاءات العالم الافتراضي مزهوة بصخب الشباب على الفيس بوك وتويتر وهم يثرون بذور الربيع العربي في البر والبحر والأطراف المهملة من البلاد، غير ما كان يمشي في دمي من نشوة شرارة البوعزيزي التي أشعلت عرس تونس وأطلقت رائحة الحرية في الجهات، بأنني بعد أقل من أسبوع سأنتزع نزعا من مساري الحياتي الأمن المعتاد ومقاوماتي اليومية المتواضعة لأمشي وحيدة ولكن مع الملايين في موكب مقاومة جماعي وشرس.. هل كنت أحدس ولو في أشر أو أعذب الأخيلة بأنه بعد شهر واحد فقط ستكون يدي المغموسة في أغوار البحث، المشغولة بمس مفاتيح لوحة المحمول، معلقة بجانب كجناح مقطوع لا أستطيع الهرب من صرخات آلامها ولا البقاء مع حرمانها من الحبر، فيما اللافتات والهتافات والشببية وأصابع الشعب المصري العشرة وعيون الشباب العربي والأحرار كلها تكتب تاريخ تحرير جديد في ميدان التحرير. «الشعب يريد إسقاط النظام... شدي حيلك يا بنت شد حيلك يا ولد دي البلد بتولد. الفجر قرب والشباب صاحي صاحي صاحي طيبي ياااجراحي طيبي ياااجراحي». صارت تلك الكلمات العفوية ملقاة عسل أقاوم بها علقم الوجد الضاري الراكض في صدري.

لقد كتب لي الشيخ عبدالمقصود خوجة (مُكرم المثقفين)، بعد أن فقد ابنه في شرخ الشباب وخبر مقتل الطالب الجامعي خالد سعيد بالإسكندرية يسترح

جرحه: «ليت لنا حياتين، حياة نعيشها وحياة أخرى نتأمل بها حياتنا ومفاجأتها الفاجعة أو لحظات الحنان التي تأتي من حيث لم نحتسب».

صرت كل يوم أصحو على وقع الآمي وركضي بين محاضراتي وبين فحوصاتي الطبية المفاجئة، أتفحص الحدث اليومي البسيط في حياتي والحدث السياسي الملتهب أمامي وأشعر بأنني وأنا في هذه اللحظة التي قد أكون فيها مهددة بالموت بدأت للتو أعيش أكثر من حياة دفعة واحدة. حياتي، والحيوات الصاخبة المتموجة بأكثر من جيل نائر أمامي وداخلي في الفيس بوك وعلى قناة الجزيرة وعبر جهازني العصبي ودمي.

فيما كنت أنتظر نتيجة الخزعة وصلتني رسالة الزميل الباحث أ. د. عبد الوهاب بن حفيظ

يقول فيها أكتب لك من تونس الحرة وقد استجاب القدر.

فرددت هل تظن أنها نبوءة شاعر غادر الحياة وهو في شرح الشباب بعد أن وهب حياته للشعر أو أنه بوعزيزي الذي انتزع لتونس أسباب الحياة بموته. لعلها الحرية التي عبر التاريخ البشري لم تقبل ولا تقبل بأقل من استبدال الموت بالحياة مهرا لها. فسلام لحرائر وأحرار تونس لريثما يحولون الحرية إلى حقيقة تمشي على الأرض برأس مرفوع وهذا هو التحدي لنا جميعا.

الحمد لله أن وهب الله جيلنا عمرا لنعيش ولو بالمشاهدة مشهد الثورات التي تفتقت عيوننا على ضوء القراءة عنها من ثورة الغار التي مثلتها الرسالة المحمدية إلى ثورة الأنوار التي انطلقت من فرنسا في مشتركات التوق الإنساني للحرية والكرامة والعدل واللقمة الحلال، بعد أن فقأ عيوننا سقوط شعارات ثورات الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ونهبت أحلامنا أطماع أنظمة العسكر الواحد تلو الآخر بعالمنا العربي، بما كاد أن يحول في جيلي على الأقل الحلم بالتحولات إلى مستحيل رابع أو سابع.

نتيجة الخزعة إيجابية، كانت الفجيرة ستكون ساحقة لولا أنها ولدت على حافة البركان وفوق قمة جبل شاهق يبشر باندلاعات مطلع الربيع العربي.

## يوم 25 يناير

شعب مصر يستعيد مصر من الظل ويعيد شمسها على الخارطة العربية وعلى الشاشات العالمية. فبعد أن جرت بشكل منظم محاولات جر مصر بعيدا عن موقعها التاريخي الطبيعي وإدخالها في معزل قطري يسلمها لشروط الجيرة الجائرة للاستعمار الإسرائيلي الاستيطاني على أرض فلسطين فهاهي مصر كما جاء بجريدة الإنديبندنت اللندنية تعيد النظر فيما تعرّض له دورها التاريخي من بطالة وتسريح بعد مرحلة كانت مصر بوصلة العالم العربي.

أخوض معركتي الذاتية مع ظرف الصحي المبالغت الغادر بما يكاد يغيّر عاداتي المتأججة التي لا تهدأ عادة في العلاقة مع الواقع ومع ما حولي وبمن حولي. إلا أن تزامن هذا الظرف الشخصي مع حالة الغرق في مدينة طفولتي جدة ومع حالة الاشتعال الوطني الحارق بمصر يجعلني أرفض الانسحاب من المشهد المشتبهى. فمن يرضى بالنزول عن السفينة وقد فار التنور إلا أولئك الهالكون الذين ليسوا من أهل نوح.

يخوض طالباتي معركتهم البحثية الذاتية الفذة مع دراسة أطروحة الإصلاح بالمجتمع السعودي دراسة نظرية ميدانية من منظور علم الاجتماع السياسي، فأجد نفسي كشريكة مباشرة في العمل وكمشرفة عليه متورطة إلى ما فوق حبال رقبتني في الذود عن المشروع بكل قطرة من وقتي الراكض ضدي.

## الأسبوع الثالث من عام الأمل

2011 / 2 / 7 م

شباب مصر

نساء مصر

فقراء مصر

مثقفو مصر

مسلمو مصر ومسيحيوها

شعراء مصر

أطفال مصر

دعاء

لا عدمتكم الشجاعة ولا الكرامة ولا البصيرة ولا الصبر

لا عدمتكم الحرية ولا الإباء ولا عزة النفس والأوطان

وأنتم تحفرون اليوم اسم مصر على جبهة التاريخ بحروف الخلود

وأنتم تكتبون المستقبل للعرب ولعشاق الحرية جميعا بحبر الروح وأطياف  
وتسيرون إليه على طريق موحشة ولكنها أهلة بأهل الأمل، وعرة لكنها معبدة  
بالتضحيات وعرائس الحلم. هذا الجزء الواضح الشفيف من المشهد المدهش  
الذي يأتينا مطعما بالعرق والدم عبر شاشات العالم حاملا صوت الحق ونداءاته  
الندية الحرة، محمولا على أكف وأكتاف الشرفاء و الشعب المصري المجيد. أما  
المشهد الغامض الملتبس فهو الكثير من القراءات المرتبكة لما يحيط بهذا المشهد  
من احتمالات لا تتحمل انتصار الشعب المصري وترى أن مثل هذا النصر تهديد  
لمصالحها التي لا تستقيم مع إقامة دولة العدل والحق والكرامة والقانون والنظام،  
وترى في استقلال الأوطان بداية انكسار شوكتها وانحسار هيمنتها. ولهذا فليس  
لي ولنا على امتداد العالم العربي الذي يتابع بشغف وشجن أو بإشفاق ورجاء ما  
يجري على الساحة المصرية من بطولات شعبية وحملات مسعورة مضادة، إلا أن  
نثق ببطولات مصر وسحرها الحلال العابر للقارات ونثق في حق الشعوب لخوض  
تجربة وإن بدت مغامرة غامضة غير السير في هوى أرباب السوابق السياسية المخيبة  
والمخزية.

فواجب الفهم والاستيعاب وتحري التحليل الموضوعي والاستشراف هو  
أقل ما يمكن أن نسهم بتقديمه للشعب المصري وللغد العربي والإسلامي القريب  
والبعيد الذي أراهن أنه لن يبقى مع انطلاقة العقد الثاني من الألفية الميلادية الثالثة  
وبعد ثورة الشباب في تونس ومصر على نفس منخفض ذلك المسار المنكسر  
المتعرج. أما اتجاه المسار الجديد أو اتجاهات المسارات الجديدة فهذا هو تحدينا  
الأكبر الذي لن نستطيع مواجهته بخبراتنا السابقة في التسليم بسياسة الأمر الواقع ولا  
بتجربتنا التي طالما كانت عرضة للخيبات وللتخلي السريع عن هدف عنيد وبعيد

في آن. لذا فلا بد للفكر والرأي من التفاعل الخلاق مع الواقع والعكس، في ضوء عدم الحياد عن الأساسيات المبدئية لحياة إنسانية شريفة وكريمة. لست أدعي ولا لأحد أن يدعي امتلاك فصل الخطاب في هذه اللحظات الدقيقة بين مرحلة التشظي ومرحلة الاستشراف ولذلك فإنني أكتفي هنا بشرف طرح الأسئلة احتراماً لطراوة جرحي وحرية عقولنا واستجابة لداعي التفكير في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة.

الأربعاء 2011/2/9

اليوم الثاني بعد الجراحة:

بالكاد رفعت أهدابي لأتلمس ببصري معالم الهضبة أو الساحل الملقى عليه جسدي، عل إشارة تدلني في أي مكان من كمين الأمكنة تركتني أو وجدتني. هل أنا بولاية ميرلاند بمدينة بلتيمور في جون

شراسة الساعات الطوووويلة البطيئة التي قضيتها على كرسي جلسة الاستشفاء مقيدة بقضبان من صلب وحديد، تحك جمجمتي طاقية من مسحوق الزجاج لجليد يفور بمعدل خمسة درجات تحت الصفر. فما ينفثه ذلك الأنبوب الأفعوي من زعاف كحلي مخضر في فوهة الجرح حالة لا تشبه العنف الجسدي للكي ولا تمزق الأحشاء عند المخاض ولا عسر الانسلاخ الذي يمر به الأطفال للتحول من فراشات ونحول وأزهار إلى مواطنين صالحين في الأوطان المطبقة. إن جلسة العلاج الكيماوي حالة جافة جارفة متعجرفة من السقام اللئيم قد لا يقاربها إلا ضرب الأعناق بمعاول الكلام أو بطعنة غدر.

ابتهالاتي في سمهرير النهار وبياض الليل

«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين يا حي يا قيوم برحمتك استغيث رب أن مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

اللهم إني أمتك ابنة عبدك وابنة أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل أسم هو لك أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وذهاب حزني وجلاء همي وغمي».

اللهم إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي بل إنني معترزة بنعمة المرض. حاولت بالاستعاذة بالله وأسمائه الحسنی وبالاستعاذة بآيات من كتاب الله المحكم بصوت الشيخ أحمد العجمي الشجي عليّ أحرر روعي وجسدي من كل أسباب السبات ومن الآلام التي ما برحت تلوي حبال رقبتني وتشبك كل شريان من شرياني الدقيقة وأوردتني في أسلاك كهربائية عارية مباشرة.

فجر الجمعة 4 / 11 / 2011

### الكيد لبعد المنال بطول الأمل

إن لم يكن لي أن أكون حاضرة في أي من ميادين التحرير و ساحات التغيير، فإنه لا يليق في تقديري بتواريخ تمرد العذري وبأشواق المعتقة الطاعنة في عمر العشق الوطني أن أغيب عن سماوات الشعر، أو على الأقل ألا أحضر في مجال التحليل السياسي والاجتماعي لهذه الشلالات البشرية المنطلقة في الوطن العربي بروح فروسية خلف راية الحرية. غير أن «بُعد المنال» لا ينازله إلا ما هو أطول من عمر الإنسان وليس ذلك «لعمرى» إلا الأمل.

### الاستشفاء بمحو الحبر

بعد يوم طويل آخر لعبت فيه رحي الوجع بعظامي وسلسلة ظهري وحولت أطرافي إلى ما يشبه تراب الرياض بما جعلني في ذروة عذابي أزهو بما في تكويني من زعفران الأرض التي لا هوى إلا هواها، كنت أتطلع إلى لحظة سلام واحدة أبحث فيها عن نفسي بين نثار المواد الأسيديّة المستعرة في أعصابي من مشط قدمي إلى بصيالات حواجبي وشعر رأسي. ولكن ما لم يكن في الحساب أن أجد سلطان النوم يقف لي بالمرصاد يلوح بعصاه في وجهي، فهل يحق لي أن أغمض عيوني فيما الشعب الليبي يستमित بين مخالب الجوارح الخارجية وبين حراب الطاغية في أن يضيف صفحة جديدة إلى سفر الحرية العربية التي رمى شراراتها الأولى البوعزيزي في عروش الخراب؟. من يستطيع أن يستسلم لملمس الوسادة وإن هدمه السهاد بينما دوار اللؤلؤة يسوى بالأرض وتخلط به أوراق حسابات أقدار منطقة الخليج، وميدان التحرير حامل بأجنة التوقعات فيما يرتفع ضغطنا وينخفض تارة

حسب درجة توتر وانفراج أحلام الشعب اليمني في ساحة التغيير، وأخرى حسب مقياس ريفر للكارثة الإنسانية والنوعية في اليابان، وكان هذا العام «عام فوران التنور» على عدد من الجبهات لوجستيا وسياسيا.

«لا نامت أعين الجبناء» سهلت جملة خالد بن الوليد في دمي على أبواب درعا بأصوات أبطالها بعد أربعين عام والشعب السوري مثلما في «ضبعة تشرين» للشاعر محمد الماغوط، ليس في نور ليصحو وليس من متسع لأكثر من واحد لينام. وسط هذا الزحام الذي لا يرحم العزل إلا من العلاج الكيماوي، لم يكن لي إلا أن استحي من قرائي وعشاق مفاتيحي وأخجل مني لو أنني سمحت لنفسني بعد ذلك العناء المضني الذي اضطرني للانسحاب عدة أسابيع أن أخلد للنوم. لم يتطلب الأمر إلا أن أتخذ قرارا صغيرا شجاعا بأن أقاوم رشاوي النعاس بين جلسات العلاج فاكف عن التثاؤب و أشق عصا الطاعة على الميتة الصغرى التي تلوح أمامي أو ربما في مخيلتي ليس إلا، لأعود إلى الاستشفاء بالكتابة لمقاومة هذا الزائر الخبيث وإخراجه بإرادة الله إلى غير رجعة.





# المرأة السورية والثورة المضاعفة

## خولة دنيا

عندما يبدأ القتال، تتعد النساء إلى الخلف.

الخلف لا يعني اللامكان، فقد يعني المكان تماماً ولكنه المكان المخفي، المكان الأكثر أمناً، الأكثر حمايةً، والأكثر عملاً في أحيان كثيرة. هو المكان الأشبه بخلايا النحل، حيث تكوّن النساء شبكتهن الخاصة بهن، بدأب وصبر واستمرار، لا يعيقهن المشهد العام وما يحمله من يأس، عن إكمال التفاصيل التي تعني الحياة يوماً بيوم وساعةً بعد ساعة.

عندما نزلنا لأول مرة في المظاهرات كانت مشاركة النساء محدودة، تراهن متجمعات في أماكن صغيرة على بعضهن البعض، يتم التعامل معهن في أحيان كثيرة بحماية مطلقة، حيث ترى شبكة من الأيدي المتقاطعة والمتشابكة لشباب غيورين يحاولون حماية مجموعة من النساء اللواتي يهتفن بهتافات الجميع، ورفض الجميع ومطالب الجميع. الخروج من هذه الدائرة المغلقة كان يحتاج لثورة أيضاً.

صراع المرأة منذ بداية الثورة كان واضح المعالم، فهي تريد التغيير، وتريد الكرامة وتريد الحرية. ولكن التعامل معها بقي كما هو، كعنصر أضعف يجب أن يغيب عن الصورة العامة لصراع الرجال بين بعضهم البعض، ما لم يكن إدخالها من باب كسر العظم وإثبات الغلبة لطرف على آخر.

في أحيان كثيرة تمّ النظر إليهن كلون مختلف للثورة يجب أن يظهر بين حين وآخر، وهذا انسحب على التعامل مع الأطفال كذلك، فتمّ استغلال الهمجية الممارسة تجاههم وتجاههن لإثبات وجهات النظر لدى المتصارعين من الرجال. لكن كثيرات من النساء رفضن أن يكن في خلفية المشهد، فكانت لهن تظاهراتهن، كما كان لهن معتقلاتهن، وشهيداتهن. كانت لهن حكاياتهن الخاصة، عن الموت، التعذيب، الاعتقال، الاختفاء، مواجهة النظام، كما مواجهة القوى الظلامية في المناطق التي وقعت تحت سيطرتها بعد تحررها من سطوة النظام.

قد تكون المعاناة الأفظع التي تعرضت لها النساء، هي استخدام العنف

تجاههن لأغراض سياسية، ومن بينها الاغتصاب الذي تم توثيقه في حالات الاقتحام الواسعة لبعض المناطق، فكان أداةً سياسية الغرض منها، إذلال الناس وإجبارهم على الخروج من تلك المناطق، من خلال إذلال النساء واغتصابهن. لكن هذا كله لم يمنع النساء من العمل المستمر في مجالات كثيرة، حتى لو كان الثمن الاعتقال أو الموت.

في بداية الثورة كان هناك سعي لتعويض ما فات من البعد عن السياسة، فأقيم الكثير من التجمعات المدنية النسائية، حيث تم نقاش أمور تتعلق بالقوانين والدستور والحقوق، وحيث تم طرح مشاكل النساء، ومعوقات تقدّمهن، ولماذا يجب أن تشارك المرأة بالثورة في سوريا.

ولكن مع اشتداد الوضع سوءاً، دخلت النساء في الهمّ اليومي المباشر بكل أشكاله وتبعاته، من الإغاثة إلى التمريض، إلى النزوح، إلى العمل في مجالات التعليم البديل، وورشات تمكين المرأة، والدعم النفسي. فكنّ بهذا المعنى الرافعة الحقيقية للمجتمعات الجديدة التي تشكلت بسبب النزوح واللجوء. وساعد في هذا الغياب الكبير للرجال بسبب الدخول في الحرب، أو بسبب الاعتقال أو الخوف من الظهور العلني.

فأصبح لدى النساء شبكات التواصل الخاصة بهن، كما شبكات التواصل بمشاركة الآخرين. لديهن جلسات نقاشهن، وفاعليتهن، وصوتهن الذي لا يمكن إنكاره.

صحيح أن النساء لم يتلقين الرصاص كما الرجال، ولكنهن قدمن حصتهن من الدماء كما الرجال، كُنّ أمهات ثكالي، وأرامل متحملات، وبنات صابرات لشهداء يتساقطون في كل لحظة..

لكن هذا لم يتجلّ للأسف على الصعيد السياسي، فلم تجن النساء الكثير من خلال مشاركتهن الفاعلة والمستمرة، فمن جهة تعامل معهن النظام، كمعارضة درجة ثانية، لا تخيف، ولكن يجب قمعها. ومن جهة أخرى تعاملت المعارضة معهن كذلك بنفس المنطق للأسف.

ويلاحظ هذا في نسب المشاركة في التجمعات التي أسستها المعارضة، حيث

كانت نسبة النساء المشاركات في كثير من الأحيان محددة سلفاً، وتم قبولها كنسبة مشاركة للمرأة كمرأة، وليس كمعارضة لها رأياً ووزنها ومشاركتها. ينسحب هذا على التكتلات السياسية كلها، من هيئة التنسيق، ثم المجلس الوطني، ثم الائتلاف، كما في المنبر الديمقراطي، أو لاحقاً القطب الديمقراطي. وعلى الأرض كذلك، نرى نفس المشكلة، رغم تماس ما تمّ تشكيله مع الواقع المباشر، ومشاركة النساء فيه بكل قوتهن. فالمجالس المحلية التي تمّ تشكيلها في المناطق المعارضة لم تقبل مشاركة النساء إلا بالنادر، ويتم إرجاع ذلك إلى الطابع المحافظ لتلك المناطق التي انبثقت فيها تلك المجالس.

في المجال العسكري لا يمكن الحديث عن الموضوع، رغم اللعب عليه من قبل جهتين: النظام الذي شكّل جيش الدفاع الوطني من مواليه وشيخته، وكان للنساء حصة فيه، حيث أظهرهن في أكثر من مناسبة باللباس العسكري والسلاح والتدريب الصارم. ولكن لم نراهن على جبهات القتال. وفي المعارضة كذلك فيما تم الاتفاق على تسميته (داعش) وعملياتها الانتحارية ومحاولتها إظهار بعض النساء راغبات بالاستشهاد، يتدربن لهذه الغاية، ويتم استخدامهن لتفتيش النساء في كثير من المناطق والمعابر.

إذن هي المرأة تدفع الثمن مرات ومرات، ويتم استغلالها مرات ومرات. إن إردنا للثورة أن تكون للقضاء على التمييز ضد المرأة، فهو ما يجب أن نختبره في مراحل لاحقة في المستقبل، حين تهدأ الحرب، ويبدأ بناء الدولة. وهو ما يتطلب ثمناً أكبر، على نساءنا أن يعين أنهن سيدفعنه الآن ولاحقاً، وعليهن أن يكن مستعدات لهذه التضحيات.

في فترات مختلفة وعت النساء السوريات أهمية استقلالهن وضرورة تواجدهن في كيانات تطالب بحقوقهن، فظهرت تجمعات عدة للنساء، غير أن هذه التجمعات على أهميتها بقيت بعيدة نسبياً عن المشاركة الشعبية، وقد يكون السبب في هذا، أن هذه التجمعات جذبت النساء الأكثر اهتماماً والأكثر مشاركة سابقاً في الهم النسوي، وأكثر وعياً لقضايا النساء وكيفية المطالبة بحقوقهن. بالإضافة إلى عدم وجود حواضن شعبية تتمتع بالاستقرار والأمان النسبي للعمل ضمنها.

لا يمكن التعويل على هذه التشكيلات بمعزل عما يجري على الأرض، كما

لا يمكن التعويل على تشكيلات لا تضم الفيسفساء السوري ومكوناته، وإلا فكيف سيتم تغيير الوعي الجمعي النسوي السوري؟

قد تكون الخطوة الأهم هي المطالبة والتأكيد على وجود المرأة في مراكز صنع القرار، وخاصة في التشكيلات المعارضة التي ظهرت، وفرض نسبة مشاركة للمرأة لا تقل عن 30٪ في هذه التشكيلات، وعدم حصر دور النساء في قضايا تعتبر مجالهن الحيوي، أي قضايا المرأة والطفولة، بل فرض وجودهن في القضايا المصرية المتعلقة بمستقبل البلد ودستوره وقوانينه. رغم ما نسمع من قول أن الوقت الحالي ليس لمثل هذه التفاصيل، وأن الهم الأول هو التحول الديمقراطي والبدء ببناء الدولة.

غير أن غياب المرأة عن تحديد مصير ومستقبل البلد، سيؤدي تالياً لغيابها عن حقوقها عند وضع الدساتير والقوانين.

إذن هو صراع تدفع فيه نساؤنا ثمناً كبيراً اليوم، وثنماً أكبر سيدفعنه تالياً. نحن نراهن على عودة النساء للاهتمام بكل ما يمسه حياتهن ومستقبلهن ومستقبل أطفالهن، كما نراهن على قدرة النساء على المشاركة رغم اختلاف الخلفيات العائلية والدينية والمناطقية، لا يهم إن كان وجهها مغطى، أو محجب أو سافر. فاللحظة تفرض نفسها عليها وعلى محيطها لتقوم بأدوارها المتعددة، ويجب أن لا تقبل بدور الدرجة الثانية أبداً.

وعلى الرغم من أن صوت الرصاص والموت والدمار هو ما يعلو اليوم، إلا أن المراهنة لليوم والمستقبل سيكون بأن المرأة هي صوت العقل، كما صوت البناء والمستقبل.

وعندما تزداد صرخات الثأر، ستكون هي صوت الحكمة. هكذا كانت أبداً وهكذا ستكون اليوم وغداً.

النساء اللواتي عرفن طعم الحرية، وعرفن ثمنها، وقدمن كل ما يملكن من أجلها، لا يمكن أن يعدن إلى الوراء، فهن جزء من التغيير الحاصل، كما هن جزء من المستقبل الذي يحتاج كل مكونات المجتمع للوصول إليه، فالثورة كانت على كثير من التابوات التسلطية والمجتمعية والطبقية والتمييزية. والنساء وعين هذا ولن

يقبلن العودة إلى بيوتهن خاليات الوفاض.  
وحتى نتصر ويتصرن ويتصروا... ما زال السوريون والسوريات يدفعون  
الثمن غالياً، دماً ودماراً وفقداناً ونزوحاً ولجوعاً ووجعاً يومياً مستمراً بالتنزيف.



## نور طفلة لاجئة «بيتها» مغسل الموتى...

### تشبهني أو تشبه سوريا

#### هند رجوب

أصوات قصف متقطع ومشاهد للدمار الهائل رسمت ملامح مدينتي حمص التي تعد مسقط رأسي. دخان أسود متصاعد من الريف الدمشقي أراه من شرفتي «الخائفة» التي تركتها على أطراف حي الميدان بدمشق حيث أعيش مع عائلتي. ففر بسبب الحرب وقصص تكاد لا تنتهي عن أرواح صعدت إلى السماء لن تكون لي أبداً مجرد أرقام. وجه سائق التاكسي الخائف الذي أقلنا من كراج السومرية شرق دمشق إلى نقطة عبور المصنع في لبنان. شريط ذاكرة كاد أن يعطب ويتوقف حين الوصول افتراضياً إلى البلد الآمن وتلك البيئة الحاضنة للسوريين حسب وصف بعض المعارضين أو حتى المؤيدين للنظام.

اعتقدت أن أشهراً قليلة قد تكون كافية لعودة الهدوء إلى دمشق أو إلى سوريا كلها. وأعلنت هنا في بلد وصفنا بالنازحين وليس باللاجئين أنني أبحث عن نساء أو أطفال بحاجة إلى مساعدتي كمعلمة، أو بحاجة إلى طرق الإرشاد إلى منظمات الإغاثة التي تساعد السوريين الهاربين من الموت.

السكن أصبح مؤمناً لي ولأمي، وكذلك جردة حساب لما نملكه من نقود قد تكفينا لتلك الأشهر التي اعتقدت أنها كافية حتى عودتنا إلى سوريا.

بدأت التعليم بعد أشهر من قدومي إلى لبنان كخيار أخلاقي تجاه الأطفال السوريين المنتشرين في القرى والبلدات القريبة من سكني. وحتى اليوم ورغم تلك الخيبة بمرور أكثر من عامين على الأحداث في سوريا لم تتوقف مشاهد الدمار والموت، فاكشفت متأخراً أنني كنت ساذجة التفكير عندما اعتقدت أن الأمور ستنتهي بأشهر.

من القصص المؤلمة التي شاهدتها خلال عملي التعليمي والإغاثي، قصة الطفلة نور، وهي طفلة سورية من حي الحجر الأسود في دمشق.

لم تعرف نور التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها «مغسل» الموتى إلا بعد أن



وصلت مؤخراً مع عائلتها إلى لبنان هرباً من قصف النظام لحي الحجر الأسود بدمشق.

قالت لي في المرة الأولى حين التقيتها بينما كانت تلعب قرب «مقصورة» الموتى: لقد نسيت «الدكان» والشراء منه و«ما معنى مصاري». تحاول الدخول والخروج من الباب الرئيس لمبنى غسل الموتى ولا ألعاب تذكر في المكان لطفلة نسيت معنى الفراغ أو حتى معنى المدرسة. فقط رائحة الموت وحده دخلت روحها وتغلغت بين أغراض العائلة الموزعة هنا وهناك.

وأخذت أتقصد زيارة البلدة الصغيرة حيث تسكن نور لأرى ما حل بعائلتها، وهل تحقق حلم الأمان لطفلة لا تعنيها حروبنا أو حروب الآخرين.

كانت تسمع أطراف الحديث مع والدتها ووالدها «بدنا خيمة» طلب رده والد نور عشرات المرات أمامي، عندئذ نام الحزن في عيون نور ونظرت إلى البعيد، أخبرني والدها آنذاك: «صار لنا في هذا المكان ما يقارب الأسبوع، حين هربت مع أطفالنا من الحجر الأسود وبقيت زوجتي محاصرة هناك إلى أن حضرت منذ يومين وكما ترون هذا المكان لغسل الموتى».

آلاف الأطفال السوريين في لبنان يعانون مثل نور بدءاً من تحطّم طفولتهم من الجوع والفقر وندرة التعليم رغم كل ما يقال عن نشاطات الجماعات والمنظمات الأهلية.

قلت لنور لماذا لا تنامون في بيت غير هذا المكان «ابتسمت ولم تجب» صاحت بها والدتها بأن تجلب إبريق الشاي من «تحت» الطنجرة المركونة على «المقصورة»، غادرت مسرعة فقالت الوالدة: «منذ عامين زوجي لم يعمل كان يستدين من هنا وهناك وحين وصلنا لبنان لم يكن معنا إلا إيجار الطريق.. كيف لنا أن نستأجر بيتاً».

مغسل الموتى كما رأيت مبعثراً بفوضاه يشبه حياة العائلة التي تسكن فيه حين هربت من الموت لتسكن في مكان يحمل الرائحة فقط، ألبسة مرمية على الأرض وشيء يشبه الطاولة وألبسة منشورة على حديد «المقصورة»، وحتى اليوم لا بديل مفرح لتلك العائلة، لا في السكن ولا بوجود لقمة العيش.

في جلسة مع والد الطفلة نور حكى لي عن الاتفاق الذي جرى بينه وبين أهل البلدة يقضي بأنه إذا توفي أحد من البلدة على عائلته أن تخرج أغراضها من المغسل وذلك لتتم مراسل الدفن، وبعد الدفن بإمكانهم أن يعودوا، وكل ذلك ريثما يؤمنون منزلاً أو خيمة.

نور أخبرني همسا حين كنت أزورها ما بين فترة أو أخرى بأنها.. تتمنى أن يبقى الجميع أحياء ولا يموت أحد في البلدة حتى يسقط النظام وتعود إلى منزلها في حي الحجر الأسود... فكرة وربما حكمة وأمنية تنتهي حين تعلن في الأيام المقبلة إذاعة مأذنة المسجد القريب: يا إخوان توفي اليوم.. أخوكم بالله.

لم تكن قصة الطفلة نور حكاية عابرة بالنسبة لوجودي كلاجئة في لبنان بل كانت تختصر حالات لأطفال سوريين ناموا وعائلاتهم في زرائب البقر وغرف لا تصلح لسكن الحيوانات.

خلال عودتي أو ذهابي إلى حالة سورية صعبة يكون قد أبلغني عنها زملاء لي أتخيل أن البلاد وجغرافيتها قد أصبحت مغسلاً كبيراً للآموات الذين يسقطون بلا طقوس ولا صلوات.

فالموت لغة واحدة في كل دول العالم إلا في بلدي، أصبح بلا لغة أو ملامح لا بل أصبح حياة لأشخاص يعتقدون أنهم أحياء، فعدا عن كل شيء أصبح الطفل السوري «مصدراً» منافسة للكثير من العاملين في المجال التعليمي والإغاثي وأصبح مصدراً للرزق وجلب النقود، إذ إن صور الأطفال السوريين تصدرت مواقع التواصل الاجتماعي أو حتى المواقع الإخبارية، وأصبحت المنظمات الدولية تجلب الكثير من مشاريع للأطفال السوريين.

كنت أراها مشاريع فارغة الروح حين كنت التقى الطفلة نور، لا بل عديمة الجدوى حين أنظر إلى وجهها الشاحب الذي أخذ من الجدران لون القساوة والبؤس.

لم أستطع كسورية لاجئة في لبنان أن أحمي الأطفال من الاستغلال أو حتى التحرش أو حتى أن أوّمن لهم الحماية التعليمية أو أمنهم الغذائي، لم أستطع إلا الوقوف بجانب حالات معدودة وكأني أراوح في المكان، وعادة ما تعود الصورة

المؤذية لروحي صورة سحب الدخان القريب من شرفتي بدمشق أو صور الدمار الذي حوّل البلد إلى جسد منهك ومريض لا يقوى أن ينظر في وجوهنا، نحن السوريين العبوسين الطيبين.

بعد عامين من وجودي في لبنان أيقنت تماماً أن العمل هنا أشبه بمعجزة لكثرة الكراهية في هذا البلد، وخصوصاً تلك الكراهية التي خلّفتها أحزاب وشخصيات عكست سلوكها على اللاجئ السوري ليصبح جزءاً من بلد مقسم في المضمون ومتّحد في الشكل.

أبحث عن طرق جديدة لزراعة الأمل عند الكثير من الأطفال وحين لا أجدها أيقن تماماً بأنني فاقدة للأمل في تلك اللحظات التي أرى فيها وجوه الأطفال السوريين في لبنان والتي بدت مؤخراً دون ملامح مثل الطفلة نور ومثلي أنا وكذلك مثل سوريا تماماً... ومع كل ذلك أتابع البحث عن مجرد صوت يحمل معي همّ الوطن... البعيد القريب.

## ثورة الشباب... والنساء

مصر 25 يناير 2011

### غادة الشهبندر

يوم الثلاثاء 25 يناير اتجهت صباحاً مع ابنتي للانضمام لمظاهرة دار الحكمة مقر نقابة الأطباء المصريين. كانت تلك المرة الأولى التي تقرّر فيها ابنتي ذات السابعة وعشرين ربيعاً أن تنزل إلى الشارع معترضة على أحوال بلدنا مصر.. ذكّرتني بنزولي للمرة الأولى في مايو 2005 وفي أعقاب ما سمي بالأربعاء الأسود، حين اعتدت قوات الأمن بتوجيه من مجدي علام أمين شباب الحزب الحاكم حينذاك على المتظاهرات والصحافيات مستهدفةً إياهن بالعنف الجسدي والتحرّش الجنسي. لكن الفارق بين يوم 25 يناير 2011 ومايو 2005 والسنوات التي بينهما كان عاكساً لزخم الأعوام المنقضية والحراك الذي بدأ بنزول حركة كفاية للشارع المصري في أواخر عام 2004.

لحظة وصولنا للمظاهرة عند دار الحكمة رأيت كثير من الوجوه المألوفة التي كنت أصادفها في مثل تلك الوقفات، ولكنني فوجئت بأعداد أكبر من الوجوه الشابة التي نزلت للتظاهر ربما لأول مرة. لفت نظري أيضاً أن نسبة الفتيات كانت أكثر من المعتاد.

استمرت الوقفة على سلّم نقابة الأطباء حتى بلغ عددنا ما يقارب الألفي شخص، ثم جاءت إشارة بالتحرك من بعض الشباب في المقدمة واتجهت المسيرة نحو ميدان التحرير.

بدأت الاشتباكات مع أفراد الأمن المركزي قبل الميدان ببضعة أمتار فانفصلت عن ابنتي التي تمكنت من اختراق صفوف الأمن بينما بقيت أنا في شارع القصر العيني وبدأت متابعة عملي كمراقب للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان برصد المعتقلين وكيفية معاملتهم والتفاوض مع رجال الأمن لمعرفة أعدادهم وأسمائهم وأماكن الاحتجاز التي سوف ينقلون إليها.

استمرت تلك العملية حتى غروب الشمس ومع رحيل آخر سيارة لنقل

المعتقلين وجدت نفسي في شارع مهجور تماماً ومغلق من كل ناحية وطرف فعدت إلى منزلي على بعد بضعة كيلومترات سيرا على الأقدام.. صادفت في طريقي العديد من المظاهرات ومزيد من الاشتباكات والاعتقالات فعرفت أن تظاهرات 25 يناير 2011 لن تمر بالشكل الذي اعتدته في السنوات المنقضية.

اتجهت بسيارتي ليلاً إلى ميدان التحرير بحثاً عن ابنتي وأولادي.

كانت الأعداد في الميدان غير مسبوقه وكانت الأجواء هادئة بل واحتفالية بعض الشيء. مجموعات من الشباب والشابات تغنى وآخرون يعزفون آلات موسيقية ويدقون الطبول والهتافات المطالبة بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية تعلو.. وفجأة وقبل أن ينتصف الليل تطايرت من طرف الميدان قنابل الغاز المسيل للدموع فاندفع الجمع نحو الطرف الآخر للميدان وانتهى اليوم بحملة اعتقالات موسعة وكر وفر ومواجهات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الشرطة في شوارع وسط القاهرة أو كما نسميها 'وسط البلد'.

على المستوى الشخصي كان يوماً مربكاً جداً.. يوماً فاق كل توقعاتي من حيث الأعداد المشاركة في التظاهرات وقسوة وسوء معاملة الأمن للمعتقلين.. يوماً تأرجحت فيه بين مخاوف الأم ودوري كمدافعة عن حقوق الإنسان ومراقبة للأحداث كعضو مجلس إدارة في المنظمة المصرية لحقوق الإنسان.

كان يوم 25 يناير بداية لتظاهرات واعتصام استمر ثمانية عشر يوماً وانتهى برحيل حسنى مبارك.. وكانت المشاهد التي وصفتها مقدّمة لمشاهد أعنف ومشاعر شديدة التناقض.. ثمانية عشر يوماً من الخوف والأمل والعزيمة والألم والاقتراب من الموت والتمسك بحياة أفضل.. مصابون ومعتقلون وقتلى في صفوفنا ينتج عنهم شعر وأغاني وأفلام ومسرح شارع وجرافيتي وكوميديا... نقل بعضها فيلم 'حس الفكاهة للثورة المصرية' لقناة بي بي سي العربية:

<http://youtu.be/HTSIArwL59s>

في الخلفية كان علينا أن نحصر عدد القتلى في المشرحة والمصابين في المستشفيات والمعتقلين في معسكرات وسجون الأمن، بينما نسق لتأمين الميدان من هجمات 'بلطجية' النظام وتوفير أساسيات الإعاشة من خيام وبطانيات ورعاية

طبية وجمع قمامة إلى آخره. كان على كل منا القيام بأدوار عدة وبالتعاون مع آخرين من من نعرفهم أو من التقينا بهم في 'الميدان' فسقطت كل الحواجز الطبقيّة والدينيّة والچندرية والسياسية.. مؤقتاً.

بعد رحيل مبارك بأسبوعين عادت الفرقة وتناحر رفقاء الميدان.. في يوم المرأة العالمي (8 مارس) هاجم بعض المتواجدين في ميدان التحرير مسيرة نسائية ولحق ذلك فضاءً عسكرياً عنيفاً للميدان وتزامن مع حادث عنف طائفي في قرية صول في صعيد مصر.. رحل مبارك وبقي إرثه من المشاكل الاجتماعية الناتجة عن الفقر والجهل.. بقي التمييز ضد المرأة والأقليات الدينيّة والعرقية.. وظهر الإسلام السياسي ممثلاً في جماعة الإخوان المسلمين كالفصيل السياسي الأكثر تنظيمًا بعد حل الحزب الوطني الديمقراطي الذي كان يرأسه مبارك.

لقد مر الآن أكثر من عامين ونصف على قيام ثورة 25 يناير شهدت مصر خلالها ولا تزال تشهد الكثير من الأحداث..

في 2011 وتحت حكم المجلس الأعلى للقوات المسلحة راقبت استفتاء حول الدستور المؤقت وانتخابات مجلس الشعب. الاستفتاء والانتخابات كانا من الإجراءات الانتقالية على المستوى السياسي، ولكن الشارع المصري لم يكن متوافقًا حول الآليات الانتقالية واستمرت التظاهرات والإضرابات ومظاهر العنف فكانت مجزرة ماسبيرو التي قُتِلَ فيها أكثر من 20 مصري قبلي يوم 9 أكتوبر ثم كانت في نوفمبر أحداث شارع محمد محمود واشتباكات مع الشرطة والجيش أودت بحياة أكثر من 40 شاب مصري وفي ديسمبر كانت أحداث مجلس الوزراء التي سميت بأيام الموت الأربعة..

يوم مجزرة ماسبيرو قلت إنه اليوم الأبشع في حياتي حين وصلت المستشفى القبطي لأجد فيقيان مسعد التي كانت تعمل في أحد مشاريع المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ممسكة بيد خطيبها المتوفى على إثر دهسه بمدركة للجيش المصري. مايكل أيضاً كان من شباب المنظمة.

يوم 19 نوفمبر وصلت ميدان التحرير بعد أن سمعت عن هجوم الشرطة على عائلات شهداء الثورة المعتصمين.. بعد دقائق من وصولي خرج من شارع محمد محمود مالك مصطفى زميلي وصديقي.. كانت عينه قد فقعت بعيار خرطوش.

عرفت ونحن في سيارة الإسعاف أننا نعيش ما هو أسوأ من ماسبيرو وكان الأسوأ قادم... وصلنا مستشفى العيون لأجد أحمد حرارة الذي كان قد فقد عينه يوم الجمعة الغضب قد فقد عينه الأخرى ليصبح طبيب الأسنان الشاب ضريراً.

يوم 20 نوفمبر شاهدت قوات الجيش تقتل شاباً ثم تلقي بجثمانه على كوم القمامة.. بقي جثمان الشاب مجهول الهوية في مشرحة زينهم ثلاثة أيام ثم اكتشفت أنه محمد (توسي) أخو أمال التي تنظف منزلي.

ثم كانت أيام القتل الأربعة في ديسمبر.. قوات الجيش فضت الاعتصام الموجود خارج مجلس الوزراء فقتلت وأصابت واعتقلت وعذبت وسط دهشة ورعب البعض وتأييد جماعة الإخوان المسلمين وحلفائها.. أما أنا فكان موقعي في مستشفى العيون لتقديم المساعدة للمصابين.. فبعد إصابة مالك وحرارة أصبحت متخصصة في التنسيق مع جراحين العيون.

احتفلنا بليلة رأس سنة 2012 في ميدان التحرير.. كنا جميعاً بحاجة لسكون المكان الذي ضمنا ولطمأنينة صحبة رفاق الميدان.. لكننا لم نجده. الكثير من رفاق الميدان قتلوا والأكثر أصيبوا، ومن لم يفقد حياته أو جزء من جسده فقد الإحساس بالأمان والأمل.

في الذكرى الأولى للثورة نزل الملايين من المصريين يطالبون بسقوط حكم العسكر وبعدها بشهور سلم المجلس العسكري السلطة لمحمد مرسي الذي اختار أن يكون عضواً لجماعة الإخوان المسلمين وأداة لمكتب إرشاد الجماعة بدلاً من رئيس لجمهورية مصر العربية، وفي عام واحد من حكم الإخوان المسلمين زاد الانشقاق بين مصر المدنية والجماعات الدينية واستغلت الجماعة كل أدوات الحكم والقضاء والقانون لقمع المعارضة بنفس الطريقة التي كان يمارسها حسنى مبارك وحزبه وأضافوا إليها العنف المسلح لأفراد الجماعة ومؤيديها من جماعات الإسلام السياسي.

لم يختلف عملي نوعياً في عام حكم الجماعة لكن زاد كميًا.. أصبح الذهاب للمشرحة طقس، والوقوف خارج النيابات والمحاكم عادة ومساعدة المصابين والتنسيق مع الأطباء روتين.

ذهب مرسي وجماعته وبقي الانقسام والحشد والحشد المضاد.  
أذكر نفسي يومياً أن اليأس خيانة وأن الكثيرين دفعوا حياتهم ثمناً لتحقيق  
أهداف ثورة الشباب في 25 يناير 2011.  
أتذكر وأنا أكتب شهادتي فترسل لي المخرجة عايذة الكاشف فيلم 'نون'  
فيقلب المواجه ويجدد الأمل.

<http://youtu.be/oNvpTxp5iKc>

الثورة مستمرة بالشباب والنساء، لأن حسني مبارك ومحمد مرسي والمجلس  
العسكري كانوا ولا يزالوا يهمشونهم.





## مطامعهم من الثورة كانت أكبر

### من احتياجنا لها!

#### نادية الكوكباني

مرت ثلاثة أعوام وما زالت أذني تسمع دوي سيارات الإسعاف، وصور الشهداء والجرحى لا تفارق عيني، ورائحة الغاز المسيل للدموع عالقة بأنفي، وان حاولت بل اجتهدت أن أنسى كل ذلك فهناك عاهة مستديمة في يدي اليمني ستذكرني بأيام عصبية عشتها لمدة عام وثلاثة أشهر في ثورة التغيير اليمنية.

في عصر ذلك اليوم كانت الخلافات في أوجها بين مكونات الثورة من الشباب المستقل والأحزاب. تناسى الجميع أننا في ساحة حرية وتغيير ولا يجب تكميم الأفواه عن الكلام، أو منع التقاط الصور لخلافات طبيعية بين تلك المكونات، وليس معنى ذلك أنها تدعو لشق الصف الثوري كما أفادت اللجنة التنظيمية لساحة التغيير في صنعاء.

كانت القوى المدنية تناهض كل هذه التصرفات وتدعو لمدينة حقيقية أساسها حرية الرأي وقبول الآخر. وهذا ما لم ينل رضا الأحزاب السياسية والقوى التقليدية والدينية الموجودة في الساحة. تقدّم نحوي شاب مفتول العضلات من أحد الأحزاب الدينية يطلب مني إزالة ما صورته في تلك المشاجرة. ولما رفضت وطلبت تسليم ما في الكاميرا للجنة التنظيمية، لم يعجبه المقترح؛ وغافلني بقوته وانتزع الكاميرا من بين يدي، وكنت قد أحكمت ربطها ليشلّ يدي عن الحركة ويسبب لها تلك العاهة التي ألزمتني بارتداء رباط دائم للعمل بتلك اليد.

كان هذا مؤشراً خطيراً لي حول مسار الثورة التي خرجت من أجلها، والتي أراها تُعيد مفهوم النظام الذي خرجت لإسقاطه، وتحاول فرض قيود على التنوع الهائل الذي كان في الساحة مذهبياً وفكرياً. شعرت بإحباط شديد لكن هذا لم يكن معناه أن أعود للخلف، وأتقهقر وأكون من ضمن تلك الفئة الصامتة التي فضّلت العودة إلى منازلها والتزام الصمت، لأنها لم تكن راضية عن المسار السياسي والحزبي التي بدأت ثورة الشباب تقبل انضمامه لها دون أن تستوعب أنه التفافه هو

وسرقة لثورتهم من أولئك المحنّكين في الشأن السياسي والحزبي.  
بقينا في الساحة مجموعة من القوى المدنية المناهضة لكل الأعمال غير الثورية  
للمسؤولين عن الساحة، رافضين وبقوة دمج مسارها الثوري بقبول انضمام القوى  
السياسية والأحزاب... تلقوا دعواتنا تلك باتهامات كثيرة أسهلها كان التخوين لفعلا  
الثوري والعمالة لقوى الأمن القومي للنظام السابق حتى نرتدع عن مطالبتهم برفض  
انضمام الفاسدين للثورة ليتطهروا من أعمالهم المشينة في حق الشعب، وأيضا أن  
يكفوا عن ممارسات عنف ضد الثوار كسجنهم وضربهم بحجة أنهم قادة الصف  
الثوري وعلى الجميع السمع والطاعة.

تعبنا من تلك المعاناة ووصل بنا الأمر أن نعتزف، ولو في أعماقنا بأنهم كانوا  
أقوى منا، وبأن غدّهم كان أقوى من أمانتنا، وأن مطامعهم من الثورة كانت أكبر  
من احتياجنا لها، لذلك استمروا في سرقتهم للثورة؛ واستمرينا في أمل غد سيفهم  
فيه القلة ماذا فعلنا لننعم بوطن ننال فيه حقوقنا ونمارس فيه حريتنا.

## أيام لن تنسى

أولى الفجائع كانت سقوط أول شهيد «عوض السريحي» الذي ودّع  
ابنته الوحيدة وخرج ليحمي الساحة من بلطجية النظام وهم يحاولون اختراقها  
ومحاولتهم منع الثوار من نصب خيامهم. حزنت، ورجم ذلك استبشرت خيراً في  
أن استشهاده ثمن للثورة. اعتقدت أن الأمر لن يطول وأن سقوط بن علي ومبارك  
سيعلّم النظام اليمني أن الشعوب إذا خرجت للشارع لا تعود إلا منتصرة. لكن  
هذا لم يحدث في اليمن. سيطرت جماعة دموية على رأس النظام، ونفتت في  
رأسه سمومها، وأقنعتّه باستخدام العنف والتحجج بالأهالي. وفي ذلك اليوم 18  
مارس 2011 أطبقوا مخالبتهم على الساحة من كل جهة بجدران خرسانية لمحاصرة  
حركتهم واختاروا جماجم رواد التغيير من صحفيين ومصوّرين تماماً كما اختاروا  
قلوب الفقراء ليخترق رصاصهم أحلامهم في وطن ينعمون بخيراته وثرواته. كاد  
قلبي أن يتوقف ولم أستطع المكوث في المستشفى الميداني كثيراً واخترت توفير  
الأدوية الناقصة وجمع الملابس للمصابين. حتى غروب الشمس كان عدد الشهداء  
قد تجاوز الخمسين، وصراخ الأمهات كان قد تجاوز عنان السماء، وكأنه يشيعهم

بألم الفراق وحسرة الفقد. وفي منتصف الليل غامرتُ بالدخول إلى قلب المستشفى، مررت بكل تلك الجثث. رأيت أحد الشباب مقرّصاً إلى جوار شقيقه الذي كان يبدو انه أصغر منه سنّاً، حزيناً وحائراً مما حدث ولما حدث...

لا يمكن أن يكون هذا هو ما فعله اليمينيون باليمينيين كما سرت الإشاعة. هذه رصاصاتٌ غدر وخيانة ومصالح لرئيس عاثٍ في الوطن فساداً، أفقر الشعب، وسطاً على كلِّ أحلامه في عيش كريم. أردت احتضان كل من رموا بأحزانهم إلى جوار الشهداء، وراحوا يقرؤون القرآن حتى يأتي الصباح. أردت التمرغ في كل تلك الدماء التي لم يتوقف نزيهاً من أجسادهم الطاهرة حتى لا أنسى تضحياتهم من أجل اليمن. وفي صمت الأمهات انزويت، كان لحزنهن وكنم أصوات بكائهن مرارةً في قلبي وغصة في صوتي أفقدتني النطق لساعات. أثرت خلالها العمل بصمت مع الجرحى. نسيتُ تلفوني الذي انتهت بطارئته، ونسيت أطفالي، وطمأنتهم حتى وجدت ابني أمامي. راح يحضني ويقبلني، وهو يرددُ الحمدُ لله أنك بخير يا أمي. عندها عاد لي الزمن واحتضنته ورحتُ أبكي، فمنذ الظهيرة لم أفعل.

كيف لهؤلاء القتلة أن يعودوا لمنازلهم الليلة؟ وكيف لهم أن يتسّموا في وجوه أبنائهم وقد حرّموا أمهات من أبنائهن؟ وكيف لهم أن يخلدوا إلى النوم إلى جوار زوجاتهم وقد رملوا نساءً كثر؟

## ماذا بعد

لم تكن تلك بداية الدماء ولم يكونوا شهداء «جمعة الكرامة» هم آخر الشهداء، لكنها كانت الدماء التي سمحت للكثير من الانضمام للثورة، ولم يفرّق ذلك الانضمام بين الشرفاء والفاستدين. بين الأبرياء والقتلة وعندما تمّ رفض أن تكون الثورة جسر تطهير لأولئك المستغلين اعتبرنا شاقين للصف الثوري وعملاءً للأمن القومي. تُهم جاهزة كانت تصيب كل معارض لإعادة تدوير النظام في ساحة التغيير. أصبح للساحة زنازة وسجان وحماية ممن كانوا سبباً في قيام ثورة الشعب. أصبح لها مجلس وطني يشمل كل منابع الفساد التي أفقرت الشعب وقضت على آماله. وأصبحت أنا وغيري في قائمة سوداء رفضت المشاركة في ذلك المجلس ولها الفخر، وفصلت أن تلعن الظلام على أن تشعل شمعة في مجلس سيحرق البلد

بأكملها. هكذا يتعامل الساسة بهدوء ويحولون الدفة لصالحهم. غاب عن أذهان الشباب انه تم استغلالهم وسرقة ثورتهم واستمروا بنواياهم الطيبة في الإيمان أن ثورتهم في مسارها الصحيح، وأنها تفتح صفحة جديدة لمشاركة كل أبناء الوطن دون إقصاء، حتى تفاجؤوا بتسوية سياسية للأحزاب اسمها «المبادرة الخليجية» لم تذكر شهدائهم، ولم تتناول تضحياتهم ولم تقدّر حماسهم في رؤية وطنهم أجمل الأوطان. وتحول المسار الثوري النابض بالأمل إلى مسار سياسي يرضي كافة الأطراف التي دمّرت البلد باستثناء الشعب؛ والأدهى أنه يوفر لها الحصانة وعدم المساءلة وعلى رأسهم من رقص طويلا على رؤوس الأفاعي، الرئيس السابق علي عبد الله صالح.

أصبت بخيبة أمل شديدة، عُدت أدراجي للمنزل أمارس مهنة التدريس الجامعي، وأتنفس الحياة من ممارسة هواية الكتابة التي أعشقها، ومن خلال أبنائي التي حاولت أن أجد لهم وطناً حراً مدنياً يشعرون فيه بالعدل والمساواة والتمتع بخيراته وثرواته وفشلت، فهل يستطيعون هم؟

## قصيدة «إرادة الحياة»

لأبي القاسم الشابي

### حمّادي المسعودي

قصيدة «إرادة الحياة» من أشهر قصائد ديوان «أغاني الحياة» للشاعر أبي القاسم الشابي (1909-1934). وهو من أشهر أدباء تونس، يُنزل شعره في المدرسة الأدبية الرومنطيقية لم يكن يعرف إلا اللغة العربية، غير أنه أغنى تكوينه المعرفي ووسّع أفقه الأدبي بما اطلع عليه من كتابات عالمية كتبت باللسان العربي أو هي تُرجمت. صاغ الشابي «إرادة الحياة» على بحر المتقارب قبل وفاته بسنة وأيام قليلة<sup>(1)</sup> وبعد الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية بـ 54 سنة تقريبا<sup>(2)</sup>. وهذه المعطيات التاريخية من شأنها أن توحى لنا بدرجة نضج التجربة الشعرية لدى الشابي من ناحية وبمدى وعي الإنسان التونسي بالقيود التي تكبله بسبب الاستعمار الجاثم بكله على البلاد من ناحية ثانية وبالسعي الذي تبذله الشعوب المستعمرة من أجل كسر القيود والانعتاق من ناحية ثالثة.

ولم يكن هذا الوضع المترديّ خاصًا بالشعب التونسي في النصف الأول من القرن العشرين، بل كان الكثير من شعوب العالم يعاني نير الاستعمار استعبادا واستغلالا وتمييزا مقيتا، لكنّها كانت تطمح إلى الحرية والاستقلال، وتناضل من أجل تحقيقهما على واجهتين رئيسيتين على الأقل: المقاومة المسلّحة والفكر. ومن يقرأ قصيدة «إرادة الحياة» بإمكانه أن يكشف عن معاني الطموح وطلب الحرية والثورة على الأوضاع المترديّة التي كان يعيشها الإنسان في الكثير من بلدان العالم. لكن مطلب تغيير الأوضاع المترديّة والسير بالإنسان نحو الترقّي واكتساب الكرامة لم يكن موكولا إلى الشعوب بل كان منوطا بالحكام وأولي الأمر في البلدان العربية والإسلامية، أمّا دور الشعوب فكان مُهمّشا ولا يُقرأ له أيّ حساب. بيد

(1) نظم الشابي القصيدة في 16 سبتمبر 1933، وتوفي في 9 أكتوبر سنة 1934. انظر ديوان «أغاني الحياة»، الدار التونسية للنشر 1966.

(2) انتصبت الحماية الفرنسية بتونس سنة 1881.

أن أولئك الحكام وأولي الأمر كثيرًا ما كانوا يُسهمون في تردّي الأوضاع واشتداد الأزمة بما أنهم كانوا يأتَمرون بأوامر «الظالم المستبدّ» و«قوى الظلام» في البلاد حفاظًا على مصالحهم الخاصّة والمراتب التي وُهبوها. إنَّ صنع التاريخ وتغيير أوضاع البشر والترقي بالمنزلة البشرية يظلّ - في هذه الرؤية - من صنع الأفراد مُلوّكًا وحُكامًا ودُولًا عظُمى لدى شقّ من الناس، وهو من فعل القدر.

وجاء قصيد «إرادة الحياة» ليقَلِّب هذه الرؤية عاليها سافلها، وتنقض أطروحة جميع القائلين بها وتُحدث ثورة عاصفة على الفكر السائد في عصره وعلى «قوى الظلام» المعشّشة في البنى الاجتماعية المختلفة، فيغدو الشعب كلّ شيء بعد ما كان لا شيء، أو هو «قطيع ضائع» بين «الشاعر الفيلسوف» و«العالم النحرير»<sup>(3)</sup>.

وإذا بالشعوب هي الفاعلة في التاريخ والمغيّرة لمجرها والمتحكّمة في ما تُؤوّل إليه الأمور. فلم يُعدّ التاريخ من صنع الأفراد حتى وإن كانوا من العباقرة، بل صار نتاج ما تنهض به الجماعة والشعب «المريد للحياة».

لقد تبَيَّن لأبي القاسم الشابي في قصيدة «إرادة الحياة» أنّ قوام الحياة الحقّ وأسسها الصّلب وروحها الحيّة يكمن في الإرادة، فمن لا إرادة له لا حياة له أو هو في عداد الأموات ومتى غابت الإرادة انعدمت الحياة وانتفى الوجود وصار عدَمًا.

لكن ماذا يُقصد بالإرادة؟ وما هي القوى الكامنة فيها؟

جاء في «لسان العرب» لابن منظور أن «الإرادة» هي «المشيئة» وأنَّ «أراد الشيء» يعني شاءه<sup>(4)</sup>، فتكون الإرادة بذلك هي المشيئة. لكنَّ «المشيئة» ارتبطت في «لسان العرب» بالله، يذكر ابن منظور: المشيئة: الإرادة... المشيئة: مصدر شاء يشاء مشيئة، وقالوا: كلّ شيء بمشيئة الله، بكسر الشين مثل شيعة أي بمشيئته. ويروى في الحديث النبوي أنّ يهوديًا أتى النبيّ وقال: إنكم تُنذرون وتُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئتُ، فأمرهم النبيّ أن يقولوا: ما شاء الله: ثم شئتُ، المشيئة: الإرادة... وإنما فرّق بين قوله: ما شاء الله وشئتُ، لأن الواو تُفيد الجمع دون الترتيب، وثمّ تجمّع وتُرتّب، فمع الواو يكون قد جمّع بين الله وبينه في المشيئة، ومع ثمّ يكون قد قدّم

(3) انظر قصيد «الدنيا الميتة» الديوان ص 275.

(4) انظر لسان العرب، مادة: رَوَدَ.

مشيئة الله على مشيئته<sup>(5)</sup>. ثم إن المتصفح للقرآن بإمكانه أن يتبين أن المشيئة مقترنة في الغالب بالإله وأن مشيئة الإنسان تابعة دائماً لمشيئة الله خاضعة لها ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...﴾<sup>(6)</sup>...

كانت الشعوب العربية في الثلث الأول من القرن العشرين تعيش حياة الاستعمار والجهل والاستكانة والتخلف على جميع المستويات، وكان «العلم» الذي يُنشر تقليدياً يبيث روح التواكل والإيمان بقضاء الله وقدره في كل ما يُصيب الإنسان. وكانت «قوى الظلام» تسعى إلى نشر هذا «العلم» من أجل المزيد من التحكم في الناس. وكان الشابي - ومعه ثلة من المثقفين - واعياً لهذا الوضع المترديّ لکنه كان يرى أن هذه الحالة ليست أبدية، بل هي ظرفية، وتغييرها مشروط بإرادة الشعوب، لأن في الشعب تكمن قوّة جبارة لا تُقهر، وهذه القوّة لئن خبت سرعان ما تشتعل كالنار الكامنة تحت الرماد، ويكفي أن تهبّ ریح تذر الرماد، فتشتعل النار فتأتي على الأخضر واليابس<sup>(7)</sup>.

إن الشعب «إذا أراد الحياة» - وإرادة الحياة حقّ مقدّس وطبيعي - استطاع أن يصنّع المعجزات فيقهر القدر، بل إن القدر يتنفي أو هو يصير تابعاً لإرادة الحياة لدى الإنسان، إذ لا إرادة إلا إرادة الشعوب، ولا قضاء إلا قضاء البشر، ومتى توفرت هذه الإرادة عطلّ فعل القدر وانجلى الليل، وهو رمز جميع ضروب الجهل والتخلف؛ وانكسرت القيود التي كانت تكبل حياة الإنسان بما في ذلك قيد الاستعمار، وبذلك يحيا الإنسان حياته الطبيعية الحقّ الخالية من كل قيد<sup>(8)</sup>. وقد عبّر الشابي عن جميع هذه المعاني الإنسانية النبيلة في البيتين الأولين من قصيدة «إرادة الحياة» واللذين صارا يُتغنّى بهما في النشيد الوطني لما يحملانه من معاني الثورة والتمرد على جميع أنواع القيود وللمنزلة الرفيعة التي تبوّأها الشعب فيهما حتى صار الشاعر يُعرف بهذا القصيد، وبمطلعه خاصّة الذي أضحى عند الكثير

(5) انظر نفسه، مادة: شيئاً.

(6) الإنسان 76/30، وانظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: شاء.

(7) حدّر الشابي المستعمر من هذه القوّة الكامنة في الشعوب في قصيد «إلى طغاة العالم» فقال:

حذار! فتحت الرماد للهب

ومن يبذر الشوك يجن الجراح

(8) خلقت طليقا كطيف النسيم وحزنا كنور الضحى في رياه



من الشعوب العربية عنوان الثورة ورمز الانتصار على الظلم والاستبداد وعسف الحكّام.

وقد رُفِعَ البيت الأول شعارًا مكتوبًا في عديد المظاهرات التي نهضت بها الشعوب العربية في نهاية سنة 2010 وطوال سنة 2011، ولهجت به حناجر الجماهير الثائرة في تلك المظاهرات نشيدًا مُدَوِيًّا مُعلنًا بداية عصر الشعوب ونهاية عصر الحكّام المستبدّين الطغاة. ولم يقف الأمر عند إنشاد المطلع ورفع شعارا مكتوبًا في اللافتات، وإنّما صار البيت الأوّل وخاصّة الصدر مصدرًا ثريًا لاستلهاش شعارات تعبّر عن ضروب من إرادات الشعوب، فنادت الجماهير بالمطالب التالية:

– الشعب يريد إسقاط النظام

– الشعب يريد إسقاط الحكومة

– الشعب يريد إعدام الرئيس...

تعدّدت مطالب الإرادة، وتنوّعت طموحات الناس المحمولة في الإرادات، وهي طموحات تدور كلها على الحرية والعدالة والكرامة ونبذ العنف والظلم وعلى التوق إلى حياة أفضل تُحترم فيها إنسانية الإنسان، ويسود فيها القانون.

بيد أنّ ما ينبغي أن يُلاحظ هو أنّه لئن حظي مطلع القصيدة بمثل ذلك الاهتمام وتلك المنزلة حتّى كأنّ الدهر صار من رُواته ومنشديه<sup>(9)</sup> فإنّ المعاني المحمّلة في البيتين الأوّلين منتشرة في كامل القصيدة، وهي موزّعة في شبكة من الدوال المبتوثة في كل بيت تقريبًا: معانقة شوق الحياة للإنسان، الطموح، ركوب المخاطر (المُنَى، وعود الشّعاب، صعود الجبال)، مماشاة الزمان، رفض العيش الحقيّر والواقع المتردّي، الطموح للحياة ومباركة أهل الطموح ومن يستلذّ ركوب الخطر...

ومن اللافت للانتباه من القصيد أنّ هذه المعاني المفعمّة بإرادة الحياة صارت أغنية تُنشدها وتُنشدها جميع الكائنات: الريح والأرض والغاب... بل صارت ناموس الكون كلّهُ يُتلى في كل مكانٍ و«نشيد الحياة المقدّس» الذي يتردّد صداه في المعابد:

(9) نتذكّر هنا بيت أبي الطيّب المتنبّي الذي يقول فيه (الطويل)

وما الدهر إلّا من رِوَاة قصائدي إذا قلتُ شعرا أصبح الدهر منشدا

ورنَّ نَشِيدُ الحَيَاةِ المَقْدَسُ فِي هَيْكَلِ حَالِمٍ قَدْ سُجِرَ  
وَأُعْلِنَ فِي الكونِ أَنَّ الطُّمُوحَ لَهَيْبِ الحَيَاةِ وَرُوحِ الظَّفَرِ  
إِذَا طَمَحَتِ لِلحَيَاةِ النَفُوسُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ القَدْرُ

وهكذا يعودُ بنا البيت الأخير في القصيد إلى البيت الأول، وتتعلق إحدى «أغنيات الحياة»<sup>(10)</sup> على الصوت الذي به انفتحت، فإذا بالقصيد يُردّد من الفاتحة إلى الخاتمة أَنَّ القَدَرَ خاضِعٌ لِإِرَادَةِ الشَّعْبِ ولطموح النفوس وأنَّ إرادة الحياة وطموح النفوس يمثلان ناموس الكون يتغنى بهما كل كائن حرّ منعتق من جميع القيود، وأنَّ الشعب إذا أراد الحياة يخّر له الجبابرة صاغرين، وهذا ما حدث فعلاً وخاصّة في تونس ومصر عندما أطاح الشعب بعرش زين العابدين بن علي وحكم حسني مبارك، ولم يكن أحد يتوقّع وقوع مثل هذا الحدث الجلل بما في ذلك الدول العظمى التي فوجئ ساستها بانهيار النظام بتلك السرعة العجيبة وقد أصاب البهتُ الجميع.

لكن ما ينبغي أن نُشير إليه هو أنَّ «بيت إرادة الشعب» وما اشتقّ منه من شعارات «الشعب يريد...» صار مُحَمَّلاً بمجموعة من المعاني من أهمّها الانتصار على قوى الاستعمار وتحقيق استقلال البلاد سنة 1956، وما كان ذلك ليتمّ لولا المقاومة الشعبية التي أفضت مضجع المستعمر وإرادة الشعب الحياة الكريمة في ظلّ وطن حرّ مستقلّ معترف به في المنظومة الدولية. وقد يكون سبب إدماجه في «النشيد الوطني» راجعاً إلى هذه المعاني الإنسانية الكونية المحمولة في فاتحة القصيد. وقد يعود إنشاده في «الثورات العربية» إلى هذه المعاني نفسها وإلى كون هذا البيت الشعري صار رمز الانتصار على الحُكّام الطغاة والشعور بالتفاؤل، علاوة على ما يحمله من معانٍ مقترنة بالشعب باعتباره قوّة فاعلة في التاريخ وفي تقرير المصير، ولم يُعد ذلك الكيان المهمّش المستكين الذي «يقنع بالعيش، عيش الحجر»<sup>(11)</sup>. وقد برهنَ الشعب التونسي أيام «الثورة» على أنه الفاعل الرّئيس في الأحداث التي انتهت بإسقاط الحاكم. أمّا أولئك الذين تولّوا مقاليد الحكم بعد أن هدأت العاصفة فلم يكونوا مشاركين في

(10) سمى الشابي ديوانه «أغاني الحياة».

(11) عجز أحد أبيات قصيد «إرادة الحياة».

الأحداث، بل ركبوا صَهَوَتَهَا بعد أن رسا بها الشعب في برّ الأمان، فأكلوا ثمار شجرة لم يغرسوها وخبزاً لم يزرعوا حبّه وتفيؤوا دَوْحَةً لم يسقوها.

أما رحيل شعار «الشعب يريد...» إلى البلدان العربية الأخرى بتلك السرعة العجيبة فيمكن أن يُفسّر باشتراك هذه الدّول في الأوضاع المتردّية والسياسات الفاسدة وتعطيل دور الشعب وإسكات صوته بالعسف، فوضع هذه الدّول واحد وملكها واحد (و ربّها واحد)، وخراجها لهارون الرشيد حيثما أمطرت... وأموالها مخزّنة في قصور ملوكها أو منزلة في حساباتهم البنكية خفية الاسم لتبذيرها عند الحاجة في القصف والعسف والرقص وإسكات الأصوات الحرّة الداعية إلى الحرية والعدل والحياة الكريمة. ولا نشك في أن وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي قد أسهمت في انتشار الشعارات المرفوعة في المسيرات الشعبية بما أنّها كانت تنقل الأحداث ساعة وقوعها، ولا نشك كذلك في أن الشعوب العربية كان بعضها يستعير من البعض الآخر الشعارات، لا سيّما ممّن كان له السبق في التحرك وتحقيق النصر.

لقد كان الشعب التونسي حرّاً طليقاً أثناء ثورته، فلم يقده زعيم ولا رئيس حزب ولا إمام ولا شيخ، فهؤلاء جميعاً كانوا «متفرّجين» داخل الوطن وخارجه، ولما حقّق الشعب النّصر هرعوا من كلّ صوب وحذب، وسطوا على مستحقّاته وزنوا بأماله وداسوا طموحاته:

إنّ ذا عصرٌ ظلّمة غير أنّي من وراء الظّلام شمتُ صَبَاحه  
ضيع الدهرُ مجدّ شعبي ولكنّ ستردّ الحياة يوماً وشاحه<sup>(12)</sup>  
لكنّ الشعب قد يكون أخطأ سواء السبيل عندما وهبّ ثمره نضاله إلى أناس لم يكونوا أهلاً له، فعوض أن يتقدّموا بالبلاد أشواطاً رجعوا بها القهقري، فصرنا نلوك قضايا كُنّا نحسب أنفسنا قد تخطيناها، ونشاهد مناظر مزرية كُنّا نظنّ أنّنا تخلّصنا منها، ونسمع أصواتاً متناغمة كُنّا نعتقد أنّها توارت... لكن لئردّد دائماً:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بُدّ أن يستجيب القدر

(12) أغاني الحياة ص 25.

## ثورة التناقضات في بلاد الأرز

### سليم معوض

في أواسط شهر شباط من عام 2005، وعلى أثر عملية اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري وسلسلة الاغتيالات الأخرى التي اتهم بها النظام السوري، انطلقت في لبنان حركة شعبية عارمة سارت وراء نعش الشهيد وجاهرت بمطالب عدّة من أهمها الحرية والسيادة وانسحاب الجيش السوري من لبنان. أطلق حينها العالم الغربي وبالتحديد محطة الـ«بي بي سي» على هذه الحركة في أول أيامها اسم «الثورة الحمراء» نسبة للمكوّن الأحمر في العلم اللبناني الذي يجسّد دماء الشهداء. لينتهي المطاف بالثبات على تسمية نهائية مستوحاة من مكوّن آخر من نفس العلم وهو الأرز اللبنانية التي ترمز للخلود لتولد «ثورة الأرز».

تصاعدت وتيرة هذه الدينامكية، فسرعان ما تحوّلت إلى حراك شعبي من قبل شباب متحمّس اتّخذ من ساحة الشهداء في وسط بيروت، أو ما عرف حينذاك بـ«ساحة الحرية»، منصّة للتعبير عن غضبه جرّاء اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وللمطالبة بانسحاب الجيش السوري ونظامه من لبنان، إذ اعتبر المتّهم الأوّل وراء الجريمة وجرائم أخرى، والمتّهم بفقدان السيادة على المؤسسات اللبنانية. أتت ردّة الفعل من قبل حلفاء النظام السوري في لبنان فغصّت الساحة الملاصقة لساحة الحرية الخاصة بالمطالبين بانسحاب الجيش السوري، غصّت بأكثر من مليون لبناني لتوجيه الشكر لهذه الأخيرة لما لها من فضل على الوطن!!!. استفزّ هذا الشكر قاطني «ساحة الحرية» فحشدوا بعد أقل من أسبوع مظاهرة مقابلة جمعت أكثر من مليون لبناني آخر ليطالبوا بسقوط رئيس الجمهورية المدافع عن الوجود العسكري السوري وتبرئته من الجرائم. انسحب الجيش السوري من لبنان وبقي رئيس الجمهورية في منصبه بالرغم من مطالبة اكثر من ربع الشعب اللبناني بتنحيه.

اتصل بي الكثيرون من الزملاء الشباب الناشطين في مجال حقوق الإنسان والعمل السياسي لملاقاتهم في «ساحة الشهداء» للمشاركة ببواكير الثورة والتحضير لتغيير طالما كنا حلمنا به وعملنا لأجله. كان جوابي يومها الرفض، وبأن هذه ليست

بالثورة المبتغاة إنما ثورة من قبل مجموعة تهدف لنفي مجموعة أخرى. ولن تأتي بثمارها ما دام أمراء الحرب هم الناطقون باسمها وما دام رافضوها في المقابل يشكرون من احتل الأرض اللبنانية، وانتهك حق الشعب اللبناني على مدى عقود. آنذاك تابعت الأحداث عبر شاشة التلفاز وراح يتتابني شعور بالألم، لم يخلُ من الدمع والحسرة على عدم تمكّني من المشاركة في هذا الحراك الشعبي المؤثر. فكتبت مقالة بتاريخ الخامس من أيار 2005 عن عدم جدوى هذه الثورة، نشرت تحت عنوان «أتهم المواطن اللبناني» الذي اندفع وراء الحدث وصانعيه بعاطفة جياشة خلّت من أي نظرة عقلانية للأمر<sup>(1)</sup>.

ربما أفضل طريقة لإثبات شهادة حية على واقعة معينة ومدى صدقية هذه الشهادة هي العودة إلى ما هو مدوّن حول مضمونها وقت حدوثها.

كنت قد أشرت في تلك المقالة بأنه وبالرغم من الشعور بالنشوة العارمة التي عمّت لبنان من جراء انسحاب الجيش السوري من على أراضيه، إلا أنه لا يمكن التسليم بأن ما حصل حينها هو مقدمة لتغيير طويل الأمد. وطرحت جملة أسئلة تمحورت حول مصدر هذا التغيير، مدى شرعية صانعيه وخاصة قدرة المواطن اللبناني على حسم هذا التغيير وتأمين مقومات استدامته.

وكأني بذلك أردت تبرير قراري بعدم المشاركة بالثورة المعلنة والمبني على إدراك مسبق بانعدام الثقة بالنخب السياسية الداعية لهذا التغيير، وعدم تمكّن المواطن من استيعابه والمحافظة عليه بعد انسحاب العواطف والغضب من النفوس. كنت خائفاً من نجاح الثورة وأنا المؤمن بضرورة الحراك الشعبي من أجل التغيير، والمتحوّل من ناشط اجتماعي إلى مُشاهد منكفئ في منزله أمام شاشة التلفاز. ولكن مرور الزمن أعفاني من عقدة الذنب هذه لما آلت إليه أمور هذه الثورة.

أكملت المقالة لأحاجج بأن هذا التغيير آت من الخارج، وهو ردة فعل من فريق على فريق، وبأن من نادى بانسحاب جيشٍ أجنبي عن أرض بلاده، إنما هو نفسه الذي تحالف مع المحتل، وفي كل مرة يغيّر اتجاهه وخطه السياسي ليحمي مصالحه الشخصية، قابله غياب مواطن يحاسبه على ما اقترف من فظائع بحق

[http://fride.org/download/COM\\_CiudLibanes\\_ENG\\_may05.pdf](http://fride.org/download/COM_CiudLibanes_ENG_may05.pdf)

(1)

الوطن. كما وشدّدت على أنه في خضمّ موجة التغيير القائمة في لبنان، يخاطر الغرب ومعه جزء من الشعب اللبناني الداعم لهذا الحراك في المساهمة بثبوت الوجوه السياسية نفسها المسيطرة على الساحة السياسية، وذلك من خلال تأمين الدعم للمشبوهين الدائمين كوسطاء تغيير. أنهيت المقالة بمقطع ساخر عن دور المواطن بالمطالبة بالتغيير عبر توكيله هذا الأمر للخارج ورويت طرفة مبكية عن عاملة أجنبية من التابعة السرلنكية وفتت في ساحة الحرية بجانب سيدتها ويدها يافطة كتب عليها Syria Out وهتفت «مدام وانتس سيريا أوت» أي بما معناه المدام تريد انسحاب سورية... فكم هو مستعار هذا التغيير؟

اليوم وبعد تسع سنوات على انطلاق الثورة تأكّد لي بأن أي «ثورة» في لبنان يجب أن تبدأ بثورة «الإنسان» قبل ثورة «المواطن» المفقود من البلد أو المتعترة ولادته أو المؤجلة إلى مدى بعيد. ربما ما قاله الفيلسوف الألماني إمانويل كانت في القرن الثامن عشر ما زال ينطبق على اللبنانيين في بداية القرن الواحد والعشرين، ومفاده بأن الشعوب هي بحاجة للتثوير أكثر من حاجتها للثورات. ربما اللبناني بحاجة للتثوير كي يتخلص من جملة تناقضاته الداخلية، والتي تتمثل بالمطالبة بالشيء ونقيضه. يُطالب بالديمقراطية ويجدد نخبه السياسية المتهمه بالفساد وجرائم الحرب، والمتربعة على عرش الحكم منذ عقود. يُطالب بالحرية ولا يحاسب منتهكيها، يُطالب بالعلمانية، وينتخب ممثليه على أساس التوزيع الطائفي للمقاعد. يطالب بالأمن ويتهم القوّات العسكرية الشرعية بالخيانة ويطلب بذبحها او يلجأ لحركة مسلحة خارج الشرعية لحمايته من الإرهاب.

أكثر ما يؤلمني في ما يتعلّق بنجاح «ثورة الأرز» أو فشلها أو تأجيلها هو ما أصبحت عليه نخب المجتمع المدني اللبناني التي نادى بالثورة ومنهم اللذين اتّصلوا بي لمشاركتهم في عملية التغيير. معظمهم ركب موجة زمن ما بعد ثورات «الربيع العربي» التي أتت بعد «ثورة الأرز» لتراهم يوقعون عقود عمل مع مؤسسات أجنبية غير حكومية هادفة إلى تحصين التغيير الذي أفرزته تلك الثورات. منهم من يعمل لإعادة دمج الثوار في القوى الأمنية في مرحلة ما بعد الثورة في ليبيا، أو تدعيم المجتمع المدني التونسي باستخدام الإعلام الاجتماعي للتوعية على الديمقراطية، أو الدفاع عن حقوق الناشطين في مصر أو دعم قضية المعارضة السورية. وكأنهم

بذلك انتهوا من عملية التغيير التي دعوا إليها أو شاركوا بصنعها عندما انطوا تحت لواء «ثورة الأرز»، وحين الوقت كي يشاركوا العالم العربي معرفتهم بإنجاح الثورات، وتحويل التغيير المنشود من عابر إلى مستديم. من حقهم السعي وراء فرص العمل كناشطين اجتماعيين، ومن حقهم التوسع خارج الحدود لمناصرة شعوب أخرى في السعي إلى الكرامة، فأنا متواجد في إفريقيا للغايات نفسها، ولكن من أقل واجباتهم القيام بمراجعة ذاتية وجماعية ومسار تقييمي لتبيان نقاط إخفاق الثورة أو نجاحها المتعلق ليس فقط بانسحاب الجيش السوري من لبنان إنما بالمفاهيم التي دعوا إليها مثل الحرية والسيادة والحفاظ على المؤسسات. هكذا مراجعة نقدية تمكنهم ومعهم المواطن من تأمين الجهوزية اللازمة في حال سمح للبنان بتجربة ثورية أخرى حقيقية هذه المرة، وهادفة لتغيير جذري لكل ما يرفضه هؤلاء الشباب من طائفية وزبائنية وتبعية وتهميش من على الساحة السياسية العامة.

كنا قد شهدنا كيف أن القيمين على «ثورة الأرز» من نخب سياسية تقليدية راحوا يهلعون كلما اعتلى شاب من مناصريهم خشبة المسرح ليطالب بالتغيير، فيتجاوب الجمهور مع خطابه بطريقة ليس لها مثل. فحسبت تلك النخب أمرها واستأذنت الشباب الجامح لتستعيد مكانه على المسرح خوفاً من فقدانها مواقعها لمصلحة شباب لم تلوث الحرب الأهلية أيديهم ولم ينطق لسانهم يوماً بتصريح طائفي.

أمام هذه الظاهرة أود أن أستأذن المفكر اللبناني الشهيد سمير قصير، الذي آمن بتلك الثورة حتى الشهادة، وأحور جملة من جملة الخالدة والمحفورة على حائط نصبه في بيروت: «لقد انتهت المسرحية، يستطيع الشخص أن يبقى على المسرح. لا همّ فلا أحد يسمعه». لأدعو كل شاب وشابة من الذين آمنوا بالثورة أو ما زالوا يؤمنون بها أن يحاسبوا من أقصاهم عن ثورتهم. وإلى حينها، المسرحية مستمرة... يستطيع الزعيم أن يبقى على المسرح. لا همّ فلا أحد يحاسبه.

الجزء الثاني

كتابات ودراسات





محور I

اللاعبون والفئات الصاعدة



# المرأة في الثورة الليبية

## بين تصدر المشهد وتهميش الأدوار

عبير إبراهيم أمينة

جامعة بنغازي ، ليبيا

Politique06@yahoo.fr

### الملخص

لعبت المرأة الليبية دورا «بارزا» في الثورة منذ انطلاقها، فنظمت المظاهرات الحاشدة وانخرطت في منظمات الإغاثة والوسائل الإعلامية المختلفة. بعد التحرير والشروع في عملية التحوّل الديمقراطي، بدأت التحديات تبرز من خلال التمثيل المتواضع في مؤسسات صنع القرار، وغياب آليات مقاومة التمييز الممارس ضدها وأيضا زيادة مستوى العنف والتحرش بها في الفضاء العام والخاص، دون إغفال تفشي التيار الديني المناهض أساساً للمرأة. إن النهوض بواقع المرأة الليبية في المرحلة القادمة يستلزم توحيد خطاب نسوي تجاه الحقوق الواجب ترسيمها في الدستور خلال المرحلة القادمة والبدء في عملية تنشئة شاملة على مستوى المجتمع ككل لتغيير واقع المرأة من استراتيجية شاملة تضطلع بها كل الأقطاب المؤثرة في المجتمع المدني.

**الكلمات المفتاح:** المرأة؛ العنف ضد المرأة؛ المشاركة السياسية للمرأة؛ المجتمع المدني؛ المرأة والقوانين؛ ثورة 17 فبراير؛ المرحلة الانتقالية؛ ليبيا.

## Abstract

### Women in the Libyan revolution between presided over the scene and the marginalization of roles

**Abeir Ibrahim Imneina**

*Libyan Women have played a prominent role in the revolution since its inception. They organized mass demonstrations and were engaged in relief organizations and media. After liberation and initiation of the process of democratic transition challenges have emerged through modest representation for women and the absence of mechanisms to resist discrimination practiced against her. And also, increase of level of violence and harassment in public and private space, without neglecting the outbreak of anti-religious trend that the advancement of women in the next phase requires unification of feminist discourse towards the rights to be demarcated in the constitution and bringing up a comprehensive level of society as a whole to change the reality of women to a comprehensive strategy undertaken by each polarity in influencing civil society.*

**Keywords:** Libyan women; violence against women; political participation; civil society; women and laws; 17 February Revolution; the transitional phase; civil society; Libya.

## المقدمة

تتميز الثورات التي شهدتها المنطقة العربية بسمات مشتركة عجلت في اندلاعها وأبرزت محرّكات للفعل السياسي كانت محوراً للتحليل ومازالت مثل المرأة الذي كان دورها مفصلياً في كل مراحل الحراك في تونس ومصر وسوريا واليمن وليبيا، حيث تخطت الاكتفاء بمراقبة الحدث إلى صناعته<sup>(1)</sup>. لكن سرعان ما فرض التساؤل نفسه حول تأثير هذه الثورات على مكتسبات المرأة النسبية في ظل النظم الاستبدادية، وعلى حضورها الفاعل في الفضاء العام والخاص في أنظمة ما بعد الثورات.

تهدف هذه الورقة إلى تسليط الضوء على واقع مشاركة المرأة في الثورة الليبية التي تصدّرت مشهدها، وأهم التحديات المرتبطة بتواجدها بشكل فاعل ومؤثر. ومن دواعي التحليل سوف يتم التركيز في البدء على تشخيص واقع حال المرأة في نظام القذافي السابق وعلاقته بالمراحل التي أعقبت سقوط النظام، وإن كنا لا نرنو إلى الخروج بنتائج امبريقية فالوقت لا يزال مبكراً على استشراف دور المرأة المستقبلي في بلد تعصف به تحديات جمّة والتي تحتاج ردهاً من الزمن حتى يتضح حجم التغيير الذي قد يطرأ على وضع المرأة وحقوقها.

في سبيل تحقيق هدف الدراسة سوف يتم استخدام المنهج الوصفي في تناول حالة الدراسة والتحليل اللازم للاستنتاجات.

(1) «المرأة العربية دور فاعل في ثورات التغيير»، موقع Dw، 22/03/2011، موجود على الرابط التالي: <http://www.dw.de/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%AF-%D9%88%D8%B1-%D9%81%D8%A7%D8%B9%D9%84-%D9%81%D9%8A-%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AA-%D8%BA%D9%8A%D9%8A%D8%B1/a-14931394>

## I. تشخيص واقع المرأة في مرحلة نظام القذافي 1969-2011

## 1.1. الواقع الاجتماعي

تشغل المرأة في المجتمع الليبي نسبة الـ 50٪ تقريبا وذلك وفقا لنتائج تعداد السكان للعام 2006، التي رصدت 103 ذكر مقابل كل 100 أنثى<sup>2</sup>. ولقد حققت الإناث مراتب متقدمة في نسب الالتحاق بالتعليم يفوق مثيله عند الذكور ولاسيما في المرحلة الجامعية (الجدول 1)، وترجع زيادة نسب التحاق الطالبات بالتعليم بشكل عام والعالي على وجه الخصوص إلى دستور 1951، الذي نص في مادته الثلاثون على أن «التعليم الاولي إلزامي للبيين بنين وبنات، والتعليم الاولي والابتدائي مجاني في المدارس الرسمية»<sup>(2)</sup>، مما فتح المجال واسعا أمام الإناث بطرق أبواب التعليم مبكرا وإن اتسمت الاعداد في البدء بالتواضع لطبيعة المجتمع الراضة لخروج البنت للتعليم، الا انها سرعان ما تزايدت نتاج السياسات التعليمية

## الجدول 1

أعداد ونسبة الطالبات في الجامعات إلى العدد الإجمالي للطلبة  
خلال الفترة من 1995 / 1996 إلى 2006 / 2007

| نسبة البنات إلى العدد الإجمالي | عدد البنات | إجمالي عدد الطلبة (بنين وبنات) | لسنة الدراسية |
|--------------------------------|------------|--------------------------------|---------------|
| 51.0                           | 69499      | 136274                         | 95 / 96       |
| 51.0                           | 83640      | 165447                         | 98 / 99       |
| 52.3                           | 134901     | 257914                         | 2000 / 2001   |
| 45.0                           | 124398     | 276744                         | 2001 / 2002   |
| 51.7                           | 115276     | 222975                         | 2002 / 2003   |
| 57.1                           | 146652     | 256722                         | 2004 / 2005   |
| 58.8                           | 141551     | 240830                         | 2005 / 2006   |
| 58.3                           | 135230     | 231762                         | 2006 / 2007   |

ملاحظة: بيانات عام 2001-2002 تتضمن إحصاءات الجامعات العامة فقط

(2) الدستور الليبي 1951/7/12، موجود على الرابط التالي:

المتبعة لاحقاً في خلق التوازن الكمي بين الجنسين، لتتخطى عدد الطلبة في أغلب المراحل الدراسية. هذا ويُرجع البعض هذا التزايد في جانب منه أيضاً إلى معدل التسرب من التعليم الثانوي والانقطاع عن الدراسة الذي تزداد نسبته عند الذكور.<sup>(3)</sup>

وفي السياق عينه انخفض بالتوازي مستوى الامية عند النساء وفقاً للتعداد المذكور إلى (16.9٪) في سنة 2006، بعد ان كانت (90.9٪) سنة 1964 و (27.2٪) عام 1995 (الجدول 2)، بينما بلغت عند الذكور العام 2006 (6.2٪)<sup>(4)</sup>. أما بالنسبة لفئة الشباب في عمر 10 - 19 سنة من الجنسين فتكاد الأمية تختفي في هذه الفئة، حيث وصلت إلى أقل من 1٪ عام 2006 وفقاً للتعداد عينه، مما يعكس الجهود المبذولة التي تم بذلها في هذا الاطار.

ولقد ساهم هذا الانخراط للمرأة في التعليم بمستوياته ولاشك في تحولات مهمة في البناء الاجتماعي وزيادة معدل التغيير في المكانة الاجتماعية للمرأة، وفتح مجالاً ارحب للدخول في فضاء النشاط الاقتصادي والسياسي.

## الجدول 2

الانخفاض المحقق في نسبة الأمية حسب النوع للسكان الليبيين (15 سنة فأكثر)

| البيان | 1964 | 1984 | 1995 | 2006 |
|--------|------|------|------|------|
| ذكور   | 56.8 | 18.5 | 10.5 | 6.2  |
| إناث   | 90.9 | 47.2 | 27.2 | 16.9 |

المصدر: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، اللجنة الشعبية العامة للشؤون الاجتماعية، التقرير الوطني الدوري حول تنفيذ اتفاقية حقوق الطفل المقدم إلى لجنة حقوق الطفل بالأمم المتحدة، ص 54، 2009، موجود على الرابط التالي: [www2.ohchr.org/english/bodies/crc/docs/CRC.C.LBY.3-4.doc](http://www2.ohchr.org/english/bodies/crc/docs/CRC.C.LBY.3-4.doc)

كانت المرأة بشكل عام هي الأداة الأساسية والمفضلة التي استخدمها القذافي في محاولته لإستفزاز البناء الاجتماعي، من خلال العمل على خلخلة العلاقات التراتبية في الأسر الليبية، بالدعوة المتكررة وفي وقت مبكر جداً للنساء إلى

(3) علي الحوات، التنمية البشرية في عالم متغير: دراسات في المجتمع الليبي، الجامعة المغاربية، طرابلس، ب. ت، ص 199.

(4) التقرير الوطني الدوري حول تنفيذ اتفاقية حقوق الطفل المقدم إلى لجنة حقوق الطفل بالأمم المتحدة، مرجع سبق ذكره، ص 60.



التخلص من السيطرة الذكورية المتمثلة في الأب والأخوة والأسرة عموماً، واقتحام المجالات التي كانت الاعراف الاجتماعية ترفضها بشدة كالتدريب العسكري اليومي الاجباري في المدارس الثانوية في بداية عقد الثمانينيات، وتطبيق الخدمة الوطنية بعد التخرج في أية مؤسسة أو مجال مدني، مع انشاء كليات عسكرية متنوعة للفتيات وتوجيه الفتيات اليها ابتداءً من العام (5) 1979. هذا فضلاً عن الدعوة والحث على الانخراط في اللجان الثورية، والحرس الثوري النسائي، وحركة الراهبات الثوريات التي ابتدعها القذافي وروج لها كمراحل اساسية لتحرير المرأة و«انعتاقها»، بالرغم من تبني خطاب مناقض تماماً في كتابه الاخضر الذي أطر الدولة طيلة فترة حكمه، والذي رفض فيه ممارسة المرأة لإنشطة تتعارض مع طبيعتها(6).

## 2.1. الواقع الاقتصادي

شهدت مشاركة المرأة الليبية في القوى العاملة منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين تطوراً كبيراً، فقد ارتفعت نسبة مساهمتها في النشاط الاقتصادي من 15.65% العام 1995 إلى 29.59% عام 2006 (الجدول 3)(7)، ومع ذلك يظل حال المشاركة متواضعاً مقارنةً بنسبة المرأة إلى إجمالي السكان من جهة، وتعاطف نسبة التحاقها بمؤسسات التعليم على اختلافها من جهة أخرى. ويرجع هذا الوضع إلى تسرب النساء من سوق العمل سواء عند التخرج مباشرة أو عند الانضمام إلى فئة المستخدمين، وترتبط بعض الدراسات اسباب هذا الفقد بالعامل الاجتماعي، والذي يدفع الكثير من النساء عن الانقطاع عن العمل للزواج، فضلاً عن ندرة التسهيلات المتعلقة بدور الحضانة من حيث الجودة والتوقيت، ومن حيث وجودها من عدمه في مواقع العمل(8).

(5) امال سليمان محمود العبيدي، بوادر الإصلاح السياسي وأثره على سياسات تمكين المرأة في ليبيا: دراسة استكشافية، ص 10.

منشور على الرابط التالي: [www.womendw.org/nimages/doc12.doc](http://www.womendw.org/nimages/doc12.doc)

(6) المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الاخضر، معمر القذافي، الكتاب الاخضر: الفصل الثالث، موجود على الرابط التالي: <http://www.nmisr.com/vb/showthread.php?t=262505>

(7) التقرير الوطني للجماهيرية العظمى المقدم إلى مؤتمر التربية الدولي، الدورة 48، 2008، ص 18، موجود على الرابط التالي: [www.ibe.unesco.org/National\\_Reports/ICE\\_2008/libya\\_NR08\\_ara.pdf](http://www.ibe.unesco.org/National_Reports/ICE_2008/libya_NR08_ara.pdf).

(8) محمد رمضان ابو زعكوك، د. محمد سالم اكيبة، «التعليم ومساهمة المرأة الليبية في سوق العمل»، مجلة البحوث الاقتصادية، العددان الأول والثاني، 2009، ص ص 74-75.

الجدول 3  
التوزيع النسبي للسكان الليبيين العاملين وغير العاملين اقتصادياً  
في تعدادي عامي 1995-2006

| السنة | المساهمة بالنشاط الاقتصادي   | في المئة من مجموع السكان |       |
|-------|------------------------------|--------------------------|-------|
|       |                              | ذكور                     | إناث  |
| 1995  | عاملون بالنشاط الاقتصادي     | 56.79                    | 15.65 |
|       | غير عاملين بالنشاط الاقتصادي | 34.21                    | 84.35 |
|       | المجموع                      | 100                      | 100   |
| 2006  | عاملون بالنشاط الاقتصادي     | 60.48                    | 29.59 |
|       | غير عاملين بالنشاط الاقتصادي | 39.52                    | 70.41 |
|       | المجموع                      | 100                      | 100   |

المصدر: عبير إبراهيم أمينية، «سياسة تمكين المرأة في القطاع الاقتصادي: دراسة تقويمية لواقع مشاركة المرأة الليبية في الأنشطة الاقتصادية، 1969-2009»، مجلة البحوث الاقتصادية، العددان الأول والثاني، 2012، ص 217.

وتجدر الإشارة إلى أن هيكلية النشاط الاقتصادي تعكس انخراط النساء عموماً في مجال الخدمات العامة، حيث استحوذ هذا القطاع على أكثر من 80٪ من النساء العاملات<sup>(9)</sup>. ويرجع هذا التمرکز على ملائمة هذا النشاط لوضع الكثير من النساء المتزوجات اللاتي يبحثن عن وظائف مرنة لا تلزمهن بتوقيت ثابت، وهذا ما يوفره قطاع التعليم على سبيل المثال الذي بدأ يضم بين كوادره خريجات من كليات علمية كالهندسة والعلوم لا علاقة لها بالجانب التعليمي والتربوي.

### 3.1. الواقع التشريعي

على المستوى التشريعي تزامن تحريض النساء مع سن حزمة من القوانين جاءت لدعم المرأة، وساهمت ولاشك في تواجدها في مواقع ما كان يمكن أن تصل إليها لو استندت إلى أي حراك مدني. ولقد اكتست هذه القوانين في الظاهر بالدعوة إلى تمكينها وتشجيع انخراطها في كل الفضاءات، وحماية حقوقها أمام ذكورية المجتمع واتجاهاته التقليدية مثل القانون رقم (8) لسنة 1989، الذي منح

(9) الهيئة العامة للمعلومات، تقرير التنمية البشرية: المرأة في الجماهيرية المساواة مع الاختلاف، 2006، ص 72.

المرأة الحق في تولي المناصب القضائية المختلفة «وظائف القضاء والنيابة العامة وإدارة القضايا» بذات الشروط المقررة للرجل، ليزيد من حدة الجدل في الأوساط التقليدية التي ترى مرة أخرى في الولوج إلى السلك القضائي زجاً بالمرأة في مجالات حصرتها بعض المدارس الفقهية في الرجل. وجاء القانون رقم (22) لسنة 1991 للزواج والطلاق<sup>(10)</sup>، ليستفز التيارين الديني والتقليدي ذاته من خلال حد حرية الرجل في الزواج للمرة الثانية وذلك باشتراط موافقة الزوجة الأولى ورخصة المحكمة ثانياً، والتي عليها التحقق من قدرة الزوج المادية والصحية<sup>(11)</sup>.

وبغض النظر عن الأهداف التي كان يعجج بها رأس النظام السابق، فلقد اكتسبت المرأة بعضاً من حقوق لم تكن نتاجاً لمطالبات دؤوبة وحثيثة من حراكها في المجتمع المدني الغائب أساساً، إنما منحة وهبة من النظام السياسي، مما يعكس عدم قدرة المرأة في الذهاب أبعد مما مُنح لها وعجزها على تحقيق مكاسب أكبر تتعلق بحقوقها الأخرى، والتي يأتي على رأسها حق منح جنسيتها لأبنائها في حال زواجها من أجنبي، والذي منعه القانون، أو مكافحة التمييز الذي جاءت به بعض القوانين مثل قانون العقوبات وخصوصاً فيما يتعلق ببعض القضايا كالزنا<sup>(12)</sup>.

حتى الدعوة إلى تمكين المرأة والتعاطي معها على اعتبار أنها محرك مهم لعجلة التنمية، كان خطاباً ايدلوجياً محضاً، لم تتم ترجمته إلى سياسة واضحة ببرامج تنفيذية محددة الأهداف والأدوات، وموجهة تحديداً إلى المرأة ويتم فيها الأخذ بالاعتبار معوقات المشاركة النسائية في الخطط التنموية السابقة والعمل على

(10) «قانون رقم (22) لسنة 1991 بتعديل بعض أحكام القانون رقم 10 لسنة 1984 بشأن الأحكام الخاصة بالزواج والطلاق وأثارهما»، موقع منتدى المحامين العرب، موجود على الرابط التالي: <http://www.mohamoon.com/MONTADA/Default.aspx?action=ArabicLaw&ID=381>

(11) ولقد منح القانون المرأة الحق في حالة عدم توفر الشرطين التقدم بدعوى شفوية أو كتابة ترفعها لطلب تطليق الزوجة الثانية، يمكن مراجعة القانون رقم (9) لسنة 1993، بشأن تعديل بعض أحكام القانون رقم (10) لسنة 84 بشأن الزواج والطلاق وأثارهما، الجريدة الرسمية، العدد 5، 1993، ص ص، 122-123.

(12) على الرغم من أن الرجل والمرأة وفقاً لقانون العقوبات يعاقبان بالجلد مائة مرة لإرتكابهما الزنا، فإن المادة (375) تسمح بتخفيف الحكم على الرجل الذي يقتل إحدى قريباته من الإناث لاقتراها الزنا. إضافة إلى أنه في حالة تعرض الرجل لإحدى قريباته بالإعتداء الجسدي، فإن العقوبة بالحبس لا تتجاوز العامين، كذلك فإن الضرب والإصابات الخفيفة لا يعاقب عليها القانون ولا يوجد تشريع مشابه لذلك يتعلق بالمرأة وليس لها حقوق مماثلة.

تلافيها<sup>(13)</sup>.

#### 4.1. المرأة والمشاركة السياسية

على مستوى المشاركة السياسية للمرأة يلاحظ الحضور البسيط للنساء في المناصب العليا؛ حيث تم اختيار ست نساء فقط في أمانة مؤتمر الشعب العام - البرلمان، وثلاث فقط للجنة الشعبية العامة - مجلس الوزراء، خلال الفترة (1977-2006)، وتم تعيين عدد صغير من النساء سفيرات في الخارج<sup>(14)</sup>. وكذلك الحال بالنسبة لحضور المرأة على مستوى المحليات، حيث لم تعين أي امرأة لمنصب أمين الشعبية «المحافظ» إلا في سنة 2004، وتمت تنحيتها في أبريل 2006 لتعين بعدها كوزيرة. وتجدر الإشارة إلى أن معايير الاختيار لمناصب اتخاذ القرار، التي تكاد تتداول بين المجموعة ذاتها، كانت حكراً فقط على عضوات اللجان الثورية وتم اقصاء كل من يرى النظام امتلاكها لفكر مختلف عن طرحه الأيدلوجي.

#### 5.1. المرأة في المجتمع المدني

على مستوى الحراك المدني المؤدلج أساساً من قبل النظام لم يكن للمرأة أي تأثير، حيث ألغي الاتحاد العام للجمعيات النسائية وفروعها بمختلف المناطق، بحجة أن المرأة في ليبيا هي جزء وشريك في معظم مؤسسات صنع القرار، ولقد أدرجت بناء على هذا الخطاب الجمعيات النسائية في المؤتمرات الشعبية وظلت بعيدة كل البعد عن القاعدة وفرغ مضمون العمل الجمعياتي من محتواه<sup>(15)</sup>.

كذلك تجلّت هشاشة دور المرأة وغيابها في الفضاء المدني في ضعف مشاركتها في العمل النقابي، وإذا ألقينا نظرة سريعة على طبيعة هذه المشاركة، نلاحظ أنه تم اختيار (28) امرأة فقط، أي حوالي (0.29 %) للمجالس النقاوية العام 2009<sup>(16)</sup>، علماً بأن أجمالي المنتسبين للنقابات والاتحادات والروابط المهنية على مستوى مدينة

(13) عبير إبراهيم أمينية، «سياسة تمكين المرأة في القطاع الإقتصادي دراسة تقييمية لواقع مشاركة المرأة الليبية في الأنشطة الاقتصادية، 1969-2009»، مرجع سبق ذكره، ص 225.

(14) امال سليمان محمود، مرجع سبق ذكره، ص 15.

(15) لمزيد من المعلومات، يمكن الرجوع إلى: ام العز الفارسي، المرأة والمشاركة السياسية في ليبيا 1977-2005، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2008، ص ص 206-210.

(16) الدليل النقابي لأمانة شؤون النقابات والاتحادات والروابط المهنية، شعبية بنغازي، بدون بيانات أخرى.

الجدول 4  
واقع المشاركة النسائية في النقابات المهنية، الإنتاجية والخدمية  
2009 على مستوى مدينة بنغازي

| المصعدات  |           | عدد المختارين<br>«المصعدين» | العدد | المتسبون للنقابات والاتحادات والروابط<br>المهنية بمدينة بنغازي |
|-----------|-----------|-----------------------------|-------|--|
| النسبة    | العدد     |                             |       |  |
| 0%        | لا يوجد   | 112                         | 18248 | عدد المتسبين للنقابات الحرفية                                  |
| 5%        | 15        | 330                         | 32910 | عدد المتسبين للنقابات المهنية                                  |
| 3%        | 13        | 515                         | 33376 | عدد المتسبين للمؤتمرات النقابية الإنتاجية والخدمية             |
| غير متوفر | غير متوفر | 15                          | 930   | عدد المتسبين للروابط المهنية                                   |

المصدر: الدليل النقابي لأمانة شؤون النقابات والاتحادات والروابط المهنية بشعبية بنغازي، بدون بيانات أخرى

بنغازي يناهز الـ (85458)، وهي مشاركة جد هزيلة. وبشكل أكثر تفصيلي يوضح (الجدول رقم 4) غياب النساء عن مجالس النقابات الحرفية في المدينة البالغ عددها (112)، بينما لوحظ أن أكثر معدل مشاركة للمرأة يسجل في النقابات المهنية، حيث بلغت نسبتها إلى الرجال 5.5٪، ومع ذلك تظل ضعيفة، بالإضافة إلى نسبة تمثيل المرأة في المؤتمرات النقابية الخدمية والإنتاجية والتي ما كانت أفضل حالاً من سابقتها حيث سجلت (3٪) من إجمالي الذين تم اختيارهم<sup>(17)</sup>.

## II- دور المرأة في حراك 17 فبراير 2011

لم يكن حراك المرأة في ثورة فبراير وليد اللحظة، إنما كان جزءاً من متوالية اعتصامات استمرت أربعة أعوام أمام محكمة الشمال في مدينة بنغازي، قمن بها أمهات وأخوات وزوجات المعتقلين في سجن بوسليم رغم المضايقات والمواجهات مع قوات أمن النظام السابق، للمطالبة بالكشف عن مصير أبنائهن الذين تم قتلهم من قبل النظام فيما يعرف إعلامياً «بمذبحة سجن بوسليم» التي اودت بحياة أكثر

(17) عبير إبراهيم أمينية، «مساهمة المرأة في العمل النقابي: دراسة حالة لدور المرأة في نقابة المحامين»، مجلة البحوث الاقتصادية، المجلد التاسع عشر، العدد الثاني، ديسمبر 2008، ص 11.

من 1200 منهم. إن هذا الحراك كان له الدور الاساسي في اندلاع الثورة في ليبيا وتحقيق عنصر المباغثة للنظام الذي كان يهيئ قواته للانقضاض على المظاهرات المععلن القيام بها في السابع عشر من فبراير من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، قبل أن يستبق الأحداث اعتصام أهالي السجناء تتقدمهم نساؤهم باشعال الشرارة يوم الخامس عشر، ولتنطلق الشعارات التي كانت ترددها وبقية المتظاهرين من اهالي الضحايا وبعض المارة لتؤذن بداية المواجهات الأولى مع النظام.

شرعت المرأة في ليبيا منذ بدايات الثورة في اقليم برقة شرق البلاد التي سقط فيها النظام بشكل سريع في احتلال الفضاء العام بكل ابعاده فتواجهت بشكل يومي في ساحة الاعتصام مما منح تواجدها بعدا مواطنيا وحقوقيا، وشاركت في تأسيس اول تنظيم سياسي كان بمثابة مجلس لقيادة الثورة الليبية عرف بإسم «ائتلاف 17 فبراير»، كما انهمكت في منظمات المجتمع المدني التي عنت في البدء بتعبئة الفراغ الناجم عن سقوط مؤسسات الدولة وتقديم الخدمات كافة لإهالي المدينة، هذا فضلا عن المشاركة بفعالية في الاغاثة والتوعية المدنية والتواصل الاعلامي مع الاعلام الخارجي وخدمة النازحين خارج البلاد، والانخراط في لجان تقصي الحقائق وتوثيق حالات الموت والعنف الممارس من قبل كتائب القذافي إبان مرحلة المواجهات المسلحة، دون اغفال دورها في امداد جهات القتال بالوجبات التي لم تنقطع والتي كانت تتم بجهود نساء ورجال مدينة بنغازي.

لعل تأخر فترة التحرر في غرب البلاد من نظام القذافي ساهم في تشكيل ملامح مختلفة لدور المرأة التي كانت هدفا مباشرا لقمع النظام فعانت ويلات الاعتقال، وشاركت مع ذلك في تهريب السلاح والمنشورات وتعرضت للإعتداء الجسدي والاعتصاب من قبل كتائب النظام.<sup>(18)</sup> لا ننسى في هذا الخضم الدور الذي ساهمت به ايضا المرأة الليبية في الخارج من دعم لوجستي ومساهمة في تسيير عمليات الاغاثة، فضلا عن التخاطب مع مؤسسات اعلامية اجنبية للتعريف بانتهاكات النظام السابق وممارساته القمعية لوأد الحراك الليبي.

ولقد كانت عسكرة الثورة ايدانا «بغيباب المرأة من المشهد كمحرك فاعل

(18) «ايمان العبيدي تحكي تفاصيل خطفها واغتصابها من كتائب القذافي»، 10 أبريل 2011، موقع قناة العربية، موجود على الرابط التالي: <http://www.alarabiya.net/articles/2011/04/10/144951.html>

وخروجها فقط للإعلام» كمعدّة وجبات للثوار»، تزامن ذلك مع بناء حاجز حديدي يفصل المعتصمين عن المعتصمات في الساحات بحجة حماية المرأة من تواجدها مع الرجل، ومن المفارقة دفاع كثير من النساء عن أهمية وجود الساتر وتهليلها لإحترام خصوصيتها من قبل مشرفي الساحة، وارتسمت بذلك أولى المشاهد على أيدي النساء ويأسم الحماية في استمرارية الهيمنة الذكورية. واكتست الدعوات إلى ازالته التي تمّ تبنيها من بعض الناشطات في مجال حقوق المرأة بتهم الدعوى إلى الإختلاط والعبث بالقيم المجتمعية التقليدية، واتهمت النساء «السافرات» من منابر المساجد بأنهن من آخر النصر وزاد من أمد المواجهات مع كتائب النظام.

## 1.2. المرأة في خطاب التحرير

بعد معارك محتدمة لثمان اشهر مع كتائب نظام القذافي، جاء خطاب التحرير في بنغازي (يوم الأحد 23/10/2011) المنتظر منه التأكيد على مبادئ الثورة وتأسيس دولة القانون والعدل ليركز على المرأة، ليس من واقع التأكيد على حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وانما لتدشين إلغاء أي تقنين كان سائدا في حقبة النظام السابق نحو تعدد الزوجات وكإن الثورة لم تقم الا لفتح باب التعدد دونما شروط<sup>(19)</sup>. هذا الخطاب لم يكن مجرد سقطه سياسية أو ما شابه من قبل رئيس المجلس الانتقالي، إنما تعبير دقيق وعاكس لنظرة الاقطاب المؤثرة في المشهد السياسي إلى المرأة واعادة ترتيب العلاقات والادوار في هذا المجتمع، بشكل يسمح باستمرار البناء البطريكي الذي يحكمه<sup>(20)</sup>. ولقد تعزز هذا

(19) أظهرت النتائج النهائية لتعداد السكان لعام 2006، أن ظاهرة تعدد الزوجات بين السكان الليبيين محدودة جداً. فقد بلغ عدد الذكور الليبيين ممن أعمارهم (15 سنة فما فوق) المتزوجين بزوجة واحدة ما مجموعه (743887) نسمة من بين إجمالي الذكور الليبيين المتزوجين البالغ عددهم (763519) نسمة، وبذلك فإن نسبة الذكور الليبيين المتزوجين بزوجة واحدة تبلغ حوالي (97.4%)، وأن نسبة الذكور الليبيين المتزوجين بزوجتين تشكل (2.36%)، أما الذكور الليبيين المتزوجين بثلاث وأربعة فقد بلغت نسبتهم (0.21%)، وبمقارنة هذا المؤشر بما كان عليه في تعداد عام 1995، نلاحظ أن هناك انخفاض بسيط في نسبة الذكور المتزوجين بأكثر من زوجة؛ فقد كانت نسبة المتزوجين بزوجة واحدة يشكلون نسبة (96.44%) ارتفعت هذه النسبة في التعداد الحالي إلى (97.43%) أي بزيادة حوالي (1%).

(20) في السياق عينه يأتي طرد مذيعة حفل انتقال السلطة إلى اول مؤسسة منتخبة للبلاد على كل وسائل الاعلام المحلية والاعلامية من قبل رئيس المجلس الانتقالي، بحجة انها لا ترتدي الحجاب وبعدم قبوله بسلوك ينافي التقاليد، لينبئ بقدوم مرحلة انتهاك للحريات الشخصية التي تلبس بلباس محدد للدين، ويرسم سياسة ترسيم للأدوار المستقبلية للمرأة. يمكن مراجعة:

الاتجاه بصدور القرار رقم (1621) لوزير العدل في نوفمبر، 2013 والقاضي بتشكيل لجنة لمراجعة التشريعات المعمول بها واقتراح تعديلها بما لا يتناقض مع الأحكام القطعية والقواعد الأساسية للشريعة الإسلامية، علماً بأن هذه اللجنة لا تتضمن أي سيدة بين أعضائها<sup>(21)</sup>. ولم يتأخر المؤتمر الوطني العام في هذا السياق كثيراً حيث اصدر بياناً في ديسمبر 2013، يعلن فيه أن «الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع في ليبيا، وأنه يقع باطلاً كل ما يخالف أحكامها من التشريعات وكل مؤسسات الدولة ملزمة بذلك»<sup>(22)</sup>.

إن هذا التوجه الصريح ناحية أسلمة المجتمع لا تملك أن تفرضه أي مؤسسة كانت تشريعية أو تنفيذية دون الانتظار بما قد يتم الاتفاق عليه في الدستور المتوقع انجازه العام 2015، ولا سيما فيما يتعلق بمكانة الشريعة فيه.

### III. المرأة وتشريعات المرحلة الانتقالية

لم يخص الإعلان الدستوري المرأة بنص منفصل، ولكنه أيضاً لم يغفل عن التأكيد على المساواة من مدخل المواطنة حيث نصت المادة (6) من الإعلان على أن «الليبيين سواء أمام القانون، ومتساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، وفي تكافؤ الفرص، وفيما عليهم من الواجبات والمسؤوليات العامة، لا تمييز بينهم بسبب الدين أو المذهب أو اللغة أو الثروة أو الجنس أو النسب أو الآراء السياسية أو الوضع الاجتماعي أو الانتماء القبلي أو الجهوي أو الأسرى»<sup>(23)</sup>. وجاء

«مديعة حفل انتقال السلطة في ليبيا: بكيث بعد أن طردني عبد الجليل لأنني غير محجبة»، جريدة الشرق

الوسط، العدد 12311، 12 أغسطس 2012، موجود على الرابط التالي:

<http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&article=690521&issueno=12311#.U3s76XYTTIU>

(21) قرار وزير العدل رقم (1621) لسنة 2013م بشأن تشكيل لجنة لمراجعة التشريعات، الموقع الرسمي لوزارة

العدل، موجود على الرابط التالي:

<http://www.aladel.gov.ly/main/modules/sections/item.php?itemid=455>

(22) «المؤتمر الوطني الليبي الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع»، 13/12/2013، موجود على الرابط التالي:

<http://arabic.arabia.msn.com/news/middle-east/8001720/%d8%a7%d9%84%d9%85%d8-%a4%d8%aa%d9%85%d8%b1-%d8%a7%d9%84%d9%88%d8%b7%d9%86%d9-%8a-%d8%a7%d9%84%d9%>

(23) المجلس الوطني الانتقالي، «الإعلان الدستوري المؤقت»، 3/8/2013، الجريدة الرسمية، موجود على الرابط

التالي: <http://www.log.gov.ly/home/>



القانون رقم (4) لسنة 2012 للانتخابات ليفتح المجال واسعا أمام مشاركة النساء في عضوية المؤتمر الوطني العام، حيث أشارت المادة الخامسة عشرة من القانون إلى ترتيب المرشحين من الذكور والإناث عموديا وافقيا، ورفض قوائم الاحزاب التي لا تحترم هذا المبدأ، الأمر الذي سمح للمرأة بالحضور في أول برلمان بعد الثورة بشكل مقبول نسبيا.

وما لبث أن جاء القانون رقم (17) لسنة 2013 لإنتخاب الهيئة التأسيسية لوضع الدستور، مانحاً للمرأة كوتا 10٪ بمعنى ستة مقاعد من واقع ستين وهي نسبة ضئيلة، تم التوصل إليها بعد مقاومة شرسة من نواب التيار الاسلامي في المؤتمر الوطني العام. وتمترس ايضا تحت حجة كفاءة المرأة التي هي خير ضامن لمشاركتها السياسية المناوئين لتواجد المرأة في الفضاء العام ليبرروا عدم موافقتهم على تخصيص حصة بعينها، وترك المجال مفتوحاً لقدرات المرأة على الترشح وعدم النص على ذلك.

كذلك في السياق عينه جاء القانون (59) لسنة 2012 لنظام الادارة المحلية في ليبيا ليمنح مقعداً واحداً للمرأة في المجلس البلدي<sup>(24)</sup>، ومنح القانون رقم (3) لسنة 2012 الخاص بإنشاء المفوضية العليا للانتخابات النساء مقعدين من اجمالي (15) مخصصة لمجلس المفوضية أي بنسبة 13٪، إلا أن سرعان ما انسحبت المرأتان دون اي تبرير ولم يتم تعويضهما لاحقاً. ولقد أعيد تشكيل أعضاء المفوضية استعدادا لإنتخابات الهيئة التأسيسية لوضع الدستور بناء على قرار المؤتمر الوطني العام رقم (40) لسنة 2013، ومثلت المرأة بمقعد واحد من واقع سبعة أي بنسبة 14٪<sup>(25)</sup>.

(24) القانون 59 لسنة 2012 لنظام الادارة المحلية، موقع المجلس الوطني الانتقالي، منشور على الرابط التالي:  
[http://www.ntc.gov.ly/index.php?option=com\\_k2&view=item&id=126:%D9%82%D8%A7-%D9%86%D9%88%D9%86-%D8%B1%D9%82%D9%85-59-%D9%84%D8%B3%D9-%86%D8%A9-2012%D9%85-%D8%A8%D8%B4%D8%A3%D9%86-%D9%86%D8-%B8%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D8-%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D9%84%D9%8A%D8%A9&Itemid=10](http://www.ntc.gov.ly/index.php?option=com_k2&view=item&id=126:%D9%82%D8%A7-%D9%86%D9%88%D9%86-%D8%B1%D9%82%D9%85-59-%D9%84%D8%B3%D9-%86%D8%A9-2012%D9%85-%D8%A8%D8%B4%D8%A3%D9%86-%D9%86%D8-%B8%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D8-%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D9%84%D9%8A%D8%A9&Itemid=10)

(25) «قرار المؤتمر الوطني العام رقم (40) لسنة 2013 بشأن تسمية رئيس وأعضاء مجلس المفوضية الوطنية العليا للإنتخابات»، جريدة المنارة الالكترونية، منشور على الرابط التالي:

<http://www.almanaralink.com/press/2013/04/31646/>

• وفقاً لأخر احصائية صادرة من المجلس الأعلى للقضاء يبلغ عدد أعضاء الهيئات القضائية في ليبيا بالكامل (3658) عضواً منهم (1431) سيدة وعدد (2227) رجل، وتبلغ نسبة مشاركة المرأة 39، مروان الطشاني، «القضاء

وفي إطار التشريعات ولكن من جهة مختلفة، بدأت المحكمة العليا في استلام الطعون الخاصة ببعض القوانين التي سنت إبان النظام السابق، فلقد نظرت المحكمة العليا في الطعن المقدم ضد قانون الزواج والطلاق المشار اليه آنفاً وتعديلاته وقبلته، وبموجب ذلك، تم رفع القيود حيال شروط الزواج المتعدد، واضحى من حق الرجل في ليبيا الزواج مثنى وثلاث ورباع دون إعلام الزوجة. كما تعكف المحكمة العليا من خلال دائرتها الدستورية على النظرفي طعن اخر لم يبت فيه بعد متعلق بمنع المرأة من اعتلاء سدة القضاء لمناهضة ذلك للشرع وفقاً للدعوى المقدمة في هذا الصدد\*.

اجمالا لم تفرز المرحلة أياً من القوانين تحفظ حقوق المرأة كمواطنة ويحميها، بل الانكى من ذلك، شهد الواقع الليبي تدخّل المفتي في كثير من القضايا، لعل من أهمها طلبه من وزارة الشؤون الاجتماعية إيقاف اجراءات حق زواج الليبية من غير الليبي، لعدم الأهلية وبحجة حمايتها مبررا طلبه بتزايد الشكاوى» حول استغلال الشيعة القادمين من إيران ضعف الادارة والوضع الامني، وضبط سورين دروز «يتزوجون من اسرٍ ليبية بشكل متزايد»، واستطرد قائلاً «تأمل دار الإفتاء من الوزارة عدم منح الاذن لزواج الليبات من الاجانب إلى أن تتضح الامور تحقيقاً للمصلحة العامة». وفي هذا ليس انتهاكاً لحقوق المرأة فحسب ولكن لماحلته الشريعة السمحاء ايضاً<sup>(26)</sup>، وتجدر الإشارة إلى دفاع وزيرة الشؤون الاجتماعية المستميت عن طلب المفتي والشروع في تنفيذه كإجراء مؤقت<sup>(27)</sup>. هذا ولم تتوقف دعاوى المفتي إلى هذا الحد، إنما وجّه من خلال بيان له طلباً للمؤتمر الوطني بضرورة البحث في آلية الفصل بين الجنسين في المؤسسات التعليمية والعامّة.

في المرحلة الانتقالية وافق الاصلاح»، مؤتمر القضاء والمرحلة الانتقالية في تونس وليبيا، تونس، ديسمبر 2013، بحث غير منشور.

(26) «منع الليبات من الزواج بأجانب»، جريدة الحياة، الأربعاء 27 مارس 2013، موجود على الرابط التالي: <http://alhayat.com/Details/497231>

(27) «اوقفنا زواج الليبات من أجانب بشكل مؤقت»، مراسلون وجهها لوجه مع ليبيا، 27/5/2013، <http://www.correspondents.org/ar/node/2677>

## IV- المرأة وطبيعة مشاركتها في مؤسسات المرحلة الانتقالية

### 1.4. المجلس الوطني الانتقالي

شُكّل المجلس الوطني الانتقالي بتاريخ 27 فبراير 2011 من مجموعة من الأعضاء لم يُعرف عددهم بالتحديد حتى نهاية عمر المجلس، وإن تراوحت التقديرات ما بين (75-90) عضو منهم سيدة واحدة، قبل ما تُلحق بها أخرى في يوليو 2011. ويعكس هذا التمثيل الضعيف للمرأة صورة واقعية لنظرة مجتمع ما بعد الثورة لها، حيث لم يفلح الدور الذي لعبته في منحها مكانة تتلائم مع فعالية وجودها بحجة حساسية المرحلة التي تفرض تصدّر الرجال للمشهد السياسي.

### 2.4. السلطة التنفيذية

شهدت المرحلة الانتقالية ثلاث حكومات بمسميات مختلفة فرضتها طبيعة المرحلة (المكتب التنفيذي برئاسة د. محمود جبريل، الحكومة الانتقالية برئاسة د. عبدالرحيم الكيب، الحكومة المؤقتة برئاسة ا.علي زيدان).

وما يلاحظ على وضع المرأة في هذه الحكومات التشابه إلى حد كبير، حيث ضعف التمثيل الذي تراوح ما بين مقعد واحد أو اثنين «الجدول 5»، وأن تواجدت المرأة في منصب وكيل وزارة بنسب متواضعة.

### 3.4. المؤتمر الوطني العام

نجحت المرأة في ليبيا في الحصول على (33) مقعداً من واقع ثمانين مخصصاً للأحزاب، ومقعد واحد من واقع (120) مخصصة للمستقلين. ولعل من المفيد الإشارة إلى أن حصول المرأة على عدد (32) مقعداً، لا يرجع إلى قناعة المجتمع بدورها واعترافاً بقدرتها على ممارسة العمل السياسي، بقدر ما ينسب إلى القانون رقم (4) للانتخابات، الذي كما اسلفنا في موقع سابق من الورقة، نص على وجود النساء في القوائم الحزبية بكيفية تضمن ترشحن، ولعل فوز سيدة واحدة على النظام الفردي من إجمالي (2494) مرشح، يوضح لنا الصورة الجلية لنظرة المجتمع الليبي لدور المرأة وفي العمل السياسي برمته. ويعكس (الشكل 1) المشاركة الضعيفة للنساء للترشح للمقاعد الفردية والتي وصلت إلى صفر في إحدى الدوائر.

الجدول 5  
موقع المرأة في السلطة التنفيذية 2011/2013

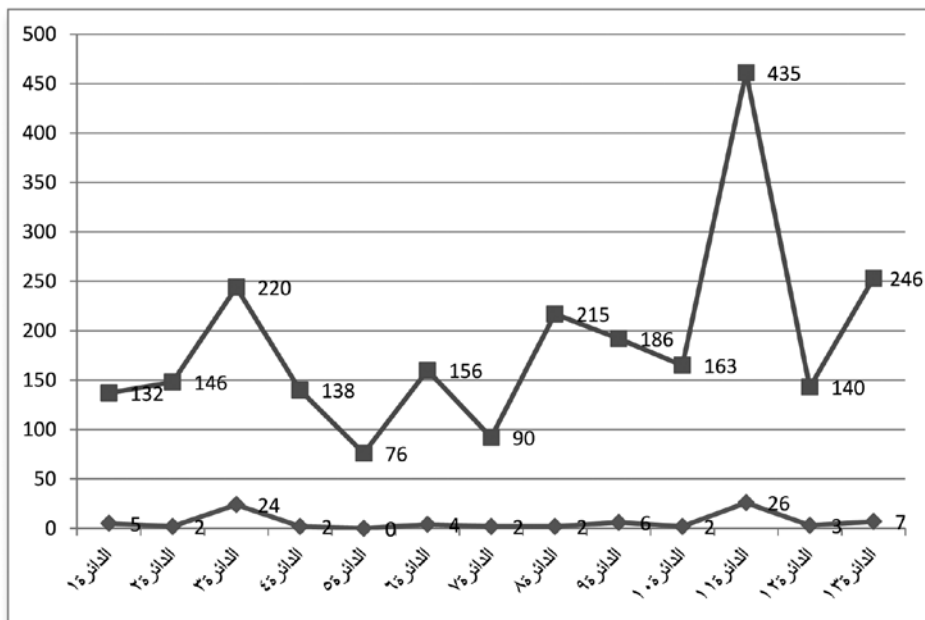
| النسبة للمجموع العام | عدد وكيلات الوزارة والوكيلات المساعدات   | النسبة للمجموع العام | عدد الوزارات التي تشغلها المرأة | السلطة التنفيذية                              |
|----------------------|--|----------------------|---------------------------------|---|
| 0٪                   | —  | 6.2٪                 | 1 الشؤون الاجتماعية             | المكتب التنفيذي (مارس 2011 – 11/22/2011)      |
| 13.6٪                | سنة وكيالات «الشباب والرياضة، الشؤون الاجتماعية، الثقافة والمجتمع المدني، التعليم، واسر الشهداء» | 8٪                   | 2 الشؤون الاجتماعية، الصحة      | الحكومة الانتقالية (22/11/2011 – نوفمبر 2012) |
| 9.9٪                 | أربع وكيالات   | 0.06٪                | 2 الشؤون الاجتماعية والسياحة»   | الحكومة المؤقتة 22-12/2012 حتى تاريخه         |

والجدير بالذكر أنه حتى في المناطق التي شهدت الحراك النسائي الأكبر في بداية الثورة سجل ترشح المرأة ضعفاً في الاقبال، وهنا نشير إلى الدائرة الانتخابية الثالثة بنغازي؛ والتي سجل فيها (24) مترشحة مقابل (303) مترشح أي بنسبة مشاركة 0.07 ٪.

ولم يتقبل البعض مشاركة النساء في الانتخابات، حيث عانت المرأة المترشحة كثيراً خلال حملتها الانتخابية من محاولات للتخريب والتشويه لصورها الانتخابية من قبل بعض الجماعات التي ترى في نشر صور النساء امراً متنافياً مع القيم الدينية والاجتماعية. ولعلّ ما يلاحظ على برامج المترشحات الغياب بشكل لافت لقضايا وموضوعات المرأة وهمومها عن برامجها، حيث ركزن إجمالاً على المصالحة الوطنية والأمن وبناء الجيش وعود اكتست بطابع جهوي ضيق، الأمر الذي يعني أن تمكين المرأة وتحسين وضعها في المجتمع هو خارج إطار اهتمامات المترشحات أساساً، وأن قبولهن الترشح على القوائم الحزبية لم يكن وراء هدف خاص بالنهوض بوضع المرأة وحقوقها بقدر انشغالها بأولويات أخرى أو غياب

## الشكل 1

عدد النساء المترشحات في نظام الفردي مقارنة بالرجال في الدوائر الانتخابية المختلفة



المصدر: عبير أمينية، «انتخابات المؤتمر الوطني العام»، التقرير الاستراتيجي 2012، مركز الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، «تحت الطبع».

هذه الاولويات بالاساس<sup>(28)</sup>.

إن ما يمكن ملاحظته على أول انتخابات شعبية تمت بعد الانتهاء من نظام القذافي، هو أنه بالرغم من نسبة مشاركة النساء في التصويت، والتي بلغت 39٪، فإن المرأة لم تصوت للمرأة وهذا ما يبزر عدم فوز النساء بأكثر من مقعد في قائمة الفردي، ولعل في ذلك مؤشراً على عدم ثقة النساء في قدرة وكفاءة بنات جنسهن، وإعادة إنتاج أحكام الدونية التي يسقطها المجتمع عموماً على المرأة لتمارسها الأخيرة على المترشحات لمنصب صنع القرار.

(28) عبير أمينية، «انتخابات المؤتمر الوطني العام»، التقرير الاستراتيجي 2012، مركز الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، «تحت الطبع».

## 4.4 - المرأة في الهيئة التأسيسية لصياغة الدستور

كشفت عملية انتخابات الهيئة التأسيسية لصياغة الدستور عن الاقبال الضعيف للرجال والنساء على حد سواء لإسباب تتعلق بالامن وبتحديات معيشية وشعور بإحباط عام نتاج اداء مؤسسات الدولة، فلقد افادت المفوضية الوطنية العليا للانتخابات في هذا الاطار، بانه قد وصل عدد الناخبين المسجلين إلى (1,101,541) منهم (652,040) رجال، و(449,501) نساء، ولقد انتخب منهم فقط 28٪، وهذه النسبة ضعيفة جدا مقارنة بعدد الليبيين المتمتعين بالحق الانتخابي والمقدرين بعدد (3,401,000)، اي ان نسبة الناخبين لم تتجاوز 10 ٪ من الاجمالي.

ولقد توزع المترشحون على المناطق الجغرافية الثلاثة بقوائم على العام للمترشحين، وتوزعت النساء على القوائم الخاصة والعامه كما هو واضح من (الجدول 6 و7)<sup>(29)</sup>.

## الجدول 6

## المترشحون والمترشحات للهيئة التأسيسية لصياغة الدستور «لجنة الستين»

| الاجمالي | المترشحات |         | المترشحون | الدائرة       | المنطقة     |
|----------|-----------|---------|-----------|---------------|-------------|
|          | الخاص     | العام   |           |               |             |
| 27       | لا يوجد   | 1       | 26        | سرت           | غرب ليبيا   |
| 48       | لا يوجد   | لا يوجد | 48        | مصراة         |             |
| 187      | 20        | 5       | 162       | طرابلس        |             |
| 62       | لا يوجد   | 2       | 60        | الزاوية       |             |
| 56       | 6         | لا يوجد | 50        | «البطنان»     | شرق ليبيا   |
| 55       | 5         | لا يوجد | 50        | الجبل الأخضر  |             |
| 86       | 12        | لا يوجد | 74        | ينغازي الكبرى |             |
| 85       | 11        | لا يوجد | 74        | سبها          | جنوب البلاد |
| 48       | لا يوجد   | 1       | 47        | اوباري        |             |
| 2        | لا يوجد   | لا يوجد | 2         | غدامس         |             |
|          | 54        | 9       |           |               |             |
| 656      |           | 63      | 593       |               | الاجمالي    |

المصدر: المفوضية العليا للانتخابات، على الرابط التالي [www.hnec.ly](http://www.hnec.ly)

(29) موقع المفوضية العليا للانتخابات/ [www.hnec.ly](http://www.hnec.ly)

## الجدول 7

## المرشحون والمرشحات على مقاعد الفئات الخاصة

| الاجمالي | المرشحات |       | المرشحون | الدائرة | الفئة    |
|----------|----------|-------|----------|---------|----------|
|          | الخاص    | العام |          |         |          |
| 7        | 1        | -     | 6        | اجدابيا | التبو    |
| 7        | -        | -     | 7        | اوباري  |          |
| 1        | -        | -     | 1        | غدامس   | الطوارق  |
| 5        | -        | -     | 5        | اوباري  |          |
| 20       | 1        | -     | 19       |         | الاجمالي |

المصدر: المفوضية العليا للانتخابات، على الرابط التالي [www.hnec.ly](http://www.hnec.ly)

ويلاحظ من الجدولين (6،7) أن عدد المرشحات على القوائم الخاصة بالمرأة بلغ (55) مترشحة اي بنسبة 0.08% من اجمالي المرشحين، و(9) مترشحات على قوائم العام بنسبة 0.01% من اجمالي المرشحين عن العام. وتعكس البيانات الواردة حقيقة ان المقاعد الممنوحة للنساء تم توزيعها بشكل غير عادل بين الدوائر الانتخابية؛ فوفقا لقانون الانتخابات حُرمت النساء في سرت ومصراتة والزاوية وهي مدن كبيرة من التنافس على القوائم الخاصة بهن مما يرفع من امكانية فوزهن، مما دفعهن للترشح على العام وفقدان احتمالية الفوز بالضرورة لإن اتجاهات التصويت تميل لإن تكون إلى جانب المرشحين الرجال، وهذا ما خلصت اليه النتائج فعلا حيث عكست عدم فوز اي من السيدات المرشحات على قائمة العام، وفي المقابل ارتفاع عدد الاصوات الممنوحة للفائزات في المقاعد الخاصة عن الفائزين في مقاعد العام لنفس الدائرة (الجدول 8)، وهذا يعكس اهمية الكوتا للمرأة والتي يصعب على النساء التقدم للأمام والنجاح بدونها في اطار مجتمع لا يزال يلقي بشكوكه على قدرة المرأة في ممارسة العمل السياسي، وان كان اقرارها يجب أن يكون بصفة مؤقتة وليس دائمة، حيث يجب على النساء بناء قاعدتهن الشعبية والعمل على كسب الثقة والقدرة على التغيير.

الجدول 8  
مقارنة نتائج انتخابات الهيئة التأسيسية لصياغة مشروع  
الدستور بين المترشحين والمترشحات

| عدد<br>الاصوات | اسم المرشح             | نوع التنافس | رقم الدائرة<br>الفرعية | الدائرة الرئيسية | رقم الدائرة<br>الرئيسية |
|----------------|------------------------|-------------|------------------------|------------------|-------------------------|
| 15031          | سالم محمد سالم         | عام         | 1                      | طرابلس           | 2                       |
| 16305          | اعتماد عمر احمد        | خاص         |                        |                  |                         |
| 17996          | محمد التومي            | عام         | 3                      |                  |                         |
| 18906          | زينب علي سليمان        | خاص         | 3                      |                  |                         |
| 2403           | محمد محمد عبدالقادر    | عام         | 1                      | سبها             | 1                       |
| 2933           | نادية محمد مفتاح       | خاص         |                        |                  |                         |
| 359            | صلاح الدين عثمان       | عام         | 2                      |                  |                         |
| 3516           | رانيا عبدالسلام محمد   | خاص         |                        |                  |                         |
| 20835          | علي عبدالسلام الترهوني | عام         | 1                      | بنغازي الكبرى    | 3                       |
| 21426          | ابنسام احمد عثمان      | خاص         | 1                      |                  |                         |

وتجدر الاشارة إلى أن قانون انتخابات الهيئة التأسيسية أربك إرادة الناخبين فيما يخص التنافس الخاص للنساء، الذي أقر أن تكون المرأة طاردة لمقعد الرجل في بعض الدوائر الانتخابية، فاضطر الناخبون إلى الالتفاف على القانون حتى لا يخسر الرجال مقاعدهم؛ حيث إنه وبحسب النص تحل المرشحة الحائزة على أعلى عدد من الأصوات ضمن تنافس المرأة محل أحد الفائزين في السباق العام من نفس الدائرة الفرعية المسجلة بها<sup>(30)</sup>.

ولم يكتمل نصاب المرأة في هذه الهيئة والذي اقره القانون وحدده في ستة سيدات، حيث حال عجز المؤسسات الامنية في البلاد على تأمين مراكز الاقتراع وحمايتها في مدينة درنة مما افشل العملية الانتخابية هناك وخفض من عدد النساء في الهيئة التأسيسية إلى خمسة عوضاً عن ستة، ولازال المقعد الممنوح للمرأة معلقاً ومرهوناً بالتحدي الامني.

(30) عائشة إبراهيم، الوقائع والأرقام الكاملة في انتخابات «لجنة الستين»، بوابة الوسط، الأحد، 9 مارس، موجود على الرابط التالي:



#### 5.4. المرأة والاعلام

لم تغب المرأة الليبية منذ بدايات الثورة الأولى عن الاعلام كمتحدثة وكإعلامية وكموضوع خبر ورئيسة تحرير لصحف دورية. فلقد شهدت الثورة بروز مجموعة من الشابات على المشهد الاعلامي كان لهن دور واضح في التأثير من خلال برامجهن الاعلامية المرئية والمسموعة في الثورة، ومنهن من تحصل مؤخرا على تقدير دولي<sup>(31)</sup>. ووجود النساء في مجال الاعلام المرئي لم يكن فقط أمام الكاميرا إنما في غرف الاخبار والتحرير وايضا في ادارة القنوات.<sup>(32)</sup> دون اغفال الصحف التي انشأتها وتصدرت رئاسة تحريرها والتي اعطت صورة أخرى للمرأة الليبية التي بدأت تقتحم فضاءات لطالما ابعدت عنها وظلت طيلة العهد السابق مقترنة بالموالين من الجنسين<sup>(33)</sup>.

ومع ذلك سيطرت الصورة النمطية للمرأة على المشهد الاعلامي من خلال التركيز الدائم سواء من قبل المتحدثين أو من البرامج التي وثقت لحراك المرأة على دورها المتمثل في الطبخ للشوار إبان المواجهات مع كتائب القذافي، عوضاً عن التركيز على ادوارها الأخرى في الثورة وخلال المرحلة الانتقالية. كما تناولت الرسالة الاعلامية عملية تقديم المرأة في الاعلام بشكل مقترن دائماً بالغير وليس ككينونة منفصلة، حيث قُدمت كأُم الشهيد، واخت الشهيد، وزوجة الشهيد، وجودها مقترن بالرجل، وليس كمواطنة لها حقوقها بمعزل عن دورها أو موقعها في المنظومة الاجتماعية، بل اصبح هذا الاقتران كخطاب متفق عليه ضمناً يُفتتح به اي لقاء حول حقوق المرأة ودورها في المجتمع.

#### 6.4. العنف ضد المرأة

وكان للمرأة في ليبيا ان تعاني جزءاً من آثار النزاعات المسلحة، فعلى مستوى الممارسة لم يخل خروج المرأة لمباشرة حياتها العملية من التعرض إلى التحرش والعنف اللفظي والجسدي والاعتصاب، الذي لم تنج منه حتى مريضة في غرفة

(31) حنان المقوب تم اختيارها من قبل منظمة مراسلين بدون حدود من ضمن أكثر 100 شخصية اعلامية في العالم مايو 2014، موجود على الرابط التالي:

<http://heroes.rsf.org/ar/2014/04/29/%D8%AD%D9%86%D8%A7%D9%86->

(32) هدى السراري مدير قناة ليبيا لكل الأحرار «نموذجاً».

(33) فاطمة الغتدور مدير تحرير مجلة الميادين، وتهاني دربي رئيس تحرير جريدة الاحوال «نموذجاً».

العناية الفائقة<sup>(34)</sup>، هذا فضلا عن الخطف من قبل جهات مسلحة غير معروفة ولأسباب مجهولة، دون أن تتكلف الدولة مشقة الإدانة. هذا العنف خرج من دائرة الشارع ليدخل الفضاء العام، وهنا لم تسلم نائبات المؤتمر الوطني من العنف اللفظي «بحجة التبرج وعدم الاحتشام» والتهديد سواء من النواب أو من الكتائب التي تحرس المؤتمر، بل ذهب الأمر أبعد من ذلك، حيث طالب أحد النواب بضرورة الفصل بين الجنسين في البرلمان. ولم ينج منتخب السيدات لكرة القدم من توصيات رجال الدين التي حدت باتحاد الكرة إلى إصدار قرار بمنع مشاركة النساء في أكبر تجمع للاعبات كرة القدم كان يقام في ألمانيا<sup>(35)</sup>.

### الخاتمة

لم تتخلف المرأة الليبية عن المشاركة بنجاعة في الثورة فسارعت بتنظيم المظاهرات واحتلت الميادين الرئيسية، كما انخرطت في منظمات الاغاثة، واسست الصحف وترأست تحريرها وانضمت إلى العمل الاهلي بكافة محاوره. وكان تحرير البلاد ايدانا لها برفع سقف التوقعات، ولكن سرعان ما سجلت التباشير الأولى للمرحلة الانتقالية تراجعاً في الواقع الحقوقي للمرأة وزيادة في العنف الممارس ضدها في كل الفضاءات، عزز من ذلك غياب دور فاعل للتنظيمات النسائية الحقوقية الوليدة وضعف تأثيرها المجتمعي والمؤسسي، فضلا عن عجزها عن تبني خطاب نسوي موحد يحفظ للمرأة حقوقها المكتسبة. بيد إن الحكم على الوضع المستقبلي للمرأة في ليبيا يظل رهينا بالوقت وبنجاح العبور من المرحلة الانتقالية الحرجة التي تمر بها البلاد؛ فانهماك الدولة في التعاطي المتواضع مع الملفات الشائكة التي تعرقل بناء المؤسسات، من انتشار مفرط للسلاح وانفلات أمني مرعب إلى انتشار التيارات الاسلامية بدرجاتها، والتي تتفق في نظرتها الاقصائية للمرأة، اضفى على قضايا المرأة وحقوقها طابع التأجيل. ومع ذلك المرأة التي تصدّرت المشهد في

(34) «ليبيا: قتل و اغتصاب في غرف العناية المركزة»، التاريخ، موقع مراسلون: وجهاً لوجه مع ليبيا، موجود على الرابط التالي:

<http://www.correspondents.org/ar/node/2625>

(35) «منع فتيات منتخب ليبيا لكرة القدم للسيدات من بطولة دولية»، 20 / 7 / 2013 موقع ليبيا المستقبل، موجود على الرابط التالي: <http://libya-al-mostakbal.org/news/clicked/36796>

الأيام الأولى مطالبة بأخذ زمام المبادرة والبدء في تغيير واقعها الذي يجب ان يأخذ مسارين؛ الاول الشروع في المشاركة في عملية صنع الدستور من خلال التواصل والتأثير في الهيئة التأسيسية لضمان عدم المساس بحقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثاني يتمثل في تدشين عملية تنشئة اجتماعية لتغيير الصورة النمطية حول المرأة من خلال استراتيجية شاملة تضطلع بها كل الاقطاب المؤثرة في المجتمع المدني لوقف التمييز ضد المرأة وتمكينها.

## قائمة المراجع

### أولاً: القوانين والقرارات

الدستور الليبي 1951/12/7، موجود على الرابط التالي:

<http://www.libyanconstitutionalunion.net/dosstoor.htm>

المجلس الوطني الانتقالي، «الاعلان الدستوري المؤقت 2013/8/3»، الجريدة

الرسمية، موجود على الرابط التالي: <http://www.log.gov.ly/home>

«قانون رقم (22) لسنة 1991 بتعديل بعض أحكام القانون رقم (10) لسنة 1984 بشأن

الأحكام الخاصة بالزواج والطلاق وأثارهما»، موقع منتدى المحامين العرب،

موجود على الرابط التالي <http://www.mohamoon.com/MONTADA/Default.aspx?action=ArabicLaw&ID=381>

«القانون رقم (9) لسنة 1993، بشأن تعديل بعض أحكام القانون رقم (10) لسنة 84

بشأن الزواج والطلاق وأثارهما»، الجريدة الرسمية، العدد 5، 1993

«القانون 59 لسنة 2012 لنظام الادارة المحلية»، موجود على موقع المجلس الوطني

الانتقالي، الرابط التالي:

[tc.gov.ly/index.php?option=com\\_k2&view=item&id=126 &Itemid=10](http://tc.gov.ly/index.php?option=com_k2&view=item&id=126&Itemid=10)

«قرار المؤتمر الوطني العام رقم (40) لسنة 2013 بشأن تسمية رئيس وأعضاء مجلس

المفوضية الوطنية العليا للإنتخابات»، جريدة المنارة الالكترونية، موجود على الرابط

التالي: <http://www.almanaralink.com/press/2013/31646/04/>

«قرار وزير العدل رقم (1621) لسنة 2013م بشأن تشكيل لجنة لمراجعة التشريعات»،

موقع وزارة العدل، موجود على الرابط التالي:

<http://www.aladel.gov.ly/main/modules/sections/item.php?itemid=455>

### التقارير ثانياً:

الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، اللجنة الشعبية العامة للشؤون

الاجتماعية، التقرير الوطني الدوري حول تنفيذ اتفاقية حقوق الطفل المقدم إلى لجنة حقوق الطفل بالأمم المتحدة، سبتمبر 2009، موجود على الرابط التالي:

[www2.ohchr.org/english/bodies/crc/docs/CRC.C.LBY.3-4.doc](http://www2.ohchr.org/english/bodies/crc/docs/CRC.C.LBY.3-4.doc)

التقرير الوطني للجماهيرية العظمى المقدم إلى مؤتمر التربية الدولي، الدورة 2008، 48، موجود على الرابط التالي:

[www.ibe.unesco.org/National\\_Reports/ICE\\_2008/libya\\_NR08\\_ara.pdf](http://www.ibe.unesco.org/National_Reports/ICE_2008/libya_NR08_ara.pdf)

الهيئة العامة للمعلومات، تقرير التنمية البشرية: المرأة في الجماهيرية، المساواة مع الاختلاف، 200.

### ثالثا: الكتب

الحوات، علي. التنمية البشرية في عالم متغير: دراسات في المجتمع الليبي، الجامعة المغربية، طرابلس، ب. ت.

القذافي، معمر، الكتاب الاخضر: الفصل الثالث، المركز العالمي لدراسات وابحاث الكتاب الاخضر، موجود على الرابط التالي:

<http://www.nmisr.com/vb/showthread.php?t=262505>

أمينية، عبير، «انتخابات المؤتمر الوطني العام»، التقرير الاستراتيجي 2012، مركز الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تحت الطبع.

### رابعا: المقالات البحثية

أبو زعكوك، محمد رمضان، اكعية محمد سالم، «التعليم ومساهمة المرأة الليبية في سوق العمل»، مجلة البحوث الاقتصادية، العددان الاول والثاني، 1997.

العبيدي، امال سليمان، «بوادر الإصلاح السياسي وأثره على سياسات تمكين المرأة في ليبيا: دراسة استكشافية»، منشور على الرابط التالي [www.womendw.org/nimages/](http://www.womendw.org/nimages/)

.doc12.doc

الطشاني، مروان، «القضاء في المرحلة الانتقالية وفاق الاصلاح»، مؤتمر القضاء والمرحلة الانتقالية في تونس وليبيا، تونس، ديسمبر 2013، بحث غير منشور

أمينية، عبير إبراهيم، «مساهمة المرأة في العمل النقابي: دراسة حالة لدور المرأة في

نقابة المحامين»، مجلة البحوث الاقتصادية، المجلد التاسع عشر، العدد الثاني، ديسمبر 2008.

أمينية، عبير إبراهيم، «سياسة تمكين المرأة في القطاع الإقتصادي دراسة تقييمية لواقع مشاركة المرأة الليبية في الأنشطة الاقتصادية، 1969-2009»، مجلة البحوث الاقتصادية، العددان الأول والثاني، 2012.

### خامسا: المقالات الصحفية

إبراهيم، عائشة، «الوقائع والأرقام الكاملة في انتخابات لجنة الستين»، 9 مارس، بوابة الوسط، <http://www.alwasat.ly/ar/news/libya/77>

«ليبيا: قتل واغتصاب في غرف العناية المركزة»، موقع مراسلون: وجهاً لوجه مع ليبيا، موجود على الرابط التالي:

<http://www.correspondents.org/ar/node/2625>

«منع الليبيات من الزواج بأجانب»، جريدة الحياة، الأربعاء 27 مارس 2013، موجود على الرابط التالي: <http://alhayat.com/Details/497231>

«اوقفنا زواج الليبيات من أجانب بشكل مؤقت»، مراسلون، وجهاً لوجه مع ليبيا، <http://www.correspondents.org/ar/node/2677>، موجود على الرابط التالي: 2013/5/27

«منع فتيات منتخب ليبيا لكرة القدم للسيدات من بطولة دولية»، 20/7/2013، موقع ليبيا المستقبل، موجود على الرابط التالي: <http://libya-almostakbal.org/news/clicked/36796>

«المرأة العربية دور فاعل في ثورات التغيير»، 2011/3/22 موقع DW موجود على الرابط التالي:

<http://www.dw.de/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A3%D8-A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8-A9-%D8%AF%D9%88%D8%B1-%D9%81%D8%A7%D8%B9%D9-84-%D9%81%D9%8A-%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A7%D8-AA-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%BA%D9%8A%D9%8A%D8-B1/a-14931394>

«إيمان العبيدي تحكي تفاصيل خطفها واغتصابها من كتائب القذافي»، 10/

أبريل/2013، موقع قناة العربية، موجود على الرابط التالي:

<http://www.alarabiya.net/articles/2011/04/10/144951.html>

«المؤتمر الوطني الليبي، الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع»، 13/12/2013، موجود

على الرابط التالي:

<http://arabic.arabia.msn.com/news/middle-east/8001720/%d8%a7%d9%84-%d9%85%d8%a4%d8%aa%d9%85%d8%b1-%d8%a7%d9%84%d9%88-%d8%b7%d9%86%d9%8a-%d8%a7%d9%84%d9%>

### سادسا: مواقع عامة

موقع المفوضية العليا للانتخابات | [www.hnec.ly](http://www.hnec.ly)

## References

- Bayat, Asef. *Life as Politics: How Ordinary People Change the Middle East*. ISIM Series on Contemporary Muslim Societies. Amsterdam: University Press, 2010.
- De Lauretis, Teresa. Feminist Studies/Critical Studies: Issues, Terms and Contexts. In *Feminist Studies/Critical Studies*. Bloomington: Indiana University Press, 1986.
- El Sadda, Hoda. 'A War Against Women: The CSW Declaration and the Muslim Brotherhood Riposte.' *Open Democracy*. April 3, 2013. <http://www.opendemocracy.net/5050/hoda-elsadda/war-against-women-csw-declaration-and-muslim-brotherhood-riposte>
- Friedman, Susan Stanford. *Mappings: Feminism and the Cultural Geographics of Encounter*. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1998.
- Guattari, Felix. *Molecular Revolution: Psychiatry and Politics*, (trans. Rosemary Sheed), Harmondsworth: Penguin Books, 1984.
- Foucault, Michel. *Discipline and Punishment*. Harmondsworth: Penguin, 1979.
- \_\_\_\_\_. The Subject and Power. *Critical Inquiry* 8:4 (Summer 1982). 777-795.
- Kandiyoti, Deniz. *Promise and Peril: Women and the 'Arab Spring,'* 2011. <http://www.opendemocracy.net/print/58411>
- \_\_\_\_\_. *Disquiet and Despair: the Gender Sub-texts of the 'Arab Spring,'* 2012 <http://www.opendemocracy.net/print/66458>
- Kirollos, Mariam. Sexual Harassment in Tahrir: A Message from Mariam Kirollos. *Tahrir Squared*, July 1<sup>st</sup> 1998. <http://www.tahrirsquared.com/node/5131>.
- Marcus, Sharon. Fighting Bodies, Fighting Words: A Theory and Politics of Rape Prevention. In *Feminists Theorize the Political*, eds. Judith Butler and Joan W. Scott. London and New York: Routledge, 1992.
- Mohanty, Chandra Talpade. "Cartographies of Struggle: Third World Women and the Politics of Feminism." In *Third World Women and the Politics of Feminism*, eds. Chandra Talpade Mohanty, Ann Russo and Lourdes Torres, Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press, 1991.
- \_\_\_\_\_. *Feminism without Borders: Decolonizing Theory, Practicing Solidarity*. Duke University Press, 2003.
- Scott, Joan. Experience. In *Feminists Theorize the Political*, eds. Judith Butler and Joan W. Scott. London and New York: Routledge, 1992.
- Seikaly, Sherene. "The Meaning of Revolution: On Samira Ibrahim." In *Jadaliyya*, January 28, 2013. [http://www.jadaliyya.com/pages/index/9814/the-meaning-of-revolution\\_on-samira-ibrahim#](http://www.jadaliyya.com/pages/index/9814/the-meaning-of-revolution_on-samira-ibrahim#)



a loss of agency (and surely it is), there are definitely some gains. Most fixed and monolithic perceptions of the female body as sacred or shameful are being revised, and subverted. Also, it is an oversimplification to say that this re-vision has stemmed only from the feeling of anger and humiliation. As much as anger is important for any revolt, it was the persistence of women to revolutionize gender by setting a new paradigm that does not fix gender for the benefit of power relations. While acts of sexual harassment have been co-opted by the Islamic regime to consolidate polarization, women have taken them to be the route to subjectivity and agency. Put differently, all forms of ‘gendered’ violence have helped the process of discourse reversal, and the message was clear: “Stop using crimes of violence against women in your political bargaining; you are part of the reason why this continues to happen.” (Kirolos 2013). One of the positive results that women enjoyed post June 30, 2013 is the issuing of a law that criminalizes sexual harassment<sup>(25)</sup>. Emptying the space of appearance never aborted the aspirations towards revolutionizing gender and subverting the paradigm of the body. While it all started with a wiped bosom in a painting published in the most official paper<sup>(26)</sup> it ended with performing ballet on the streets. The empty space is populated by voices and discourses that refuse to give in; they are defiant voices that do not seek any ambivalent tone: “I deplore the continued exploitation of women’s bodies as political battlefields” (El Sada 2013). Collective struggle, individual testimonies, revolutionary aesthetics, and incessant discursive and physical violations helped shape a discourse that yields an opposite reading of the empty space. It is transformed into a sign of possibility and a democracy not yet realized. This empty space is being filled gradually with new intersections of gender, politics and resistance in preparation for a new ‘space of appearance,’ even if sexual harassment continues. The radical discursive shift is what counts as a clear marker that women, and their bodies, are one of the main political players. Apparently, gender was in a dire need of the wild spirit of autumn’s West Wind, so that we might find an answer to Shelley’s question: ‘If Winter comes, can Spring be far behind?’

(25) Egypt’s interim President Adly Mansour has approved a new anti-sexual harassment law by adding it as an amendment to the Egyptian penal code. **Ahram Online**, June 5, 2014.

(26) In June 2012, **al-Ahram**, the Egyptian State newspaper, published “the Popular Chorus” by Abdel Hadi Al-Gazzar, painted in 1948, with the naked woman in it covered. **Egypt Independent**, June 23, 2012. <http://www.egyptindependent.com/news/intellectuals-slam-al-ahram-covering-naked-woman-painting>

the two camps that occupy enlarged space in the political scene: women “anti-coup,” largely Islamists, vs. all the other women, who are actually supporting the ex-Marshall Field Abdel Fattah El Sisi, now elected president<sup>(24)</sup>. Both have their power of presence in a way slightly different from what Asef Bayat meant. While the former condemns, the latter ululates. This is mere exchange of roles enmeshed in the battle over identity where women have become the major players. Some women who were disillusioned in Morsi’s Islamic discursive practice, are now the ones supporting General Sisi, and have decided to show their support through ululating and dancing while voting for the referendum on the road map launched by General Abdel Fattah El Sisi in January 2014. I would, confidently, call this another gender paradox incurred by the essential players in the revolutionary process.

## Conclusion

The ambivalent record over women’s rights since March 2011 broke the promises and wasted the aspirations to inclusive democracy. Nonetheless, women continued to be among the main players in the political arena in terms of: posing demands, demonstrating for justice, protesting against violations, or even in terms of mirroring the conflict over power. The loss of the space of appearance, carved during the famous 18 days of 2011, might seem less catastrophic if we remember that women never left the street from 2011 till the election of Al Sisi as president and his inauguration on June 8, 2014. In spite of the efforts power relations have exerted over women to either resort to silence or to go back home, women did not give in to pressure. The challenge will always remain the same. Any power’s dream and ambition is to pull women back to the role of being ideological and cultural markers. Women, on the other hand, should keep their role as players intact.

If women’s role in augmenting the process of polarization is perceived as

(24) General Abdel Fattah Sisi who ousted Morsi on July 3<sup>rd</sup> has become a national hero especially from the point of view of women. What is alarming is that his act, labeled as a ‘coup’ by Islamists, turned him into an iconic masculine figure. Hence, the ululation on the streets and in front of the poll stations. See, for example: Kristen McTighe, ‘I love him like my own dad’: El Sisi wins the hearts of Egyptian women. **The National**, May 25, 2014. <http://www.thenational.ae/world/middle-east/i-love-him-like-my-own-dad-el-sisi-wins-the-hearts-of-egyptian-women>

ordinariness that women were capable of asserting their vision by bringing the personal into the political. In other words, women could restore their lost space albeit in a different form; they managed to consolidate this space discursively and physically.

In his thorough reading of Iranian women resistance to the authoritarian theocratic rule since 1979, Asef Bayat concluded that this strategy of resorting to ordinary activities- the day-to-day struggles- was highly fruitful since it is “the power of presence” (98) that subverted the dominant power discourse eventually. Similarly, in addition to their protests against sexual harassment and their demands for inclusive democracy, Egyptian women were claiming their individuality in daily life, in public transport, in demonstrations and marches, in sit-ins, schools, in universities, in courts, in work, in sports, in their clothing, in the jewels they wear, in public office, in cinema, in art, in music, in literature; in short, in their presence everywhere. The power of these activities, where presence forces power to reconsider ‘space’, is a tool of resistance no less important than the power of a ‘movement’. Likewise, Mohanty has stated that the power of feminism lies in the skill of being “attentive to the micropolitics of everyday life as well as the larger processes that recolonize the culture and identities of the people across the globe” (2003, 225). Bayat developed the idea of presence more, and gave it more substance when he says that “the effective power of these practices lies precisely in their ordinariness, since as irrepressible actions they encroach incrementally to capture trenches from the power base of patriarchal structure, while erecting springboards to move on” (98). Whether this could be considered as a non movement is still under investigation; yet, that it is a presence that evolved into a contentious challenge is definite.

In short, from the 8th March 2011, the first International Women’s Day post the departure of Mubarak, till very recent women and their rights have been involved in a battle field for power, and the arena where certain ideologies make their appearance. Binary oppositions were displayed publicly between veiled/unveiled, and Islamist/non-Islamist. It is understood then how those binary powers flagrantly breach women’s rights while racing to consolidate their control. Surely, dividing society politically through promoting and even glorifying a polarized engendered discourse that came close to becoming the dominant paradigm of thinking is one of the ugliest faces of patriarchy. This is clear by now in 2014 in

sources.

Yet, women made their power of presence in other arenas as well of which the most important was that of identity. In their attempt to combat the enforced reformation of gender, women, unawares, resorted again to the discourse of polarization. Post June 30<sup>th</sup> 2013<sup>(22)</sup>, the conflict over political power swamped women and the talk about rights became a luxury. On the other hand, in his final speech on the 2nd of July, Morsi could not but reproduce the role of women as mothers<sup>(23)</sup>. The non Islamist camp retaliated post June 30<sup>th</sup>. The face-veil (niqab) came back to the foreground as the marker of Islamic ideology. Ridicule and harsh verbal abuse of women wearing al-niqab got widespread and many had to give up the streets. It was, simply, a proportional relation: the rising polarization meant increasing presence of women.

Yet, one cannot deny that there was a wide spectrum of voices and not all were reproducing polarization. Without the formation of a movement *per se*, the incessant presence of women in the public sphere and the media led to the creation of another space, not as Utopian as Midan al-Tahrir of the famous eighteen days ; it is a space of resistance filled with revolutionary consciousness. Paradoxically, it was the abuse and the realization that all governments were equally bent on curbing women's rights that set the point of departure of the process of self-consciousness. As early as 1991, Chandra Talpade Mohanty has contended that the history of revolutionary movements has shown that consciousness is not the result but it is the process where consciousness of self, including feminist and class consciousness, "is a particular configuration of subjectivity, or subjective limits, produced at the intersection of meaning and experience" (8). Having taken to the streets for three years women strengthened their own resistance through the form of "collective action by non collective actors" (Bayat, 97). Women made their presence highly visible through resorting to 'ordinary' activities and the practices of everyday life. It is in the daily micropolitics and extreme

(22) Hani Shukrallah, A People's History of the Egyptian Revolution. **Ahram Online**. Friday 20 Sep 2013. <http://english.ahram.org.eg/NewsContentP/4/82064/Opinion/A-people%E2%80%99s-history-of-the-Egyptian-revolution-.aspx>

(23) With demonstrations storming Egypt on June 30<sup>th</sup>, the presidency held a conference press where the spokesperson spent not less than five minutes speaking about sexual harassment in Midan al-Tahrir as a proof of the thuggery dominating the scene of opposition. This in itself was another sign of polarization.

against the ‘government of individualization’” (1982, 781)<sup>(19)</sup>. Therefore, in their marches, forms of solidarity, artistic expression, and all forms of coalitions, even if temporary, women shattered the discursive, social and cultural barriers, erected by the former regime(s). Collectives such as Fouada Watch and OpAnti Sexual Harrasment<sup>(20)</sup>, for example, were the outcome of the outrage over sexual abuse and rape. The rallies, marches, brochures, posters, and graffiti lobbied the hitherto fragmented women’s movement, and revived hard-line activism. These forms of protest, expressed aesthetically as well, supported a new discourse of subjectivity since they reflected- in form and content- the new mapping of territories and the dialectic play between margin and center. The more the female body was abused the stronger and more solid activism is practiced. That this activist discourse basically stems from different positionalities - locked for a long time in the margins as a monolithic entity - endows it with power.

Since silence was what power expected from the assaulted women, activists countered by publishing personal testimonies<sup>(21)</sup>. Gradually, documenting the experience of harassment became part of documenting the revolution; politics of the body became part and parcel of the body politic. The testimonies, some of which were of really frightening experiences, circulated virally on the social media, gained wide readership and increased resistance. These testimonies, from my point of view among the strongest techniques of resistance where women broke the absolutely sanctioned silence on questions of ‘gendered grammar of violence’ by changing their epistemic vision. The campaigns of testimonial literature were aware of the risks lurking in their project, that the essential drawback of documenting experience is that it “precludes analysis of the workings of this system and of its historicity; instead it reproduces its terms” (Scott 1992, 25). That is why the testimonies were not posted and circulated in isolation from the necessary analysis. In all the statements, articles and interviews activists exposed the workings of power in parallel with employing the testimonies as primary

(19) There is also a whole part entitled ‘transversality’ in Guattari’s book **Molecular Revolution: Psychiatry and Politics**, (trans. Rosemary Sheed), Harmondsworth: Penguin Books, 1984.

(20) Collectives that were established to combat sexual harassment: <https://www.facebook.com/FouadaWatch>  
<http://www.facebook.com/OpAnti-Sexual-Harrasment/Assault>

(21) On the website of the feminist NGO, Nazra, all testimonies are available. <http://nazra.org/sexual/harrasment/terms>

spark that ignited the extreme polarized political discourse, and women became the political and cultural markers of identity. However, we must remember that the Mubarak regime has always considered women the markers of the nation's 'image' as well. It only managed to play this tone down by jumping on the bandwagon of 'women's rights' and hijacking all the efforts of civil society. Hence, State feminism. That is, the co-option of women's rights movement by the State, or rather by the First Lady- Suzanne Mubarak in this case. Similarly, as part of the 'democratic paradox' that has been governing the position of women's rights in post-revolution Egypt, political actors and players continued to use gender and women's rights as a sub-text that could be foregrounded at any moment. With the heavy-handed enforcement of the battle over 'identity,' women's rights returned to occupy the front. Each camp employed the discourse about women to score populist points off their rivals.

With the horrific rise of sexual harassment and abuse of female protesters heavily commented on and documented, protesters, men and women, realized that the Islamic junta- even if elected- is not different from the military junta that preceded it and ruled the transitional period. It was a mere conflict over power where women have been used then abused and their rights were compromised. That the Islamic government, Islamic satellite channels<sup>(18)</sup>, and the presidency blamed female protesters for taking to the streets is reminiscent of the military's position in 2011. When women activists realized they had lost their space physically, politically and discursively, they decided to lobby more and to augment the power of their presence.

One should ask how activists managed to turn successive defeats into small victories. In order for the new reverse discourse, that which is promoted by the rising revolutionary generation, to have a socio-political effect, women activists started by circulating it through different forms. Thus, the public transversality of all forms of protests against disciplinary practices was a point of strength. In his article "The Subject and Power" Foucault explains that transversal protests "are not exactly for or against the 'individual' but rather they are struggles

(18) Report by Nina Burleigh quotes Egyptian Salafi preacher Ahmad Mahmoud Abdullah, who said 'women protesting in Tahrir Square have no shame and want to be raped.' See "Gang rape, the dark side of Egypt's protests" CNN. 3 July 2013.

that Omaima Kamel, a member of the former drafting Constitution assembly, and later appointed as the President's adviser, declared in an interview that "the faith of any uncircumcised woman is incomplete<sup>(14)</sup>." I see this position as a gendered formation (or rather re-formation) of identity. Members of the predominantly Islamist Shura Council blamed sexual harassment on women for the way they dressed and mingled with men, sparking anger among various women's groups in Egypt and abroad<sup>(15)</sup>. When the Rector of Mansoura University could easily enforce the segregation of men and women in classes, he was hailed by Islamists as a courageous man<sup>(16)</sup>. Polarization shifted from the discursive to the material where the binary opposition of 'we' and 'they' increased the tension. I hasten to add that the Civilian camp, which comprises all non Islamist parties and public figures, was not exempt from reproducing the same discourse. It became very common to hear such shameful expressions as 'our women' and 'their women'.

The last battle of polarization, which was a means of announcing a 'new' identity, was played up on the UN Commission on the Status of Women draft Agreed Conclusions on violence against women (CWS). The document was severely attacked by MB members and their online site before it was even declared. It was accused by all Islamic factions of spreading promiscuity and homosexuality<sup>(17)</sup>. In a thorough analysis of the MB's response to the document, Hoda El Sadda concludes that, "The rhetoric is painfully familiar and the aim continues to be the same: using scare tactics to silence your opponents and divert attention from the real issues at stake" (2013).

I contend, therefore, that the position on women's rights and agency was the

---

lies in the belief that the procedure reduces the sexual desire of a female, thereby helping maintain a girl's virginity prior to marriage and her fidelity thereafter. [http://www.unicef.org/egypt/protection\\_148.html](http://www.unicef.org/egypt/protection_148.html)

(14) For a full story of the ambivalence of the 'Muslim Sisters' towards women's rights see: 'Egypt's Muslim 'Sisters' rise with conservative vision, in **USA Today**, Nov.10, 2012. <http://www.usatoday.com/story/news/world/2012/11/10/egypt-muslim-women-politics/1696291/>

(15) Dina Guirguis, "Sexual Assault and the Fall of Morsi", **Middle East Institute**, July 8, 2013. <http://www.mei.edu/content/sexual-assault-and-fall-morsi>

(16) <http://www1.youm7.com/News.asp?NewsID=790575&SecID=97&IssueID=168>

(17) The National Council for Women, which represented Egypt in the conference, criticized the unwarranted attacks, particularly the Islamist belief that they have a monopoly over religion, emphasizing that comments should not be made without "reference to facts."

in 2013 an Islamic women's march was attacked by the security forces and Islamists resorted to the same technique of protesting they had already vilified and condemned earlier. It was too late for the gap between two camps to be redressed, and women were bent on increasing the conflict by reproducing the ideologies at war.

### **More polarization and increasing presence**

The rule that replaced the military fared even worse. Under the military women knew that there is a future to anticipate. Yet, the future that finally arrived with the cloak of 'Islam' was perhaps the same. Ironically speaking, women queued for hours to vote for the Islamist candidate, under the belief that democracy was at hand. The women who practiced their power of presence in long queues in front of the poll stations in May 2012 had to face another blow. The moment Mohamed Morsi was elected President his supporters took to the streets to celebrate. Part of this celebration was basically to harass verbally any unveiled woman by shouting "your kind is to disappear soon"<sup>(12)</sup>. That was alarming and frightening; yet, it was also a sign that women were to be the bargaining terrain again, and the key to holding political control. It is important that the Muslim Brotherhood (MB) never hesitated to declare their ambivalent position towards women's rights, which was oscillating between indifference and apathy or contempt. For example, The National Council for Women (NCW) came under severe attack, the Brotherhood's female MPs supported the female genital mutilation (FGM), commonly known as 'circumcision'<sup>(13)</sup>, strongly to the extent

---

and the Justice party (FJP), the political arm of the Muslim Brotherhood, vilified the women who participated in the march in an interview in *Al Sharq Al Awsat*, on January 14, 2012. <http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=12100&article=658885>

- (12) The collection of stories from eye witnesses is huge. Unveiled women were stopped at the street to be lectured about the importance of donning the veil; veiled women were equally harassed on the basis that their dress was not proper. Unfortunately, I was exposed to one of those 'lectures' where my reaction was highly aggressive and belligerent.
- (13) The procedure is usually performed on girls between the ages of 9 to 12 years, prior to the onset of puberty. In the past, the procedure -involving removal of the clitoris, together with the excision of all or part of the labia minora – was generally carried out by traditional birth attendants (dayas) and "health barbers" (who also perform circumcision of boys). The operation was frequently done without an anesthetic, using knives or razors. In recent years, however, more than 60 percent of circumcisions have been performed by physicians and nurses. A variety of reasons are cited for FGM/C's perpetuation. The principal justification



in her 20s, she is upper Egyptian (the South), an activist, veiled, and her family has Islamic leanings. Thus Samira I. is oppressed by her gender and upbringing, privileged by her veil and thus more blamed by religious rules, privileged by her revolutionary spirit and thus used as a living proof of the immorality of the rising generation. This concept of contradictory subject positions was shown clearly in the reception of Ibrahim's public testimony of the brutality she experienced. Some accused her of betraying her religion, while others expressed their respect towards her attitude. On the other hand, she was considered a liar by many, whereas others believed her and acted accordingly.

The staunch networks of resistance and solidarity formed around the crisis declared the female body as a site of conflicting interpretations and ideological inscriptions and polarization. As women managed to demolish ideological barriers in Midan Al-Tahrir, they re-erected them to accentuate their ideologies. Gender became, unfortunately, the essential element in defining the conflicting camps, who were themselves in struggle over definite constructs of femininity.

The girl stripped to her blue bra towards the end of 2012 critically problematized the female body even more<sup>(9)</sup>. It is worth mentioning here that the controversy over this horrendous violation marked one of the main points of gender polarization in post-revolution Egypt. On the 20th December, 2011, a huge women's march took place to condemn this violation.<sup>(10)</sup> Although the march was huge, where several thousands women marched through down town Cairo in expression of anger, the Islamic voice, in all its factions, vilified the girl and the march equally<sup>(11)</sup>. Interestingly enough, and in a mode of role exchange,

(9) In mid December 2011, that woman was stripped to her 'blue bra' and jeans by the police. In solidarity with her, the revolutionaries called her 'Sit al-banat' (lady of the ladies) as a mark of honor. Her photograph was front page in all local and several international papers and magazines, as a proof of the brutality of the regime, the Military Junta then. It is noteworthy here to mention that the infamous question 'why did she ever go there?' started with this incident in an attempt to condemn the girl. For a panoramic view of how the female body turned into a site of conflict see, for example, Vickie Langohr, "This is our Square": Fighting Sexual Assault at Cairo Protests. **MERIP**, Vol. 43, Fall 2013. <http://www.merip.org/mer/mer268/our-square>

(10) David D. Kirkpatrick, "Mass March by Cairo Women in Protest Over Abuse by Soldiers", in **The New York Times**, Dec. 20, 2011. [http://www.nytimes.com/2011/12/21/world/middleeast/violence-enters-5th-day-as-egyptian-general-blames-protesters.html?pagewanted=all&\\_r=0](http://www.nytimes.com/2011/12/21/world/middleeast/violence-enters-5th-day-as-egyptian-general-blames-protesters.html?pagewanted=all&_r=0)

(11) Manal Abou El Hasan, who was the secretary of Women Committee in Cairo of the Freedom

to file a lawsuit against the Supreme Council of Armed Forces (SCAF)<sup>(7)</sup>. The courage this girl exhibited was shockingly subversive of a ‘docile’ society that has learnt not to break silence over the question of sexual harassment or rape (both acts entail a subtle questioning of the woman’s ‘honor’). Throughout a long tedious process, Samira I. came out victorious and yet defeated. Her decision to break the silence surely positions her as the precursor of the transformation process. On the occasion of the second anniversary of the Revolution, Jaddaliya launched a series of articles, amongst which Sherine Seikaly wrote an article entitled “The Meaning of Revolution: On Samira Ibrahim,” where she concluded that Ibrahim’s courage is based on the fact that she “did not claim the category of the Virgin as a sacred space of refuge” (2013).<sup>(8)</sup> When an interview with Samira I. was uploaded on YouTube, the comments were mostly accusative and vilifying. The discourse that Samira I. and her supporters adopted and promoted in face of what Sharon Marcus calls “a gendered grammar of violence” (1992, 392) managed to shake the dominant discourse, even if mildly. By smashing the myth of the female body as a symbol of personal and collective national honor, and as a site of docility Samira I. and her generation shifted all forms of violence and abuse practiced on the female body to the political terrain.

However, the extreme socio-cultural resistance to the endorsement of such a discursive shift led to another conflict over the concept of identity. The vilification of Samira I. sprang from a fixed discourse of identity that viewed women’s subjectivity from within an orthodox paradigm of values and roles, very similar to the Bourgeois Victorian paradigm. On the other hand, Samira I.’s generation was developing a new discourse of identity that was a corollary of the revolution itself within a context of political fluidity, and even polarization. Put differently, this incident with all its repercussions was employed by the rising generation to revolutionize a hegemonic cultural discourse that plays on the position of the subject. Samira I.’s position deserves a closer look. She is a young single woman

(7) Elizabeth Flock, Samira Ibrahim is the woman behind Egypt’s ban of virginity tests. **The Washington Post**, December 27, 2011. [http://www.washingtonpost.com/blogs/worldviews/post/samira-ibrahim-is-the-woman-behind-egypts-ban-of-virginity-tests/2011/12/27/gIQACKNgKP\\_blog.html](http://www.washingtonpost.com/blogs/worldviews/post/samira-ibrahim-is-the-woman-behind-egypts-ban-of-virginity-tests/2011/12/27/gIQACKNgKP_blog.html)

(8) Sherine Seikaly, “The Meaning of Revolution: On Samira Ibrahim,” in **Jaddaliya**, January 28 2013. [http://www.jadaliyya.com/pages/index/9814/the-meaning-of-revolution\\_on-samira-ibrahim#](http://www.jadaliyya.com/pages/index/9814/the-meaning-of-revolution_on-samira-ibrahim#)

of socio-political control, started to be a systematic practice against women protesters. While physical abuse and torture of men was interpreted socially to be political, all forms of abuse practiced on women's bodies were taken wrongly by society in its entirety, including many activists, to be cultural. Foucault explains that the purpose of employing the body as a means of discipline and punishment is that:

It defined how one may have a hold over others' bodies, not only so that they may do what one wishes, but so that they may operate as one wishes, with the techniques, the speed and the efficiency that one determines. Thus, discipline produces subjected and practiced bodies, 'docile bodies' (1979, 138).

However, Foucault treats the experiences of the human body as if there is no difference between men and women. One should ask how the disciplinary practices engender the bodies of women. Since the analysis aims at explaining how the genders violence was transformed by women into a means of resistance and a route to agency, we should try to capture the point of irreversibility to fathom how the transformation of meaning started to take place, slowly but surely. While the crowded Midan was devoid of any polarization, and while post Mubarak's departure should have eliminated any possibility for such extreme polarized grouping and positioning, what happened was exactly the opposite as the example of the happenings of International Women's Day has showed.

Nonetheless, the female activists and protesters never gave in to this huge socio-political pressure. Conditions that were constraining and enslaving turned to be experienced as liberating and transforming. Put differently, what was disciplined as a docile body turned into a body in revolt. However, the reactions to and interactions with the gendered disciplinary practices were not monolithic. The vicissitudes of reception form the process of gender transformation. These varieties of reception are what I will examine closer.

### **Different constructs of femininity**

Several women who had to go through the shameful experience of the 'virginity tests' chose to resort to silence, and one only, Samira Ibrahim, decided

The significance of space as a situational marker of identity underlined the narrative of Midan al-Tahrir in the 18 days<sup>(5)</sup> sit-in. The politics of this locational situation erased the mere possibility of any physical violation, and the female body lost its mythic identity whereas the female subject found her agency. Hence, the disentanglement of sex and gender. This explains, for example, the complete absence of any incident of sexual assault or harassment during this period. However, we cannot say that Midan al-Tahrir as a location was de-gendered, since the very existence of gender as a discursive concept allowed for the situational discourse of positionality, as explained above by Friedman. What Teresa de Lauretis viewed in 1986 as a shift in the feminist understanding of female subjectivity was reflected in the dynamics of power and gender relations in Midan al-Tahrir Square. It was a shift from the reductive view of women defined purely and straightforwardly by sexual difference to the “complex notion that the female subject is a site of differences ... that are not only sexual or only racial, economic, or (sub) cultural, but all of these together, and often enough at odds with one another” (1986, 14). In sum, Midan al-Tahrir as a geopolitical location, and a moment of crisis, facilitated going ‘beyond gender’ and established the female subject as a full agent.

Because of such a Utopian experience in Midan al-Tahrir, it was heart breaking to witness the polarization that took place right after Mubarak was deposed on February 11<sup>th</sup> 2011, the female body immediately became a site of contest. Let me explain how this happened. In March 2011, a huge women’s march celebrating the international women’s day turned ugly, and women were heckled and abused by a counter mob<sup>(6)</sup>. The next day, a few hundreds took to Midan al-Tahrir again to protest to the excessive use of force by the military and to the military trials of civilians, and they were arrested. While men and women were tortured and jailed in the military prison, women had to bear a bigger share of humiliation. In full view of several offices, were forced to go through a series of virginity tests. That was a defining moment. Body disciplining, as a means

(5) See note n. 2.

(6) Jumanah Younis, “Egypt’s revolution means nothing if its women are not free,” **The Guardian**, March 9, 2011. If you google “international women’s day in Egypt 2011” you will get hundreds of entries that narrate and, of course, condemn what happened on that day. I am citing this entry because the writer was one of the protesters who participated in the march.

ruffled. Due to the long hours spent there, I started conversing with the woman standing next to me. I cannot deny that it was mere curiosity that pushed me to speak with her because she was face veiled. She confided in me that her husband refused to join al-Tahrir protest and so she disobeyed him and came on her own since she “could not stay home and not participate in this miraculous event”. She also said that she had to take a long complicated route to arrive to al Midan since most of the roads leading to it were blocked. At the end of our talk, I noticed that the dress of that woman was almost woven into the private space of the French journalist sitting on the asphalt and completely immersed in his work. Neither of them minded this metaphorical fusion and perhaps they never noticed it. In other circumstances, a similar scene would have been unthinkable. Outside al Midan, this woman would have never stood in the vicinity of a ‘foreigner’, and she would have never talked to me in that friendly way. Yet, in that particular geo-political situation, her gendered ideology was not a factor in the equation at all. It goes without saying that such situations were repeated daily, where gender was never in the foreground. Different codes of dress and behavior interacted positively (probably that was the only time), and learnt a good deal about each other without a single trace of condemnation. Where had the gender gone?

It is not news to say that identity resists fixity; what is novel is that Midan al-Tahrir had its own rhetoric of space where gender was lurking in the background not obstructing the democratic path. The woman’s husband reluctance to participate motivated her to push gender to the background and to bring her political will to the foreground. Once in the location, she assumed a discourse of positionality that Susan Friedman calls “situational”:

So while the person’s identity is the product of multiple subject positions, these axes of identity are not equally foregrounded in every situation. Change the scene, and the most relevant constituents of identity come into play. The other axes of identity do not disappear; they are just not as salient in this particular scene (1998, 23).

Once she found her place in mapping the struggle and became part of the collective subjectivity, this woman went beyond gender without abandoning it, and other constituents of her identity were highlighted, like social class or education or ideology.

Turn our attention to the holders of political power and ask how, when and why they choose to become accessories to misogynistic atrocities and/or collude with individuals, groups or movements that perpetrate them. That is why people are on the streets. Their target is no longer just women and their bodies but the body politic itself (2013).

To understand the situation at depth, we need to think of the holders of political power in 2011- the military in this case- who were bent on silencing all opposing voices in order to restore an ambiguous and ambivalent problematic concept of 'stability. Women were, certainly, the first target of the military junta and their Islamist allies. They had to be sent back home.

However, the use of the word 'women' is not accurate. If some women were really the target of power, other women blessed the strategies of silencing all rising voices. In this case, the word 'women' is similar to the word 'patriarchy' in that it refers to a coherent and monolithic body. The only assumption we can make is that all women, coming from different political currents, were reduced into a single body. It is the female body that was targeted, and no political power is exempt from the blame. The political holders of power have abided by this rule; the only differentiating criterion was alterity. That is to say, women whose position is different from or opposed to the hegemonic power are always the target of aggression and atrocities. The element of gender has been the driving force of alterity; therefore, gender is foregrounded and accentuated as a basic element of identity politics only in highly conflicting moments and struggle over power. Women, unfortunately, fell into the trap of polarization. Two contrasting examples will explain how this happened.

A binary logic generated the image of self and other which was reflected in gender politics. However, during the 18 days, the identity politics 'within' Midan al-Tahrir were trying to combat the deformation 'without'. Gender, in al Midan, was employed as an asset for the protesters, whereas it was used as a means of deformation by the outsiders. How has gender functioned as an asset in al Midan, a geopolitical location in itself? A personal anecdote might help answering this question. Exactly on the 1<sup>st</sup> of February in 2011, I was participating in the million man/woman protest in al Midan. Much to my surprise, the overcrowded place was not suffocating, as people were very careful to respect the private space of each other, not to mention the exaggerated apologies one used to hear if a sleeve was

regime, or to be more accurate, the overthrow of Mubarak only. The regime turned out to be deeply rooted in both the state institutions and the mentality of the people. And so, ‘the revolution continues’<sup>(4)</sup> to topple multiple faces of patriarchy.

Apparently, the ‘promise’ of 2011 has rapidly faded only to give its place to peril and despair. The comparative lens through which Deniz Kandiyoti reads the situation renders a complete panoramic picture that spots the complexities of women’s rights in the scene of the revolt. Kandiyoti’s reading of the situation takes into consideration the multiple powers in play, and so breaching women’s rights is a result, since these powers were contradictory in their discourse which led to crushing or ignoring women’s rights. In other words, violating women’s rights is the necessary manifestation of the dynamics of power. The alleged rise of democracy and the concomitant fall of women’s rights have formed a paradox, much talked about in the plethora of pieces written about Egypt and Tunisia. Scholars and observers have tended to document the atrocities women have suffered from, and have always concluded with the ascription of these to a strongly patriarchal society that stood adamantly in the face of the demands for liberty and equality. I believe that such an interpretation overlooks the role of the State- whether an oppressive or a national machinery- and women themselves in perpetrating discursive and physical violence against women, and how some ‘against the grain’ voices resisted this trajectory.

It is highly misleading to blame ‘patriarchy’ across the board since this is a simplistic interpretation of the power dynamics. As an abstract concept, ‘patriarchy’ does not provide a space for responsibility or accountability. It is unrealistic to treat patriarchy as a coherent project that stands on its own devoid of other factors. A close look at the program of the ousted Islamic President, for example, proves that neo-liberalism was to be revived and that women, as has always been the case in the third world, were bound to pay the dear price. Therefore, patriarchy as the sole factor of analysis does not mirror reality whereas the factor of power relations guarantees women’s struggle to be fruitful not debilitating. Kandiyoti believes that in order to understand the multiple faces of patriarchy we must:

(4) This chant, considered the leitmotif of the Revolution, rhymes in Arabic, and nothing of it has been achieved till now. That is why the slogan of ‘the revolution continues’.

the military and their supporters; and 2012 & 2013 witnessed the poignant attempts at ‘islamizing’ the concept of gender, 2014 was the year of ululations and dancing in celebration of a new constitution and of the ousting of Islamists by the military. The three years then seem like a closed circuit, that which was shunned in 2011 is now hailed, and those who were elected are now ousted. In all that, one can safely say that women have been, and still are, among one of the major players on the scene. Their powerful presence in the Squares, marches, sit-ins, demonstrations, and participation in the elections cannot be overlooked. The stamina and persistence with which they carried out their socio-political choices and the awareness of their different positional ties is a striking fact that forces one to re-evaluate. This ‘power of presence’, to quote the Iranian Sociologist Asef Bayat (2010, 97), that augmented polarization at some point, is the second concern of this paper.

### **‘Promise and Peril’<sup>(3)</sup>**

One of the crushed aspirations in truncated transitions has been women’s rights where the wrangling looming over the question of gender equality has never stopped. The conflict over power that ensued post the ousting of Mubarak was marked by the discursive centrality of gender issues. Gender became the defining factor of every political group, and it was turned into a medium through which ideological identities were channeled. The greatest disappointment lies in offering up women’s rights as an issue of populist compromise that justified the horrendous abuses that took place since 2011. Conflicting political discourses took control of the scene; and, many powers- though not in agreement- have pushed the mute button of women’s demands. Sadly enough, the appearance of women’s rights on the program of any political party- even the new ones- turned out to be decorative not functional. Some scholars have seen that the so called ‘Arab Spring’ presents a ‘democratic paradox’ (Kandiyoti 2012) in relation to women’s rights. I do not fully agree with this. We should never forget that the fusion of mobilized citizenry into one bloc chanting for freedom will remain an overwhelming image that led to the overthrow of Mubarak’s

---

(3) Prominent Turkish scholar Deniz Kandiyoti has written three successive articles in Open Democracy since 2011 about the trajectory of women’s rights in the Arab Spring. In this paper, I am using the title of her first article (March 2011) “Promise and Peril”.



## Introduction

Any attempt at analyzing the transformation and reconstruction of gender in the context of the Egyptian Revolution might seem like mission impossible. The successive events, truncated aspirations, horrendous violations, and the huge reservoir of details are likely to confuse anyone who is trying to understand the complex and multi-faceted role women have played, and still are, in this Revolution. Because of that, one wonders at the readiness of some international conferences to send a call for papers entitled, for example, ‘role of women in the uprisings of the Arab world.’ Apparently, many hasty readings of gender do not encompass the fact that the transformation of gender in post-revolution Egypt has been from the very beginning, i.e., 2011, tied to and governed by the path of political transformation. The close interconnection between gender, identity politics and religion is what renders the location of gender much more complicated; and, therefore, we cannot talk about gendered identity in the singular. The multiple gender identities<sup>(1)</sup> that displayed themselves in different roles emerged on contesting grounds right immediately after the famous 18 days<sup>(2)</sup>. That which seemed to be a fulfilled dream for one functioned as a crushed aspiration for another.

## Purpose of the study and methodology

How far the multiple gendered identities have contributed to the socio-political chasm and the state of polarization is one of the concerns of this paper. The main purpose is to seek an understanding of what happened between 2011 and 2014. While 2011 witnessed all forms of violations of women’s rights by

---

(1) Gender identity is a person’s private sense and experience of their own gender. The term cuts across social theory, gender studies, psychology, and cultural studies.

(2) On January 25, 2011 Millions of Egyptians took to the streets in a mass protest to the excessive physical torture in police stations and prisons. However, the situation escalated on January 28, commonly known as “Friday of Anger”, protesters were unified under one demand, i.e., “leave”, in reference to Mubarak. Therefore, protesters organized a sit-in in Midan al-Tahrir that lasted till February 11, 2011, the day of Mubarak’s departure. Hence, the big sit-in.

## الملخص

# من الاستثمار إلى الاستقطاب: النساء المصريات يرسمن الفضاء والخطاب

## شيرين أبو النجا

تتساءل هذه الورقة عن الحد الذي ساهمت به الهويات القائمة على أساس الجندر في تعميق الشرخ السياسي والاجتماعي في المجتمع، بالإضافة إلى حالة الاستقطاب. وبالتالي سيكون تتبع ما حدث بين 2011 و2014 هو المدخل الرئيسي للفهم. ففي حين شهد عام 2011 كافة أشكال الانتهاكات لحقوق النساء من قبل الطغمة العسكرية ومؤيديها، فقد شهد عام 2012 و2013 محاولات مضنية لأسلمة مفهوم الجندر وهي محاولة لم توقف الانتهاكات. أما عام 2014 فقد كان عام الزغاريد والرقص احتفالاً بالدستور الجديد وقيام الطغمة العسكرية بخلع النظام الإسلامي الحاكم آنذاك. في كل هذا المسار يمكن القول أن النساء كن لاعب رئيسي في المشهد، إذ لا يمكن تجاهل حضورهن البارز في الميادين والمسيرات والاعتصامات والمظاهرات، ومشاركتهن الكثيفة في الانتخابات. إن المثابرة والدأب اللذين ميزا إعلان النساء عن اختياراتهن السياسية والاجتماعية ووعيهن بمواقعهن المختلفة، ومن ثم حضورهن البارز الذي أجج الاستقطاب في لحظة ما، لهي كلها من العوامل التي تدفعنا إلى إعادة تقييم الوضع كاملاً، مع التركيز على الكيفية التي تشكلت بها هوية الجندر.

الكلمات المفتاح: مقاومة؛ الجندر؛ الاستقطاب؛ سياسات الجسد؛ سياسات الهوية؛ المكان؛ مصر

# From Exploitation to Polarization: Egyptian Women Mapping their Space and Discourse

**Shereen Abouelnaga**  
Cairo University, Egypt  
shereens66@gmail.com

## Abstract

*How far the multiple gendered identities have contributed to the socio-political chasm and the state of polarization is one of the concerns of this paper. The main purpose is to seek an understanding of what happened between 2011 and 2014. While 2011 witnessed all forms of violations of women's rights by the military and their supporters; and 2012 & 2013 witnessed the poignant attempts at 'islamizing' the concept of gender, 2014 was the year of ululations and dancing in celebration of a new constitution and of the ousting of Islamists by the military. The three years then seem like a closed circuit, that which was shunned in 2011 is now hailed, and those who were elected are now ousted. In all that, one can safely say that women have been, and still are, among one of the major players on the scene. Their powerful presence in the Squares, marches, sit-ins, demonstrations, and participation in the elections cannot be overlooked. The stamina and persistence with which they carried out their socio-political choices and the awareness of their different positional ties is a striking fact that forces one to re-evaluate. Women's conspicuous presence that augmented polarization at some point is the second concern of this paper.*

**Keywords:** Women; Resistance; polarization; body politics; identity politics; space; player; gender; Egypt.

also in Turkey, as Alev Cinar has shown<sup>(3)</sup>. Secularist or Islamic modernity involved the uncovering or covering of women's bodies. I have shown above how the public debate during the 1920s over the *hijab*, in the 1930s over the issues raised in Tahar Haddad's book, over women's political rights starting in the 1940s, the autonomy of feminists during the 1980s, the constitutionalization of women's rights in 2011-2012, and so on, enabled feminist groups to evolve and to express their thinking differently according to the forces in play. These different periods each saw a different kind of independent Tunisian feminism, varying between universalist (for complete equality between the sexes with differences between them of social and/or cultural origin) and differentialist forms (for equality but believing that certain activities are better suited to each sex), reflecting the character of debates that dominated the public sphere up until the end of the 2000s. These two trends debated their ideas over the three decades since the 1980s, whereas Islamist women – essentialist feminists (where feminine specificities are complementary to masculine ones and both are necessary to humanize society) – were prevented from participating in public discussion and their thinking did not evolve in public space under the Ben Ali regime. And while universalist and differentialist feminists, without being in opposition to Islam, call for a greater role for the state<sup>(4)</sup> and a more limited role for religion, the essentialist feminists are still seeking their way. The debate over “complementarity” was the first significant public occasion for them to revisit their fundamental visions of women's rights.

(3) Alev Cinar. “Subversion and subjugation in the public sphere: secularism and the islamic headscarf.” *Signs*. Vol. 33, N 4, (Summer 2008). pp. 891-913.

(4) Lilia Labidi. “Y-a-t-il un futur pour le féminisme au masculin et le féminisme d'Etat en Tunisie?” in *Revue Socialiste, Le temps des femmes*, n°51, third trimester 2013, Pp. 147-150.

had been adopted by Tunisia's first transitional government in August 2011.

## Conclusion

To conclude, I would like to highlight three aspects. The case of the Tunisian feminist movement testifies to women's contribution to the process of secularization and reinterpreting religious thinking – dimensions that have been marginalized in the social sciences, with little work being done on women figures in Islam, or on Islamist women in their variety, or on women members of Nahdha, or on secular women's struggles in this area. Now, during each of the periods I have discussed, it is clear that feminist constructions of what I have called elsewhere a theory of evil – that is, of the obstacles, barriers, discriminations, misogynous visions that prevent women from achieving their goals -- enabled feminists engaged in political parties or in national or independent organizations, to identify the elements that motivated their struggles – colonialism and patriarchy from the 1900s to the 1950s, discrimination, authoritarianism, misogyny, and patriarchy from the 1980s to the 2000s<sup>(1)</sup>. These struggles and constructions contributed to the promulgation of the Personal Status Code and to the constitutionalization of women's rights, an increasingly widespread demand of women.

The second aspect relates to the support feminists found among some male intellectual and political figures, which can be explained on the psychological level by the recognition these figures had of the dependence of men upon women and which Hédi Labidi, Tahar Haddad, Farhat Hached and especially Habib Bourguiba avowed<sup>(2)</sup>. The reforms introduced in fundamental institutions between the 1950s and the 2000s, and the democratization of education, encouraged the formation of a new subjectivity that played an important role in the defense of women's rights by political parties and national organizations in 1988 and in 2003.

The third and last aspect concerns women and their bodies. Women's bodies appeared as central to the Bourguiba and Ben Ali regimes, as it also did for the Islamic Tendency Movement that later became the Nahdha party, and as it did

(1) Lilia Labidi. *Çabra Hachma: sexualité et tradition*. Tunis: Dar Ennawras, 1989.

(2) Lilia Labidi. "Condition féminine et réaménagement des sentiments dans le monde arabe." In Sow, Fatou (ed.) *La recherche féminine francophone*. Paris: Karthala, 2009. Pp. 269-280.

the *hijab* worn by women for their not reaching decision-making positions; and Souad Abderrahim, who had succeeded during the electoral campaign in giving Nahdha an image different from that of the 1980s, was put on the television to reassure the population, to defuse the crisis, confronting Ahlem Belhadj, a child psychiatrist and president of the ATFD, and declaring that the text was not final and that it could certainly be changed. Eventually, the mixed commission of the ANC, charged with coordinating and making coherent the work of the various ANC committees, decided to modify Article 28 and to adopt the phrase “equality between the two sexes, equality of opportunity as a function of competence, and legal punishment for violence against women” – an article that gained general consensus -- before sending it to the Committee on Rights and Freedoms and to the plenary session of the ANC<sup>(55)</sup>.

It is important to point out, here, that the Islamic feminist movement, following the October 2011 elections and the intense public discussion, was marked by numerous tensions, pushing these women to define themselves, just as this public discussion led some women members of the secular parties to come closer to Nahdha women members of the ANC. Souad Abderrahim made a declaration where she withdrew her criticism of Tunisia’s lifting its CEDAW reservations in the summer of 2011, saying, “There is no question of one woman being against another woman. The gains achieved are untouchable. It is essential to struggle against patriarchal society and the macho mentality that dominates”<sup>(56)</sup>. Meherzia Labidi[no relation to the author], vice-president of the ANC and wearing the *hijab*, questioned wearing the *niqab*, encouraged women to take fate into their own hands, expressed her anger at the rape of a young woman by two policemen, and asked for the judicial system to hear the testimony of the parents of Amina Sboui, a militant of the *Femen* movement, who had been arrested for defacing a cemetery wall and possessing tear gas. Finally, in April 2014, the Tunisian government formally notified the UN Secretary-General that the government was lifting its reservations regarding CEDAW, a measure that

(55) (Unsigned article). “Le fameux article 28 sur la ‘complémentarité’, recalé.” [www.espacemanager.com/politique/tunisie-le-fameux-article-28-sur-la-complementarite-recale.html](http://www.espacemanager.com/politique/tunisie-le-fameux-article-28-sur-la-complementarite-recale.html) (25/9/2012).

(56) Amel Djait. “Maya Jeribi: Les femmes d’EnNahdha vivent un déchirement réel.” (22/3/2013) <http://directinfo.webmanagercenter.com/2013/03/22/maya-geribi-les-femmes-denNahdha-vivent-un-dechirement-reel/>

paternalist approach that gave absolute power to the man while denying to the woman her full citizenship rights, and they reproached the text for not recognizing the woman as “an independent being,” as “a citizen having the same human rights and freedoms as the man.” The group rebelled against a definition where the woman was defined in relation to the man as father, husband, or brother<sup>(50)</sup>. The signers called for rejecting the notion of “complementarity” between man and woman, in as much as it was open to misunderstanding and its interpretation risked a number of dangers, opening the door to the technique of *fait accompli* as was seen in the case of the Algerian Family Code in 1984.

Farida Labidi<sup>(51)</sup>Souad Abderrahim<sup>(52)</sup>Meherzia Labidi<sup>(53)</sup>

After demonstrations on 13 August 2012 that mobilized political parties and national organizations opposed to the notion of “complementarity” and to Nahdha, which was seen as supporting it, and where women appeared in large numbers to demonstrate against attacks on their rights – the opposition to Nahdha began to treat women wearing the *hijab* disdainfully, assimilating them, no matter what their actual profession, to women working in *hammam*-s<sup>(54)</sup>. making fun of them on internet social networks – a phenomenon similar to one pointed out by Alev Cinar in Turkey. And the Minister for Women’s and Family Affairs blamed

(50) (Unsigned article). “Quel avenir pour la femme tunisienne? Complémentaire ou égale?” [www.tunisiefocus.com/politique/quel-avenir-pour-la-femme-Tunisian-complementaire-ou-egale-17727/](http://www.tunisiefocus.com/politique/quel-avenir-pour-la-femme-Tunisian-complementaire-ou-egale-17727/) (13/08/2012).

(51) (Unsigned article). “Quel avenir pour la femme tunisienne? Complémentaire ou égale?” [www.tunisiefocus.com/politique/quel-avenir-pour-la-femme-Tunisian-complementaire-ou-egale-17727/](http://www.tunisiefocus.com/politique/quel-avenir-pour-la-femme-Tunisian-complementaire-ou-egale-17727/) (13/08/2012).

(52) Source: [www.babnet.net](http://www.babnet.net) (Farida Labidi is not related to the author.)

(53) A profession located at the bottom of the scale of professions.

(54) A profession located at the bottom of the scale of professions.

de la femme avec l'homme") led to a strong reaction, giving a political character to the debate. The content of Article 28 of the ANC's proposed constitution was revealed by Selma Mabrouk of the Ettakatol party (one of the parties in the governmental "troika" led by Nahdha and also including the CPR which, together with Ettakatol, is a secularist party; Mabrouk later left Ettakatol and joined the Al-Massar party). It stipulates: "the State guarantees the protection of women's rights and what has been achieved, according to the principle of complementarity with the man within the family and as the associate of man in the development of the country." This was received as an assault on the culture of Tunisians who, since 1956, often call the Personal Status Code "the country's constitution." Women, fearing for their position in society, reacted against this article that consecrated "complementarity" and not "equality" between the sexes, which was perceived as a regression with regard to what had already been achieved.

In addition, this content was revealed a few days before the 13<sup>th</sup> August when, annually, the promulgation of the Personal Status Code in 1956 is celebrated. Selma Mabrouk wrote on her Facebook page, "I am a Tunisian woman and before being a woman or a Tunisian, I am a human being and a full citizen" and she launched a petition on her site calling for "protecting the citizenship rights of women in Tunisia" and against the formulation that defines the woman "with regard to the man" and a vision that doesn't say that the man is the "complement to the woman"<sup>(48)</sup>.

Immediately, a group of associations came together, composed of the ATFD, AFTURD, the Tunisian League for the Defense of Human Rights (LTDH), the executive committee and the women's commission of the UGTT trade union, the Tunisian section of Amnesty International, and the National Council for Freedoms, which published a declaration on August 4 saying they were scandalized by the suppression of the "principle of the equality between the sexes" and by the insult to the dignity and citizenship of women<sup>(49)</sup>. The group also highlighted the

(48) Sabrina Dufourmont. "Tunisie: la femme n'est plus l'égal de l'homme." [http://www.lepoint.fr/monde/en-tunisie-la-femme-n-est-plus-l-egale-de-l-homme-09-08-2012-1494534\\_24.php](http://www.lepoint.fr/monde/en-tunisie-la-femme-n-est-plus-l-egale-de-l-homme-09-08-2012-1494534_24.php) (9/08/2012).

(49) (Unsigned article). "Le cadeau d'EnNahdha: 'la complémentarité' de la femme 'avec l'homme' et non l'égalité entre les sexes." <http://www.elkasbah.net/tunisie-fete-de-la-femme-le-cadeau-denNahdha-la-complementarite-de-la-femme-avec-lhomme-et-non-legalite-entre-les-sexes/>



respect what the other considers sacred<sup>(45)</sup>.

The Maghreb region has been experiencing a debate over freedom of conscience for some years now. The positions of various religious orientations and political parties differs from country to country. During Ramadan 2013 the Tunisian preacher Adel Almi announced that he intended to take photographs of people breaking the fast and to post them on Facebook, to which a number of Tunisians – youth(both male and female), urban, and mostly belonging to the upper middle class – answered that they would put their own photos on Facebook, showing themselves eating during Ramadan, a gesture that gained much support. In Morocco, groups had been protesting for several years against Article 222 of the Penal Code, which provides six months in prison and a fine of almost 100 Euros(approximately \$US 135) for anyone obviously breaking the Ramadan fast in a public place. And then, also in 2013, in the presence of the King of Morocco, the Imam of a mosque in Safi declared that Islam was not against the right of apostasy and non-respect of Ramadan. This speech showed a consensus of reactions among Islamist political figures, with *Al-Adl Wa al-Ihsan* agreeing with it, its second-in-command, Fathallah Arsalane, saying “that no pressure can be put on the individual’s choice, spiritual relationship, and right to know God” and maintaining that “True democracy is sufficiently open to support all opinions”<sup>(46)</sup>. The *al-Jamaâ* movement found in this position a way to distinguish itself from a controversial fatwa on apostasy issued by the Council of Oulama-s, calling for apostates to be condemned to death. In Algeria, at Tizi Ouzou, almost 500 people, some without clear political affiliation, lunched in public in the middle of Ramadan to demonstrate their freedom of choice<sup>(47)</sup>.

## B. Complementarity

The phrase, “complementarity of the woman to the man” (“complémentarité

(45) Frida Dahmani. “Rached Ghannouchi: ‘Islam et politique sont indissociables.’” *Jeune afrique.com* <http://www.jeuneafrique.com/Article/JA2692p054-059.xml0/> (27/8/ 2012)

(46) “Liberté de conscience: Al Adl Wal Ihssane pour le droit à l’apostasie et le non respect du Ramadan?” (25/4/2013) <http://maroc.msn.com/news/maghreb-news/1057744/liberte-de-conscience-al-adl-wal-ihssane-pour-le-droit-a-lapostasie-et-le-non-respect-du-ramadan/>

(47) Report on Algeria: <http://www.youtube.com/watch?v=RPcCsLwAO80> ; on France <http://www.youtube.com/watch?v=NleHrF6g09o> (Accessed 25/10/2013)

middle of the day, preparing to have her lunch, with a beer, in her garden<sup>(41)</sup>. Two other scenes are filmed with a hidden camera, because El Fani was still waiting to receive official permission to film from the Ministry of Culture. In a taxi she enters into a conversation with the taxi-driver, saying that she didn't believe in God. All the taxi driver answers is, "That's your business"<sup>(42)</sup>. The last scene shows the filmmaker in a café with its windows covered with paper and its clients, all men, drinking coffee either at the bar or seated at a table. She whispers to her assistant, "They behave as though they were fasting, but without fasting," and asks her assistant to film with the hidden camera. Clients who overheard the filmmakers' remarks oppose the filming and a conversation begins on the first article of the Tunisian Constitution which says, "Tunisia is a free state, independent and sovereign; its religion is Islam, its language is Arabic, and its regime is a Republic." She remarks that the government is one thing and religion is another and, denouncing authoritarianism, says that liberty is to be thought of as one wishes.

Attacked on Facebook, the filmmaker brought two legal cases, one in France and the other in Tunisia<sup>(43)</sup>, engaging to defend her Tunisian case Bochra Belhaj Hmida, former ATFD president and someone who is clear about her fears for the freedoms of belief and expression<sup>(44)</sup>. Frida Dahmani, a journalist for *Jeune Afrique*, questioned Rashid Ghannouchi, founder of the Nahdha party, about his position regarding Tunisians who claim the right to not fast during Ramadan, and he answered, "Whether a person fasts or not concerns only that person and his/her commitment to God. Simply, those who don't fast must respect those who do." As for whether one can be a good Tunisian citizen and not a practicing Muslim, or even an atheist, he answers, "All Tunisians are free" and "No Muslim can excommunicate another," and that "Living together" means the duty of each to

(41) Title: Revenues from beer sales in 2012 almost doubled compared to 2009.

| First trimester | Hectoliters | Revenue             |
|-----------------|-------------|---------------------|
| 2012            | 387,628     | 21.3 million dinars |
| 2011            | 283,783     | 14.3                |
| 2010            | 289,706     | 15                  |
| 2009            | 265,156     | 13.8                |

Source: [http://www.maxulabourse.com.tn/news/attachments/110025\\_25042012-1.pdf](http://www.maxulabourse.com.tn/news/attachments/110025_25042012-1.pdf)

(42) [http://www.telerama.fr/cinema/laicite\\_inch\\_allah\\_revolution\\_tunisie,73190.php](http://www.telerama.fr/cinema/laicite_inch_allah_revolution_tunisie,73190.php)

(43) <http://www.youtube.com/watch?v=3SWzsRSyFIU>

(44) Bochra Bel Haj Hmida, list head for the Ettakatol Party in Zaghouan for the October 2011 elections, was not elected.

To better understand why these results didn't meet the expectations of the elites, we need to return to several events that occurred between 2011 and 2012 and that illustrate the tensions among various social groups and the role played by women in defining freedom of conscience and relations within the family.

#### IV. New social demands

In this section I wish to discuss two events that renewed debates that occurred in Tunisia a half-century earlier, but now where the main actors are women. The documentary film *Ni dieu ni maître* (Nadia El Fani, 2011) provoked great controversy over freedom of conscience and over fasting during Ramadan, reminding Tunisians of Bourguiba's call to not fast and also how the state, to avoid the people's anger, forbid the sale of alcohol during Ramadan and took measures that allowed cafés and restaurants in tourist zones to remain open but, by keeping their windows covered, to do so in a way that would not shock the population. The second case concerns the controversy that arose over the formulation in Article 28 of the constitution proposed by the ANC that took office after the October 2011 elections, a formulation that spoke of "complementarity" between man and woman rather than "equality."

##### A. "Laïcité InchAllah"

Nadia El Fani, a filmmaker well-known for her *Bedwin Hacker* (2003), *Les enfants de Lénine* (2007) devoted to her Communist father, as well as for a number of documentaries and short films, provoked a strong reaction among Salafi-s with her film, *Ni dieu ni maître* (*Neither god nor master*) When it was shown in the spring of 2011 at a festival it occasioned little comment but, when put on the program of a theater in Tunis, passions were unleashed even before its projection, leading to violence uncommon in Tunisia. The filmmaker then changed her film's title to "Laïcité InchAllah."

This documentary, finished in 2010 but then taken up again after 14 January 2011 to integrate women's actions during the revolution, contains three scenes relating to fasting during Ramadan. One scene shows the filmmaker, in the

associations formed between January and September 2011 – equal to the number of such associations founded during the more than two decades of the Ben Ali regime. The second point concerns relations among the various feminist and women’s organizations during the period of democratic transition, between January and September 2011. Here we see the independent feminists criticizing organizations like the UNFT (*Union Nationale des Femmes de Tunisie*), formed after independence in the Bourguiba period, and the ATM (*Association Tunisienne des Mères*), which appeared after 1987 under Ben Ali<sup>(38)</sup>, for having relayed the government’s discourse without showing any independence from it, and succeeding in having these organizations placed under judicial oversight<sup>(39)</sup>. Also, women of the Nahdha party criticized the ATFD for not having come to the aid of prisoners’ mothers and for not having defended the rights of women wearing the *hijab*. And then Souad Abderrahim criticized Tunisia’s lifting its reservations concerning CEDAW, but she did this in a way that didn’t attract media attention.

The results of the October 2011 elections created a shock for the opposition and for feminists – the results did not meet their expectations and showed a strong bipolarization. Nahdha won the elections with 41.47% of the vote (1,501,418 of 3,702,627 votes) and the proportion of women elected to the National Constituent Assembly (ANC, *l’Assemblée Nationale Constituante*) was 26.73%, slightly lower than 27.57% elected in 2009 under Ben Ali. The majority of the women members of the ANC were Nahdha members, and Souad Abderrahim’s list won three seats, a very respectable number<sup>(40)</sup>.

(38) The party in power – the Democratic Constitutional Rally (Rassemblement Constitutionnel Démocratique -- RCD, 1988-2011) – descended from the Parti Socialiste Destourien (PSD, 1964-1988), in turn descended from the Neo-Destour Party, founded by Habib Bourguiba in 1934.

(39) On 13 January 2011, the UNFT organized a demonstration to support Ben Ali following his speech in which he echoed the famous phrase uttered by Charles de Gaulle – “Je vous ai compris” (I have understood you) – and the images of men and women wearing scarves with the RCD’s characteristic color of purple, displaying their enthusiasm for the ruler, were broadcast by public television as proof of his popular support. A group of independent women from the country’s regions, headed by Rafika Bhourri, was the only group to call for dissolving the UNFT in March 2011.

(40) Lilia Labidi, “The Arab Spring in Tunisia: Parity, Elections, and the Struggle for Women’s Rights.” Paper presented at the conference, “The Arab Uprisings One Year Later,” organized by the Middle East Institute, National University of Singapore, 2012. (the publication is forthcoming)

Ferdaous Oueslati, a specialist in Islam who wears the *hijab*, similar to many women in her district (which covered the Americas and Europe outside France) who often wore the *hijab* as a sign of identity<sup>(36)</sup>.

A further word on Souad Abderrahim: she was a militant in the Islamically-oriented student organization the UGTE (*Union Générale Tunisian des Etudiants*) in the 1980s, was arrested for 15 days in the 80s under Bourguiba, and suspended her activities as the Ben Ali regime's repression of Islamists became more severe. She rejoined Nahdha as an independent in 2011, running a faultless campaign that contributed significantly to Nahdha's overall success. Married with two children, often dressed in a tight-fitting pants suit, she criss-crossed the streets of her district, presenting herself as a guarantor that Nahdha would not oblige women to wear the *hijab* nor would it touch the Personal Status Code nor other aspects of women's rights, except to improve them.

c) The national campaign, "The culture of citizenship and democracy" (*"Culture citoyenne et démocratie"*) undertaken by the Ministry for Women's Affairs to promote, throughout Tunisia's regions, civic culture and awareness of women's political, cultural, economic, and social rights, and the activities of feminist organizations and of women who engaged in various actions, led to Tunisia's lifting its reservations regarding the Convention for the Elimination of all forms of Discrimination Against Women (CEDAW), as one of the responses to the demands of the revolutionary youth who called for, "Freedom, dignity, and work"<sup>(37)</sup>.

Let me make two points here. The first concerns the number of women's

(36) She won 10,218 votes, 35% of the votes cast.

(37) What should we call the revolution in Tunisia? For those living in the areas that were the birthplace of the revolution, it is "the revolution of 17 December"; for those living in the capital city of Tunis, it is "the revolution of 14 January." The term "Jasmine revolution" suggests, for some, a denial of the sacrifices made by many Tunisians in this struggle. Seddik Jeddi proposes, "The olive revolution"; Nebiha Gasmi "The Barbary Fig Revolution"; Jaloul Ayed titled his book, *Tunisie. La route des jasmins* (Paris: Editions de la Différence, 2013).

I would like to cite here the study by Robert Castel, "La discrimination négative: le déficit de citoyenneté des jeunes de banlieue" (*Annales, Histoire, Sciences sociales*. 61 Année, N 4, 2006. Pp. 777 – 808), which discusses the citizenship deficit of populations, especially those originating in the Maghreb, now living on the peripheries of the large French cities. His observations are similar to what could be seen in Tunisia in 2011, which suggests that the countries of the southern Mediterranean have themselves become the peripheries of Europe.

experience and/or on reflection and revolutionary legitimacy enabled the society to decide controversial questions concerning the following matters.

a) Lifting the ban, in 2011, on wearing the *hijab*, and deciding that it was a matter of the individual's right to free expression, thus putting an end to the ultimatum : study and work, or wear the *hijab*<sup>(34)</sup>. Women wearing the *hijab* were able to be photographed for their national identity card and article 6 of Decree 717, 13 April 1993, defining the characteristics of the identity card was modified accordingly.

b) Political parity between men and women was adopted by the *Haute Instance Nationale Supérieure pour la Réalisation des Objectifs de la Révolution, de la Réforme Politique et de la Transition Démocratique*, composed of 155 members, of which 37 were women. Article 16 affirming parity and mandating alternation between man and woman on electoral lists was adopted by 84 votes (some sources say 85) against 34<sup>(35)</sup>. Electoral lists not respecting this rule were to be eliminated, provoking criticism from the parties affected, particularly new ones who, fearing they would not be able to find women candidates especially in rural regions, ran the risk of having a sharply reduced number of lists. Parties were given the freedom to choose a man or woman to head each list. Against the expectations of many the Nahdha party voted for parity whereas a number of other parties, expected to vote in favor, voted against. Of all the parties – even among those who followed the basic parity rule of alternating men and women on their lists -- only the *Pole Démocratique Moderniste* had, in addition to parity on their lists, an almost equal number of men and women as list heads (16 women and 17 men). As for the Nahdha party, it put two women as list heads, choosing them in line with debates on cultural identity that were taking place in each region. These two women were Souad Abderrahim, a pharmacist and entrepreneur who did not wear the *hijab* and who represented the district Tunis 2, an upper middle-class district where many women did not wear the *hijab*; and

(34) Testimony of Mongia Laabidi, founder of the Association for the fight against torture and a victim of torture because she wore the *hijab*, to the Al-Magharibia Channel. She was able to flee the country and came to reside in England. (<http://www.youtube.com/watch?v=s8iMvPywDuY>) (13/3/2012)

(35) This law has been challenged but there has been little distribution of writings opposed to this law. See the site: Le Peuple Touareg : Les manœuvres frauduleuses et déloyales conçues par Yadh Ben Achour. Instance-superieure-isror-yadh-benach.blogspot.sg/2011/04/les-m...

theme, “The *hijab*: southern side of the Mediterranean,” which was the occasion for her to clarify the ATFD’s position regarding the *hijab* and to show some distance with respect to both the two preceding communiqués that provoked such an outcry and to the repression that the state was exercising. She maintained that the *hijab* (using the French term, “le voile”) followed a “Law of men claimed to be in the name of God, aiming to negate women whose femininity, whose bodies, are considered to be base, to be *‘awra* (flawed), and are to be hidden under the *hijab* in order not to provoke disorder” and recognized in her introduction that there are “as many realities as there are *hijab* and as many *hijab* as there are uses to which it is put.” In fact, she expressed an ATFD position that conforms to the discourse of Tunisian feminists of the 1980s, who denounced the reigning misogyny and at the same time wanted to distance themselves from the government’s campaign against women wearing the *hijab*, and she declared, “Everything opposes us to the *hijab*. But understand, oppose doesn’t mean repress or legitimize repression... to be opposed to the *hijab* is not to reject women who wear it but to refuse the *hijab* as a horizon.” Several months later Ilhem Marzouki, a sociologist and AFTD member called upon feminists to find the difficult balance between anathema and unqualified approval<sup>(32)</sup>. The state, showing its concern over the extent of the debate, hardened its repression against women wearing the *hijab*, such as those working in public institutions like hospitals(circular 98, 22 October 2003), or students.

On 14 January 2011 the Ben Ali regime fell, following a revolution led by youth without leadership and with a clear slogan, “Freedom, dignity, and work.” Adolescents became photo-journalists for international satellite television channels and social networks contributed to mobilization, with women playing a key role during the revolution and in the period of democratic transition post-14 January 2011, both in the government and in independent public institutions set up by the transitional government<sup>(33)</sup>. The spirit of justice, based on direct

(32) Ilhem Marzouki. “A propos du ‘Foulard Islamique’: Foi ou loi?” *Al-Tariq al-Jadid* 24 March 2004.

(33) Yadh Ben Achour heads the Commission Nationale Supérieure pour la Réalisation des Objectifs de la Révolution, de la Réforme Politique et de la Transition Démocratique; Taoufik Bouderballa heads the Commission d’Enquête sur le Rôle des Forces de Sécurité dans la Répression Sanglante des Manifestations; and Abdelfattah Amor heads the Commission Nationale d’Etablissement des Faits sur les Affaires de Malversation et de Corruption (foreign bank accounts, real estate in Tunisia, participation in companies and wealth. etc.).

*le Travail et les Libertés*), the PDP (*Parti Démocratique Progressiste*) and the CPR (*Congrès pour la République*) – met in France and signed a Tunis Appeal (*L'Appel de Tunis*) that proposed that the next government, following the 2004 elections, should respect the people's sovereignty as sole source of legitimacy. The state should show respect for the population's identity and its Arab-Muslim values, guarantee freedom of belief for all Tunisians and equality between men and women.

This meeting was not without impact on the feminist milieu in Tunisia and the celebration of 13 August 2003 (an annual event marking the anniversary of the Personal Status Code's promulgation) was the theater of multiple tensions among various organizations. A declaration signed by the ATFD, the Tunisian Human Rights League, and the Tunisian Section of Amnesty International demanded full equality between men and women and argued that the reference to religion turned women into a target. Their declaration stated, "As much as we respect the religious convictions of each citizen, man and woman, so we firmly refuse all forms and all practices that take women as a target, to transform them into an instrument for the public and social expression of religious choice, which should necessarily be limited to the field of the individual and not go outside private space"<sup>(30)</sup>.

But once this text was published, the Tunisian Section of Amnesty International and some members of the LTDH leadership withdrew their support. Some members, surprised by the publication, went so far as to say that they learned of its existence via the press. The ATFD then published a second communiqué where the organization stated "its deep concern," pointed out "the spread of the *hijab*," expressed "its total rejection of this symbol, which is that of women's sequestration and of regression" and attacked the propaganda regarding the *hijab* broadcast by the satellite television channels coming from the Mashreq and its female television figures, questioning the state on its "lack of clear political stance regarding wearing the *hijab*"<sup>(31)</sup>.

In December 2003 Sana Ben Achour, a jurist and later president of the ATFD (from 2008-2010), spoke during a round-table discussion organized on the

(30) Larbi Chouikha. Op. cit.

(31) Larbi Chouikha. Op. cit.



*Kalima* in 2000 with Naziha Réjiba. Having founded the National Council for Freedom in Tunisia (*Conseil National pour les Libertés en Tunisie*) in 1998, she consistently defended freedom of the press and human rights, then found herself physically attacked and her documents and possessions ransacked. In 2001 she was the first to denounce corruption on TV, on the London-based channel *Al-Mustaqilla*, and she was arrested on her arrival at the airport and imprisoned. After the revolution of 14 January 2011, she was appointed member of the Truth and Dignity Commission (*l'Instance Vérité et Dignité*) which, with 15 members, was charged with establishing transitional justice. The role of this commission is to find and provide indemnities for victims of the abuses of the Ben Ali and Bourguiba regimes, from 1955 to the date of adoption of the Law on Transitional Justice. Radhia Nasraoui, a lawyer, found her office broken into in 1998 and her documents stolen; then in 2001, on her return from Paris, her documents were seized; she and her daughters were harassed repeatedly in 2002 and in 2003, and she began a hunger strike to stop these attacks against her and her family. Among her activities, she co-founded the *Association contre la Torture en Tunisie* and as a lawyer defended a number of arrested Islamist activists. In addition, during the 1990s and the 2000s feminists developed mechanisms of defense and resistance – for the members of AFTURD this took the form of research and artistic expression<sup>(29)</sup>; for the members of the ATFD this took the form of constructing alliances with human rights organizations -- national ones like the *Ligue Tunisienne des Droits de l'Homme* (LTDH) and international ones like Amnesty International.

## B. The Tunis Appeal of 2003

2003 was a very eventful year, with the political parties and organizations trying to position themselves, and it constituted a key moment in the history of Tunisian feminism and in the debate over the secularization of society and the reinterpretation of religious discourse. Four of the opposition parties – Nahdha, Ettakatol (Democratic Forum for Work and Freedom, *Forum Démocratique pour*

(29) Research has been carried out on a variety of themes like divorce, unequal inheritance between men and women, etc. Artistic expression, with exhibits, happenings, installations carried out by Lilia Labidi, debates about theatrical plays and films, were also means to promote social criticism.

independents, and won almost 14% of the seats. After a short period of relative freedom, in 1991 there were explosions at an RCD party office in Bab Souika in Tunis, and following this Islamist activists of both sexes were pursued and some were sentenced to long prison terms. Some managed to gain exile. Of the 654 Islamist political prisoners identified in 2011 by the association *Liberté et équité* as victims of abuse or torture (one of whom, Rachid Chammakhi, died from this treatment), 444 were imprisoned between 1989 and 1994. Among the claims collected by *Liberté et équité*, 26 were made by women for measures taken against them on account of their wearing the *hijab* – measures that, in certain cases, involved suspension or dismissal from their jobs<sup>(26)</sup>.



**Sihem Ben Sedrine**<sup>(27)</sup>



**Radhia Nasraoui**<sup>(28)</sup>

The state also kept a close watch on the secular opposition and co-opted the discourse of the independent Tunisian feminist movement, while at the same time marginalizing the movement's historic figures. Activities were closely monitored and made difficult, when they were not actually forbidden or cancelled, women's telephones and emails were monitored, etc. Among them Sihem Ben Sedrine and Radhia Nasraoui provide good illustrations of the ordeals undergone by independent feminists during this period. After philosophy studies in France, Ben Sedrine worked in Tunisia as a journalist for independent newspapers, published several newspapers and founded publishing houses, launched radio

(26) Imen Triki and Hajer Almiya. "Les analyses de données de l'Organisation Liberté et Équité." In *Les violations des Droits de l'Homme en Tunisie de la période prérévolutionnaire à juin 2012*. Avocats sans Frontières, with the support of the Confédération Suisse and le Département fédéral des affaires étrangères, Sept. 2012. p. 31 – 34. [www.asf.be/wp-content/uploads/2012/11/ASF\\_TUN\\_ProjetArchives\\_Rapport201211.pdf](http://www.asf.be/wp-content/uploads/2012/11/ASF_TUN_ProjetArchives_Rapport201211.pdf)

(27) Source: [www.babnet.net](http://www.babnet.net)

(28) Source: [www.alternatives-citoyennes.sgdg.org](http://www.alternatives-citoyennes.sgdg.org).

mental incapacity, with much of the population thankful that Bourguiba himself was not harmed. Deposing Bourguiba also allowed the country to avoid a military coup that was being planned for 8 November 1987 by elements in the Islamic Tendency Movement.

At this point Tunisia entered into a new period where the religious domain was under the control of the political. MTI militants and those of the Party for Islamic Liberation(PLI) were freed from prison in 1987 and on 7 November 1988 the National Pact, which confirmed the maintenance of the Personal Status Code, was signed by a number of parties, including the MTI. Two independent feminist organizations – AFTURD(*Association des Femmes Tunisiennes pour la Recherche et le Développement*) and the ATFD (*Association Tunisienne des Femmes Démocrates* – a name that had generated controversy at the time of its founding, with the corresponding Moroccan organization called Association Démocratique des Femmes du Maroc) – obtained legal status<sup>(25)</sup>.

The state continued Bourguiba's policies regarding women, reassuring both feminists and women in general, and new laws were adopted that reinforced this feeling, ensuring the right of a divorced mother to keep the family dwelling, even when this was registered in the husband's name; the marriage of a girl younger than the legal marriageable age was made conditional on the agreement of the father/guardian and of the mother; the child of a Tunisian mother was awarded the right to choose Tunisian nationality, with the agreement of the father; a fund was created for divorced women and their children, in cases where the husband/father had not paid alimony and for judicial proceedings against him; providing for a choice of marriage contract with either separation or common ownership of wealth; and that relations within the couple were to be founded on partnership(women with financial means should participate in providing financially for the family), etc.

On the political level, the ban on having a religious basis for a political party forced the MTI to remove the religious element from its name. It changed to the Renaissance Party (*an-Nahdha*), but still was not given legal recognition. A number of Nahdha party members were candidates in the 1989 elections, as

(25) Lilia Labidi. "The nature of transnational alliances in women's associations in the Maghreb: the case of AFTURD and ATFD in Tunisia." *Journal of Middle East Women's Studies* Vol. 3, No. 1(Winter 2007), pp. 6-34.

Muslims<sup>(23)</sup>. Whereas the State retreated on the question of fasting, with regard to the *hijab* the government published Decree 108 in 1981, which forbid wearing the *hijab* in public institutions<sup>(24)</sup>. The reasons given to defend the law were that the *hijab* that girls were wearing to school with increasing frequency were “foreign to our traditions of dress”; they were dressing in a way “that merges with ‘confessional’ dress, which signifies belonging to group that distinguishes itself by sectarian dress, contrary to the spirit of our times and the healthy evolution of society.” 1981 was also the year when the Islamic Tendency Movement, bringing together Islamically-oriented students, intellectuals, engineers, etc., applied for legal recognition, without success. Several of its leading figures were arrested and sentenced, among them Rashid Ghannouchi, who received an 11-year prison sentence, but they were released in 1984. The Movement continued its activities among the population, providing social assistance, and it became more radical in its program.

In 1985 the Islamic Tendency Movement (MTI) demanded that the law related to adoption be put to a referendum -- Tunisia was then the only country in the Arab world that authorized adoption and that the adopted child could carry the name of the adopting parents. In the face of this demand, which was supported by a number of adopting parents who were unhappy with their situation, psychologists, jurists, and social workers who had expended much effort to push the state to recognize the rights of adopted children and children born out of wedlock felt, if a referendum were to be approved, they would have given false hope to both the children and the adopting parents. In fact, no referendum on this question was held and, with attacks committed in tourist areas of Sousse and Monastir in 1987 -- attacks that were attributed to Islamists -- the police made a number of arrests among Islamists including the MTI, many of whom were sentenced to long prison terms and two of whom were executed. And finally, on 7 November 1987, Bourguiba’s prime minister, Zine el-Abidine Ben Ali, deposed the president for

(23) Only rarely did families escape these criticisms. An Algerian woman – a university graduate, married, and a mother – related to me how her son, shocked by the differences in their rather cosmopolitan family behavior and the narrow sectarian education at school, was strongly influenced by the latter and went to join the armed struggle in Afghanistan during the 1980s.

(24) For a discussion of this see the article by Larbi Chouikha, “La question du *hijab* en Tunisie et en France,” in *La politisation du voile en France, en Europe et dans le monde arabe*. F. Lorcerie(ed.), Paris: L’Harmattan, 2005. pp. 161–184.

1960s became sharper with the economic crisis, turning into social and political anger that required, in the subsequent years, the reaching of a political consensus on two different occasions, where the political parties negotiated *hudud*/limits to their activities and where, on both occasions, women's rights were preserved.

### A. The National Pact of 1988

Bourguiba's reformism began to encounter increasing resistance, starting already in the 1960s. Among the actions that created discomfort among the population, there are two that I would like to discuss: Bourguiba's appeal that the population not fast during Ramadan and restrictions placed on women's wearing the *hijab*.

In 1960 Bourguiba drank a glass of orange juice, in public, during a speech he gave in the month of Ramadan and called upon the people to follow him, a gesture he presented as part of a *jihad* for development. Shaykh Tahar Ben Achour, who had supported the promulgation of the PSC, refused to support Bourguiba's position and Bourguiba's view generated widespread discomfort, including among many who were not strictly practicing Muslims. Nebiha Ben Miled's testimony – she was a social worker at the Charles Nicolle hospital and had worked alongside Frantz Fanon – sheds an interesting light to help understand how Bourguiba's appeal was received by Tunisians. In recounting her life history to me, she said that, although she did not fast, she refused to carry out the presidential communication transmitted to hospital employees that they not fast but take lunch during Ramadan in the hospital's canteen. Through her refusal to eat in public she was expressing her respect for those who fasted and said she saw in Bourguiba's appeal a transgression that was greater than simply not fasting. Following this incident, which affected her deeply, she requested a month's leave and then decided to resign from her position.

The second case concerns Hend Chelbi who, wearing the *hijab*, gave a speech about Islam on the occasion of the 27<sup>th</sup> day of Ramadan in 1975, carried live on television. After her speech she refused to extend her hand in greeting President Bourguiba, which was a great shock for Tunisians. Since that incident the *hijab* became increasingly visible in public space, often worn against the parents' wishes -- parents who had become, in the eyes of their daughters and according to the religious instruction given in the public schools, not sufficiently devout

the French confined to a camp in the South at the same time he was; and historic figures from other political parties enabled him to experience *musawât*/equality between men and women.

He also owes this sensibility to the opening of his unconscious onto his interior life, his readings and travels, which enabled him, as it did Gandhi, to absorb several elements of the critical liberal humanism he had encountered during his studies in France and, later, during his visits to countries in the Arab world, Asia, and Europe<sup>(22)</sup>. These diverse encounters contributed to opening his unconscious to his emotional and political experiences, forging a critical spirit towards the great and little traditions and enabling him to introduce reforms like the Personal Status Code even before the adoption of the Tunisian Constitution in 1959, founding a republic in which women and men were equal before the law. Other significant measures were adopted encouraging the exercise of critical faculties, such as the 1956 separation of Zeitouna University (founded in 123 /737 and which trained *oulama*) from the mosque of the same name and its replacement in 1961 by a Faculty of Theology; the introduction of religious education and civic instruction into the schools; the reinterpretation of certain religious duties like making the *mahr* symbolic (changing what used to be large amounts of money the groom gave to the bride for marriage to the token amount of 1 dinar), fasting, the sacrifice of a ram on the *Aid al-Adhha*, the pilgrimage, etc. The state also eliminated a number of important religious institutions like the *waqf/habus*, and the state began to appoint the Mufti of the Republic and to administer the Department of Worship.

We will see in the next section how students coming from public schools became the first critics of reformism, partly because their religious teachers in the public educational system had been trained in classical Islam and had not received instruction on how to present religion to children and youth. Therefore the students receiving this instruction felt a rupture between what they were being taught and the life around them, often giving way to discontent and anger and sometimes leading them into more radical Islamist organizations.

### III. Negotiating the *hudud*

In this section, I will be discussing how the perceptible discontent of the

(22) Joseph Tharamangalam. "Indian social scientists and critique of secularism." *Economic and Political Weekly*. Vol. 30, N 9 (Mar. 4, 1995), pp. 457-461. p. 461.

and female intellectuals and journalists to prepare society to welcome these new values. The photographs below, showing women participating in demonstrations in the 1930s and the 1950s, are signs of these changes.

This popular support can also be explained by the respect that the population had for Habib Bourguiba – for *al-kilma* (his word) and *al-hikma* (his wisdom). While a number of intellectuals had been impressed by the feminists, with some valuing their company, some seeing them as models for their daughters, Habib Bourguiba was the only one to understand the tie feminists saw between patriarchy and colonialism and what it would take to break the chains of domination. He was also one of the rare political figures of this period to have had regular contact with women militants between 1930 and 1955, attending their meetings, being photographed with them, entering into correspondence with some, suggesting to others to spread their activities into the country's regions, putting some forward to represent Tunisian women when international figures came through Tunisia or at international conferences, etc. The other important political figure who integrated the woman's dimension into his political activism was Farhat Hached, one of the founders of the independent trade union movement in 1944 and then the UGTT in 1946 but, assassinated in 1952 at the age of 38 by the French, he didn't have enough time to build ties with the women of various groups.

Habib Bourguiba was also the only major political figure to evoke his mother, his female relatives, and his two wives, during speeches that were broadcast on radio and television, and he didn't hide his emotions as he did this. He often mentioned the memory of his mother, who had died at a young age as a consequence of overwork from demands on her by the patriarchal system, and he situated his becoming aware of injustices done to women in the period when Tahar Haddad's book appeared, which came out one year after the publication of Bourguiba's article, "Le voile." He also often mentioned the debt he felt towards his female relatives, like his elder sister and his nieces, who played a key role in his political life. Finally, these women along with his wives Mathilde Lorrain (with whom he lived from 1927-1961 and with whom he had a son) and later Wassila Ben Ammar (who shared his life from 1962-1986 and with whom he adopted a daughter), also contributed to his sensibility. In addition, women political activists like his niece Chedlia Bouzgarou; Majida Boulila, an activist from Sfax with whom he corresponded; Khédija Tobbal and Essia Ghalleb who

against colonialism. In Tunisia, the women activists of the large cities, sometimes in competition with one another, would go to places like Nabeul, Sfax, Béja, and so on, to hold meetings with women and to sensitize the population on the harms of colonialism.

The final years of the struggle against colonialism saw tensions among a variety of groups. Within the nationalist movement two main approaches confronted one another, one led by Salah Ben Youssef who was of a pan-Arab orientation, the other by Habib Bourguiba, and they strongly disagreed over the best path toward independence.

Habib Bourguiba's project came to dominate among the various approaches, and among the reforms he introduced was the Personal Status Code (PSC), promulgated in 1956, an accomplishment that did not go without provoking hostility among the Zeitounian *oulama*. The members of the Islamic Charâa tribunal who denounced the PSC were either dismissed or sent into early retirement. Among the *oulama*, one of the most visible supporters was Fadhel Ben Achour, and the Tunisian population as a whole accepted the reform without protest. This popular support for various rights for women – outlawing polygamy and divorce by repudiation, instituting divorce by judicial procedure, allowing women to choose their spouse; giving women the right to vote (and this some years before it was adopted in several European countries), to be elected, and to work at a salary equal to a man's for the same work; providing schooling for girls and for mixed-sex schools and workplaces; giving to women the right to travel and to manage her financial affairs, etc.; -- can be explained by the work undertaken by women to prepare society for such changes, by the commitment of both male



**Demonstration in the 1930s**



**Demonstration in the 1950s**



women from the Tunis bourgeoisie. Alia Babou and Saida Sassi, under orders from Habib Bourguiba, boycotted the meeting and challenged the organizers regarding their use of French to communicate with Tunisians, given that the population was largely illiterate<sup>(20)</sup>. Alia Babbou also evokes this incident in her memoirs<sup>(21)</sup>.

## B. Promulgation of the Personal Status Code

What did leading women figures think of Tahar Haddad? Bchira Ben Mrad, who fought for women's education and for raising the legal marriage age for women, etc., approved her father's negative view of the author and his work, judging that Haddad was not mature enough to understand and interpret the Qur'an. Nebiha Ben Miled, on the other hand, received from her husband Dr Ahmed Ben Miled a copy of Haddad's *Our women in Islamic legislation and society* in her basket of wedding presents. The activities of *Section Féminine des Jeunes Musulmans*, led by Souad El-Khattech Neiffer, were an extension of Tahar Haddad's thought. As for Chedlia Bouzgarou, fully believing that women were equal to men, she did not pronounce explicitly on this subject, preferring to pursue her own activism.

Starting at the end of the 1940s, men increasingly called upon their wives, sisters, nieces, aunts, and daughters, to read speeches and to engage in the struggle



Saphia el-Ghoul with her father demonstrating

(20) This event was reported to me by Fatma Jallouli.

(21) Alia Babou. *Itinéraire*. Tunis : Apollonia, 2003. Prix Didon d'Or 2002.

action and to providing moral support for political prisoners and their families<sup>(19)</sup>.

Among the other movements was the *Section Féminine des Jeunes Musulmans* led by Souad El Khattech Neiffer, the wife of Mohamed Salah Neiffer, a Zeitounian Shaykh. This group collected funds to support the educational and extra-curricular activities of children of modest circumstances, purchase school supplies, and pay salaries for teachers in *l'Ecole de la Fille Musulmane*. The *Union des Femmes de Tunisie* (UFT), of a communist orientation, was founded in 1944 by Charlotte Joulain, the widow of a French military man, and it succeeded in attracting a number of Tunisian women like Hafidha Darrage, Mongia Mouldi, Fatma Ben Romdhane, Fatma Mazigh, Kmar El Bahri, Saïda Ben Mohamed, and Khiari, Boujemâa, Azzouz and Ben Abdennebi (for whom we only have family names). The first Muslim Tunisian woman to lead this organization was Nebiha Ben Abdallah (wife of Dr Ahmed Ben Miled), elected in 1951. In an interview I had with her she told me how she was attracted by the dynamism of this organization, which had activities different from those of the UMFT, which seemed to her prone to setting up meetings for the women of the grand bourgeoisie. In contrast, the UFT's actions had a social character. In the beginning they were directed towards the families of French soldiers then they targeted poor Tunisian families. UFT members provided health care, visited the sick, installed water fountains in underprivileged neighborhoods, showed cartoon films for children and films on health education for women, etc. The final leadership committee was composed of Nebiha Ben Miled, Cherifa Saadaoui, Zohra Ben Slimane, Gladys Adda, Soufia Zouiten, Neyla Haddad, Fatma Ben Brahim. There was also a section of the UFT called the *Union des Jeunes Filles de Tunisie*, which included women like Fatma Jellouli, Béatrice Slama, Jaqueline Sebbagh, Juliette Bessis, Khédija Mazigh, Fatma Manaï, Beya Klai, Kalthoum Bouhafa, etc. – all who were secondary school students and some of whom were Jewish.

Bakhta Saddam founded the first girl scout section. And the *Club de la Jeune Fille Zeitounienne* was founded in 1954 and led by Tawhida Farhat, Safia Kehia, Zeinab Ouertani, and Fatma Ben Ali. In 1955 the first conference took place where women demanded social and political rights – it was organized by a group of

---

(19) Lilia Labidi. "Femmes et actions de solidarité dans la Tunisie coloniale." In *Cahiers de la Méditerranée* No. 63. Décembre 2001. p. 101-111.

the articles they wrote, the songs and plays they presented at receptions. Bchira Ben Mrad, who frequented the Bey's palace as well as the French Residency, appealed to the Bey's princesses and to the Resident General's wife to sponsor the organization's activities, enabling her to obtain the necessary authorizations to hold UFMT gatherings. The funds she collected served to finance Tunisian students abroad as well as the activities of nationalist activists. In 1938 three women (all related to Bchira Ben Mrad), all coming from the UMFT and close to the Zeitounians and to the Old Constitutional Party (*le Vieux-Destour*) founded *l'Union Féminine*. This organization, aiming to encourage girls' Islamic education and suspected of having a *wahhabi* orientation, did not receive official authorization.

Chedlia Bouzgarou, whom we've introduced above, distinguished herself in 1935 on the public stage and in formal politics and became a major figure in the struggle against colonialism. During one of the Bey's visits through the streets of the Medina, she succeeded in attracting his attention when, to question him about the fate of political prisoners who had been deported, she tricked him by moving among a number of different balconies, making him think that many people were calling to him about the condition of political militants. Her calls upset the Bey's ritual visit and attracted his attention, as well as that of the notables and journalists who were present, and led to full headlines in the press. In April 1938 she organized a small group of women into demonstrations that became legendary: at the arrival of Eric Labonne, France's Resident General in Tunisia, she managed to approach him and yell out, "Long live France, long live Tunisia, long live His Highness the Bey, long live M. Labonne, long vive the Destour party, long live Bourguiba." Several days later she again demonstrated, this time against the arrival of the new French Resident General Daladier. At each of these demonstrations Chedlia Bouzgarou and other women were arrested and sentenced to prison terms. Despite the difficulties and deprivations, whether in prison or outside it, she pursued the struggle, calling upon men and women to mobilize against colonialism and for freedom and independence, and she continued in this way until independence was achieved<sup>(18)</sup>. The actions of the *Section Féminine du Néo-Destour* (*The Women's Section of the New Constitutional Party*), led by Chedlia Bouzgarou and other historic women figures, were dedicated to political

(18) Lilia Labidi. *Joudhour al-harakat al-nisa'iyya: riwayaat li-shakhsiyyaat tarikhiyya*. Op. cit.

supporting it and, after several years, it ceased publication<sup>(17)</sup>. Among the other women who joined the UFMT was Badra Ben Moustapha who, with her cousin Frida Agrebi, obtained degrees in 1936 from the Medical Faculty of Algiers and thus became the first certified Tunisian midwives. The second woman doctor was Hassiba Ghilleb, a pediatrician with a degree from the Medical Faculty of Paris, who began practicing in Tunisia in the early 1950s.



**Badra Ben Moustapha**



**Frida Agrebi**



**Dr Hassiba Ghilleb**

The leadership of the UFMT sought to attract women with university degrees as representing a new breed of women. The organization's activities aimed to underline the intellectual qualities of its members, via the speeches they gave,

(17) Lilia Labidi. "The nature of transnational alliances in women's associations in the Maghreb: the case of AFTURD and ATFD in Tunisia." *Journal of Middle East Women's Studies* Vol. 3, No. 1 (Winter 2007), pp. 6-34.

**Bchira Ben Mrad****Chedlia Bouzgarou****Souad El Khattech Neiffer****Neiffer Nebiha Ben Abdallah  
Ben Miled**

in 1936 to form the *Union des Femmes Musulmanes de Tunisie* (UFMT), in order to show some independence from the colonial environment and avoid criticism from the Muslim community. The main leaders of this movement were the daughters of Shaykh Mohamed Salah Ben Mrad, their woman cousins and other female relatives by marriage. Encouraged by her father, Bchira Ben Mrad explained her ideas and actions on the pages of the newspaper *Chems al-Islam* (*The Sun of Islam*) and organized concerts to collect funds to assist students from the Maghreb studying in France and to support Neo-Destour party activities. Among the early activities of this new organization was celebrating the return to Tunisia of the country's first woman doctor, Tawhida Ben Cheikh (photo below, among her colleagues, who were all male). Awarded a degree from the Medical Faculty of Paris, she became editor-in-chief of *Leila*, the first Tunisian feminist newspaper in the French language. This publication provoked much controversy when Tunisians realized that among its writers were some *Pères Blancs* (a group of Christian missionaries, formally called *Missionnaires d'Afrique*, that was founded in Algeria in 1868). Fearing the influence this publication might have on their daughters, Tunisian families stopped

oulama, with Shaykh Mohamed Salah Ben Mrad, an important professor at the Zeitouna and Bchira Ben Mrad's father, refuting the work and in 1931 publishing a pamphlet entitled *Al-hidad à la imraatou Al Haddad* (*Mourning the woman of Haddad*) Another author, not well-known, Amor Berri Medani, attacked Tahar Haddad in his book, *Sayfou al-hak 'ala man layara al-hak* (*The sword of justice for he who knows nothing of justice*). A profusion of criticism was unleashed against Tahar Haddad who, coming from the south and without support from the Zeitouna oulama who were closely connected to the Tunis elite, was supported only by a few writers and journalists. Isolated and prevented from practicing as a notary, Tahar Haddad died in 1935 following a lengthy illness and in complete solitude.



1931 was also a year marked by heavy floods leading to considerable human and material losses, leading Wassila Ben Ammar (photo on the left) and Néjiba Ben Mrad, in the following year (when they were respectively 20 and 17 years old and both were unmarried) to found the *Société des Dames Musulmanes* (*The Society for Muslim Women*) to help the victims, collecting funds and setting up a refuge and a clothing distribution center. A reception was organized in February 1932 under the auspices of the spouse of Resident General Manceron and the Bey's princess daughters in a residence in the medina where both Wassila Ben Ammar and Néjiba Ben Mrad spoke. Wassila Ben Ammar (who was much later to marry President Habib Bourguiba, in 1962) expressed her regret that *The Society for Muslim Women* was dominated by men and Néjiba Ben Mrad emphasized the compassion of Muslim women. The event was brought to a close with the naming of Fatma Guellaty as the association's president. The press reported the association's activities in 1933 when, on the occasion of the *Mouled* (the Muslim new year, marking the birth of the Prophet), Saida Ben Chedly (the wife of Othman Kaak<sup>(16)</sup>) [in this paper I specify a woman's husband only for purposes of identification] and Bchira Ben Mrad gave speeches on the role of women in Islam.

*La Société de Dames Musulmanes*, suspected of having privileged relations with the French Resident General in Tunisia, was increasingly ignored by Tunisian families. Bchira Ben Mrad, Néjiba Ben Mrad's sister, applied for an official permit

(16) In this paper we give a woman's husband's name for purposes of identification only.

eligible marriageable age to 16 in Egypt and Manoubia Ouertani, a Tunisian teacher, cast off her *khama* at a conference in Tunis on the women's situation, organized by the French socialists.

Hédi Labidi (1911 - 1985), a Tunisian journalist and essayist, published an article in 1928 in the newspaper *As-Sawab*, in which he invited women to organize themselves in associations. One year later Habiba Menchari, a medical secretary in Tunis of Algerian origin, repeated Manoubia Ouertani's act of shedding her *hijab*, in a situation similar to Ouertani's, and this so angered Habib Bourguiba (who had returned to Tunisia after having studied law in Paris and opened a lawyer's office, while also engaging in journalism) that he published an article titled "*Le voile*" in the newspaper *l'Etendard*, affirming that the veil was an integral part of the Arab-Muslim personality, criticizing French socialists for holding such meetings, and stating his opposition to assimilation (he was probably also aware at this time of events in some of the Islamic republics of the USSR where young girls were killed by their parents for having taken off the *hijab*). Several historians agree that it was important for Bourguiba to emphasize and safeguard what he called "Tunisian identity," as it was viewed by the community.

Among the Tunisian feminist figures who joined the protests against French naturalization of Tunisians and the burial of naturalized French citizens in Muslim cemeteries, we find Bchira Ben Mrad and Chedlia Bouzgarou. The former was following the position of her father, a Zeitounian shaykh who had argued against naturalization; the latter went to families celebrating weddings and denounced shaykhs who had issued fatwas favoring naturalization. She also attempted to raise awareness of the consequences of such an act<sup>(15)</sup>, while presenting two sorts of Islam, one that was traditionalist and collaborating with the colonial power, the other that was emancipatory.

It was in this context that a book by the Zeitounian theologian, Tahar Haddad (1899-1935) -- *Imra'atuna fi ach-chariâ wal-mujtamaâ (Our women in Islamic legislation and society)* – was published, appearing in 1930 at a time when the Eucharistic Congress at Carthage was taking place and the hundredth anniversary of French Algeria was being celebrated. This created a firestorm among the Zeitouna

(15) Lilia Labidi. *Joudhour al-harakat al-nisa'iyya: riwayaat li-shakhsiyyaat tarikhiyya* [Origins of feminist movements in Tunisia: personal history narratives]. Tunis : Imprimerie Tunis Carthage. (3<sup>rd</sup> edition), 2009. pp 33-74 and 141-219.

**Manoubia Ouertani****Habiba Menchari**

While women in a number of countries world-wide were successful in their struggles to gain the right to vote and began to become members of parliament – in 1907 the Finnish parliament recorded 19 women among its 200 elected parliamentarians -- Tunisians and women throughout the Arab world continued their struggles against patriarchy and colonialism. The representations that dominated in the Western press were that Arab women were victims of violence and that the Arab man was intrinsically violent.

In 1911, Tunisian women participated in demonstrations over the Djellaz affair, protesting against the municipality's decision to register the cemetery in its own name, whereas it belonged to the *waqf* (Islamic charitable institution). In 1919 Safia Zaghoul, wife of Saad Zaghoul, a leading Egyptian political figure who was to become prime minister in 1924, led a demonstration of women in Cairo against colonialism. In 1923 Hoda Sha'arawi, the Egyptian feminist returning from Rome where she had been attending an international conference on the situation of women, joined other women in shedding the *khama* (a small veil that covers the lower part of the face) – an event that took place the same year that Kemal Ataturk founded the Turkish Republic and married the suffragette Latifa Ussaki, who had studied law in 1919 in Paris and London. Together they traveled across Anatolia to show themselves to the population and to demonstrate equality between men and women. In 1924 women obtained a raising of the



Limping along, hobbled by many obstacles, the debate over this issue continued among intellectuals and reformers in Tunisia and in the region. In Algeria in 1895 Muhammad Ben Moustapha Ben Khouaja published *al-Iktirath fi houkoug al-Inath* (*Propositions for women's rights*); in Egypt in 1899 Qassim Amin published *Tahrir Al-Mar'a* (*Liberation of women*) and in 1901 *Al-Mar'a Al-Jadida* (*The new woman*). Abdelaziz Thalbi (the founder in 1920 of the Tunisian Liberal Constitutional Party (*Destour*), sentenced to two months in prison in 1904 for his reformist positions and his campaign against Muslim preachers<sup>(13)</sup>, published in 1905, along with two European authors, *L'esprit libéral du Coran* (*The liberal spirit of the Qur'an*) where he protested against the *hijab* and the seclusion of women.



### A. Women Demonstrate

Towards the end of the 19<sup>th</sup> century the circulation of women in public space, which had been limited to visits to the *hammam* (public baths), to family, and to the cemetery, became more visible. Also, between 1892 and 1939, almost 600 biographies of women were published in Egypt by authors of both sexes. Women's magazines and newspapers were published in a number of Maghreb and Mashreq countries.

Princess Nazli Fadhel Pacha of Egypt (1853-1913, photo above)<sup>(14)</sup>, who was the widow of Khalil Chérif Pacha, Ottoman Minister for Foreign Affairs, and who held a literary salon in Egypt, remarried in 1900 the Tunisian Khelil Bouhageb, a member of the Management Committee of the Khaldounia (an institution where science and new forms of knowledge were discussed) and Minister of Culture (then called *Ministre de la Plume*) in 1922 in Tunisia, started a literary salon in 1907 in La Marsa, a suburb of Tunis, that was frequented by the new elite, reformists, writers, and journalists, among them Ali Bach Hamba, director of the *l'Hebdomadaire Tunisien* (*The Tunisian Weekly*).

(13) Khalifa Chater. Op. cit.

(14) Nazli Hafsia. *La princesse Nazli Fadhel en Tunisie, une figure moderniste*. Tunis Editions Sagittaire, 2010.

*fi al-mar'a* (*Epistle on Women*), published in 1856. This work, based on Islamic jurisprudence, provided the author's response to questions raised by France's General Consul in Tunisia, Léon Roches, regarding the private and public role of women, and preceded the promulgation of the Fundamental Pact (*Ahd al-aman*) in 1857 and the appearance of the first Constitution in the Arab-Muslim world in 1861. The *Epistle on Women*, although criticized by feminists, is considered by the historian Béchir Tlili to be a fundamental text for understanding the history of feminism in Tunisia, in large part because, since this period, the Tunisian elite has undertaken a critical reconstruction of its basic institutions. And, even while the elite was closely following the suffragette movement in the Anglo-Saxon countries, France under Jules Ferry invaded Tunisia and the protectorate was established in 1881, putting a brake on the critical discussion of the condition of women.

The elites had a heightened awareness of the psychological war that was being waged against them, with drawings and photographs undermining the community's values distributed via the press, postcards, and so on – men were depicted as violent and women shown nude on book covers, even when these were books about hunting<sup>(12)</sup>. Another example, dating from the 1920s, exemplifies the aims of the colonial power to put forward an emancipatory discourse even while keeping women under restrictions. In 1927, the French Resident-General in Tunisia addressed a letter to the French plenipotentiary minister in Egypt, Gaillard, to inform him that Tunisian feminists were preparing to receive a visit from Hoda Sha'rawi, the well-known Egyptian feminist, to support their goal of women's emancipation. He asked Gaillard to refuse a passport to Sha'rawi, because her visit to Tunisia was undesirable in the current circumstances (however, the passport had already been delivered although Sha'rawi did not, in fact, go to Tunisia). Such practices limited the development of discussion on the situation of women, blocking its progress in certain cases, radicalizing it in others.

(12) Illustration titled, "Tragédie en Tunisie. La revanche d'un Arabe," appearing in *Petit Parisien* in 1893, cited by Pascal Blanchard and Nicolas Bancel in *De l'indigène à l'immigré*. Paris: Gallimard, 1998. The authors show how a pseudo-scientific study carried out at the end of the 19<sup>th</sup> century, titled *L'art d'aimer aux colonies*, by a certain Dr Jacobus (a pseudonym) was reprinted a number of times up to the end of the 1930s and how, in this "study," women were described in pornographic and openly racist terms. Also, fearing that their children would be converted, families refused to have their daughters attend mission schools.

of negative discrimination only from secularists who showed their disdain for such dress, but also positive discrimination from Islamists who chose her for their party because she wore the *hijab*. Sibel Eraslen, also wearing the *hijab*, former leader of the Women's Committee of the Refah Party, who organized her party's campaign in Istanbul for the local elections of 1994, was refused a position in the city administration and she and her colleagues also found themselves eliminated from the committee and replaced by the wives and daughters of party officials. There is also the case of Islamist women intellectuals who have been excluded from conferences, seminars, and panels, where the invited non-Islamist women researchers can discuss diverse subjects dealing with politics, law, the arts, etc ... but where the Islamist women are limited to themes like women and the family. These cases and others allow Alev Cinar to draw the parallel between the years when secularism was founded upon constructing a new national conscience via women's unveiled bodies in the public sphere, and the 1990s, when Islamists introduced a new national identity in constructing and manipulating the image of Muslim women in public space, this time by covering their bodies<sup>(9)</sup>.

What means do women have to defend their rights, when they live in societies where religious belief is full of passion and subject to radical interpretations? To answer this question Gunes Murat Tezcur looks at the relations between secularism, liberalism, and democracy in non-secular societies and the means that women possess to prevent tyranny and protect individual rights, and concludes that it is necessary to constitutionalize these rights<sup>(10)</sup>.

## II. Women's struggles against patriarchy and colonialism in Tunisia

The women's movement in Tunisia has its origins in debates over education and rights that began in the middle of the 19<sup>th</sup> century with the reform of military education in 1840<sup>(11)</sup>, the decree relating to the emancipation of slaves in 1846, and the appearance of a work by Ibn Abi Ad-Diyaf (1804-1874) entitled, *Risalah*

(9) Alev Cinar. "Subversion and subjugation in the public sphere: secularism and the Islamic headscarf." *Signs*. Vol. 33, N 4, (Summer 2008). pp. 891-913. p. 907, 908, 910.

(10) Gunes Murat Tezcur. "Constitutionalism, judiciary and democracy in Islamic societies." *Polity*. Vol. 39, N 4 (Oct. 2007). pp. 479-501. pp. 497-499.

(11) Noureddine Sraieb. "L'idéologie de l'école en Tunisie coloniale (1881 – 1945)." *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*. 1993. Vol. 68. Pp. 239-254.

cultural, and religious diversity<sup>(7)</sup>.

The Turkish experience is very relevant, for this country occupies a privileged place in the imagination of both liberal and Islamist elites. This is brought out in a study carried out by Umut Azak, in which she shows how, in a society characterized by political pluralism, the elites may not agree on their understanding of secularism and they may engage in public debate on this issue. Since 1937, when secularism (*laiklik*) became one of the six principles of the Turkish republic, the principle of secularism has been a theme that appears consistently in public debate and, since the pluralist democratic transition 1946, the critique of secularism resulted in a competition between various visions, sharpening public opinion and political debate over questions like education and religious freedom. For Azak, the public debate over the prohibition against calling the prayer (*Ezan*, Arabic *Adhan*) in Arabic led to the reproduction, reformulation, and questioning of the Kemalist secularist discourse. In this context the discussion pursued by the intellectual elite was an example of a civic discussion on a state policy that limited religious liberties in the name of secularism, promoting a “pure Turkish Islam” related to the pre-Republican ideology formulated by Ziya Gökalp at the start of the 1900s. This reading enables the author to show the role played by nationalist conservative intellectuals like Basgil, who sought to free the Islam of the Sunni masses from repressive secularist policies, thus defying Kemalist secularism and forcing the intellectuals to reformulate their vision of a secularism that protected pure Turkish Islam from an impure and reactionary Islam<sup>(8)</sup>.

Recently, Alev Cinar has addressed the controversy in Turkey over the *hijab* showing how, while the *hijab* has given Islam a presence in public space, it limited women who wore it to a symbolic presence. She brings forward the testimony of several women who wear the *hijab*, illustrating how this led to suspending their careers. The lawyer Gonul Arslan recounts how she was a victim

(7) Lahcen Oulhaj. “Une perception du sécularisme au Maroc”, in *La liberté de la religion*, Helmut Reifeld and Farid El Bacha (eds). Morocco: Centre Marocain des Etudes Juridiques and Konrad Adenauer Stiftung, 2013. pp. 45-58. p. 45.

(8) Umut Azak. “Secularists as the saviors of Islam: Rearticulation of secularism and the freedom of conscience in Turkey (1950)” in *Secular state and religious society. Two forces in play in Turkey*, Berna Turam (ed.). New York: Palgrave Macmillan, 2012. pp. 59, 61, 64, 73.

question during the pre-colonial and colonial eras in Tunisia<sup>(4)</sup>. Malika Zeghal points out how the secular world is no longer defined by the opposition between sacred and profane and the shrinking of the religious sphere but by the state taking on functions that had traditionally been filled by the church. She notes that in the Tunisian case, when Habib Bourguiba wished to carry out his secularising and modernizing project, he had to reform the religious institutions to put them under the control of the state, but when political challenges arose in the 1960s he quickly had recourse to religious symbolism, as he had done during the colonial period when he defended the *hijab* and led a campaign against burying Muslims who had become naturalized French citizens in Muslim cemeteries. Zeghal's study emphasizes the recourse to religion in public and state spheres and concludes that secularization occurs whenever there is no competition among interpretations of the sacred and in the production of religious materials, and when the political sphere is controlled by the state, with religion having little or no influence<sup>(5)</sup>. Her interpretation is put forward in response to Franck Frégosi, who focused on what he called "*gallicanisme bourguibien*" -- the subordination of religious institutions to the state -- and on the role of Zine el-Abidine Ben Ali and how neither Bourguiba nor Ben Ali truly envisaged a "logic of secularization"<sup>(6)</sup>. A recent discussion by Lahcen Oulhaj shows how the arrival in power of the conservative Islamic party, the Justice and Development Party (PJD), in Morocco has not affected the process of secularization at all, given the country's choice of a constitutional monarchy that recognizes political pluralism and linguistic,

(4) Khalifa Chater. Le nationalisme tunisien et l'islam sous le protectorat. In workshop "Nationalism and Islam, a comparative standpoint." Tokyo, March 13, 2010, (Project Of Islamic Area studies, Sophia university, Institute of Asian Cultures, Tokyo). ( pages not indicated)

(5) Malika Zeghal. "Etat et marché des biens religieux. Les voies égyptienne et tunisienne." Critique Internationale. 1999/4 (n° 5). Pp. 75 – 95. p. 95 et 89. [http://www.cairn.info/resume.php?ID\\_ARTICLE=CR11\\_P1999\\_5N1\\_0075](http://www.cairn.info/resume.php?ID_ARTICLE=CR11_P1999_5N1_0075)

(6) Franck Frégosi. "La régulation institutionnelle de l'Islam en Tunisie: entre audace moderniste et tutelle étatique." Policy Paper No. 11. March 2005. Pp. 30, 31. [http://www.google.com.sg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=2&ved=0CDUQFjAB&url=http%3A%2F%2Fwww.ifri.org%2Ffiles%2Fpolicy\\_briefs%2Fpolicy\\_paper\\_4\\_fregosi.pdf&ei=12JSUsPmGIvJrAeK84DwDA&usg=AFQjCNHYOf5p2C5Khzn10tBIQdUI4kdTtQ&bvm=bv.53537100,d.bmk](http://www.google.com.sg/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=2&ved=0CDUQFjAB&url=http%3A%2F%2Fwww.ifri.org%2Ffiles%2Fpolicy_briefs%2Fpolicy_paper_4_fregosi.pdf&ei=12JSUsPmGIvJrAeK84DwDA&usg=AFQjCNHYOf5p2C5Khzn10tBIQdUI4kdTtQ&bvm=bv.53537100,d.bmk)

events taking place between the 1970s and the “Arab Spring” of 2011, in order to understand how feminists, both secular and Islamist and all of whom were educated in the national university system, formulate their positions on questions such as the freedom of conscience and the constitutionalization of women’s rights.

My discussion is based on an anthropological approach that takes into account historical, psychological, and legal materials in an effort to understand how legal limits/*hudud* have been reinterpreted. I utilize life histories I collected from historical figures in the Tunisian women’s movement who were active from the 1930s into the 1950, as well as my observations of the contemporary Tunisian women’s movement from the 1970s up to the present. Analyzing the discourse and practice of these women and women’s groups will help us see the contribution of women to the construction of values and norms that were formerly the exclusive domain of the *oulama* and the *fuqaha*.

## I. Context and secularization

For Himanshu Roy, secularism in the West took the form of protest by the oppressed against the theocratic state and for individual liberty, and it was capitalist merchants who, in a context of the expansion of capitalism and commerce, developed secularism while minorities continued to be divided in states that remained, in essence, theocratic. Roy also discusses how, in India, the secularism that arrived via colonial capitalism facilitated the process of segregation and division among groups, with electoral practice continuing and sometimes reinforcing this process<sup>(2)</sup>. In looking at the relationship between society, religion, and the state, Mondher Kilani notes that even in France, a country that is officially *laïc*, the separation between Church and State is not always clear<sup>(3)</sup>.

In the Maghreb the process of secularization varies according to context and political system. Khalifa Chater considers that secularism was out of the

(2) Himanshu Roy. “Western secularism and colonial legacy.” Economic and political weekly. Vol. 41. N 2 (Jan. 14 - 20, 2006) pp. 158-165. p. 164.

(3) Mondher Kilani. “Equivoques de la religion et politiques de la *laïcité* en Europe. Réflexions à partir de l’Islam.” Archives des sciences sociales des religions. 48<sup>e</sup> Année, N 121 (Janvier – Mars 2003). pp. 69-86. p. 69.

## Introduction

Many writers from the South have shown how the secularization process varies according to historical context and political forces. Some have pointed out that separation between the state and religion is far from evident, including in so-called “secular” states of even those that call themselves “laïc.” Others focused on the political forces – secular or Islamist – that used women’s bodies as a means to inscribe their ideology on public space. But rare are the social science studies that have discussed the contribution of women to the process of the secularization of society or to the reinterpretation of religious thought.<sup>(1)</sup> This is the aspect that interests us here, for it can teach us much about the means and resources employed by women in societies where discussion over religion continues to be impassioned regarding the issue of secularization.

In the first section of this paper I will look at some research on the process of secularization in countries with experiences similar to Tunisia’s – colonial occupation, and the role played by the state and social groups to promote women’s rights – which will help me outline the contexts and forces at play in this process. In the second section I will explore some historical events in order to understand what motivated women to rise up against colonialism and patriarchy, and how women participated in the construction of new *hudud*/norms, giving new meaning to certain limits/boundaries concerning values and leading, in the Tunisian context, to the promulgation of the Personal Status Code (PSC) in 1956 which gave significant rights to women. In the third section I will focus on several

---

(1) Earlier versions or sections of this study were presented at the panel on “Beyond the Arab Spring: Anthropologizing Islamic Futures”, 112<sup>th</sup> Annual Meeting, American Anthropological Association, Chicago, 23-25 November 2013 ; at Central University of Minorities, Beijing, 13 March 2014; and at the International conference on Arab Countries in Transition: Gender rights and constitutional reforms. Beirut, Lebanon, 23 – 25 June 2014.

Lilia Labidi. Tunisian Women Reformists: two examples in historical context. In Haleh Esfandiari and Margot Badran (eds.). *Reformist Women Thinkers in the Islamic World*. Pp. 19-21. 2009. <http://www.wilsoncenter.org/sites/default/files/reformistwomenthinkers.pdf>

## الملخص

### الدور السياسي للنساء التونسيات في الربيع العربي

تناقش هذه الورقة مساهمة النساء في الإصلاح الإسلامي ومسار العلمانية. ويلقي الضوء على مشاركة النساء في بناء ثقافة سياسية في حقل كان حكرًا على علماء الدين ورجال السياسة، وفي فترات زمنية، كان النقاش في الدين متقدماً. تشرح ليبيدي كيف أعطت العوامل الاجتماعية الثقافية - في كل حقبة زمنية تمّ النقاش فيها - مواقع وأدواراً جديدة للنساء، وكيف أن مسار العلمانية اختلف بحسب السياق التاريخي والقوى السياسية. تتحرى ليبيدي بعض الأحداث التاريخية الأخيرة بغرض فهم ما هو الحافز الذي دفع النساء للثورة ضدّ الهيمنة وللتصدّي دفاعاً عن المساواة بين الجنسين. وقد وضعت مخططاً تمهيدياً للسياقات والقوى الفعلية في مسار بناء الحدود/ والأعراف الجديدة، معطيةً معنىً جديداً لبعض القيود/ الإطارات المتعلقة بالقيم، كدسترة حقوق المرأة مثلاً.

الكلمات المفتاح: النساء؛ الإصلاح الديني؛ حدود؛ أعراف؛ النظام الدستوري؛ حقوق المرأة؛ الثقافة السياسية؛ تونس.



# The Political Role of Women during the Arab Spring in Tunisia

Lilia Labidi

Woodrow Wilson International Center for Scholars

labidi.lilia@yahoo.com

## Abstract

*This paper discusses the contribution of women to Islamic reformism and to secularization. Lilia Labidi shows how women participated in the construction of a new political culture in a domain that belonged exclusively to the oulama and male political figures during periods when discussion over religion was impassioned. She shows how socio-cultural factors gave women, during each of the periods discussed, new positions and roles, and how the secularization process varied according to historical context and political forces. She explores in this paper some historical and recent events in order to understand what motivated women to rise up against domination and to stand up for equality between the sexes and she outlines the contexts and forces at play in the process of the construction of new hudud/norms, giving new meaning to certain limits/boundaries concerning values, such as the constitutionalization of women's rights.*

**Keywords:** Women; Islamic reformism; hudud /norms; constitutionalization; women's rights; political culture; Tunisia.

# الفاعلات النسويات

## «هدى الصدة، ميرفت التلاوي، منى ذو الفقار»

### قوة ضاغطة داخل لجنة الخمسين المصرية

عمرو صلاح الدين علاء

كاتب وباحث بجريدة التحرير

Amr.salah.alaa@gmail.com

### المُلخَص

مثّل الدستور المصري الجديد، والذي جرى التصويت عليه بأغلبية ساحقة في 14 و15 يناير 2014، نقلة نوعية كبرى فيما يتعلق بالمكتسبات التي حققتها المرأة خلال العقود الماضية في مصر، كنتيجة لتراكم لعبت فيه المنظمات النسوية المصرية دوراً هاماً، وتوج بدور نسوي فاعل داخل لجنة الخمسين التي قامت بصياغة هذا الدستور الجديد. لقد أعطى الدستور الجديد حقّ الحصول على الجنسية لمن يولد لأمّ مصرية، كما نصّ في مواضع مختلفة على تكافؤ الفرص ومساواة المرأة بالرجل في كافة الحقوق، وعدم التمييز، بل وانطلق نحو تجريمه وإنشاء مفوضية لمكافحة. كما ألزم الدولة بكونها للمرأة في البرلمان، وخصص لها 25 بالمئة من مقاعد المجالس المحلية، وضمن لها حقها في وظائف الإدارة العليا وتولي المناصب داخل الهيئات القضائية. معركة بدت صعبة على ممثلي المرأة في لجنة الخمسين اللاتي لم يتجاوز تمثيلهن 10 بالمئة من جملة أعضاء اللجنة، وتكشف الورقة هنا الدور البارز الذي قمن به في سبيل تحقيق تلك المكتسبات التي انعكست في الفلسفة العامة للدستور، وحددت في مواضع مختلفة من نصوصه ومواده. في هذه الورقة نستعرض المراحل التي قادت إلى صياغة دستور 2014، وعرض موجز لوضع المرأة فيه. ثم الظروف التي قادت إلى تشكيل لجنة الخمسين، وتناول الورقة أيضاً عرضاً للتركيب السياسي والنوعي لمكونات اللجنة وتشكيل النساء بها بشكل عام، ثم تفرد مساحة أوسع وبشكل مفصل للدور الذي مارسته الفاعلات النسويات الثلاث<sup>(1)</sup>

(1) استهداف ثلاث نساء فقط بالدراسة من جملة عضوات اللجنة الخمسة لا يعني بالضرورة تجاهلاً للأدوار التي قامت بها باقي العضوات فيما يتعلق بقضايا المرأة داخل لجنة الخمسين. لكن الهدف هو محاولة إبراز دور أكثر نشاطاً وفاعلية فيما يتعلق بتلك القضايا، خاصة أن العضوات الثلاث محل الدراسة لهن خلفية مشتركة

- محل الدراسة - داخل اللجنة خلال المراحل المختلفة لعملها من خلال المواقع القيادية التي حظين بها، بداية من مرحلة وضع الفلسفة العامة للدستور في جلسات النقاش العامة، وصياغة نصوصه وداخل اللجان النوعية، ثم مرحلة بناء التحالفات والتكتلات، وانتهاءً بالتصويت التأشيري ثم عملية التصويت النهائي.

**الكلمات المفتاح:** الفاعلات النسويات؛ هدى الصدّه؛ ميرفت التلاوي؛ منى ذو الفقار؛ لجنة الخمسين؛ الدستور المصري الجديد؛ المنظمات النسوية؛ كوتا المرأة؛ مصر.

---

سابقة على عمل اللجنة فيما يتعلق بالعمل النسوي وقضايا المرأة بشكل خاص، وهو ما نريد تقديمه نموذجاً استرشادياً ناجحاً للفاعلات والمهتمات بالقضايا النسوية في العالم العربي.

## Abstract

### **Women Activists «Hoda al-Saddah, Mervat al-Tellawi, Mona dhu-l Fiqar": Lobby Group inside the Egyptian Khamsin Committee**

**Amro Salah al-Din 'Alaa**

*The new Egyptian constitution, approved by a popular referendum in 14 and 15 of January 2014, made strides in terms of the gains achieved by women during the last few decades in Egypt. Owing to the efforts of feminist organizations, an effective role for women was made possible through the Khamsin committee, which drafted the 2014 constitution. The constitution gives a child born of an Egyptian mother the right to citizenship and includes articles on equity and equality between men and women with regards to rights and without discrimination. The constitution also establishes a commission to prevent discrimination against women, and commits the government to a parliamentary quota for women, including 25% in the local councils as well as positions in the higher administration and the judiciary. The battle appeared hard for the female members of the Khamsin committee, who did not make up more than 10% of the total members. This paper uncovers the vital role that the latter played to protect their constitutional achievements, presents the stages preceding the drafting of the 2014 constitution, and summarizes the status of women within it. It also discusses the circumstances that led to the founding of the Khamsin committee, and depicts the political and gender composition of the committee. The paper devotes a great space to the role of the women activists within the committee, namely Hoda al-Saddah, Mervat al-Tellawi and Mona dhu-l Fiqar, during different stages of the committee's work. The stages range from the outset when the activists contributed to the general philosophy of the constitution during the discussion sessions, to the drafting of the texts within the various sub-committees, to the stage when the activists joined alliances and coalitions, until the final stage when they cast their first indicative and final ballots.*

**Keywords:** Feminist Activists; Hoda al-Saddah; Mervat al-Tellawi; Mona dhu-l Fiqar; Khamsin Committee; New Egyptian Constitution; Feminist organizations; Women's Quota; Egypt.

## المقدمة

بعد قيام ثورة 25 يناير 2011 التي أدت إلى تنحي الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك عن الحكم في 11 فبراير 2011، أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة إعلاناً دستورياً في 13 فبراير 2011 بتعليق العمل بدستور 1971 وتشكيل لجنة لإعداد تعديلات دستورية تمهيداً لإجراء انتخابات برلمانية ورئاسية وكتابة دستور جديد للبلاد. ونصت هذه التعديلات على أن يقوم مجلسا الشعب والشورى المنتخبين باختيار أعضاء جمعية تأسيسية من 100 عضو لكتابة دستور جديد في غضون ستة أشهر من تاريخ تشكيلها. بعد مرور اشهر عقد البرلمان الذي سيطرت عليه أغلبية إسلامية اجتماعاً يوم السبت 3 مارس 2012، وتم فيه الاتفاق على تشكيل لجان فنية لتلقي الاقتراحات من النواب وأفراد الشعب حول آلية اختيار أعضاء الجمعية التأسيسية. وجاءت نتيجة التصويت لصالح أن تكون نسبة نواب البرلمان 50٪ من أعضاء الجمعية التأسيسية و50٪ من خارجها، وقد عقد اجتماع آخر يوم 24 مارس 2012 وتم فيه التصويت على اختيارات أعضاء الجمعية التأسيسية.

في 10 إبريل 2012 أصدرت محكمة القضاء الإداري حكماً بحلّ الجمعية التأسيسية بدعوى أنها ضمّت أعضاء في مجلسي الشعب والشورى وهو ما قالت المحكمة إنه مخالف للمادة 60 من الإعلان الدستوري. مما دفع بالبرلمان في يونيو 2012 إلى تشكيل جمعية تأسيسية أخرى بعد الحكم بحلّ التشكيل الأول للجمعية، وعقدت اللجنة التأسيسية الجديدة أولى جلساتها في 18 يونيو واختارت المستشار حسام الغرياني رئيساً لها. وأنهت كتابة الدستور بتاريخ 30 نوفمبر 2012. وفي 1 ديسمبر سلّم المستشار حسام الغرياني رئيس الجمعية التأسيسية مشروع دستور مصر الجديد للرئيس السابق محمد مرسي وفي نهاية المراسم دعا الرئيس السابق محمد مرسي لإجراء الاستفتاء على الدستور الجديد في 15 ديسمبر<sup>(2)</sup> 2012.

(2) القصة الكاملة لمعركة الجمعية التأسيسية 1-1، 2-2، وحيد عبد المجيد، جريدة الشروق المصرية، 20 يونيو 2012، 21 يونيو 2012.

## 1- المرأة ودستور 2012

بالرغم من أنه قد تمّ تكوين الجمعية التأسيسية لكتابة دستور مصر الجديد مرتين. إلا أنه في المرة الأولى شاب تشكيلها جدل كبير حول شرعيتها على وجه العموم، ومدى تمثيلها لكلّ طوائف وطبقات ومكونات الشعب المصري على وجه الخصوص. كما لم يكن بها تمثيل مرضي للنساء، فقط 6 عضوات من أصل 100 وغالبيتهم ينتمين لما يعرف بتيار «الإسلام السياسي». وفي إطار تشكيل الجمعية الثانية قدمت للبرلمان من جهات ومنظمات مختلفة -النسوية منها وغير النسوية- أسماء العديد من النساء ليكرن ممثلات لنساء مصر، لكن لم يُلتفت إلى ذلك.

في نهاية الأمر تشكلت الجمعية بشكل غير متوازن ولا يلي الطموحات أيضاً. وحول المخرج النهائي للجنة ثار جدل سياسي وحقوقى ومجتمعي حول الرفض الواسع من العدد الأكبر من أعضاء الجمعية التأسيسية لإدراج مادة للمساواة بين النساء والرجال في دستور مصر بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، وانتهى الجدل والنقاشات بإلغاء المادة الخاصة بالمساواة التي صيغت في البداية والتي تم ربطها بعدم مخالفة الشريعة الإسلامية. بينما لم يتم تضمينها في المسودة الأخيرة من مشروع الدستور والتي تمّ التصويت عليها في 30 نوفمبر 2012. وقد اختتمت الجمعية التأسيسية لوضع الدستور أعمالها بصفة رسمية بمجرد تسليمها مشروع مسودة الدستور إلى رئيس الجمهورية وهو ما تمّ يوم السبت الموافق 2012/12/1، وهي الوثيقة التي لم تُلبّ تطلعات فئات شعب مصر كافة لاسيما النساء اللاتي لم يُذكرن في الدستور إلا في خمسة مواضع فقط كما يلي (جدول رقم 1):

لقد أشارت إحدى المنظمات النسوية وقتها أن «مشروع دستور مصر ما بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير ليذكر النساء كمطلقات وأرامل ونساء معيلات، وكأن النساء مواطنات من الدرجة الثانية يحتجن للرعاية ولسن شريكات في الوطن وقد ركز مشروع الدستور عند ذكره للنساء على أنهن بحاجة لرعاية أو دعم، ولم يعتمدهن كشريكات على قدم المساواة مع الرجال ولم يكفل لهن حقوقهن المتساوية في كافة مجالات الحياة العامة والخاصة.

لم تأت قضايا النساء في صلب مواد مشروع الدستور المصري وتمّ قصر قضايا النساء على الأطر الأخلاقية العامة التقليدية التي اتفقت المجتمعات الأبوية على أن

## جدول رقم 1

|  |   |
|--|---|
| ديباجة الدستور   | كرامة الفرد من كرامة الوطن.. ولا كرامة لوطن لا تكرم فيه المرأة، فالنساء شقائق الرجال وشريكات في المكتسبات والمسئوليات الوطنية   |
| ديباجة الدستور   | المساواة وتكافؤ الفرص بين الجميع مواطنين ومواطنات فلا تمييز ولا وساطة ولا محاباة في الحقوق والواجبات  |
| الباب الأول (مقومات الدولة والمجتمع) الفصل الأول (المقومات الأساسية) - مادة 6                  | يقوم النظام السياسي على مبادئ الديمقراطية والشورى والمواطنة تسوى بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات العامة والتعددية السياسية والحزبية والتداول السلمي للسلطة والفصل بين السلطات والتوازن بينها وسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان وحياته وذلك على النحو المبين في الدستور ولا يجوز قيام حزب سياسي على أساس التفرقة بين المواطنين بسبب الجنس أو الأصل أو الدين |
| الباب الأول (مقومات الدولة والمجتمع) - الفصل الثاني (المقومات الاجتماعية والأخلاقية) - مادة 10 | الأسرة أساس المجتمع قوامها الدين والأخلاق الوطنية وتحرص الدولة والمجتمع على الالتزام بالطابع الأصيل للأسرة المصرية وعلى تماسكها واستقرارها وترسيخ قيمها الأخلاقية وحمايتها، وذلك على النحو الذي ينظمه القانون وتكفل الدولة خدمات الأمومة والطفولة والتوفيق بين واجبات المرأة نحو أسرتها وعملها العام وتولى الدولة عناية خاصة للمرأة المعيلة والمطلقة والأرملة       |
| الباب الثاني (الحقوق والحريات) - الفصل الثالث (الحقوق الاجتماعية والاقتصادية) - مادة 73        | يحظر كل صور القهر والاستغلال القسري للإنسان وتجارة الجنس ويجرم القانون ذلك.   |

تكون هي الأدوات التي يتم بها تحديد أدوار محددة للنساء، فلم يتم الإشارة إلى حقوق النساء في مختلف المجالات، فعلى سبيل المثال لم تحدد الحقوق الصحية للنساء والحقوق الإنجابية في المادة المتعلقة بالحق في الصحة في مشروع الدستور واكتُفي بالتزام الدولة بخدمات الأمومة والطفولة.

وجاء مشروع الدستور بمواده متجاهلاً مشاركة المرأة السياسية ولم يتبين نظاماً انتخابياً يضمن مشاركة نسائية أكثر فعالية ويأتي بنساء ممثلات تمثيل ديمقراطي داخل المجالس المنتخبة المتعددة، في الوقت الذي أُلزم فيه الأحزاب السياسية بعدم التمييز على أساس الجنس ولم يُلزم مشروع الدستور الدولة ومؤسساتها بمبدأ

المساواة وعدم التمييز"<sup>(3)</sup>.

## 2- موجة «يونيو» والاستحقاق الدستوري الجديد

بعد الإطاحة بالرئيس السابق محمد مرسي في 30 يونيو 2013 تمّ تنصيب رئيس المحكمة الدستورية المستشار عدلي منصور رئيساً انتقالياً للبلاد، وقد تولى الرئيس المؤقت المسؤولية وفق خريطة انتقالية اشتملت العديد من الاستحقاقات التدريجية؛ كان أولها صياغة دستور جديد، أو كما أُعلن في الخريطة بصيغة أخرى بإجراء تعديلات دستورية على دستور 2012 المعطل، عملياً كان الأمر بمثابة العمل على وثيقة دستورية جديدة، وقد تمّ تشكيل لجنة عُرفت بـ «لجنة الخبراء» لإعداد مسودة أولية لتلك التعديلات، عُرفت «بمسودة لجنة العشرة»، فيما تولّت لجنة شكّلت بقرار جمهوري من 50 عضواً إعداد التعديلات النهائية، وفي 1 سبتمبر أصدر الرئيس المؤقت للبلاد المستشار عدلي منصور قراراً جمهورياً بتشكيل لجنة الـ 50 التي ستتولى المرحلة الثانية من تعديل الدستور وكان تمثيل المرأة فيها بشكل عام بواقع عشرة بالمئة من عدد الأعضاء الأساسيين (55 عضوات من أصل 50) في اللجنة كالاتي (جدول رقم 2):

وبموجب القرار فإن اللجنة اختصّت «بدراسة مشروع التعديلات الوارد إليها من لجنة الخبراء العشرة وطرحه للحوار المجتمعي وتلقي أي مقترحات من

(3) ورقة موقف لنظرة للدراسات النسوية من مسودة الدستور النهائية «النساء شريكات في الحقوق والواجبات وليسوا فقط شقائق الرجال».

بيان صحفي، 4 ديسمبر 2012.

<http://nazra.org/2012/12/%D9%88%D8%B1%D9%82%D8%A9-%D9%85%D9%88%D9%82%D9%81-%D9%84%D9%86%D8%B8%D8%B1%D8%A9-%D9%84%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D9%88%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D9%85%D8%B3%D9%88%D8%AF%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B3%D8%AA%D9%88%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%8-7%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D8%A9>

"حقوق المرأة الغائبة في مشروع الدستور"

المجلس القومي للمرأة، الأحد 9 ديسمبر 2012

<http://www.ncwegypt.com/index.php/ar/docswomen/dostaraa/539-missara>



## جدول رقم 2

|                                    |  |
|------------------------------------|--|
| عن الغرف الصناعية                  | د. عبلة محيي الدين عبد اللطيف، مستشاراً ووزارة الصناعة |
| عن المجلس القومي للمرأة            | السفيرة ميرفت التلاوي                                  |
| عن المجلس القومي للأُمومة والطفولة | د. عزة محمد سعيد العشماوي                              |
| عن المجلس القومي لحقوق الإنسان     | د. منى ذو الفقار                                       |
| عن الشخصيات العامة                 | د. هدى الصّدة  |

المواطنين لإعداد المشروع النهائي خلال 60 يوماً من تاريخ أول اجتماع لها. وأعطيت اللجنة الحق في أن «تختار رئيساً ونائب أو أكثر ومقررراً للجنة وتحدّد بنفسها القواعد المنظمة لعملها والضمانات الكفيلة بإجراء الحوار المجتمعي"، و«الاستعانة بمن تراه من الخبراء»<sup>(4)</sup>.

## 1.2- قراءة في تشكيل اللجنة سياسياً، هل تمتلك النساء مساحةً للتأثير؟

لقد مثل تشكيل اللجنة بالشكل الذي خرج عليه القرار الجمهوري بمثابة مصدر أولي لقوة هؤلاء العاملات على حقوق المرأة في مشروع الدستور الجديد، وإن كانت الأغلبية في تلك اللجنة قد عبّرت عن القوى المحافظة أو التقليدية (أزهر - كنيسة - اتحادات عمال - فلاحين.. الخ) إلا أن نسبة من ينتمون إلى التيار الديمقراطي أو من يحملون أفكاراً إصلاحيةً (سواء بالتاريخ السياسي لهؤلاء، أو بانتمائهم إلى أحزاب ليبرالية أو إلى دوائر ثقافية وفنية) داخل اللجنة عبّرت عن رقم صعب لا يمكن تجاهله في عملية التصويت، وشكّلت أرضاً خصباً لصناعة تكتل داعم لقضايا المرأة عملت عليه العضوات الثلاث محل الذكر، خاصة أن المسعى الأول الذي أقرّته اللجنة في اجتماعاتها الأولى كان إقرار النصوص بالتوافق، وفي حالة تعذّر التوافق يتم التصويت على المادة بعد موافقة 75 بالمئة من الأعضاء. إذن نحن نتحدث عن رقم مهمّ من الأعضاء، مثلت مساحة مكّنت هؤلاء العاملات على

(4) "بوابة الأهرام" تنشر القائمة الكاملة لأسماء أعضاء لجنة الخمسين لتعديل الدستور:

<http://gate.ahram.org.eg/News/390407.aspx>

حقوق المرأة في الدستور من الرهان عليها والسعي إلى تعظيم الاستفادة منها في تعزيز وتمير مطالبهن.

وبالرجوع إلى القرار الجمهوري نجد أنه قد تمّ تمثيل النساء داخل الـ50 عضواً الأساسيين بخمس نساء كما أشرنا، ومن خلال تتبّع مواقفهن أثناء عمل اللجان نجد أنهن خليط من القوى التقليدية والإصلاحية، أي نفس التركيب الذي ينطبق على اللجنة كلها بشكل عام، وهذا التنوع أو التشريح في التوجهات هو مرتبط بالطبع بتركيب مجتمعي عام أيضاً، فهناك مثلاً شخصية مثل د.هدى الصدّة، التي هي إحدى القيادات (الإصلاحية) داخل المجتمع المصري، فهي عضو في حركة استقلال الجامعات<sup>(5)</sup> منذ عام 2004، ووقت أن شغلت منصب عضو لجنة الخمسين كانت في الوقت نفسه تشغل منصب الرئيس في إحدى المنظمات النسوية الفاعلة (مؤسسة المرأة والذاكرة) وتشغل منصب نائب رئيس الحزب المصري الديمقراطي الاجتماعي، وهو الحزب الذي تمّ تأسيسه عقب ثورة يناير وضمّ وقتها بين صفوفه عدداً من الرموز الديمقراطية<sup>(6)</sup>، وتلك المحسوبة على ثورة يناير من الشباب. وشخصية السفيرة ميرفت التلاوي، التي تدرّجت في مناصب عدة في وزارة الخارجية ثم أصبحت وزيرة في عهد مبارك، حتى انتهى بها المطاف رئيسة للمجلس القومي للمرأة، وهي معروفة بمواقفها المتشدّدة الداعمة لقضايا

(5) حركة 9 مارس لاستقلال الجامعات هي كيان غير رسمي تشكّل في صيف عام 2003، وضم بين صفوفه مجموعة من الأساتذة وأعضاء هيئة تدريس في عدد من الجامعات المصرية متمين إلى توجهات سياسية مختلفة ومستقلون، وقد تبنت تلك المجموعة العمل منذ تأسيسها علي دعم الاستقلال والحريات الأكاديمية والطلابية داخل الجامعات، وتشجيع وجود آلية سليمة لاختيار العمداء ورؤساء جامعات بعيدة عن تدخل الدولة، كما سعت الحركة خلال عقد من عملها على إنهاء التدخل الأمني في السياسات الجامعية بشكل عام، وكان أبرز القضايا التي عملت عليها هي قضية طرد الحرس الجامعي التابع لوزارة الداخلية. هذا ويوافق يوم التاسع من مارس سنويا ذكرى استقالة أحمد لطفي السيد عام، مدير الجامعة المصرية عام 1932 احتجاجاً على قرار وزير التعليم بنقل الدكتور طه حسين (الملقب بعميد الأدب العربي) من الجامعة دون مشاورته.

(6) الحزب المصري الديمقراطي هو أحد الأحزاب السياسية التي تم تشكيلها عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير 2011، وقد ضم الحزب الذي يحمل توجهاً ديمقراطياً اجتماعياً منذ تأسيسه عدداً من الرموز الشبابية المرتبطة بالثورة، من بينهم زياد العليمي، سالي توما، باسم كامل، وجميعهم كانوا أعضاء المكتب التنفيذي لاتلاف شباب الثورة.

بالإضافة إلى وجوه إصلاحية معروفة منذ تأسيس الحزب أمثال د. زياد بهاء الدين، وزير التعاون الدولي السابق، ود. حازم الببلاوي، رئيس الحكومة السابق.

المرأة. وكذلك د. منى ذو الفقار التي مثلت المجلس القومي لحقوق الإنسان داخل اللجنة، وينسب إليها الفضل في تحقيق كثير من المكتسبات على الصعيد التشريعي لصالح المرأة قبل اندلاع الثورة المصرية بما في ذلك قانون الخلع مثلاً، بالإضافة إلى مستشار وزير الصناعة، ورئيس المجلس القومي للأمم والطفولة والأخيراتان يمكن تصنيفهما على أنهما من القوى التقليدية داخل اللجنة.

لقد مثلت تلك التركيبة النسوية المتسعة الطيف<sup>(7)</sup> مجالاً مناسباً للثلاثي الأكثر فاعلية داخل اللجنة فيما يتعلق بقضايا المرأة (هدى الصدة، منى ذو الفقار، ميرفت التلاوي) من ممارسة التأثير على أكبر قطاعات داخل اللجنة، سواء القطاعات الديمقراطية أو المحافظة، ومحاولة كسب التأييد والأنصار فيما يتعلق بقضاياهن داخل القطاعات المختلفة تلك، بل وممارسة التأثير أيضاً في عملية التصويت والقدرة على المفاوضة والسعي لتحديد أفراد بعينهم في عملية التصويت النهائي واكتساب تأييد رئيس اللجنة ومقررها العام في بعض الأوقات. ودعم القضايا النسوية بتقسيم للأدوار متنوع ما بين الأكثر راديكالية والأكثر قدرة على التفاوض داخل اللجنة (مبدأ الصقور والحمام)<sup>(8)</sup>.

## 2.2- أي مواقع يحظن بها وأي مساحة للتأثير؟

في الاجتماع الرابع للجنة الخمسين جرت عملية انضمام الأعضاء إلى اللجان النوعية المختلفة، ولمزيد من التوضيح فقد أقرت اللائحة الداخلية للجنة أن عملها يتم من خلال خمسة لجان نوعية، وهي لجنة الحقوق والحريات، ولجنة نظام الحكم، ولجنة مقومات الدولة، ولجنة الحوار المجتمعي، لجنة الصياغة، ووفقاً للمهام التي تولتها اللجان نجد أن اللجان التي يمكن وصفها بمثابة اللجان المحورية

(7) كانت من ضمن العضوات الخمسة وكما أشرنا في بداية المقال كل من د. عبلة عبد اللطيف، ممثلة عن اتحاد الصناعات المصرية، ود. عزة العشماوي ممثلة عن المجلس القومي للأمم والطفولة.

(8) عادة ما يستخدم تعبير «الصقور والحمام» في السياسة كتعبير عن موقفين إزاء قضية بعينها، موقف متشدد أو راديكالي ويطلق على أصحاب هذا الموقف اسم الصقور (نسبة إلى تلك الطيور العدوانية)، وآخر متساهل وأكثر ميلاً إلى الواقعية والوصول إلى حلول وسط، ويطلق عليه ذا الفريق لقب (الحمام: نسبة إلى الطيور المسالمة).. وقد يستخدم المبدأ كتعبير إما عن خلاف أو صراع بين فريقين إزاء قضايا بعينها أو كتقسيم للأدوار بتفهم ضمني بينهم بغية الوصول إلى أكبر قدر من المكتسبات خلال عمليات التفاوض أو التأثير في السياسات.



هي (لجنة الحقوق والحريات) ولجنة (مقومات الدولة) ولجنة (الصياغة)، ويبدو أن محورية اللجان تلك كانت محل إدراك باكر من قبل الثلاثي النسائي الفاعل داخل لجنة الخمسين، وهي ما يمكن ملاحظته في اختياراتهن وتوزعهن (الاختياري على اللجان) سواء كان ذلك جرى وفق تنسيق مسبق بينهن، أو بتفهم ضمني.

هدى الصدة طلبت في ورقة الاختيار الانضمام إلى لجنة الحقوق والحريات، بينما طالبت السفيرة ميرفت التلاوي الانضمام إلى لجنة المقومات الأساسية للدولة، فيما طالبت الدكتورة منى ذو الفقار بالانضمام إلى لجنة الصياغة (رسم رقم 1)، وعن أهمية لجنة الصياغة في عملية التأثير ينبغي هنا الإشارة إلى أن لجنة الصياغة لم تكن المهمة المنوطة بها فقط هي صياغة وضبط نصوص المواد التي يتم تلقيها من اللجان النوعية المختلفة، بل كان لها رأي أولي في الموافقة على النصوص بأغلبية أعضائها أيضاً قبل أن تصل إلى اللجنة العامة للمناقشة ومن ثم التصويت عليها. وبالتالي كان تواجد الثلاثة مهماً ليس فقط على صعيد المبادرة بالاقترحات داخل تلك اللجان وقيادتها، بل أيضاً السعي للتأثير على نسبة 60 بالمئة تقريباً من الكتلة التصويتية الفاعلة في القرارات النهائية للجنة حال أن تتم عملية التصويت.

ولمزيد من التوضيح فإن آلية العمل التي أقرت في الجلسات الأولى للجنة الخمسين، هو أنه يتم تقسيم الأعضاء على اللجان النوعية المختلفة، حيث تتولى كل لجنة مسؤولية إجراء نقاش داخلي على النصوص الواقعة ضمن اختصاصها وفقاً لتقسيم الأبواب والمحتوى الذي أعدته لجنة العشرة، ويشمل هذا النقاش الأحقية في إجراء تعديلات أيًا كان مداها على كل ما تناقشه اللجان وفقاً لآراء أعضائها أو اقتراح مواد ونصوص دستورية جديدة، وفي النهاية يتم التصويت على الاقتراحات،

وبعد أن تنتهي كل لجنة نوعية من مهام أعمالها تقوم بتحويل ما أنتجته من نصوص إلى لجنة الصياغة التي تقوم بإعادة ضبط الصياغة، ثم يُرفع المنتج النهائي إلى اللجنة العامة كي يتم إجراء نقاش أوسع حولها ومن ثم التصويت التأشيرى عليها فالتصويت النهائي. وتكشف تلك العملية ما أشرنا إليه في السابق وهو محورية اللجان الثلاث التي وقّعت اختيار الثلاثي النسائي للانضمام لها في محاولة للتواجد والتأثير داخل عملية صياغة نصوص الدستور بأكملها بداية من تجميع المقترحات انتهاءً بإيصال النصوص إلى جلسات التصويت النهائية.

وعملياً في سعي ربما لاكتساب المزيد من مساحات التأثير لم تكتف تلك النسوة بالانضمام إلى تلك اللجان، بل امتد الأمر ليصل إلى الترشح بجرأة على المناصب القيادية فيها، فقد رشّحت هدى الصّدة نفسها مقررّاً للجنة الحقوق والحريات، كما رشّحت السفيرة ميرفت التلاوي نفسها كمقرر مساعد للجنة المقومات الأساسية، ووفقاً لما أُعلن في الاجتماع الخامس المعقود صباح يوم الأربعاء 11 سبتمبر 2013، فقد أُعلن عن فوز الإثنتين بالتزكية بالمقعدتين اللتين ترشحتا عليها.

### 2.3 مرحلة النقاشات والصياغات الأولى

بخلاف وضع أسس العمل واللائحة التنظيمية لعمل اللجنة واختيار الأعضاء للجان التي سيعملون من خلالها في الجلسات العامة الأولى، كان الحديث عن الفلسفة العامة للدستور بمثابة جزء أساسي من مهام الثلاثي النسائي في تلك الجلسات الأولى، حيث أُعطيت مساحة كافية للأعضاء للتعبير عن رؤيتهم لتلك الفلسفة، فعند الحديث هنا عن الدور الذي قامت به كل من د.هدى الصّدة، ود.منى ذو الفقار والسفيرة ميرفت التلاوي، نجد أن قضايا المرأة كانت حاضرة لديهن في الجلسات الأولى تلك، بالتأكيد تحديداً عن عدد من المبادئ التي تبادلن توزيع الأدوار بشكل ضمني في الإشارة إليها أو التأكيد عليها أو تكرار التذكير بها.

مثلاً في الاجتماع الخامس للجنة حدّدت السفيرة ميرفت التلاوي في رؤيتها للفلسفة العامة للدستور ما أسمته «مبادئ هامة» قالت: «أريد أن أؤكد عليها، يجب أن توضع في الدستور وتلتزم بها اللجان الثلاثية الموجودة لإعداد النص» وبخلاف مدينة الدولة كان المبدأ الأوّل كما أشارت إليه "مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات طبقاً للقانون والأعراف والقواعد الدولية". أما المبدأ الثالث فكان «عدم

التمييز واعتباره جريمة يحاسب عليها، وإنشاء آلية لمراقبة عدم التمييز» وأضافت في الكلمة نفسها مبدأ الكوتا «نحن نطالب يا سيادة الرئيس بكل صراحة بـ 30٪ على الأقل للمرأة».

وهنا بالطبع لا يمكن إغفال أدوار أخرى داعمة لعبتها نساء من العضوات الاحتياطيات مثل صفاء زكي مراد، والتي كانت محلّ ترشيح من عدد من المنظمات النسوية قبل أن يُصدر قرار بتعيينها داخل اللجنة كعضو احتياطي، أيضاً الأمر نفسه ينسحب على مواقف الأستاذة نهاد أبو القمصان، وفي المجمل يمكننا القول أن مداخلاتهن جميعاً كانت داعمة وبقوة لما عملت عليه العضوات الثلاثة الأساسيات، فيما يتعلق بالتأكيد على مطالب المنظمات النسوية وتدشين أرضية صلبة لها يمكن الانطلاق منها داخل اللجنة العامة بالرغم من الأعضاء الاحتياطيين الذين لم يكن لديهم الحق في التصويت.

أما عن آلية عملهن داخل اللجان النوعية ومن خلال متابعتي كمقرر مساعد للجنة الحقوق والحريات بلجنة الخمسين يمكن القول ان هذه اللجنة والتي رأستها الدكتورة هدى الصدّة، سعت منذ اللحظة الأولى إلى التنسيق مع المنظمات النسوية، وتحديدًا ائتلاف المنظمات النسوية وتلقّي اقتراحات قدّمت في صورة نقاط محدّدة وتبنيها والسعي لإقناع أعضاء اللجنة النوعية بتبنيها ومن ثم صياغتها في شكل نصوص أولية.

لقد قدّم تحالف المنظمات النسوية إلى مقرر لجنة الحقوق والحريات مثلاً مقترحاً مصاغاً أبرز ما فيه ما يلي:

(أ) المواطنون والمواطنات لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والحريات والواجبات العامة، وتكفل الدولة تكافؤ الفرص بينهم جميعاً في جميع المجالات، كما يجوز اتخاذ تدابير تشريعية أو غيرها لحماية أشخاص أو فئات معينة للنهوض بأوضاعهم.

(ب) يُجرّم التمييز ضدّ أي مواطن أو مواطنة بسبب الجنس أو العرق أو اللون أو اللغة أو الدين أو الاعتقاد أو الحالة الاجتماعية أو الحمل، ويعتبر التمييز بجميع أشكاله جريمة لا تسقط بالتقادم.

(ج) تُعزّز الدولة حقوق المرأة من خلال سياسات وآليات التمييز الإيجابي المنصوص عليه في اتفاقية إلغاء كافة «أشكال التمييز ضدّ المرأة» وتعمل الدولة على محاربة العادات والتقاليد الضارّة التي تقلل من كرامة المرأة ووضعيتها وتحطّ من شأنها.

(د) تلتزم الدولة بخلق آلية لضمان وتعزيز المساواة مثل مكتب المحام العام المختصّ بمنع التمييز. وهي آلية ينشئها ويراقبها البرلمان ويختص بإعمال مبدأ تكافؤ الفرص بين النساء والرجال، وحسم وحل النزاع القائم على التمييز بين أي مواطن أو مواطنة وأي طرف آخر سواء كان هيئة أو شخصاً. ويقدم المحامي العام تقريراً سنوياً إلى البرلمان عن عدد ونوعية هذه النزاعات وكيفية حلّها. وتشمل هذه النزاعات التمييز ضد المرأة في الحصول على العمل وعلى الترقية وعلى التدريب وعلى الأجر المتساوي أو التمييز ضد المرأة العاملة بسبب الحمل والولادة أو الاعتداء الجنسي عليها وغيره من الانتهاكات.

(هـ) تلتزم الدولة بضمان المساواة بين الجنسين في تولّي الوظائف والمناصب العامة والقيادية".

لقد تبنت هدى الصدّة كمقررة للجنة الحقوق والحريات تلك المقترحات، وقدمتها إلى أعضاء اللجنة النوعية، وعززتها بجلسات استماع للمعنيين في هذا الشأن، وبالفعل قد تمّ تجميع جوهر هذه المقترحات وصياغتها في نصوص تمّ تقديمها بشكل أوّلي إلى لجنة الصياغة، وعرضت في تقرير للانجاز أمام اللجنة العامة، وتكشف مضابط الاجتماع السابع المعقود يوم الأربعاء 18 سبتمبر 2013، بلورة تلك المطالب في صيغة أوضح ومستحدثة، لم تكن واردة بهذا الشكل في مسودة لجنة العشرة التي عملت على تعديلها لجنة الخمسين، وهنا فقد أشارت هدى الصدّة وفق مضابط اللجنة في تلك الجلسة إلى استحداث 7 مواد أعطت لها مثلاً بـ"إضافة مادة تجريم التمييز على أي أساس" وقالت نصاً «توصي لجنة الحقوق والحريات بإدراج المادة السابعة والخاصة بالجنسية في باب الحقوق والحريات» ويبدو الهدف هنا هو الرهان على التوجهات الإصلاحية التي رأستها هدى الصدّة، وبالتالي سعيها إلى تحقيق المزيد من المكاسب بإضافة المادة الخاصة بالجنسية إلى صلاحيات لجنتها. وبالتوازي كانت السيدة ميرفت التلاوي

تعمل على تمرير الاقتراح أيضاً داخل لجنة المقومات السياسية للمجتمع، من أجل فرض مزيد من الضغط أمام اللجنة العامة حينما يتم عرض اقتراح من قبل لجنتين أساسيتين.

ويبدو التنسيق المتبادل في نفس الجلسة مثلاً، بطلب ميرفت التلاوي التنسيق بين اللجان في سبيل إقرار ما أشارت إليه «هدى الصدة» «كمادة لمناهضة التمييز، وجعله جريمة، وإنشاء جهاز يراقبه» وهو نفس الأمر الذي دفعت في اتجاهه في نفس اللجنة بعد أن فرغت هدى الصدة من عرض تقرير انجازها بتقديم مزيد من التفاصيل حول رؤيتها لمفوضية محاربة التمييز، ليس فقط بتلقي الشكاوى والتصدي لها ولكن بآليات متابعة أن كل مؤسسات الدولة لا تميز بين المواطنين بالمخالفة للدستور". فيما كانت د. منى ذو الفقار، وبالتنسيق الساعي لضبط الصياغات قدر الإمكان بما يضمن توسيع المكاسب النسوية وبما يضمن تقييد المشرع من تفريغ أي نص دستوري في هذا الشأن من جوهره أو هدفه الأساسي.

#### 2.4 إعادة بناء الكتل التصويتية الداعمة وتطوير المكتسبات

من المؤكد أن المقترحات التي تبنتها مجموعة العمل الداعمة لقضايا المرأة داخل اللجنة وفي قلبها الثلاث النسائي موضع الحديث قد تعرضت لتحفظات من قبل البعض ولرفض من قبل البعض الآخر، سواء أكان تحفظاً أو رفضاً مبدئياً بسبب توجهات محافظة لدى البعض، أو كان الأمر تحفظاً موضوعياً كما حدث من قبل بعض الأعضاء فيما يتعلق بمقترح «مفوضية التمييز»، مثلاً هنا كان الأمر في حاجة إلى إعادة تكتيل من قبل هؤلاء، وأذكر حدة النقد التي ارتفعت خلال فترة ما من عمل اللجنة في مواجهة اقتراح «مفوضية التمييز»، هنا كان الأمر تتم مواجهته بإعادة تكتيل وسعي لكسب تأييد جديد بلورة اقتراحات أكثر صلابة وأكثر تفسيراً.

هنا تكشف مضابط اللجنة وفي اجتماعها الثامن الذي جرى صباح الأربعاء يوم 25 سبتمبر 2013 عن الآتي:

السعي لأن تكون المقترحات أكثر تفصيلاً ووضوحاً ومنطقية، وهنا فقد



عرضت السيدة هدى الصدة في تلك الجلسة الحديث مجدداً عن «تجريم التمييز»<sup>(9)</sup> ودور المفوضية التي أشارت في تقريرها إلى أن الهدف منها هو:

– الاعتراف الرسمي والشعبي بحظر التمييز

– وضع سياسات عامة

– اقتراح خطط للمكافحة

وأضافت «ارتأت لجنة الحريات التوصية بإنشاء مفوضية باعتبارها (مهنة)؛ أعلى من المجلس تتمتع بصلاحيات وقدرة أفضل على التدخل في تحريك دعاوى، على سبيل المثال، على غرار ما هو معمول به حديثاً في عدد من دول أخرى لها ظروف مشابهة أذكر بالتحديد جنوب إفريقيا». (والكلام للسيدة هدى الصدة).

وبعد عدد من المداخلات الأخرى تدخلت السفيرة ميرفت التلاوي ساعية إلى تعزيز موافقهن بما يحظين به من دعم مجتمعي من قبل تحالف المنظمات النسوية التي لعبت دوراً فاعلاً في تقوية مواقف الثلاث، فقد أشارت مثلاً د. ميرفت التلاوي إلى «عقد اجتماعات مع الاتحادات النسائية، وممثلات الأقاليم، والمحافظات واجتماعات بالسيدات المعيلات والفقيرات والمهمشات جداً والأكثر فقراً» وأشارت إلى أن ما تمخضت عنه مثل تلك الاجتماعات الإشارة إلى «عدم التمييز والمساواة وكوتا المرأة».

وبالنظر إلى تقرير الإنجاز الذي قدمه رئيس لجنة نظام الحكم مثلاً في الجلسة التاسعة، يمكن إدراك نجاح في صناعة مزيد من التكتلات، وفي فرض واقع جديد لم يعد مجرد مقترح، حيث أشار الدكتور عمرو الشوبكي<sup>(10)</sup>، مقرر لجنة نظام الحكم

(9) لا يوجد حتى الآن نص داخل قانون العقوبات المصري يجرم التمييز، والذي عادة ما تكون أبرز صوره في مصر هو تمييز ضد الأقباط والمرأة، سواء على الصعيد المجتمعي، أو الرسمي فيما يتعلق مثلاً بتولي الوظائف العامة أو بناء دور العبادة. لقد كان الهدف من تجريم التمييز داخل الدستور الجديد هو إجبار المشرع على فعل مماثل داخل قانون العقوبات المصري، وبالتالي يقع تحت طائلة القانون ويعاقب – وفقاً لما سيقره قانون العقوبات – كل من يقوم بالتمييز على أي أساس ورد في نص المادة التي أدرجت صوره وأشكاله المختلفة في الدستور الجديد.

(10) عمرو الشوبكي باحث وسياسي وكاتب مصري، أستاذ للعلوم السياسية، حاز درجة الدكتوراه من جامعة السوربون في فرنسا، وهو حالياً مدير منتدى البدائل العربية (مركز بحثي)، وله مقال يومي في صحيفة المصري اليوم. عمل باحثاً بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، وانتخب عضواً في البرلمان المصري الأخير، وفاز بالتزكية مقررًا للجنة نظام الحكم بلجنة الخمسين التي قامت بصياغة الدستور الجديد.

داخل لجنة الخمسين في تقريره إلى «التمييز الإيجابي لصالح المرأة والشباب». وما كشفت عنه في الاجتماع العاشر السيدة ميرفت التلاوي عن لقاءات قامت بتنظيمها بين مجموعات نسوية برئيس اللجنة بشكل مباشر، وألحقت بجانب هذا في رسالتها في الجلسة نفسها إلى ما بدأ الحديث عنه كواقع جديد «التمثيل العادل في المجالس المنتخبة».

وعملها ينبغي الإشارة إلى أن مجموعة السيدات الثلاث (هدى الصدة - منى ذو الفقار - ميرفت التلاوي) لم تترك أي منهن جلسة عامة إلا وتحديث فيها عن المساواة وتجريم التمييز ودعم فكرة المفوضية وآليات التمييز الإيجابي.

ويمكن تخيل إطار الحركة الذي عملت عليها النساء الثلاث وبدا أنه استراتيجي وإن لم يكن محدداً بدقة كافية من البداية في إطار الشكل الهرمي (الموضح في رسم رقم 2) على افتراض أن عملية التفاوض والتصويت هي المرحلة النهائية في التأثير:



رسم رقم 2

### 3- الوصول بالنصوص إلى اللجان العامة ومرحلة التصويت التأشيرى

ربما كانت المرحلتان النهائيتان بمثابة الخطوة الأصعب التي واجهت الفاعلات النسوية الثلاث داخل اللجنة، وهم كما قلنا مرحلة التصويت التأشيرى، وهي عملية تصويت أولية تستهدف إحداث توافق ويُلها عملية التصويت النهائية، وتعكس مضابط لجنة الخمسين كمّ الجدل والنقاش الواسع الذين حازتهما المواد المتعلقة بالمرأة وكمّ المداخلات التي قدّمتها النساء الثلاث داخل اللجنة دفاعاً عن تلك المواد في مواجهة اعتراضات عدد من الأعضاء ذوي الطبيعة المحافظة وممثل حزب النور السلفى الذي كان بعض الأعضاء يخشون انسحابه.

على سبيل المثال المادة الخاصة بالمساواة وتجريم التمييز الواردة في الدستور، كانت في صياغتها الأولية التي عرضتها د. هدى الصّدّة على اللجنة العامة كالاتي:

"المواطنون لدى القانون سواء وهم متساوون في الحقوق والواجبات، لا تمييز بينهم بسبب الدين أو العقيدة أو النوع أو الأصل أو العرق أو اللون أو اللغة أو الإعاقة أو لأي سبب آخر.

التمييز والحضّ على الكراهية جريمة يُعاقب عليها القانون، وتلتزم الدولة باتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على جميع أشكال التمييز وينظم القانون إنشاء مفوضية مستقلة لهذا الغرض."

ولمزيد من التوضيح سنحاول أن نضع القارئ في مشهد محاكي لوقائع الجلسة العامة التي ناقشت هذه المادة.

لقد لاقى هذه المادة بشكلها السابق اعتراضاً واسعاً من ممثل حزب النور السلفى، الذي اعترض على فكرة تجريم التمييز زاعماً أن قضية التمييز ليست بالصورة التي يحاول البعض الترويج لها، كما أنه اعترض على مبدأ المفوضية، وكحدّ أقصى طالب بأن تُختصر المادة. وقد لاقى المادة أيضاً اعتراضاً مماثلاً من الدكتور كمال الهلباوي الممثل الثاني للتيار الإسلامى داخل اللجنة الذي قال انه يخشى ان تعارض تلك المادة نصوص مواد أخرى، وقد اعترض هو الآخر على فكرة إقامة مفوضية مشيراً إلى أنه أمر لا يرى ضرورة له!

وهنا كان الأمر في حاجة إلى دفاع وتوضيحات من الثلاثي النسوي في الخطاب الذي استطاع استهداف القطاعات المختلفة داخل اللجنة «القطاعات الإصلاحية التي تسعى للتوافق» و«القطاعات المحافظة الراضية للأمر من الأساس».

وهنا مثلاً فقد كانت المداخلة الأولى من الدكتورة منى ذو الفقار التي يمكن تلخيص محتواها في الآتي:

- أ. الاستشهاد بالدساتير المصرية السابقة التي حصرت أشكال التمييز.
- ب. التأكيد على إصرارها على تجريم التمييز كونه فعلاً منصوباً على مواجهته في «كافة الدساتير» كما استخدمت التعبير، والإشارة إلى الاحتياج إلى دعم المبدأ بظهير دستوري بعد الثورة.
- ج. التمسك بالتزام الدولة باتخاذ التدابير للقضاء على أشكالها، وقد ربطت في مداخلتها بين التمييز وما عانته مصر من فساد وإهدار للموارد والكفاءات.
- د. التمسك بفكرة المفوضية والتأكيد على أن شكلها وآليات عملها متروكة للمشرع.

أما السفيرة ميرفت التلاوي وفي مداخلتها مثلاً فقد دعمت النص باستشهادها بدساتير دولية وعربية والإشارة إلى أن الحد الأدنى في التخلي عن المفوضية هو استبدالها بـ «آلية»<sup>(11)</sup>.

وعمدت الدكتورة هدى الصدة إلى تقديم المزيد من الأطروحات التفصيلية حول الصيغ التي قد تكون عليها المفوضية في المستقبل، وصلاحيتها واختصاصاتها في سبيل تقديم صورة كاملة لمناقضة الحجج الراضية للفكرة، والاستشهاد بالتوافق الذي حدث بين لجنتي نظام الحك والحقوق والحريات ولجنة الصياغة على النص بهذا الشكل (60 بالمئة من القوي التصويتية).

وهنا برزت مساحة التكتلات الداخلية التي صنعتها النساء الثلاث، بمبادرة

(11) كان المقصود من التعميم أو استخدام مصطلح «آلية» هو الحصول على تأييد مبدئين للفكرة، فالآلية قد تعني ربما محام عامل في مكافحة التمييز، أو أن يتم استحداث منصب له صلاحيات شبه قضائية، أو مجلساً متخصصاً في هذا الشأن يملك صلاحيات أوسع من صلاحيات المجالس القومية المتخصصة فيما يتعلق بالتدخل لرفع الضرر.

باقي الأعضاء المحسوبين على التيار الديمقراطي بدعم النص، بل السعي إلى تقويته بإضافة أشكال أخرى للتمييز يجب أن يتم تجريمها مثل التمييز بسبب المستوى الاجتماعي والموقع الجغرافي. وبدعم ضمني من رئيس اللجنة ومقررها العام لمضمون النص، وبعد جولة حامية من النقاشات استغرقت جلسة كاملة (ما يزيد عن 3 ساعات) لمناقشة نص واحد... وبعد جولة حامية من النقاش حاز اقتراح المفوضية بتأييد (29 عضوا) بينما اعترض (9 أعضاء وهو ما اعتبر انتصارا كبيرا<sup>(12)</sup> ليخرج النص بالصورة الآتية:

"المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والحريات والواجبات العامة، لا تمييز بينهم بسبب الدين أو العقيدة أو الجنس أو الأصل أو العرق أو اللون أو اللغة أو الإعاقة أو المستوى الاجتماعي أو الانتماء الجغرافي أو لأي سبب آخر.

التمييز والحض على الكراهية جريمة، يعاقب عليها القانون.

تلتزم الدولة باتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على كافة أشكال التمييز، وينظم القانون إنشاء مفوضية مستقلة لهذا الغرض."

الأمر نفسه قد ينسحب على عملية التصويت التأسيري على المادة 11 في الدستور (ملحق رقم 1). لقد نقلت المادة من اللجنة النوعية (لجنة مقومات الدولة) إلى اللجنة العامة بالصيغة التالية:

"تلتزم الدولة بتحقيق مساواة المرأة بالرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الواردة في هذا الدستور، وتلتزم الدول باتخاذ التدابير الكفيلة بضمان تمثيل عادل ومتوازن للمرأة في المجالس النيابية والمحلية وينظم القانون ذلك، وتعمل الدولة على تمكين المرأة من التوفيق بين واجبات الأسرة والعمل وحمايتها ضد كل أشكال العنف، وتلتزم الدولة بتوفير رعاية خاصة للأمومة والطفولة والمرأة المعيلة والنساء الأشد فقراً واحتياجاً."

(12) الاجتماع الثاني عشر للجنة الخمسين لإعداد المشروع النهائي للتعديلات الدستورية (27 أكتوبر 2013) مضابط لجنة الخمسين.

وهنا فقد أثار استخدام تعبير عادل ومتوازن عدداً من الإشكاليات في النقاش الذي دار داخل اللجنة العامة تلك، من بينها جدل حول «مبدأ الكوتا» نفسه، وكان قبل تلك الجلسة قد اشتدّ الجدل بين الأعضاء خاصة داخل لجنة نظام الحكم حول إقرار المبدأ من عدمه، فالأمر لم يكن مقتصرًا على كوتا المرأة فحسب بل كان الحديث عن «كوتا للعمال والفلاحين» و«كوتا للأقباط» و«كوتا للأشخاص ذوي الإعاقة»، وهنا كانت محاولة الخروج من المأزق هي إلغاء فكرة الكوتا على الجميع من الأساس وعدم النص عليها، وهو ما دفع بعض الأعضاء في تلك اللجنة إلى الاعتراض على المبدأ من الأساس.

هنا أيضاً «عمدت ميرفت التلاوي في مداخلتها أمام اللجنة بعد ان استشعرت احتمالية ضياع «كوتا المرأة» وسط تلك الحالة العامة شديدة الجدل بالمانورة برفع السقف، وبالرغم من أنها كانت المقرر المساعد للجنة نظام الحكم التي نقلت إلى اللجنة العامة الاقتراح المشار إليه أعلاه، طالبت على الفور بإجراء تعديل، مضمونه تخصيص نسبة معينة للمرأة في المجالس، وقد بدا اقتراحها ذكياً حيث قدمته كالاتي وفقاً لما ورد في مضابط الجلسة العشرين للجنة الخمسين المنعقدة في 4 نوفمبر 2013 قائلة «أولاً أنا لي تعديل على المادة فيضاف إلى نهاية الفقرة الثانية ألا يزيد عدد أعضاء المجالس النيابية والمحلية على الثلثين من جنس واحد» وأضافت في نهاية مداخلتها «نحن نخدم الدولة بالثلث أو 35٪ لكن دائماً في المراتب الأقل، إذا كنتم تريدون دولة حديثة وتعرفون بالمرأة فهذا هو ذلك الذي لا بد ان يتم». وهنا فقد انضمت د. هدى الصدة في دعمها لمناورة ميرفت التلاوي، وقدمت خطاباً مطوّلاً مدعوماً بالحجج لدعم الاقتراح.

ورداً على ما طرحته ميرفت التلاوي بتلك الصيغة التي رفعت بها الحد الأدنى لمطلبها، ثارت عاصفة من الجدل من قبل ممثل الأشخاص ذوي الإعاقة وممثل الكنيسة وممثل العمال وممثل الفلاحين الذين بدأوا الحديث والتساؤل حول هل سيتم تطبيق مبدأ (الكوتا) أم لا رغبة في حيازة مكسب مماثل؟

وعلى صعيد آخر بدأ النقاش يتجه إلى ما هو المقصود بكلمتي «عادل ومتوازن» النص الأصلي المقدم من اللجنة النوعية بعد أن رفعت ميرفت التلاوي السقف، وهو النص الأصلي الذي تدخلت د. منى ذو الفقار لدعمه مجدداً كمساحة وسط.

وكملاحظة جانبية يمكن إدراك حالة تقسيم الأدوار التي أشرنا إليها في البداية بالخوض بسقف معتدل ثم رفعه ثم إعادة المطلب الأصلي على طاولة المفاوضات مجدداً لكسب التأييد عليه كصيغة وسط، وهو ما كاد أن يحدث بالمناسبة لولا سؤال وجّهه نائب رئيس المحكمة الدستورية حول مدى دستورية النص الأصلي (المقصود هنا بكلمتي عادل ومتوازن) وهل يعني ذلك ان تخصص 50 بالمئة من مقاعد البرلمان للمرأة؟ وهنا اشار نائب المحكمة الدستورية إلى أن التفسير هو نسبة 50 بالمئة. وهو ما دفع البعض إلى اقتراح صيغة أخرى وهي صيغة التمثيل المناسب، لتخرج المادة بعد نقاشات طويلة ومستفيضة إلى الصيغة التالية:

"تلتزم الدولة بتحقيق المساواة بين المرأة والرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الواردة وفقاً لأحكام هذا الدستور.

وتلتزم الدولة باتخاذ التدابير الكفيلة بضمان تمثيل المرأة تمثيلاً مناسباً في المجالس النيابية على النحو الذي يحدده القانون، كما تكفل للمرأة حقها في تولي المناصب العامة ووظائف الإدارة العليا في الدولة والتعيين في الجهات والهيئات القضائية، دون تمييز ضدها.

وتلتزم الدولة بحماية المرأة ضدّ كل أشكال العنف، وتكفل تمكين المرأة من التوفيق بين واجبات الأسرة ومتطلبات العمل.

كما تلتزم الدولة بتوفير رعاية خاصة للأمومة والطفولة والمرأة المعيلة والمسنّة والنساء الأشد فقراً واحتياجاً".

لقد أدت صياغة النص وموافقة الأعضاء الأولية عليه بهذه الصورة إلى احتجاج العضوات داخل اللجنة وهو ما سجلته ميرفت التلاوي داخل المضبطة، وقد أتاح لهنّ هذا امتلاك ورقة ضغط لاحقة استخدمت في الفوز بمادة أخرى متعلقة بنسبة التمثيل داخل المجالس المحلية، حيث خصصت نسبة 25 بالمئة من مقاعد المجالس المحلية للمرأة.

## الخاتمة

عملياً لم ألتق أياً منهن في السابق سوى مرة واحدة ربما، ولكن بصفتي عضواً في لجنة الخمسين يمكنني أن أقوم بتقييم أداء كل من د. هدى الصّدة، السفيرة

ميرفت التلاوي ود. منى ذو الفقار بأنه كان أداءً غاية في التميز فيما يتعلق بالإسهام في تعظيم مكتسبات المرأة في الدستور أو دعم الحقوق والحريات العامة بشكل عام، سواء من خلال الجهد المبذول في التواصل مع الجمعيات والمنظمات النسوية، أو في تبني اقتراحات تلك المنظمات، أو في ممارسة بناء التكتلات الداعمة داخل اللجنة أو في توزيع الأدوار والتنسيق عالي المستوى بينهما، أو في ثبات المواقف النهائية أثناء عملية التصويت، وهو تقييم مبني على المتابعة الدقيقة لحركتهن خلال مدة عمل اللجنة التي اقتربت من شهرين بشكل يومي من صباح كل يوم وحتى صباح اليوم التالي، في وسط ظروف عصيبة، وصراع من كل فصائل المجتمع في تعظيم مكتسباتها. وبشكل سياسي بحث أرى المكتسبات النسوية التي حققتها النسوة الثلاث هي بمثابة مكتسبات كبيرة، لم يكن انتزاعها وسط أغلبية محافظة وتقليدية داخل لجنة الخمسين متوقعاً، خاصة وسط حرص عام على إبقاء التوافق حتى مع قوى الإسلام السياسي. وهو ما تمخض عنه في النهاية نجاح هؤلاء النساء في إدراج نصوص (ملحق رقم 1) تضمن المساواة وتُجرم التمييز، وتلزم الدولة باتخاذ تدابير لرفعه، وتنشئ مفوضية لمكافحة، والنجاح في انتزاع «كوتا للمرأة» في بين مقاعد المجالس المنتخبة، بالإضافة إلى دسترة منح الجنسية لابن المصرية، وحماية المرأة من أشكال العنف وضمان حقوقها الاقتصادية والاجتماعية داخل الدستور المصري الجديد.



## ملحق 1

| رقم المادة | نص المادة   | الموافقون | المعارضون | الممتنعون |
|------------|---|-----------|-----------|-----------|
| مادة 6     | الجنسية حق لمن يولد لأب مصري أو لأم مصرية، والاعتراف القانوني به ومنحه أوراقاً رسمية تثبت بياناته الشخصية، حق يكفله القانون وينظمه. ويحدد القانون شروط اكتساب الجنسية.  | 2         | 2         | 2         |
| مادة 9     | تلتزم الدولة بتحقيق تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين، دون تمييز.  | 2         |           |           |
| مادة 11    | تكفل الدولة تحقيق المساواة بين المرأة والرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفقاً لأحكام الدستور. وتعمل الدولة على اتخاذ التدابير الكفيلة بضمان تمثيل المرأة تمثيلاً مناسباً في المجالس النيابية، على النحو الذي يحدده القانون، كما تكفل للمرأة حقها في تولى الوظائف العامة ووظائف الإدارة العليا في الدولة والتعيين في الجهات والهيئات القضائية، دون تمييز ضدها. وتلتزم الدولة بحماية المرأة ضد كل أشكال العنف، وتكفل تمكين المرأة من التوفيق بين واجبات الأسرة ومتطلبات العمل. كما تلتزم بتوفير الرعاية والحماية للأمومة والطفولة والمرأة المعيلة والمسنة والنساء الأشد احتياجاً. | 6         | 3         |           |
| المادة 53  | المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والحريات والواجبات العامة، لا تمييز بينهم بسبب الدين، أو العقيدة، أو الجنس، أو الأصل، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الإعاقة، أو المستوى الاجتماعي، أو الإقليم السياسي أو الجغرافي، أو لأي سبب آخر. التمييز والحض على الكراهية جريمة، يعاقب عليها القانون. تلتزم الدولة باتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على كافة أشكال التمييز، وينظم القانون إنشاء مفوضية مستقلة لهذا الغرض.  | 38        | 5         |           |

| رقم المادة | نص المادة  | الموافقون المعترضون الممتنعون |
|------------|--|-------------------------------|
| المادة 180 | <p>تنتخب كل وحدة محلية مجلساً بالاقتراع العام السري المباشر، لمدة أربع سنوات، ويشترط في المترشح ألا يقل سنه عن إحدى وعشرين سنة ميلادية، وينظم القانون شروط الترشح الأخرى، وإجراءات الانتخاب، على أن يُخصص ربع عدد المقاعد للشباب دون سن خمس وثلاثين سنة، وربع العدد للمرأة، على ألا تقل نسبة تمثيل العمال والفلاحين عن خمسين بالمائة من إجمالي عدد المقاعد، وأن تتضمن تلك النسبة تمثيلاً مناسباً للمسيحيين وذوى الإعاقة.</p> <p>وتختص المجالس المحلية بمتابعة تنفيذ خطة التنمية، ومراقبة أوجه النشاط المختلفة، وممارسة أدوات الرقابة على السلطة التنفيذية من اقتراحات، وتوجيه أسئلة، وطلبات إحاطة، واستجوابات وغيرها، وفي سحب الثقة من رؤساء الوحدات المحلية، على النحو الذي ينظمه القانون.</p> <p>ويحدد القانون اختصاصات المجالس المحلية الأخرى، ومواردها المالية وضمانات أعضائها واستقلالها.</p> | 3 45                          |



# التونسيات والمسار الانتقالي؛ تطلّعات وتحديات ونضالات

## آمال قرامي

جامعة منوبة، تونس  
amel\_grami@yahoo.com

### الملخّص

حلّمت التونسيات منذ اندلاع الثورة بتطوير منزلتهن وإحداث تعديلات على مجلّة الأحوال الشخصية حتى تعبّر عن تطلّعاتهن إلى المساواة الفعلية والمواطنة الكاملة. بيد أنّ مسار التحول الانتقالي جاء محمّلاً بتحديات جعلتهن يتخوفن على مكتسباتهن، ويواجهن أشكالاً من العنف المادي واللفظي وخاصة الرمزي، وينظمن صفوفهن علّهن بذلك يثبتن مدى قدرتهن على المقاومة وابتكار استراتيجيات جديدة للصمود. يُعنى هذا البحث بالتالي: (أ) رصد مظاهر التراجع وتعداد صور العنف التي تسلّلت إلى المجتمع التونسي (وفود من الدعاة يكرسون ثقافة كره النساء، التهميش، التنكر لمساهمة النساء في الثورة، جهاد النكاح، النقاب، تحجيب الصغيرات، منع الفتيات من التعليم...؟)؛ (ب) تحليل ردود فعل التونسيات إزاء هذه التحوّلات وبيان مواقفهن من مواد جاءت في مسودّات الدستور لا تركز حقوقهن الكاملة؛ (ج) إبراز أشكال المقاومة النسائية وطرق بناء الاستراتيجيات؛ تحليل أثر هذه التحوّلات السياسية والاجتماعية والثقافية على الحركة النسائية التونسية، وأوضاع النساء وعلاقاتهن الجندرية وتصوراتهن للمستقبل في ظل هذه التحديات.

**الكلمات المفتاح:** التحوّل الديمقراطي؛ الجندر؛ المقاومة النسائية؛ الحركة النسائية

التونسية؛ الربيع العربي؛ تونس.

## Abstract

### Tunisian Women and the Revolution: Expectations, Challenges and Stakes

Amal Grami

*Since the beginning of the Tunisian Revolution, which saw an exceptional participation of women, Tunisian women had dreams and expectations that their status would be improved, that the Code of Personal Status would be amended to reflect their aspirations for the achievement of effective equality and full citizenship. However, the transition process brought about myriads of challenges that made women deeply concerned with their achieved rights and facing forms of physical, verbal and especially symbolic violence. They sought to organize themselves seeking to prove their ability to resist and to invent new resistance strategies. Part one of this research identifies the forms of regression and multiple forms of violence targeting women that emerged in Tunisian society (the large number of visiting preachers advocating women hate, marginalization, denying women's participation in the Revolution, sex Jihad, face veil (niqab), veiling young girls and depriving girls of education...). Part two analyzes the reactions of Tunisian women regarding these changes and their views regarding provisions in the draft constitution that do not account for their full rights, namely the forms of resistance adopted by women and the methods they used in developing strategies. The last part analyzes the impact of these changes on women's movement in Tunisia, their situation, status, gender relations and their views of the future in the light of these challenges.*

**Keywords:** Tunisian women; gender; women's resistance; feminist movement; Arab spring; Tunisian revolution; Tunisia.

## المقدمة

### «ما أكبر أحلام التونسيات»

حلمت أغلب التونسيات<sup>(1)</sup> منذ اندلاع الثورة، بتطوير مجلة الأحوال الشخصية<sup>(2)</sup>، وبتعديل المجلة الجنائية، والمجلة الانتخابية، وقانون المواريث... حتى تعبر النصوص التشريعية عن تطلعاتهن إلى المساواة الفعلية، والعدالة الاجتماعية، والمواطنة الكاملة. وحلمت النساء بأن يكون تمثيلهن في مواقع صنع القرار متطابقة مع كفاءتهن وتميزهن. وحلمت النساء أيضا بتحقيق ذواتهن بعيدا عن (جلباب السلطة).

ولم تكن أحلام النساء تخص جندرهن، مقتصرة على ما يشغلن بل كانت أكبر من أن تختزل في بعض المطالب. فقد طمحت التونسيات إلى بناء وطن ديمقراطي يحفظ حقوق الجميع دون تمييز على أساس اللون أو الجنس أو العرق أو الدين، وإلى تغيير نمط العلاقة بين الحاكم والجماهير، وتأسيسها وفق عقد اجتماعي سياسي جديد جوهره الكرامة والمساواة، والعدالة الاجتماعية والحرية، والأمن...

وما كانت أحلام التونسيات طوباوية، وموصولة إلى عالم 'المدينة الفاضلة' بل إنها كانت منبثقة من خصوصيات مثلها أولا: «الأنموذج التونسي» الذي جعلهن يتصورن طيلة عقود، أنهن يشكّلن الاستثناء في العالم الإسلامي، ويعتقدن أنهن

(1) وعيا منا بأنه ما عاد بالإمكان الحديث عن التونسيات بصفة الإطلاق وكأنهن يمثلن كتلة واحدة منسجمة ولا فروق بينهن فإننا نلفت الانتباه إلى أننا لن نركز التحليل على التونسيات المنتميات إلى التيارات الإسلامية باعتبار أن أحلامهن مختلفة، وأحيانا متعارضة مع أحلام المتمسكات بالدولة المدنية، ومجلة الأحوال الشخصية. فمن الإسلاميات فئة ترغب في تشييد دولة الخلافة، وتطبيق الشريعة بما في ذلك تعدد الزوجات ومنهن فئة تطمح إلى إقامة دولة إسلامية ولكن دون استنقاص من أغلب مكتسبات النساء. وبناء على ذلك نرى أنه من المهم بمكان إجراء بحوث ميدانية في الموضوع لتبيين الحراك داخل الفئات النسائية.

(2) تعد مجلة الأحوال الشخصية بمثابة قانون للأسرة وقد صدرت سنة 1956. تشير إلى أن جمعية النساء الديمقراطيات كانت تطمح إلى كسب بعض الحقوق الجديدة كالمساواة في الإرث، وزواج المسلمة بغير المسلم، وإدخال بعض التعديلات على القانون الجنائي دفعا باتجاه المساواة.

بمنأى عن كلِّ محاولات النكوص. فتونس تصاغ حولها مجموعة من التمثلات (Représentations) من ذلك أنها بلد علمانيّ التوجّه يحمي حقوق النساء التي أرساها الزعيم - الأب «بورقيبة»، والتونسيات متعلّقات، وواعيات، و متمسّكات بحقوقهن، وساعات إلى تطوير منزلتهن. أمّا الخاصية الثانية فتكمن في طبيعة واقع شكّلته الثورة جعل المواطنين يرفعون سقف المطالب، ويطلقون العنان لأنفسهم حتى يتحرّروا من ثقافة الخنوع<sup>(3)</sup>.

بيد أنّ هذه الأحلام والأمال كانت «أحلاماً خطيرة» على حدّ عبارة سلافوي جيچك (Slavoj Žižek) إذ سرعان ما امتزجت، في مرحلة الانتقال الديمقراطيّ، بمجموعة من المخاوف منها: الخوف من فقدان مكاسب تحقّقت<sup>(4)</sup>، واستشراء التهميش، والعنف، والتمييز. وهي مخاوف مبزّرة تسلّلت إلى المجتمع ظواهر جديدة وممارسات دخيلة، وخطابات لا عهد للناس بها، فارضة بذلك على التونسيات مجموعة من التحديات.

### 1- تحديات فرّضها المسار الانتقاليّ: الذكورية المطلّة برأسها

ناضلت عدّة جمعيات نسائية، وقوى وطنية من أجل فرض مبدأ التناسف (parity) في انتخابات 2011 بيد أنّ الناشطات الحقوقيات سرعان ما فوجئن بمقاومة أغلب الأحزاب لتطبيق المشاركة السياسية القائمة على أساس النديّة تطبيقاً فعلياً. كما أنّهن وقفن على حقيقة مفادها أنّ الإجماع قد تحقّق بين الخصوم السياسيين فيما يتعلّق بالقضية النسائية. فعدد من السياسيين نظروا إلى النساء على أساس أنّهن 'أدوات' للتعبئة من أجل نيل الأصوات أو زينة يوشى بها المشهد السياسيّ.

أمّا حزب النهضة فمثله مثل الأحزاب الليبرالية، أظهر برنامجاً من خلال الأدوار الممنوحة إلى المرأة، ومكانتها داخل مختلف الهياكل. وبالرغم من أنّه كان ينتقد 'نسوية الدولة' (State feminism) إلّا أنّه استمرّ في التوظيف السياسيّ للنساء

(3) يمكن مشاهدة فيلم وثائقي 'نساء تونس... بماذا يحلمن؟'

<http://www.youtube.com/watch?v=9BqNNcOLjje>

(4) تجدر الإشارة إلى أنّه منذ تولي بن عليّ الحكم انتابت التونسيات مجموعة من المخاوف باعتبار أنّ النظام الجديد لوّح بإحداث تعديلات على مجلة الأحوال الشخصية تقرباً إلى المملكة العربية السعودية فما كان من الجمعيات النسوية إلا التحرك.

فإذا به يسَلِّط الأضواء على مرشحته غير المحبَّبة 'سعاد عبد الرحيم'، ويؤكد على أهمية دور النساء في التعبئة، ويرشِّح عددا منهن وفق منطق العصبية، واعتمادا على بنى القرابة. ولا يعدُّ هذا الإجراء غريباً عن فكر الجماعات الإسلامية والأحزاب ذات المرجعية الإسلامية.<sup>(5)</sup>

ولئن نجحت نساء حزب النهضة في الدخول إلى المجلس التأسيسي بوصفهن نائبات فإن المترشحات عن أحزاب ليبرالية، أو يسارية أو تقدمية... وجدن صعوبة في كسب الانتخابات بالرغم من أن تاريخ الحركة النسوية يؤهل 'العلمانيات' لتقلد مناصب صنع القرار أكثر من الإسلاميات اللواتي لم تكن مرئيات على مستوى الحركة النسائية.

بيد أن ترشِّح النساء 'العلمانيات' للمجلس التأسيسي لم يكن في الغالب، مرحباً به داخل الأحزاب 'الديمقراطية'<sup>(6)</sup> ومن ثم لم تكن النساء مدعومات في حلَّهن وترحالهن أثناء الحملة الانتخابية، وهو عامل جعلهن يحاولن إثبات ذواتهن، ومواجهة التحديات كحملات التشويه على المواقع الاجتماعية (Facebook, Twitter...) والاعتداءات اللفظية، والتحرش الجنسي فضلاً عن العُنف المادي والرمزي، حين كنَّ لا يسألن في الغالب عن برامج أحزابهن بل عن حياتهن الشخصية.<sup>(7)</sup>

ويمكن القول إن فرض قانون التنافس كشف النقاب عن ذهنية ذكورية تثبت بما لا يدع مجالاً للشك، مدى ترسخ بنى النظام الأبوي، وشيوع الصور النمطية التي تحول دون دخول المرأة معترك السياسة، خاصة إذا لم تكن 'تحت' حماية رجال الحزب. ولا يمكن التغاضي عن الربط المتعمد الذي يلجأ إليه عدد من

(5) لمزيد الاطلاع يمكن الرجوع إلى: يسيم آرات، الإسلام والديمقراطية الليبرالية في تركيا: النساء الإسلاميات في معترك السياسة، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013، (ترجمة مني محسن الصاوي).

(6) لم تتجاوز القوائم الانتخابية التي ترأسها نساء 7٪ في نظام الاقتراع الذي يوفر أكبر الحظوظ لرؤساء القوائم.

(7) Zoe Petkanas, «From Visible to Invisible: Tunisia's Gendered Democracy Paradox», CGHR Working Paper 3, Cambridge: University of Cambridge Centre of Governance and Human Rights, (March 2013), p. 12-13.

ويمكن الرجوع أيضاً إلى: هادية الشاهد المسيهلي، هنّ الأغلبية في المجلس التأسيسي: النهضويات... هل تمثّلن التونسيات؟، موقع تورس، بتاريخ 2011-10-30

<http://www.turess.com/alchourouk/515644>



قيادي حزب النهضة في خطاباتهم بين 'العلمانيات'، ونظام بن علي، من جهة، وتطوير حقوق النساء والنظام الاستبدادي، من جهة أخرى. وقد ترتب عن ذلك التشكيك في كفاءة النساء، وفي مدى ارتباطهن بالإسلام، وتمسكهن بالمنظومة الأخلاقية<sup>(8)</sup>.

ويكمن المظهر الثاني للممارسات المعبرة عن الذهنية الذكورية في التعتيم الإعلامي<sup>(9)</sup> الذي ذهبت ضحيته المرشحات. فوسائل الإعلام لم تعمل على تغطية الحملات الانتخابية لنساء يخضن لأول مرة مجال السياسة. فلا غرابة والحال هذه، أن يتقلص حضور النساء في كل الحكومات التي تعاقبت بعد الثورة، وأن يقل حضورهن في المنابر الإعلامية. ويبيّن تهميش النساء عن مفارقة قوامها بروز فجوة بين وجود كفاءات نسائية عديدة من جهة، وضعف تمثيلهن في مواقع صنع القرار، من جهة أخرى.

ولم تكن المشاركة النسائية وحدها محلّ خلاف إذ وجدت التونسيات أنفسهن يخضن معركة للدفاع عن مجلّة الأحوال الشخصية. فقد سمح سياق الثورة للعديد من التونسيين بأن يعبروا عن آمالهم، وهواماتهم (Fantasmes) وتصوّراتهم للمستقبل. ومثّلت مجلّة الأحوال الشخصية موضوع جدل بين الناس، وارتفعت الأصوات بين متمسك بكلّ ما جاء في المجلّة كعامل على تطويرها، وراغب في إلغائها معتبرا أنّها البقرة التي آن أوان ذبحها، ومحاول تعديلها حتى تتلاءم مع السياق الجديد.

وسرعان ما برز رؤساء أحزاب لا همّ لهم سوى الدعوة إلى تعدد الزوجات وزواج القاصرات، والتسرّي بالخادما<sup>(10)</sup>. وكثرت المناورات من أجل الحدّ من الحقوق التي يفترض بالدستور أن يضمنها للنساء. وتزامنت هذه المطالب مع توافد

(8) ولا يختلف الأمر بالنسبة إلى النسويات في مصر إذ وقع الربط بينهن ونظام مبارك واعتبرت المكاسب 'قوانين سوزان مبارك' وطالب الإسلاميون بإيقاف العمل بها.

(9) سنية بن جميع العماري وحنان شقرون، تونسيات ومسار الثورة، تونس، منشورات الكريديف، 2013، ص 104.

(10) ذكر مقال صادر عن مجلّة «جون أفريك» (Jeune Afrique) بتاريخ 23 جويلية 2013، ما وصلت إليه وضعية المرأة التونسية من تدهور في المجتمع، فعلاوة على ما دعا إليه بعض السياسيين من نزح القداسة عن منع تعدد الزوجات، صرح البحري الجلاصي (وهو رئيس حزب) بأن البنات لا بد من تزويجهن بمجرد وصولهن إلى سن البلوغ، وذلك - حسب ما يدعيه - منعا للفساد الأخلاقي في البلاد.

Frida Dahmani, Tunisie tout feu, tout femmes, 23/07/2013

<http://www.jeuneafrique.com/Article/JA2740p052.xml0/>

عدد من الدعاة من مصر، والبحرين، والمملكة العربية السعودية... يبحثون العائلات على تحجيب الفتيات الصغيرات، وختنهن، ويبرّون للشابات منافع الزواج العرفي<sup>(11)</sup>، والنقاب<sup>(12)</sup>، والجهاد: جهاد العلمانيين الكفار في الداخل، والجهاد في سوريا، وممارسة 'نكاح الجهاد'<sup>(13)</sup>.

وهكذا غدت التونسيات مهدّات في مكانتهن في المجتمع، لاسيما بعد انتشار ظاهرة العنف باسم «الدين» أو «التأديب الأخلاقي». فقد شغف بعض السلفيين، والمتشدّدين من أتباع حزب النهضة بتخويف النساء في المظاهرات الاحتجاجية، ودعوتهن إلى العودة إلى المطابخ<sup>(14)</sup>. وانطلقت 'كتائب شباب النهضة' في حملات تشويه الناشطات بهدف تصميتهن، وجعلهن يعزفن عن المطالبة بحقوقهن ولعلّ أهمّها

(11) وفي هذا الصدد، نشير إلى موجة الغضب التي أحدثتها أقوال سهام بادي (عن حزب المؤتمر من أجل الجمهورية)، بعيد توليها لوزارة المرأة بخصوص تأييد الزواج العرفي، إذ اعتبرت أنه يدخل في باب «الحرّيات الشخصية» قبل أن تراجع عن أقوالها بسبب ضغط الرأي العام التونسي إزاءها. هل تشرع سهام بادي وزيرة شؤون المرأة الزواج العرفي؟ موقع المصدر بتاريخ 1-2-2012.

– ar.webmanagercenter.com

(12) وقد بينت عادة بن جدو في حوار لها أجرته مجلة «وات» مدى خطورة مثل هذه المظاهر في المجتمع التونسي، واستدلت على أن النص التشريعي الإسلامي لم يفرض النقاب على المسلمات. تقول: «وهو ما ذكر بوضوح تام في القرآن الذي لم يقرّ أيضا تغطية المرأة لوجهها ويديها بل أوجب عليها لباس الحجاب فقط وذلك ضمان العملية التواصل والحوار مع الآخر»؛ جاء هذا في مقال عنوانه «حقوق ومكاسب المرأة في تونس ما بعد الثورة محل جدل واسع» لعائدة الهيشري، صدر يوم 07-03-2012، على الرابط التالي: <http://www.turess.com/tap/121910>

(13) آمال قرامي، «حقّ مجاهدات النكاح في هبة أجسادهن للثوار»؛ الحوار المتمدن، العدد 4225، بتاريخ 24/09/2013

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=379409>

ونذكر هنا أيضا تلك التصريحات التي أدلى بها الداعية السلفي خميس الماجري، حين اعتبر أن المرأة التونسية «بضاعة يمكن شراء شرفها مقابل سانديش»؛ لمياء ورغي، «داعية سلفي: المرأة التونسية يمكن شراؤها سانديش»؛ وكالة العصماء للأنباء، بتاريخ 26/07/2013

[http://www.alassma.com/spip.php?page=imprimer&id\\_article=780](http://www.alassma.com/spip.php?page=imprimer&id_article=780)

(14) وتحدث عبده جميل المخلافي عن الضغط الذي يمارسه السلفيون على النساء التونسيات غير المنقيات خاصة، من قبيل الشتم والتعنيف الجسدي واللفظي، وعبر تأسيس «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لمنهجية العنف المسلط على النساء؛ «السلفيون في تونس: أقلية تخيف النساء والصحافة»، على شبكة الحوار نت الإعلامية، بتاريخ 06/12/2011

[http://www.alhiwar.net/ShowNews.php?Tnd=23509#.UvPJefl5M\\_w](http://www.alhiwar.net/ShowNews.php?Tnd=23509#.UvPJefl5M_w)

المساواة التامة<sup>(15)</sup>. ومال بعضهم إلى استغلال مواقعهم من أجل تنفيذ أحلامهم. فعن لشروطي منع رئيسة جمعية من مغادرة البلاد إلا بعد حصولها على إذن كتابي من الزوج<sup>(16)</sup>، وأقدم عدد من الأمنيين على اغتصاب فتاة أمام خطيبتها وابتزازهما، وتكثفت دوريات الشرطة، ومساءلة النساء عن أسباب خروجهن في ساعات متأخرة<sup>(17)</sup>. تقول أحلام بلحاج رئيسة جمعية النساء الديمقراطيات (سابقاً) في هذا الصدد: إن جمعيتها تلقت «كثيراً من التشنجات (كذا) من فتيات تعرّضن لمضايقات من الشرطة بسبب لباسهن (الأوروبي) أو خروجهن في الليل أو تنقلهن في سيارات مع رفاقهن». وقالت حول مدى صحة ما يشاع من أنباء عن إطلاق الشرطة «حملة أخلاق» تستهدف النساء المتحررات، «هناك حملة غير معلنة رسمياً، وقد وصلتنا تشيكيات كثيرة من ممارسة البوليس دور الحافظ على الأخلاق الحميدة<sup>(18)</sup>».

ولئن لم تتحوّل هذه الوقائع إلى ممارسات جماعية إلا أنها تسمح بتبيين خصائص السياق الذي تنزلت فيه صياغة الدستور الجديد، وفهم الأسباب التي

(15) عرفنا «حالات عنف ممنهج ضد النساء في الشارع وأماكن العمل والجامعات والمدارس ولجوء بعض العائلات إلى تحجيب الفتيات القصر وحتى الراشيدات رُغماً عنهن وممارسة التضييق أو التحرش بغير المحجبات فضلاً عن لجوء بعض المسؤولين والموظفين أو الأساتذة إلى إلزامية الفصل بين الجنسين أو إجبار البنات المقيمات في المعاهد على لبس اللباس الشرعي»؛ أمال القرامي، «النساء والثورات والعنف»، موقع الحوار المتمدن، بتاريخ السبت 26 نوفمبر 2011.

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=285240>

(16) لئن نفت وزارة الداخلية في 2013 أن تكون الحكومة الانتقالية تخطط لوضع مشروع قانون يفرض على النساء موافقة أحد الأقرباء حتى تتمكن من السفر، فقد شاع الكثير من الأخبار عن ممارسات من هذا القبيل وقعت لامرأة أعمال تونسية كانت قاصدة ليبيا، ولأب كان يرغب في السفر مع بناته الثلاث، وكانت اثنتان منهما تتجاوزان سن الثامن عشرة، فطالبته إدارة الحدود بإذن لابنتيه بمغادرة التراب التونسي. أثارت هاتان القضيتان حفيظة الرأي العام التونسي وخاصة غضب النساء، مما جعل منظمة الاتحاد الوطني للمرأة التونسية تصدر بلاغاً يندد بهذا الإجراء وبأي تشريع قد يصدر لدعمه؛ ويمكن مراجعة أصداء هذا الحدث بجريدة «لابراس» (Presse) الصادرة بتاريخ 11/09/2013، على الرابط التالي:

<http://www.lapresse.tn/11092013/72189/un-discrédit-pour-la-Tunisie-post-revolution.html>

(17) ذكرت هذه الحادثة في موقع France24 على الرابط التالي:

Sarah LEDUC, Les Tunisiennes n'ont pas fini leur révolution, (09/03/2012)

<http://www.france24.com/fr/20120307-tunisiennes-ont-pas-fini-leur-revolution-feministe-islamisme-ennahda-tunisie-journee-femme>

(18) محمد قاياتي، «المرأة ومستقبلها تحت حكم الإسلاميين»، شبكة الأخبار العربية، دون ذكر تاريخ.

<http://anntv.tv/new/showsubject.aspx?id=49704>

حفّزت النساء على المطالبة بدسترة حقوقهنّ. وقد اعتبرت الحركات النسوية هذه الردة على مستوى العقليات، والسلوك والخطابات نتيجة متوقّعة للتمهيش والفقير وتراجع مستوى التعليم، فضلاً عن تسرب الوهابية إلى تونس بمباركة حزب النهضة، ومن ثمة لم تستغرب الناشطات بروز أصوات نسائية تُطالب بالحدّ من حقوق فرضتها مجلة الأحوال الشخصية<sup>(19)</sup>، وتتعامى عن تنامي العنف مادام يستهدف العلمانيات (المثقفات، الفنانات، الصحفيات..).

وإذا تأملنا في مواقف نساء المجلس التأسيسي، وأغلبهن من حزب النهضة، بدا لنا بوضوح الانشقاق والفرز، وأحياناً الاستقطاب الحدي الذي حصل بين نساء النهضة والنساء المنتميات إلى أحزاب تمثل القوى «الديمقراطية». وقد كانت نتيجة توتر العلاقة بين النساء داخل المجلس تعطيل استراتيجية المناصرة في أغلب الأحيان، مع أنّ مبادرة كانت قد اتخذت لعقد تحالف بين مختلف النائبات من أجل الدفاع عن حقوق النساء ولكنّها لم تكن ذات فاعلية كبرى.

تقول مية الجريبي الأمينة العامة للحزب الجمهوري في هذا الصدد:

«هناك مخاوف، وهناك دعاوي للردة و للعودة بالمرأة إلى الوراء، لأنّه في كلّ مرحلة أزمة مثل التي تمرّ بها تونس تكون المرأة هي المستهدف الأول سواء في حريتها العامة أو في حريتها الشغلية، واليوم ونحن في مرحلة التغيير كلّ مكاسب المرأة تتعرض للاستهداف، لكن من قبل أقلية... لذلك لا بدّ أن ننتبه لهذه المسألة عندما نصيغ (كذا) الدستور». وبالنسبة إلى الإمكانية المتوفرة داخل المجلس التأسيسي للدفاع عن مكاسب المرأة التونسية، تقول الجريبي: «إلى حد الآن لم نر حماساً أيضاً في الدفاع عن حقوق المرأة ونرجو أن ننظر النائبات في المجلس

(19) رغم أنّ سعاد عبد الرحيم كانت - قبيل انتخابات 23 أكتوبر وبعيدها - رمزاً للتوجه المعتدل الذي أوجت به حركة النهضة لتلميع صورتها (فهي غير محجبة)، فإنها وسمت وضعياً الأمهات العازبات بأنها غير مقبولة ومناقية للأخلاق؛

Sarah LEDUC, «Les Tunisiennes n'ont pas fini leur révolution»,

<http://www.france24.com/fr/20120307-tunisiennes-ont-pas-fini-leur-revolution-feministe-islamisme-ennahda-tunisie-journee-femme>

وتناولت هذه القضية لينا بن مهنّي، في مقالها «المرأة التونسية و«ثورة الياسمين»؛ موقع النهار، بتاريخ 24 تشرين الأول 2013.

<http://newspaper.annahar.com/article/77856->

التأسيسي لأنفسهن كمواطنات قبل أن يكن أصوات أحزابهن، وأن تكون فرصة صياغة الدستور هي فرصة تأكيد المواطنة لا فرصة تصفية حسابات هذا الطرف السياسي أو ذلك»<sup>(20)</sup>.

لقد تسبب سكوت عدّة نائبات من حزب النهضة في انتشار العنف والتمييز ضدّ النساء، والقاصرات، والتحجيب القسري للصغيرات في اتهام حزبهن بأنه شرع في إطلاق حملات منظّمة لتغيير نمط عيش التونسيين، وفرض النمط المحافظ على مستوى السلوك، واللباس، وبناء العلاقات بين الجنسين في مختلف الفضاءات، لا سيما بعد انتشار الجمعيات الخيرية الإسلامية التي اعتمدت خطاباً يعتبر المرأة «قاصراً» و«عورة».

ولعلّ ما يسترعي النظر في حملات استهداف مكتسبات التونسيات ارتفاع أصوات نسائية تدعو إلى الحدّ من حرّية النساء من داخل المجلس التأسيسي. فقد طالبت نائبة من حزب النهضة بالفصل بين الجنسين في الشواطئ، وفي وسائل النقل. ولم تمنع أخريات من اعتماد الشريعة مصدراً رئيسياً في الدستور، واعتماد التكامل بدل المساواة، وقبلت أخريات التراجع عن التناصف، بل قاومنه عندما أُعيد طرحه.

ونظّمت نساء النهضة مظاهرات في عيد المرأة (13 أوت/، آب 2013) رفعن فيها شعارات من قبيل «المرأة تريد تطبيق شرع الله» و«الشعب يريد النهضة من جديد» و«بالروح بالدم نفديك يا شرعية». ثمّ إنّهن انطلقن في التعبئة من أجل رفض رفع التحفظات عن السيداو وهي (اتفاقية مناهضة التمييز ضدّ المرأة)، ونظّمن حملات تشويه ضدّ الاتفاقية رُفعت فيها لافتات كتبت عليها «السيداو.... وإذا عصيتم فاستتروا» في محاولة للربط بين السيدا (Sida) والسيداو (CEDAW) وبالإضافة إلى ذلك تكثّف تأييد النهضوايات للإخوان المسلمين، فلم تفوّت النائبات داخل المجلس وخارجه فرصة رفع شعار «رابعة».

ونظّمت نساء جبهة الإصلاح ونساء حزب التحرير أيضاً مجموعة من الندوات

(20) مبروكة خذير، «مخاوف من تراجع حقوق التونسيات في ظل صعود الإسلاميين»، موقع أخبارك بتاريخ 2012-3-8.

http://www.akhbarak.net/articles/8282552 (بتاريخ 2014-3-26)

الصحفية، والمؤتمرات للتبديد بمنع الطالبات المنتقبات من إجراء الامتحانات، واعتبرن أنّ الخلافة هي الضامنة لحقوق النساء<sup>(21)</sup>.

وقد ترتّب عن الانزياح الحاصل في المسار الانتقاليّ بسبب تدخل أطراف خارجيّة (قطر، السعودية...) بروز حالة من اليأس، والإحباط، والتشاؤم في المجتمع. وقد انتشر الخوف، والرقابة الذاتية، وشاعت بين عدد من المواطنين ثقافة الخلاص الفرديّ (الهجرة). ولكن للمناضلات والعاشقات لأوطانهنّ شأن آخر.

## 2- المقاومة النسائيّة: يقظة التونسيات وعزمهن على البناء

اختلفت ردود فعل التونسيات إزاء مظاهر النكوص. فبينما احترفت بعضهن البكاء، والحديث من موقع الضحيّة مالت أخريات إلى الانزواء، واعتزال ساحة نضال لا عهد لهنّ بها. وفي مقابل هذه الفئات صمّمت الناشطات المنضويات تحت الجمعيات، والرابطات الحقوقيّة، والنقابات العماليّة، وغيرهن الانطلاق في العمل لا سيما وأنهن تجاوزن وقع الصدمة. ففكرن في العوامل التي أدّت إلى التقهقر، وسعين إلى تفكيكها ثمّ تجاوزها عبر اعتماد استراتيجيات مختلفة.

وبناء على هذا الوعي بأهميّة التحرك قرّرت النساء الانخراط في الفعل الاجتماعي عبر إنشاء الجمعيات، وتنظيم الصفوف، والدعوة إلى التنسيق الجماعي، وعقد التحالفات مع مختلف مكونات المجتمع المدنيّ كالجمعيات الحقوقيّة، والرابطة التونسيّة لحقوق الإنسان، والأحزاب التقدميّة وغيرها. وقد استطاعت الحركات الاحتجاجيّة النسائيّة، التي انتقلت من السياق العفويّ إلى الانتظام داخل إطارات مهيكلة، أن تمنح للمرأة حضوراً قوياً في الكثير من مجالات الحياة العامّة.

ولئن دأب البعض على التركيز على الجهود التي تبذلها الجمعيات والمنظّمات غير الحكوميّة من أجل التصديّ لمحاولات الارتداد، والانتهاكات فإنّ ما ميّز المسار الانتقاليّ هو تعاضد المبادرات الجماعيّة، والجهود الفرديّة التي اضطلعت

(21) المؤتمر العالميّ لنساء حزب التحرير الذي استضافته شابات الحزب في تونس بعنوان «الخلافة نموذج مضيء لحقوق المرأة ودورها السياسي» - 10 مارس 2012.

<https://www.youtube.com/watch?v=aluLuL6M0I4>

بها بعض النساء (أكاديميات ونساء من جمعيات، ولجان نسائية تابعة للنقابات المهنية، والأحزاب السياسية وغيرها).

ويمكن تصنيف المواضيع التي مثلت جوهر العمل النضالي النسائي كالآتي:

(أ) توثيق الانتهاكات والتشهير بالتجاوزات، ومقاومة العنف المسلط ضد النساء وتحديد المخاطر.

(ب) الضغط من أجل دسترة حقوق النساء.

لَمَّا كان يعسر استقراء مختلف أنشطة الجمعيات، وتعداد استراتيجياتها المعتمدة فإننا أثرنا الوقوف عند بعض النماذج التي تميّزت على مستوى الأداء منها العريقة كجمعية النساء الديمقراطيات، وجمعية النساء التونسيات للبحث حول التنمية، وجمعية مساواة وتناصف الحديثة النشأة (في نيسان/ أبريل 2011) وتحالف حرائر تونس.

نظّمت الجمعيات ذات التوجّه النسويّ مسيرات تجوب شارع «الحبيب بورقيبة» للمطالبة بأن ينصّ دستور البلد الجديد صراحة على العلمانية، وعلى المساواة الكاملة بين الجنسين، والعدالة الاجتماعية. فكان مطلب العلمانية «اللائكية» (Laïcité) حاضراً في الشعارات المرفوعة في المظاهرات قبل الدعوة إلى تكريس الديمقراطية.

وبينما كانت الجمعيات الحديثة العهد تبحث عن آليات للتعبئة، وتنظيم الصفوف بادرت جمعية النساء الديمقراطيات، وجمعية النساء التونسيات للبحث حول التنمية، بالعمل على أرض الميدان، وقد مثلتا بذلك قوّة اقتراح وضغط. ولئن لم يقع تشريك الجمعيتين في صياغة القرارات فإنهما كانتا لا تنفكان عن تقديم المطالب، والمقترحات، والمشاريع للهيئات المعنية.

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ. فقد قرّرت الجمعيتان التوجّه إلى الأحزاب السياسية لمطالبتها بتحمّل مسؤوليتها في الدفاع عن حقوق المرأة. وقد سعت الجمعيتان إلى التنسيق مع المعهد العربيّ لحقوق الإنسان حول «عهد تونس للحريات» بمشاركة الاتحاد العام التونسي للشغل، ونقابة الصحفيين والرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان. ولم تطالب النسويات بضمّان حقوق الإنسان الكونية للنساء فقط، بل طالبن أيضاً بأن يستجيب الدستور لقيم الثورة، أي الكرامة،

والحرية، والعدالة، والمساواة.

أما جمعية مساواة وتناصف فقد سعت منذ تأسيسها، إلى الضغط حتى يتم العمل داخل الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي ثم المجلس التأسيسي وفق مبدأي التناصف والمساواة، شعارها في ذلك «الديمقراطية تبدأ بحقوق النساء». وقد تمثل تحرك الجمعية في إصدار البيانات، ونشرها في المواقع، وصفحات الفيسبوك، والصحف، والتدريب، وتنظيم الوقفات الاحتجاجية، والتشهير بالانتهاكات في مختلف وسائل الإعلام (بخصوص تكريس مبدأ التناصف، والتراجع عن رفع التحفظات عن اتفاقية السيداو، وممارسة إقصاء النساء من مواقع صنع القرار، والعنف ضد النساء، ورفض استضافة الدعاة المتشددين، والتوظيف السياسي لقضية المرأة وغيرها، والانتخابات). بالإضافة إلى إطلاق الحملات كحملة توعوية ضد ارتداء النقاب الذي انتشر في تونس بسرعة ملفتة للانتباه بعد الثورة.

وأمام ارتفاع عدد الجمعيات النسائية فكّرت بعض القيادات في لمّ الشمل فكان تحالف أكثر من ثلاثين جمعية «ائتلاف حراير (حرائر) تونس» بتاريخ 13 فيفري/فبراير 2013 التقت حول الإيمان بمبدأ المساواة بين الجنسين، وكونية حقوق الإنسان. ومثلت الاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان الإطار المرجعي لإصدار الميثاق المشترك. وكان الالتزام بهذا الميثاق شرط الانضمام ل«تحالف من أجل نساء تونس». وقد عمل التحالف على التعاون مع اللجان النسوية التابعة للأحزاب السياسية، وأثمر هذا التعاون صياغة مسودة بديلة لمشروع الدستور الأول للبلاد.

وكان تحرك التحالف مثيرا للانتباه، خاصة في الاحتفال بعيد المرأة في 13 أوت/أغسطس 2011<sup>(22)</sup> ولم يكن هذا التحرك الجماعي احتفاء بصدور مجلة الأحوال الشخصية بقدر ما كان دفاعا عن قيم المساواة، والمواطنة، والكرامة،

(22) وضمّ آنذاك الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات، وجمعية النساء للبحث حول التنمية، ولجنة المرأة العاملة للاتحاد العام التونسي للشغل، وجمعية مساواة وتناصف، ولجنة المرأة بالرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان، ولجنة المرأة بفرع تونس لمنظمة العفو الدولية، وجمعية نساء وكرامة والمجموعة المغاربية 95 من أجل المساواة وصوت وصور المرأة، وجمعية النساء الحقوقيات.



والحفاظ على مكاسب التونسيات، وتطوير حقوقهن.

ولم تكتف الجمعيات النسائية بالتعبئة والتوعية والتنسيق والاحتجاج والضغط، وإنما عملت على تطوير أساليب عملها. فقد اختارت أن تدعو إلى حملة رفع العلم التونسي فوق كل بيت أو في كل سيارة احتفالاً بعيد الجمهورية 25 جويلية/ تموز 2013<sup>(23)</sup>، وهو تحرك مفهوم في ظل تنكّر الفئات المتشددة سواء من داخل التيارات السلفية أو الإسلامية للانتماء الوطني بل ذهب عدد من نواب النهضة أو الموالين لهم إلى الامتناع عن الوقوف عند أداء النشيد الوطني، أو الاحتفال بعيد الاستقلال إلى غير ذلك من السلوكيات المثيرة للاستهجان. لعل أهمها حادثة تنزيل العلم الوطني من فوق مبنى كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة واستبداله بالراية السوداء للسلفية، الأمر الذي استفز طالبة «خولة الرشيدي» فجعلها تتسلق الحائط، وتشتبك مع أحد المتسيبين إلى السلفية وتعيد العلم<sup>(24)</sup>.

(ج) اللاعات الجدد.

وإذا نظرنا في الأشكال الفردية لتحرك النساء من أجل الدفاع عن حقوقهن تبين لنا أن فئة من الكاتبات، والناشطات الحقوقيات، والفنانات<sup>(25)</sup> قد نهضن بدور هام خلال المرحلة الانتقالية. وقد تفرّع هذا النشاط إلى كتابة المقالات التحليلية

(23) «في بادئة هي الأولى من نوعها: دعوات لرفع العلم»، مقال غير ممضى، بتاريخ 23 يوليو 2013، موقع الصباح نيوز.

http://www.assabahnews.tn/article (متاح بتاريخ 26-3-2014).

(24) «المرزوقي يكرم خولة الرشيدي ويطالب المجرم بتسليم نفسه»، موقع المصدر بتاريخ 12/03/2012. http://ar.webmanagercenter.com/

(25) نذكر من يبينهن على سبيل المثال حفيظة شقير، وسلسيل القليبي، وسلوى الحمروني، ولبلى طوبال، وسعيدة قراش، ونزيهة رجبية، ولبلى بن دبة، وألفة يوسف، ونائلة السليبي، ولطيفة الأخضر، ورجاء بن سلامة، وأمال قرامي، وسلوى الشرفي وغيرهن.

وقد كتبت سناء بن عاشور مثلاً ثلاثة تقارير عن علاقات النوع الاجتماعي خلال الفترة الانتقالية الأولى من خلال الصحف اليومية، تبين وجود تفاوت كبير بين النساء والرجال في التغطية الصحفية المتعلقة بالحملة الانتخابية، رغم انخراط النساء بقوة في العمل السياسي:

حظ النساء من التغطية في الصحافة المكتوبة: 7٪

حظ النساء من التغطية في المحطات الإذاعية: 8٪

حظ النساء من التغطية في المحطات التلفزيونية: 11٪



على أعمدة الصحف، والمواقع، وصفحات الفيسبوك، والمشاركة في بعض البرامج الإعلامية للتعبير عن وجهات نظرهن، وتقديم المحاضرات والدورات التدريبية، والمشاركة في منابر الحوار على شبكات التواصل الاجتماعي، ومناصرة الجمعيات في تحركاتها الاحتجاجية.

ولعلّه من المفيد أن نشير إلى بروز فئتين من الجمعيات في هذا المسار الانتقالي: دارسات القانون والحقوقيات اللواتي واكبن المسار تشريعياً فكن يقظات منبّهات إلى الانزياح والمخاطر، مفسّرات للقواعد الدستورية، والمرجعية الحقوقية الكونية، ومنتقدات للتناقضات. أما الفئة الثانية فهنّ الجمعيات المختصة في الفكر الإسلامي. فقد ساهمن في كشف التلاعب بالدلالات، ووضّحن الخلفيات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تكمن وراء دعوة حزب النهضة إلى فرض الشريعة، وتجريم الاعتداء على المقدّس، والتركيز على رعاية الدولة للأسرة.... بالإضافة إلى مواجهتهن لعدد من القيادات الدينية في المنابر الحوارية التلفزية والإذاعية. وقد عملت تلك الجمعيات على التأكيد على البعد البشري في العملية التأويلية لأحكام الشريعة، ونقل الجدل حول الشريعة من أفق التعالي الإلهي إلى تاريخية الظاهرة الدينية مذكّرات بالجهد الذي بذله الطاهر الحدّاد في هذا الإطار. ويمكن القول إنّها المرّة الأولى التي تتاح فيها الفرصة للأكاديميات بتوظيف معارفهن لخدمة النشاط الحقوقي بصفة عامّة، ونقلها من المجال الخاص بالجامعات إلى المجال العمومي الذي يسمح للجماهير بالتفاعل مع القضايا المطروحة والانخراط في النضال.

(د) قراءة في الاستراتيجيات المعتمدة.

وبالعود إلى هذه الاستراتيجيات نستنتج الآتي:

- ركّز الباحثون العرب والغربيون على أهمية استعمال التونسيات للإنترنت،

مفضّلين القول على صفحات الفيسبوك<sup>(26)</sup> التي استعملت للدفاع عن حقوق الإنسان للمرأة، والتعبئة، والحوار، وغيرها. ولم يفت بعض الدارسين الاهتمام بالتعريف بدور المدونات في المقاومة، والإشادة بتنمية قدرات النساء في هذا المجال، وطرق إفادتهن من الميديا الجديدة للتوثيق، والمواجهة، والتخطيط، والتثقيف وغيرها. فكانت الوسائل التواصلية أداة ناجعة لتحرك التونسيات، وجعل نشاطهن مرئيا إن كان ذلك على الصعيد الوطني أو العالمي. كما أنّ استهلاك الوسائط الإعلامية ساعد عددا من النساء على تشكيل ذواتهن، وممارسة الاختيار الحرّ، والفعل الإرادي وإقامة التحالفات.

– تميّزت هذه الاستراتيجيات بالتنوع والتجدّد خلال كلّ المسار. فقد استغلّت الناشطات بعض الحوادث للقيام بالتعبئة كحادثة اغتصاب عدد من الشرطيين لفتاة، وقد أعلن الناطق الرسمي لوزارة الداخلية بأنّه سيتم مقاضاة الفتاة بتهمة المساس بالأخلاق العامّة، وهو موقف أثار غضب الجماهير. وبالإضافة إلى ذلك حوّلت النساء الاحتفاء بعيدهن (13 أوت/ أغسطس) إلى مناسبة للاحتجاج، ولفت أنظار وسائل الإعلام العالميّة لما يحدث للتونسيات، إلى غير ذلك. والنساء إذ يتحركن لا يفوّتن فرصة للتنديد والتشهير بالتجاوزات، وهنّ يعين جيّدا أنّهن يبالغن في ردود أفعالهن، وأحيانا يضحّمن الحدث، بيد أنّ الأمر، من منظورهن، يستدعي ذلك التهويل من أجل كسب المعركة.

– تبدو طبيعة هذه الاستراتيجيات مزدوجة تنهل من معين عالميّ بفضل عولمة التحركات النسائيّة، والتشبيك، والأخاوتية النسائيّة (Sisterhood)، وتبادل خبرات

(26) Sami Zlitni & Zeineb Touati, «mobilization in Tunisia»

Journal of International Women's Studies, Volume 13, Oct-2012,

Issue 5 Arab Women Arab Spring, Article 6

نذكر من بين هذه الصفحات Social networks and women's

vive la femme Tunisienne; Forum des femmes Tunisiennes, préserver les acquis de la femme tunisienne....

Victoria A. Newsom & Lara Lengel, Arab Women, Social Media, and the Arab Spring: Applying the framework of digital reflexivity to analyze gender and online activism, Journal of International Women's Studies, Volume 13, Oct-2012.

Issue 5 Arab Women Arab Spring, Article 5

النساء، ولكنها ترجع في الوقت نفسه، إلى المخزون الوطني، والرأس مال الثقافي المحلي لتستلهم منه بعض الحكم، والعبر، والدروس، والآليات. فقد راجت على الفيسبوك أقوال مأثورة لـ «ناس بكري قالوا» توضح رؤية استباقية لتصرفات الناس أو ردود فعلهم إلى غير ذلك من المظاهر. وعلاوة على ذلك نظمت عدة فتيات مسيرات يرتدين فيها الزي التقليدي «السفساري»، وهو عبارة عن غطاء أبيض تلتحف به المرأة الحضرية تقلص استعماله، ولكنه عاد ليُستثمر في محاولة للدفاع عن الهوية التونسية التي تعرّض للتشويه بعد انتشار العباءات السود والنقاب، وغيرها من العلامات التي «تمشرق» حياة التونسيات. ولا يمكن التغاضي أيضا عن «سياسة الأجساد» وابتكارات الموضة التي وُظفت في هذا السياق إذ مالت فئة من التونسيات إلى تحويل العلم التونسي إلى نسيج تُحاط منه ملابسهن التي يشاركن بها المظاهرات.

– يعدّ النيش في الذاكرة الجمعية، والاستنجد بالمخزون الثقافي استراتيجية هامة في النضال إذ بفضل عرض شهادات النساء اللواتي عانين من نظام تعدد الزوجات، وإبراز مقاومة المناضلات للمستعمر وللتقاليد التي تحول دون تلقيهن العلم، فضلا عن إذاعة بعض الأغاني القديمة التي تسرد معاناة النساء... تمكّنت الأجيال الجديدة من أن تنتبه إلى خطورة الدعوة إلى التخلي عن مجلّة الأحوال الشخصية.



- أبرز نسق الأحداث قدرة النساء على الإبداع والابتكار وقد تجلّى ذلك في نظم الكلام الذي يردّد في الاحتجاجات، وفي كتابة الشعارات وفي التعليق على بعض الأحداث نذكر على سبيل المثال: «المرأة ثورة وليست عورة»، «المرأة التونسية شوكة في فم الرجعية»...

- تفهّم آليات المقاومة، وخطط وضع الاستراتيجيات في إطار تفاعل المحلي مع العولمي. فعلى سبيل المثال تحولت المظاهرات والاعتصامات إلى مشهد كرنفالي تقاوم من خلاله النساء الرجعية من خلال الاحتفاء بالزينة والألوان، ورفع الأعلام، والرقص إلى غير ذلك من الأفعال المعبرة عن حبّ الحياة. وهذه الآلية في المقاومة ليست من ابتكار التونسيات، بل هي من أشكال التعبير السائدة في المجتمعات الغربية.

وقد كشف بناء الاستراتيجيات عن استقلالية النساء في اتّخاذ قراراتهن، ومدى حرصهن على التحرك، وممارسة الضغط عبر امتلاك الفضاء العمومي. ثم إنّ ابتكار الاستراتيجيات وضّح مدى قدرة فئات من التونسيات على إعادة تشكيل ذواتها، وردّ الاعتبار لأهميّة الفعل في الواقع من منظور المواطنة الكاملة، ومعنى هذا أنّ الفعل الاجتماعي كان سلوكا مستندا إلى نمط من التفكير والإحساس، ومنظومة قيم ضاغطة تتجاوز الفرد لتعبّر عن المشترك.

ويتّضح أنّ مقاومة النساء سمحت بإحداث قطيعة مع سردية «الضحية»<sup>(27)</sup> التي تلتدّ أحيانا برواية حكايات العنف الممارس ضدها، وتبقى خاملة لا تحرك ساكنا. فقد استطاعت فئات من التونسيات تجاوز رد الفعل لتبدع وتبتكر وتضفي المعاني على الفعل الاجتماعي.

### 3- الحركة النسائيّة التونسيّة في ظل المسار الانتقاليّ: الديناميكيّة الجديدة

وفّرت الثورة للنساء فرصة البروز فكنّ مرثيات على صُعد عدّة. وبعد التعتيم المقصود الذي كان يمارسه نظام 'بن علي' ضدّ الخارجيات عن السرب اللواتي

Nadine Sika, «The Role of Women in the Arab World: Toward a New Wave of Democratization, (27) or an Ebbing Wave toward Authoritarianism?» *Journal of International Women's Studies*, Volume 13, Oct-2012.

Issue 5 Arab Women Arab Spring, Article 1

رفضن دخول بيت الطاعة. ها هنّ العاشقات لتونس ينطلقن بعد أن استفزهنّ مناخ العنف والتهديد بالتقليص من المكتسبات فجعلنّ يؤازرن بعضهن البعض ويعملن معا. ولولا كثرة التحديات التي واجهتها النساء، وحضور المخاوف ما كان بالإمكان ابتكار الاستراتيجيات، وتنويع التحركات، وإنتاج الأفكار، وتحقيق المراد.

وقد سمحت المرحلة الانتقالية للمجتمع باكتشاف قدرات فئات من التونسيات والوقوف عند تجارب امتلاك الصوت. فساء كثر، من مختلف الشرائح العمرية والانتماء الجهوي، والثقافي، والطبقي شددن إليهنّ الأنظار من خلال الجراءة، وبلاغة العبارة، وقوة المحاجة حتى أطلق عليهنّ «حرائر تونس» وكثرت الإشارة إليهنّ بـ: «نساء بلادي نساء ونصف».

ولئن ظلّت الإسلاميات مغيبات عن الأنظار طيلة عقود فإنّ المرحلة الانتقالية أبانت عن قدراتهنّ، وتحمّسهنّ لإنشاء الجمعيات التي تعبّر عن تصوّراتهنّ. وقد شجعهنّ نجاح عدد منهنّ في الترشّح للمجلس التأسيسي على العمل. وسمحت تجربة دخول المجلس لهؤلاء النهضائيات بالتدرّب على المفاوضات، والحوار، وكيفية البروز في وسائل الإعلام، والمؤتمرات إلى غير ذلك من المهارات<sup>(28)</sup>.

وفي المقابل ظهرت تونسيات لا تؤمنّ بالمكاسب، والحقوق أو هنّ تؤمنّ بمنزلة أخرى روّجت لها تيارات السلفية، وأدعياء الفكر الوهابي. وهكذا تحرّكت المدافعات عن النقاب، والفصل بين الجنسين، والراغبات في العيش تحت دولة إسلامية تطبّق 'شرع الله'، وتوقف العمل بالاتفاقيات والمعاهدات، وتصالح النساء مع «البيتوتة»، ولا تمنع حقّ الرجال في التعدّد<sup>(29)</sup>.

والجدير بالإشارة أنّ الثورة هتكت ستر فئة من الرجال فيسرّ التمييز بين المؤمنين فعلا بمواطنة المرأة، والمدّعين. وسمح السياق الجديد بخروج رجال بتصوّرات قروسطية، وهيئات أفغانية من كهوفهم يرفعون العصي بوجه «بنات بورقيبة» (الفاسق والكافر)، راغبين من وراء ممارسة مختلف أشكال العنف تأديب سليطات اللسان، والمستقويات بمجلة الأحوال الشخصية، والانتقام من واقع جعل التونسيات في

(28) تحصّلت النساء على نسبة 25% من المقاعد داخل المجلس.

(29) نبيل صالح، «تونسيات لا تُرضيهنّ «المساواة» في الدستور - 11-01-2014، مدونة الجمل بما حمل

[/http://aljaml.com](http://aljaml.com)

الصدارة معرفة وعملا وكدحا، متمسكات باستقلاليتهن فخورات بمكتسباتهن.

وفي مقابل هذه الحركة التي تشدّ إلى الوراء انتعش الفكر النسويّ من خلال تأسيس جمعيات جديدة، والكتابة من منظور نسويّ وحقوقيّ، نلمس ذلك من خلال مختلف الصور، والنصوص، والأقوال المأثورة، ومقاطع الفيديو واليوتيوب، المتداولة على موقع الفايسبوك التي تحتفي «بنوال السعداوي»، و«أحلام مستغانمي»، و«سيمون دي بوفوار»، و«فرانسواز هيريتي»، وغيرهن. وظهرت أيضا محاولات لإنعاش الذاكرة الوطنية تتحدّث عن شخصيات تاريخية كعليسة والكاهنة، وتعدّد مآثر زعماء ومناضلات كالطاهر الحداد» والزعيم «بورقيبة»، و«راضية الحداد»، و«بشيرة بن مراد»، و«منويّة الورتاني»، و«توحيدة بن الشيخ» وغيرهم.

وتعدّ حركة المدّ والجزر أهمّ ميسم للحركة النسائية. فكلّما سارت الناشطات خطوة إلى الأمام حدثت الانتكاسة، وكلّما أحبطن زاد عنادهن وإصرارهن على نيل حقوقهن. وكانت اللحظة التي قرّرت فيها الأغلبية داخل المجلس التأسيسيّ العدول عن المساواة بين الجنسين، واستبدالها بالتكامل اللحظة المفصلية في مسيرة الحركة النسائية. فقد أدركت التونسيات حينها أنّ الوعود التي قطعت، وإقرار الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي يوم 11 افريل/ أبريل 2011 مبدأ التناصف (رجال/ نساء) في مستوى الترشّح لانتخابات المجلس التأسيسيّ، والترحيب بتأنيث الفضاء العامّ السياسيّ إن هي إلاّ إجراءات ظرفيّة يمكن استبدالها حسب انقلاب موازين القوى.

وبعد أن ظنّت أغلب النساء أنّ التناصف حقّق لهنّ الريادة، وجعلهن فخورات بمكسب حلمت به الأمم الديمقراطيّة ها هنّ يتحوّلن إلى «مكّمّلات». وبعد أن توقّعت الناشطات تكاثف جهود جميع النائبات من أجل الدفاع عن حقوق النساء اكتشفن أنّ النهضاويات لم ينجحن في الغالب، في أن يكنّ نساء قبل كلّ شيء. فهن خاضعات ومأمورات بأوامر القيادات الذكورية عند التصويت وفي كلّ القضايا بما في ذلك ما يخصّهن. وبعد أن ظنّت الناشطات أنّ معركة الشريعة قد حسمت ها هي «الذكورية الأيديولوجية» تعود من جديد لتؤثّر في صياغة الدستور. نلمس ذلك في تسريب فكرة القوامة عبر تكامل الأدوار، والإلحاح على تصوّر المرأة داخل مؤسسة الزواج، والإعلاء من شأن الأمومة على حساب اعتبار المرأة ذاتا مستقلّة

ومواطنة فاعلة.

وقد تمثّل ردّ الناشطات على محاولات إحياء المنظومات القديمة في بيان تهافتها، فهي تنتزع المرء من واقعه لتحوّله إلى كائن مستلب بالإضافة إلى كونها لا تنسجم مع المسار الثوريّ الذي يحفز الفرد على التجدّد واستعادة فاعليّة سُلبت منه منذ عقود.

#### 4- تقييم التحرك النسائي

يقودنا التأمل في فاعليّة النساء إلى الوقوف عند الاستنتاجات الآتية:

- شاع التعميم في أعمال الباحثين الذين رصدوا تحرك التونسيات في الثورة وبعدها. فقد تحدّث هؤلاء عن التونسيات دون اهتمام يذكر بتحديد هوية الفاعلات وفق معايير السنّ، والطبقة، والانتماء الجغرافي والسياسي والثقافي. ونذهب إلى أنّه من الضروريّ تكثيف البحوث الميدانية بهدف تبيان الفروق على مستوى الأداء. فالاستراتيجيات تبنى في ضوء تحديد المواقع والمكانة الاجتماعية والموارد المتاحة للقدرات على الفعل الاجتماعي فضلا عن نسق العلاقات الاجتماعية ومدى قدرة اللاعبات على التفاعل والتواصل وفق نسق من الرموز لعلّ أهمّها اللغة. وإنّ قارنا على سبيل المثال، بين مدى التزام الأجيال بالفكر النسويّ سنتبين اختلافا على مستوى الانتماء. فبينما تجاهر الأجيال الأولى بانتمائها إلى الحركة النسوية وتنزل مختلف أنشطتها ضمن هذا الإطار مع الإشادة، في الغالب، بالفكر البورقيسي، تعتبر فئة من الفتيات أنّهن يتحرّكن من موقع الإيمان بالمواطنة، ولسن بحاجة إلى التموّج ضمن الفكر النسويّ لأسباب تتطلّب دراسة معمّقة. والواقع أنّ التحركات النسائية في غضون هذه السنوات الأخيرة، تشي بتسرّب الفكر النسوي بطريقة ضمنية، إلى بنية المتخيل. فكم من فتاة لم تقرأ شيئا عن أساطين الفكر النسوي ولكنّها تصوغ خطابا أو تنخرط في نشاط يجسّد مبادئ النسوية. فهل معنى هذا أنّنا إزاء تشكّل نسوية جديدة نشأت بعيدا عن الأفضية المعتادة كالجمعيات النسوية أو الجامعات: نسوية ترفض التعامل مع المنظمات العالمية والمؤسسات الغربية لأنّها تؤمن (بسياسة الشارع) على حد تعبير «بايات» (Bayat 2007) «street politics» أي التحرك الميداني عبر الحضور



في الفضاء العام<sup>(30)</sup>؟

– سمح سياق المسار الانتقالي لناشطات، ومتقفات، وفنانات،... بالتلاحم بجموع النساء العاديات ليفعلن في الواقع، وليقمن بسدّ الفجوة التي كانت موجودة بين النخب وعموم النساء. وما كان بالإمكان تحقّق ذلك لولا إقدام الجمعيات بمراجعة مواقفها، واستراتيجياتها، وإدراكها لأهميّة العدالة الاجتماعية، والكرامة، والمساواة بين الجهات، فضلاً عن التزام النسويات بالدولة المدنيّة وقيم الديمقراطية التشاركية التي تفتح المجال أمام الجميع للتفاعل مع كل من الشأن السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

– لا مرأى في أنّ اللاعبات المتميّزات في هذا المسار الانتقالي، هنّ المتممات إلى الشقّ الحداثي أو الليبرالي أو العلماني أو اليساري. فقد عرفنا مهاجرات يضحين بمناصبهن، ويقدمن مصلحة البلد على مصالحهن الشخصية، ويقبلن بترك عائلاتهن، ويعشن حالة من عدم الاستقرار، بين تونس وفرنسا أو غيرها من البلدان، يدعوهن نداء الواجب إلى أن يكن حاضرات في هذا السياق التاريخي: يعتمدن ويهتفن، ويتكرن الشعارات... وفي المقابل لم تخض الإسلاميات معارك من أجل حقوقهن بل نزلن إلى الشوارع لشدّ أزر أحزابهن. ولئن عرفت الإسلاميات في مصر والمغرب والأردن وغيرها ظهور أصوات تناصر الأحزاب عبر صياغة تصورات فكرية فإنّ المسار الانتقالي لم يسمح ب بروز أصوات مماثلة في حزب النهضة أو في الأحزاب ذات المرجعية الدينية ذلك لأنّها تفتقر إلى نساء مثل نادي ياسين أو هبة رؤوف عزة... قدرات على إنتاج خطاب يبلور فكر الأحزاب. وفي المقابل برزت 'العلمانيات' اللواتي اتهمن بأنهن «ضحايا الفكر التغريبي» ونهضن بدور التوعية والتثقيف عبر شرح المنظومة الفقهية وأسس العمل التفسيري.

– تميّزت الفاعلات بواقعيّة جعلتهن يُعقلنّ مطالبهن فيتنازلن عن رفع سقف المطالب، ولكنهنّ تمسّكن «بالخيال الذي يؤسّس مشاريع اجتماعية جديدة، ويحوّل جمود المكان إلى قوة ديناميكيّة تدفع مجموعات كبيرة لارتجال آليات تحالف ومقاومة وبذلك لا يصبح الخيال قاصراً على الإبداع كما هو سائد بل

(30) يبدو أنّ نفس الظاهرة قد عرفت في المغرب مع حركة 20 فبراير إذ انخرط الشباب (من الجنسين) في النضال من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة لجميع المواطنين والمواطنات.

يتحوّل إلى جزء أصيل في النشاط اليومي للبشر»<sup>(31)</sup>.

- يمكن تصنيف الفاعلات إلى صنفين: الفاعلات المعروفات قبل الثورة، ولاعبات جدد برزن في الثورة وفي المسار الانتقالي. وقد تمكّنت تلك السيدات من تحقيق التفاعل بين النضال الميداني والنضال الافتراضي، وصياغة حقيقة مشتركة تدشّن مرحلة جديدة من تاريخ النضال، وترسي مرحلة نشئة اجتماعية - سياسية جديدة.

### 5- إنجازات مبتكرة

ما إن تمّت المصادقة على الدستور الجديد حتى انهالت تصريحات القيادات الحزبية، ونواب المجلس التأسيسي مؤكّدة تميّز هذا الدستور واعتباره أنموذجاً يقتدى به، لا سيما بعد إقرار مبدأي التناصف والمساواة. ولعلّ خطاب التمجيد يذكّرنا مرّة أخرى، بأنّ حقوق النساء تدرج ضمن خطاب «إنجازات» الحكومة وتضفي شرعية ما على النظام.

لقد تناسى المتفخرون بالدستور الجديد أنّه ما كان بالإمكان الوصول إلى صياغة هذه الوثيقة 'الحداثيّة' لولا الضغط الذي مارسه المجتمع المدني، والأداء المتميّز للنساء اللواتي ضحّين بأوقاتهم، وأموالهن، ودفعن الثمن حتى يحافظن على مكتسباتهن، ويحقّقن بعض النصر: فقد أكّد الفصل 46 التمسك بمكتسبات دولة الحداثة فيما يتعلّق بحقوق المرأة، وعلى وجوب السعي إلى تدعيمها فيما أرسى الفصل 21 صراحة مبدأ المساواة بين الجنسين في الحقوق والحريات، ونصّ على واجب الدولة في اتّخاذ التدابير التي تكفل القضاء على العنف ضدّ المرأة. ونذهب إلى أنّ ما أنجزته الفاعلات يتجاوز دسترة حقوقهنّ إلى تأسيس الفعل الوجودي: إنّها الذات القادرة على الفعل لا من منطلق البحث عن الاعتراف بل بهدف إثبات الوجود. فالفعل «يشعر الفرد بتحقيق ذاته بمجرد حضوره في كلّ حركة يقوم بها، وهو بذلك يشعر بوجوده»<sup>(32)</sup>.

وهكذا وجدت الحركة النسويّة فرصتها للتذكير بأنّها شريكة فعلية في الثورة

(31) شيرين أبو النجا، الحجاب بين المحلي والعولمي: هوية سياسية أم دينية؟ بيروت، المركز الثقافي العربي، 2008، ص 28.

(32) Tzvetan, Todorov, La vie commune. Essai d'anthropologie générale, Seuil, Points, Essais, Paris, (32) 1995, p. 179.

والبناء، وفي عملية الانتقال الديمقراطيّ فلا معنى لإرساء الديمقراطية دون تمكين النساء من حقوقهن، وإرساء العدالة الاجتماعيّة. ونذهب إلى أن ما ميّز مسار التحوّل الديمقراطيّ التونسيّ احتلال المساواة الجندرية منزلة الصدارة في النقاشات التي دارت حول شكل الدولة، ونمط الحكم، ومشروع المواطنة بالإضافة إلى تمكّن الناشطات من مواجهة النظام الاجتماعي، والنظام السياسي على حدّ سواء.

ولعلّ أهمّ مكسب تحقّق بالنسبة إلى التونسيّات علاوة على التناصف، والمساواة هو أن هذه التحديات زجّت بنساء من عامّة الشعب لا عهد لهن بالعمل الجمعيّاتي، في أنون النضال. فتمكّن من بناء هوياتهن والتعبير عن مطالبهن، وإدارة الخلافات. أضف إلى ذلك أنّهن حصلن على دربة على احتلال الفضاءات العامّة، وامتلاك الصوت، وعشن على مَرّ الشهور، المحنة تلو الأخرى: بحث أصواتهن، وانهمرت دموعهن، ولكنهن واصلن الكفاح من أجل غد أفضل تتغيّر فيه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ونرجّح أنّ هؤلاء النساء سيكن قادرات على الإدلاء بشهادتهن، وانتزاع حقّ تمثيل ذواتهن. فقد ساهمن في فكّ العزلة، وبناء المسار الانتقالي، وانتقلن من موقع الناقلات للأحداث إلى موقع الفاعلات في الواقع والصناعات للتاريخ. وتتمّ هذه القدرة على الفعل الاجتماعيّ عن مدى دخلنة النساء لعناصر الثقافة المدنيّة والسياسية ومدى تشبّعهن بثقافة حقوقية فضلا عن تأثير «شخصيات قدوة»<sup>(33)</sup> في متخيّلهن.

ويتّضح أنّ واقع الحركة النسائية التونسيّة يشهد تحوّلًا إن كان ذلك على مستوى حقّ التمثيل أو الخطاب الذي يصاحبه، أو هويّة المحتكرات حقّ الكلام باسم التونسيّات أو طبيعة الانتماء. فلقد أبان مسار التحوّل تفتيتًا وتشظيًا للأنا أو نحن (Fragmentation of the we) إذ ظهرت ناشطات مستقلات لا ينتمين إلى الجمعيات النسائية أدلين بدلوهن في التحركات دون شعور بأهميّة الانتماء الجمعيّاتي أو الحزبيّ ممّا يجعلنا نتساءل هل نحن إزاء مرحلة ما بعد النسويّة، وما بعد الحركة الحقوقيّة أم هي إرهاصات تشكّل نسوية جديدة خارج الحدود المتعارف عليها؟

(33) من هذه الشخصيات جميلة بوحيدر، الكاهنة، عليسة... وكذلك بعض الشخصيات الوطنية البارزة في وسائل الإعلام كراضية النصراوي، وكلثوم كنو، وغيرهن.

## قائمة المراجع

- أبو النجا شيرين، الحجاب بين المحلي والعالمي: هوية سياسية أم دينية؟ بيروت، المركز الثقافي العربي، 2008.
- العماري سنية بن جميع وشقرون حنان، تونسيات ومسار الثورة، تونس، منشورات الكريديف، 2013.
- Sika Nadine, «The Role of Women in the Arab World: Toward a New Wave of Democratization, or an Ebbing Wave Toward Authoritarianism?» *Journal of International Women's Studies*, Volume 13, Oct-2012, Issue 5, *Arab Women Arab Spring*, Article 1.
- Todorov. Tzvetan, *La vie commune. Essai d'anthropologie générale*, Seuil, Points, Essais, Paris, 1995.
- Petkanas (Zoe), *From Visible to Invisible: Tunisia's Gendered Democracy Paradox, CGHR Working Paper 3*, Cambridge: University of Cambridge Centre of Governance and Human Rights, (March 2013).

## المواقع

- «نساء تونس... بماذا يحملن؟» (متاح بتاريخ 12-3-2014)  
<http://www.youtube.com/watch?v=9BqNNcOLjjc>
- Dahmani (Frida), *Tunisie tout feu, tout femmes*, (23/07/2013) accessible 5-4-2014  
<http://www.jeuneafrique.com/Article/JA2740p052.xml0/>
- «هل تشرّع سهام بادي وزيرة شؤون المرأة الزواج العرفي؟» موقع المصدر بتاريخ 2012-2-1  
 ar.webmanagercenter.com- (متاح بتاريخ 6-4-2014)
- الهيشري عائدة، «حقوق ومكاسب المرأة في تونس ما بعد الثورة محل جدل واسع»، صدر يوم 07-03-2012، و متاح بتاريخ 6-4-2014 على الرابط التالي:  
<http://www.tuess.com/tap/121910>
- قرامي آمال، «حقّ مجاهدات النكاح في هبة أجسادهن للثوار»، موقع الحوار المتمدن، العدد 4225، بتاريخ 24/09/2013؛ و متاح بتاريخ 6-4-2014  
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=379409>
- قرامي آمال، «النساء والثورات والعنف»، موقع الحوار المتمدن، بتاريخ السبت 26 نوفمبر 2011، متاح بتاريخ 2-1-2014  
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=285240>

ورغي لمياء، «داعية سلفي: المرأة التونسية يمكن شراؤها بساندويش»، وكالة العصماء للأبناء، بتاريخ 26/07/2013؛ متاح بتاريخ 12-2-2014

[http://www.alassma.com/spip.php?page=imprimer&id\\_article=780](http://www.alassma.com/spip.php?page=imprimer&id_article=780)

المخلافي عبده جميل، «السلفيون في تونس: أقلية تخيف النساء والصحافة»، على شبكة الحوار نت الإعلامية، بتاريخ 06/12/2011؛ متاح بتاريخ 12-2-2014

[http://www.alhiwar.net/ShowNews.php?Tnd=23509#.UvPJefl5M\\_w](http://www.alhiwar.net/ShowNews.php?Tnd=23509#.UvPJefl5M_w)

LEDUC (Sarah), *Les Tunisiennes n'ont pas fini leur révolution*, (09/03/2012)

<http://www.france24.com/fr/20120307-tunisiennes-ont-pas-fini-leur-revolution-feministe-islamisme-ennahda-tunisie-journee-femme>

قيايتي محمد، «المرأة ومستقبلها تحت حكم الإسلاميين»، شبكة الأخبار العربية، دون ذكر تاريخ النشر، متاح بتاريخ 08 أبريل، 2014.

<http://anntv.tv/new/showsubject.aspx?id=49704>

بن مهني لينا، «المرأة التونسية» و«ثورة الياسمين»، موقع النهار، 24 تشرين الأول 2013، متاح بتاريخ 6-4-2014.

<http://newspaper.annahar.com/article/77856>

«في بادرة هي الأولى من نوعها: دعوات لرفع العلم»، مقال غير ممضى، بتاريخ 23 يوليو 2013، موقع الصباح نيوز. <http://www.assabahnews.tn/article> (متاح بتاريخ 26-3-2014).

«المرزوقي يكرم خولة الرشيدي ويطالب المجرم بتسليم نفسه»، موقع المصدر بتاريخ 12/03/2012، متاح بتاريخ 26-3-2014.

<http://ar.webmanagercenter.com>

صالح نبيل، «تونسيات لا تُرضيهن «المساواة» في الدستور»، 11-01-2014، متاح بتاريخ 26-3-2014. مدونة الجمل بما حمل <http://aljaml.com>

خدير مبروكة، مخاوف من تراجع حقوق التونسيات في ظل صعود الإسلاميين، موقع أخبارك، بتاريخ 8-3-2012. <http://www.akhbarak.net/articles/8282552> (متاح بتاريخ 26-3-2014).

<http://www.akhbarak.net/articles/8282552>

- Lewis, V., "Information Warfare and the Intelligence Community". Final Report of the Snyder Commission. 1997.
- Morozov, E., "The Net Delusion: The Dark Side of Internet Freedom". *Public Affairs*, U.S., 2011.
- Rid, T., "Cyber War Will Not Take Place". *Journal of Strategic Studies*, 35-1 (2012): 5-32.
- Shamah, D., " Hamas launches email assault". *Times of Israel*, November 2012. Accessed June 13, 2014. <http://www.timesofisrael.com/hamas-script-kiddies-send-israelis-threatening-email-messages/>
- Stiennon, R., "There is no cyberwar the way there is no nuclear war". *Forbes*. November 2011.
- "Israel Bans Social Network Use in Defense Forces". *The Journal*, October 2012. Accessed June 13, 2014. [http://www.thejournal.ie/israel-bans-social-network-use-in-defence-forces-37010-Oct2010/?r\\_dir\\_d=1](http://www.thejournal.ie/israel-bans-social-network-use-in-defence-forces-37010-Oct2010/?r_dir_d=1).
- Saad, S. et al., "Asymmetric Cyber-warfare between Israel and Hezbollah: The Web as a new strategic battlefield." Paper presented at the the ACM WebSci'11, Koblenz, Germany, June 2011.

## References

- Anonymous Group. #OpIsrael – Anonymous stands by Palestine in this time of war and grief. Accessed June 13, 2014. <http://anonrelations.net/anonymous-opisrael-95/>.
- Bazan, S. and Varin, C., "Web Science in the context of the Arab Near East". *Proceedings of the ACM WebSci'10: Extending the Frontiers of Society On-Line*. Raleigh, NC: US (2010).
- Boyer, B., "Le cyberspace, nouveau champ pour la géopolitique ?", *Stratégie dans le cyberspace*. Iris, Observatoire Géostratégique de l'information, 2012.
- Chauvancy, F., "War of Meaning, Cyberwar and Democracies". *Cyberspace and Information Warfare*. Ed. Daniel Ventre, Iste, Wiley (2011): 31-81.
- El Amine, S. et al., "Infowar in Syria: The Web between Liberation and Repression." Paper presented at the ACM WebSci'12, Evanston, USA, June 2012.
- Freeman, C., "Hasbara and Control Narrative as an Element of Strategy." *Middle East Policy Council*, December 2012. Accessed June 13, 2014. <http://www.mepec.org/articles-commentary/speeches/hasbara-and-control-narrative-element-strategy>
- From Gaza: "Suffering In Stories, Features, Articles and Photos". Accessed June 13, 2014. <http://gazatoday.blogspot.com>
- Fung, B., "Does the Israel Hamas Internet War Violate Twitters Terms of Service?" *The Atlantic*, November 2012. Accessed June 13, 2014. <http://www.theatlantic.com/international/archive/2012/11/does-the-israel-hamas-internet-war-violate-twitters-terms-of-service/265285/>.
- Gartzke, E., "The Myth of Cyberwar." *International Security*, 38-2 (2013): 41–73.
- Giacomello, G., "Measuring Digital Wars: Learning from the experience of peace research and arms control". *Infocon Magazine*, Issue 1. Accessed June 13, 2014. <http://www.iwar.org.uk/infocon/>
- Lewis, J., *Assessing the Risks of Cyber Terrorism, Cyber War and Other Cyber Threats*. Publications of the Center for Strategic and International Studies, December 2002.
- Kalb, M. and Saivetz, C., "The Israel-Hezbollah War of 2006: The Media as a Weapon in Asymmetrical Conflict". *The International Journal of Press/Politics* 12-3 (2007): 43-66.
- Klimas, L., "Israel and Hamas Engage in Social Media War". *Blaze*, November 2012. Accessed June 13, 2014. <http://www.theblaze.com/stories/2012/11/15/israel-and-hamas-engage-in-social-media-war/>
- Koplow, M., "How Not to Wage War on the Internet". *Foreign Policy*, November 2012. Accessed June 13, 2014. [http://www.foreignpolicy.com/articles/2012/11/15/how\\_not\\_to\\_wage\\_war\\_on\\_the\\_internet](http://www.foreignpolicy.com/articles/2012/11/15/how_not_to_wage_war_on_the_internet)

harness social media as one of their communication tools and therefore use social media as a platform to broadcast "a coherent message both in image and text, in support of the operational legitimacy"<sup>(28)</sup>. The contents posted can therefore be assimilated to propaganda as they are posted in conditions where each group tries to reply to the other without any trustful control of content.

## Conclusion

Throughout this paper we have tried to demonstrate the innovative aspects of Infowar in the Middle East conflict. Israel developed a real infowar strategy, unlike in previous conflicts with Hezbollah in 2006 and with Hamas in 2009, which were dubbed as failures on the communication front. Indeed, it is clear that the IDF use of social media has evolved towards a more direct control of the communication and they have gradually and carefully built up their presence on social media platforms and established these platforms as key weapons in the state's public relations arsenal. Hamas did not have a real communication strategy; In fact they led a defensive and reactive infowar against Israel. Furthermore, we noticed the emergence of new players such as Anonymous or Citizen Journalists that were not previously involved in the Israeli-Arab "online" conflict.

Web Science research provides an innovative interdisciplinary approach to understand the impact of the Web in new contexts, like infowar in the Middle-East. The Web applications create infinite and ever-evolving practices that transform traditional political and social structures and re-organize power relations all around the World. To provide the scientific community with a correct assessment of how the Web might be used as a battleground or as a weapon of mass annoyance, infowar researchers need valid and reliable data to scrutinize, use multiple indicators and gather data from multiple sources. But a clear definition of the boundaries of infowar would also be needed, especially if we consider that the BTKP rule does not apply to the Web context. These preliminary steps could lead the way to the creation of resources of reference for research and real-time observation of the evolution of infowar on the Web... far from the hype.

---

(28) François Chauvancy, "War of Meaning, Cyberwar and Democracies". **Cyberspace and Information Warfare**. Ed. Daniel Ventre, Iste, Wiley (2011): 31-81.



in #Gaza, shelling civilians & populated areas #Humanrights pic.twitter.com/hTKX3sDs (picture of a dead child) 10:49 AM - 15 Nov 12.

### 2.2.2.2 Win the psychological War

The use of online social media intensifies the degree of psychological warfare as these platforms become a virtual public sphere where the two parties can directly interact and influence each other. Israel and Hamas try to deepen the impact of what had been achieved against the enemy on the ground and boost the moral strength of its own troops and population by publicizing their military achievements. For example, the video posted by Al Qassam Brigades showing the launch of a Fajr 5 missile towards Tel Aviv for the first time revealed the will to weaken the confidence of the enemy. By directly threatening each other on social media platforms, in using the first-person plural personal pronoun "we" and the second-person personal pronoun "you", both sides compete in psychological warfare: IDF: "We recommend no Hamas operatives, whether low level or senior leaders, show their faces above ground in the days ahead." The answer from Izz al-Din al-Qassam Brigades: "Our blessed hands will reach your leaders and soldiers wherever they are".

Using Internet social networks is a means to disseminate information quickly and directly to a mass audience. Both parties to the conflict bypass traditional media and tell the story straight to the audience. This is also known as "Hasbara" on the Israeli side<sup>(26)</sup>.

### 2.2.2.3 Disinformation

Getting control of the narrative implies that, in this context, both parties delivered a message that is only deemed "productive" for their purpose<sup>(27)</sup>. In advancing both their own agendas, the parties in conflict do not necessarily fully disseminate information. In this war, both parties have shown an eagerness to

(26) Chas Freeman, "Hasbara and Control Narrative as an Element of Strategy", **Middle East Policy Council**, December 2012. Accessed June 13, 2014. <http://www.mepc.org/articles-commentary/speeches/hasbara-and-control-narrative-element-strategy>

(27) "Israel Bans Social Network Use in Defense Forces", **The Journal**, October 2012. Accessed June 13, 2014. [http://www.thejournal.ie/israel-bans-social-network-use-in-defence-forces-37010-Oct2010/?r\\_dir\\_d=1](http://www.thejournal.ie/israel-bans-social-network-use-in-defence-forces-37010-Oct2010/?r_dir_d=1).

This example raises the following question: What kind of civic responsibility does social media platforms have in the Middle-East situation; particularly in preserving its users' autonomy and privacy? Facebook states in its community standards that: "Safety is Facebook's top priority. We remove content and may escalate to law enforcement when we perceive a genuine risk of physical harm, or a direct threat to public safety. You may not credibly threaten others, or organize acts of real-world violence. Organizations with a record of terrorist or violent criminal activity are not allowed to maintain a presence on our site<sup>(24)</sup>". Groups like The Syrian Electronic Army, officially supported and recognized by the Syrian regime, is still ostensibly present on the social network even after several attempts by Facebook to remove their account.

## 2.2.2 New targets and objectives

The 2012 conflict between Israel and Hamas is characterized by its increased visibility and official status on social networks. If this conflict has introduced the use of new mobilization tools, communication goals remain the same as those of a conventional war.

### 2.2.2.1 Legitimize / Delegitimize the War

For both Israel and Hamas, the main goal was to win the public opinion war on both national and international level. For Israel, the use of social media was an effective way to legitimize its military action against Hamas and explain "the morality of the war it is fighting"<sup>(25)</sup>: "There are two main goals of this IDF operation: to protect Israeli civilians and to cripple the terrorist infrastructure in the #Gaza Strip." — IDF (@IDFSpokesperson Nov. 14, 2012. For Hamas, the main goal was to delegitimize the Israeli attack on Gaza and show its violence by posting, for example, images of wounded or dead children: Alqassam Brigades @AlqassamBrigade : #Israel's military kills #Palestinian children in cold blood

(24) Brian Fung, "Does the Israel Hamas Internet War Violate Twitters Terms Of Service?" *The Atlantic*, November 2012. Accessed June 13, 2104. <http://www.theatlantic.com/international/archive/2012/11/does-the-israel-hamas-internet-war-violate-twitters-terms-of-service/265285/>.

(25) Michael Koplow, "How Not to Wage War on the Internet," *Foreign Policy*, November 2012. Accessed June 13, 2014. [http://www.foreignpolicy.com/articles/2012/11/15/how\\_not\\_to\\_wage\\_war\\_on\\_the\\_internet](http://www.foreignpolicy.com/articles/2012/11/15/how_not_to_wage_war_on_the_internet)

### 2.1.3.1 Official accounts

For the first time in the Israeli-Arab infowar, traditional players have created official accounts to get their message through. The platform that was mostly used during this conflict is Twitter, with two official accounts @IDFSpokesperson and @alqassambrigades, for both mainplayers of the conflict. The IDF also started a string of Hashtags that were used quite extensively, with #pillarofdefense tweeting 88 tweets in just two days.



The Al-Qassam Brigades, on the other hand, was quite reactive. They directly answered to IDF several times, by confirming the death of one of their senior operative, and furthermore by threatening the IDF and telling them that they have "opened the gates of hell". Both parties have also used other platforms to put forward their narrative, one of the most flagrant being the video posted on YouTube of the attack that led to the death of Ahmad Al Jabari and the string of commentaries that followed from supporters of each side.

## 2.2 New Rules of engagement

In the aftermath of a "social media spying scandal", the IDF has bared most of its elements from using social media platforms and share information that may be deemed of military nature: Two years ago, a few IDF personnel had Facebook friends that were in fact covert Hezbollah operative who were able to monitor their movements and deployment through their social media feeds.

### 2.2.1 The "Terms of service" rule

Using Web platforms as new virtual conflict zones raises questions about the publications' content on the web. Most platforms are under increasing pressure from national legislations to bar heinous discourse. This didn't prevent the posting of the video of the attack on Ahmad Al Jabari by the IDF.

handful of independent Palestinian journalists who worked with a large range of media formats to provide footage and primary reporting for traditional and new media alike. One of these emblematic citizen journalists is SamehAkramHabeeb. During the conflict, Habeeb was constantly updating his "Gaza Today" blog<sup>(22)</sup>, which included a daily report with news and photos.

Another emerging actor in the asymmetric infowar is Anonymous<sup>(23)</sup>, the collective name of loosely-affiliated individuals that participate in hacktivism. Anonymous strongly opposes Internet censorship and surveillance and has hacked various government websites in many countries. It has also targeted major security corporations all over the world. On November 15th 2012, Anonymous began shutting down Israeli websites and launched the OpIsrael campaign. They attacked many Israeli websites in response to the IDF offensive in Gaza and claimed to have taken down at least 700 sites in less than 2 months. Using defacement tactics, they replaced webpages with messages condemning the Israeli campaign and expressing support for the citizens of Gaza.



### 2.1.3 New Tools

Israel's attack on Gaza opened a new chapter in the use of the web as a weapon for infowar. Both parties have resorted to tools underexploited so far within the context of conflicts in the Middle-East, like Twitter, YouTube or Instagram. The use of these new platforms is characterized by dualism in strategic definition, with, on one hand, official accounts belonging to official authorities and, on the other hand, social media individual profiles used to network and socialize. Impact is very high, but deceptive content added by the enemy could ruin users' confidence and trust.

(22) *From Gaza*: Suffering In Stories, Features, Articles and Photos. Accessed June 13, 2014. <http://gazatoday.blogspot.com>

(23) Anonymous Group. # **Op Israel – Anonymous stands by Palestine in this time of war and grief**. Accessed June 13, 2014. <http://anonrelations.net/anonymous-opisrael-95/>.

### 2.1.1 Traditional players

Following its tradition of efficiency in intelligence actions, Israel is today a major player in the infowar and one of the most influential players in cyberwarfare. The cyber dimension of warfare has officially been integrated in the Israeli defense strategy since the last conflict with Hezbollah in 2006. Preparing electronic warfare is among priorities of the Israel Defense Forces (IDF). They set up a military cyber command and opened a cyber-defense department. Moreover, the Official Israel Defense Forces spokesperson, Avital Leibovich, (Head of International Media and Communication Branch, IDF Spokespersons Unit) became the director of the department "Interactive Media IDF" just after the Israel-Gaza 2012 conflict. Whereas usually very discreet about their operations, Israeli forces decided to communicate massively via social media tools in the Israel-Gaza conflict<sup>(20)</sup>.

Facing the threat of cyberwar from Israel, Hamas, the Islamist organization that governs the Gaza Strip and its military wing, the Izz ad-Din al-Qassam Brigades, has certainly yielded in a more traditional war against Israel, but has also sought to use infowar techniques through the Al-Qassam Cyber Fighters. Hamas attempted to conduct deception attacks consisting primarily of fake e-mails and Facebook postings. For example, many Israeli citizens received false announcements from an "IDF Spokesman" warning that "if you opened these messages, terrorists in Gaza can geo-localize you" and "direct their Katyusha rockets at your location"<sup>(21)</sup>.

### 2.1.2 Emerging players

The concept of "citizen journalism" is an alternative and activist form of news gathering and reporting that functions outside mainstream media institutions. With foreign press not allowed entering the war zone, scarce electricity and very little Internet access infrastructure, the media dynamics in Gaza centered on a

(20) Liz Klimas, "Israel and Hamas Engage in Social Media War". **Blaze**, November 2012. Accessed June 13, 2014. <http://www.theblaze.com/stories/2012/11/15/israel-and-hamas-engage-in-social-media-war/>

(21) David Shamah, "Hamas launches email assault". **Times Of Israel**, November 2012. Accessed June 13, 2014. <http://www.timesofisrael.com/hamas-script-kiddies-send-israelis-threatening-email-messages/>

a new generation of weaponry. If the Web started as a hypertext network of information, it has become a network of socially organized people within virtual borders and turned into a useful tool to organize efficient aggression, repression or surveillance. Future conflicts in the Middle-East will systematically be defined by the use and the exploitation of these new non-conventional and asymmetric methods of aggression and counter-aggression. For example, during the first year of the uprising, Information warfare on the Web played an important role in the protest mobilization, but also in the repression organized by the regime. Web sites and social media platforms have been a weapon of choice for both dissidents and forces loyal to the Syrian Regime. But strategic efficiency is still difficult to evaluate: worldwide online coverage of atrocities committed by the regime has not provided the expected reaction by the international community and deceptive content provided by a disorganized opposition raised confidence doubts.

## 2.1 A new context: 2012 war in Gaza

Like in a classic warfare situation, belligerents learn strategic lessons from previous examples and the conflicts of 2006 in Lebanon and 2011 in Syria provided testing grounds for developing efficient response to asymmetric aggressions on the Web. In 2012, the short war between Israel and Hamas in the Gaza Strip brought new dimensions to infowar on the Web and its social media platforms. These new rules of asymmetric infowar could be described using Bertrand Boyer's typology of "the geopolitical players in cyberspace": the first type being the "traditional player" of asymmetric geopolitics such as state and non-state players, whereas the second type is the "emerging" born within Cyberspace<sup>(19)</sup>.



(19) Bruno Boyer, "Le cyberspace, nouveau champ pour la géopolitique?", **Stratégie dans le cyberspace**. Iris, Observatoire Géostratégique de l'information, 2012.

(mainly built around state structures or official think tanks and research centers) and hackers using specialized forums or Darknet sites to promote the technicalities of their achievements. Both sources have their own agendas and their information cannot be fully trusted. Furthermore, the growing number of states and non-states players involved in these actions like Anonymous or other groups, forms an unclear landscape: links or cooperation between players and cross-claimed actions make it really difficult to identify attacks and relate available data. Measuring infowar would need independent observers to validate:

- 1) The existence of the action, by identifying qualitative traces or quantitative distortions in usage,
- 2) A clear reading of the strategic intention by following available web content,
- 3) The availability of technical means in the hands of the attackers and
- 4) A precise evaluation of the damage done. Such a dataset would of course indicate the context of the attack, if related to direct conflict on the ground, or if the attack is just another event in an ongoing cyberwar.

It would also indicate if state and non-state players are involved in the attack: some countries might not have the technical proficiency to conduct certain types of attacks; meanwhile non-state players may need to regroup capabilities to perform actions more efficiently. Existing Web Science research could also be used to shed a new light on the reality of infowar: research methods related to trust (Metaxas 2010, O'Hara 2011, Vafopoulos 2011), gatekeepers and filtering (Jürgens et Al. 2011), cybercrime (Yip, 2011, Sugiura, Weber, 2012) and the Web observatory project<sup>(18)</sup> would eventually provide models and tools to store, analyze, "validate and interpret the data to advise industrialists, policy makers and the wider public as to its true significance". Finally, new research directions suggest that in the context of infowar, we might detect the creation of cyberwarfare Social Machines where players and crowds interact in various defensive or offensive ways.

## 2 - The new rules of asymmetric infowar in the Middle-East

An asymmetric war is a conflict opposing two unbalanced forces, most of the time a state against a non-state player. In this context, non-conventional methods are used, and Web-related actions are progressively considered as

(18) [http://wstweb1.ecs.soton.ac.uk/?page\\_id=1637](http://wstweb1.ecs.soton.ac.uk/?page_id=1637)

information through the public networks and security services-owned proxy servers<sup>(14)</sup>. Limiting access to foreign or independent information by technical means should be considered as an act of cyberwarfare, even if it doesn't imply the "offensive" intention of a cyberattack. But for different approaches that might consider the strict military definition of CNO, this type and many other types of cyberattacks on the Web do not fall under the "break things and kill people" rule (BTKP)<sup>(15)</sup>. This includes psychological warfare (PSYOP), open source intelligence, Web page defacement or hacktivism. These actions could give a strategic advantage to a belligerent that might eventually lead him to victory, but this situation is highly improbable.

Infowar on the Web appears in certain contexts and seems to have different strategic objectives than the more "traditional" examples of cyberattacks (DDOS, viruses, worms, Man in the Middle, etc.). Subnational, transnational and supranational organizations and groups<sup>(16)</sup> have a preference for Web targets: the visibility they provide and their relative harmlessness is a best choice for them, in strategic terms. Nevertheless, the violent nature of infowar on the Web might be observed in its ability to disrupt normal assessment of a situation by critical players, like the financial system or political decision. Deceptive content, alteration of data or information could lead to misreading of events and wrong decisions.

## 1.4 Measuring infowar

Major contributions to the subject were outlined in Giacomello's paper<sup>(17)</sup>. The author presents the example of "missions of peace" researchers who needed to provide dependable data "as counterbalance to the views expressed by national security communities and military analysts". Today, most of the data available on infowar operations comes from two main sources: the intelligence community

---

(14) Stéphane Bazan et al., "Web Science in the context of the Arab Near East". **Proceedings of the ACM WebSci'10: Extending the Frontiers of Society On-Line**. Raleigh, NC: US (2010).

(15) Giampiero Giacomello, **Measuring Digital Wars**.

(16) Marvin Kalb and Carol Saivetz, "The Israel-Hezbollah War of 2006: The Media as a Weapon in Asymmetrical Conflict". **The International Journal of Press/Politics**, 12-3 (2007): 43-66.

(17) Giampiero Giacomello, **Measuring Digital Wars**.



*has attracted considerable attention, but to date, it has meant little more than propaganda, intelligence collection or the digital equivalent of graffiti, with groups defacing each other's websites. No critical infrastructures have been shut down by cyberattacks".*

## 1.2 Identification and measure

The third level concerns methodology: how do we measure infowar, in terms of types of actions, frequency and efficiency? A 2003 paper by Giacomello<sup>(13)</sup> suggests that it should be possible to measure cyberwars. "In democratic countries, it should even be possible to compare different measurements and include the public in an open discussion. But research on digital wars takes place in closed laboratories and feeding public opinion with unverifiable data and the media with "*ad hoc*" anecdotes seem common developments in several countries".

The main questions behind infowar research lie in the difficulty to observe and independently measure it: like any information related to strategic issues, data is scarce and most of the sources use deception techniques or amplification of assessment, in order to guarantee efficiency. Many authors [8, 9] are questioning the reality of infowar, due to the lack of independent scientific tools to evaluate the true impact of cyberattacks.

## 1.3 The Break Things, Kill People rule and infowar on the Web

The pivotal aspect of the nature of infowar resides in the capability of the attack to transform the balance of forces or imply destruction or killing of human beings. To define infowar on the Web, we need to delimitate what we call "the Web": Should we just consider the Web as a set of technologies (Hypertext, HTML, URLs, browser and HTTP servers) brought together by Tim Berners-Lee in 1990 or do we need to extend the Web to all kind of human activities created with it? A cyberattack could indeed reduce our capacity to link, share and post, learn or be informed of a situation through web sites by denying access to a server or limiting a server's capacities.

In the context of the cyberwar in the Middle-East, official telecommunication structures are heavily controlled by public stakeholders: they control access to

---

(13) Giampiero Giacomello, **Measuring Digital Wars**.

makes little sense without considering how Internet conflict will accomplish the tasks commonly addressed by terrestrial warfare. To supplant existing modes of conflict, cyberwar must be capable of realizing the political objectives, to which force or threats of force are commonly applied, something that in important respects, cyberwar fails to do. Cyberwar is much more likely to serve as an adjunct to, rather than a substitute for, existing forms of political violence. Indeed, rather than threatening existing hierarchies, cyberwar appears much more likely to augment the military advantages of status quo powers"<sup>(10)</sup>. If authors do not agree on the definition of infowar, they all agree that most countries did have an "awakening" at some point in recent times and "are only now beginning to see attempts to deal with the inherent vulnerability in critical infrastructure and government military networks"<sup>(11)</sup>.

### 1.1 The Web as a multiplier effect

A second level of complexity comes with the technical nature of infowar and raises the following question: does cyberattacks target the Web or is the Web just another collateral asset to multiply the effect of larger scope objectives? To answer this question, we need to make a clear difference between cyberattacks and warfare actions that target the communication structure (the Internet) and infowar tactics on the Web itself. This distinction was clearly illustrated by the famous "weapons of mass annoyance" notion phrased by Stewart Baker<sup>(12)</sup> and explained by James Lewis: "*Much of the early work on the 'cyber threat' depicted hackers, terrorists, foreign spies and criminal gangs who, by typing a few commands into a computer, can take over or disrupt the critical infrastructure of entire nations. This frightening scenario is not supported by any evidence. Terrorist groups like Al Qaeda do make significant use of the Internet, but as a tool for intra-group communications, fund-raising and public relations. Cyber terrorist could also take advantage of the Internet to steal credit card numbers or valuable data to provide financial support for their operations. Cyber-terrorism*

(10) Erik Gartzke, "The Myth of Cyberwar". **International Security**, 38-2 (2013): 41-73.

(11) Richard Stiennon, "There is no cyberwar the way there is no nuclear war". **Forbes**. November 2011.

(12) James A. Lewis, "Assessing the Risks of Cyber Terrorism, Cyber War and Other Cyber Threats". **Publications of the Center for Strategic and International Studies**, December 2002.

could easily be transformed into battlefields to make strategic gains: the regime used fake accounts and deception techniques to identify rebels, denature their claims and create confusion. These actions had direct impact on the ground: arrests, torture and physical elimination. We also witnessed in this context the first official recognition by a state leader that his regular army was supported online by an "Electronic Army", the first of its kind in the region. The structure of the Internet access in Syria and the open and distributed nature of the Web helped this army to invade the virtual space to wage a war against online mobilization: the previous lessons of Tunisia and Egypt<sup>(6)</sup> were learned by the Syrian regime.

Information warfare in its broadest sense is "a struggle for the information and communications process, a struggle that began with the advent of human communication and conflict". It also can be defined as the "application of destructive force on a large scale against information assets and systems, against the computers and networks that support the four critical infrastructures (the power grid, communications, financial, and transportation)"<sup>(7)</sup>. Existing research on infowar raises more questions than provide answers. From Sun Tzu and Clausewitz to more recent definitions of digital wars, information operations (IO) or computer networks operation (CNO), information warfare is a catch-all concept and "scholars should improve the research agenda on CNO to include more rigorous studies and thus contribute to reversing the hype and misinformation that now surrounds such important topic"<sup>(8)</sup>.

On a fundamental level and following Thomas Rid's clarion call that "cyberwar will not take place"<sup>(9)</sup>, there is a growing debate on the nature of "electronic wars". Erik Gartzke talks about the "myth of cyberwar" [9] and explains that "studying what could happen in cyberspace (or anywhere else)

(6) On the 28<sup>th</sup> of January 2011, Organisations that track global internet access detected a collapse in traffic in to and out of Egypt at around 10.30GMT. The shut down involved the withdrawal of more than 3,500 Border Gateway Protocol (BGP) routes by Egyptian ISPs, according to Renesys, a networking firm.

(7) Vernon B. Lewis. **Information Warfare and the Intelligence Community**. Final Report of the Snyder Commission. 1997.

(8) Giampiero Giacomello, "Measuring Digital Wars: Learning from the experience of peace research and arms control". **Infocon Magazine** Issue 1. Accessed June 13, 2014. <http://www.iwar.org.uk/infocon/>

(9) Thomas Rid, "Cyber War Will Not Take Place". **Journal of Strategic Studies**, 35-1 (2012): 5-32.

Our ongoing observation aims at showing that infowar evolves from one context to another, that new forms of cyberwarfare emerge with new tools and new usages to create and define new strategic opportunities.

## 1- Infowar on the Web

The Interdisciplinary Research Unit in Web Science (UIR) at Saint-Joseph University of Beirut (USJ) answered the 2006 Web Science call for interdisciplinary research<sup>(3)</sup> to understand the Web and its impact on society, with a specific approach: the Web is one, but the experience is quite different depending on where you are in the world. This "contextual" dimension is almost inevitable when you observe the Web in the Middle-East. Cultures, languages, history and politics create distortions and alter the global trends of Web impact and usage. Web players in the Middle-East include cyber armies and non-states players who use networks, computers, protocols and HTML code to support their political advantages, protect their assets and control their populations and supporters. There seems to be no debate about the nature of these actions even if cyberattacks in the context of digital infowars are often considered as weapons of mass annoyance.

Our previous researches<sup>(4),(5)</sup> on the use of the Web as a weapon to create strategic advantages in asymmetric conflicts provided the Web Science research community with original insights in what War on the Web could look like from a contextual point of view. The first context was the 2006 war between Israel and Hezbollah and we demonstrated at the time that the Web was deliberately used by belligerents as a strategic platform to gain strategic advantage through infowar. The second study aimed at understanding the rules of engagement on the Web in the tragic context of the Syrian civil war. Considered as the first example of "civil infowar", the Syrian war proved that the Web and Social Media platforms

- 
- (3) Stéphane Bazan and Christophe Varin. "Web Science in the context of the Arab Near East". **Proceedings of the WebSci10: Extending the Frontiers of Society On-Line**, Raleigh, NC: US, April 26-27<sup>th</sup> (2010).
  - (4) Sabrine Saad et al. "Asymmetric Cyber-warfare between Israel and Hezbollah": The Web as a new strategic battlefield". (Paper presented at the ACM WebSci'11, Koblenz, Germany, June 2011).
  - (5) Sofia El Amine et al. "Infowar in Syria: The Web between Liberation and Repression." (Paper presented at the ACM WebSci'12, Evanston, USA, June 2012).

## Introduction

The Middle-East region is known throughout the World for its ongoing political and military conflicts. Since 1948, the region has witnessed many forms of confrontations, but recent ones have found new strategic orientations with the development of Web access and literacy, among local populations. Increase in networks speeds and democratization of Internet connections since 2005 have created new opportunities for online mobilization and information warfare. Organized and efficient usage of Online Social Media platforms has altered the political landscape in many countries of the region, during the 2009 -2011 period now called the "Arab Spring"<sup>(1)</sup>. Even if the "Google Doctrine's", described by Morozov as "the enthusiastic belief in the liberating power of technology accompanied by the irresistible urge to enlist Silicon Valley start-ups in the global fight for freedom"<sup>(2)</sup> is largely criticized today, it's an established fact that Web platforms and tools, used by citizens or governments, have created new virtual zones of conflict. To evaluate what is really going on in these new zones requires a clarification of several misunderstandings in definitions of information warfare and cyberwarfare.

This paper offers methodological directions to identify actions and measure their impact in the specific context of the Web. Research on Information Warfare on the Web is still at an early stage and the question of the true nature of cyberwarfare actions that target the Web needs to be answered on both conceptual and methodological levels. Existing research has proved that the Web is a new battlefield with specific strategic objectives, but research needs to create new assessment tools to validate the real impact of cyberattacks, especially when they target "soft" targets like Web sites or social media platforms.

- 
- (1) The term "Arab Spring" was first coined in 2005 by several authors in magazine's editorials (Christian Science Monitor, Der Spiegel, Foreign Policy). Dominique Moisi was the first author to entitle a column with "An Arab Spring?"
  - (2) Evgeny Morozov. "**The Net Delusion: The Dark Side of Internet Freedom**". (Public Affairs, U.S., 2011).

## المخلص

# حرب المعلومات على الشبكة العنكبوتية في منطقة الشرق الأوسط

سبرين سعد ، ستيفان بازان وأديس تسفا

تُعرّف منطقة الشرق الأوسط في العالم كمنطقة النزاعات السياسية والعسكرية، منذ العام 1948. وقد شهدت هذه المنطقة العديد من النزاعات، لكن جديدها يكمن في قدرة السكان المحليين على الوصول إلى شبكة الإنترنت ومعرفة استعمالها. إن زيادة سرعة الشبكة وعدد مستعمليها منذ العام 2005 قد وفّرت فرصاً جديدةً للحشد عبر الإنترنت ولحرب المعلومات. فالاستعمال المنظم والفعال لمنصات وسائل التواصل الاجتماعي قد غيّر المشهد السياسي في العديد من البلدان العربية بين العام 2009 و2011، خصوصاً خلال الفترة المسماة "الربيع العربي". إن محاولة تقييم ما يحدث حالياً في العالم العربي يحتاج أولاً إلى تعريف بشكل واضح مصطلحات حرب المعلومات والحرب الإلكترونية. يوفّر هذا البحث توطئة للاتجاهات المنهجية الذي يجب اعتمادها لتحديد النشاطات المرتبطة بالشبكة العنكبوتية وقياس أثرها في هذا السياق المحدد. إن الأبحاث المرتبطة بحرب المعلومات على الشبكة العنكبوتية ما زالت في مراحلها الأولى والسعي إلى تحديد ماهية النشاطات المرتبطة بحرب المعلومات على الشبكة يحتاج إلى العمل على المستوى المنهجي والعلمي.

الكلمات المفتاحية: الشبكة العنكبوتية؛ حرب المعلومات؛ الشرق الأوسط؛ الربيع العربي؛ البلدان العربية؛ لاعبون صاعدون.

# INFOWAR ON THE WEB IN THE MIDDLE-EAST

**Sabrina Saad, Stéphane Bazan  
and Addis Tesfa**

.(Université St-Joseph de Beyrouth (Liban)  
UIR Web Science – CEMAM  
uir.webscience@usj.edu.lb

## **Abstract**

*The Middle-East Region is presently known throughout the World for its ongoing political and military conflicts. Since 1948, the region has witnessed many forms of confrontations, but recent ones found new strategic orientations with the development of Web access and literacy, among local populations. Increase in networks speeds and democratization of Internet connections since 2005 created new opportunities for online mobilization and information warfare. Organized and efficient usage of Online Social Media platforms has altered the political landscape in many countries of the region, during the 2009 - 2011 periods now called the "Arab Spring." To clearly evaluate what is really going on in these new zones requires a clarification of several misunderstandings in definitions of information warfare and cyberwarfare. This paper offers methodological directions to identify actions and measure their impact in the specific context of the Web. Research on infowar on the Web is still at an early stage and the question of the true nature of information warfare actions that target the Web needs to be answered at both conceptual and methodological levels.*

**Keywords:** Information warfare; Web; Middle-East; players; emerging player; asymmetric war; Gaza Strip; Arab spring; Web Science.

# المرأة اليمنية من التهميش إلى الثورة

منى يحيى المحاقري

جامعة صنعاء ، اليمن

Yzmona@hotmail.com

## الملخص

مما لا شك فيه أن المرأة اليمنية لعبت دوراً بارزاً في احتجاجات 2011 وما يمكن الجزم به، هو أن حاجزاً من الخوف تحطم بخروج جموع وحشود من النساء اليمنيات إلى ساحات التغيير ومشاركتهن في المسيرات الاحتجاجية للمطالبة برحيل النظام. في ساحات التغيير بجوار جامعة صنعاء، خرجت النساء ربما لأول مرة في تاريخ اليمن.

كان شبخ الحرب الأهلية والافتتال الطائفي كفيلاً بإحداث الفزع في قلوب مجتمع بنيته التحتية هشّة وإمكاناته الاقتصادية ضعيفة. كثيرات ممن خرجن مؤيدات للحل السياسي ومؤيدات للانتقال السلمي للسلطة، تحسباً من وقوع اليمن في براثن الحرب الأهلية، تمّ إدراجهن في خانة المؤيدات للنظام، ولم يعتدّ بمشاركتهن ولا بخروجهن للميادين، وتمّ تجاهلن من قبل الإعلام الفضائي الخارجي، ومن قبل الجهد التوثيقي الداخلي والخارجي. لقد كان للمشاركة السياسية للمرأة في هذه الفترة الحرجة أولوية قصوى بالنسبة للنساء المتعلمات في المناطق الحضرية، في حين أن قرار مجلس الأمن رقم 2014 دعا كافة الأطراف المعنية «أن تكفل حماية النساء والأطفال، وأن تعزز مشاركة المرأة في حلّ النزاع، وأن تشجع كافة الأطراف على تيسير مشاركة المرأة مشاركة تامة وعلى قدم المساواة على مستوى صنع القرار». وبينما تؤكد المبادرة الخليجية على مشاركة المرأة في الفترة الانتقالية وأنه ينبغي تمثيل المرأة ضمن جميع الأطراف المشاركة، فإن غالبية النساء يشعرن أنه قد تم إهمالهن. إضافةً إلى أن انعدام الثقة في الأحزاب التقليدية، جعل النساء يشعرن بأن الأطراف المتنازعة السياسية ستوحد حول مسألة واحدة فقط هي إقصاء النساء.

كان من الواضح أن خروج النساء اليمنيات إلى الساحات، لم يبلور مطالب نساء اليمن الحقيقية في التغيير، ولم يتمّ تبني أية شعارات تقدّمية تتعلّق بتحرير المرأة.

وفي مجمل الأمر نجحت القوى المتصارعة في الساحة اليمنية المتمثلة في النظام والمعارضة في استغلال النساء كما اعتادت من قبل في الانتخابات البرلمانية. وقد أكّدت



المرحلة الانتقالية الحالية، أن أي من هذه الأحزاب لا يؤمن بأهمية مشاركة المرأة في صنع القرار في اليمن، فقد ظلت حشود وجموع النساء طيلة أيام الثورة مُسَيَّرَة ومُسيَّسة، وتمّ استغلال النساء والأطفال في أحيان كثيرة للتحايل على المجتمع الدولي لجلب الاستعطف والدعم. كما كانت معظم المهام التي توكل للنساء تتعلق بإعداد الطعام والخبز، والتمريض، وجمع التبرعات، وهي غالباً أدوار يغلب عليها الطابع التقليدي، ويغيب عنها الطابع القيادي، وتظل النساء في اليمن بعيدة عن المشاركة السياسية وعن مواقع اتخاذ القرار. حيث لا يزال القرار السياسي، وقرار الحرب والسلام قراراً ذكورياً بامتياز.

تقدّم هذه الورقة قراءة نقدية لواقع مشاركة المرأة السياسية في ثورة اليمن.

كلمات مفاتيح: الثورة؛ اليمن؛ النساء؛ التغيير، القراءة النقدية.

## Abstract

### The Yemeni Woman: From Marginalization to Revolution

Mona Yehya El-Mahakery

*There is no doubt women in Yemen played an important role in the protests of 2011, and certainly fear, as a psychological barrier, collapsed when groups of women left their homes to demonstrate in the squares of change. Women's participation in the demonstrations and their calls for the fall of the regime mark the first time in history that women of Yemen go public.*

*The ghost of the civil war and fear of sectarian fighting explain why women were scared in such a socially divided and economically weak society as Yemen. Women who sought a peaceful resolution and transition of the regime were considered allies of the Ben Ali regime. Thus, they were not considered among the participants in the squares and were neglected by the local and international media as well as observers. During this critical period, political participation was a priority for educated urban women, although the United Nations Security Council Resolution 2014 called on all parties «to secure the protection of women and children, to empower women's contribution in conflict resolution, and to encourage all parties to facilitate, in full capacity, the gender equality on the level of making of decisions.» Similarly, the Gulf countries' initiative confirmed women's participation during the transitional period. Most women, however, realized that they were marginalized. In addition to the lack of trust in the traditional parties, women felt that the conflicting political sides would only agree on the political*

*exclusion of women.*

*It is clear that the participation of women in the squares did not contribute to formulating demands for change nor to the adoption of progressive slogans about the emancipation of women.*

*In general, the conflicting parties on the Yemeni political scene, the regime or the opposition, successfully exploited women as was always the case before the parliamentary elections. This transitional phase confirms that not one single party believes in the participation of women in decision-making and women have remained under male political leadership. Further, women and children were exploited to attract the international community for funding and women's work in the squares included preparing food and bread, nursing, and fundraising; such roles by women are considered traditional and tied with the provision of care not leadership. Women in Yemen are still far from reaching the position of decision-makers, whereby the political decision of making war or peace remains a man's decision par excellence.*

*This paper presents a critical reading of the political participation of women in Yemen during the revolution.*

**Keywords:** Revolution; Yemen; women; change.

## مقدمة

يكتسب الحديث عن الثورات في زمن الربيع العربي، أهمية بالغة، ذلك أن تلك الاحتجاجات القوية المختلفة التي شهدتها بلدان الربيع العربي، ومن بينها اليمن، لا شك أحدثت تغييرات جذرية وأساسية في بنية النظم السائدة، ولكن تقييم مدى نجاح هذه الثورات، وقياس ما أحدثته هذه الاحتجاجات الشعبية القوية من تقدم إيجابي، هو أمر قد يصعب تلمس آثاره على المدى القريب.

لقد كانت اليمن واحدة من البلدان التي عصفت فيها رياح التغيير، وربما كانت أكثر بلدان الربيع العربي حاجة إلى مثل هذه العواصف، لخلخلة بنية التركيبة القبلية التي يستند إليها النظام الحاكم في اليمن والتي ظلت لأكثر من ثلاثة عقود تحمي النظام الحاكم وتتنفع منه في الوقت نفسه<sup>(1)</sup>.

إن مشاركة النساء والشباب مثلت أبرز ملامح الثورة الشبابية الشعبية السلمية في اليمن، والتي انطلقت شرارتها من صنعاء في الحادي عشر من فبراير من عام 2011، وقد تلت ثورة التغيير التونسية وكانت مرتبطة بها. وكانت أكثر تأثراً بثورة 25 يناير المصرية، حيث تم تبني آليات مشابهة من خلال الاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي (الفيس بوك خصوصاً)، كمنطلق رئيسي للتخطيط والدعوة لها، والدعوة للاعتصام في الميادين العامة ونصب المخيمات والإقامة فيها، وتبني ورفع نفس الشعارات التي تطالب بسقوط النظام ورحيله.

(1) تمثل مصلحة رعاية شؤون القبائل واحدة من أهم المؤسسات في الدولة، والتي ينفق عليها ما يقارب 13 مليار ريال يمني يتم اعتمادها في موازنة الدولة كل عام، مليون ريال شهرياً. مصلحة شؤون القبائل هي مصلحة يمنية أسسها الرئيس السابق علي عبد الله صالح في مطلع الثمانينيات كجهاز لتنظيم توزيع «الربيع» على النخب القبلية، وأسس لها فروعاً في كل محافظات اليمن. إنها مصلحة لا يوجد قانون ينظمها، وتُدار وفقاً لتعليمات شخصية مباشرة، تقدّم عطايا مالية شهرية منتظمة لشيوخ القبائل. بعد مطالبات ومسيرات شعبية عديدة للمطالبة بإلغاء المصلحة والحفاظ على ميزانية الدولة، تعهد رئيس وزراء حكومة الوفاق محمد سالم باسندوة بإيقاف التحويلات المالية لشيوخ القبائل عبر «مصلحة شؤون القبائل» الحكومية وهي المصلحة الحكومية الوحيدة من نوعها في العالم. إلا أن الرئيس عبد ربه منصور هادي استفاد من القبائل خلال حربه التي شنها على ما عرف باسم جماعة أنصار الشريعة في أبين، مما يشير إلى صعوبة الولادة الجديدة التي ارتقبها شباب ساحات التغيير.

كان المناخ العام والوضع الاقتصادي المتردي، والفساد المالي والإداري في اليمن قد بلغ أوجه، ولعل أبرز المطالب التي صاحبت خروج أولى موجات احتجاجات الشباب، كانت أمام بوابة جامعة صنعاء في مطلع شهر فبراير 2011. طالبت بمحاربة البطالة بين الشباب، وزيادة عدد الدرجات الوظيفية المخصصة للخريجين الجدد. وكان من نتائجها المبدئية أن أصدر الرئيس السابق علي عبدالله صالح قراراً باعتماد ستين ألف درجة وظيفية، محاولاً بذلك احتواء هذه الاحتجاجات<sup>(2)</sup>.

لم تكن هذه الخطوة كافية في نظر الشباب المحتجين، عندها أخذت الاحتجاجات مسارها المختلف حين بدأت القوى القبلية التقليدية والأحزاب السياسية المعارضة، تحاول الاستفادة من هذا الحراك الشعبي العفوي، لتحقيق أهدافها السياسية للنيل من النظام الحاكم. وسرعان ما اتسعت الدائرة ليضم المشهد اليمني لاعبين إقليميين وجدوا في اليمن، بحكم موقعها الاستراتيجي في جنوب الجزيرة العربية، مكاناً مناسباً لإدارة صراعات خلفية وتصفية حسابات سياسية.

تعد أحداث 18 مارس، وهي ما عرفت بأحداث «جمعة الكرامة»، مرحلة مفصلية في مسار الثورة السلمية الشبابية.

وما تزال خيوط هذه القضية عالقة، ولم يتم تحديد مرتكبي جرائم القنص وقتل المتظاهرين السلميين في ساحة التغيير إذ تحوّل مسار الثورة الشبابية السلمية بعدها، وظهر جلياً الالتفاف الحزبي على ثورة الشباب.

### نساء في دائرة الضوء في ساحة التغيير

ما تزال صورة مشاركة النساء اليمنيات في الاحتجاجات التي شهدتها اليمن في عام 2011 ماثلة أمام أعين الجميع.

صور مبهرة لحشود من النساء المنقبات والملتحفات بالسواد، يلوحن بأعلام اليمن، يؤشرن بأصابعهن الملونة، رافعات علامة النصر، ويهتفن بمطالب التغيير.

(2) أعلنت الحكومة اليمنية في أواخر فبراير/ شباط عن نيتها بتوظيف 60 ألف مواطن في خطوة لمساعدة الخريجين العاطلين عن العمل وتحسين مستوى الخدمة العامة. وجاءت هذه المبادرة ضمن حزمة إصلاحات شملت زيادة رواتب موظفي القطاع العام ومنحهم العلاوات السنوية المتوقفة منذ العام 2005. وشكلت هذه الإجراءات خطوة تمهيدية لتهدئة الشارع اليمني الذي كان لا يزال يشهد تظاهرات تطالب بإسقاط النظام.

صورة لم يألفها المجتمع اليمني من قبل، مجتمع قبلي محافظ، لا ينظر للمرأة إلا في نطاق مفهوم "العورة": صوت المرأة عورة - يد المرأة عورة - وجه المرأة عورة.

صورة مبهرة اجتذبت عدسات الكاميرات الصحافية والفضائية من كل أنحاء العالم، مادة طازجة لمجتمع بكر، تخرج نساؤه للمرة الأولى إلى الميادين والساحات العامة مطالبة بالتغيير السياسي وبإسقاط النظام الحاكم تحديداً.

أفلام وثائقية عديدة شاركت في مهرجانات عالمية ورُشّحت للجوائز ترصد ملامح غريبة لمشاركة النساء اليمنيات في ثورة الربيع العربي، مثل فيلم «الصرخة» للمخرجة اليمنية الفرنسية خديجة السلامي<sup>(3)</sup>، وفيلم «ليس للكرامة جدران» للمخرجة اليمنية الشابة سارة إسحاق<sup>(4)</sup>.

شكّل الأطفال الملمح الآخر والمكمل لهذه الصورة المبهرة، أطفال يلعبون في الساحات ويلوّحون ببالونات ملونة، يطالبون هم أيضاً بإسقاط النظام. لم يقف الأمر عند هذا الحد بل رأيناهن ورأيناهن (النساء والأطفال) يسيرن في مقدمة

(3) حشود غفيرة منقسمة إلى قسمين، الأول متشح بالكامل بالسود، بينما الثاني تتعدد ألوانه. فيلم المخرجة اليمنية خديجة السلامي "الصرخة" يمضي داخل تلك الحشود النسائية، ليضيء على دور المرأة اليمنية في هذا الحراك الذي أفضى إلى تنحي الرئيس اليمني علي عبد الله صالح. لكن تلخيص الفيلم بذلك فقط سيكون جزءاً صغيراً جداً مما تسعى المخرجة إلى تقديمه، فما يشغل هذا الفيلم ليس التغيير السياسي فقط، بل الاجتماعي وحالة المرأة اليمنية في مجتمع محافظ. كان حضور المرأة في المظاهرات والاحتجاجات خطوة جريئة بادرت إليها المرأة اليمنية، وبالتالي وجدت، وربما للمرة الأولى، مساحة للحلم، ومساحة أيضاً لتقول وتصرخ عالياً بما تتوق إليه. وهو ما شكّل المساحة الحيوية للفيلم، وذلك عبر التركيز على شخصيات رئيسة تتبع أدوارها أثناء الثورة وما آلت إليه بعدها، وما سعت المرأة اليمنية إليه، وما وقف حائلاً بينها وبين تحقيقه، إضافة إلى النظرة الذكورية لأحلامهن، يتناول الفيلم أيضاً ما بعد الثورة، وهنا تحضر الإشكالية التي يتبناها الفيلم، حيث يقارن بين ما قبل وما بعد، وليقول لنا إن أولى نتائج الثورة كان ممارسة المزيد من قمع المرأة، والسعي إلى إعادتها إلى بيتها من جديد، وإخراص صرختها أو صوتها.

(4) "ليس للكرامة جدران" هو اسم فيلم وثائقي يمني تم ترشيحه لجائزة الأوسكار، ويعتبر أول فلم يمني يصل إلى الترشيح لجائزة الأوسكار، وقد تأهل الفيلم ضمن ثمانية أفلام أخرى للفوز بجائزة الأوسكار عن فئة الأفلام الوثائقية القصيرة. الفيلم من إخراج المخرجة اليمنية سارة إسحاق.

وثق فريق مكون من شابة وشابين أحداث مظاهرات جمعة الكرامة التي وقعت في 18 مارس 2011 وهي الجمعة التي خرج فيها آلاف اليمنيين يطالبون برحيل نظام الرئيس السابق علي عبد الله صالح. ويصوّر الفلم الوثائقي أعمال العنف والجرائم البشعة التي ارتكبت ضد المدنيين المتظاهرين سلمياً في ساحة التغيير في العاصمة صنعاء.

الصفوف، يحمون المسيرات من بطش النظام ويشرّون بمشروع الشهيد القادم. وللمرّة الأولى في التاريخ اليمني يختبئ الرجال خلف النساء ويتراجعون إلى الصفوف الخلفية. فهل هذا إيذاناً بتسليم القيادة للمرأة، أم هي وسيلة معروفة للتضحية بالأضعف وللمزايدات السياسية<sup>(5)</sup>.

### توكّل كرمان محرّضة أم حمامة سلام

توكّل كرمان أيقونة الثورة كما توصف لم تعد صورتها عورة، فصورتها ترفع وسط الحشود وتعلق في خيام الثائرين. تصف ناشطة في الثورة ذلك بقولها: ”في بداية الثورة كان هذا الاختلاط شائعاً وطبيعياً في جو أخوي وعائلي رائع المثال. وقد شجع الكثير من الآباء والإخوة والأزواج والأقارب نساءهم على المشاركة. بعض المتطوعات في المستشفى الميداني، وغيرهن من المتطوعات، نمن في الساحات دون أولياء أمورهن الذكور، مما شكل تحدياً للعادات المحرّمة. وفي مجتمع تعتبر صورة المرأة على لوحات الإعلانات الكبيرة ”عيباً“، انتشرت صورة ”توكّل كرمان“ الحائزة على جائزة نوبل للسلام في جميع أنحاء الساحات حتى أن الرجال علقوا صورها في خيامهم بكل بفخر“<sup>(6)</sup>.

ولم يعد صوت توكّل عوره وما هي تصرخ وسط الحشود وتحث على الشهادة، وتهدد وتتوعد بإسقاط عرش علي عبدالله صالح. والشباب الشهداء يتساقطون واحداً تلو الآخر، ليهتز عرش النظام. وتوكّل كرمان تتقدم المسيرات، تهتّف، ومن ورائها الشباب: «كلما زدنا شهيداً يا علي اهتز عرشك». صورة تتجاوز الواقع اليمني، وما كان لهذه الصورة أن تتبلور دون دعم خارجي قوي، توج بفوز كرمان بجائزة نوبل للسلام للعام 2011 مناصفة مع رئيسة ليبيريا الين سيرليف والناشطة الليبيرية ليما غبويي. جائزة، عدّها الكثيرون بمثابة إعلان تأييد ودفعة قوية من قبل لجنة نوبل للثورة اليمنية وللربيع العربي. وفي أوسلو حيث أعلنت الجائزة قال رئيس لجنة نوبل ثوربورن ياغلاند ان توكّل كرمان ورئيسة ليبيريا الين جونسون

(5) انظر تقرير أصوات قوية: المشاركة السياسية للنساء في احتجاجات التغيير في اليمن - منظمة سيفر ورد - مايو 2012، ص 5.

(6) انظر أطراف الوزير، ”ما يزال الطريق طويلاً“ - 3 ديسمبر 2012 - <https://www.opendemocracy.net/5050/atiyf-zaid-awazir>

سيرليف و«المناضلة من اجل السلام» الليبيرية ليما غبويي كوفتن على «نضالهن السلمي من أجل ضمان الأمن للنساء وحصولهن على حقوقهن للمشاركة الكاملة في عملية بناء السلام». وأضاف ثوربورن ياغلاند «لا يمكننا تحقيق الديمقراطية والسلام الدائم في العالم إلا إذا حصلت النساء على الفرص نفسها التي يحصل عليها الرجال للتأثير على التطورات على جميع مستويات المجتمع».

هذا الفوز أثار الكثير من الجدل على المستوى الداخلي والخارجي، فهي أول امرأة عربية وأول مسلمة محجبة تنال الجائزة، وهي، بعد، في الثانية والثلاثين من عمرها، أي واحدة من أصغر من حصلوا على جائزة نوبل منذ أنشئت عام 1901.

لاشك أن فوز توكل بهذه الجائزة، برأي البعض، «حمل رسالة دعم قوية للثورات العربية ولدور المرأة، واعتبرت أن الجائزة ليست فقط من أجل ما أنجزته كرمان على هذين الصعيدين، وإنما تعبيراً عن الأمل بالنجاح في أن يقوم الإسلام المعتدل الذي تمثله بدور إيجابي في المجتمع العربي. هذا الرأي يشبه ما تحاول الولايات المتحدة الأميركية القيام به منذ ثورتها تونس ومصر، إذ وجدت أن دعم الإسلام المعتدل يوفر جهداً في مكافحة الإرهاب. وإذا كان اختيار اللجنة لتوكل كرمان يتماشى مع نظرة القوى السياسية الغربية، فإن هذا لا يقلل من شأن كرمان، بل ربما يعني أن التغيير الإيجابي في الموقف الغربي من قضايا الشرق العربي ارتقى إلى مستوى الفعل الثوري»<sup>(7)</sup>.

ومما أثار الجدل أيضاً في ما يتعلق بحصول توكل كرمان على جائزة نوبل أنه لم يكن له دور واضح في السعي للوصول إلى حل سلمي يجنب البلد الانزلاق في حرب أهلية، وعلى العكس من ذلك مثلت توكل كرمان منذ اندلاع الاحتجاجات صورة المحرصة على العنف من خلال العديد من الدعوات التي أطلقتها مثل: الدعوة للزحف، والحسم الثوري، وشعارات رفض الحوار ورفض كل الحلول والمبادرات السلمية، والتي تتعارض مع الشعار العريض لثورة الشباب «السلمية» في اليمن. «وقد اتهم الشباب في ساحة التغيير أمام جامعة صنعاء القيادية في حزب الإصلاح «توكل كرمان» بالزج بالشباب إلى الموت والقتل من خلال دعوتها للزحف ووصف

(7) أمل عريضة، مجلة الحرية مجلة التقديم العرب على الإنترنت - 23 أكتوبر - 2011. <http://alhourriah.org/article/1833>

المتقاعسين عن الزحف بأنصاف الرجال، وانتقد العديد من الناشطين والناشطات في ساحة التغيير دعوات الزحف واعتبروها دعوات طائشة تمثل توكل كرمان وحدها وتسيء إلى سلمية ثورة الشباب التي فرضت احترامها على العالم بنهجها السلمي. وحملوا توكل كرمان مسؤولية تحريض الشباب لاقتحام المباني الحكومية واحتلالها، وما ترتب عليه من سقوط العديد من الشباب بين قتيل وجريح. وكانت توكل قد أرسلت الدعوات، ووقفت في المنصة تهتف: من مع توكل غداً سيبدأ مسيرته اليوم، ومن مع الأحزاب الجبانة سيقتى مكانه، غير أن بعض الشبان صعد إلى المنصة ودعا الشباب إلى عدم الخروج وراء توكل<sup>(8)</sup>.

وأخذ البعض على توكل عدم قدرتها على تطوير وعيها السياسي ليتلاءم مع الجائزة التي حصلت عليها. «لم يكن ثمة شك أن الناشطة السياسية توكل كرمان قد استحققت جائزة نوبل كمكافأة لنضالها ووقوفها إلى جانب الشعب اليمني، وهو الأمر الذي اعتبره كل عربي مصدر فخر ورصيلاً يضاف إلى نضال الشعوب العربية من أجل الحرية والكرامة، كما يضاف إلى رصيد اليمن الشقيق الذي ظل رغم ما له من مكانة تاريخية يعاني من الاضطراب والفقر والتخلف على أكثر من صعيد. فوز توكل كرمان كان ثمرة نضالها، غير أن هذا الفوز الذي فاجأ الجميع، وفاجأ توكل نفسها، لم يمكنها من تطوير وعيها السياسي، فتحول مفهوم الحرية لديها إلى مجرد شعار وهتاف مفرغ من مضمونه، تردده بمناسبة وبغير مناسبة، حتى ولو كانت تلك الحرية مجرد فرصة تمنح للجماعات المتطرفة التي تسعى إلى استعباد الشعوب ومصادرة الفكر وخنق الحريات، وتحولت كرمان من مناضلة تخرج في ساحات الاعتصام في صنعاء إلى مجرد مغردة ينتهي نضالها عند تغريدات تطلقها عبر تويتر تذكر الناس بها كي لا ينسوا أن ثمة فتاة يمنية فازت بجائزة نوبل ذات ربيع لا يزال بلدها منتظراً ما يسفر عنه»<sup>(9)</sup>.

كما اعتبر عدد من المحللين السياسيين فوز توكل بهذه الجائزة، كنوع من المقايضة التشريعية لتوكل، وحزب الإصلاح، للمضي قدماً نحو القبول بالحل

(8) <http://www.barakish.net/news02>، "توكل كرمان تعلن عن ساعة الصفر ليوم الزحف نحو القصر

الجمهوري ومؤسسات الدولة الأربعاء 5 11 2011 [http://www.youtube.com/watch?v=7\\_pvhJCdMcs](http://www.youtube.com/watch?v=7_pvhJCdMcs)

(9) سعيد السريحي، "أخو نجية توكل كرمان"، جريدة عكاظ السعودية، 30 أبريل 2014. <http://www.okaz.com.sa/new/mobile/20140430/Con20140430696197.htm>



السلمي للأزمة السياسية التي شهدتها البلاد، حيث لم ينجح الفعل الثوري في حسم الموقف لصالح أي طرف من أطراف العملية السياسية في اليمن، في المقابل منح الرئيس اليمني علي عبدالله صالح الحصانة من المسألة القانونية<sup>(10)</sup>.

لم يستمر الوضع طويلاً، فما كاد يمضي أكثر من شهر واحد بعد إعلان فوز توكل بالجائزة في شهر أكتوبر 2011، حتى تم التوقيع على المبادرة الخليجية وآليتها التنفيذية المزممة في 23 نوفمبر<sup>(11)</sup> 2011، وبدأ الفرقاء تنفيذ بنودها، وتمت عملية الانتقال السلمي للسلطة من الرئيس السابق علي عبدالله صالح إلى نائبه عبدربه منصور هادي، وأعقب ذلك تشكيل حكومة وفاق وطني تعتمد على مبدأ المحاصصة.

### ثورة أم صراع سياسي؟

يبدو أنه كان من الصعب آنذاك الحديث عن ثورة تغيير حقيقية في اليمن، بقدر ما كان صراعاً على السلطة، تتحكم فيه مصالح داخلية بين قوى تقليدية عتيقة استبدت بالحكم واستأثرت بالسلطة في اليمن، حيث لا صوت يعلو فوق صوت القبيلة التي طالما لعبت الدور الرئيسي في رسم ملامح ماضي اليمن ومستقبله.

مما لا شك فيه أن المرأة اليمنية لعبت دوراً بارزاً في احتجاجات 2011. وما يمكن الجزم به، هو أن حاجزاً من الخوف تحطم بخروج جموع وحشود من النساء اليمنيات في ساحات التغيير بجوار جامعة صنعاء، ومشاركتهن في مسيرات الاحتجاج والمطالبة برحيل النظام. خرجت النساء، ربما للمرة الأولى في تاريخ اليمن، ونُصبت لهن الخيام، وأصدرت الفتاوى الدينية التي تجيز مشاركة المرأة في الثورة وتجزيم مبيتها خارج منزلها، وتشبهه بالمبيت في (منى) في الحج<sup>(12)</sup>.

(10) في 21 فبراير 2012، وافق مجلس النواب اليمني منح قانون الحصانة. ورشح نائب الرئيس هادي كمرشح وحيد للانتخابات الرئاسية المقبلة.

(11) انظر: المبادرة الخليجية <http://ar.wikipedia.org/wiki/>

(12) أجاز الدكتور اليمني المرتضى زيد المحطوري مبيت النساء اليمنيات في ساحات الاعتصام باليمن واعتبر ذلك أشبه بمبيتتهن في مزدلفة أو منى ولا حرج فيه. واعتبر الدكتور المرتضى المحطوري في فتواه المنشورة في موقع سهيل برس "أن الفتاوى الأخرى الصادرة عن من لا علم ولا فقه له من الجاهلين بأحكام الله فلا عبرة بها ولا وزن لها".

وجاءت هذه الفتاوى بعد التصريحات التي أدلى بها الرئيس اليمني السابق علي عبدالله صالح، حول حرمانه «الاختلاط» في ساحة التغيير أمام جامعة صنعاء<sup>(13)</sup>. وقد أثارت تلك التصريحات ردود فعل غاضبة في الساحة اليمنية، وردّت عليها المعارضة اليمنية بمظاهرات نسائية حاشدة في أكثر من محافظة يمنية. وكان الرد سريعاً بالاعتداء بالضرب الذي تعرض له عدد من الناشطات النسويات أثناء هذه المسيرات من قبل حماة الثورة أنفسهم، لرفضهن السير بشكل مستقل عن الرجال في المظاهرات. وهذا يعتبر أكبر دلالة على إشكالية وضع النساء داخل سياق ثقافي لم ينضج بعد لاستيعاب مشاركة فعلية للنساء، بعيداً عن فكرة الاستعلاء والاستغلال والحشد. وهذا الانتقاد منح الأصوليين فرصة ذهبية لممارسة العزل السابق، وان ترددوا في تطبيقه، ولكن سرعان ما شرعوا في تطبيقه عند مهاجمة ومحاصرة مجموعة صغيرة من الرجال والنساء الناشطين الذين انضموا إلى إحدى المسيرات العفوية الاحتجاجية ضد انتقاد صالح للاختلاط. وتعرضت للضرب الناشطات اللواتي رفضن الانصياع للعزل. وخلال الاستجابات والتحقيقات، اتهمت النساء الناشطات بالاعتداء عليهن وضربهن ومحاصرتهن،<sup>(14)</sup> طلاباً من جامعة الإيمان، التي يملكها ويديرها الشيخ عبد المجيد الزنداني، وجنوداً من الفرقة الأولى المدرعة. وذلك بعيداً عن الأضواء في ميدان السبعين.

وفي ساحة أخرى خرجت جموع أخرى وحشود من النساء المؤيدات لنظام علي عبدالله صالح؛ لقد فضّلن المسار الديمقراطي للتغيير، باعتبار أن اليمن من الديمقراطيات الناشئة بالنسبة للجوار الإقليمي.

في الواقع لم يكن احتشاد النساء في ميدان السبعين في جنوب العاصمة صنعاء ألا انعكاساً لذلك الانقسام الشعبي الذي حدث في اليمن والذي أفضى - على خلاف بلدان الربيع العربي - إلى تسوية سياسية عبّرت عنها المبادرة الخليجية برعاية الدول العشر الراعية للمبادرة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية

(13) في 15 أبريل، حذر الرئيس صالح، الذي كان مستاء وغاضباً من دور المرأة المحوري والقوي في الاحتجاجات، حذّر من اختلاط المرأة بشكل غير لائق بالرجل في المظاهرات وفي الساحات.

(14) جميلة علي رجاء، "المرأة اليمنية في المرحلة الانتقالية، تحديات وفرص"، ورقة بحثية نشرها برنامج الإصلاح والديمقراطية في العالم العربي في مركز دراسات الديمقراطية والتنمية وحكم القانون، جامعة

ستانفورد <http://cddrl.stanford.edu>

## والاتحاد الأوروبي.

كان شبّح الحرب الأهلية والاقْتتال الطائفي كفيلاً بأحداث الفزع في قلوب مجتمع بنيتة التحتية هشة وإمكاناته الاقتصادية ضعيفة. كانت النساء أكثر فئات المجتمع حساسية وأكثر تحسباً وأشد قلقاً من وقوع اليمن في براثن الحرب الأهلية، كثيرات ممن خرجن مؤيدات للحل السياسي ومؤيدات للانتقال السلمي للسلطة، تم أدراجهن في خانة المؤيدات للنظام، ولم يعتد بمشاركتهن ولا بخروجهن للميادين. تم تجاهلن من قبل الإعلام الفضائي الخارجي، ومن قبل الجهد التوثيقي الداخلي والخارجي، مقدّمين بذلك للعالم ولأجيالنا القادمة تاريخاً مشوّهاً وذاكرة مضطربة.

## مشاركة سياسية ضعيفة وحضور خجل

تشير الإحصاءات إلى أن نسبة السكان الإناث تمثّل (50.8٪) من إجمالي السكان. ومن المفترض أن تتساوى المرأة مع أخيها الرجل في توفير الخدمات وإتاحة فرص المشاركة في التنمية. لكن الواقع في اليمن يبيّن أن فجوة النوع الاجتماعي لا تزال كبيرة في مؤشرات التنمية. إنها ضد المرأة، حيث ما تزال نسبة الأمية في صفوف النساء تمثّل 69.1٪ من إجمالي الأميين، في مقابل 27.3٪ من الذكور، والمشكلة في الريف أكبر إذ أن نسبة الأمية في صفوف نساء الريف تقدّر بـ 80.56٪ من مجموع نساء الريف، بينما هي في الحضر 40.25٪ من إجمالي نساء المدينة.

إن مؤشرات التحاق المرأة بالتعليم المدرسي في جميع المراحل منخفضة. فالإحصاءات الرسمية تشير إلى أن نسبة التحاق الإناث بالتعليم هي: (42.5٪) في التعليم الأساسي، و35.6٪ في الثانوي، و11.5٪ في التعليم الفني (المهني والتقني)، و30.8٪ في التعليم الجامعي، من إجمالي الملتحقين بكل مرحلة من هذه المراحل. كما أن المرأة اليمنية مغيّبة عن المشاركة في التنمية الاقتصادية. فعلى الرغم من أن نسبة الإناث تمثّل 49.3٪ من إجمالي القوة البشرية القادرة على العمل إلا أن نسبة الإناث العاملات إلى إجمالي قوة العمل تمثّل (12.1٪)، ومعدل مشاركة المرأة اليمنية في النشاطات الاقتصادية ما تزال في أدنى المستويات 9.9٪ ونسبة العاملات المشتغلات بأجر من إجمالي المشتغلين 8.1٪. كما أن نسبة البطالة بين الإناث القادرات على

العمل تمثل 40.2% في مقابل 11.3% عند الذكور القادرين على العمل<sup>(15)</sup>. وحتى الوظائف التي تدعو الثقافة التقليدية إلى حصر المرأة فيها ك(الصحة والتعليم) لم تتحقق فيها عدالة النوع الاجتماعي، إذ إن نسبة تمكين المرأة في هذين المجالين منخفضة جداً مقارنة بالرجل؛ فنسبة الإناث العاملات في المجال الصحي من الإجمالي العام للعاملين في هذا القطاع 29.51٪، كما تمثل المرأة في المجال التعليمي ما نسبته 19.62٪ من إجمالي العاملين في هذا القطاع.

ولأن المرأة اليمنية تدرك أن الثقافة التقليدية هي التي تتحكم في الواقع السياسي اليمني، فقد استثمرت ما هو متاح لها للمشاركة في الانتخابات لأنها كانت تدرك تماماً أنها بمشاركتها في الاقتراع قادرة على اختيار من سيتولى صناعة القرار لها ولأسرتها وللوطن بكامله، على الرغم من أنها ليست راضية عن بقائها بعيدة عن تولي مواقع صناعة القرار السياسي بصورة مباشرة.

وبناء عليه فقد شاركت المرأة اليمنية في الانتخابات النيابية عام 2003، وبنسبة تقدر (42.18٪) من مجموع الناخبين، وغامرت بعض النساء الجريئات وقتها بترشيح أنفسهن وكسر نمط الثقافة التقليدية، فترشحت 11 امرأة مقابل 518 رجلاً، لكن للأسف لم تصل إلى مجلس النواب سوى امرأة واحدة مقابل 300 رجلاً.

وتكرر الوضع في انتخابات المجالس المحلية للعام 2006، ومع ذلك لم يصل إلى مجالس المحافظات سوى سبع نساء مقابل (400) رجلاً، وحتى على مستوى مجالس المديرية لم يصل إليها سوى (29) امرأة مقابل (677) رجلاً.

وفي هذا السياق، ظهرت فروقات تنموية في النوع الاجتماعي. ففي 2010، كان معدل الأمية بين الإناث في المناطق الحضرية 65 في المئة ووصل إلى 70 في المئة في المناطق الريفية. كما استمر انخفاض معدل التحاق الفتيات بالمدارس، لا سيما في المناطق الريفية. وفي اليمن تموت امرأة واحدة بين 39 امرأة يمنية من المضاعفات الصحية للأمهات، وشكلت وفيات الأمهات 42 في المئة من مجموع وفيات الإناث في المرحلة العمرية ما بين 15-49 سنة.

على الرغم من أن اليمن من الدول الموقعة على أغلب الاتفاقيات والمواثيق

(15) تقرير وضع المرأة في اليمن للعام 2009، اللجنة الوطنية للمرأة، رئاسة مجلس الوزراء، الجمهورية اليمنية.

الدولية لحقوق الإنسان والمرأة، إلا أنها إحدى أدنى الدول في معدلات تمثيل المرأة في الحياة العامة والسياسية. ففي البرلمان ظلت امرأة واحدة تمثل نصف سكان اليمن، بينما يمثل 300 عضو برلماني من الرجال النصف الآخر من السكان. في مجلس الشورى، وهو هيئة استشارية بدون سلطات تشريعية، تم تعيين اثنتين من النساء مقابل 109 من الذكور. منذ عام 2006، ظل عدد النساء الوزيرات يتراوح ما بين وزيرة واحدة إلى وزيرتين مقابل ما يقارب 30 وزيراً من الرجال.

«ما زال الكثير من الانتهاكات تمارس ضد المرأة، ويرجع ذلك جزئياً إلى ضعف تمثيل المرأة في السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية. وبينما يفترض أن تحمي القوانين القائمة النساء والفتيات، إلا أنها في الأغلب تفتقد إلى التطبيق أو تتفاوت فيه. كما لا توجد قوانين حتى الآن لحماية الفتيات من الزواج المبكر أو لحماية النساء من الاغتصاب والتحرش. وفي تناقض مع الشريعة الإسلامية، تحرم النساء في بعض المناطق اليمنية من ميراثها الشرعي»<sup>(16)</sup>.

وعلى الرغم من واقع المرأة اليمنية المؤلم في مؤشرات التنمية البشرية، ورغم قنامة الأرقام السابقة في مجال تمكين المرأة اليمنية من مواقع صناعة القرار السياسي، فإن الواقع المعيش - وبخاصة مع ثورات الربيع العربي - قد أرغم المرأة اليمنية على مواجهة التحديات، واستثمار كل الفرص المتاحة لها من أجل تغيير واقع الحياة السياسية في اليمن، فقد دأبت على لعب دور المؤثر على أدوار الرجل السياسية من خلال وقوفها إلى جانبه زوجة وأماً وأختاً في البيت، وكذلك من خلال مشاركتها النضالية من أجل التغيير.

### المبادرة الخليجية والتمثيل المناسب للنساء

كثيرات من نساء الثورة لم يشاركن في الحياة السياسية من قبل، وكثيرات منهن لا يعرفن أبجديات العمل السياسي، وكثيرات منهن لم يخرجن لطلب السلام والأمن والأمان. من هؤلاء النسوة ما شكل ما نسبته 50% كانت إجمالي مشاركة المرأة في الانتخابات الرئاسية في 21 فبراير 2012 لانتخاب مرشح الرئاسة للفترة الانتقالية عبد ربه منصور هادي، وفقاً للمبادرة الخليجية المزمنة وآليتها التنفيذية. فقد

(16) جميلة علي رعاء، المرأة اليمنية في المرحلة الانتقالية، تحديات وفرص، المرجع سابقاً.

شارك 60% من اليمينيين الذين كانت أعمارهم 18 سنة فما فوق في فبراير 2012 في الانتخابات الرئاسية التي أجريت حينها بموجب اتفاق نقل السلطة عقب احتجاجات العام 2011، وبلغت نسبة المشاركة بين الرجال 70% وبين النساء 50% حسب نتائج الاستطلاع الذي أجرته مؤسسة برسنت لبحوث الرأي، وهي تقريباً نفس تقديرات نسبة المشاركة المنشورة عن اللجنة العليا للانتخابات في تلك الفترة<sup>(17)</sup>.

لقد كان لمشاركة المرأة السياسية في هذه الفترة الحرجة أولوية قصوى بالنسبة للنساء المتعلقات في المناطق الحضرية، في حين أن قرار مجلس الأمن رقم 2014 دعا كافة الأطراف المعنية إلى «أن تكفل حماية النساء والأطفال وأن تعزز مشاركة المرأة في حل النزاع، ويشجع كافة الأطراف على تيسير مشاركة المرأة مشاركة تامة وعلى قدم المساواة على مستوى صنع القرار». وبينما تؤكد المبادرة الخليجية مشاركة المرأة في الفترة الانتقالية، وانه ينبغي تمثيل المرأة ضمن جميع الأطراف المشاركة، فإن غالبية النساء يشعرن أنه قد تم إهمالهن. ونتج بالتالي انعدام الثقة بالأحزاب التقليدية، مما جعل النساء يشعرن بأن الأطراف السياسية المتنازعة ستوحد حول مسألة واحدة فقط وهي إقصاء النساء.

بينما يسلط نصّ المبادرة الضوء على أهمية دور المرأة، إلا أن المبادرة تنصّ على «تمثيل المرأة تمثيلاً مناسباً» في حكومة الوحدة الوطنية، لكنها لا تنصّ على حصة 30 في المئة التي كان مطلباً اتفقت عليه الحركة النسائية، وأكدت الحركة في المؤتمر الوطني للنساء في مارس 2012 والذي كان يهدف إلى توحيد مطالب المرأة لإدراجها في عملية الحوار. وعليه، اعتبر البعض أن تعيين ثلاث وزيرات فقط في الحكومة تمثيل «مناسب» والبعض أشاد بأنها خطوة ناجحة. كما أن اللجنة الفنية الهامة، التي شكّلها الرئيس هادي لتحديد نطاق الحوار الوطني المقبل، شمل أفراداً ذوي الكفاءات العالية ومصداقية في الشارع، لكن تمثيل المرأة في البداية كان 20 في المئة فقط. ثم في سبتمبر 2012، أصدر الرئيس هادي قراراً جمهورياً بإضافة ستة أعضاء ذكور إلى اللجنة الفنية، فسبب تقليص التوازن وانخفاض نسبة النساء إلى 16 في المئة.

(17) مؤسسة برسنت لبحوث الرأي وتعزيز الشفافية، [http://www.percentyemen.org/index\\_ar.php?it\\_id=76#sthash.awLGH5dx.dpuf](http://www.percentyemen.org/index_ar.php?it_id=76#sthash.awLGH5dx.dpuf)

## مطالب نسوية مغيبة وشعارات مفروضة

كان من الواضح أن خروج النساء اليمنيات في الساحات المختلفة، لم يبلور مطالب نساء اليمن الحقيقية في التغيير، ولم يتم تبني أية شعارات تقدمية تتعلق بتحرير المرأة، ولم تنجح توكل كرمان في تبني نموذج هدى شعراوي في مصر، مثلاً، كرائدة للتغيير وتحرير المرأة. فلم تظهر صور النساء اليمنيات إلا ككتلة سوداء غائبة الملامح، وكل ما يمكن أن تلتقطه عينك هي عيون متطلعة للحرية تلوح بأعلام ملوثة، ولكنها لا تصرخ إلا بما يُملى عليها من شعارات: الشعب يريد إسقاط النظام (ساحة ميدان الستين)، والشعب يريد علي عبد الله صالح (ساحة ميدان السبعين).

«إن التعبير عن مطالب محددة تُعنى بـ«المساواة الجندرية» وبحقوق المرأة، لم تكن أولوية للشوار لأن العديد من الناشطات وُضعت هذه الحقوق في الإطار الثوري الواسع المعني بالمساواة والعدالة. وظلت الناشطات تضعن حقوق المرأة في إطار المواطنة المتساوية، حتى بعدما تعرضت بعض الناشطات للضرب من قبل المتشددين في الساحة، وحتى بعد سياسة الفصل بين الجنسين عن طريق بناء الحائط الفاصل في ساحة التغيير بعد أشهر من الاختلاط. وأشار مؤلفو تقرير (أصوات قوية) إلى مشاركة النساء السياسية في احتجاجات التغيير في اليمن، وإلى أن وثيقة أهداف ومطالب الثورة السلمية الذي صاغها الشباب المستقل» لم تتحدث عن أي من المطالب المحددة للنساء التي صاغها التحالف الآخر «تحالف وطن - نساء من أجل السلم الاجتماعي». وإنما أعربت وثيقة الشباب عن حقوق المرأة تحت مظلة المواطنة المتساوية»<sup>(18)</sup>.

وفي مجمل الأمر نجحت القوى المتصارعة في الساحة اليمنية المتمثلة في النظام (حزب المؤتمر الشعبي العام)، والمعارضة (حزب الإصلاح وأحزاب اللقاء المشترك)، في استغلال النساء كما اعتادت من قبل في الانتخابات البرلمانية، وقد أكدت المرحلة الانتقالية الحالية أن أيّاً من هذه الأحزاب لا يؤمن بأهمية مشاركة المرأة في صنع القرار في اليمن. فقد ظلت حشود النساء وجموعهن طيلة أيام

(18) أطيف الوزير، "ما يزال الطريق طويلاً"، 3 ديسمبر، 2012 <https://www.opendemocracy.net/5050/>  
-alwazir atiaf-zaid

الثورة مسيرة ومسيّسة، وتم استغلال النساء، والأطفال في أحيان كثيرة، للتحايل على المجتمع الدولي ولجلب الاستعطف والدعم. كما كانت معظم المهام التي توكل للنساء تتعلق بإعداد الطعام والخبز والتمريض وجمع التبرعات، وهي غالباً أدوار يغلب عليها الطابع التقليدي ويغيب عنها الطابع القيادي، فتظل النساء في اليمن بعيدة عن مواقع اتخاذ القرار. حيث لا يزال القرار السياسي، وقرار الحرب والسلام قراراً ذكورياً بامتياز.

وقد ظهر ذلك في عملية الحوار الوطني، والتي تم تمثيل المرأة فيها تمثيلاً يقوم على المحاصصة الحزبية والتقسيم المناطقي، ولم يعتمد على الكفاءة والفعالية. كما خضع العديد من قرارات مؤتمر الحوار الوطني المتعلقة بالنساء للكثير من المعارضة والرفض، خصوصاً في ما يتعلق بإقرار نظام الحصّة أو الكوتا بنسبة 30٪. كذلك في تحديد السن القانونية للزواج بـ 18 عاماً، وما يتعلق بمساواة المرأة بالرجل في الدية أو الأرش، وهي قرارات وجدت طريقها بصعوبة بالغة إلى وثيقة الحوار الوطني<sup>(19)</sup>، وهي الآن تشق طريقها بصعوبة أكبر لتضمينها في دستور اليمن الجديد، وستجد كذلك مقاومة ثقافية واجتماعية أكبر بعد تضمينها دستورياً وعند تطبيقها فعلياً.

«تم التوصل إلى القرار الخاص بالكوتا في الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الحوار الوطني.» وقد أقرّه عدد من الفرق في الجلسة الأولى، ولم يعترض عليه رسمياً إلا حزب الرشاد - بعد مشادة كبيرة في فريق بناء الدولة تناولتها وسائل الإعلام. وكان قرار نظام الحصّة الأول لم تُقرّه سابقاً بقية الفرق الأخرى، وأقر في الجلسة العامة الأولى، ولم تعترض عليه جميع المكونات ما عدا حزب الرشاد. وخرجت مظاهرات نسائية ضد نظام الحصّة النسبية (الكوتا)، وخطب الجوامع تحذّر من «الغزو الغربي لنساء اليمن التي تهدد القيم الدينية»<sup>(20)</sup>.

(19) حقوق المرأة في الوثيقة الوطنية، سلسلة كتيبات الحوار الوطني، الكتاب السابع، 2014، ص 14.  
(20) انظر د. انطلاق المتوكل، حقوق النساء في الدستور الجديد، ورقة عمل مقدمة لاحتفالية اليوم العالمي للمرأة تحت شعار:

”مساواة المرأة تنمية للجميع“. والتي أقامتها اللجنة الوطنية للمرأة واتحاد نساء اليمن 8 مارس 2014.



## النساء لا يزلن في انتظار التغيير

ما زال وضع النساء اليمنيات بعيداً عن الواقع الذي كن يحلمن به، وما زالت نساء اليمن في انتظار التغيير. فبحسب تقرير نشرته منظمة أوكسفام الدولية، إن أربع نساء من كل عشر تحاورت معهن، أعربن عن أن حياتهن ازدادت سوءاً خلال عام 2012، وأنه إذا ما أريد للعملية الانتقالية أن تفضي إلى تغييرات إيجابية في حياة اليمينيين، يجب أن تلعب المرأة دورها كاملاً، وبشكل حقيقي، سواء في الاستجابة للأزمة الإنسانية أو في تشكيل مستقبل بلادها. فالنزاع وانعدام الأمن يعرّضان النساء للعنف. وأوصى التقرير بضرورة أن تعطي الحكومة الأولوية لحماية النساء من العنف<sup>(21)</sup>.

يصعب الحديث عن حركة نسوية منظمة ومؤثرة في اليمن تعي حقوقها وتؤمن بمطالبها بعيداً عن عباءة القوى التقليدية في اليمن التي تصدرها في اليمن حالياً قوتان محافظتان، وهما حركة الإخوان المسلمين ممثلة في حزب الإصلاح، الحزب الديني المحافظ الذي يعتبر الحديث عن حقوق النساء وحرّياتهن ما هو إلا مؤامرة غربية تقودها القوى الإمبريالية، والحركة الحوثية بقيادة عبد الملك بدر الدين الحوثي ذات التوجه الشيعي، والتي لا تزال تتعامل مع النساء بنفس الآلية التي اعتادت الأحزاب السياسية استخدامها. فالمرأة تستغل سياسياً كقوة مؤثرة في الإطار العام، ولكنها لا تزال مسيجة بإطار من القيم القبلية الشديدة المحافظة، والتي تحصرها في أدوارها التقليدية كتابعة للرجل وخاضعة لسلطته.

من الواضح أنه بدون إدراج حقوق المرأة إدراجاً حقيقياً في عملية التغيير فإن الحوار محكوم عليه بالفشل. كما قالت الدكتورة شيلا كارابيكو: «مهما كانت الحركة الاجتماعية رائعة هذا لا يعني أن النتيجة ستكون العدالة الاجتماعية أو الديمقراطية». ومع ذلك، على الرغم من العقبات المقبلة، يجب على المرء أن لا يفقد الأمل. لقد أعطت الثورة صوتاً للنساء، وعززت ثقتهن بأنفسهن، وجعلتهن يؤمن بأن المستحيل ممكن. ينبغي الاعتراف بأن هذا، بحد ذاته، شيء رائع وحدث تاريخي هام اجتماعياً وثقافياً<sup>(22)</sup>.

(21) انظر تقرير منظمة أوكسفام الدولية - سبتمبر 2012 - لا يزلن في انتظار التغيير <http://www.oxfam.org/en/research/still-waiting-change-yemen>

(22) البروفسورة شيلا كارابيكو Sheila Carapico مديرة المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية بجامعة رتشموند بولاية فيرجينيا Richmond Univ.-Virginia

## قائمة المصادر

«لا يزال في انتظار التغيير»، تقرير منظمة أوكسفام الدولية، سبتمبر 2012.

<http://www.oxfam.org/en/research/still-waiting-change-yemen>

المتوكل، إنطلاق. مخرجات الحوار الوطني الخاصة بالنساء، ورقة عمل مقدّمة للاحتفالية باليوم العالمي للمرأة تحت شعار: «مساواة المرأة تنمية للجميع»، أقامتها اللجنة الوطنية للمرأة واتحاد نساء اليمن، 11 مارس 2014.

علي رجاء، جميلة. «المرأة اليمنية في المرحلة الانتقالية، تحديات وفرص». ورقة بحثية نشرها برنامج الإصلاح والديمقراطية في العالم العربي في مركز دراسات الديمقراطية والتنمية وحكم القانون، جامعة ستانفورد، يوليو 2013.

<https://mailman.stanford.edu/pipermail/arabreform/2013-July/000035.html>

شاكرا، وميض. أصوات قوية: المشاركة السياسية للنساء في احتجاجات التغيير في اليمن، تقرير منظمة سيفرورد، مايو 2012.

[http://www.saferworld.org.uk/downloads/SW%2038%20064%20Strong%20voices%20textpp%20aw%20no%20p19%20ARA\\_web.pdf](http://www.saferworld.org.uk/downloads/SW%2038%20064%20Strong%20voices%20textpp%20aw%20no%20p19%20ARA_web.pdf)

الصلاحى، فؤاد وآخرون. تقرير وضع المرأة في اليمن للعام 2009، تقرير اللجنة الوطنية للمرأة، رئاسة مجلس الوزراء، الجمهورية اليمنية.

علي أحمد، سهير، والغابري، محمد أحمد. وثيقة مطالب النساء من خلال مقرّرات مؤتمر الحوار الوطني، ملتقى النساء والشباب التابع لمكتب الأمين العام للأمم المتّحدة، يناير 2014.

حقوق المرأة في الوثيقة الوطنية، سلسلة كتيبات الحوار الوطني، الكتاب السابع، 2014.

الوزير، أطياف. «وما يزال الطريق طويلاً»، 3 ديسمبر 2012.

<https://www.opendemocracy.net/5050/atiyf-zaid-alwazir>



## محور II

الثورات العربية :  
نماذج مبتكرة



# حين تفرض الثورة نموذجا: مصر مثالا

رفيف رضا صيداوي

الجامعة اللبنانية

rafidsidawi@gmail.com

## المخلص

تعددت الأوصاف التي أطلقت على هذه الأحداث التي انطلقت في مصر في كانون الثاني/يناير 2011، وعليه، هدفت هذه الدراسة إلى تبيان كيف أن مسار هذه الأحداث يسمح بإدراجها في خانة الـ«ثورة»، مستندين بذلك إلى القوانين التي تخضع لها ظاهرة الثورات عموماً، وإلى الأوضاع الداخلية والخارجية التي أحاطت بالواقع المصري، بالتناظر مع المكوّن الجمعي للثورة المصرية نفسها. على هذا، مضت الدراسة في تبيان أن ما جرى في مصر كان ثورة حقيقية، لا بل أن الثورة هذه قد فرضت نموذجا الخاص. أما سيرورة الأحداث اللاحقة (ومن أبرزها الثورة المضادة، وفوز الإخواني محمد مرسي بالانتخابات الرئاسية)، والتي دفعت بمصر إلى شفير الحرب الأهلية، فإنها لم تدفع إلى انحراف الثورة عن مسارها؛ إذ إن الثورة نجحت في كسر حلقة أساسية من الحلقات المعيقة للسير في الطريق الديمقراطي، ألا وهو تداول السلطة، وذلك بعدما تحوّلت هذه السلطة في مصر إلى «إرث شخصي». هذا كلّهُ دفعنا إلى الاستنتاج بأن العقبان، الماضية والحاضرة والمستقبلية، فضلاً عن التخوفات المشروعة من أن تعجز هذه الثورة عن السير بمصر إلى الديمقراطية الصحيحة، لا تنف عن أحداث مصر طابعها الثوري، وخصوصاً مع الوعي بضرورة التغيير من جهة، وإرادة التغيير من جهة ثانية، والسعي من جهة ثالثة إلى تجسيد قيم مجتمعية جديدة. بحيث إن الفاعلين الاجتماعيين يعون أهدافهم والأسباب التي أدت إليها؛ فكان أن وصلوا بثورتهم إلى خطّ اللاعودة عن القيم التي ثاروا من أجلها.

الكلمات المفتاح: ثورة؛ نموذج؛ تحرّر؛ حرية؛ براديجم؛ مصر

## Abstract

### When the revolution imposes its pattern: Egypt as an example

**Rafif Rida Sidawi**

*There have been several designations to describe events that broke out in Egypt in January 2011. This study aims at revealing the course of events that allows us to designate it as a «revolution». The designation is based on laws that govern revolutions in general; and on internal and external situation that engulfed Egypt at the time, in parallel with the collective component of the Egyptian revolution itself. The study reveals that what was happening in Egypt was a real revolution which already has imposed its own pattern. As for the progression of events that may have impelled Egypt towards the edge of a civil war; (most important: the counterrevolution and the candidate of the Muslim brotherhood Mohamad Mursi winning the presidential elections), it did not deviate the revolution from its own course. For it succeeded in overcoming one essential obstacle of chain obstacles blocking the march towards a democratic path. That is the alternating power which afterwards turned to be «a personal inheritance». This leads us to conclude that past, present and future obstacles in addition to legitimate fears, that might disable this revolution from guiding Egypt towards true democracy, do not disown the events that took place in Egypt its revolutionary stamp, especially, with the awareness for the need to change on a first level, the will to change on a second level and the effort put to substantiate new social values on a third level. So that social activists understand fully the goals of a revolution and its reasons; thus they have reached the point of no return in order to attain the values they have revolted for.*

**Keywords:** Revolution; paradigm; emancipation; freedom; pattern; Egypt

## المقدمة

كثرت التعريفات الخاصة بمفهوم الثورة، عبر تمييزها عن غيرها من المصطلحات أو المفاهيم، مثل التمرد أو الانتفاضة أو الانقلاب أو الإصلاح.. غير أن المعاني التي أضيفت على هذا المفهوم تداخلت حيناً وتقاطعت أحياناً. فثمة من اعتبر الثورة تمرّداً على «أصحاب السلطة تقوم به جماعة منافسة، على حين لا تعني الثورة التنافس على حيازة القوة فحسب، وإنما تعني كذلك القضاء على بنيات القوة القائمة واستبدالها بأشكالٍ جديدة من التنظيم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي»<sup>(1)</sup>. فيما الثورات بحسب حنة أرندت أكثر من تمرّدت ناجحة، من دون وجود ما يبرّر تسمية كل انقلاب على أنه ثورة<sup>(2)</sup>، معتبرة «التغيير» هو «الوصف الأجدر بها»، إذ برأيها لا يمكننا الحديث عن الثورة إلا حين يحدث التغيير ويكون بمعنى بداية جديدة<sup>(3)</sup>.

على هذا، بدأ «التغيير» القاسم المشترك بين كل تلك المعاني، لكن شرط أن يكون عميقاً، وقادراً على استبدال بنيات بأخرى جديدة. فقد لخص ماركس تجربة ثورة 1848-1851 الفرنسية في كتابه «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» بالعبارات التالية: «بيد أن الثورة عميقة الجذور. وهي ما تزال في رحلتها خلال المطهر وتقوم بعملها بصورة منهجية. وقد كانت لغاية 2 كانون الأول قد أتّمت نصف عملها التحضيري وهي الآن تتمّ النصف الآخر. إنها أكملت أولاً السلطة البرلمانية حتى تتمكن من الإطاحة بها. أما الآن وقد بلغت هذه الغاية فهي تكمل السلطة التنفيذية، تردّها إلى أخلص تعبيراتها وتعزلها ثم تنصبها في مواجهتها هي باعتبارها الهدف الوحيد حتى تركز جميع قواتها التدميرية ضدها. وعندما تكون قد أنجزت هذا النصف الثاني من عملها التمهيدي ستثب أوروبا من مقعدها وتصيح

(1) شارلوت سميث، موسوعة علم الإنسان، ترجمة محمد الجوهري وآخرين، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009)، ص. 232.

(2) حنة أرندت، في الثورة، ترجمة عطا عبد الوهاب، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ص 46.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 47.



متهللة: لقد أحسنت نبشاً أيها الخلد العجوز!»<sup>(4)</sup>.

الحكم الفاصل في معيار الثورة إذًا، هو نجاحها في إحداث تغيير بنوي، لأن «الحركة التي تبدأ باعتبارها ثورة يمكن أن يتضح في ما بعد أنها لم تكن سوى تمردًا، عندما تتناسى الحركة التغييرات التي وعدت بها، ولا يبقى منها في النهاية سوى إحداث تغيير في أعضاء الصفوة الحاكمة»، فيما العكس صحيح أيضاً، أي إن «الحركة التي تبدأ كتمرد يمكن أن تتحوّل إلى ثورة إذا توفّرت الشروط الملائمة لتحوّل المجتمع بنائياً»<sup>(5)</sup>.

### «المتغيّر» الثابت

يبدو إذن، أن التغيير هو «المتغيّر» الثابت من بين متغيّرات أو خصائص أخرى للثورة. ف «العنف» أو «الجماهيرية» (بمعنى الشعبية) مثلاً، لا يكفيان لوصف ظاهرة الثورة، إلا في ضوء مقدار ما يوظّفان في خدمة التغيير: «لا يمكننا الحديث عن الثورة إلا حين يستخدم العنف لتكوين شكل مختلف للحكومة لتأليف كيان سياسي جديد، وإلا حين يهدف التحرر من الاضطهاد إلى تكوين الحرية»<sup>(6)</sup>، لأن العنف وحده بنظر حنة أرندت غير كافٍ لوصف ظاهرة الثورة. ولئن آمن لينين، وقبله ماركس وإنجلز، بحتمية الثورة العنيفة، فذلك للغاية نفسها، وهي بحسب معتقداتهم: «الاستعاضة عن الدولة البرجوازية بدولة بروليتارية»<sup>(7)</sup>.

الشيء نفسه ينطبق على الجماهيرية، فالثورتان البرتغالية والتركية في القرن العشرين من جهة، والثورة الروسية (1905 - 1907) من جهة أخرى، اعتُبرت كلّها ثورات، على الرغم من عدم جماهيرية الثورتين الأوليين، لأن غالبية الشعب، «لم تبرز بصورة ملحوظة، نشيطة ومستقلة، بمطالبها الخاصة الاقتصادية والسياسية»، وذلك على خلاف الثورة البرجوازية الروسية، التي شارك فيها «جمهور الشعب» بأكثرية وبفئاته الاجتماعية «السفلى»، وطبعت مجرى الثورة بطابع مطالبها<sup>(8)</sup>.

(4) كارل ماركس، الثامن عشر من برومير لويس بونابرت، (هامبرغ: 1885)، ص 63.

(5) شارلوت سميث، موسوعة علم الإنسان، م. س، ص 232.

(6) حنة أرندت، في الثورة، م. س، ص 47.

(7) لينين، الدولة والثورة، ترجمة معهد الماركسية اللينينية، (موسكو: دار التقدم، لا ذكر لتاريخ الطبع)، ص 27.

(8) المرجع السابق نفسه، ص ص 48-49.

أما المتغير الثالث بعد «العنف» و«الجماهيرية»، في مقاييس الثورة، فهو القيادة، أي أن يكون لهذه الثورة قائد، أو حزب. فعلاقة القائد الثوري بالحزب البلشفي في نموذج الثورة البلشفية أو الروسية جعلت من لينين - بحسب مفهوم غرامشي للقائد الثوري - «في أساس آلية تطوّر التاريخ ومآله»<sup>9</sup>.

لئن كان «التغيير» بحسب التعريفات المختلفة، المنبثقة عن تجارب ثورية متعدّدة من حول العالم، هو الأساس في أيّ ثورة، فهل كان هذا «التغيير» هو السمة الغالبة في حالة مصر؟ وماذا عن السمات أو الخصائص الأخرى المميزة للثورات، كالعنف و«الجماهيرية» و«القيادة»؟

### مقاييس الثورة المصرية

شكّلت عوامل عدّة دافعاً لانطلاق الأحداث في مصر في كانون الثاني/يناير 2011، تداخل فيها الاقتصادي بالاجتماعي والسياسي؛ نذكر من هذه العوامل: استبداد النظام، واشتداد قمع الحريات (حريات التعبير وإبداء الرأي والتظاهر.. إلخ)، انتشار الفساد، غياب العدالة الاجتماعية، ارتفاع معدلات البطالة، وخصوصاً بين الشباب، الغلاء، تدنّي الأجور.... إلخ. فقد تراجع النموّ في مصر في العام 2011 إلى 1٪ بعدما كان حوالي 5٪ في العام 2010، وبلغ معدل البطالة نحو 9.4٪، فيما كان العاملون في القطاع غير النظامي، والذي يشكّل ثلث الناتج المحلي الإجمالي تقريباً، خاضعين لظروف عمل غير مستقرّة ولا يستفيدون من خطط الحماية الاجتماعية<sup>(9)</sup>؛ في حين كان معدل بطالة الشباب بعمر 15 - 29 عاماً قد بلغ بحسب إحصاءات عائدة للعام 2008 نحو 21,7٪<sup>(10)</sup>. وبالتالي لم تكن محركاً أحداث يناير 2011 أو مطالب القائمين بها سياسية صرفاً، تقتصر غايتها على الإصلاح الإداري، والقضاء على السلطات الحاكمة المستبدّة فقط، كما أنها لم تكن اقتصادية غايتها التغيير الجذري في البناء الاقتصادي للدولة، بما يتضمّن ذلك من إعادة توزيع الثروة والملكيّات وتغيير نمط

(9) الأرقام مستقاة من ملخص مسح التطوّرات الاقتصادية والاجتماعية في غرب آسيا 2011 - 2012، (الإسكوا، 2012)، ص ص 7، 14.

(10) ريكاردو رينيه لاريمونت، «الخلفيات الديمغرافية والاقتصادية والتكنولوجية لثورات الربيع العربي»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، تحرير يوسف الصواني وريكاردو رينيه لاريمونت، (بيروت: منتدى المعارف، 2013)، ص 42.

العلاقات والنظم المرتبطة بها، بل كانت الغايات اجتماعية، وتهدف إلى تغيير نوعي في أوجه الحياة الاقتصادية والسياسية والقيمية للمجتمع عبر إسقاط النظام ورموزه. وبالتالي لم تكن حركات الاحتجاج هذه حركات مطلبيّة فقط، وإنما رمت إلى إنهاء دولة الاستبداد (ممثلةً بالنظام) واستبدالها بدولة الحريات والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية. ومن دون الدخول في الوقائع اليومية التي تثبت ذلك، فضلاً عن الشعارات التي رفعت، يبقى أن مطلب «الشعب يريد إسقاط النظام»، والمظاهر اللاعنافية<sup>(11)</sup> التي رافقته من قبل غالبية الجماهير المصرية (استخدام أساليب مبتكرة في الاحتجاجات، تنوّعت بين التعبير اللغوي - أشعار ونكات وما شابه -، والفني - من عزف وغناء ورقص جماعي -، مروراً بالجسدي-)، كانا أكبر دليل على الطابع الثوري السلمي لكن العنيد لهذه التحركات، التي استخدمت الحشد الجماهيري المليونيني (حوالي 15 مليون شخص<sup>(12)</sup>)، ولم تتوقف أو تتراجع في مرحلة أولى إلا بتنحي رأس النظام. إذ تبدّت معالم هذه الثورة بكسر جدار الصمت وتخطّي حاجز الخوف الذي زرعه النظام، خصوصاً بعد سنواتٍ من الاحتجاجات والتظاهرات<sup>(13)</sup>، التي كان يتمّ التصدي لها على الدوام من قبل النظام بعنف شديد (بطش الشرطة وقمعها، اعتقالات، سجون...).

ثمة ظروف موضوعية إذاً، سمحت لهذه الثورة أن ترى النور، على الرغم من كلّ ما قيل عن «عفويتها»، ولعلّ أبرزها الوعي بضرورة التغيير. وفي هذا الصدد تقول أرندت، إن القضية الاجتماعية كان لها الدور الكبير في الثورات كلّها قديمها وحديثها<sup>(14)</sup>، لكن المسألة الاجتماعية «بدأت تؤدّي دوراً ثورياً في العصر الحديث

(11) حول المظاهر اللاعنافية للثورة، يمكن العودة إلى عماد شاهين، «الثورة المصرية: قوة التعبئة الجماهيرية وروح ميدان التحرير»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، ص 100، حيث يورد الكاتب أن بعض النشطاء كانوا قد تدربوا على تقنيات احتجاج غير عنفية في صربيا.

(12) المرجع السابق نفسه، ص 89.

(13) لمزيد من التفصيل حول المنظمات والهيئات التي نشأت في مصر في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وما شهده هذا العقد من احتجاجات على النظام وممارساته وعلى الأوضاع الاجتماعية، راجع: عبد الغفار شكر، «25 يناير من الاحتجاج السياسي إلى الثورة الشعبية»، مجلة الطريق، العدد 1، (صيف 2011)، بيروت، ص ص 114-124.

عماد شاهين، «الثورة المصرية: قوة التعبئة الجماهيرية وروح ميدان التحرير»، م س، ص ص 116-87.

(14) حنة أرندت، مرجع سابق، ص 28.

وليس قبله، وذلك حينما بدأ الناس يشككون بأن الفقر هو شيء كامن في الظرف الإنساني»، وبأن التمييز بين القلة التي نجحت لأسباب مختلفة بالتححرر من الفقر وبين الغالبية العاملة والفقيرة هو تمييز «محتّم» و«أزلي»<sup>(15)</sup>.

لكن ثمة من اعتبر ما حدث في دول الربيع العربي، ومن ضمنها مصر، «ثورات سياسية وليس ثورات اجتماعية»<sup>(16)</sup>، وأنها، وإن كانت «حركات مقاومة اجتماعية مشروعة (...) [إلا أنها] أقلّ مضموناً من الثورة الاجتماعية»<sup>(17)</sup>. فما جرى في مصر تحديداً بحسب ريكاردو رينيه لاريمونت، ويوسف الصواني، ليس بثورة، أولاً لأنها «لم تُحدث تحوّلاً في علاقات القوى بالمجتمع»، وثانياً «لأنها تفتقر إلى القيادة السياسية المنظمة والمجهّزة بأيديولوجيا أو مجموعة من الأهداف البرامجية التي تهدف إلى إحداث تحوّل أساسي في علاقات القوة في المجتمع»، وقد اعتبرت مصر بذلك «نموذجاً هجيناً، اختلطت فيه الثورة الاجتماعية بالانقلاب» بحجة أن الجيش المصري انضمّ إلى المحتجين واستمر في تحديد السياسات الحكومية<sup>(18)</sup>. وبالمقارنة دوماً بالثورتين الفرنسية والروسية اللتين اضطلع بهما فلاسفة ومفكرون كبار، باتت الاحتجاجات لدى البعض في مصر مجرد تمرّد: «.. الثورات العظيمة يوقدها عظماء وتضيئها عقولٌ كالشهب وتتكئ على قاماتٍ كبيرة ترسم بالنور زمناً قادمًا بالقرون.. وغياب هؤلاء يسبّب تحوّل أيّ ثورة إلى مجرد تمرّد أهوج وانفعال بلا نتيجة سوى الدمار الذاتي»<sup>(19)</sup>.

تحليل غالبية هذه الآراء وغيرها إلى تبني المفاهيم الكلاسيكية للثورة وإسقاطها على الواقع العربي، من دون عناية التدقيق في اختلاف السياق التاريخي والاقتصادي الاجتماعي لمصر والمنطقة العربية في الزمن الراهن. فقد حققت الثورة البلشفية سيطرتها الكاملة على النظام السياسي والاجتماعي بعد تحويل

(15) المرجع السابق نفسه، ص 29.

(16) ريكاردو رينيه لاريمونت، ويوسف الصواني، «الثورة والانتفاضة والإصلاح»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، م. س، ص 10.

(17) المرجع السابق نفسه، ص 11.

(18) ريكاردو رينيه لاريمونت، ويوسف الصواني، «الثورة والانتفاضة والإصلاح»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، م. س، ص ص 11-12.

(19) غسان بن جدو، «الربيع العربي فارس مقطوع الرأس»، (السبت 18 شباط / فبراير 2012)، صحيفة بيلا الإخبارية، متاح على: <http://www.bellanews.net/index.php/>

بنوي لعلاقات الإنتاج القائمة في روسيا، وأفضت الثورة الفرنسية إلى تغيير عميق في البنية الاجتماعية، نتيجة انتقال السلطة من الملكيين الدستوريين إلى الجيرونديين ثم إلى البرجوازية الثورية (اليعاقبة). فكانت البروليتاريا هي حاملة الثورة ورافعتها في الحالة الروسية، والبرجوازية الصاعدة في الحالة الفرنسية. ولمّا لم تفض الثورات العربية، وبخاصة ثورة مصر، إلى استبدال سلطة طبقة بسلاطة طبقة أخرى نقيض، تمّ الحكم على ثورة مصر، ليس بأنها ليست ثورة فحسب، بل بأنها ثورة فاشلة. وغاب عن كثر أن الثورة الفرنسية لم تفض إلى القضاء على الرأسمالية، وذلك على الرغم من الدور الكبير الذي لعبته الجماهير الشعبية والطبقة العاملة فيها، فضلاً عن التخبط الذي شهده مسارها الطويل. فبحسب بيير هاسنير أن ما «كان يبدو نصرًا وتصالحًا في العام 1790، أعقبه عهد من سلطان الرعب في سنة 1793»<sup>(20)</sup>، أما عن وجه الشبه بين الثورتين، الفرنسية والمصرية، وبحسب بيير هاسنير أيضاً: «تبدو ثورة 1848 في فرنسا أشبه ما تكون بما قد يحدث في مصر. ففي فبراير/ شباط 1848، وحّد المفكرون: ليبراليون واشتراكيون، إضافة إلى العمال والطبقة الوسطى حديثة التكوين، صفّهم ضد المملّكية. وفي يونيو/ حزيران، قمعت البرجوازية والجيش الثوار والعمال بعنف، ثم بعدها بفترة قصيرة، حلّت محل الجمهورية إمبراطورية نابليون الثالث قبل أن تنسحب مرة أخرى تاركة زمام الأمور للنظام الجمهوري<sup>(21)</sup>».

صحيح أن الثورة المصرية لم تتمتع بقيادة أو بقائد، وصحيح أنها افتقرت إلى برنامج متكامل، وأنها اقتصرت على لائحة من المطالب، التي لا يمكن لها أن تبني نموذجاً بعينه، غير أنها لم تكتفِ بإنهاء الحكم المستبدّ، بل سعت إلى تجسيد قيم مجتمعية جديدة، باتت أساسية لبناء دولة الحق والقانون؛ وهو بناء لا يستوي من دون التحرّر أولاً. التحرّر بوصفه الطريق إلى الحرية الفعلية. إذ إن التحرّر والحرية - بحسب أرندت - «ليسا مثل بعضهما»، لأن «التحرّر قد يكون هو شرط الحرية ولكنه

(20) بيير هاسنير، «الثورات العربية: خيبات راهنة، آمال طويلة الأمد، وإنجازات دائمة»، مركز الجزيرة للدراسات، (2011/ 9/ 11)، متاح على:

<http://studies.aljazeera.net/reports/2011/09/2011913103620385948.htm>

(21) المرجع السابق نفسه.

لا يقود إليها آلياً»<sup>(22)</sup>. والحقيقة أن ضرورة التحزّر في مصر لم تأتِ ابنة اللحظة، وإنما بعد نضج الظروف الموضوعية. بحيث تقاطع النمو الاقتصادي السريع في مصر، والذي لم تستفد منه إلا الطغمة المالية الحاكمة والمتنفذة، مع بطالة الشباب<sup>(23)</sup> وتراجع فرص العمل المتاحة أمامهم من جهة، واشتداد الحصار السياسي وقمع الحريات من جهة ثانية، ناهيك بالأثر الكبير لوسائل الاتصال الحديثة، وخصوصاً وسائل الإعلام الاجتماعية مثل فيسبوك وتويتر. وهذا ما يتوافق في جزء كبير منه مع فرضية عدد من خبراء الاقتصاد السياسي في «أن الاستقرار السياسي والاقتصادي لا يلبث أن يتزعزع عندما يتزامن التغيّر السريع في التكنولوجيا والاقتصاد والسياسة مع التكتل الديمغرافي للشباب»<sup>(24)</sup>. وبالتالي، مثلت العدالة الاجتماعية مطلباً أساسياً، وخصوصاً أن اقتصاد مصر تحسّن بعد فترة ركود بفعل السياسة النيوليبرالية المعتمدة منذ مطلع تسعينيات القرن الفائت، فمما الناتج المحلي الإجمالي بين الأعوام 2007 و2011 بمعدل 6٪ سنوياً، غير أن أقلية المقربين من الدولة هي التي استفادت من هذا النمو، وليس عموم المصريين<sup>(25)</sup>. فبات النظام الحاكم، وليس في تجلّياته الاقتصادية فحسب، بل في تجلّياته الاجتماعية والثقافية أيضاً، أشبه بكيانات العوالم القديمة، مثل «المجالس والبرلمانات والجماعات والطبقات السياسية ذات السلطة، القائمة] على أساس الامتياز والولادة والحرفة»، [والتي] كانت تمثل مصالح خاصة معينة، لكن [مع تركها] الشأن العام إلى الملك»<sup>(26)</sup>.

لقد اجتمعت هذه العوامل الموضوعية كلّها في الداخل المصري إذن، في لحظة تاريخية، شهد العالم فيها، ولاسيّما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، جملة تغييرات، من أبرزها:

(22) حنة أرندت، في الثورة، م. س، ص 39.

(23) يشكل الشباب في الفئة العمرية 10-24 سنة حوالي ثلث سكان مصر بحسب معطيات صندوق الأمم المتحدة للسكان. متاح على:

<http://egypt.unfpa.org/Arabic/Staticpage/89178fd5-0e9c-4f25-9c81-20534105175c/Youth.aspx>

(24) ريكاردو رينيه لاريمونت، «الخلفيات الديمغرافية والاقتصادية والتكنولوجية لثورات الربيع العربي»، في:

الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، م. س، ص 29.

(25) عماد شاهين، م. س، ص 92.

(26) حنة أرندت، م. س، ص 262.

أولاً: تجاوز الرأسمالية المتوحشة حدود الدول، عبر اختكارات عالمية عملاقة وشركات عابرة للقارات، تقاطعت مصالحها مع مصالح الطبقة الحاكمة والمقربين منها، وانطلاق حركة مناهضة العولمة في سياتل (واشنطن)، في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1999، ضد المؤتمر الوزاري لمنظمة التجارة العالمية، استنكاراً للأضرار التي ألحقتها العولمة ورموزها (مثل الشركات المتعددة الجنسية، والمؤسسات الاقتصادية الضخمة مثل البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي...) بالفئات الفقيرة وميادين العمل والصحة والبيئة وغيرها؛ ناهيك بانكشاف أطماع ومصالح الجبروت الأميركي وازدواجية خطابه المضلل للشعوب<sup>(27)</sup>.

ثانياً: النمو والنشاط المطردان لتنظيمات المجتمع المدني في العالم، بما في ذلك العالم العربي، وذلك منذ مطلع تسعينيات القرن الفائت، والدور الفاعل لهذه المنظمات والهيئات في حركات الاحتجاج السابقة التي شهدتها مصر في مطلع العقد الحالي، بحيث أحصى الباحث المصري شحاتة صيام في كتابه ثقافة الاحتجاج من الصمت إلى العصيان نحو 829 حركة احتجاج بين عامي 2003 و2008<sup>(28)</sup>.

ثالثاً: الثورات الشعبية والانقلابات التي عرفتها تسعينيات القرن الفائت ضد نهب الثروات الوطنية، والفساد المتفشي في المؤسسات الحكومية وبين المسؤولين الحكوميين، والدفاع عن مصالح الفقراء. كما حصل في فنزويلا في العام 1992 وفي إندونيسيا في العام 1998 حين كان للحركات الطلابية الدور المهم في الإطاحة بالدكتاتور سوهارتو (1967 - 1998)، ومن دون قيادة<sup>(29)</sup>.

لكن أسهمت هذه الظروف الموضوعية أساساً في اشتداد الاحتجاجات في

(27) فقد رأى أستاذ العلاقات الدولية في جامعة هارفرد ستيفن وولت - على سبيل المثال لا الحصر - في مقال له حمل عنوان «علم الاجتماع وأحداث ليبيا»، أن العمليات العسكرية من النوع الذي يجري في ليبيا ليس أمامها سوى 3٪ من حظ النجاح في إقامة ديمقراطية، و97٪ في إحداث حرب أهلية. راجع:

Stephen Walt, «Social science and the Libyan adventure», *Foreign Policy*, (24/03/2011)

[http://walt.foreignpolicy.com/posts/2011/03/24/social\\_science\\_and\\_the\\_libyan\\_adventure](http://walt.foreignpolicy.com/posts/2011/03/24/social_science_and_the_libyan_adventure)

(28) نقلاً عن أشرف عبد العزيز، عبد القادر. «المحتجون: كيف تؤثر المظاهرات والاعتصامات في سياسات

الدول؟». مجلة السياسة الدولية. (12 أكتوبر 2013)، متاحة على: <http://www.siyassa.org.eg>

(29) لمزيد من التفاصيل حول تشابه الوضع بين إندونيسيا ومصر راجع: تامر موافي، كش عسكر: إندونيسيا بعد سوهارتو، (القاهرة: الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، 2012).

مصر<sup>(30)</sup>، فإن تحوّل احتجاجات الشعب المصري هذه، بأطيافه وتوجهاته السياسية كافة، وبمختلف شرائحه الاجتماعية، إلى ثورة «عدالة» و«كرامة» و«حرية»، يعني أمرين: أولهما أن الاحتجاجات تحوّلت إلى ثورة بفعل تعنّت النظام وعدم تلبّيته أي مطلب من المطالب المحقّة للشعب، لا بل لجوئه إلى العنف في صدّ التحركات، وبما يؤكّد نظرية «بنية الفرص السياسية» La structure des opportunités politiques التي ترى أن البنى السياسية بقدر ما يمكن أن تسهم في تطوير التعبئة الاحتجاجية، يمكنها الحدّ من انطلاقها؛ ثانياً أن الشعب الذي كان قد رفع في احتجاجات سابقة شعار «لا للتمديد لا للتوريث»، بات واعياً بالعلاقة المشروطة بين تحرّره وحرّيته من جهة، وبين إسقاط نظام جمهوري من جهة ثانية، يستعيد أنساق حكم بائدة قائمة على الامتياز والولادة والتوريث، مستخدماً القمع وسيلة لإذلال شعبه. بحيث ارتسم إيقاع الثورة لاحقاً وديناميتها المحرّكة على هذا الوعي من جهة، وعلى بطش النظام من جهة أخرى. فتيار الثورة - بحسب أحد أبرز رجالات الثورة الفرنسية المدعو روبسبير، وكما أوردت أرندت - كان «يتصاعد باستمرار بفعل جرائم الاستبداد من جهة، وبفعل تقدّم الحرية من جهة أخرى، واللذين كان يحدث أحدهما الآخر بشكل محتّم، بحيث إن حركة وحركة مضادة لها لم توازن ولم توقف إحداها الأخرى عند حدّ»<sup>(31)</sup>.

## تحوّلات مصر لا تحوّلالات الثورة

تتضمّن التظاهرات الخاصة بالظواهر الاجتماعية - بحسب دوركهايم - «ما هو اجتماعي، لكونها تنتج، جزئياً، أنموذجاً جماعياً؛ غير أن كلّ ظاهرة من هذه الظواهر تخضع، وبجزء كبير منها، للتكوين العضوي - النفسي للفرد، وللظروف الخاصة التي يوجد فيها»<sup>(32)</sup>. فالثورة كواقعة اجتماعية هي «كل ما هو عام على

(30) هذا من دون إغفال الإشارة إلى ما جاء به برتران بادي في كتابه الدولتان، تر. نخلة فريفر، ط1، بيروت، 1996، المركز الثقافي العربي، ص6، في أن «لا وجود لجماعة اجتماعية - ثقافية كانت أم قومية - منغلقة كلياً على الآخرين، [لأن] التفاعلات المستمرة تنظم وفق بنيات التبادلات والسلطة التي تحكم النسق الدولي»، وهذا أمر يحتاج إلى دراسة خاصة في حال أردنا تبيان دور بنيات التبادلات والسلطة هذه في إنضاج الظروف الموضوعية للثورة المصرية.

(31) حنة أرندت، م. س، ص66.

(32) Emile Durkheim, *Les règles de la méthode sociologique*, (Paris: Quadrige/PUF, 1999), p. 10.



امتداد المجتمع مع احتفائه بوجود خاص مستقل عن مظاهره الفردية<sup>(33)</sup>. وهذا ما حاولنا تبيانه، من خلال استقرار الوضع المصري وتوصيفنا ما جرى على أنه ثورة، حتى ولو أن فصولها لم تكتمل بعد. ولأن دراسة ظاهرة اجتماعية كظاهرة الثورة المصرية لا يمكن أن تتم بمعزل عن الأفراد وسلوكياتهم والأفعال الاجتماعية عموماً، بالمعنى الفييري، كان لا بد من تلمس الجهود التي بذلها المواطنون المصريون بهدف تغيير الأوضاع السائدة. أي، وبحسب المنظور السوسيولوجي الفييري، «فهم الفعل الاجتماعي من خلال تأويله، وبالتالي محاولة شرح سيرورته وتأثيراته شرحاً سببياً»<sup>(34)</sup>؛ في حين أن «الفعل» هذا، موضوع التأويل، هو ذلك السلوك الإنساني المرتبط بالمعنى الذي يمنحه إياه الفاعل أو الفاعلون<sup>(35)</sup>؛ وهذا يقود إلى تلمس حرص الثورة على المطابقة مع نموذجها المثالي/السلمي، على الرغم من كل الأحداث التي استجدت لاحقاً، بدءاً من استلام الإخوان المسلمين السلطة، وصولاً إلى الانقلاب على الرئيس الإخواني، وما رافق ذلك من سفك دماء، خصوصاً مع تدخل المؤسسة العسكرية، ممثلة بالجيش، إلى جانب الثوار. فالثورة المصرية بدايةً، وبطابعها السلمي، شكّلت دليلاً على أن «الواقعة الثورية لا تعبر عن نفسها بوصفها ظاهرة استتار بالسلطة فقط، بل على أنها مسألة سلوك ومسألة أخلاق أيضاً»<sup>(36)</sup>. فمن بين غايات الثورة- وكما سبق وبيننا- التغيير القيمي، الذي تجلّى أحد أبعاده الأساسية باسترداد «كرامة» الأفراد المهذورة، تلك القيمة التي كان الافتقار إليها قد أصبح عاماً. وفي المقابل، فإن قياس الفعل الاجتماعي المصري وفق لوحة «النماذج المثالية الفييرية» (Type Idéal)<sup>(37)</sup>، وبوصفها أداة بحث سوسيولوجي في فهم سيرورة الفاعلين الاجتماعيين، يضعنا أمام نموذجي أو نمطي الفعل العقلانيين المرتبط أحدهما بقيمة مطلقة (كرامة، حرية، عدالة..) والآخر بهدف ما (أي إسقاط النظام الذي يحول دون تحقيق هذه القيم)، ويكون خلاله الفاعل الاجتماعي واعياً

Ibid, p. 14. (33)

Max Weber, *Économie et société*/1, (Paris: Agora-Pocket, 1995), p. 28. (34)

Ibid., p. 28. (35)

Antonio Gramsci, *Écrits politiques 1914-1920*, (Gallimard: France, 1981), p. 118. (36)

(37) تتألف لوحة «النماذج المثالية الفييرية» من 4 أنماط للفعل الاجتماعي: الفعل التقليدي الذي تمليه التقاليد والعادات الموروثة، الفعل العاطفي الذي تمليه حالة من المزاجية أو حب القيام بهذا الفعل، الفعل العقلاني المرتبط بقيمة معينة، الفعل العقلاني المرتبط بهدف.

بهدفه وبالأَسباب التي أدت إليه.

غير أن ثمة عوائق كثيرة دفعت بمصر إلى شفير الحرب الأهلية، إنما من دون أن تدفع إلى انحراف الثورة عن مسارها. لعل أبرزها الثورة المضادة، وفوز الإخواني محمد مرسي بالانتخابات الرئاسية. فالثورة المضادة، وبما هي، «محاولة ممن تضررت مصالحهم بفعل الثورة، للالتفاف عليها وإحباطها أو منع تقدّمها واكتمال تحقيق أهدافها»<sup>(38)</sup>، والتي قام بها أركان النظام القديم، راهنت على 4 عوامل هي<sup>(39)</sup>: إحداث فوضى وإفشال مهمة الجيش في السيطرة على الوضع، إحداث فتنة طائفية، التشكيك في نوايا الجيش تجاه الثورة، إحداث تأزم اقتصادي، إلا أن نبض الثورة حال دون نجاحها.

ومع فوز محمد مرسي بالانتخابات الرئاسية، انقسم الثوار في ما بعد إلى مؤيدين لمرسي ومعارضين له، وذلك بما يعكس وجهاً من وجوه الصراع العربي الداخلي الذي لخصه جورج قرم بـ «ضياع العرب لهويتهم الأساسية بين أنصار أولوية المكوّن الديني فيها التي يمكن أن تأخذ أشكالاً إقصائية ومطلقة وأحادية الجانب من جهة، والمكوّن المدني والوطني والقومي العربي والليبرالي للهوية، من جهة أخرى»<sup>(40)</sup>؛ وهو انقسام هوياتي له ارتباطاته أو ارتداداته الإقليمية والدولية، ويؤدي - بحسب قرم - مع نظام القيم الذي يتفرع عنه «إلى تناقض عميق في تحديد من هو الصديق ومن هو العدو للمجموعة العربية ككل، بين من يدعي أن المحور الإيراني - السوري - الروسي والصيني هو العدو، ومن يدعي أن الهيمنة الأميركية الصهيونية الأوروبية هي العدو الرئيس»<sup>(41)</sup>. غير أن الصراعات الدموية التي سبقت ولحقت سقوط مرسي، لم تعكس الصراع بين التيار الديني والتيار العلماني فقط، بل عكست روح الثورة التي أبت الاستسلام مرة أخرى لكلّ مظهر من مظاهر السلطة التوتاليتارية. إذ حاول الرئيس الإخواني منذ استلامه المنصب الرئاسي فرض

(38) رابحة سيف غلام، «الثورة المضادة في مصر»، في: الثورة المصرية الدوافع والاتجاهات والتحديات، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012، ص 388.

(39) المرجع السابق نفسه، ص ص 392-390.

(40) جورج قرم، «الحلقة الضائعة في الثورات العربية (1)»، جريدة السفير، (2013/8/5).

(41) المرجع السابق نفسه.

إرادته على المجلس العسكري، وتابع التضييق على العمل النقابي وقمع التحركات العمالية<sup>(42)</sup>، فضلاً عن محاولات الحد من الحريات وإنكار الحقوق والتضييق على المجتمعات المدنية، إلى جانب عدم تبلور مشروع اقتصادي تنموي حقيقي. فلم يعد اللعب على وتر الهوية قادراً على استقطاب ولاء الشعب بغالبيته الساحقة، «ولم تعد مسألة الهوية كافية للإجابة عن تساؤلات العدالة الاجتماعية، التي كانت الشعار المؤسس للانتفاضة الشعبية المصرية 2011. ويقود تقلاب النظر في المشهد المصري إلى أن أطروحات الإخوان المسلمين لا تتصادم بأي شكل من الأشكال مع الخطوط الأساسية لسياسات مبارك الاقتصادية، إذ إن عمودها الأساس هو تغييب العدالة الاجتماعية وتشريع الأبواب أمام السياسات النيو - ليبرالية والاندماج الطوعي في رأس المال العالمي»<sup>(43)</sup>.

وفي إسقاط مرسي، تابعت الثورة المصرية فصولها للمرة الثانية، وبما يشير إلى أنه مع العولمة - وبحسب برتران بادي - وتقدم تقنيات الاتصال وتنوع الولاءات والهويات، باتت التوتاليتارية مشروعاً صعب التحقيق، وأنا دخلنا اليوم في العصر ما بعد اللينيني، حيث الحركات تبدو فعالة عندما تفتقر إلى قائد أو أيديولوجيا أو برنامج أو تنظيم يتولى تحريكها<sup>(44)</sup>.

نخلص مما تقدم إلى أن إسقاط مرسي لم يتم لأنه إخواني، بل لأنه قبل، وبوصفه أحد التيارات الإسلامية البراغمية، وبخلاف التيار السلفي الرفض من حيث المبدأ الاشتغال بالسياسة<sup>(45)</sup>، قبل بالديمقراطية شكلاً (انتخابات، صناديق اقتراع...)، ليس للاستئثار بالسلطة فقط، بل للاستبداد السياسي والقانوني والديني،

(42) راجع دينا جميل، مصر على «القائمة السوداء» لـ «منظمة العمل الدولية»، جريدة السفير، (2013/6/13).

(43) مصطفى اللباد، «الإخوان المسلمون بين «الربيع العربي» و«الربيع العربي»؟!»، جريدة السفير، (2012/11/3).

(44) راجع:

Bertrand Badie «La revanche des sociétés arabes», *Le Monde*, 24.02.2011.

(45) القول برفض التيار السلفي الاشتغال بالسياسة من حيث المبدأ عائد إلى أن التيار السلفي في مصر اشتهر وكما هو معروف بتركيزه تقليدياً على الجانب الدعوي والتربوي والخيري وبالابتعاد عن العمل السياسي المباشر، وإن كانت السلفية عبارة عن توجهات وتيارات متعدّدة ومتنوّعة ومتباينة، ومتضاربة في اتجاهاتها السياسية في كثير من الأحيان. غير أن تجربة السلفيين في مصر تشير إلى رفضهم الديمقراطية قبل الانتخابات المصرية ثم قبولهم بها جزئياً ورفضهم ترشح المرأة للنّياحة ثم قبولهم بذلك... إلخ (راجع محمد أبو رمان، السلفيون والربيع العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013)، ص ص 47، 97، 214).

بغية تجذير منظومة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية كافة. فالملاحظ بالنسبة إلى حالة مصر تحديداً، أنه منذ الحركة الإصلاحية التحديثية لم تنفصل المسألة القومية عن العقيدة الدينية. وقد بين برتران بادي في كتابه «الدولتان» كيف أن الواقع الوطني في مصر أصبح القاسم المشترك لمجموعة الفاعلين، مهما كانت تطلعاتهم، سواء لدى تلامذة محمد عبده المجددين، أم سعد زغلول وحزب الوفد، أم عبد الناصر وأنصاره في مرحلة لاحقة<sup>(46)</sup>، وذلك على الرغم من بقاء الإسلام قاعدة أساسية لبناء نموذج جديد للحدثة. وبالتالي، وبقدر ما كان الشعور الوطني العلماني - إذا ما جاز التعبير - قوياً، ظلت الحدثة المؤسسة على الإسلام، أو على دولة الإسلام (حسن البناء ومن بعده سيد قطب)، قائمة نظرياً لدى بعض التيارات الإسلامية، وخصوصاً لدى الإخوان المسلمين. وهذا يعني ضمناً، أن مجتمعاً متديناً كالمجتمع المصري، يشكّل الإسلام معلماً أساسياً من هويته، لم يثر على حكم جماعة الإخوان المسلمين بسبب إسلاميتها، بل بسبب ممارساتها التي لم تكن أكثر تقدماً أو ديمقراطية من نظام الحكم السابق. ولعلّ في الأمر دلالة على مصداقية الثورة التي يبدو أنها لن تتنازل عن سعيها إلى الافتراق، وبشكل نهائي، عن دولة الاستبداد.

## الثورة والمستقبل

أخيراً، يكثر الكلام على مستقبل مصر، وهو في غالبته نابع عن تخوف من هذا المستقبل غير واضح المعالم على المستويات الاقتصادية والتنموية والسياسية والاجتماعية والثقافية كافة. مردّ ذلك أولاً، أن السياسات النيوليبرالية في غالبية الدول العربية، وفي مصر تحديداً، ترتبط بنظام «الرُبع والفساد والإفساد»، و«بتركّز الثروات في أيادٍ قليلة وتوسيع رقعة البطالة»<sup>(47)</sup>؛ أما التخوف الآخر، فعائد إلى الدور الإشكالي للجيش. إذ ثمة من اعتبره، على سبيل المثال لا الحصر، «حارس الثورة»<sup>(48)</sup>، وجيشاً وطنياً «يتّسم بالمهنية وتتجذّر فيه الوطنية التي تضمن الولاء

(46) برتران بادي، الدولتان، م. س، ص 80.

(47) جورج فرم، «الحلقة الضائعة في الثورات العربية (1)»، م. س.

(48) رابحة سيف علام، «الثورة المضادة في مصر»، في: الثورة المصرية الدوافع والاتجاهات والتحديات، ص ص

للدولة: نظاماً وشعباً»<sup>(49)</sup>، وأنه - وبحسب باكينام الشرقاوي أيضاً - كان حارساً للثورة وحامياً للأمن والاستقرار الداخلي ولعب دور المفاوضات الاجتماعي والوسيط السياسي، بخلاف دور الجيش المعتاد كقوة فرض الأمر الواقع بحماية النظام الحاكم أو القيام بانقلاب قد يتحوّل إلى ثورة<sup>(50)</sup>. وثمة في المقابل من يرى فيه سبباً لأن أصبحت ثورة مصر «هجيناً للثورة والانقلاب»، لأنه - أي الجيش - قرّر الانضمام إلى «المتمردين والمحتجّين»، وتمكّن بذلك من مواصلة تحديد السياسات الحكومية<sup>(51)</sup>، وأضحى مع الإخوان المسلمين «أهم فاعلين سياسيين في الساحة المصرية»<sup>(52)</sup>، وصولاً إلى تلك الآراء التي تخوّفت من وقوع مصر بين استبداديين ديني أو عسكري<sup>(53)</sup>.. إلخ.

ومردّ هذه التخوّفات أيضاً، الانقسام الحادّ بين القوى الليبرالية والقومية والعلمانية من جهة، والتيارات الإسلامية من جهة ثانية. فبعيد استلام الإخوان السلطة، بينت الوقائع تورّط السلفيين في السياسة حتى العظم، ولاسيما أن القواسم المشتركة التي جمعت بينهم في العقيدة والفقه، لم تحل دون تميّز هذا التيار باتساع خارطته وتنوّعها<sup>(54)</sup> (والتي جعلت من الصعوبة بمكان توصيف موقفهم من الثورة)، وما استتبع ذلك من تورّط في السياسة حتى لدى بعض الفصائل أو التيارات السلفية التي تؤمن بمبدأ «طاعة ولي الأمر» (قبول حكم المتغلّب)، المخالف لمبدأ

(49) باكينام الشرقاوي، «المجلس الأعلى للقوات المسلحة حاكماً سياسياً»، الفصل 15، في: الثورة المصرية الدوافع والاتجاهات والتحديات، ص 506.

(50) المرجع السابق نفسه، ص 514-512. الجدير بالذكر إن الشرقاوي في تصنيفها النماذج الرئيسة للعلاقة المدنية - العسكرية في العالم، وضعت 5 نماذج (الأوروبي، السوفياتي السابق، الأميركي اللاتيني، العربي بملامح لها خصوصيتها)، واضعة النموذج المصري كنموذج سادس مستقلّ عقب 25 يناير/ كانون الثاني من حيث نمطه ومساره وشبكة علاقاته بالفواعل السياسية (ص 516-497).

(51) ريكاردو رينيه لاريمونت، ويوسف الصواني، «الثورة والانتفاضة والإصلاح»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، م. س، ص 12.

(52) ريكاردو رينيه لاريمونت، ويوسف الصواني وآخرون، «ما بعد الثورة: تحديات وآفاق الانتقال الديمقراطي»، في: الربيع العربي...، المرجع السابق نفسه، ص 236-227.

(53) فريدة النقاش، «بين استبداد العسكر والاستبداد الديني»، في: مجلة الطريق، العدد 4، السنة 72، (شتاء 2013).

(54) لمزيد من التفصيل حول السلفيين بعامة وحول علاقتهم بالثورة المصرية، راجع محمد أبو رمان، السلفيون والربيع العربي.

«المفاصلة» (تكفير الحكام والخروج عليهم)<sup>(55)</sup>؛ الأمر الذي جعل القوى النقيض، ومن بينها ائتلاف شباب الثورة، تصف «حملة الدفاع عن هوية مصر الإسلامية» من أجل الإبقاء على المادة الثانية من الدستور (التي تشير إلى هوية مصر الإسلامية وإلى أن الشريعة مصدر التشريع) بمثابة الانقلاب على «الدولة المدنية»<sup>(56)</sup>.

ويتكرّس التحوّف من مستقبل مصر بالتوازي مع التشكيك بإمكانية تحقّق ديمقراطية حقيقية على الرغم من قيام الثورة، ولاسيّما أن الديمقراطية تشمل المستويات الاقتصادية والتنموية والسياسية والاجتماعية والثقافية كافة، وأنها لا تقتصر على إطارها الشكلي فقط، والسياسي بالتحديد، والمتمثّل ببعض الآليات الشكلية، مثل الانتخابات وصناديق الاقتراع. فيما الشواهد على نجاح قوى غير ديمقراطية من خلال الانتخابات كثيرة في العالم العربي. إذ إن الديمقراطية لا تكون «من دون ديمقراطيين، ولا ديمقراطيين من دون تربية ديمقراطية وعلاقات ديمقراطية، وهذه لا تكون من دون ثورة ثقافية وإصلاح ديني، وتجديد في علاقات الاجتماع، وتفكيك للبنى والذهنيات الموروثة والمغلقة»<sup>(57)</sup>. فالديمقراطية، وبحسب آلان تورين هي «ثقافة، لا مجرد مجموعة من الضمانات المؤسّساتية» كما أنها، وبحسب تورين أيضاً، تتحدّد بتكامل بين منظورين: الأول ينظر إلى الديمقراطية على أنها أولوية الشؤون المجتمعية على القرارات السياسية، والثاني يرى أن الهوية المجتمعية تتكوّن ديمقراطياً عبر العمل السياسي. إذ إنها - أي الديمقراطية - «تأخذ على عاتقها في آن معاً، طلبات المجتمع ومقتضيات الدولة والتزاماتها»<sup>(58)</sup>.

غير أن السؤال المطروح هو حول ما إذا كانت هذه التحوّفات والهواجس

(55) لمزيد من التفصيل حول نشأة السلفيين واتجاهاتهم ودورهم في الربيع العربي وفي مصر بالتحديد، راجع محمد أبو رمان، مرجع سابق.

(56) لمزيد من التفصيل عن المواقف المناهضة للإسلاميين في مصر، راجع الفصل الثامن من كتاب الثورة المصرية: الدوافع والاتجاهات والتحديات، وهو بعنوان «الإسلاميون والثورة»، لأيممة عبد اللطيف، ص 240.

(57) عبد الإله بلقزيز، «في أزمة الشرعية الديمقراطية»، في: مجلة الطريق، العدد 4، السنة 72، (شتاء 2013)، ص 125.

(58) آلان تورين، ما هي الديمقراطية؟ حكم الأكتريّة أم ضمانات الأقلية، ترجمة حسن قبيسي، (بيروت: دار الساقي، 1995)، ص ص 168، 100.

والتساؤلات كلها - وهي مشروعة بمجملها - تنفي عن حراك مصر توصيف الثورة. وقد حاولت هذه الدراسة تبيان موضوعية هذا التوصيف، انطلاقاً من نجاح الثورة في كسر حلقة أساسية من الحلقات المعيقة للسير في الطريق الديمقراطي، أي نحو المستقبل، بعدما كادت السلطة تصبح «إرثاً شخصياً»<sup>(59)</sup>. ولا تتأتى أهمية هذا التوصيف من فرض الثورة لمسألة تداول السلطة - والذي يبدو أنه لن يكون إنجازها الوحيد - بل من تمظهراتها (ثورة من دون قيادة، انخراط الشعب بكل أطرافه وتوجهاته السياسية، سعي حاسم ولا عودة عنه إلى الافتراق عن دولة الاستبداد، لا بل إلى مناهضة إمكانية قيامها مستقبلاً... إلخ)، والتي جعلت مصر تبني أنموذجها الثوري الخاص، بكل ما ينطوي عليه ذلك من ابتكار. أما عن إمكانية أن تبتكر مصر نمطها الخاص في الديمقراطية، فيشكل مبحثاً آخر، يبقى مرهوناً بمآلات الثورة وارتداداتها المستقبلية.

(59) يقول غسان سلامة ما معناه إن الأنظمة العربية شهدت في السنوات العشرين الأخيرة تطوراً على صعيد الحريات بسبب اضطرابها لقبول مفاعيل ونتائج ثورة الاتصالات، والتي فرضتها الحاجة إلى السياحة والاستثمارات الخارجية، غير أن هذه الأنظمة نفسها - شهدت تراجعاً على صعيد تداول السلطة، بحيث صرنا نشهد نوعاً من تحويل السلطة إلى إرث شخصي، كما أن الانفتاح على السوق العالمي جعل كلاً من بن علي في تونس ومبارك في مصر، وجماعتهما، يستشرسان؛ فلم يكتفيا برفض تداول السلطة، بل اعتبرا الدولة وكأنها خاصتهم، وكأنها جزء من إرثهم الخاص الذي يريدان نقله إلى أبنائهم. وقد وصف سلامة ذلك بشكل من أشكال تحويل الجمهورية إلى حكم ملكي. راجع:

Ghassan Salamé, «Où vont les révolutions arabes?», **Le Nouvel Observateur**, N° 2430, (2 Juin 2011).

## قائمة المراجع

أبو رمان، محمد. السلفيون والربيع العربي. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013.

أرندت، حنة. في الثورة. ترجمة عطا عبد الوهاب. ط1. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008.

بادي، برتران. الدولتان. تر. نخلة فريفر. ط1. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1996.  
تورين، آلان. ما هي الديمقراطية؟ حكم الأكثرية أم ضمانات الأقلية. ترجمة حسن قبيسي، ط1. بيروت: دار الساقى، 1995.

سيف علام، رابحة، «الثورة المضادة في مصر»، في: الثورة المصرية الدوافع والاتجاهات والتحديات. ط1. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.  
شارلوت سميث، موسوعة علم الإنسان. ترجمة محمد الجوهري وآخرين، ط2، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009.

شاهين، عماد. «الثورة المصرية: قوة التعبئة الجماهيرية وروح ميدان التحرير»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، تحرير يوسف الصواني وريكاردو رينيه لاريمونت، ط1، بيروت: منتدى المعارف، 2009.

الشرقاوي، باكينام، «المجلس الأعلى للقوات المسلحة حاكماً سياسياً»، في: الثورة المصرية الدوافع والاتجاهات والتحديات. ط1. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

صندوق الأمم المتحدة للسكان. متاح على:

<http://egypt.unfpa.org/Arabic/Staticpage/89178fd5-0e9c-4f25-9c81-20534105175c/Youth.aspx>

لاريمونت، ريكاردو رينيه، والصواني، يوسف، «الثورة والانتفاضة والإصلاح»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، تحرير يوسف الصواني وريكاردو رينيه



لاريمونت، ط1، بيروت: منتدى المعارف، 2013.

لاريمونت، ريكاردو رينيه، والصواني، يوسف، وآخرون، «ما بعد الثورة: تحديات وآفاق الانتقال الديمقراطي»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، تحرير يوسف الصواني وريكاردو رينيه لاريمونت، ط1، بيروت: منتدى المعارف، 2013.

لاريمونت، ريكاردو رينيه، «الخلفيات الديمغرافية والاقتصادية والتكنولوجية لثورات الربيع العربي»، في: الربيع العربي الانتفاضة والإصلاح والثورة، تحرير يوسف الصواني وريكاردو رينيه لاريمونت، ط1، بيروت: منتدى المعارف، 2013.

لينين. الدولة والثورة، ترجمة معهد الماركسية اللينينية. ط2. موسكو: دار التقدم، لا ذكر لتاريخ الطبع.

ماركس، كارل. الثامن عشر من برومير لويس بوناپرت. ط3. هامبرغ: لا ذكر لدار النشر، 1885.

مجموعة باحثين. ملخص مسح التطورات الاقتصادية والاجتماعية في غرب آسيا 2011-2012. ط1. الأمم المتحدة: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا)، 2012.

Durkheim, Emile. *Les règles de la méthode sociologique*. 10 éd. Paris: Quadrige/PUF, 1999.

Gramsci, Antonio. *Écrits politiques III 1923-1926*. 1 éd. France: Gallimard, 1980.

Gramsci, Antonio. *Écrits politiques I 1914-1920*. 1 éd. France: Gallimard, 1981.

Weber, Max. *Économie et société I*. 1éd. Paris: Agora-Pocket, 1995.

## صحف ودوريات

بن جدو، غسان. «الربيع العربي فارس مقطوع الرأس». صحيفة بيلا الإخبارية، (السبت 18 شباط/فبراير 2012)، متاح على:

<http://www.bellanews.net/index.php/>

جميل، دينا. «مصر على القائمة السوداء» لـ«منظمة العمل الدولية»، جريدة السفير، (2013/6/13).

شكر، عبد الغفار. «25 يناير من الاحتجاج السياسي إلى الثورة الشعبية»، مجلة الطريق، العدد 1، (صيف 2011)، عبد الإله بلقزيز. «في أزمة الشرعية الديمقراطية»، مجلة الطريق، العدد 4 السنة 72، (شتاء 2013).

عبد القادر، أشرف عبد العزيز. «المحتجون: كيف تؤثر المظاهرات والاعتصامات في سياسات الدول؟». مجلة السياسة الدولية. (12 أكتوبر 2013)، متاحة على:

<http://www.siyassa.org.eg>

قرم، جورج. «الحلقة الضائعة في الثورات العربية (1)»، جريدة السفير، (5/8/2013).  
اللباد، مصطفى. «الإخوان المسلمون» بين «الربيع العربي» و«الربيع العربي!!؟»، جريدة السفير، (3/11/2012).

النقاش، فريدة. «بين استبداد العسكر والاستبداد الديني»، مجلة الطريق، العدد 4، السنة 72، (شتاء 2013).

هاسنير، بيير. «الثورات العربية: خيبات راهنة، آمال طويلة الأمد، وإنجازات دائمة»، مركز الجزيرة للدراسات، (11/9/2011)، متاح على:

<http://studies.aljazeera.net/reports/2011/09/2011913103620385948.htm>

Bertrand Badie, «La revanche des sociétés arabes», *Le Monde*, (24.02.2011).

Ghassan Salamé, «Où vont les révolutions arabes?», *Le Nouvel Observateur*, N° 2430, (2 Juin 2011).

Stephen Walt, «Social science and the Libyan adventure», *Foreign Policy*, (24/03/2011). in: [http://walt.foreignpolicy.com/posts/2011/03/24/social\\_science\\_and\\_the\\_libyan\\_adventure](http://walt.foreignpolicy.com/posts/2011/03/24/social_science_and_the_libyan_adventure).



## References

- Bazan, S., Varin, C. Web Science in the context of the Arab Near East. In: *Proceedings of the WebSci10: Extending the Frontiers of Society On-Line*, April 26-27th, 2010, Raleigh, NC: US.
- Briggs, in Shirky, C. The Political Power of Social Media. In: *Foreign Affairs*, Feb. 2011.
- Burris, G. *Lawrence of E-rabia: Facebook and the New arab revolt*. www.jadaliyya.com, 17 Octobre 2011.
- Gladwell, M. Small Change - Why the revolution will not be twitted. In: *The New Yorker*, Oct. 2010.
- Halford, S., Pope, C., Carr, L. A Manifesto for Web Science. In: *Proceedings of the WebSci10: Extending the Frontiers of Society On-Line*, April 26-27th, 2010, Raleigh, NC: US.
- Hall, W., De Roure, D. Understanding Web Evolution: A Prerequisite for Web Science. In: *Proceedings of Web Science Workshop at WWW2008*, Beijing, China, Apr. 2008.
- Hendler, J., Shadbolt, N., Hall, W., Berners-Lee, T., Weitzner, D. Web Science: An interdisciplinary approach to understanding the World Wide Web. In: *Communication of the ACM*, Jul. 2008, vol. 51, no. 7.
- Hofstede, G. Cultures and Organizations: Software of the Mind. In: *Administrative Science Quarterly* (Cornell University) 38 (1): 132–134, 1996.
- Kelly, G. Protest in an information society: A review of literature of movements and new ICTs. In: *Information, Communication and Society*, Vol. 9, N.2, Apr. 2006.
- O'Reilly, T. *Web 2.0 Principles and Best Practices*, O'Reilly Media Inc. Fall 2006.
- Pisani, F. Comment le Web change le monde – L'Alchimie des multitudes, Pearson Education, 2011.
- Pisani, F. *Quand la révolution sort de la bouche des enfants*. Winch5.blog.lemonde.fr. Oct. 2011.
- Rheingold, H. *Smart Mobs, the Next social revolution*. Basic Books. 2002.
- Shirky, C. The Political Power of Social Media. In: *Foreign Affairs*, Feb. 2011.
- Tufekci, Z. *Social Media and Dynamics of Collective Action*, AUSACE Conference 2011. Beirut, Lebanon. 2011.
- Wahab, N. Cited in *Arab Spring: What did we learn about Tech and Revolution*. www.meta-activism.org. Nov. 2011.

digital identity to what Lacan called “extimité”, or exteriorized intimacy.

## **Conclusion**

The “Spring of the Arab Web” has now the shape of a social palimpsests. The new writings of the social sphere reinvent a reality, without erasing the past. The digital cultural origins of the Arab revolutions lie in the co-constitution of Web and born-again Arabism. The Egyptian and Tunisian cases show the complex relations between virtual spaces and networks, between software and language, between standards and usages. Since 2000, the Arab Web is full of micro-events, where small groups of individuals have sown the seeds of discontent, blog by blog, tweet by tweet, video by video. When Tim Berners-Lee calls for a Web Science that analyses and understands the Web at the various micro-and macroscopic levels, we consider that this kind of microscopic event definitely contributes to a better understanding of the Web ecosystem; of the Web as a “biotope for change”.

the Arab society, where traditional values are deeply collectivist, if we consider Hofstede's cultural dimensions<sup>(16)</sup>. The individual dimension of "self" is difficult to apprehend outside the societal structure and the Web creates an original situation: connection, sharing, collaboration, participation encourage autonomous attitudes, individualized actions, in the traditional sphere of relations to "others".

From the underground and hidden "obscure side" of non-authorized relations, the Arab Web actors create a new "karama", a new generosity, where digitalized practices and claims crystallize in a generational mix. This disruptive effect goes way further than just the political transformation that is observed by the Occidental commentator. The spring of the Arab web has created a digital generation, living within new structures, moving the traditional boundaries of identity, religion and culture.

Three examples of this emancipation can be found on the Web itself: - Even the traditional appearance of the Arabic language is altered by the rupture. The immense development of «Arabizy», this new writing where numbers, signs and Latin letters mix to form an easy, fast and international Arabic language on the Web, is a clear example of the construction of a new Arab language at the core of a redefined identity. Here again, Web technologies work as a biotope for experimentation and adoption. Surprisingly, the religious structures of Islam have taken great advantage of their early understanding of the powers of online communication. Cyber-Islam, with leading media figures like Amr Khaled, develops new relations with the believers and creates a new realm of perceptions: the all-powerful political and radical Islamism of the 90's seems downgraded by the new rules, forms and language of cyber-Islam. – If the Arab Web is the place for an individual "coming out", it was obvious that the ultimate taboo of Arab cultures, the "body", would also be used as a weapon of defiance, of personal expression, of individual construction. One of the most blatant examples is the initiative of Alia Al Mahdy, the Egyptian girl who protested with silent pictures of her naked body, published on her blog.

This manifesto is not only a violent expression of destruction of the established rule, but also reflects the passage from an intimate construction of

---

(16) Hofstede. G. "Cultures and Organizations: Software of the Mind". (Cornell University 1996).

new innovations. But in societies where access to freedom of speech via free and democratic technologies is considered as a social promotion, or as an access to private environments, far from familial or security constraints, the disruptive effect really defers.

Nadine Wahab, in *Meta Activism*, explains this process<sup>(14)</sup>: « Since the Egyptian government had made the brick-and-mortar world so unfriendly to free expression and the Internet was so readily available to just tweet, update Facebook, or send a quick blog post, it became the obvious space to express your thoughts”. Each piece of information produced on the Arab Web will then act like a seed in spring: ideas will grow, spread and perform change. Links will work as the underground rhizomes of the future social and political ecosystem. This process, observed from a western vintage point was understood as follow: the “Spring of the Arab Web” must be nurtured by external forces to gain in vigor and power. The disastrous example of “The Gay Girl in Damascus” Blog is pure illustration of the misconception that external intervention can actually help promote change. Here again, Clay Shirky [4] is right in saying that “despite this basic truth -- that communicative freedom is good for political freedom -- the instrumental mode of Internet statecraft is still problematic. It is difficult for outsiders to understand the local conditions of dissent”.

## The Disruptive Effect

The transformative forces of the Arab Web have been at work in the Arab society for more than 10 years. Intellectual identities, cultural values have been built online, far from the authoritative structures. A consequence of the time advantage given by the Web technologies, vertical local powers couldn't really anticipate the change: The Web was seen as a commercial tool and local practices were perceived mostly like personal communication or entertainment. Local structures were also stuck in what Briggs<sup>(15)</sup> calls the “conservative dilemma”: “a state accustomed to having a monopoly on public speech finds itself called to account for anomalies between its view of events and the public's”. The construction of relations between individuals on web social media creates a disruptive effect in

(14) Wahab. In “**Arab Spring: What did we learn about Tech and Revolution**”. (www.meta-activism.org 2011).

(15) Briggs. In “**The Political Power of Social Media**”. (Foreign Affairs 2011).

other political spaces like China for example. By focusing on politics and by exacerbating the role of technology, new determinist analysis fails at avoiding the traps of a new Orientalism, creates “Lawrence of E-Rabia”<sup>(12)</sup>. We consider that it’s impossible to understand the forces at play in the Arab revolts if we don’t try to see what was, in regards of what has not yet been achieved.

To name it the “Spring of the Arab Web” is a direct reference to the performativity of the Web, an influence that goes back to the origins of social transformations in the Arab world, long before the events of December 2011 in Tunisia. It is also a clear differentiation with the concept of Arab Spring: the transformation cycle, initiated by the introduction of new technologies allowing a better usage of the Web in most of the Arab countries, started back in 2000. Following the worldwide trend of virtualization of the economy, Arab countries have heavily invested in high-tech infrastructures. Countries like Egypt, Tunisia, Morocco or the Arab Emirates have provided their populations with increased Internet capacities and democratized access to online connection, through affordable mobile devices. From 2000 to 2010, upload and download speeds have been multiplied by 1000 (from 2k to 2M). Users have taken advantage of these opportunities to level their Web practices with the rest of the connected World.

As Francis Pisani [Pisani, personal communication] put it, the innovative Web user in the Arab World is educated, has an intercultural profile and tends to imitate Web behaviors of the “Western World”. Even if the concept of modernity always refers to the central model of the westernized world, it is possible to say that these new opportunities for the Web Actor of the Arab World brought obvious change in Arab societies. For the first time, the Arab Web actor is contributing, is participating and more interestingly, listened to. This evolution can be compared in sociological and political terms as what O’Reilly<sup>(13)</sup> describes as the adoption of the new Web 2.0 business models in western economies: The web as a platform where immediate, mobile production of content can be uploaded in no time on large and free repositories on the Cloud. When this transformation takes place in a “modern”, democratic environment, the main consequences are economic. The first motivation of Web users is not to reconsider the system that gave them these

(12) Burris. “**Lawrence of E-rabia: Facebook and the New arab revolt**”. [www.jadaliyya.com](http://www.jadaliyya.com), 17 octobre 2011.

(13) O’Reilly. “**Web 2.0 Principles and Best Practices**”. (O’Reilly Media 2006).



different levels. This involuntary synchronicity of the “Actor Web”<sup>(10)</sup> gives it a collective identity that produces common actions. The chaotic and non-harmonic construction of a common decision on the Web emerges under the play of highly complex forces. Tufekci<sup>(11)</sup> explains that this “permanent fight for the control of the time of action” has a direct influence on repressive government decisions in periods of civil unrest.

These decisions mostly consist in anticipative counter-revolutionary events, based on the high cost of individual failure and organization (impossibility of setting up gatherings or great difficulties to communicate among actors). Web Actors exists outside the strict dimension of the time of action, for they would be highly receptive to pressure and their online mobilization would not benefit from the “synchronicity advantage”. Undisciplined groups compensate their lack of discipline and order by using the Web link as a way to structure their action. The authoritarian regimes have a hard time with efficient reaction against “wirearchies” and this gives a decisive momentum to online mobilization. Therefore, it could be possible, if we leave the confined dimension of recorded data, to approach the Web actors as agents of change and social transformation in the timeline of political action.

## The Spring

“Twitter Revolution”, “Facebook Revolution”, “Wikipedia Revolution”, “E-Revolution”, “2.0 Revolution”: too many labels trying to qualify the role of Web technologies in the process of social and political transformations happening in the Arab World. Where the Web should be considered as a factor and not a cause, the new determinism of Western Media has a clear tendency to produce prescriptive discourse.

For the first time in the Arab World, political mobilization has the familiar face of globalized protest and the tools and techniques used by protesters to relay information are the same as the ones used in London or Madrid. If the technology is global, the Arab Spring is just another effect of a larger pattern that might reach

(10) Rheingold. “**Smart Mobs, the Next social revolution**”. (Basic Books 2002).

(11) Tufekci. “**Social Media and Dynamics of Collective Action**” – (AUSACE Conference 2011).

and follows its deepest evolutions. Computer Science has, on the other hand, a tendency to weight the societal impact of the Web with quantitative values from data sets or abstracted models which do not reflect the fine details of human activity, especially when this activity is recorded in unknown territory. Distortion augments with distance and the emergent patterns at a macroscopic scale do not reflect, in the end, the subtlety of what the word “people” means in a specified context.

Some examples of this prescriptive design of data sets analysis can be found in Gladwell’s commentaries on the usage of Twitter in Moldova or in Iran during recent popular revolts: the reality behind the observed set of patterns on the role played by Twitter in the Iranian revolution is far from obvious, especially because most of the tweets were sent from outside Iran. Another example is given by Shirky<sup>(8)</sup>: “The challenges of Freegate and Haystack demonstrate how difficult it is to “weaponize” social media to pursue country-specific and near-term policy goals: The instrumental view is politically appealing, action-oriented, and almost certainly wrong.” The Syrian Revolution provides today another example of the dubious nature of data provided by both sides.

## The Web Actor

If we try to combine profound knowledge of a specific environment, in terms of social structure, political system, economic situation, with the dynamic observation of how links, networks, macrostructures of information form on the Web, a lateral approach is mostly needed. As Hendler et al.<sup>(9)</sup> wrote it, “The Web is different from most hitherto-studied systems in that it is changing at a rate which is of the same order as, or maybe greater than, our ability to observe it.” Synchronized and non-coordinated actions performed by actors in a very short period of time have immediate consequences, in terms of shapes of collaborative knowledge. Permanent content creation on microblogging, Content Management System or collaborative platforms produces an infinite number of micro-interactions between users, creating a meta-network of awareness, at

(8) Shirky. “**The Political Power of Social Media**”. (Foreign Affairs 2011).

(9) Hendler, Shadbolt, Hall, Berners-Lee, Weitzner. “**Web Science: An interdisciplinary approach to understanding the World Wide Web**”. (Communication of the ACM 2008)+.

## The Temporalities

We consider that there is no synchronicity between the Arab Spring and what we describe as the “Spring of the Arab Web”<sup>(6)</sup>. Our proposition is to separate two related but distinct times. Temporalities can mix and observing one of them (politics) doesn’t mean that other dimensions do not exist, in the same context, in the same place. Arab Society is very complex and densely structured. Nevertheless, its influences and evolutions are often measured with a classic political science approach, where technologies are integrated in a temporal succession of event with diachronic principles. Web Science changes the point of view: The Web is not the engine of change. It’s the biotope, the environment.

## The Evaluation

Colliding disciplines is at the heart of Web Science. Humanities and Social Science usually have great difficulties in considering the Web as an object in permanent evolution. If they recognize the fact that the Web, as a technological reality, has a direct impact on society, they do not approach it in all its dimensions especially because they see it as a finalized technology, a reified object. Digital humanities, on one hand, do not only see the Web as a complex set of protocols, languages and hypertext documents identified by URLs, but are able to evaluate its influence on human activity. But as Halford et Al. say, “the reification ‘trick’ is that we ‘see’ the Web and not the networks that work to hold its shape”<sup>(7)</sup>.

The exact same statement could be applied to the contextualized set of Web usages that shapes the Arab Web. It is there, but it doesn’t exist as long as we don’t name it, as long as we don’t see this informational structure where “humans create content of Web pages, link them and form emergent patterns in the Web at a macroscopic scale”. And if these human interactions are “governed by social conventions and laws”, then the Web is deeply integrated into society

(6) The concept of « **spring of the Arab Web** » was proposed in a seminar in 2011 at Saint-Joseph University’s CEMAM research center by Bazan, Varin and Gonzalez-Quijano. It was used in the title of Gonzalez-Quijano’s book “Arabités numériques : Le printemps du Web arabe”.

(7) Susan Halford, Catherine Pope, Less Carr. “A Manifesto for Web Science”. In **Proceedings of the Websci10: Extending the Frontiers on Society On-Line**, April 26-27<sup>th</sup>, 2010, Raleigh, NC:US.

## Introduction

In our contribution for the 2nd ACM Web Science Conference<sup>(1)</sup>, we proposed a contextualized and interdisciplinary vision of the reality of the Web in the Arab Middle East. One of the focus points of our statement was to demonstrate that observing the macroscopic impact of the Web on society should not be approached with prescriptive tools. Choosing Web Science was meant to provide social science new vantage points: following the clarion call made by Halford et Al. at the same conference in their Manifesto for Web Science<sup>(2)</sup>, we tried to gather evidence of mutual shaping of society and technology in the Arab world. Since then, some Arab societies have turned against their authoritative regimes in what is now known as the “Arab Spring”<sup>(3)</sup>. Web applications, like social media platforms, blogs and online communities played a key role in providing structures and framing process opportunities for the revolts<sup>(4)</sup>.

The present paper will try to explain how the Web, as a social machine, as a biotope for change, nurtured Arab society to provide conditions for the success of mobilization and political uprising. Our position is to refute the affirmation that the Web, as a technology, was the main vector of the Arab Spring: the Arab society did not wait for Facebook or Twitter to be able to mobilize and overthrow the oppressive regimes in place. This position follows Clay Shirky’s statement<sup>(5)</sup>: “The more promising way to think about Web technologies is as long-term tools that can strengthen civil society and the public sphere. In contrast to the instrumental view of Internet freedom, this can be called the environmental view”.

- 
- (1) Bazan, Varin. “**Web Science in the context of the Arab Near East**”. (Proceedings of the WebSci10: Extending the Frontiers of Society On-Line, April 26-27th, 2010, Raleigh, NC: US).
  - (2) Halford, Pope, Carr. “**A Manifesto for Web Science**”. (Proceedings of the WebSci10: Extending the Frontiers of Society On-Line, April 26-27th, 2010, Raleigh, NC: US).
  - (3) The term “**Arab Spring**” was first coined in 2005 by several authors in magazine’s editorials (Christian Science Monitor, Der Spiegel, Foreign Policy). Dominique Moisi was the first author to entitle a column with “An Arab Spring?”.
  - (4) Kelly. Protest in an information society: A review of literature of movements and new ICTs. In: **Information, Communication and Society**, Vol. 9, N.2, Apr. 2006.
  - (5) Shirky. “**The Political Power of Social Media**”. (Foreign Affairs 2011).

## شبكة لكل الفصول: الشبكة في العالم العربي كموئل للتغيير

سعدة كلاكش ، ستيفان بازان وكريستوف فاران

### الملخص

يرتكز هذا البحث على مجموعة من المشاهدات العلمية في محاولة لفهم تأثيرات الشبكة العنكبوتية في صنع الربيع العربي ليخلص إلى أن التطورات السياسية لا تتوافق في الزمان والمكان مع التغييرات الاجتماعية التي شارك في صنعها مستخدمو الشبكة. وبالرغم من أن عدداً كبيراً من المستشرقين الجدد يعتمد من وحي تجربته الغربية إلى توصيف الشبكة كعامل حاسم في صنع هذه الأحداث، يقترح هذا البحث فصل التزامن ما بين الوقت المطلوب للتأقلم والوقت المطلوب لإحداث التغيير ليبين أن الشبكة تؤثر على المجتمع بتدرج زمني مختلف: إن الشبكة بمختلف أوصافها المعقدة واستخداماتها تمثل نظاماً حياً متكاملًا وبيئة محفزة للتغيير.

الكلمات المفتاحية: المجتمع العربي؛ الشبكة؛ التحولات الاجتماعية؛ لاعبو الشبكة؛ الزمان؛ المناطق الإلكترونية؛ المجتمعات الإلكترونية؛ مدونات العالم العربي.

# A Web for all Seasons: The Arab Web as a Biotope for Change

Saada KALAKESH, Stéphane BAZAN  
and Christophe VARIN

Université St-Joseph de Beyrouth (Liban).  
UIR Web Science – CEMAM  
uir.webscience@usj.edu.lb

## Abstract

*In an attempt to understand the role played by Web technologies in the social and political 'Arab spring', this paper tries to combine several interdisciplinary observations to explain that political seasons do not obviously synchronize in time and space with the social transformation produced by Web actors. New Orientalism and prescriptive language are too often used to give the Web a determinist role in these events. This paper proposes to de-synchronize the time of adoption and the time of action to put forward the idea that the Web impacts society in a separate dimension: The Web, in all its complex shapes and usages is an ecosystem, a biotope for change.*

**Keywords:** Arab Society; Web; Social transformation; Web players; Temporalities; Online territories; Online communities; Arab Blogosphere.



### محور III

التعبيرات في الثورات العربية  
وأشكالها المبتكرة





# الترهيب والمقاومة والمخيال الجندري

## في العرافيتي القاهرية

منى أباطة

الجامعة الأميركية في القاهرة

mona.abaza@gmail.com

ترجمة وإعداد هدى طالب

hudasrage@hotmail.com

### الملخص

لا يزال تمكين المرأة قضية من القضايا الجوهرية في تحديد مستقبل الثورات العربية غير المكتملة<sup>(1)</sup>. فقد علق العديد من الباحثين والناشطين والنسويات بقلق على وضع المرأة الخطير وغير المستقر بعد اندلاع الثورات وانتشار مداها في كل من تونس ومصر وليبيا. وأعرب العديد منهم عن تخوفه من أن تهيمن المسائل الخلافية في موضوع «الجندر»<sup>(2)</sup>، أو النوع الاجتماعي<sup>(3)</sup>، في منطقة الشرق الأوسط في السنوات المقبلة. كما نقل عن القادة المسيحيين تخوفهم من ضغوط الإسلاميين لإجبار النساء على ارتداء زي «مناسب أكثر» لمجتمعاتهم<sup>(4)</sup>. وقد لفت آخرون إلى أن المواقف المعادية للمرأة يمكن ملاحظتها في أنحاء

---

(1) مقالة نشرت باللغة الإنكليزية على الموقع الإلكتروني جدلية **Jadaliyya** في 30/6/2013، انظر:

[http://www.jadaliyya.com/pages/index/12469/intimidation-and-resistance\\_imagining-gender-in-ca](http://www.jadaliyya.com/pages/index/12469/intimidation-and-resistance_imagining-gender-in-ca)

وكل الصور المدرجة في المقال بعدسة د. منى أباطة وقد ترجمت المقالة وأعدتها مشكورة الباحثة هدى طالب سراج.

(2) <http://azzasedky.typepad.com/egypt/2012/05/mutilating-bodies-the-muslim-brotherhoods-gift-to-egyptian-women-opendemocracy.html>

(3) Hania Sholkamy «Why women are at the heart of Egypt's political trials and tribulations» in **Democratic Wealth**, 24 January 2012.

<http://www.opendemocracy.net/5050/hania-sholkamy/why-women-are-at-heart-of-egypt-s-political-trials-and-tribulations>

(4) Mariz Tadros, «Egypt's women have had enough of being told to cover up» in **The Guardian**, Tuesday 29 May 2012.

<http://www.theguardian.com/commentisfree/2012/may/29/egypt-women-cover-up-coptic>

الدول العربية في مرحلة ما بعد الثورات<sup>(5)</sup>، لأن الإسلاميين حين تولوا السلطة كشفوا عن توجهاتهم، فتصرفوا كوكلاء لـ «النيوليبرالية الإسلامية» وهي أيديولوجية تعمل، جنباً إلى جنب، مع سواها من التدابير المقيدة للمرأة. وفي المحصلة، فقد أشار هؤلاء المراقبون إلى مختلف الأفعال المروعة التي ملأت شوارع القاهرة والتي تتجه في اتجاه واحد: استهداف أجساد النساء<sup>(6)</sup>. يتطرق هذا البحث إلى دراسة التغييرات المتصلة بالسياسات ومسألة «الجندر» كما برزت في فنّ الجرافيتي الذي أشعل جدران القاهرة وشوارعها بالألوان.

الكلمات المفتاحية: جرافيتي؛ النساء المحتجّات؛ الجندر؛ الثورات العربية؛ جسد المرأة؛

مصر.

(5) Deniz Kandiyoti, «Disquiet and despair: the gender sub-texts of the ‘Arab spring’» in **Democratic Wealth**, 26 June 2012.

<http://www.opendemocracy.net/5050/deniz-kandiyoti/disquiet-and-despair-gender-sub-texts-of-arab-spring>

<http://www.opendemocracy.net/5050/hoda-elsadda/egypt-battle-over-hope-and-morale>, (6)

## Abstract

### Terrorism, resistance and gender imaginary in Cairo Graffiti

Mona Abaza

Translated and designed by Huda Taleb

*The issue of women's empowerment continues to be of paramount significance in determining the future of the incomplete Arab revolutions. Numerous scholars, activists, and feminists have commented with concern about the precarious position of women after the contagious revolutions, which started in Tunisia, Egypt and Libya. Many have expressed anxiety that the controversial gender issue in the Middle East will dominate the coming years, as even Christian leaders transmit Islamists' pressure on women to dress «more modestly» to their communities. Others have remarked that misogynist attitudes are observable today across the post-revolutionary Arab states, because the Islamists in power have revealed themselves to be agents of an «Islamic neoliberal» ideology that works hand in hand with constraining measures regarding women. These observers have pointed to various shocking acts that all converge in one direction: the targeting of women's bodies. This article attempts to weave a text on the recent changes pertaining to gender issues and politics in Egypt with the flowering art of graffiti that has filled the streets of Cairo.*

**Keywords:** Graffiti; protesting women; gender; Egypt; Arab revolutions; woman's body.

## المقدمة

جسد الرئيس حسني مبارك الكهل، وعهده الطويل، المؤسسة البطورية القمعية في مصر. وبعد الإطاحة بالرئيس في 11 فبراير / شباط من عام 2011، حلّ مكانه مجلس عسكري جلّه من الكهول استمر في استخدام العنف لإخضاع الاحتجاجات. وكانت موجات الانتقام والثأر هذه موجّهة نحو الشباب، كأن الصراع الذي تمثّل في عملية تشويه الأجساد الفتية كان بين جيلين: جيل الجنرالات الكهول وجيل المحتجين الشباب.

وبعد قرابة عام من انتخاب الرئيس محمد مرسي الذي ينتمي إلى تنظيم الإخوان المسلمين، تنامى شعور عام بأن شيئاً لم يتغير فعلياً في موضوع حقوق المواطنين. فأَي من المسؤولين عن عمليات قتل المتظاهرين منذ يناير/ كانون الأول 2011 لم يدين أو يحاكم. وهذا الأمر الذي ولّد موجات احتجاج جديدة قابله حكم الإخوان بموجات عنف واستخدام للبلطجية وتنامٍ لعمليات التحرش الجنسي بغية إرهاب المواطنين ومنعهم من الاحتجاج في ميدان التحرير.

لكن هذه السياسات القمعية والبيانات المشرعة لها من قبل المسؤولين العسكريين والسياسة الإسلاميين، على حدّ سواء، أصبحت موضع سخرية وتعليقات لاذعة من قبل المعارضة وإعلامها؛ وكانت أشدها وطأة رسومات الجرافيتي التي أنتجها الناشطون المصريون الشباب في طول البلاد وعرضها. فأضحت تصاويرهم المناهضة للسلطة واحدة من أقوى الوسائط التعبيرية التغييرية والمناهضة للنظام. وفي الواقع، فالكثيرون يعتقدون أن المجلس العسكري قد سبق وهُزم معنوياً، ومن قبل مرسي، بفضل سخرية الجمهور من العنف عبر النكتة الشعبية والجرافيتي. في ما يلي يتطرق البحث إلى دراسة التعبيرات الشعبية لهذه الحقبة وتطوّراتها من خلال رسوم الجرافيتي التي غطّت جدران القاهرة وشوارعها.

## العنف العام ضد النساء: مصر تحت حكم المجلس العسكري

باستلام المجلس الأعلى للقوات المسلحة السلطة في فبراير / شباط 2011، أصبح التحرش الجنسي<sup>(7)</sup> وسيلة واضحة وعلنية لتخويف المعارضين وإذلالهم، وتحديدًا الحراك النسوي المعارض. إذ تم استخدام الاعتداءات الجنسية لترهيب الصحافيات الأجنبيات<sup>(8)</sup> فضلاً عن تشويه وتحطيم صورة ميدان التحرير الذي أصبح منطقة تتمتع فيه النساء، بالأمان أقله من التحرش الجنسي، منذ احتوائه الحراك الثوري في يناير/ كانون الثاني وفبراير / شباط 2011.

في مارس/ آذار 2011 أخضعت المتظاهرات لما أصبح يعرف بـ «كشوف العذرية» من قبل عسكريين. وبزّر المتحدث باسم الجيش هذا العمل بأنه إجراء لمنع المتظاهرات من لوم الجيش عن مسؤوليته في «فضّ بكارة» بعضهن<sup>(9)</sup>. سميرة إبراهيم التي كانت إحدى ضحايا عملية «كشف العذرية» تقدّمت بدعوى ضد الطبيب المسؤول في الجيش. ولكنه بُرِّأ مثل غالبية ضباط الشرطة المتورطين في قتل وجرح آلاف المتظاهرين في يناير/ كانون الثاني وفبراير/ شباط 2011<sup>(10)</sup>. تجلّى هذا الحدث في ميدان التحرير في القاهرة من خلال غرافيتي مميز (رسم 1).

Gamal Essam El-Din, «Shura MPs fault protesters for Tahrir Square rapes, sexual harassment» (7) in **Ahram online**, Monday 11 Feb 2013.

<http://english.ahram.org.eg/NewsContent/1/0/64552/Egypt/0/Shura-MPs-fault-protesters-for-Tahrir-Square-rapes.aspx>

Lauren Wolfe/CPJ Guest Blogger, «Lara Logan sees parallels in Tahrir Square sex assault» (8) in **The World Post**, 29 June 2012.

[http://www.huffingtonpost.com/committee-to-protect-journalists/lara-logan-sees-parallels\\_b\\_1638682.html](http://www.huffingtonpost.com/committee-to-protect-journalists/lara-logan-sees-parallels_b_1638682.html)

Elizabeth Flock «Samira Ibrahim is the woman behind Egypt's ban of virginity tests» in the **Washington Post**, Dec 27, 2011.

[http://www.washingtonpost.com/blogs/blogpost/post/samira-ibrahim-is-the-woman-behind-egypts-ban-of-virginity-tests/2011/12/27/gIQACKNgKP\\_blog.html](http://www.washingtonpost.com/blogs/blogpost/post/samira-ibrahim-is-the-woman-behind-egypts-ban-of-virginity-tests/2011/12/27/gIQACKNgKP_blog.html)

Protesters slam acquittal of virginity tests defendant On, Translated from Al-Masry Al-Youm (10) **Egypt Independent**, Tue, 13/03/2012.

<http://www.egyptindependent.com/news/protesters-slam-acquittal-virginity-tests-defendant>



رسم 1: سميرة إبراهيم، شارع محمد محمود، ميدان التحرير، القاهرة.

[في قراءة لهذه الصورة، أبرز فنان غير معروف<sup>(11)</sup> بورتريه الناشطة سميرة إبراهيم، صاحبة قضية «كشوف العذرية»، تبرز فيه شامخة، متسيدة المشهد، تليها مدرعة لا توازيها حجماً، وجنوداً توحدوا في وجوههم المستنسخة حاملة صورة المجند الطيب أحمد عادل المتهم بإجراء كشوف عذرية للفتيات اللاتي اعتقلن بعد فض اعتصام 9 مارس/ آذار 2011].

سعى خطاب النظام السابق، والذي استمر تداوله بعد فبراير/ شباط 2011، إلى تشبيه المحتجّات بالبغياء لتركهن بيوتهن والمشاركة في المظاهرات. وعملاً بهذا المنطق، فهنّ يستحقن أن يغتصبن. وللأسباب عينها قام بعض الدعاة السلفيين وأحد مقدمي البرامج التلفزيونية المناصر لمبارك في توصيف متظاهرة<sup>(12)</sup>، كانت إحدى ضحايا عنف الأمن، بـ «العاهرة» لأنها ظهرت شبه عارية بعد الاعتداء عليها. كانت

(11) مليحة مسلماني، جغرافيتي الثورة المصرية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت ط1 يناير 2013، ص 112. وفي رسم جغرافيتي آخر لمجموعة «اسبراي» حمل تعليقاً تحت صورة مطابقة لسميرة إبراهيم: «مش هتقدروا تكسروني». مرجع سابق ص 111.

تعرفنا على «أحمد عادل» من خلال ما كُتب تحت رسمه في إحدى لوحات الجغرافيتي: «أحمد عادل الموجي - معتصب عروض بناتنا». مرجع سابق ص 111.

(12) Karen Habashi, «The objectification of Women in Egypt» in CNN I Report, April 16, 2013. (12) <http://ireport.cnn.com/docs/DOC-958303>

هذه الضحية قد شاركت في مظاهرة مناهضة للمجلس العسكري قرب مقر مجلس الوزراء في 17 ديسمبر/ كانون الأول 2011. وكانت ترتدي الجينز والعباية والحجاب. تجدر الإشارة إلى أن قوات الأمن هاجمت في اليوم السابق للحادثة المتظاهرين بوحشية متسببة بقتل إثني عشر<sup>(13)</sup>، وجرح المئات وسحل إحدى الجثث إلى كومة القمامة. أما بعد ظهر ذلك النهار، فقد ضربت الشرطة العسكرية وسحلت المتظاهرة المحجبة<sup>(14)</sup>، تاركة إياها مكشوفة الصدر وحمالة صدرها الزرقاء ظاهرة للعيان<sup>(15)</sup>.

ولسخرية القدر، أصبحت حمالة الصدر الزرقاء هذه رمزاً سيمائياً للنضال الوطني ضد كل من المجلس العسكري والسلفيين على حد سواء. وفي 20 ديسمبر/ كانون الأول 2011، قام نشطاء الثورة بإحدى أكثر المظاهرات «النسوية» أهمية ضد سياسات المجلس العسكري؛ انطلقت هذه المظاهرة من ميدان التحرير نحو ميدان طلعت حرب واستطاعت استقطاب الآلاف. يومها هتف المتظاهرون ضد المجلس العسكري ورددوا شعار «نساء مصر خط أحمر» حاصدين زخماً شعبياً هائلاً. وبعد أن قام العسكر بمحو الشعارات والرسوم في شهر نوفمبر، ما لبثت جدران المدينة أن امتلأت بمئات الرسوم لـ «الحمالة الزرقاء».

بعيد الحادثة، أنتج الفنان التشكيلي محمد عبلة مجموعة مميزة من اللوحات الزيتية بعنوان «ذئاب»، رسم فيها صاحبة «الحمالة الزرقاء» تتعرض للسحل والضرب من قبل رجال أمن رؤوسهم كرؤوس الذئاب (رسم 2). وفي تظاهرة فنية احتجاجية عرض عبلة رسوماته في ميدان عابدين وجال بها مع مجموعة من الفنانين عبر الميدان. ثم نشرها لاحقاً على حسابه الفيسبوكي، فعممها المتظاهرون مثل رسومات الغرافيتي الأخرى لـ «الحمالة الزرقاء» في الساحات تذكيراً بالحادثة وتعبيراً عن رفضهم لها.

Sunday updates: Tear gas fired in Tahrir Square, police beat and arrest protesters in **Egypt** (13) **.Independent**, 21/11/2011

<http://www.egyptindependent.com/news/sunday-updates-tear-gas-fired-tahrir-square-police-beat-and-arrest-protesters>

Lina El-Wardani, «Women activists refuse to be cowed by sexual violence, marginalization» (14) in **Ahram online**, Thursday 8 Mar 2012.

<http://english.ahram.org.eg/NewsContent/1/64/36225/Egypt/Politics-/Women-activists-refuse-to-be-cowed-by-sexual-viole.aspx>

(15) أصبحت تعرف بـ «فتاة التحرير» و«ست البنات» وعُرفت حادثة الحمالة الزرقاء بـ حادثة «فتاة التحرير».





رسم 2: "مش هتنسى يا ست البنات"

[بناء بصري لوني صاحب يؤرخ لواقعة سحل البلطجية للفتاة المتقبة والتي أطلق عليها اسم "ست البنات" لأنها بقيت مجهولة الهوية للإعلام. ترك الاعتداء الصارخ عليها آثاراً مهمة ومؤلمة في الذاكرة الجماعية. وتكلم الفنان باسم الشعب معلناً أنهم لن ينسوا الجريمة].

### النساء المحتجّات: مصر تحت حكم الإخوان

في عهد الرئيس محمد مرسي، استمرت الممارسات العنيفة أداة تكتيكية لإرهاب المتظاهرات. فقد هوجمت صحافية شابة بوحشية من قبل مجموعة مساء يوم 21 أكتوبر 2012، بعد أن حدثت المواجهات والصدامات بين أعضاء من تنظيم الإخوان المسلمين ومعارضين منعوا من دخول ميدان التحرير<sup>(16)</sup>.

بعد شهر على الإعلان الدستوري للرئيس مرسي، قامت الحركات الشبابية

Female reporter «savagely attacked and groped, in Cairo during live broadcast for French TV (16) news channel in **Daily Mail Reporter**, 21 October 2012.

<http://www.dailymail.co.uk/news/article-2220849/Sonia-Dridi-attack-Female-reporter-savagely-attacked-groped-Cairo-live-broadcast-French-TV-news-channel.html>



رسم 3: «لا» متعددة الأشكال و«الحمالة الزرقاء»

[«لا» لتعرية الشعب - «لا» لقانون الطوارئ - «لا» للكائنات الفضائية - «لا» لحكم العسكر - «لا» لقتل شيوخ الأزهر - «لا» للجدران العازلة - تحيا الثورة سلمية. غرافيتي نصي نموذجي للتعبير عن الرفض والمقاومة بتقنية الاستنسل لمجموعة «لا» من أعمال الفنانة بهية شهاب<sup>(17)</sup>.]

الناشطة بنصب مخيم احتجاجي سلمى خارج القصر الرئاسي في القاهرة. وتصاعدت وتيرة الاحتجاجات بالرفض والآلات (رسم 3) وتزايدت الاعتداءات الجنسية على ساحة الرفض، وبلغت الذروة حين أرسلت جماعة الإخوان المسلمين مناصريها المسلحين لمهاجمتهم في الخامس من كانون الأول/ديسمبر 2012. نصب المسلحون غرفهم الخاصة للتعذيب بمساندة رجال الشرطة<sup>(18)</sup> مكرسين بذلك مستوى عنفي نوعي جديد. فعلى ما يبدو كانت هناك عمليات

(17) بهية شهاب فنانة وباحثة وأستاذة مساعدة في قسم الفنون في الجامعة الأمريكية في القاهرة، أقامت معرضاً وألفت كتاباً بعنوان «لا ألف مرة»، قامت بهما بتجسيد كلمة «لا» بألف شكل مختلف استمدتها من فترة تمتد 1400 عاماً. وعند اندلاع الثورة قامت برسم «لا» متعددة الأشكال مع عناوين مختلفة مؤلفة بذلك غرافيتي نصي مع خرق وحيد هو رسمة الحمالة الزرقاء.

Mariz Tadros «Signs of Islamist fascism in Egypt?» in **Democratic wealth**, 8 December 2012. (18) <http://www.opendemocracy.net/5050/mariz-tadros/signs-of-islamist-fascism-in-egypt>

اغتصاب ممنهجة للنساء المحتجّات في ميدان التحرير من قبل مجموعات منظمة من المجرمين عملوا على اصطيادهن وعزلهن قبل اغتصابهن. ومذّك تكررت عمليات الاغتصاب هذه بانتظام، وكأنّ التحرش الجنسي أصبح مادة دسمة ومخططاً لها لتشويه صورة الميدان. وفي موازاة ذلك، وعبر تكتيك ممنهج من قبل النظام لتهيب النساء المتظاهرات، اعتدى مسلحون على عشرين امرأة في حوادث متفرقة جرت في غضون عشرة أيام خلال شهر نوفمبر 2012<sup>(19)</sup>. وفي فبراير 2013، حمل بعض أعضاء مجلس الشورى - المهيمن عليه من قبل إسلاميين - المسؤولية لضحايا الاعتداءات الجنسية من النساء لأنه كان حرياً بهنّ ألاّ يتظاهرن في ميدان التحرير<sup>(20)</sup>. وبمعنى آخر فقد شرّع النظام عمليات الاعتداء والاغتصاب.

هذا العمل الجرافيتي المشبع باللون الأسود من أعمال ميرا شحادة وزفت. عُرف العمل بالأوساط الشبابية باسم «دائرة الجحيم» لما يمثل من حلقات البلطجية حول النساء للاستفراد بهن والاعتداء عليهن في عمليات ممنهجة ومتكررة. تكلم العمل الذي أنجز في الذكرى الثانية للثورة بتعابير تهكمية وجارحة تداولها المعتدون مثل: «متخافيش احنا جاين نساعدك»، و«بنت تتاكل الصرامي»، و«أنت مش شايف هي لابسة أيه»، و«هي أصلاً عايزة كده»<sup>(21)</sup>...

إن تكتيك الإذلال عبر عملية الاعتداء الجنسي على النساء، شابة كانت أم عجوزاً، له سوابق في مصر. ومردّد ذلك في أكثر التعليقات شيوعاً بأنه نتيجة الكبت الجنسي أو المحرّمات والتقاليد المتولدة من روادع دينية تفرّق بين الجنسين. أما الأسباب الأخرى فهي العوامل الاقتصادية الشديدة الصعوبة والمرتبطة بالنمط

Mosireen, «Sexual Torture is Systematic: from Mubarak and Scaf to the Muslim Brotherhood (19) (video)» in **Jadaliyya**, 24 June 2013.

[http://www.jadaliyya.com/pages/index/12410/sexual-torture-is-systematic\\_from-mubarak-and-scaf](http://www.jadaliyya.com/pages/index/12410/sexual-torture-is-systematic_from-mubarak-and-scaf)

Gamal Essam El-Din, «Shura MPs fault protesters for Tahrir Square rapes, sexual harassment» (20) in **Ahram online**, Monday 11 Feb 2013.

<http://english.ahram.org/Egypt/0/64552/Egypt/0/Shura-MPs-fault-protesters-for-Tahrir-Square-rapes.aspx>

(21) النصوص الواردة في العمل من إنتاج الفنانة ميرا شحادة التي كانت لها أعمال جرافيتي متعدّدة تضمّنت رسائل واضحة ضد التحرش الجنسي. كما أضاف الفنان زفت في هذا العمل الفني بعض التعابير وهو فنان الجرافيتي الذي حملت العديد من جدران القاهرة كما من توقيعه.



رسم 4: "دائرة الحميم"

[رسم على حائط المجلس الأعلى للقوات المسلحة في شارع محمد محمود، يصور الاعتداء على النساء بالسكاكين في ميدان التحرير، حيث تصاعدت وتيرة العنف عامة والعنف الجنسي خاصة، في عامي 2011 و2012].

الاستهلاكي السائد فضلاً عن عدم القدرة على تحمّل كلفة الزواج في مجتمع يضم ثمانية ملايين عازب وعازبة في عمر يفوق 35 عاماً، وفي موازاة عُرفٍ يقضي بتحريم العلاقة الجنسية خارج إطار الزواج. وفي رأيي تبقى هذه التعليقات الترميزية بسيطة. فعندما تتحول السلطة الاستبدادية، والتي تدّعي أنها تنطق باسم القيم الإسلامية وتدافع عن الشريعة، إلى مرتكب أساسي في عملية العنف الجنسي في الفضاء العام، فلما لا يتبع «المواطنون» المسار العنفي عينه؟

يسجّل يوم الأربعاء الأسود في 25 مايو 2005 علامة فارقة حيث تعرضت المتظاهرات لأول عملية اعتداء جنسي في تاريخ مصر الحديث. فقد قامت النساء بالتظاهر أمام نقابتي الصحافة والمحاماة ضد التعديل الدستوري الذي يضمن وصول ابن الرئيس مبارك لسدة الرئاسة. مورست العمليات العنيفة الجنسية ضدهن من قبل البلطجية المدفوعي الأجر التابعين للحزب الوطني الحاكم. وتبع هذه الحادثة عمليات اغتصاب في جميع أنحاء مدينة القاهرة طالقت نساء يافعات، أكانت محجبات أم لا، في موسم الاحتفالات الدينية في 2006. ولا تتعدى كل الاعتداءات على النساء منذ فبراير 2011 كونها طبعة مستنسخة، إذ ظهرت بلطجية العهد السابق من جديد وعاثت في المدينة تحرّشاً واعتداءً، بينما وقفت قوى الأمن متفرّجة، إن لم نقل متواطئة.



رسم 5:

[جغرافيتي مؤلف من ستة مقاطع على شكل مربعات ملوَّنة تضمَّنت رسومات ونصوصاً ترفض التحرش الجنسي. إلى اليمين: «لا للتحرش» (أسفل)، «اللي يقولك يا فرسه ارفسيه» و«أوقفوا التحرش» (أعلى). في الوسط: «مهما بان أو ما بنش جسمي حر ما يتهنش» (أسفل)، «اللي يقولك يا مشنه اديله بالاجنة» (أعلى). إلى اليسار: «استرجل واحميها» (أسفل)، «اللي يقولك يا بطل وري له العضل» و«أوقفوا التحرش» (أعلى).].

### النساء في العملية الانتخابية والإخوان في مجلس الشعب

اصطدم الظهور الساحر للنساء في ميدان التحرير بغيابهن شبه المطلق عن مجلس الشعب المنتخب في نوفمبر<sup>(22)</sup>، والذي حُلَّ لاحقاً. فبالمقارنة مع المغرب وتونس، سجلت مصر أدنى تمثيل للنساء في مجلس الشعب، إذ فازت ثماني سيدات فقط وتم تعيين اثنتين<sup>(23)</sup>. تعود بعض أسباب هذه الهزيمة بحسب هانيا

Nicola Pratt, «Egyptian Women: Between Revolution, Counter-Revolution, Orientalism, and (22) «Authenticity» Authenticity» in *Jadaliyya*, 6 May 2013.

[http://www.jadaliyya.com/pages/index/11559/egyptian-women\\_between-revolution-counter-revoluti](http://www.jadaliyya.com/pages/index/11559/egyptian-women_between-revolution-counter-revoluti)

(23) وفق هانيا شلقامي شكَّلت النساء نسبة 17٪ في البرلمان المغربي، بالرغم من فوز الأحزاب الدينية؛ في حين حازت على نسبة 28٪ من المقاعد في البرلمان التونسي. وعلى النقيض فقد فازت النساء فقط بنسبة 2٪ في مصر.



رسم 6:

[الصورة تحمل عملين فنيين متجاورين: "الوصيفات" من أعمال الفنان علاء عوض (إلى اليمين) في مقابل القسم الأول من جدارية "الثعبان المجنح" الرائعة للفنان عمار أبو بكر].

شلقامي إلى كون «دولة راعية للحركات النسوية» فرضت «كوتا غير شعبية ضمن ممارسات فاسدة في العملية الانتخابية».

تشير رؤوس الثعبان الثلاثة في هذا الجزء من الجدارية إلى قوات الأمن الداخلية (القبعة السوداء)، وقوات الجيش (القبعة الخضراء)، وقوات الشرطة العسكرية (القبعة الحمراء). استخدم الفنان في عمله رموزاً استلهمها من الفن المصري القديم حيث وظف الثعبان، وهو رمز الخلود، ليشير به إلى الشر والأذى وسعي النظام إلى البقاء والخلود في الحكم<sup>(24)</sup>.

(24) انظر: مليحة مسلماني، جرافيتي الثورة المصرية، مرجع سابق، ص 223 - 224.

الجدران تهتف - جرافيتي الثورة المصرية، كتاب جماعي، زيتونة 2012، ص 492 - 493.

هنا روبيلين، ترجمة هبة شبلي، «بحبك يا بلادي» «تحولات الربيع العربي - الوطنية والجرافيتي»، مجلة - فكر وفن - معهد غوته - تشرين الثاني / نوفمبر 2013.

<http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/a100/ar12240681.htm>



في المقابل، رسم علاء عوض لوحته «الوصيفات» تفاعلاً مع جدارية بكر (رسم 6)، فولد بذلك متعة فكرية للمتلقي. إن تصوير المجلس العسكري على شكل ثعبان ضخّم مشهد لا يحتاج إلى شرح، أما نتاج عوض الفني المضاف إلى تلك الجدارية فهو أمر مثير للاهتمام. سبع فتيات فرعونيات في مواجهة الوحش، الثعبان بثلاثة رؤوس، ينحنين بمنتهى الود والوقار نحوه. وبيت القصيد أن إيماءاتهم الرقيقة المعبرة ترمز إلى حكمة النساء المصريات على مدى قرون (كتابات هيروغليفيه مصاحبة للوصيفات) وبالتالي فهي تجسد النقيض للنشر والأذى الذين يمثلها الثعبان. إنه «التفوق من خلال الحكمة» في الرسالة التي حملتها هذه المشهدية الجرافيتية المركبة. جسّدت جلسات مجلس الشعب القصيرة الأمد، من يناير إلى يونيو 2012، هاجس الإسلاميين الخطر والمتمثل بممارسة السيطرة على جسد المرأة من خلال مسوّدّة الدستور الرجعية المنحى التي تطالها. فقد تضمّنت مشاريع قوانين تجيز ختان الإناث<sup>(25)</sup>، وتطالب بخفض سن الزواج للفتاة إلى تسع سنوات<sup>(26)</sup>، وترفض قانون الخلع الذي يجيز للمرأة تقديم طلب الطلاق.



رسم 7: «مُصَنَّفَاتُ نِسَاءٍ»  
[لا تصنّفني (بالمحكّية المصرية)  
وبورتريجات لثلاثة نساء إحداهن  
محجّبة وأخرى غير محجّبة وواحدة  
منقّبة، عمل مجموعة «نون النسوة»،  
القاهرة شارع محمد محمود<sup>(27)</sup>].

Amr Dalsh, «Egypt to revive female genital mutilation in the name of Islam?» in UK Raine (25) timeline, May 16, 2012.

<http://rt.com/news/egypt-revive-mutilation-alarm-372/>

<http://www.hrw.org/ar/news/2012/10/08-1>

(26)

(27) «نون النسوة» مجموعة تدافع عن المرأة وقضاياها ومكتسباتها. تعرّف عن نفسها بأنها مجموعة من الشابات والشباب تهتم بقضايا المرأة وتهدف إلى كسر «التابوهات» المجتمعية وذلك من خلال استخدام الجرافيتي في ما أطلقوا عليه «جرافيتي حريمي».

النائبة البرلمانية عن حزب الحرية والعدالة عزّة الجرف كانت من أشد المؤيّدات لهذه المشاريع التي دعت إلى إلغاء قانون مكافحة التحرش الجنسي معللة ذلك بأن «سبب التحرش هو عُري النساء، وبالتالي فالمتحرّش غير مخطئ» إذ أن المسؤولية تقع على النساء في قضية التحرش لأنهن بثيابهن الخفيفة يثرن غرائز الرجال<sup>(28)</sup>. ومما أثار قلق الحركات النسائية دعوتها إلى إلغاء قانون الخلع ومنع إثبات أبناء الزنا؛ ومطالبتها بإلغاء القانون الذي صدر حديثاً والذي يمنح الجنسية للأطفال من آباء أجنبيّين. والطامة الكبرى تمثلت بدعوتها إلى الاعتراف بحق الزوج باغتصاب زوجته إذا تمتعت عن إقامة علاقة جنسية معه ومنعها من السفر من دونه (كي يتم لاحقاً فرض قانون طلب إذن من الزوج يسمح للزوجة بالسفر). كما تمتعت بإلغاء قانوني إخبار الزوج وزوجته الأولى برغبته بالزواج بأخرى، وتمكين الزوجة المطلقة من شقة الزوجية<sup>(29)</sup>. وجاهرت بدعمها لختان الإناث، الذي منع عام 2007 بعد نضال طويل للهيئات النسائية، ووسمته بـ «جراحة تجميلية»<sup>(30)</sup>. فكيف تختلف النائبة الجرف عن السلفيين الذين يشعرون بالتهديد لوجود المرأة في المجال العام والذين يسعون لشطبها من الحياة السياسية (الأمر الذي يلغي وجود الجرف في مجلس الشعب)؟ ويطالب السلفيون بإلغاء قانون تحديد سن الزواج مناديين بالزواج عند سن البلوغ وبرجم الزانيات؛ وهي كلها أمور تُشرعُ للتعدي على حرية المرأة. وكيف يمكن للمرأة ألا تشعر بالخطر حين يرسل الإخوان، كجزء من خدماتهم الاجتماعية في المجتمعات الفقيرة والمهمّشة، «وحدات صحية متنقلة» إلى الصعيد لتقديم «خدمة» ختان الإناث كما لاحظت ماريّز تادرس؟ وبالرغم من نفي الإخوان ذلك<sup>(31)</sup>، فقد أكد باحثون وناشطون أن المطويات التي وزعوها في قرية أبو عزيز في

Sawsan Gad, «We mold the collective memory of sexual assault» in **Egypt Independent**, (28) Tue, 03/04/2012.

<http://www.egyptindependent.com//opinion/we-mold-collective-memory-sexual-assault>

<http://nwrcegypt.org/>

(29)

Maggie Michael, «**Egypt Officials Ban Female Circumcision**» in Washington post, Friday, (30) June 29, 2007.

<http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2007/06/29/AR2007062901284.html>

Mariz Tadros, «Mutilating bodies: the Muslim Brotherhood's gift to Egyptian women» in (31) **inclusive Democracy**, 24 May 2012.

<http://www.opendemocracy.net/5050/mariz-tadros/mutilating-bodies-muslim-brotherhood's-gift-to-egyptian-women>



المنية قد روجت بالفعل للخدمة<sup>(32)</sup>. وكانت هذه الوحدات الصحية تجول وتصول في القرى بينما كان النظام الصحي في حالة انهيار.

### الخاتمة: ثورة غير مكتملة

ويبقى هذا المقال غير مكتمل، كما هو حال الثورة المصرية نفسها. هي ثورة غير مكتملة لأن العديد في مصر يشعرون أن الإسلاميين خطفوا ثورتهم بمساندة الجيش. وبالتالي فليس هناك من استنتاجات يمكن الكلام عنها. وفي موازاة ذلك تتصاعد وتيرة رسومات الغرافيتي متخطية كل محاولات طمسها وإزالتها. ومنذ تسلّم مرسي سدّة الرئاسة حاول الإسلاميون السيطرة على الحيطان وإنتاج غرافيتي خاص بهم وطمس رسومات مناوئهم، لكنهم فشلوا في بث روح النكتة ولم يكن لرسوماتهم أي تأثير يذكر.

تم التحضير لحركة احتجاج شعبية عارمة في عدة محافظات نظمتها أحزاب وحركات معارضة في 30 حزيران 2013 ضد الرئيس مرسي عبر حركة «تمرد». وتبقى شوارع مصر نابضة بالثورة والثوار، وتبقى فنون الشارع/الغرافيتي خير شاهد على حركات الاحتجاج، وتبرز هذه السرديات البصرية بوصفها خير معين على أحقية المطالبة بالمساواة بين الجنسين. فهذه «الأيقونات» المضحكة والمثيرة تعلمنا أن لا رجوع إلى الوراء. فالثقافة الشبابية البديلة ستستمر في إبداء مظاهر الاحتجاج وخوض حربها ضد نظام بطريركي متسلّط بائد عبر الفن والفكاهة.

ولعل هذا الرسم هو خير دليل على روحية الثورة المستمرة، وحضور النساء وفعاليتها، وفنية التعبيرات ومبتكرها في فن الشارع بامتياز، فن الغرافيتي القاهرية.

Lauren E. Bohn and Omnia Al El Desoukie, «Christians in Egypt: A storm within the (32) storm» Via Global Post, by—excerpt, Egypt, 05/24/2012.

<http://azzasedky.typepad.com/egypt/2012/05/christians-in-egypt-a-storm-within-the-storm.html>



رسم 8: سيدة تحمل قبيلة في يدها من أعمال كايزر<sup>(33)</sup>.

[في تصوير استعادي لدعاية الصابون التي انتشرت في منتصف القرن الماضي في المجلات والصحف، تطل هذه السيدة حاملة قبيلة يدوية بدل الصابونة. حركة التضمير السيميائية هذه تؤشر إلى مدلول يختصر صورة المرأة المصرية كفاعلة أساسية في الثورة. وفي تشكيل حروفي متكرر لـ «لا» التي أنتجتها الباحثة والفنانة بهية شهاب (رسم 3)، توسطت رسمة هذه السيدة كتابة لفنان مجهول تضمنت شعار «لا لحكم العسكر» ومقولة بابلو نيرودا الشهيرة «يمكنك أن تدهس الورود لكنك لا تستطيع أن تؤخر الربيع»].

(33) الجدران تهتف - جرافيتي الثورة المصرية، ص 210.  
والفنان كايزر Keizer من أشهر رسامي جرافيتي الثورة.



# تجليات الثورات العربية في تعبيرات الشباب المسرحية المتغيرة

وظفاء حمادي

جامعة الكويت

watfaba@hotmail.com

## المخلص

تعيش المجتمعات العربية اليوم تحولات حملتها رياح ريعية ولكنها عاصفة، وأنتجها الحراك السياسي الذي قام على عاتق الشباب في العالم العربي ولا سيما في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا التي ما زالت تسعى لبلوغ هذه الحالة الثورية التغييرية. وللتعبير عن هذه التحولات ظهرت ممارسات مسرحية من نصوص وعروض أنجزها مسرحيو شباب الربيع العربي من مصر واليمن وسورية وتونس، وهم من الذين مهدوا لقيام الربيع العربي، وجسدوا في نصوصهم رؤيتهم الفكرية التغييرية الثورية. وللتعرف إلى هذه الرؤية نقوم بدراسة مكونات النصوص البنائية الفنية والفكرية، ولرصد علاقة هذا المسرح مع المتلقي الجديد، ومفهومه الحديث للهوية وخصوصيتها. وفي ختام البحث نشير وبدقة إلى أن البنى المسرحية الفنية والفكرية هي بنى متغيرة غير ثابتة، لأنها ما تزال في حالة سيرورة لم تكتمل عناصرها بعد.

الكلمات المفتاح: التغيير؛ الثورة؛ البنية الفنية المسرحية؛ الرؤية الفكرية؛ المتلقي؛ الشباب؛ الربيع العربي.

## Résumé

### Manifestation des révolutions arabes au sein des expressions théâtrales des jeunes

**Watfa Hamadé**

*Les sociétés arabes vivent aujourd'hui différentes métamorphoses suite au printemps arabe. Ces changements importants sont le fruit d'un mouvement politique d'une jeune génération qui lutte pour atteindre des objectifs révolutionnaires dans les pays arabes tels la Tunisie, l'Égypte, le Yémen et la Syrie. Ces changements sont exprimés et illustrés dans l'écriture des textes théâtraux par des jeunes auteurs qui ont initié et marqué la naissance du printemps arabe en incarnant leur vision intellectuelle et révolutionnaire dans des textes dramatiques. Afin de comprendre cette vision, nous allons étudier la structure des textes artistiques et intellectuels (modèles des textes théâtraux de Tunisie, Yémen, Égypte, Syrie) et poursuivre la relation du nouveau récepteur avec cette nouveauté dans le théâtre révélant un nouveau concept de l'identité. L'étude a permis de souligner les structures de ces textes artistiques et intellectuels qui représentent une certaine instabilité et une variation, révélant un processus d'éléments innovateurs bien qu'inachevés.*

**Mots clés:** Foule psychologique; théâtre ; jeunes; performance de l'art; paradigme; Printemps arabe.

## المقدمة

تعيش المجتمعات العربية اليوم تحولات حملتها رياح ربيعية ولكنها عاصفة، وأنتجها الحراك السياسي الذي قام على عاتق الشباب في العالم العربي، ولا سيما في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا التي ما زالت تسعى لبلوغ هذه الحالة التغييرية. وتعزو هذه التحولات - حسب عزمي بشارة - «سيميائياً برفض البوعزيزي للبطالة، والإذلال الأمني، واستخدام حرق الذات كصرخة قصوى تعبر عن انسداد، وحركة خالد سعيد في مصر التي قامت على رفض مقارنة أجهزة الأمن العربية لكرامة المواطن وانتهاكها حرمة جسده. وهو أمر لا تفهمه الأنظمة البطيركية التي ترى في جسد المواطن ملكا لها، ولا ترى في الضرب انتهاكا لحرمة، بل تأديبا مثلما يفعل أب قاس ينزلق إلى السادية أحيانا»<sup>(1)</sup>.

وقد أسس هذا «التأديب» وانتهاك حرمة الجسد لرفض الشباب وتمردهم، ومهد لقيام الربيع العربي برفضه هذه السلطة الأبوية، كما مهد لتغيير أحوال الثقافة والمسرح: نركز في هذا المجال على المسرح، لأنه محور البحث الذي سيتناول الممارسات المسرحية، أي النصوص التي تجسدت فيها الرؤية التغييرية الناتجة من المتغيرات السياسية التي أفرزتها ثورات الربيع العربي. نتناوله في هذا البحث لتبيين الرابط العلائقي بين الثورة والتغيير وانعكاسه على المسرح، دون التغاضي عن بعض المساءلات التي يثيرها هذا الرابط العلائقي ومنها: ما هي تجليات التغيير في المسرح؟ هل أحدث ذلك تغييرا في البنية الفنية المسرحية، وهل أسهم في تخلي هذه البنية عن عناصر مكوناتها التقليدية؟ أم أسهم في تمثله عناصر واتجاهات فنية جديدة تابعة لتيارات فكرية وثقافية وفنية ما بعد حداثة تتلاءم مع الوضع السياسي والفكري والفني المتغير؟ وسنبحث ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذا الفن المسرحي لم تتضح ملامح بنيته بشكل نهائي بعد ولم تتكئ على تراكمات تؤدي إلى نقلة نوعيه نهائية أو واضحة المعالم، فهو ما زال يرسم صورته الأولى لوضع

(1) عبد الله الطحاوي، حوار مع المفكر العربي عزمي بشارة، «الربيع العربي صرخة وجودية من أجل الحرية والكرامة»، مجلة الأهرام الديمقراطية، 15-1-2013. democracy\_social@ahram.org.eg

لبنة التأسيس المواكبة لمسار التغيير، في تونس ومصر وسورية واليمن.  
ولمعالجة ذلك اتبعنا المنهجية بالتمهيد النظري:

## 1- التمهيد النظري للتعريف بالعلاقة بين المسرح والتحولات السياسية والثقافية بشكل عام

### أ- النموذج المعرفي: الصراع بين الأبناء والآباء

ربطاً بمفهوم الصراع الذي أشار إليه بشاره، نرى أن هؤلاء الشباب يسلكون مسارات تغييرية شاقّة، وهي وإن لم تبلغ نهاياتها بعد، فذلك لأن طريق نضالها طويل ولأن فترات المخاض ضرورة حتمية يجب أن تمر بها هذه المجتمعات، التي خضعت منذ مدة طويلة لسلطة قمعية وفسادة وغير عادلة. ويخوض هؤلاء الشباب، نتيجة لذلك، معركة صراع سياسية وفكرية وفنية، بهدف التجديد الذي برز بطرح الشباب لشعارات تثويرية تتلاءم مع هذا الصراع، ومع ما أنتجته التحولات الجديدة من تغير في مفهوم النموذج المعرفي «البراديغم» أي «النسق المعياري الإدراكي» الذي ينظم تفكيرنا في حقل معين ويوفر له الأسس والإطار ويضع حدوده ونطاقه مثل: المفاهيم والنظريات والمنظورات ورؤية العالم<sup>(2)</sup>.

مفهوم، دفع بهؤلاء الشباب العرب لخوض تجربتهم الثورية الهادفة الى التغيير بأساليب مغايرة ومختلفة تتجاوز الأساليب القديمة، وتعمل على كسر التابوهات. فسلكوا طريقهم وسكنوا ميادين التحرير طارحين شعاراتهم هم، شعارات لم تُملّ عليهم ولم تسقط إسقاطاً، ولم تُصنغ إيديولوجياً بل تميّزت بنأي هؤلاء الشباب عن الدوغمائية ورفض الالتزام بمبادئ الأحزاب التقليدية. لقد مارسوا حياتهم بمنأى عن توجيهات القيادات ومارسوا الديمقراطية في التعبير عن أنفسهم، وكان هدفهم دائماً حسب - لوبون - «هو التغيير العميق الذي يصيب أفكار الشعوب... ذلك أن المتغيرات الوحيدة المهمة، أي تلك التي ينتج منها تجدد الحضارات هي تلك التي

(2) Mona Abul-Fadl, «Paradigm in Political Science Revisited: Critical Option and Muslim Perspective», in *The American Journal of Islamic Social Science*, Vo.6, No.1 September

.www.qudwal.com عن 1989. p. 15.

تصيب الآراء العامة والتصورات والعقائد»<sup>(3)</sup>.

لأن هؤلاء الشباب الطليعيين الذين صنعوا الثورة بأفكارهم وبفنونهم، تجمعوا وهم غير متجانسي العناصر التي هي - حسب لوبون - «الطوائف والفئات والطبقات»<sup>(4)</sup>. فسلكوا طريقهم واختطوا مسارهم بدافع يحيل كارل كاوتسكي المنظر الاشتراكي الألماني أسبابه إلى «إن كان تحريك الجماهير يتم لأسباب نفسية بشكل عام، فهناك أسباب اجتماعية واقتصادية أيضاً»<sup>(5)</sup>.

لهذه الأسباب وبهذه الروح الجماعية اجتمع هؤلاء في ميدان التحرير وخاضوا تجربة هي - حسب صادق جلال العظم - «غير مسبوقه - على حد علمي - في تاريخنا السياسي والاجتماعي المعاصر، أي في تاريخ التظاهر العربي أو أشكال الاحتجاج الشعبي أو أنواع المعارضة السياسية الجماهيرية سابقاً»<sup>(6)</sup>.

### ب- تحولات في الفكر السياسي وفي الفن

من الحتمي أن ينتج من هذا النسق السياسي المتغير والتغييرى ممكن إبداعي تغييرى ثورى سىصطرع مع مفاهيم وأنظمة إدراكية - والتعبير لصليحة - تشبك علائقيا مع الأنساق الفكرية الثقافية والسياسية السائدة، أي مع النموذج المعرفى (البرادىغم) السائد، الذى ينتجه الآباء على المستويات الفكرية والسياسية والأدبية، ومع ذلك الذى ينتجه الأبناء والذى تحيل جوليا كريستيفا سببه إلى «أن هؤلاء الآباء هيمنوا بسلطة التملك على مقدرات المجتمع الذى ولدوا ونموا فيه ورفضوا تمردهم الطبيعى والسلمى، مما دفع بالأبناء إلى التمرد العنيف عليهم، بدءا من رفض كتاباتهم الستينية العقيمة والسبعينية الزائفة الحالية التقليدية، مرورا بحقهم فى

(3) غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقي بيروت، 1997، ط1، ص 43.

(4) لوبون، مرجع سابق، ص 43.

(5) مرجع نفسه، ص 22-23.

(6) يوسف حجازي، «صادق جلال العظم يحسم أمره وينتقل إلى التنظير العلني للشئنة والفكر الإسلامى السياسى البنزسى» تعقيماً على محاضرة القاها صادق جلال العظم فى برلين. موقع قنطرة [www.quantara.de](http://www.quantara.de) للحوار مع العالم الإسلامى من نص المحاضرة عن موقع جدلية <http://www.jadaliyya.com/pages/index/11429/> اقتراح اختصار أو حذف الوصلة ووضع عنوان يوسف حجازي.



إبداء الرأي الحكيم في أعمالهم وعروضهم في العقد الأخير...»<sup>(7)</sup>.

ومن بوادر هذا التغيير ظهور الإبداع الجديد في ميادين التحرير الذي أصبح له التأثير الكبير في الجموع المحتشدة في هذه الميادين، وأسهم كما أسهمت الكتابة عامة - حسب ما أورده السيد ياسين - في «القيام بثورة في المجتمع»<sup>(8)</sup>. وكذلك يمكن أن يؤدي - حسب فيرجينيا وولف - «إلى تغيير سياسي وثقافي» لأن قصيدة ما قد تسبب في ظهور جمهورية إلى الوجود»<sup>(9)</sup>.

وتبلور هذا الإبداع الجديد أيضا بظهور تعبيرات استجابات تلقائيا وعفويا لهذه التحولات والتغيرات ولهذا الحراك، مثل: الموسيقى، والغرافيتي والمسرح، وقد أسهمت هذه التعبيرات بدورها في هذه التغييرات المجتمعية، كما شاهدنا في ميدان التحرير في مصر مثل «فرق الأندراوند»، وهي ظاهرة فنية جديدة بدأت في مصر تنتقد وتسخر بشكل لاذع وتحريضي، وتسجل ليوميات الثورة المصرية على جدران ميدان التحرير وبورسعيد وغيرها من جدران المناطق المختلفة. وفي تونس، البلد الذي انطلقت منه أولى رياح التغيير الثورية توجد أيضا ظواهر غنائية ذات طبيعة ثورية حتى وإن كانت لا تهتم كثيرا بأحداث الشارع الثوري لكنها تهتم بهوموم الشباب ومشاكلهم اليومية. وفي ليبيا برزت ظواهر فنية موسيقية تأثرت بالثورة، بل وشاركت فيها، إذ كانت الفرق تشارك في القتال بحكم دموية الثورة الليبية».

و«امتدت ظاهرة الغرافيتي الثورية إلى اليمن، فاتخذت توجهها آخر ذا بعد إنساني وأمني أيضا حيث ساهم الغرافيتي في مساعدة الأجهزة الأمنية والعدلية في البحث عن المفقودين، فأطلقت حملة «لون جدار شارعك»<sup>(10)</sup>.

(7) نصوص مسرحية، جمهورية مصر العربية، تحرير وتقديم حسن عطية، ملتقى الشارقة لكتاب المسرح العربي، الدورة الأولى 2011، ص 5.

(8) السيد ياسين، التحليل الاجتماعي للأدب، بيروت، دار التنوير، 1982، ص 66 عن نهاد صليحة، الحرية والمسرح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 24.

(9) Michèle Barrett, "Ideology and the cultural production of gender" Feminist Criticism and Social Change, ed. Judith Newton and Deborah Rosenflet, London Methuem, 1985, p. 68.

عن نهاد صليحة، مرجع سابق.

(10) صفاء العزب، «الفرق المسرحية الثورية ظاهرة فنية في مصر ودول الربيع العربي»، جريدة الشرق الأوسط، الثلاثاء 7 مايو 2013 العدد 12579.

وفي سوريا التي ما زالت تعتصرها عواصف التغيير وتلح على تفجير مكونات الذات البشرية، والبوح بها، استحال تكرار تجربة ميدان التحرير ولكننا، حسب صادق جلال العظم، نجد أن بعض أهم وأروع التعبيرات الفنية الهادفة للربيع العربي قد خرجت من سوريا وأنتجتها ثورة سوريا: الأغنية، الرقصة، التمثيلية، الفيلم، الفيديو، الكاريكاتير الصارخ، الشعار المتهكم، التعليق الساخر، الموقف المستهزئ، كما تميزت ثورة الربيع السوري بعفويتها الشعبية وتنسيقاتها الشبابية»<sup>(11)</sup>.

## 2- فنون الربيع العربي في محاور المؤتمرات والدراسات

شكلت فنون الربيع العربي وصيغ التعبير عنه، موضوعات لعدد كبير من المؤتمرات والدراسات بهدف التقييم والاطلاع على آلية تفكير الشباب. لذلك عقدت المؤتمرات، وأقيمت الدراسات السياسية والفنية والفكرية بهدف دراسة هذه التجربة الشبابية السياسية والفنية وتقييمها، مثل جامعة قناة السويس التي أقامت المؤتمر الدولي الثاني بعنوان «حركات الاحتجاج الجماهيرية والفتوية في العالم العربي» النشأة والتاريخ والمقومات والآثار» (خلال الفترة من 1-4-2013 وحتى 3-4-2013)<sup>(12)</sup>. وأقيمت ندوة بعنوان «المسرح والتغيرات العربية الربيع العربي»<sup>(13)</sup>. وكذلك أصدر مركز دراسات الوحدة العربية كتابا ضم أبحاثا لمجموعة من الباحثين والمفكرين العرب بعنوان «الربيع العربي... إلى أين؟»<sup>(14)</sup>.

كما تطرق عدد من المفكرين العرب إلى هذا الرابط العلائقي بين الربيع العربي وعودة الناس إلى السياسة مثل صادق جلال العظم «الربيع العربي هو ببساطة عودة السياسة إلى الناس وعودة الناس إلى السياسة بعد اغتراب وابتعاد طويلين، ومعروف أنه تمّ التعبير عن ذلك كله في الصيحة الشعبية المدوية للربيع العربي: «لا تمديد،

(11) أنظر يوسف حجازي، «صادق جلال العظم...»، مرجع سابق.

(12) موقع جامعة قناة السويس [www.scuegypt.edu.eg](http://www.scuegypt.edu.eg).

(13) سبعي السيد، «مسرح الربيع العربي يتصدر المشهد في الندوة الدولية تحولات الفرجة/ فرجة التحولات»، طنجة - 6/2012 [www.al-masrah.com](http://www.al-masrah.com) والاتحاد العام للمهن الدرامية السودانية - <https://www.ar.facebook.com>.

(14) الربيع العربي... إلى أين؟ أفق جديد للتغيير الديمقراطي، تحرير عبد الإله بلقزيز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011.

لا تجديد، لا توريث». أفصحت هذه العودة الشعبية المتبادلة إلى السياسة عن تطور هام يمكن تسميته بتجربة ميدان التحرير الجديدة في المجتمعات العربية إن كان ذلك في القاهرة (حيث محور هذه التجربة ومركزها) أو في تونس العاصمة أو في صنعاء أو في بنغازي مطالب «ميدان التحرير» وأشواقه وشعاراته جميعها كانت تدور حول الحرية والحقوق، والكرامة الوطنية والكرامة الشخصية، التعددية والديمقراطية والشفافية والمساواة والعدالة الاجتماعية<sup>(15)</sup>.

### 3- المسرح، وتحليلات الثورة وثيمة البحث

لقد انجلت الأسباب السياسية والسوسولوجية والانطولوجية في كل من هذه المناطق التي شكلت سياسياً نماذج تغييرية، والتي حدت بهؤلاء الشباب إلى التمرد والعمل على التغيير على الصعيدين السياسي والإبداعي، ولا سيما الإبداع المسرحي المنفتح على كل الاتجاهات والتيارات الفنية خاصة تلك المتأثرة باتجاه ما بعد الحداثة. والتي سنتبينها من خلال دراسة النموذج المسرحي الذي احتذاه شباب المسرح، والذي قدم بعضه في ميدان التحرير، حيث بادروا إلى وضع تصوراتهم التي حددت مساهمهم ومسيرتهم، وفق ما يقول هناء عبد الفتاح: «إن ما قدم في ميدان التحرير كان منعطفاً مهماً لتغيير عقلية المبدع المصري لكي يفكر في أشكال مسرحية مختلفة تخرج عن نطاق القالب المسرحي التقليدي، وتحاول أن تتعامل مع الجمهور الذي تكوّن وتشكل بشكل يختلف عن الجمهور البورجوازي»<sup>(16)</sup>.

### 4- النصوص وثيماتها

اخترنا نماذج من نصوص جديدة أنتجها عدد من المسرحيين الشباب الذين يصنعون الحالة المسرحية التي أفرزتها تحولات الربيع العربي في مصر وتونس واليمن وسوريا. وهذه النصوص هي نص مصري «شباك مكسور» «صنع في مصر»، من تأليف رشا عبد المنعم. يتناول هذا النص المسرحي ما يسود من فساد في مصر قبل الثورة من خلال الواقع اليومي المعيش.

(15) يوسف حجازي، «صادق جلال العظم..»، مرجع سابق.

(16) سبعي السيد، مرجع سابق.

واختارت رشا عنوان نصها «الشباك المكسور»، «صنع في مصر» وهو ذو دلالة قصدية عبرت عنها في النص بقولها:

«خالد: يا بابا شبايك البيت المكسورة ده غلط - انت ما سمعتش عن  
نظرية النوافذ المحطمة.

عطية: لأ سمعت عن نظرية جماجم الأبناء المحطمة - تحب أطبقها

خالد: يا بابا.. دي نظرية في علم نفس الجريمة: بتقول إن شباك واحد  
مكسور في مصنع ومحدث بيصلحه هيخلي نوعية معينة من الناس زي  
للصوص والمتشردين واللى بيتعاطوا المخدرات يعتقدوا إن المصنع ده  
مهجور ومالوش صاحب. فيقا تحت الشباك ده مكان تجمّعهم المفضل  
- وده هيخلق مناخ مهيب أكثر لحدوث الجرائم والانحرافات»<sup>(17)</sup>.

وهناك تفسير سيكولوجي «وهو أن هذا المكان المهجور قد يجمع في طياته  
أفكارا هدامة تسمح بنفاذ الجريمة من الداخل»<sup>(18)</sup>.

وتشير رشا عبد المنعم إلى أن نصها «شباك...» يعتمد على قصة حقيقية وقعت  
قبل ثورة 25 يناير بسنوات قليلة، ونشرتها الصحف عن أب مسؤول عن أسرة كبيرة،  
ويعاني من مشاكل الحياة والضغوط المالية فيقرر أن يقتل نفسه ويقتل أفراد أسرته،  
ووضع السم لهم في طبق المكرونة على الغداء، ولكن السخرية هي أنه يكتشف أن  
السم لا فعالية له ولم يؤد الغرض المراد لأنه «صنع في مصر»<sup>(19)</sup>.

واخترنا أيضاً نصاً مصرياً ثانياً هو «زمن الخوف»<sup>(20)</sup> لصفاء البيلي، وقد عالجت  
فيه ثيمة التمرد على السلطة، على الرغم من أشد أنواع التعذيب والتكيل التي  
يتعرض لها المتمردون المتمثلون في هذا النص بشخصيتين نسائيتين هما فريدة  
وخل اللتين تدعوان الحاكم للاستجابة لمطالب الشعب والانضمام إليه، فهو السند

(17) نص شباك مكسور (صنع في مصر)، مخطوطة، من مكتبتي، مرسله من المؤلفة عبر الإيميل، ص 8-9.

(18) محمد صابر، «شباك مكسور وتقنيات السرد السينمائي» من نصوص مسرحية، جمهورية مصر العربية، تحرير  
وتقديم حسن عطية، مرجع سابق، ص 52.

(19) عرض «صنع في مصر» يفتتح خطة الهناجر الجديدة، الأهرام المسائي، 22/8/2012 موقع الأهرام الرقمي  
digital-ahram-org-eg.

(20) صفاء البيلي، نص زمن الخوف، مخطوطة، ديسمبر، من مكتبتي، مرسله من المؤلفة عبر الإيميل، 2011.

الفعلي والحقيقي للحاكم.

ومن سورية نص ثالث هو نص «الثورة غدا تؤجل إلى البارحة» لكاتبه التوأم محمد وأحمد ملص<sup>(21)</sup>. ولو انطلقنا من العنوان للاحظنا خلط الأزمنة بين الفعل في زمن المضارع وزمن الماضي أي البارحة، ويتضمن هذا الخلط تأويلاً يشير إلى أن الثورة أجلت وكان من المفترض أن تبدأ منذ البارحة وهي ما زالت في حالة تأجيل. ويتناول النص التعذيب والتحقيقات في السجون السورية، كما أن هذا النص اختار أن يطرح القضايا التي يعيش تحت ضغطها السوريون: الفساد والمعاناة واتهام غير المنحازين إلى النظام بالخونة:

«الضابط: صحيح والله إنت شكلك مثقف، شو هاد البيان اللي طلعهو الخونة الممثلين...»<sup>(22)</sup>.

وعبرت عن هذا الوضع شخصيتان هما: المتظاهر والضابط اللذان انتهى موقفهما بالبكاء على شهداء الوطن، وهذا البكاء يعبر عن المأساة المشتركة التي تجمع بينهما، وهما يعتبران أن الأخطاء أتت من الدولة والشعب معاً. وفي أثناء الحوار بين الشرطي والمتظاهر يحاول الأخير أن يقنع الشرطي بأنه في سلوكه هو مدعوم من الرئيس الذي قال في خطابه:

«المتظاهر:» الدكتور بشار قال الله سوريا وشعبي وبس، أنا بكون من شعب الدكتور بشار...»<sup>(23)</sup>.

والنص الرابع هو «الحافلة»<sup>(24)</sup> للكاتبة اليمنية بلقيس الكبسي، وهذه الحافلة ترمز إلى اليمن/الوطن، وفيها أرادت الكاتبة أن تجمع الشعب بكل فئاته، هذا الشعب الذي يعاني ما يعانيه نتيجة الإهمال والفساد اللذين يعيثان بالوطن ويهددان أمن المواطن وسلامته. وفي هذه الحافلة تعرض الكبسي المعاش اليومي للمواطن اليمني، ودائماً من خلال فضح الفساد الذي يسود كل القطاعات وكل المؤسسات والنقابات ولا سيما الاقتصادية منها. كما تطرقت بلقيس إلى الانتماءات الأيديولوجية

(21) محمد وأحمد ملص، نص الثورة غدا تؤجل إلى البارحة، مخطوطة من أرشيف جمعية شمس في لبنان.

(22) نص، الثورة غدا تؤجل إلى البارحة، مرجع سابق، ص 9.

(23) محمد وأحمد ملص، مرجع نفسه، ص 3.

(24) بلقيس الكبسي، نص الحافلة، مخطوطة، من مكتبي، رسالة من المؤلفة عبر الإيميل، 1/12/2011.

المختلفة للمواطنين اليمنيين ابتداء من المتطرفين دينيا وصولا إلى العلمانيين. كما وصفت حال المواطن اليمني المهتمش والمستسلم والمتمرد، ورأت أن التعايش في الوطن لا يقوم إلا على تبني الفكر الوسطي.

والنص الأخير هو نص / عرض «حالة» للمخرج التونسي أحمد جمعة وهو عبارة عن فكرة أو ثيمة جسّد من خلالها جمعة واقع تونس بعد الثورة برؤية تشاؤمية تتلاءم مع الوضع الحالي الذي تعيشه تونس اليوم في فترة المخاض.

### أ- تجنيس مسرح الربيع العربي

اعتمد هؤلاء الشباب للتعبير عن رؤيتهم على أجناس مسرحية غربية شكلت مرجعية مسرحية لهم، ووقع اختيارهم عليها لأنها الأكثر ملاءمة للتعبير عن الحالة. ومن خلال قراءتنا لهذه النصوص أول ما نجده هو الشبه أو التماثل مع المسرح الأوروبي والأميركي والأسوي الذي نتج من نفس الظروف والمعطيات السياسية والثقافية التي حدثت إبان الثورات، وأدى إلى ظهور نوع من المسرح سمي بالـ «مسرح التحريضي». والمصطلح «مأخوذ من التسمية الروسية - Agitatsiya- Propaganda، يعني التحريض والدعاية. هو مسرح سياسي الطابع يهدف العرض فيه إلى الدعاية لفكرة ما، وإلى إثارة تساؤلات حول الواقع وتغييره انطلاقا من الأحداث المباشرة والساخنة»<sup>(25)</sup>.

وقد تأثر شباب الربيع العربي بهذا النوع من المسرح، وتأثروا أيضا بالمسرح المضطهد لأوغستو بوال البرازيلي الذي «انطلق من فكرة أن كل النشاطات الإنسانية سياسية بشكل ما، وأن كل مسرح هو سياسي بالضرورة. كما اعتبر أن البعد السياسي في المسرح يرتبط بنوعية العلاقة التي يخلقها مع المتفرج»<sup>(26)</sup>.

اعتمده هؤلاء الشباب لأنهم رأوا فيه الأداة التي تبلغ الرسالة التحريضية التي يريد هؤلاء الشباب المسرحيون تبليغها عبر معالجة تفاصيل الحياة اليومية كما في نصوص بلقيس «الحافلة» و«صنع في مصر»، ونص «الثورة غدا تؤجل إلى البارحة» التي جاءت كتعبير مسرحي عن الوقائع السياسية والقضائية والاجتماعية التي تعيشها

(25) ماري الياس وحنان قصاب، المعجم المسرحي: مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2006، ص 121.

(26) مرجع نفسه، ص 451.

هذه المناطق.

وتأثر هؤلاء الشباب بفنون الأداء (La Performance Art) والتي تهدف إلى جعل الدراما معبرة عن الحياة. فإذا قرأنا النصوص التي بين أيدينا قراءة نقدية تستند إلى هذه المرجعية لوجدنا أن هذه النصوص تعبر عن المعيش اليومي، كما هو نص «الحافلة» ونص «الثورة..» ونص «صنع في مصر» ونص/ عرض «حالة». وتجسد ذلك في الحوار اليومي الذي بنيت عليه النصوص ومن خلال اللغة اليومية التي استخدمت فيها. كما تجسد في نصوص منها ما اعتمد البنية التقليدية (نص «صنع في مصر» ونص «الحافلة») ومنها ما استلهم التراث وخاض تجربته من خلال دلالات رمزية ليعبر عن الواقع السياسي والاقتصادي الحالي الذي تعيشه البلاد العربية، ولا سيما تلك التي خاضت الثورة، («زمن الخوف» لصفاء البيلي وتلك التي ما زالت تخوض مثل «نص الثورة غدا...»)، ومنها ما رأى أن خير نوع مسرحي يجسد رؤيته هو المسرح الكوريغرافي الراقص والحركي مثل نص «حالة» التونسي. حيث عبر هؤلاء المسرحيون عن حالة الثورة في تونس التي تصطدم حتى الآن بجدار حديدي للدلالة على وصول الثورة إلى حائط مسدود حاصر الوطن، وهو آت على منجزات الثورة.

### ب- لغة الخطاب الشبابية والعلاقة مع متلقيه الجديد

صيغت هذه النصوص بلغة حوارية تشبه لغة المواقع الاجتماعية، وهي كما يصفها عزمي بشارة - «أي لغة الثورة المصرية، ولغة الثورة التونسية، ولغة شباب اليمن يخاطبون بعضهم بعضاً، ويخاطبون عدسات التلفزة بلغة تحاول الاقتراب إلى الفصحى قدر الإمكان، وهي ما أسمح لنفسى أن أطلق عليها تسمية «لغة المجال العام العربي» أو «لغة الفضاء العام العربي»<sup>(27)</sup>.

وهذه اللغة هي التي استخدمها هؤلاء الشباب في نصوصهم، وهي لغة مشتركة في النصوص المسرحية كما في نص «صنع في مصر». حيث جرى تحطيم النص وتحويله إلى مقاطع صوتية ذات صبغة شاعرية تسهم في التأكيد على حالة شاعرية الصورة<sup>(28)</sup>. ويبدو ذلك جلياً أيضاً في النص اليمني «الحافلة» لبلقيس أحمد الكبسي

(27) عبد الله الطحاوي، مرجع سابق.

(28) محمد مسعد، عن كتاب نصوص مسرحية، مرجع سابق، ص 81.

بحيث اتسم حواراه بالخلط بين اللهجة العامية وأحيانا اللغة العربية الوسطية، وإن اتسمت أغلب الحوارات بضعف البناء كما في نص «الحافلة»:

«موظفة: ما هو هذا التسيّب والإهمال..؟ هولا أصحاب الباصات ما فيش معاهم ضابط كل واحد يمشي على هواه..؟ وأين المجلس المحلي.. أين هي نقابتهم..؟ حد يا ناس يضبطهم كل يوم وإحنا على هذا الحال تعبنا يا ناس حرام عليكم»<sup>(29)</sup>.

وأيضاً في لغة اليومي والمعاش الذي قارب اللغة اليومية، كما في نص «صنع في مصر..»:

عطية: أمها كسرت لها مليون ضلع بس ما كانش يطلعها بدالهم ضلوع كان بيطلعها أنياب، ياما طفش منها عرسان وأخيرا حصل اللي ما حدش أبدأ كان مصدقه...»<sup>(30)</sup>.

والمحاكاة الساخرة parody، والتهكم والسخرية Irony، والهزل والمزاح playfulness:

«العريس: يا عمى إنت عارف ظروف البلد، والعريس النهاردة بيقدم «طقة» أو «طقتين» بالكثير ولو مصمم على (3) طقات يبقي تشوف لبنتك عريس عربي من بتوع البترول!  
عطية: خلاص إحنا نكتب في القائمة 3 طقات وانت ومقدرتك فاطمة: خلاص يا ابني إحنا بنشتري راجل العريس: واحنا بنشتري رغيفين»<sup>(31)</sup>.

يخلط هؤلاء الشباب الجدل بالهزل، ويعبّرون بهذا الأسلوب الساخر الذي يكسر جمود العلاقة مع الفكر ومع التعبير. هذا الأسلوب الذي استخدم في سياق الحوار الدرامي في هذه النصوص، فهو الأسلوب الطالع من اليوميات وقد تخلى فيها النص عن الحوار التقليدي، وبدا ذلك أيضاً في النص السوري للتوأم محمد وأحمد

(29) بلقيس الكبسي، نص الحافلة، مرجع سابق، ص 3.

(30) نص صنع في مصر، مرجع سابق، ص 6.

(31) مرجع نفسه، ص 6-7.



«الثورة غدا تؤول إلى البارحة» بالكلام عن الخيانة وعن المخابرات بأسلوب ساخر من خلال الحوار بين المتظاهر والضابط.

«المتظاهر: اللي حوليه موتوني رعبة اتخيلت قسم العباسين وقسم  
عرنوس وقسم جوير وقسم العمارة... وصيدنايا وتدمر... حسيت إدامي  
شي مليون حاجز وما استرجيت وهربت بشرفي إنكن بتخوفوا». ثم  
يجسد الكاتبان رؤيتهما الفكرية بالقول: .. هاد وقت الحوار مو الضرب  
والقتل والله...»<sup>(32)</sup>.

وفي حوار آخر:

«الضابط: والله يا ريت نبطل نحكي

المتظاهر: يا ريت لو بيتحول كلشي للفعل وبس»<sup>(33)</sup>.

وفي نص «الحافلة» حيث يدور الحوار بأسلوب ساخر:

«مواطن 2: أين مجلس محلي وأين طلي..؟ والنقابة شغلتها تجمع  
زلط وإتاوات.. قرط القرط فلوس طالع نازل.. ما عليها من الضبط  
والربط»<sup>(34)</sup>.

أما نص «زمن الخوف» فقد انزاح الحوار فيه نحو لغة عربية وسطية، على الرغم من أن فضاءات الأحداث وحراك الشخصيات وأسماءها تجري في مناخات تراثية تمكنت من صياغة حوارات ذات دلالات ثورية متمردة:

«خِلّ: الديلم والفرس ومن شابههم

فريدة: حدّرت الواثق منهم لكنه لا يرضى عنهم بدلا

خِلّ: هم أقنعوه بأنهم.. حلفاء لا أكثر

وبأنهم حرسٌ لعرشه

فريدة: وعرشه فوق الرماح لا يستقر له قرار!

(32) نص الثورة غدا تؤول إلى البارحة، مرجع سابق، ص 10.

(33) مرجع نفسه، ص 11.

(34) بلقيس، نص الحافلة، مرجع سابق، ص 3.

أخشى أن يهوى فنسقط أجمعين»<sup>(35)</sup>.

اهتم هؤلاء الشباب بالفكرة أو الثيمة دون التركيز على البنية الفنية وعلى اللغة العربية، فنجد في نص «الحافلة اللغة اليومية المعاشة، والضعف في الحوار وكذلك في بنية الشخصية، والأمر نفسه ينطبق على نص «الثورة..» بينما ركز نص «زمن الخوف» على استلهام التراث من خلال بنية فنية متماسكة ولغة عربية وسيطة لم تتوغل في لغة تراثية ولم تجنح نحو العامية.

### ج- صراع الأجيال والتمرد على الآباء وقضايا أخرى وردت في هذه النصوص

إن المشترك بين هذه النصوص جميعها هو هذا الصراع القائم بين جيلي الآباء والأبناء: ويبدو هذا الصراع واضحا ليس فقط في الحوار واللغة، ولكن الرؤية الفكرية هي التي تجسد الحالة الصراعية بين جيل مستسلم وجيل متمرد يخوض تجربته التغييرية: كما نجد في نص «الحافلة»:

«السائق: إلى أن يفرقها (يفرجها) الله ويغيّر علينا ويغيّرهم ولا يزيلهم

موظفة: عشم إبليس في الجنة مين يغيّر مين؟ انتوا تستاهلوا انتم اللي طعمتوهم وطعمتوهم قال لك يغيّر يغيّركم أنتم لا يغيّر الله ما يقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وكيفما تكونوا يولى عليكم. هداً الجميع...»<sup>(36)</sup>.

والحوار نفسه يدور بين عطية وابنه في نص «صنع في مصر»:

«عطية: يا ابني وإحنا مالنا ومال الكلام ده!

خالد: هي دي المشكلة كلنا بنقول واحنا مالنا وما حدش عايز يفهم - التغيير بقى هيرجع الإنسان لنفسه - هيعيد تعريفه بذاته - هيجل شاف إننا لما نقول الإنسان هو عبد - فده مش معناه إن الإنسان تحول كلية لعبد - وإنه تلاشى داخل كونه عبد - لكن معناه إن الإنسان هو ما زال إنسان لكن استجدت عليه حاجات خلت الظاهر منه العبد - فلو قدرنا نعرف إيه هي المتغيرات دي، ونغيّرها ساعتها يرجع النبي آدم بنى آدم.

(35) نص زمن الخوف، مرجع سابق، ص 66.

(36) نص الحافلة، مرجع سابق، ص 6.

عطية: يا ابني واحنا بإيدنا إيه، إحنا حياالله ترس في مكنة كبيرة - تغيير إيه ولا إصلاح إيه بس.. هو إحنا عارفين نصلح الشباك المكسور ولا نغير حنفية المية اللي بقالها شهر<sup>(37)</sup>.

ولكن بعض الشباب قد انزاحوا عن هذا الاهتمام ولم يدخلوا دائرة الصراع، ولم يكن لديهم هذا الهاجس التغيير، فعبروا عن اهتماماتهم خارج نطاق الثورة. وهذا نموذج من حوار أحد الشباب الذي همش نفسه كما ورد في نص «الحافلة»:

«طالب جامعي 2.. لا أنا ماشستاجرش (يعني ما استأجرش) موتور مستحيل وبعدين الجمل اللي في شعري وكريم الوجه جلست ساعة قدام المرآة أصلحه شايشف من الريح والشمس وشاوصل الجامعة وقد شعري يابس وقافح ووجهي حارق من الشمس»<sup>(38)</sup>.

بينما يمارس البعض الآخر جلد الذات والتمرد عليها، وربما يشكّل هذا التعبير رغبة الناس بالانتفاضة والتمرد، وربما بهدف شحنها وهذا ما قالته فريدة في نص «زمن الخوف»:

«وأنا.. أنتم.. نحن.. جميعا

ما زلنا نحيا كالجرذان»<sup>(39)</sup>.

وفي نصوص أخرى تطرح قضايا العلاقة مع الخارج، هذا الخارج المرعب والمخيف بينما يكمن الأمان في الداخل، وهذا ما يؤمن به الأب ويحاول أن ينقله إلى عائلته، من خلال الشباب المكسور الذي يكشف عن قذارة الخارج، كما ورد في نص «صنع في مصر»:

«عطية يقف بجوار مجموعة من الأشخاص مجتمعين وثابتين كصورة فوتوغرافية: .. ده بيتي.. بيت العيلة.. الريحه الوحشة دي مش ريحة البيت، لكن الشباك المكسور ده بيطل على خرابه.. بيرمى فيها أهل الحته زبالتهم اللي انتو شامين ريحتها.. واللى ما بقناش بنشمها من كتر

(37) نص شباك مكسور، مرجع سابق، ص 10.

(38) نص الحافلة، مرجع سابق، ص 6.

(39) نص زمن الخوف، مرجع سابق، ص 88.

ما اتعودنا عليها..»<sup>(40)</sup>.

وكذلك طرح هؤلاء الشباب عدة قضايا أخرى شكلت هاجساً كبيراً لديهم دفعهم للتمرد وللقيام بهذه الثورة منها: نبذ التطرف الديني والدفاع عن حرية المرأة والمطالبة بحقوقها. وقد عبرت عن ذلك الكاتبة اليمينية بلقيس في نصها «الحافلة» حيث أوردت بلغة ساخرة، وقد أصبحت هذه اللغة متداولة ومألوفة لدى هؤلاء الشباب:

«مواطن 1: وبعدين ما نسوي..؟ ما نفعل..؟ ما عاد معنا إلا نسكت ما بتسمعش كل يوم دوه وهدار حقوق المرأة وما حقوق المرأة.. قالوا قد لهن الحق في كل شيء صغيرة وكبيرة مثلك مثلها.. التلفزيون بيهدر والراييه بتهدر.. والصحف تكتب عن حقوق النسوان وحرتهن.. وكم يا مناصرين.. وكم يا منظمات وكم يا مؤتمرات.. وندوات وورشات عمل...»<sup>(41)</sup>.

وكما عبروا أيضاً عن حالة ما بعد الثورة كما نجد في نص / عرض «حالة التونسي»، وهو النص الوحيد الذي عالج موضوعاً مرحلة ما بعد الثورة، وما آلت إليه الأمور من انكسارات نفسية واجتماعية، وما تتعرض له الحريات وحقوق المرأة ودور المثقفين المهمشين من قمع وظلم.

وفي نصها «زمن الخوف» استلهمت صفاء البيلي التراث من خلال الشخصيات والقيمة والمرحلة التاريخية التي تعود إلى زمن حكم المتوكل، لتعيد الدعوة للانتفاضة والتمرد وإزاحة حاجز الخوف لدى الشعب وللدفاع عن الوطن المحتل من جهات خارجية، وترمز صفاء إلى الوطن بالشاة المذبوحة. واستخدمت لغة فصيحة وسطية تنتمي إلى النوع المسرحي الذي اختارته وهو المسرح الشعري، مع محمولاته الدرامية التي ترمز إلى الثورة، وتحمل في مدلولاتها الغضب والقسوة والعنف (الشاة، الكلاب، المذبوحة..).

### د- شخصيات مغايرة تخلخل البنية التقليدية

تمثل الشخصيات المتحاورة في نصوص «الحافلة» و«صنع في مصر» و«حالة» و«زمن الخوف» مختلف الفئات الاجتماعية. ويمثل خل وفريدة وعابد والواثق

(40) نص زمن الخوف، مرجع نفسه، ص 3.

(41) نص الحافلة، مرجع سابق، ص 4.

والمتوكل، شخصيات تراثية منها ما يرمز إلى الشعب ومنها ما يرمز إلى الحاكم. ولكن الشخصيتين الأكثر حيوية والأكثر تعبيراً عن الحراك والرغبة في التغيير هما شخصيتا النص السوري: المتظاهر والضابط، اللتان اختزلتا الشعب السوري بالتعبير عنه، شخصيتان: واحدة تمثل السلطة وتحديد السلطة العسكرية، والثانية تمثل الشعب المتمثل بالمتظاهر. واللافت في بناء هذه الشخصيات، أنها تمثل الشرائح الاجتماعية جميعها دون أن تكون لها سمات شخصية خاصة، فهي ذات دلالات اجتماعية وثقافية عامة تشترك فيها كل الشرائح مثل: الضابط والمتظاهر والأب والابن والخليفة والشعب والفلاح والمثقف. ويبدو ذلك واضحاً في هذه النصوص حيث يسود الخطاب المشترك بينها وهو خطاب المتمرد الراض للسلطة السياسية / الأبوية.

وفي هذا السياق، لعبت هذه الشخصيات في النصوص جميعها دوراً (نستعير تعبيراً من محمد سمير الخطيب) «في زعزعة النسق الثقافي الدال في الفضاء الاجتماعي اليومي، التي أدت في النهاية إلى خلخلة النظام العلامي الذي رسخته السلطة السياسية، لنصل في النهاية أن الثورة كشفت عن بنية عقلية مسكوت عنها»<sup>(42)</sup>.

## 5- الرؤية والتغيير

عبرت هذه النصوص الشبابية عن رؤية فكرية تتلاءم مع التغيرات الثقافية والفكرية والسياسية التي اتسمت بها مرحلة الربيع العربي. فبعضها كان تغييرياً وبعضها اكتفى بعرض الواقع. ولكنها جميعها قد كسرت التابو (الممنوع) الذي كان يقف حائلاً دون حريتها، فمنها ما دعا إلى التحرر والاعتماد على الشعب السند الحقيقي للحكم كما ورد في نص «زمن الخوف»:

«فريدة: وليس أمامك إلا أن تلزم جانب شعبك

المتوكل: أي شعب؟ مجنوناً، مجنوناً

فريدة: شعبك

المتوكل: الفرس مواليّ أما الشعب.. فخذّامي

(42) سبعي السيد، مرجع سابق.

فريدة: استقو بهم.. لا بالفرس أو الديلم»<sup>(43)</sup>.

ومنها ما لم يكتف بعرض الواقع بل أضاف إليه حلم التوافق بين السلطة العسكرية والشعب (الضابط والمتظاهر)، بحيث يمكن أن تتوحد المعاناة لتشمل كل المواطنين في نص «الثورة غدا تؤجل إلى البارحة» بينما تجد الثورة التونسية نفسها أمام الباب الحديدي الذي يشير إلى دخول هذه الثورة في الحائط وانسداد السبل أمام الذين قاموا بالثورة، إنه النص النقدي لما تعيشه الثورة في هذه الأيام. ومنها ما ارتأى أن الوطن لا يمكن أن يستمر بأبنائه وأفكارهم وانتمائهم الديني التعصبي، بل بتبني الفكر الوسطي والمعتدل الذي يجمع عليه كل المواطنين كما ورد في نص «الحافلة»:

«عجوز وقور: كانت الأفواه مطبقة والأذان منصتة باستياء وتذمر بلا تعليق أو احتجاج أو مداخلة لا مؤيدة ولا معارضة بينما صاح شيخ وقور من الكرسي الخلفي: جميعكم على خطأ، يا أولادي نحن أمة اعتدال ووسط (وجعلناكم أمة وسطى) وخير الأمور الوسط لا تطرف وإرهاب وادعاء ديانة مزيفة وشطحات وفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان ولا طيرفة وسمدعة، وانحراف ولا عولمة وعلمنة وجحود نحن أمة محمد أمة الاعتدال والنهج القويم والسليم أمة الوسطية أمة الإسلام دين اليسر والسماحة فهتم أم لا»<sup>(44)</sup>.

وعلى الرغم من أن هذه النصوص قد فجرت المسكوت عنه في مرحلة الربيع العربي، فقد ينطبق عليها ما قاله لوبون عن التغيرات الفكرية والفنية التي سادت في القرن التاسع عشر «لا تزال في طور التبلور وزعزعة الأفكار القديمة، لأن هذا العصر يمثل فترة انتقالية وفوضوية»<sup>(45)</sup>.

### أ- المسرح والمتلقي والخطاب المشترك

توجه لغة الخطاب المسرحي الشبابي إلى المتلقي / الجمهور بمختلف مكوناته وثقافته ومفهومه للفنون. وقد استخدمنا مصطلح جمهور بقصدية وظيفية مهمتها

(43) نص زمن الخوف، مرجع سابق، ص 91-92.

(44) نص الحافلة، مرجع سابق، ص 8.

(45) لوبون، سيكولوجية الجماهير، مرجع سابق، ص 44.

التركيز على هذه المجموعات الفاعلة والمتنوعة من الناس المؤمنين بهذا المسرح وبالرؤية الفكرية التغييرية الثورية التي يطرحها، فالمسرح اليوم هو مسرح إشكالي يمر بحالة تغير، سواء على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون، وهذا ما يستدعي وجود جمهور تشاركي وتفاعلي، وأيضاً حسب ما يصنفه لوبون - «جمهوراً نفسياً *une foule psychologique*، بمعنى أنه أياً يكن نمط حياته متشابهاً أو مختلفاً وكذلك اهتماماته ومزاجه وذكاؤه، فإن مجرد تحوله إلى جمهور، فإن ذلك يزوّده بنوع من الروح الجماعية. وهذه الروح تجعله يحس ويفكر ويتحرك بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولاً»<sup>(46)</sup>.

لذلك يمكن اعتبار أن جمهور ميادين التحرير كان جمهوراً ناشطاً مؤدياً ومستمعاً، يتمتع بهذه الروح الجماعية، وخاصة أن مخاطبته - حسبما يفترض لوبون لمخاطبة الجمهور عامة - «تقوم على نمطين من الفكر، الأول: يعتمد على قوانين العقل والبرهان والمحااجة المنطقية، وأما الثاني فيعتمد على قوانين الذاكرة والخيال والتحرير... فالجماهير لا تقنع إلا بالصور الإيحائية والشعارات الحماسية والأوامر المفروضة من فوق»<sup>(47)</sup>. وهذا النمط الأخير هو الذي درج على استخدامه شباب الثورة في العالم العربي الذي ذكرنا، وأثاروه في نصوصهم المسرحية.

يضاف إلى ذلك عامل مهم هو أن هذا الجمهور نفسه هو من صنع ثورته وهو من قزّر لحظة التغيير. فمن الطبيعي أن يشعر هذا الجمهور في لبنان وتونس ومصر وسوريا واليمن بأنه صار صاحب قراره، وهو يعي أهمية دوره التغييرية.

### ب- مفهوم الهوية في مسرح الربيع العربي الثوري المتغير: تأصيل أم تغريب؟

وإذا كانت بنية المسرح الفنية قد خضعت لهذه التحولات، وإذا كان جمهور المسرح أصبح تفاعلياً وتشاركياً في صنع هذا المسرح المتغير، هل يعني ذلك أن المسرح الذي عالج ثيمة الربيع العربي، ما زال محافظاً على خصوصية هويته العربية، وهل أدى إلى ذلك تأصيل الهوية أم تغريبها؟

تناول هؤلاء المسرحيون الشباب موضوعات تصلهم بهويتهم وهم في

(46) لوبون، مرجع سابق، ص 56.

(47) مرجع نفسه، ص 33.

مدار البحث عنها بأوجه متنوعة: عن طريق اللغة التي استخدمت في نصوصهم المسرحية، وتدل هذه اللغة التي استخدمت في حوارات النصوص على الهوية التي ترسخ قناعاتهم المتفاعلة مع تجربة الآخرين، والساعية إلى التغلغل في مجتمعهم رافعة شعارات تستدعيها التغيرات في مرحلة الربيع العربي، ليتشكل منها خطابهم. رافضين ما رُسم ووضِع من قبل الآباء والأجداد حيث نتلمس أن جيل الآباء، بشكل خاص جيل الستينيات والسبعينيات، قد اهتم بمسألة إيجاد هوية مسرحية تتسجم مع تطلعاته الفكرية، كأن تكون هوية قومية عربية أو محلية، بينما اختلف الأمر بالنسبة إلى الشباب إذ «لم يعد البحث عن هوية للمسرح همماً، بل صار المسرح نفسه وسيلةً فنية إبداعية لطرح الأسئلة عن الهوية، هوية الأشخاص أنفسهم، هوية الشباب أي الجيل الحالي السياسية والفكرية والفنية»<sup>(48)</sup>.

### الخاتمة

بعد ربط العلاقة بين الإبداع المسرحي وبين المتغيرات السياسية والثقافية التي رافقت الربيع العربي، توصلنا إلى عدة نتائج تكشف عن دور الشباب في هذه المتغيرات الفنية والفكرية وتكشف عن الممارسات السياسية والفنية التي أنتجوها.

فعلى المستوى السياسي، رفع هؤلاء الشباب شعاراتهم، وأفلحوا في تونس ومصر وليبيا واليمن في كسر المألوف وفي تحدي القتل والاعتقال، وذلك على الرغم من أن هذا المسار قد انطلق - حسب تعبير لوبون - من فطرة الجماهير والناس، وعلى الرغم من محاولة القوى السياسية الأخرى مصادرة هذا الحراك، فإن هؤلاء الشباب يبذلون جهوداً كبيرة لمتابعة مسيرتهم التي تعيش حالة المخاض، كي يتمكنوا من التخلص من هذه الفطرة ولتمكين الناس من بلوغ حالة العقلانية التي ستمكنهم من التأسيس لمستقبل يتميز بمستوى عالٍ من الوعي والعلم والمعرفة.

وعلى المستوى الفني المسرحي، عمل هؤلاء المسرحيون الشباب على وضع بنية تحتية له وللفنون الأخرى، ووضع الأصول والقواعد لها. فقد لاحظنا في هذه النصوص التي اعتمدناها أنها في أغلبها تنتمي إلى مسرح الجريدة اليومية وغيرها

(48) ميسون علي، (ممارسات الشباب السوري المسرحية على صعيدي الكتابة والعرض)، كتاب باحثات، الممارسات الثقافية للشباب العربي، مجلد 14، 2010.



من مسرح نشأ بظروف سياسية مشابهة، وقام على بنية مسرحية مشابهة، فهو لم يعط الأولوية لبنية مسرحية تقوم على بناء درامي متماسك، بل اهتم بالفكرة أو الثيمة التي أراد كتاب النصوص التعبير عنها وتجسيدها، لأن مشروع هؤلاء الشباب هو مشروع ذو هدف سياسي يرمي إلى نشر الفكر التغيير، ودفع الناس باتجاه التغيير وحثهم على التعبير عن مواقفهم وآرائهم بجرأة. وبرز ذلك في أغلب النصوص، ما يدل على محاولة هؤلاء الشباب مخاطبة الناس الذين يشكّلون الجمهور وجماعات المتظاهرين، بلغة تخلو من الشعارات العقائدية المسقطة من أعلى، بل يستخدمون اللغة الطالعة من معاناتهم، والمعبرة عن تمردهم على اللغة المقعرة وعلى المصطلحات المؤدلجة، لغة تكتنز في دلالاتها معاني الثورة وتفتح على أنساق فكرية تغييرية.

ونحن في هذا السياق نرد على ما قالتها نهاد صليحة ومفاده: تكون معظم العروض الأدائية العديدة التي قدمت على مدار زمن الحراك التغيير ذات قيمة وقتية، فقد تزول بزوال الظرف التاريخي، لكن على الجانب الآخر يمكن القول إن هذا الزخم المسرحي لا بد أن يفرز في المستقبل كتاباً وفنانين ينتجون أعمالاً لا تفقد قيمتها بمرور الزمن<sup>(49)</sup>. صحيح أن هؤلاء الكتاب والمخرجين قد أنتجوا أعمالاً فنية تعبر عن هذا الحراك، وبالتأكيد هي فنون وليدة الظرف السياسي وتشابه نشأتها مع نشأة أي اتجاهات وتغييرات حديثة في الفنون، وهي إن دلت على شيء فهي تدل على الوعي المعرفي والفكري لدى هؤلاء الشباب، إذ نرى أن هناك نصوصاً تستطيع الاستمرار بثيمتها التي تنطبق على المراحل التي يسودها الفساد السياسي والاقتصادي. ولا نتردد في اعتبار أن هذه النصوص قد تمكنت من خلخلة المعاني والمفهوم السائد للثورة وللهوية، كما عملت على زعزعة السائد السياسي والمسرحي التقليدي، وخلقت ذلك «التماس بين الفرد كفنان والفرد كمواطن والناشط في ميادين الفعل الثوري، بحيث يتحد حسب صليحة - الأداء الثوري بالأداء الفني، وتستعيد فنون الأداء قيمتها وفعاليتها السياسية والاجتماعية»<sup>(50)</sup>.

(49) نهاد صليحة، نص الورقة في ندوة «أي ربيع للمسرح في الوطن العربي في ظل الربيع العربي؟» والتي عقدت ضمن فعاليات مهرجان المسرح العربي في الدوحة الدورة الخامسة من 10 إلى 15 يناير، تاريخ النشر 2013/4/2، عن موقع مسرح دوت كوم، وعن <http://www.alkhaleej.ae> 2014/1/2.

(50) مرجع نفسه.

## قائمة المراجع

- 1- الياس، ماري وحنان قصاب. المعجم المسرحي: مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2006.
- 2- البيلي، صفاء. زمن الخوف، مخطوطة، ديسمبر، 2011.
- 3- الربيع العربي... إلى أين؟ أفق جديد للتغيير الديمقراطي، تحرير عبد الإله بلقزيز، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.
- 4- صابر، محمد. «شباك مكسور وتقنيات السرد السينمائي» من نصوص مسرحية، جمهورية مصر العربية، تحرير وتقديم حسن عطية، ملتقى الشارقة لكتاب المسرح العربي، الدورة الأولى، 2011.
- 5- عبد المنعم، رشا. «شباك مكسور (صنع في مصر)»، مخطوطة، من مكتبي، رسالة من المؤلفة عبر الإيميل.
- 6- العزب، صفاء. «الفرق المسرحية الثورية ظاهرة فنية في مصر ودول الربيع العربي»، جريدة الشرق الأوسط، الثلاثاء 7 مايو 2013 العدد 12579.
- 7- علي، ميسون. «ممارسات الشباب السوري المسرحية على صعيد الكتابة والعرض»، كتاب باحثات: الممارسات الثقافية للشباب العربي، تجمع الباحثات اللبنانيات، بيروت، مجلد 14 (2009-2010).
- 8- الكبسي، بلقيس. الحافلة، مخطوطة، من مكتبي، رسالة من المؤلفة عبر الإيميل، 2011/12/1.
- 9- لوبون، غوستاف. سيكولوجية الجماهير. ترجمة وتقديم هاشم صالح، ط1، بيروت: دار الساقي، 1997.
- 10- مسعد، محمد. عن كتاب نصوص مسرحية، جمهورية مصر العربية، تحرير وتقديم حسن عطية، ملتقى الشارقة لكتاب المسرح العربي، الدورة الأولى 2011.
- 11- ملص، محمد وأحمد. الثورة غدا تؤول إلى البارحة، مخطوطة من أرشيف جمعية شمس في لبنان.
- 12- نصوص مسرحية، جمهورية مصر العربية، تحرير وتقديم حسن عطية، ملتقى الشارقة

- لكتاب المسرح العربي، الدورة الأولى 2011.
- 13- ياسين، السيد. التحليل الاجتماعي للأدب. بيروت: دار التنوير، 1982، ص 66. عن نهاد صليحة، الحرية والمسرح، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 14- حجازي، يوسف. «صادق جلال العظم يحسم أمره وينتقل إلى التنظير العلني للسنة ولفكر الإسلام السياسي البنزي» تعقيباً على محاضرة ألقاها صادق جلال العظم في برلين. راجع موقع قنطرة [www.quantara.de](http://www.quantara.de) للحوار مع العالم الإسلامي من نص المحاضرة. عن موقع جدلية، <http://www.jadaliyya.com/pages/index/11429>
- 15- السيد، سبعي. «مسرح الربيع العربي يتصدر المشهد في الندوة الدولية تحولات الفرجة/ فرجة التحولات»، 6/6/2012 طنجة - راجع [www.al-masrah.com](http://www.al-masrah.com) راجع - <https://www.ar-ar.facebook.com> الاتحاد العام للمهن الدرامية السودانية.
- 16- الطحاوي، عبدالله. حوار مع المفكر العربي عزمي بشارة الربيع العربي «صرخة وجودية من أجل الحرية والكرامة»، مجلة الأهرام الديمقراطية، 15/01/2013 [democracy\\_social@ahram.org.eg](mailto:democracy_social@ahram.org.eg)
- 17- عرض «صنع في مصر» يفتتح خطة الهناجر الجديدة، الأهرام المسائي، 2012-8-22 راجع موقع الأهرام الرقمي [digital.ahram.org.eg](http://digital.ahram.org.eg).
- 18- راجع موقع جامعة قناة السويس [www.scuegypt.edu.eg](http://www.scuegypt.edu.eg).
- 19- Abul-Fadel, Mona. «Paradigm in Political Science Revisited: Critical Option and Muslim Perspective.» In *The American Journal of Islamic Social Science*, 1. vo (2010).
20. Barrett, Michele. «Ideology and the cultural production of gender.» In *Feminist Criticism and Social Change*. Ed. Judith Newton and Deborah Rosenflet, London, Methuem, 1985, p. 68
- عن نهاد صليحة، مرجع سابق. p. 15. No. 1 September 1989. عن كنعان حمة غريب موقع قدوة [www.qudwal.com](http://www.qudwal.com).

# خطاب الاعتراض: «إرحل» أنموذجاً

نادر سراج

الجامعة اللبنانية

sragenader@gmail.com

## الملخص

«إرحل» هي إشارة لغوية *Signe linguistique*، ورسالة مكتفية بذاتها، سريعة الإبلّاغ، بيّنة المعنى، اتّلف معناها وشكلها داخل حقل دلالي سياسي. بلاغة الرسائل السياسية الشعبية التي أزهرت قطفها في خطاب الساحات العفوي والمباشر، تركت أثرها في صفوف مرّدي «إرحل» ومدوّنيها ومتناقليها على مواقع التواصل الاجتماعي، مثلما في التحليلات السياسية أو التعليقات الساخرة المصاحبة للرسوم الكاريكاتورية ناهيك عن النكات والنوادر والتشنيعات. هذا الضرب من البلاغة الشعبية، بلاغة الميادين والساحات، تمثّل في أبسط صوره في كلمة جميلة وأسرة، انتقلت من حيّز التمنيّ والطلب إلى مستوى الفعل التغيّري، فقلبت أنظمة، وبدّلت في موازين القوى في المنطقة. انطلاقاً من أن التمتع بروح النكتة وبأسلوب النقد الساخر يعتبران عاملين مفيدين لمواكبة عمليات الانزياح *écart* التي تلحق عادةً بهذا الشعار، وفي ظروف سياسية متقلّبة، فسنبين في مساهمتنا دينامية المدونة اللغوية التي أمدتنا بسيل من البدائل التعبيرية الطريفة، وأضفى من خلالها «روح الشارع المصري» على تعبير سياسي محض. ستضمن الدراية امثلة حيّة تعكس القدرات المتناهية للجمهور المصري على توظيف السخرية بوصفها صورة بلاغية للتعبير عن معانٍ متضادة وذلك باللجوء الى أساليب تقليل أو تسفيه أو «شورعة» الأقوال المنسولة من الفكرة المتمحورة حول الرحيل أو الإبعاد أو التسفير. إن اقتطاف *bricolage* الجمهور المصري أو استملاكه مواد متوفّرة لبلورة ملامح بلاغته الشعبية ساعدته على تقليب معاني الرحيل، وذلك بربطها مع منتجات تعود لعوالم غير سياسية (أغان، نكات، تعابير شعبية...) متبنيّاً بذلك إشارات لغوية من نصوص وعوالم أخرى متباينة، وموظفها في نصّ الترحيل. فالإيجاز في استخدامها، أو الإطناب، أو الإضافة إليها، ضاعف من تأثيرها لدى المتلقي الذي لم يفته بالطبع فكّ شيفرتها. لكنه استساغ ورودها في سياقات غير سياسية، طريفة ومأنوسة، لا يصال رسالة مباشرة إلى «من يهّمه الأمر».

الكلمات المفتاحية: الشعار السياسي؛ الهتاف؛ خطاب الاعتراض؛ القراءة اللسانية؛ رسالة

السيمائية؛ بلاغة الساحات؛ التضمين؛ التناص؛ الشباب العربي؛ الثورات العربية.

## Abstract

### Discourse of Objection: “Dégage» as a prototype

**Nader Sraj**

*This paper tackles the phenomenon of the clause equivalent, a one-word statement that functions as a word and formulates a highly significant, semantically condensed verbal clause. This paper studies the imperative clause equivalent “Irhal” – leave. It reflects in its single unit and tenor the state of the rebellious youth calling for change. The addressee is in effect the oppressive ruler whom the Arab revolutionary activists have demanded to depart immediately from power and the country along with his party and family. In this study we tried to locate the linguistic formula of ousting within the sarcastic protest discourse. We examined the different signifiers used to epitomize this idea. Adapting this concept to one of the possible realms of both the speaker and the recipient, and knowing the possible contexts for its use, is in fact similar to the processes of understanding, assimilating, and the ability to relate. This is what we noticed in the numerous expressions derived from this initial expression. The Arab youth excelled in reducing the signification of this clause equivalent to a political act for change, transposing this expressive type from the authoritarian lexicon to the de facto lexicon. The linguistic and cultural contexts for the use of “Irhal” and its colloquial equivalents show that the originator of this verb, the conditions of its creation, the identities of its recipients and those to whom the demand to leave was addressed differed from country to country. This diversification followed the evolutionary stages of the pronunciation of that these messages went through.*

**Keywords:** Arab revolutions; Arab youth; protest discourse; clause equivalent; Egyptian people; bricolage; linguistics.

## المقدمة

ثمة ظاهرة شهدتها ساحات بلدان «الربيع العربي»، وتمثلت بفعل الأمر «ارحل» بوصفه قولاً أحادي الكلمة يقوم مقام الجملة وظيفياً. هذا القول أدى دوره بجدارة في صوغ جملة فعلية مكثفة المعاني وبالغة الدلالة، عكست في شكلها الأحادي وفي مضمونها لسان حال الشباب المنتفض والمناادي بالتغيير، والذي اعتمد صيغة الأمر المختصرة - شكلاً ومضموناً - للتأكيد على إدراكه لأولوياته التغييرية السياسية. وبطبيعة الحال فالمرسل إليه المقصود بالكلام (صيغة الرحيل) هو الحاكم الجائر والظالم والفاسد الذي طالب ناشطو الثورات العربية برحيله الفوري عن الحكم، وعن البلاد، هو وأعدائه وأركان نظامه وحزبه وأفراد عائلته.

## تعريف

ندرس في هذه المقالة ظاهرة فعل الأمر «ارحل». ونعرّف أكثر مفهومنا لهذه الصيغة الآمرة بالرحيل. فهي كلمة من حيث الشكل، ولكنها تشتمل على مسند ومسند إليه، وتحمل معنى تاماً. وانطلاقاً من أن النسق الكتابي يقول بأن كل ما هو بين بياضين فهو يُعدُّ كلمة. لذا، فهي في العَدِّ كلمة واحدة، وهي في التراث النحوي على الإجمال كلمتان (فعل وفاعل مضمّر). ولكنها متى جاءت في بدء الجملة، أو على رأسها، فهي تشتمل على ما نسّميه متمّمات، مثل «ارحل وكفاية ظلم»<sup>(1)</sup>، حسبنا الله ونعم الوكيل»، و«ارحل يا ظالم»<sup>(2)</sup>.

المثال المعروف والأكثر شهرةً هو ذلك الذي أُطلق بالفرنسية في تونس: dégage<sup>(3)</sup>،

(1) Mia Gronalahl, Ayman Mohyeldin, **Tahrir Square**, Cairo, The American University in Cairo Press, first edition, 2011, p.62.

(2) Karima Khalil, **Message from Tahrir**, Cairo, The American University in Cairo Press, Cairo–New York, first edition, 2011, p.53.

(3) استعيد هذا الشعار الفرنسي في كاريكاتور سياسي، منشور في صحيفة **Libération** (9/12/2010)، بعنوان «بوتين والربيع الروسي» وعلى لسان الرئيس الروسي بوتين الذي يخاطب معارضيه بالقول: Dégage.

وما لبث أن استعاد لبوسه العربي ونبضه الجماهيري في ساحة التحرير بالقاهرة، وهو «ارحل»، وما نشأ عنه من نظائر أو أخوات بالعربية، الفصيحة أو بمحكياتها، وبالإنكليزية Go out. وسرعان ما صدحت به حناجر المتظاهرين في أكثر من مدينة عربية من طرابلس الغرب وبنغازي إلى صنعاء مروراً بدمشق وحلب... وصولاً إلى المنامة.

القول الأحادي «ارحل» الذي ندرسه كنموذج للشعار الاعتراضي الملفوظ، فاز، بترجمته الفرنسية «ديغاج»، بلقب «كلمة عام 2011» في مهرجان فرنسي لعشاق اللغة، لأن لجنة التحكيم وجدت فيه «تعبيراً بليغاً يلخص الثورات<sup>(4)</sup>، فهذه الكلمة البليغة الموجزة هزت كراسي الحكم في أكثر من دولة عربية» خلال الأشهر الماضية. ووفق مبدأ «عولمة الغضب»، انتقلت عدواه التعبيرية حتى إلى إسرائيل، حيث حمل الطلاب الجامعيون يافطات باللغتين العبرية والعربية وحملت شعار «ارحل<sup>(5)</sup>»، كما حملوا يافطات ساخرة جاء فيها «بعد مبارك والأسد، فليسقط نتنياهو». ووصل الشعار لاحقاً إلى مواقع التواصل الاجتماعي، حيث لم تسلم لندن من التعليقات على «انتفاضة لندن»: ارحل (دفيد كاميرون) يعني GO بتفهم وللا NO!<sup>(6)</sup> وفي السياق نفسه، يبدو أن مفاعيل الربيع العربي تمددت، فصار الكلام عن «الربيع الأميركي» حيث ساحات التحرير في المدن الأميركية، والقمع يغذيها<sup>(7)</sup>، وعن «الربيع الروسي». وحتى الرئيس الإيراني أحمدني نجاد، لم يسلم من مفاعيل هذه الصيغة ونظائرها. فقد رفعت لافتة في مدينة ريو دي جانيرو اعتبرته غير مرغوب فيه، وطالبته بالعودة إلى دياره: AHMADI NEJAD GO HOME.<sup>(8)</sup>

واستتباعاً لتداعيات فعل الأمر هذا المحفز والداعي إلى الرحيل، ثمة كاريكاتور مصري طريف (أخبار اليوم 16/5/2011) يظهر الرؤساء الأسد والقذافي وصالح منمكين في القراءة مع تعليق: «بيدوروا في القواميس على معنى كلمة

(4) خبر بعنوان «مهرجان فرنسي لعشاق اللغة»، صحيفة الشرق الأوسط، 3/6/2011.

(5) صورة لمتظاهرين يحملون هذا الشعار منشورة في كل من صحيفة الشرق الأوسط، 11/8/2011، ومجلة الوطن العربي، 24/8/2011.

(6) تحقيق بعنوان «انتفاضة لندن» منشور في صحيفة السفير، 12/8/2011.

(7) خبر بعنوان «تحركات الشارع الأميركي» منشور في صحيفة الأخبار، 8/10/2011.

(8) تحقيق عن زيارة الرئيس الإيراني إلى البرازيل، منشور في صحيفة The Daily Star، 22/6/2012.

«ارحل»<sup>(9)</sup>. كما تم إطلاق هذا الفعل «ارحل» اسماً لمسرحية كوميدية عرضت في عمان خلال شهر آب 2012، وعالجت الفرق بين ثورات العسكر ومآخذ المثقفين<sup>(10)</sup>. كما باتت الصيغة الفرنسية Dégage عنواناً لكتاب عن شعارات الثورة التونسية صدر بالفرنسية عن منشورات ALIF 2012.

### أ- مفهوم الرحيل في قراءة لسانية أولية

القراءة اللسانية لهذا النموذج الرائج لخطاب الاعتراض الشعبي تفيدنا أن «ارحل» هي علامة لغوية Signe linguistique، ورسالة مكتفية بذاتها، بليغة المضمون، مكثفة الشكل، سريعة الإبلاغ، بينة المعنى دالاً ومدلولاً. ائتلف معناها وشكلها داخل حقل دلالي سياسي لم تخف دلالاته على الشارع المنتفض في أكثر من بلد، وبشكل غير مسبوق في العالم العربي.

شقت هذه الصيغة الأمرة والسهلة التلفظ والسحرية الوقع والبالغة المفعول، طريقها بسرعة قياسية في بلاغة الساحات، واخترقت أدبيات السياسة العربية بلا استئذان. ذاع صيتها في بلدان «الربيع العربي» التي أينعت في بيئاتها المنتفضة، وفي سواها من البلدان الشقيقة المؤيدة والمتعاطفة، أو الصديقة المتضامنة، وحتى العدو منها.

هي باختصار صيغة فعل الأمر «ارحل» التي لم تنب من فراغ، إذ قطفها الجمهور من حديقته التعبيرية الغناء، واستحضرها من حصيلته اللغوية الكلاسيكية. تفنن الجمهور المنتفض في طرائق استخدامها إذ حملها في لافتات<sup>(11)</sup>، ولهجت بها شفاهه في أكثر من مناسبة، ولحنها في أهازيج شعبية، وغناها على إيقاعات الراب<sup>(12)</sup>، ومسرحها في أكثر من شكل إبداعي، وتفنن في رسمها على

(9) تعليق بعنوان «الإعلام المصري يعكس رأي الشارع في تأييده ثورات العرب»، وتضمن رسماً كاريكاتورياً (فكرة أحمد رجب، ريشة مصطفى حسين)، منشور في صحيفة أخبار اليوم، 16/5/2011.

(10) تحقيق لجمال عباد بعنوان «ارحل... كوميديا الفرق بين ثورات العسكر ومآخذ المثقفين»، منشور في صفحة «منوعات»، صحيفة الحياة، 13/8/2011.

(11) Messages from Tahrir, p. 83.

(12) أغنية «ارحل»، أداء وتلحين الفنان الشاب رامي عصام المعروف بـ «مغني الثورة»، هي عبارة عن كلمات مركبة من هتافات المتظاهرين. انظر كتاب من إعداد مجموعة مؤلفين، بعنوان الأنماط غير التقليدية للمشاركة السياسية للشباب في مصر (أعمال ندوة)، القاهرة، منتدى البدائل العربي للدراسات، نشر وتوزيع «روافد»، 2012، ص 261.



مركبات<sup>(13)</sup> وعلى جداريات المدن<sup>(14)</sup>. وفي المحصلة رفعها «بطاقة حمراء»<sup>(15)</sup> في وجوه حكامه الجائرين هم وأعوانهم وحاشيتهم وأقاربهم وأحزابهم وكل المنتفعين الذين لطالما اضطهدوه، واغتصبوا حقوقه، وعاثوا في الأرض فساداً.

بلاغة الرسائل السياسية الشعبية ذات الطبيعة الاعتراضية مثل «ارحل» و«كفاية»<sup>(16)</sup> اللتين عرفهما الجمهور المصري منذ عام 2004، والتي أزهرت قطوفها في خطاب الساحات العفوي والمباشر، تركت أثرها البالغ في صفوف الشباب المنتفض الذي حمل لواء هذه الصيغة الاعتراضية المكثفة، «ارحل». فتناقلها هو ومدونيهام وملتقىها على مواقع التواصل الاجتماعي وعلى الشبكة العنكبوتية، مثلما في التحليلات السياسية أو التعليقات الساخرة المصاحبة للرسوم الكاريكاتورية ناهيك بالنكات<sup>(17)</sup> والنوادر والتشنيكات.

الوجوه المتعددة التي ارتدتها هذه الكلمة التي ذاع صيتها - عربياً ودولياً - خلقت أجواءً شعورية إيجابية في ذوات المتلقين بعدما دخلت عوالمهم التعبيرية، وأيقظت الكوامن في دواخلهم، وحزّت مطالب محقّة ومزمنة لطالما أعاق تحقيقها من يطالبون برحيلهم بعيداً عن البلاد والعباد. وقعت هذه الصيغة الأمرة بالرحيل موقعاً حسناً في نفوس المتظاهرين، وشكلت سلاحاً اعتراضياً شهروه لإعلاء أصواتهم ولرفع الضيم والقهر والظلم التي عانوا منها، لدرجة أنهم لم يجروا على المجاهرة بمخاطبة الرؤساء ومساءلتهم، فكيف بالمطالبة برحيلهم وإسقاط أنظمتهم والمناداة العلنية بأسمائهم الصريحة هم ومعاونيهم<sup>(18)</sup> وأقربائهم المباشرين.

(13) رسم الشعار على عربة عسكرية وعلى مدرّعة وعلى صهريج. انظر كتاب مليحة مسلماني، جرافيتي الثورة المصرية، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2013، ص 45.

(14) ثمّة صورة التقطتها سارة كار لجدار في شارع مارييت باشا (وسط القاهرة)، منشورة في كتاب الجدران تهتف، جرافيتي الثورة المصرية، القاهرة، زيتونة، ط1، 2012، ص 50.

(15) شعار مشابه يدعو لرحيل مبارك «مبارك بزه» كتب على كرتونة حمراء، رفعه متظاهر يرتدي ملابس حكم رياضي ويحمل صافرة ويضع على صدره شعار «الشعب هو الحكم». انظر: Message from Tahrir, p.132.

(16) «كفاية إهانة» شعار رفعه متظاهر في ميدان التحرير، وأدرج في كتاب Messages from Tahrir, p. 89.

(17) يورد عبد الحلیم طه في كتابه زلزال 25 يناير وتوابعه، صورة X كاريكاتير، القاهرة، لا دار نشر، ط. 2011، ص 20. صورة مركبة لمظاهرة تنادي برحيل مبارك الذي يرذ: «غيرت الوزارة... عينت نائب».

(18) ثمّة رسلمان لمبارك (بورتريه) مع عبارتي «ارحل» و«غور» في وسط البلدة وثمّة شعاران مدوّنان يدعوان إلى رحيل عمر سليمان («مكيا في مبارك» و«عميل»)، مدرجان في المرجع السابق، ص 24، 45، 48، 49.

هذا الضرب من البلاغة الشعبية، بلاغة الميادين والساحات الذي واجه بجرأة ملحوظة بلاغة الخطاب السلطوي، تمثل في أبسط صورته في صيغة فعلية أمرّة وآسرة، مبنئاً ومعنى، انتقلت من حيّز التمني والطلب والمناشدة إلى مستوى الفعل التغيير. فأسهمت ومثيلاتها في قلب أنظمة، والإطاحة بحكّام، ووأد مقولة التوريث السياسي، وبدلت في موازين القوى في المنطقة. مفتاح الثورات العربية في الألفية الثالثة هذا لم يحتج إلى «مانفستو» مؤدج، ولا إلى «البلاغ رقم واحد»، كما لم يستعن بمنبريات المذيع أحمد سعيد ولا بعنتريات وزير الإعلام العراقي السابق محمد سعيد الصحّاف.

هي وسيلة تعبير متكاملة ومركّزة اختُلف - كالعادة - في أبوّتها<sup>(19)</sup> وفي تاريخ ولادتها. فالكويتيون<sup>(20)</sup> يعيدونها إلى عام 2009 الذي طالبوا فيه برحيل رئيس الوزراء. واللبنانيون يتذكّرون جيداً أنهم الأوائل في رفع شعار «فلّ»، أي «ارحل»، في وجه الرئيس السابق إميل لحود في عام 2005، وأعادوا رفعه أخيراً في وجه السفير السوري في لبنان: السفير السوري فلّ عاليت<sup>(21)</sup>.

ولكن التونسيين الذين رفعوا المقابل الفرنسي له <sup>(22)</sup> Dégage في عام 2010، والمصريون الذين استلّوه من رحم لغتهم الأم ابتداءً من عام 2004، هم السباقون على ما نظن. لأن هذا التعبير السياسي وأمثاله تحوّل على أيديهم - وفي حناجرهم - أفعالاً سياسية وتغييرية بالفعل لا بالقوة. وعلى أي حال، فهي ونظائرها نتاج بلاغة شعبية أفادت في الحقيقة من البلاغة اللسانية في مختلف توجّهاتها وآليات عملها ورمزية دلالاتها. لهذا، خصّصنا لها حيّزاً في دراستنا اللسانية عن منظومة الشعارات السياسية بين العامين 2011 - 2012، وقارنّا بين مختلف استخداماتها في أكثر من

(19) مفهوم «أبوة الشعار» اعتمد هنا نسجاً على منوال نظام الأبوة، النظام الاجتماعي الذي تخضع بمقتضاه مجموعة من الأسر المشتركة في الدم لسلطة حاكم هو أكبر الذكور فيها. معلومة مستقاة من المنجد في اللغة العربية المعاصرة، بيروت، دار المشرق، ط2، 2001، ص 4.

(20) صحيفة الكويتية، 27/8/2012.

(21) انظر تحقيق عن تظاهرات معادية للنظام السوري نظمت في بيروت، وتضمّنت لافتة رفعها تجمّع للمعارضة في ساحة رياض الصلح. صحيفة النهار، 29/10/2012.

(22) رفع الشعار الفرنسي نفسه في وجه رئيس الحكومة اللبنانية نجيب ميقاتي Mikati Dégage بعد تشييع اللواء الشهيد وسام الحسن. الصحف اللبنانية، 22/10/2012.

قطر عربي حصد أو يكاد قطوفها الدانية<sup>(23)</sup>.

وانطلاقاً من أن التمتع بروح النكتة وبأسلوب النقد الساخر يعتبران عاملين مفيدين لمواكبة عمليات الانزياح écart التي تلحق عادةً بهذا الشعار وأمثاله من قبل متلقّيه ومتداوليه، وفي ظروف إعادة إنتاج ساخنة أو متقلّبة، فقد أظهرت مدونتنا اللغوية سيلاً من البدائل التعبيرية الطريفة التي استولدها الجمهور من عوالمه الحياتية ومن لدن تعابيره اليومية، وأضفى على تعبير سياسي محض «روح الشارع المصري»، المعروف بالحسّ النقدي الممزوج بخفة الدم.

وقد استشهدنا في هذه المقالة بأمثلة حيّة عكست القدرات المتناهية للجمهور على توظيف السخرية بوصفها صورة بلاغية للتعبير عن معانٍ متضادة، وذلك باللجوء إلى أساليب تقليل أو تسفيه أو تضخيم أو «شؤرعة» الأقوال المتناسلة، على ظرفٍ وذكاءٍ، من الفكرة المتمحورة حول الرحيل أو الإبعاد أو التسفير.

إن اقتطاف<sup>(24)</sup> bricolage الجمهور أو استملاكه موادّ متوقّرةً لبلورة ملامح بلاغته الشعبية بغية تقليب معاني الرحيل، أو الصيغ القولية المعبّرة عنه، أو الداعية والمشجّعة على حصوله، أكدت قدرته الذكية على ربطها مع منتجاتٍ غير سياسية (أغان، نكات، تعابير شعبية، مسكوكات لغوية...)، متبنيّاً بذلك إشاراتٍ لغويةً من نصوصٍ متباينة وعوالمٍ أخرى، ومؤقلمها، وموظفاً إياها في نصّ الترحيل. ولتتمثل على ذلك، نشير إلى ضروب الاقتطاف والتناص الحاصلة من نصوص تعود لعوالمٍ أخرى، مثل عالم «كليلة ودمنة» أو عالم الحيوان (البقرة الضاحكة، الحمار)، وعالم السفر (الطيران، الفيزا)، وعالم الرياضة (الزمالك، التحكيم، الاتحاد السكندري)، وعالم الملابس (كلسون رجالي)، وعالم المستلزمات المكتتية (الأجندات)، وعالم الفن (مسرحيات)، وعالم التجميل (الشعر، الذقن)، وعالم المشاهير والمبدعين (مكيافلي).

(23) مصر الثورة وشعارات شبابها، دراسة لسانية في عفوية التعبير، هو عنوان الكتاب الذي أنجزناه بدعم من المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت في عام 2012، وسيصدر في منتصف عام 2014 عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

(24) قارن بكتاب دانيال تشاندلر أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط6، 2008، الثبت التعريفي، ص 435. والمصطلح استحدثه ليفي ستراوس.

والملاحظ أن الإيجاز في استخدام هذه الصيغة الأمرة (كلمة مفردة)، أو الإطناب (جمل خبرية وإنشائية تندرج فيها صيغة الأمر مع مختلف نظائرها وصيغها الفعلية)، أو الإضافة إليها (تفاصيل وامتّات)، ضاعف من تأثيرها لدى المتلقي الذي لم يفته بالطبع فكّ شيفرتها. لكنّه استساغ ورودها في سياقاتٍ غير سياسية، طريفةٍ ومأنوسة، وتمتّ إلى عالمه اليومي بصلةٍ وثيقة، واستمتع بترديدها - أو كتابتها أو رسمها - لإيصال رسالة مباشرة إلى «من يهّمه الأمر»، وللمشاركة الجماعية في «واجب» التغيير على كافة صعدته.

والمتلقون لهذه الرسالة السياسية لم يسمحوا بأن تذهب بهم اللغة - وهي هنا مأخوذةٌ في نموذجها المتناهي الصغر، والمتمثل بفعل الأمر «ارحل» - بعيداً على «سلم التجريد»<sup>(25)</sup>، أكثر مما يريدون. وفي الحقيقة لا يريد المتكلم العادي، ولا هو يدرك قدرته على تقليب المعاني، أو يعلم بوجود مستوياتٍ تجريدٍ مناسبة. فاللسانيون هم الذين يقومون عادةً بهذه المهام بالنيابة عنه.

«انزلاق» عملية التخاطب الذي قام بين المواطن من جهة، والحاكم الذي لا يزال متمسكاً بكرسيه وبامتيازاته ولا يبدي «حياةً لمن يناديه» من جهة ثانية، من مستوى إلى آخر، في لعبة التواصل المتمحورة حول فعل الأمر «ارحل»، لم يسهم في تجهيل النوع الذي تنتمي إليه «رسائل الترحيل» الموجهة إلى مبارك ونظرائه.

## مدلولات فكرة الرحيل

بعد تقديم صيغة الترحيل في ثنايا خطاب الاعتراض الساخر، نستعرض مختلف المدلولات المستخدمة لإيجاز فكرة الترحيل. تعريف المدلول ومجالات استعماله وفهمه كانت موضع اهتمام كبار علماء اللغة. فأمبرتو إيكوي يعرّف في كتابه السيميائية وفلسفة اللغة المدلول في مرحلة أولى على أنه كل ما من شأنه أن يميّز إرجاعاً ما إلى عالم ممكن<sup>(26)</sup>. ومن جهته، يقول فيتغنشتاين إن مدلول كلمة هو

(25) المصطلح مستخدم في الترجمة العربية لكتاب أسس السيميائية، ص 132.

(26) فكرة مدرجة في كتاب السيميائية وفلسفة اللغة، ص 134، ومنقولة عن فيتغنشتاين في كتابه *Philosophische*

*Gramatik*, hrsg. 0Von rush Rhees (Oxford: B. Black Well, [1969], p. 49.

استعمالها في اللغة، وإن فهم كلمة يعني معرفة استعمالها والقدرة على تطبيقها<sup>(27)</sup>. إرجاع مفهوم الرحيل أو الترحيل في ذهن كل من المرسل والمتلقي الى عالم ممكن من عوالمهما، ومعرفتهما بالسياقات الممكنة لاستخدامه، هو في الحقيقة موازٍ لعمليات الفهم والاستيعاب والقدرة على التطبيق، وهذا ما ستظهره الصيغ العديدة المولدة من صيغة الترحيل الأساسية. وندرج استشهادين يكملان الفكرة المساقاة هنا، أوردهما كتاب أسس السيميائية. الأول لـ ليفي ستراوس ويقول فيه إن «الفهم يعني تحويل... نمط من الواقع إلى نمط آخر»<sup>(28)</sup>. أما الثاني فهو لـ غريماس، ويعتبر فيه أن «الدلالة.. ليست إلا.. النقل من مستوى لغوي إلى آخر، من لغة إلى أخرى، وليس المعنى سوى إمكانية هذا «التحويل»<sup>(29)</sup>.

وبكلمة، فقد حوّل الشباب العربي بامتياز دلالة فعل الأمر هذا إلى فعل سياسي تغييري، ونقلوا هذا النمط التعبيري من القاموس السلطوي إلى قاموس الأمر الواقع.

### الاستنتاجات والملاحظات

بعد أن قمت بالتحليل أورد مجموعة من الاستنتاجات والملاحظات. إن التحليل اللساني حول صيغ «ارحل» الأمرة التي وردت مع مصدرها ومع مختلف صيغها الفعلية حوالي مئتي مرة<sup>(30)</sup>، في مختلف الشعارات العربية المجموعة على مدى العامين المنصرمين أدى إلى الاستنتاجات والملاحظات التالية:

### أبوة الشعار

ثمّة تنازع على أبوة هذا التعبير السياسي الذي ذاع صيته خلال الانتفاضات غير المسبوقة في العالم العربي والتي لم تنته فصولاً بعد، وغالباً ما تُسمّى «الربيع

(27) أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط 2005/1، الثبت التعريفي، ص 462.

(28) أسس السيميائية، ص 134، وهو مأخوذ من كتابه *Tristes Tropiques*, translated by John Russel (New York: Criterion, 1961), p. 612.

(29) المرجع السابق، ص 134، وهو مأخوذ من كتابه *Du Sens ; essais sémiotiques*, (Paris: Edition du Seuil, [1970-1983]), p. 13.

(30) مئة ومئتان في مصر، وثمان وعشرين في اليمن، وست في كل من ليبيا وتونس، وأربع مئتان في البحرين، فيكون المجموع مئة وأربع وتسعين مرة.

العربي»<sup>(31)</sup>. فقد اعتبر الكاتب الكويتي (طارق المطيري) أن الفضل في إطلاقه يعود إلى الشباب الكويتي الذي نظّم في 27 تشرين الأول 2009 حملة بعنوان «ارحل»، هدفها إسقاط رئيس الوزراء ناصر الحمد<sup>(32)</sup>. واعتبر أن الإنجاز السياسي الذي تمثّل باستقالة رئيس الوزراء لم يكن على مستوى الكويت فقط، بل على مستوى كل الأنظمة الوراثية العربية، وكانت تلك الخطوة الأولى<sup>(33)</sup> في أدبيات السياسة العربية.

### بين الأشكال اللغوية والصور المجازية

صيغة الأمر «ارحل» وردت في أكثر من بلد منتفض. ووردت أيضاً في جمل مفيدة، عامية بأغلبها. وحلّت الفصحى في مرتبة ثانية<sup>(34)</sup>، والإنكليزية في مرتبة ثالثة<sup>(35)</sup>، والفرنسية<sup>(36)</sup> في المرتبة الأخيرة<sup>(37)</sup>. حضرت اللغة الإنكليزية لدى الكلام عن الرؤساء علي عبد الله صالح<sup>(38)</sup>، والقذافي<sup>(39)</sup>، والأسد<sup>(40)</sup>.

صيغ الأمر المنادية برحيل الرؤساء تميّزت أساليبها وفق منشئها. ففي مصر غلب الطابع الفكاهي والساخِر الذي رفع الكلفة أحياناً (يا عمّ، طير إنت، يا حسني كحّ، حسّ على دمك..)، والذي استحضّر أفراد العائلة والنوادي الرياضية وأبناء المناطق والجيش (طنطاوي وسليمان). وفي تونس طاول طلب الرحيل بن علي، وحزبه وأعضائه، وبرلمانها، وحكومته، (حكومة بوكيمونية) ووزراءه، وجفري فيلتمان وحكيم قروي والسفير الفرنسي Boris Boillon الذي ردّد المتظاهرون طلب رحيله

(31) توصيف ورد في محاضرة للوزير السابق غسان سلامة، منشور في صحيفة النهار، 14/10/2012.

(32) صحيفة الكويتية، 27/8/2012.

(33) الخبر ذكرته صحيفة فرنسية: Le Courier International, 27/9/2012.

(34) 32 في مصر، 20 في سورية، 6 في اليمن، 2 في ليبيا، و1 في تونس.

(35) 8 في مصر، 6 في سورية، 6 في اليمن، 2 في ليبيا.

(36) لحقت هذه الصيغة بالرئيس المصري محمد مرسي مزة واحدة بالفرنسية Dégage، في كاريكاتور لـ Plantin

منشور في مجلة، L'Express, N 3206, 12.12.2012.

(37) 1 في مصر، 3 في سورية منها واحدة، في مظاهرة سورية في بروكسل، 32 في تونس منهما اثنتان مشتركتان بين الفرنسية والإنكليزية.

(38) مزة واحدة بالإنكليزية.

(39) مرّتان بالعربية ومرّتان بالإنكليزية.

(40) الأسد مزة واحدة بالإنكليزية في لافتة مرفوعة في اليمن.

بالفرنسية Dégage تحت نوافذ السفارة<sup>(41)</sup>.

التوصيفات والصور المجازية المسبغة على الرؤساء، المطالبين بالرحيل، اتسم بعضها بالطرافة والسخرية (بارد، البيه، غبي، ابن الورمة، تِنِح، بَجَم<sup>(42)</sup>، حمار، كلب، البقرة الضاحكة، خنزير)، وبعضها الآخر بالإدانة والتنديد (قاتل، قاتل الأطفال tueur des enfants، جبان، فرعون، بغيض، طاغي، ظالم، ديكتاتور، جنرال الدم، بَجَم، هولوكو، سفّاح، السفّاح).

نظائر صيغة الأمر «ارحل» تعددت في مصر (غور<sup>(43)</sup>، غوور، اطلع بزّه، امشي، انزل، طير، انجز، فكك منّا، اخلع)؛ وفي اليمن (تراجع، بزّع<sup>(44)</sup>، تنحّ، حلّ)، وفي ليبيا (حلّ) يطلع بزّه<sup>(45)</sup>، اطلع بزّا)، وفي تونس (ارحل، ارحلوا، استقبلوا، على بزّا أو بزّه). وقد لفتنا أن فعل «حلّ/ حلّ عنّا» لم يرد في الشعارات المصرية كبديل أو نظير لفعل «ارحل»<sup>(46)</sup>.

الشعارات المضادة المطالبة ببقاء الرئيس لحظت في سورية (لن يرحل)، وفي اليمن (لن يرحل، لا ولن يرحل)؛ والجمل الثلاث كتبت بالفصحى (لغة السلطة على ما يبدو). وفي مقابل الصيغ الأمرة بالرحيل، ثمّة صيغة أدرجت في شعار رفعته إحدى مناصرات الرئيس مبارك وتطالبه بالعودة أو الرجوع «ارجع يا مبارك»<sup>(47)</sup>.

Le Monde, 28/8/2012. (41)

(42) يذكر عبد المنعم عبد العال في كتابه معجم الألفاظ العامية المصرية ذات الأصول العربية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1971، ص.30، أن بَجَم بمعنى قليل الفهم والإدراك، عيبي لا يستطيع الكلام.

(43) استخدم المتظاهرون المصريون هذا الفعل لدعوة القذافي للرحيل «يا قذافي غور غور (ارحل).... حلي ليبيا تشوف النور». انظر مقالة أحمد رحيم، بعنوان «في ميدان التحرير: مصر ليبيا يد واحدة». صحيفة الحياة، 26/2/2011.

(44) مفردة بزّع تستخدم للحثّ على الرحيل. وسبق أن وردت في هتاف شعبي رفع في عدن في الستينيات وجاء فيه: «ساعة التحرير دقت... بزّع بزّع يا استعمار».

(45) ورد شعار «ليبيا... حزه... حزه... والقذافي يطلع بزّه» في رسم كاريكاتوري يمثل خريطة ليبيا وهي ترفس برجلها الافتراضية القذافي. الرسم رفعه متظاهر في مدينة طبرق (اب) واندرج في خبر منشور في صحيفة الحياة، 24/2/2011.

(46) صيغة النفي المؤكّد هذه وردت أيضاً على لسان وزير الخارجية الفرنسية لوران فابيوس الذي نقل عن نظيره الروسي لافروف، «الأسد لن يرحل أبداً». وقد أدرجت هذه الجملة عنواناً في صحيفة النهار، 15/10/2012.

(47) صورة لوكالة رويترز تتضمّن هذا الشعار، مع تعليق للصحيفة، «مؤيدو مبارك يطالبون بعودته إلى السلطة» منشورة في صحيفة الجمهورية، 5/1/2012.

والصيغة تفهم هنا بمعنى المناشدة والتمني أكثر منها بمعنى الأمر.

ارتبطت فكرة المطالبة برحيل الرئيس بضرورة العودة إلى الدراسة في كل من مصر وسورية. في الأولى (مصر) صيغ الشعاران بالعامية وبأسلوب شُرطي فكاهي: (امشي [إلى المدرسة] هو يمشي)، (انجزْ عندنا ثانوية عامة). وثمة شعار واحد، نسوي هذه المرّة، جاء بصيغة استفهامية ساخرة: «يا سوزان قولي للبيه مش حيرحل ولا إيه»<sup>(48)</sup>.

تردّت صيغة الأمر «ارحل»، بمختلف ضمائرهما الفردية منها والجماعية<sup>(49)</sup>. وورد الفعل نفسه بصيغة المضارع المنصوب بـ«لن»، أو المسبوق بأداة نهي «لا»، أو بسين التسويف «سترحل»، أو بالهاء التي تقابل الحاء في العامية المصرية «هترحل»<sup>(50)</sup>. ووردت الصيغة المصدرية بمعدّل تسع مرّات في مصر: «رحيلك»، «رحيل»، «رحلك»، و«الرحيل».

صيغة الأمر المنادية برحيل الرؤساء دُرست هنا بشكلها المدوّن المرفوع في اللافتات. ويبقى أن نشير إلى أن الجمهور تداولها بالطبع بشكلها الشفهي في التظاهرات حينما ردّد هتافاً «ارحل» و«انزل» مع إيقاع قضى بلفظها بمقطعين: «ارْحَلْ»، «انْزَلْ».

رفع المصريون في وجه مبارك شعاراً تهكيمياً يعني بالهيريوغليفي «ارحل»، وآخر بالعبرية «بالعبري يمكن مبتفهمش عربي»<sup>(51)</sup> في حال لم يفهم المغزى بالعربية، لغته الأمّ. وبغية التأكيد من وصول الرسالة إلى متلقيها، رفع التونسيون يافطة دوّنت عليها مرادفات لفعل «ارحل» بلغات عديدة مثل: الفرنسية، الإسبانية، الروسية، الصينية، وصولاً إلى العامية التونسية<sup>(52)</sup>.

(48) عنوان لخبر عن تظاهرة مطالبة برحيل مبارك، صحيفة الشرق، 2011/1/2.

(49) بمعدّل 72 مزة في مصر، 38 مزة في سورية، 25 مزة في اليمن، وأربع مرّات في ليبيا، ومرّتين بصيغة الجمع، بالعربية وبالفرنسية في تونس، ومزة واحدة في كل من سوريا واليمن، ومزة في البحرين.

(50) نشرنا مقالة في صحيفة الحياة (2011/3/26)، بعنوان، «شواهد تحوّل الأصوات في «ثورة الغضب» المصرية»، تناول شيوع هذه الظاهرة في الخطاب الشعاري المصري، المدوّن بالعامية.

(51) Tahrir Square, p. 91.

(52) انظر كتاب Dégage, La Révolution Tunisienne, (Livre témoignages), Alif, Editions du

Layeur, France info, 2011, p. 79.



بغية إيصال الرسالة القاضية برحيل الرؤساء، عمد المتظاهرون إلى إدراج شروحات وتفسيرات للمعاني المفترضة لفعل «ارحل»، إن بالعربية الفصحى أو العامية، أو عن طريق إيراد مقابلات إنكليزية وفرنسية، وذلك لمزيد من التأكد من وصول فحوى الرسالة بأسرع وقت ممكن إلى المتلقي الوحيد، وهو هنا «الرئيس». كما تضمّن شعار تونسي كُتب بالإنكليزية «out»، صيغة تأكيدية بالعربية «بكل حزم»<sup>(53)</sup>.

تشاركت الشعوب في دعوة رؤسائها المباشرين للرحيل مشيرةً في الآن نفسه إلى ضرورة الاقتداء بأخرين سبقوهم، أو معتبرةً أنهم يستحقون أن يلاقوا المصير نفسه لزملاء لهم. وهكذا ذُكر كل من الرئيسين صالح والأسد في اليمن، وبن علي والقذافي في تونس، والقذافي والأسد في سورية.

### متلقو صيغة الرحيل

ذُكر اسم الرئيس المعني بالرحيل في مصر صراحةً<sup>(54)</sup>، وذكر أيضاً لقب المشير طنطاوي<sup>(55)</sup>، واسم العائلة للفريق سامي عنان رئيس الأركان ونائب رئيس المجلس العسكري ولنائب الرئيس عمر سليمان<sup>(56)</sup>، والسفير الإسرائيلي<sup>(57)</sup>، وفي شهر تشرين الثاني / نوفمبر 2012، ذكر اسم مرسي في هتاف: حرية حرية... مرسي ارحل<sup>(58)</sup>، يا مرسي ارحل<sup>(59)</sup>.

وفي تونس، ذكر بن علي<sup>(60)</sup>، ورئيس وزرائه محمد الغنوشي<sup>(61)</sup>، ووزير التربية

Dégage, p. 126. (53)

(54) اثنتا عشرة مزة بالعربية منها واحدة ذكر فيها اسمه الأول، وثلاث مَزَات بالأجنبية على شكل منادى.

(55) مزة بالعربية ومزة بالإنكليزية.

(56) جرافيتي الثورة المصرية، مرجع سابق، ص 24 .

(57) مَزَات بالعربية.

(58) الهتاف رذده شباب الألتراس، وأدرجته الصحيفة في تقريرها المعنون: «الحركة التصحيحية» لمرسي تركزه «فرعوناً» وتعمّق الاستقطاب السياسي، صحيفة النهار، 24/11/2012.

(59) كتبت العبارة بالطبشور على أرض الميدان بتاريخ 23/11/2012. وأمام قصر الاتحادية الغلبة لـ «النيوت»، تقرير لـ محمود حسين، بعنوان، «ميدان التحرير يجمع فرقاء الأمس»، صحيفة الشرق الأوسط، 24/11/2012 (الصورة منقولة عن رويترز).

(60) ثماني مَزَات بالفرنسية وأربع بالعربية.

(61) ثلاث مَزَات بالعربية ومزة بالفرنسية.

في حكومة الجبالي التي شكّلت بعد إطاحة بن علي الطيّب البكّوش<sup>(62)</sup>، كما ذكر كل من السفير الفرنسي بورييس بويون<sup>(63)</sup> وحكيم قروي<sup>(64)</sup>، والسفير الأميركي جفري فيلتمان<sup>(65)</sup>، والقذافي<sup>(66)</sup>.

صيغة فعل الأمر العامية «غور» يعود استخدامها الأول للناشط محمد نعيم في 27/2/2011<sup>(67)</sup>. وهي لم تُستخدم فقط للتوجّه إلى مبارك. فقد وردت ضمن تعليق على رسم كاريكاتوري بخصوص اعتصام المتظاهرين المصريين أمام مقرّ السفارة الإسرائيلية بالقاهرة على خلفية قتل القوات الإسرائيلية خمسة من رجال الأمن المصريين<sup>(68)</sup>. كما استخدمت بصيغة الجمع لدى التوجّه إلى العسكر في مصر والطلب إليهم العودة إلى ثكناتهم: غوروا. واستخدمت أيضاً في معرض الكلام عن مبارك وبن علي: غوروا انتو الاتنين.

### «ارحل» ونظائرها تدخل عوالم الإبداع الفني والتصويري

«ارحل».. باتت لازمة أغاني الثورات العربية ومدار قصائدها وموسيقاها كما جاء في مقالة الناقد الموسيقي اندي مورغن<sup>(69)</sup>. فقد نظم الشاعر عبد الرحمن يوسف قصيدة بعنوان «ارحل»، كما نظم رامي عصام (طالب هندسي مصري) أغنية «ارحل» مستوحياً شعاراً رائعاً في ساحة التظاهرات بمصر على وقع موسيقى الغيتار والكلمات المرتجلة من غير حذف. كما أُلّف علاء نصر قصيدة بعنوان «ارحل بقى»

(62) مزة بالعربية.

(63) هو كاتب خطابات رئيس الوزراء الفرنسي السابق بيار رافاران.

(64) مزة بالفرنسية.

(65) مزة بالإنكليزية وأخرى بالفرنسية. انظر: *Dégage*, p. 127.

(66) مزة بالعربية.

(67) معلومة أمداً بها الناشط أحمد ماهر (مجلة توك توك) في بيروت بتاريخ 7/10/2012.

(68) صورة ورّعتها وكالة (أ ف ب) وتضمّنت رسماً كاريكاتورياً يمثل قدماً (ترمز إلى ثوار 25 يناير) تطرد السفير الإسرائيلي (يرمز إليه بالنجمة السواسية) وهو يصرخ «الحقني يا طنطاوي»، ولسان حال الثوار «غورور بلا رجعة، بزه يا مجرم يا صهيوني، إذا الثوار أرادوا طرد السفير... فلا بد أن يستجيب المشير...». صحيفة الشرق الأوسط، 28/8/2011.

(69) انظر مقالة اندي مورغن، «ارحل»... لازمة أغاني الثورات العربية ومدار قصائدها وموسيقاها، صحيفة الحياة، 15/6/2011 (نقلاً عن ذي اوبزرفر البريطانية 28/2/2011).

وأذاها مواطن أطلق على نفسه اسم «مصري طالع عينيه»<sup>(70)</sup>. ويظهر موقع «يوتيوب» مشهداً تُنشَدُ خلاله الأغنية في ميدان التحرير مساء 2011/2/5.

من طرائف الثورة إطلاق أفلام ساخرة تتضمن مقاطع مصوّرة منها واحدة تحت تسمية «الفيلم الذي أجبر مبارك على الرحيل». كما عمد بعضهم إلى خبز رغيف عيش وعليه شعار «ارحل» بحروف نافرة وحملوه خلال تظاهرة احتجاج. وثمة رسم كاريكاتوري يمثل كوكب الشرق وهي تنشد بتصرف قصيدة الأطلال للشاعر إبراهيم ناجي التي أُمست «واثقُ الخطوة يمشي ملكاً خالغُ حسين شجّي الكبرياء»<sup>(71)</sup>.

### منشؤو ورافعو صيغ الرحيل

تفنّن المصريون في ابتداء صيغ «ارحل» مضموناً وشكلاً. كما تعدّد مرسلو هذه الرسائل إلى مبارك المعني بالرحيل: فأهالي مختلف المحافظات طالبوه بالرحيل (الصعيدة، البورسعيد، سيناوي، أسيوط، دهشور، أبناء شمال سيناء)، وأصحاب المهن الحرّة (نقابة أطباء مصر) والمؤسسات العامة (الهيئة والقناة) والزوجات القلقات (الوليّة)، وصولاً إلى المخلوقات التي لم تبصر النور بعد (الأجنّة)، والمواطنين العاديين...

يبدو أن مفاعيل هذه الصيغة تعدّت سياقها الأصلي، فقد ذكرت صحيفة المغرب التونسية أن حذاء وزير الشؤون الدينية في الحكومة التونسية المؤقتة نور الدين الخادمي سرق أثناء زيارته لجامع «الغزالة» بضواحي تونس العاصمة. وأشارت الصحيفة إلى أن السرقة «تمّت بعدما تعرّض الوزير للإهانة والطرده من قبل مجموعة قيل بأنها تنتمي إلى التيار السلفي» لم تكتف بتريد عبارة «ارحل» التي باتت شهيرة في تونس، وإنما عمدت أيضاً إلى منعه من إلقاء درس ديني في الجامع». ولفتت إلى أنه «لولا تعاطف البعض وتطوّعهم لشراء حذاء جديد للوزير لوجد نفسه مضطراً لمغادرة الشارع حافي القدمين»<sup>(72)</sup>.

(70) صحيفة السفير، 2012/7/25.

(71) رسم كاريكاتوري بتوقيع «أمل»، منشور تحت عنوان «في حبّ الشعب» في صحيفة السفير، 2012/1/25.

(72) صحيفة المغرب التونسية، 11 حزيران 2012، وعنوان الخبر «سرقة حذاء وزير الشؤون الدينية من داخل الجامع».

### الشعار بين الأشكال المعتمدة لكتابته والحاملات له

كتابة هذا الشعار لم تقتصر على الحبر والألوان، بل تعدّتها إلى وسائل غير تقليدية مثل الحشيش الأخضر الذي زُرِعَ متّخذاً شكل كلمة «ارحل»، وإلى شعر الذقن حيث حلق شاب ذقنه وترك شعيرات على شكل كلمة «ارحل»، وإلى رغيف العيش أو الخبز الذي حُبِزَتْ بأحرفٍ نافرةٍ فوقه كلمة «ارحل»، وإلى المركبات والصهاريج...، وأخيراً إلى طلاب كلية الصيدلة بزيّهم الأبيض، في حلب، الذين رسموا بأجسادهم تعبير (73) Go out.

من ضمن حاملات الشعارات في ميدان التحرير، استعار بعض المتظاهرين رمز الحذاء العراقي وحوّله إلى لافتة وألصق عليه شعار ينادي بوجوب الرحيل (74).

### التداعيات العربية والدولية لهذا الشعار

#### عرب وعالم

صيغة الأمر بالرحيل «ارحل» باتت مادة تعليق للكاريكاتور السياسي في العالم. فقد استعبدت في كاريكاتور نشرته صحيفة «كورييه انترناسيونال» Courrier international الفرنسية 27 أيلول 2012، حيث تكوّرت كلمة «ارحل» سبع مرّات فوق خارطة أوروبا في إشارة إلى طرد أوروبا الدبلوماسيين السوريين (75). كما نشرت الصحيفة تحقيقاً عن الأغنية الثورية للشوار السوريين: «يللا ارحل يا بشار, Dégage, Allez Bachar».

لرياضة دورها في مجال استحضار صيغة «ارحل». فقد نادى جماهير نادي الاتحاد السكندري برحيل عفت السادات، رئيس نادي «الجرين ماجيك»، وذلك لدى رفعها لافتة دوّن عليها شعار «ارحل»، وذلك في معرض انتقاده ودعوته إلى الرحيل. كما وجّهت النصيحة نفسها للمهاجم الدولي نايف هزّامي على «تويتر»،

(73) الأمثلة الأربعة أدرجت على الشبكة العنكبوتية بتاريخ 19/9/2012.

(74) انظر مقالة الفنان التشكيلي عادل قديح، بعنوان «الثورة تصنع فنّها أيضاً.. في ميدان التحرير»، صحيفة السفير، 12/2/2011.

(75) كاريكاتور سياسي حول قطع العلاقات مع النظام السوري منشور في صحيفة المستقبل، 29/9/2012 (نقلًا عن صحيفة كورييه انترناسيونال).

الاتحاد لهزّامي: «لسلامتك ارحل»<sup>(76)</sup>.

في لبنان، عدل مواطنون محتجون في منطقة الجية الساحلية مضمون هذا الشعار بحيث بات «ارحل يا وزير التعميم»، والمقصود بذلك وزير الطاقة والمياه جبران باسيل<sup>(77)</sup>. وفي رام الله تظاهر عمال فلسطينيون ضد سوء الأوضاع الاقتصادية وطالبوا برحيل الوزير» ارحل ارحل يا وزير... قرارك دمّرنا تدمير<sup>(78)</sup>.

على شاكلة الشعارات التي ردّدها الشوار في بلدان الربيع العربي، اختارت صحيفة «النهار الجديد» الجزائرية جملة «ساركوزي ارحل» عنواناً لها، وذلك للتعبير عن فرح الشارع الجزائري واحتفاله بخروج ساركوزي من الاليزيه. واعتبرت صحيفة الحياة (14/5/2012) أن هذا العنوان كان الأكثر إثارة.

فكاهة المتظاهرين المصريين في ثورة 25 يناير لاحقت «احتجاجات لندن»<sup>(79)</sup>. فقد برزت تعليقات ساخرة عبر موقع «تويتر» الذي تسابق أعضاؤه لإطلاق العنان لخيالهم على مواقع التواصل الاجتماعي والمنتديات الإلكترونية، فكتبوا مئات «التويتات» للتعليق على احتجاجات لندن، ومنها واحد تضمّن تعابير عربية وأخرى معرّبة: ارحل يعني غو، بتفهم ولا نو.. مش هنلييف هوّا يلييف (يمشي).

في 28 تشرين الأول 2012، وخلال تشييع اللواء الشهيد وسام الحسن في بيروت، أطلق المشيعون المتجمّعون أمام السراي الحكومي هتافات تطالب رئيس الحكومة نجيب ميقاتي بالاستقالة: ارحل ارحل يا نجيب، و<sup>(80)</sup> Mikati Dégage.

وفي عمّان، ردّد آلاف الأردنيين المتظاهرين احتجاجاً على رفع أسعار المحروقات شعارات غير مسبوقة تطالب العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني بالرحيل: «لا إصلاح ولا تصليح... ارحل بالعربي الفصيح»، و«الحرية من الله...»

(76) قناة الرياضية السعودية، 25/11/2012.

(77) تحقيق عن تظاهرات شعبية في منطقة الشوف مطالبة بإعادة التيار الكهربائي، صحيفة النهار، 23/1/2012.

(78) خبر بعنوان «تحرك شعبي في الضفة الغربية للمطالبة بتحسين الأوضاع المعيشية»، صحيفة اللواء، 10/10/2012 (نقلًا عن ا.ف.ب.).

(79) انظر تحقيق محمد عجم، بعنوان، «فكاهة المصريين في ثورة 25 يناير تلاحق «احتجاجات لندن»»، صحيفة الشرق الأوسط، 30/3/2011.

(80) أنظر خبر تشييع اللواء الشهيد وسام الحسن في الصحف اللبنانية، 22/10/2012.

يسقط يسقط عبد الله»<sup>(81)</sup>.

عدوى المطالبة بالترحيل انتقلت أيضاً إلى المغرب حيث تظاهر العشرات من حملة الشهادات العاطلين عن العمل، في أحد شوارع العاصمة الرباط، وأقدموا على محاصرة سيارة رئيس الحكومة عبد الإله بن كيرلن، وهم يرفعون لافتات كتب عليها شعار «إرحل» بينما ردّ آخرون هتاف «ارحل.. ارحل»<sup>(82)</sup>.

## الخاتمة

إن السياقين اللغوي والثقافي لاستخدامات صيغ «ارحل» ونظائرها العامية - في اللغة الأم - أو مقابلاتها الأجنبية - بالفرنسية والإنكليزية - يُظهران أن منشئ فعل القول هذا، وظروف إنشائه، وهويات مستقبله أو المقصودين بصيغة الرحيل، اختلفوا وتوَعَّوا وفق مراحل تطور عملية إطلاق الرسائل القاضية برحيل الزعماء - وأعاونهم - ناهيك بارتباطها بالمحطات السياسية الساخنة أو الاستحقاقات التي ميّزت بيئة عربية متفضة في المشرق عن مثيلتها أو مثيلاتها في المغرب. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فالمقصود الأول بالرحيل في مصر، خلال عام 2011، هو حسني مبارك. ولكن صيغة الرحيل تمدّدت مفاعيلها في عام 2012 لتطال المجلس العسكري الذي طالبه المتظاهرون بتسليم السلطة إلى المدنيين «غوروا إلى ثكناتكم»<sup>(83)</sup>. ولم يسلم الرئيس مرسي من مفاعيل الترحيل، فقد طالبه المتظاهرون بالرحيل، ودوّنوا شعارات ورفَعوا هتافات بهذا الشأن» حرية حرية... مرسي ارحل»<sup>(84)</sup>، فعلق بالقول: «جلدنا تخين... ولن ارحل»<sup>(85)</sup>، وردّ على سؤال

(81) تحقيق من إعداد وكالات الأنباء في عمان بخصوص التحركات الاجتماعية الشعبية على تردي الأوضاع المعيشية، صحيفة اللواء، 17/10/2012. (نقلاً عن ا.ف.ب، الحرة، رويترز، BBC).

(82) خير بعنوان، «المغرب: عاطلون عم العمل يحاصرون بن كيران ويهتفون «ارحل»»، صحيفة الشرق، 25/10/2013.

(83) صورة نقلتها وكالة رويترز من القاهرة لمتظاهرة ترفع هذا الشعار بتاريخ 21/2/2012. صحيفة السفير، 22/2/2012.

(84) وكالات الأنباء (و.ص.ف.، رويترز، أ.ش.أ، أ.ب)، تحقيق بعنوان «الحركة التصحيحية» لمرسي تكزّمه «فروعنا» وتعمّق الاستقطاب السياسي، صحيفة النهار، 24/11/2012.

(85) محمد فوزي، كواليس الحوار التلفزيوني بعد حذف ساعة كاملة، «مرسي: «جلدنا تخين»... ولن ارحل» عنوان لتحليل منشور في صحيفة السفير، 2/2/2013.

حول إمكانية رحيله في حال حصول مظاهرات، أجب: الناس في الشارع تقول ارحل «كرأي» وليس ارحل «كشريعة»<sup>(86)</sup>. ولكنه ما لبث أن «رحل» أو بالأحرى خُلِعَ بعد قيام ثورة 30 يونيو 2013.

إن القراءة اللسانية المقارنة للتناج اللغوي الخصب والمتعدّد الأشكال والمتنوع الصيغ التعبيرية أسفرت عن مجموعة ملاحظات أو استنتاجات أولية تمّ تبويبها في عدة خانات تسهيلاً لربطها بعضها مع بعض. انطلاقاً من الملاحظات العامة التي شملت أكثر من بيئة عربية منتفضة أنتج ناشطوها صيغتهم الخاصة لفعل «ارحل»، عدنا إلى شواهد متفرقة تعود لبيئات ثانوية - عربية وأجنبية - لحقتها عدوى المطالبة بالترحيل. وأخيراً، فإنّ الهندسة الإنشائية للشعارات ظهرت جلية في جملة «ارحل» كالتالي:

تحمل طاقة من المشاعر والرسائل والمواقف والآراء والدعوات.

تحمّل وزناً، كأنها ميزان. الميزان صغير حجماً، لكنه يحمل وزناً كبيراً. وكذا هذه الجمل؛ فهي تحمل أطناناً من الهموم والشجون والآمال والأحلام. مطوّعة، وذلك بسبب هندستها الإنشائية التي لا ترتبط بنصّ كامل، وإنما هي شكّلت مرسلّة أو رسالة؛ وهذا ما يجعلها مرّنة.

قادرة على المقاومة العالية؛ فهي كضوء الليزر، وضوء الليزر؛ وضوء مكثّف، يستطيع ان يفتح باباً عن بعد. والشعارات، وفي مقدّمتها «ارحل»، استطاعت عن بعد أن تهزّ عروشاً، وتفتح أقفالاً لسجون، وتفتح قلوباً فتحركها.

ذات كلفة بسيطة؛ إذ إن مكوّناتها كلمة منسوجة نسجاً مُحكماً لا تتعدى الأحرف الأربعة «ارحل»، لكن أطولها لا يتعدى الكلمات العشر.

(86) معلومة وردت في تحقيق عن «اللقاء الاعلامي لمرسي»، أعدّه مراسل صحيفة السفير في القاهرة، 26/2/2013.

# «البياتا/Pietà» اليمينية بين الأرخيتايب والثورة العربية

هند الصوفي

الجامعة اللبنانية

hindsoufi@hotmail.com

## الملخص

تقرأ هذه الدراسة وقع الربيع العربي على التعبير الإعلامي الفني في الغرب، من خلال الصورة الفوتوغرافية للإسباني سامويل أرنادا، لقبته بـ«بياتا»/Pietà اليمن أو «البياتا» المنقّبة، والتي نالت جائزة التصوير الفني الإعلامي لعام 2013. التقطت الصورة في أحد جوامع صنعاء، لوالدة تضم ابنها المصاب. ينطلق البحث من فرضية الرجوع إلى الذاكرة الجماعية وإلى النموذج الأصل (الأرخيتايب)، فالبياتا/Pietà (الشفقة) تستمد قوتها من تجذرها في الذاكرة الشعبية، وهي من الثيمات المسيحية للألم والموت، تمثّل مشهد بعد حياة وآلام السيد المسيح، حيث تتفقد الأم الثكلي العذراء مريم ولدها بعد الصلب وقبل البعث. راج هذا العنوان في ثيمات الفن الغربي بدءاً من القرن الرابع عشر، واصبح شائعاً في عصور النهضة. ولا تزال البياتا مصدر إلهام للفنون عامة وراجت في مجال الإعلام والإعلان والتصوير الفني، كما سنرى خلال الدراسة. سوف نستعين بمنهجية السيميولوجيا للتأويل واستنباط المعاني.

الكلمات المفتاح: الربيع العربي؛ الصورة الفوتوغرافية؛ «البياتا»/Pietà؛ النموذج الأصل أو الأرخيتايب/Archétype؛ الذاكرة الجماعية؛ ما بعد الاستشراق؛ الفن؛ اليمن.



## Abstract

### La Piéta yéménite entre l'archétype et les révolutions arabes

**Hind Al Soufi**

*L'insurgence arabe s'est délenchée soudainement avec pour discours la dignité humaine. Il serait tôt de parler d'un automne arabe. Cependant, dans cette étude, on propose d'analyser l'impact de ces soulèvements sur le media occidental à partir d'une analyse approfondie de la "Piétaislamique", photo prise par Aranda qui remporta le prix de la photo artistique du media 2013. Elle représente la mère en douleurs portant le niqab avec dans ses bras son fils blessé torse nu. Une Piéta «sublime»... Les soulèvements arabes ont provoqué une interaction de l'Occident qui essaie de déchiffrer les codes et les secrets de ces «pseudo-révolutions». Comment l'Occident a-t-il visualisé ces insurgences? Un retour à l'archétype est favorable pour mener à fond une étude approfondie, la Piéta étant enracinée dans la mémoire populaire. Le thème est chrétien par excellence, thème de la mort et de la douleur; il s'est propagé durant la Renaissance et continue d'inspirer l'art, la publicité, le média et la photo artistique. Aussi allons-nous utiliser les théories sémiologiques pour interpréter et tirer des significations.*

**Mots clés:** Printemps Arabe; la Piéta; photographie; mémoire populaire; archétype; post-orientalisme; art; Yemen.

## المقدمة

بدأ حراك الربيع العربي بانتفاضات شعبية مفاجئة تتصدى للقمع والفساد والنيل من الكرامة الإنسانية. ولما كنا نعيش اليوم ثمار الثورة الفرنسية بعد إنجازها بأكثر من مئتي عام، فإننا قررنا أن نحتفظ بمصطلح حراك الربيع العربي، فناعة منّا أنه ما زال من المبكر الحكم عليه، والربيع آتٍ لا محال بعد كل شتاء...

تسعى هذه الدراسة لاستكشاف وقع الربيع العربي على التعبير الإعلامي الفني في الغرب، من خلال دراسة معمّقة لصورة إلّقطها الإعلامي والفنان المصور الفوتوغرافي الإسباني سامويل أراندا، لقبّت بـ«بياتا»/ Pietà اليمن أو البياتا المنقبة، تمثّل أمّاً مفجوعة تحمل ولدها المصاب. صورة أدهشت العالم الغربي ونالت الجائزة الأولى للتصوير الفني الإعلامي للعام 2013. والجدير بالذكر أن «البياتا» أو الشفقة/ La Pietà، هي من الشيمات المتداولة بأهمية في الفن الغربي منذ القرن



صورة رقم 1: البياتا اليمنية المنقبة: سامويل أراندا، 2011

الرابع عشر، تجسّد مشهداً للموت بعد حياة وآلام السيد المسيح، وبعد درب الجلجلة، حيث تتفقد السيدة العذراء ولدها، تمسكه بحجرها وهو دام بعد الصلب وقبل البعث. أصبح هذا الموضوع أساسياً في عصور النهضة وتكيّف مع الأيام وفقاً للأنماط الفنية السائدة، ولا زال مصدر إلهام في الفنون عامة، وفي عالم الإعلان والإعلام والتصوير الفوتوغرافي وغيره كما سنرى لاحقاً.

حراك الربيع العربي حدّ فاصل لعصر عربي جديد قطعت فيه الشعوب شوطاً هاماً، أعلنت أنها فاعلة واستولت على الميادين والفضائيات العامة محوّلة إياها إلى ساحات بلاغية وفنية تصاغ فيها الشعارات وتشكل فيها المشاهد. فانطلقت منظومة التغيير لبناء مستقبل مفعم بالطموحات.

وعلى وقع هذه الانتفاضات، بانتصاراتها وخيبتها، تفاعل العالم محاولاً فك الرموز وتأويل الخطابات واستنباط المعاني التي تحملها شعارات الثورة. في ظل هذه المواقف والمفاهيم المتباينة بين الشرق والغرب، كيف انعكست الرؤية في مجال الإبداع، وبأي ذهنية عبّر الغرب عن قلقه حيال هذه الانتفاضات، كيف صوّر العالم العربي المنتفض والضعيف والمختلف؟

نطلق في بحثنا من أهمية الذاكرة الجماعية والنموذج الأصل (الأرختايب)، كفرضية أساسية تشكل مرجعاً في التحليل. سوف نستدل من تطوّر أشكال البيئات عبر صلتها بالأحداث السابقة ومن وقعها على المجتمع الغربي وصناعة الرأي العام فيه. فالصورة غالباً ما تستمد قوّتها من تجذّرها في الذاكرة الشعبية، وإذ هي مجموعة من العلامات القابلة للتأويل، وفي عملية التأويل سوف نستعين ببعض النظريات السيميولوجية للتحليل واستنباط المعاني.

يقسم البحث إلى ثلاث أجزاء. يتناول الجزء الأول العلاقة بين الفن والسياسة مع الاستناد إلى نظريات ليوتارد. في الجزء الثاني، سنرجع إلى النموذج/الأصل في قراءة تاريخية لـ «البيئات». أما في الجزئية الثالثة، سنحاول تحليل «البيئات اليمينية المنقبة» بمقاربة جمالية/سيميولوجية واستنباط معاني الدهشة والروعة والبداعة الكامنة خلف العمل. وفي الخاتمة، سنبين أننا في عهد جديد من الاستشراق، عهد له مقومات خاصة به...

### الجزء الأول: الفن والسياسة والعلاقة الملتبسة

رأينا من الضروري أن نضيف مدخلاً حول العلاقة الملتبسة بين الفن والسياسة. هل الفن الحقيقي هو الذي يتعد عن السياسة أم هو الذي يبدأ منها؟ سؤال ما زال السجال فيه قائماً منذ أدبيات القرن التاسع عشر. هناك اتجاه يعتبر أن الفن «النقي» هو الفن الذاتي الذي يعبر عن الرؤية الداخلية الخاصة بالفنان، وحيث أن السياسة تدور حول النفوذ والسيطرة ولا ثقة شعبية بها، فالفن الأصيل الصادق هو الفن النابع من الاتجاه الفردي للفنان. يذهب الاتجاه الآخر إلى اعتبار الإنتاج الفني مرتبطاً بمختلف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والإيديولوجية السائدة. لذا، على الفنان أن يتعرض للموضوعات السياسية بشكل مباشر، فالتعبير الفني يحرك المشاعر ويؤثر بالعامّة وعلينا تشجيع الفن الملتزم سياسياً. إن أي محاولة لفرض أسلوب معين على الفن - كما كان الحال فيما يعرف «بالاشتراكية الواقعية» - يؤدي حتماً إلى حرمان العمل من حيويته. دعونا نقول أن العمل الفني غالباً ما يكون ملتزماً ولكن بشكل غير مباشر، فالفن عملية معقدة متحررة من السيطرة الواعية للفنان.

والرأي الآخر يقول بأن الفن «الحقيقي» يجب أن يبقى بمنأى عن السياسة خشية الارتهاق، وهذا ما يُلقب بمبدأ الفن للفن. وحين يساند الفن بشكل مباشر القضايا السياسية يَسْقُطُ جمالياً ويصبح فناً «رجعياً» كالواقعية الاشتراكية أو الماركسية. نقد الفيلسوف الماركسي ماركوز هذه النظرية معتبراً أن الفنان هو الأساس، وأن الشكل الجمالي هو بالتعريف ناتج عن الحرية الإنسانية. فعلياً، كانت السياسة دائماً تنظر برية إلى الفن، الأمر الذي جعل هتلر يقتحم دنيا الفن التشكيلي، ومن قبله لويس الرابع عشر ونيرون، طاغية روما، اللذان قدما مشاهد على خشبة المسرح. فالمبدعون يخلقون عوالم مثالية تدفع بالناس للتخليق في فضاءاتها.

منذ قرن من الزمن، لم يعد «الجميل» هو الرهان الأساسي للفنون، أصبح «الجميل» شيء ما يتعلق «بالرائع». أعلن ليوتارد في كتابه *Le Différent* / 1988، أقول «الجميل» ودخول الفن في عصر «الرائع». فما الذي حدث كي يصبح «الرائع» حقلاً وحيداً للفنون؟ يجاوب ليوتارد:

«هي «الجملة» كفكرة جمالية محضة بلا مفهوم ولا كاتب ولا جمهور. أن

نكتب جملاً أو أن نسكت عن جمل أخرى، ذاك هو الرائع الذي يكمن في وضعيات الخلاف والتضاد. إن شعور الرائع/المدهش لصيق بما يحدث، وهنالك الخلاف الذي يولد في صميم اللغة، اللغة التي لا تلبى المعنى... فيكون الفن هو الميدان الشرعي لإنقاذ شرف الفكر ولإنجاز ما بعد حداثة مشرفة.

يضيف ليوتارد، يتحول الفن إلى سياسة، «أنه كلما أمسك سيزان بفرشاته، تغيرت الرهانات.. الزمن هو اللوحة نفسها»... وللرائع تسميات أخرى منها «العجيب، البديع والمدهش»، حيث يتحرّر الفنّ من كلّ وصاية، ينتصر على الفنان والجمهور والرسالة والدلالة معاً، ويلعب دور المسيح المنقذ. يقول نيغري في المرجع نفسه إن الفن هو «فعل جماعي للتحرّر والإبداع تدفق حيوي للوجود، وما ندعوه بالسياسة هو الزمن المتجدد»<sup>(1)</sup>.

لا شك أن الأعمال التفاعلية المعاصرة قد خلقت شبكة من العلاقات بين الفن والجمهور، وجعلت من الفنان «مهني متخصص في التواصل، مضمّد لأوجاع المجتمع...»<sup>(2)</sup>. يرى غيرز، الكاتب في مجال التواصل، أن ذلك من شأنه ردم الفجوة بين الفن والسياسة لأن العمل الفني يحمل الكثير من الغموض في الفكر العام. على كل حال، ونحن في أوائل القرن الواحد والعشرين، لا تزال العلاقة بين الفن والسياسة معقدة تحمل ثقل السنوات السابقة. وحيث أن الفن دخل مرحلة الفراغ من المعنى ومن الالتزام وفقاً للباحث جيل ليوفسكي، وحيث أن الأعمال الفنية بلغت حدود الترف وساهمت في تجميلية/Esthetism وجوه البؤساء وفي الدعوة للرفاة وتوطيد العلاقات الاجتماعية<sup>(3)</sup>. كتب جاك موران في مجلة الـ Humanité (27 نيسان، 2000)، «أن المستعمرين كانوا يعرضون الفن الإفريقي بهدف السمو بطقوس قديمة (أي العبودية) ولأجل إرضاء الإنسان الغربي. فنحن إنما نحقق ما نريد من مشاريع، من أجل وجود الآخرين.. ما هو «متخفي»، يجب أن يرقى إلى الوجود من

Liotard, Jean-François, the Different: Phrases in **Dispute**, University of Minnesota Press, (1) 1988, pp. 9-17.

Jochen Gerz, **Les mots de Paris: l'Anti Monument**, Actes Sud, Paris, 2002, pp. 10-15. (2)

Henri-Pierre Jeudy et Laurence Carré, **L'art social et l'espace public**, Programme (3) interministériel de recherche, Février 2000, Introduction.

خلال الفنان الذي يبدعه»<sup>(4)</sup>. هذا ما سنسعى إلى التوسع به.

يختار الفنان الصورة الميثية/الأسطورة، كي يكشف للعالم عن ماهيتها، عمّا لا نراه، من هم خارج الفضاء العام، المستبعدين... يتطلب ذلك أن يرمز إليهم بشكل مقدس، أن يستعين بالصورة الشبح/Simulacre، صورة الموت الغائب، صورة المكبوت الجماعي، فتلك هي ميزات الفن المعاصر<sup>(5)</sup>.

إن بعض الممارسات المعاصرة تجعل مجداً فنياً من شيء عادي ترفعه إلى مستوى «الجميل»، أثراً ما يتحول إلى أسطورة<sup>(6)</sup>. هذه النزعة التجميلية للواقع أصبحت هدفاً للفنان من أجل التواصل، فهو يُبدع صورة مختلفة ويقوم بتجميلية/ Estheticising الواقع<sup>(7)</sup>. تعتبر هذه الممارسات خيارات ذات طبيعة سياسية، تصبح تاريخاً قيد الإنجاز وسوف نتعامل مع هذه المعارف في مجال التوسع بالبحث.

## الجزء الثاني: أم الآلام أو النموذج الأصل / (الأرختايب) قراءة تاريخية

### 1- «بياتا» مايكل أنجلو

إن الرجوع إلى النموذج الأصل أو البدئي نهج يرشدنا إلى معارف تتعلق بتصوير أم الآلام، موضوع دراستنا. فالمشاعر الجمالية التي يثيرها العمل الفني هي حامل لذكريات الماضي، يشدّها الفن من عالم النسيان ويرفعها إلى عالم الواقع. في الفن المصري الفرعوني، تصرخ إيزيس أم الموت وملاذ المرضى والمحتاجين، موت زوجها لتعيد تركيب أشلائه من جديد، وتجهش في البكاء الحادّ وتذرف الدمع على ابنها هورس. أما في بلاد ما بين النهرين، لا يزال بكاء عشتار يدوي في آذاننا وهي ترثي عشيقها تمّوز، نموذجاً لأسطورة أدونيس وعشتار، إلهة الحب والجمال... من جهة أخرى، ترك لنا الفن الإغريقي ميراثاً من النواح والآلهة المفجوعة. قتل أبولون أولاد Niobe السبعة

Jochen Gerz, L'art, **violence de la mémoire**, entretien in revue *art press*, n°179, Avril 1993. (4)

CollTristan Trémeuet Amar Lakel, Intervention Colloque International **L'art contemporain et son exposition**, Centre Georges Pompidou, Paris, octobre 2002. (5)

Henri-Pierre Jeudy et Laurence Carré, *Ibid.*, introduction. (6)

Christian Ruby, **L'État esthétique. Essai sur l'instrumentalisation de la culture et des arts**, éd. Labor, Bruxelles, 1999. Cite aussi dans Aline Caillet, La convivialité, une esthétique relationnelle, in journal *parpaings* n°23, mai 2001, éd. Jean-Michel Place. (7)

عقاباً لها، فتموت بأبهى وضعية مثالية للجمال الكلاسيكي، فما كان من زوس، أب الآلهة إلا أن حوّلها إلى صخرة تنبع منها المياء، على قدر ما ذرفت من الدموع.

في إنجيل رابولا السرياني (586م، محفوظ في فلورنسا)، نرى النموذج الأقدم للآم المفجوعة، وفي الفن الغربي تصادفنا أحياناً شخصيات دينية أو رعائية معاصرة للفنان ترافق السيدة العذراء في ألمها.

«البياتا» (الشفقة) موضوع للتأمل حول الموت، مستلهم من الشاعرية والروحانية، ترجمت إلى اللغة الألمانية بما معناه صلاة المساء، ساعة أنزل المسيح من الصلب، ساعة تدعو للتأمل حول المخلص ودور العذراء في تاريخ الخلاص... يعود أقدم النماذج الغربية لموضوع الشفقة إلى دافيد لاشابيل، في ألمانيا عام 1300. فالتعبير الأليم هنا يستثني كل ما من شأنه أن يصطنع الألم، وقد جسّد المسيح مشنّباً وصمت العذراء في ألمها ودموعها قمة في البلاغة والجمال والالتزام. هذا الموضوع المسيحي بامتياز، يستكمل مواضيع أخرى تتناول العذراء والطفل كالوضع في التابوت والإنزال عن الصليب، هو لحظة من هذه المشاهد. وقد تم استعمال البياتا مجازاً في مواضيع وطنية للتعبير عن المآسي والويلات والوباء.

في دراسة معاني العلامات، يُحيلنا بيرس، مؤسس علم سيميولوجيا الصورة، إلى المرجع/ Référent<sup>(8)</sup>، معتبراً أن العامل الثقافي له قيمته في التحليل واستنباط المعاني. ورأينا أن «بياتا» مايكل أنجلو هي النموذج المتجذّر في الذاكرة الجماعية بامتياز. إنها «الرقّة» والرهافة المحفورتين في الرخام. في العام 1508، طلب البابا جوليوس الثاني من مايكل أنجلو جدارية ليوم الحساب في كنيسة السيكستين، وقد أثار هذا العمل حفيظة الكثير بتعداد العراة والأجساد المفتولة والألوان الصارخة وغير المقبولة. حاول مايكل أنجلو أن يحضّر لنمط وأسلوب جديد عرف لاحقاً بالتصنيعية/ Maniérisme، وكان أصلاً نحاتاً يعتبر أن النحت أرقى الفنون على الإطلاق لقربه من الواقع (صورة 2). وفي الرابع والعشرين من العمر، نفذ رائعته «البياتا» (الشفقة)، حيث يترابط الذهني والجمالي، بمقدرة وجودة عالية وبإحساس رفيع. كان لتعامله مع مادة الرخام الأبيض سرّ إلهي، جسّد المسيح الممتد أفقياً،

Écrits sur le signe, rassemblés traduits et commentés par G. Deledalle, Le Seuil (coll. (8) L'ordre philosophique), Paris, 1978, pp. 29–33.

مع العذراء الجالسة عامودياً. الأم تبدو شابة، لأنها العذراء التي لم تُمّت، لذا لن يطال منها الزمن. في الثوب الفضفاض، تُلّف ساقها اليمنى وتمدّ اليسرى، وتلامس ثنيات الثوب بيدها اليمنى، تبدو رقيقة، شفافة هادئة ناعمة الملمس، جميلة الوجه مع الانحناء الكلاسيكية المعتادة. تمسك بالجسد الزائل فتختصر العمل كلّه في حركة اليدين، تدلّ عليه وإليه. تجسّد الوداع الأخير، ووحدة الأم والطفل من أجل خلاص العالم. تبكي، تتعبّد، وتخفي حزناً تحت قناع من الهدوء والرزانة بفضل حبّ الابن المخلص وروحه التي تعانق روحها. تقع هذه «البياتا» في إطار دائري، هو الذي يضيف عليها العظمة واللحمة، فالموت هنا ليس إلا تحضيراً للبعث الممتصر للجسد والروح معاً. نرى العذراء محتجة تماماً في حين لا يغطي ستار المسيح جسده، الجسد الذي ترك الصليب... باختصار «البياتا» هي الحزن ورمز الإنسانية المعروحة.

يعتقد ديدي هوبرمان أن «بياتا» مايكل أنجلو هي شاهد عن جدارة ونضج استثنائين للفنان الشاب. ويصنّفها بأول عمل باروكي النزعة (أسلوب ساد في القرن



صورة رقم 2: مايكل أنجلو، رخام، Michel-Ange, La Pietà, 1498-1499, Marble Sculpture, Basilique St Pierre de Rome



السابع عشر). ويرى أن الفنان قد اهتم بجمالها أكثر من الاهتمام بألمها، وأن حجمها الكبير مع جسد المسيح (على خط يشبه الحرف اللاتيني s)، هو بتوازن عام. ويضيف أن اليد اليمنى تحرك كل قوى العذراء، هي متوترة تلتقط الجسد، أما اليسرى فهي مفتوحة تؤكد على الطبيعة الهادئة والمعطاءة للسيدة<sup>(9)</sup>. وسوف نرى أوجه التشابه والاختلاف مع البياتا المنقبة.

ما من فنان لم يُقدم على رسم «البياتا». في زمننا يعتمد الإعلان على «البياتا» لبيع الإكسسوار وأغراض الموضة. قد نتساءل بأي ذهنية تستغل الصور الدينية في مجال الفن المعاصر؟ فعلياً يتم استغلال قوتها المؤثرة في النفوس. إن استبدال الشخصيات الدينية بأخرى دنيوية (الممثلين مثلاً) في نفس الوضعية الموروثة، من شأنه أن يُضاعف الشحنة التواصلية. مثلاً على ذلك، «بياتا» حب كورتنب للفنان دافيد لاشايل، حيث الشاب يحمل أثر وخز الإبر المهلوسة بدلا من أثر الصلب، والشابة لا علاقة لها بالسيدة العذراء فالاستهلاك هنا هو الدين الجديد (صورة 3).



صورة رقم 3  
بياتا حب كورتنبي، الجنة والنار،  
دافيد لاشايل، طباعة c-print،  
2006.

(9) Didi Huberman, *Devant l'image*, Ed. Minuit, Paris, 1990, pp. 47-49.

بين آلاف الصور التي تحيط بنا كل يوم، والتي تندفق على مدار الساعة، قلة منها تحيا، غالبيتها معرّضة للزوال، تتواصل لحين وتنتهي بعد حين. يفشل العديد من الصور حين تتحدّى الزمن، وتحيا أخرى لتدخل في الأذهان وتتجذر في الذاكرة الجماعية. تحيل الذاكرة الجماعية إلى أحداث من الماضي تحظى بالترتيب من طرف جماعة تحمل هوية واحدة، ما يجعل نظرتهم إلى الماضي مشتركة، مرفقة بالحنين والرغبة، تكتنفها الأساطير التي تضيف على الماضي طابع المآل وعلى الحاضر طابع التكرار (كليشيهات ونمط/Stériotype) وعلى المستقبل طابع إعادة إنتاج الماضي، كمدخل للانخراط في الحاضر. تتحكم الذاكرة الجماعية في مشاعر الناس بطريقة أقرب إلى الإستلاب، لا ينفكون عنها إلا بجهد عقلي. هذه الذاكرة، حاملة لعوامل عدّة منها التجربة والدين والطبقة الاجتماعية، بالإضافة إلى المكان والثقافة، لتتحول إلى «قيم» هي بذاتها تحدّد روابط الفرد مع المجتمع وتتراكم هذه الذاكرة بشكل تدريجي، بطيء، وتنتقل من جيل إلى جيل وتتحدّى الزمان. تحيا الشعوب وتموت بذاكرتها الجماعية ويتمّ تناولها بشكل عاطفي/ وجداني.

يعتبر يونغ هذا «اللاشعور الجماعي» القاعدة الأساسية للإنسان وشخصيته، وقد رأى فيها صوراً محمّلة بالعواطف القوية والرموز الدينية والاجتماعية. لكن شتراوس يرى أن الفكر البدئي، لا يمثل مرحلة من مراحل التطور بل يمثل منطق الفكر البشري، في كل زمان ومكان<sup>(10)</sup>. فما كانت بدايات البيئات الإعلامية التي تناولت مجتمعاتنا العربية المنتفضة وما كان تأثيرها في إنجاز البيئات المنقّبة.

## 2- «بيئات» كوسوفو

ليست المرة الأولى التي تصوّر فيها الصحافة الغربية موضوعاً مقتبساً من «البيئات»، في تغطية النزاعات في البلدان العربية-الإسلامية. وهناك بعض المتشابهات التي تحتمّ علينا الدراسة والتعليق. ففي 29/1/1990، صوّر George Merillon ما لُقّب بـ «بيئات» كوسوفو (صورة 4)، ونال أيضاً جوائز عليها. المصوّر من وكالة

Anthony Stevens, **The archetypes**, Ed. Papadopoulos, Renos. The Handbook of Jungian (10) Psychology, 2006, Third Chapter. See also, Jung, C. G. (1934-1954), **The Archetypes and The Collective Unconscious**, Collected Works 9 (1) (2 ed.), Princeton, NJ: Bollingen (published 1981), ISBN 0-691-01833-2.



صورة رقم 4: بياتا كوسوفو، ميريون، 1990.

غاماً، التقطها عشر سنوات قبل حرب كوسوفو والغزو عليها من قبل الصرب، أي في زمن لم يستشرف أحد فيه نزاع الصرب والمعارضين الوطنيين. تمثل الصورة كما لقبها الصحفي «اليقظة الجنائزية» حول جسد «نسيمة الشاني»، شاب قتل في مظاهرة من أجل استقلال كوسوفو. سمع ميريون أن الجيش قد أطلق النار على المتظاهرين في ناغافك، فذهب إلى الموقع مع فريق التلفزيون الفرنسي. استقبله الأهل يشكون آلامهم وغضبهم، 4 منهم قتلوا و32 جرحوا. في غرفة صغيرة، يرقد الشهيد (28 عاماً) جثة هامدة على الأرض محاطاً بالنساء: الأم والأخوات والزوجة. ومع ضيق الوقت المتاح أمام فريق العمل، وقبل بدء منع التجول، استفاد المصور من النور الخافت ومزاج الألم والغضب والفقر والبرد، حدّد إطار الكاميرا ليشمل النساء المرصوبات على بعضهن في عبق الغرفة والتقط بضعة صور لتلك الآلام، انتهى الأمر. غالباً ما ينفكّ الإعلاميون بعد إجراء تحقيقهم في البحث عن لقطة هي الأهم، تقول: «انتهى عندما أنجز الصورة التي تكمل عملي»<sup>(11)</sup>. بالرجوع إلى

Yan Morvan, *Reporter de guerres*, Ed. De la Martiniere, Paris, 2012, p. 179. (11)

ميريون، فإن الزمان والمكان والحال العام معاً جعلوا من إحدى الصور عملاً خارقاً ذي رسالة شديدة التأثير. عرضت الصورة في ربيع 1990 في مجلة الإكسبرس/ Express، في سياق بعيد عن حوادث كوسوفو، كما نشرت في الفيغارو ماغازين، حتى أن الرئيس الفرنسي ميتران تأثر بها منوهاً بجماليتها وبالأمثولة التاريخية التي نتعلمها من هذه الصورة: «كيف يسعنا أن لا نفكر بمانتينا/ Mantegna أو رامبرندت Rembrandt، إن الغضب والألم لهما نفس الوجه، يجب أن نجد حلاً للأقليات فالموضوع حرج وقابل للانفجار، وقد دوّنت هذه الكلمات في غالبية الصحف ووسائل الإعلام المرئي آنذاك.

في شباط 1991، حاز ميريون على جائزة الصحافة العالمية، في امستردام، والهدف منها تطوير التصوير الإعلامي. فعلياً إن الناظر أو القارئ هو من يصنع للصورة أو للنص معنىً بحسب بارت/ Barthes<sup>(12)</sup>، وإن النظرة هي التي تعطي المعنى للصورة. بهذا السياق استبدل العنوان الأساس بـ «بياتا» كوسوفو. لا شك أن «البياتا» تُحيلنا مباشرة إلى إيقونوغرافية مسيحية لحدث مأساوي يحصل في بلد إسلامي. إنها استعارة لآلام الناس تحت معاني العذراء والمسيح. لكن الصورة هنا للتوثيق، وغالباً ما تعيش أطول من الحدث الذي توثقه. أن نساء الصورة عن قدرها بالمعنى الفرويدي هو أساسي للمعرفة، ومن الضروري أن نضعها في السياق التاريخي الخاص بها ( أي نزاعات البلقان). وفي سياق صور الصحافة، يتبين لنا أن الصورة ليست فقط من الحاضر، إنها مجموعة من العلاقات في الزمن تظهر حين تكون الصورة «خلاقة».

### 3- «مادونا» بنطلحة

لم يتوقف الاستلهام من «البياتا» في صور الإعلام الغربي. فالمادونا الجزائرية/ 1997 تشكل نموذجاً ثانياً نال صاحبها حسين زورار جائزة العام 1998، إضافة إلى سبع جوائز أخرى (صورة 5). المصور جزائري الأصل يعمل لصالح الوكالة الفرنسية للإعلام/ AFP، التقط هذه الصورة التي توجهت للعالم العاجز

Roland Barthes, S/Z, *la casuistique du discours*, Point-Seuil, Paris, 1976, p. 134-135. (12)



صورة رقم 5: مادونا بنطلحة، حسين زورار، 1998.

أمام مآسي الجزائر<sup>(13)</sup>. بعد مجزرة بنطلحة (متي قتل). نشرت الصورة في أكثر من 750 صحيفة وتحولت إلى أيقونة (بمعنى الصورة المعدة لاعتبارات لاهوتية محددة تخدم أغراض العبادة وترتقي بحياة الناظر إليها إلى مستوى الروحية). تعرضت إلى نقد واتهامات تفيد أن الصحفي قد رتب الإخراج قبل التصوير. وبالتالي، لا يمكن اعتبارها تسجيلاً عفويًا لحدث واقعي. إضافة إلى أنه ورد بجانبها معلومات مغلوطة. فعلياً، أسف المصور لعرض هذه الصورة لما جلبته له من مآسي ومشاكل أدت إلى منعه من العمل في بلده الأم. أصبحت «مادونا» بنطلحة من الصور الأساطير وفقاً إلى بارت<sup>(14)</sup>، أسوة بصورتي شي غيفارا ومحمد الدرّة. رأى الغرب فيها روحية «البياتا» وهي تراثه المرثي والثقافي. في الجزائر، تقدّمت «المادونا» بدعوى ضدّ المصور الذي أساء إلى سمعتها وهي في لحظة تخلّ، وصرّحت أنها ابنة شهيد وأخت نقابي معروف، وهتفت «أوقفوا استثمارنا والتلاعب بالأمنا... فأنا جزائرية مسلمة، أرفض أن أتشبه بالمادونا...»<sup>(15)</sup>، كما رفضت لقب «مادونا» لأنه يخلط بين ثقافتين

Hocine ZAOURAR, cité in **World Press Photo** 1998, La Haye, Benteli, Berne, 1998, p. 7. (13)  
Roland Barthes, **Mythologies**, Éditions du Seuil, Paris, 1957 – rééd. augmentée, 2010, p. 19. (14)  
Oum SAÂD, cité par Marie-Monique Robin, **Les Cent photos du siècle**, Hachette, Paris, (15) 1999.

متميزتين. بالرغم من كل ما حصل، أصبحت الصورة منتجاً ثقافياً بامتياز، انضمت إلى مقتنيات أصحاب المجموعات وألهمت الفنانين. أنجز باسكال كونفرت فيلماً وثائقياً دخل في عداد مجموعة متحف الفن الحديث في اللوكسمبورغ ومنحوتة لهذه المادونا الراضة للشهرة، عام 2002. وأثارت الصورة الكثير من الأخبار والجدليات، قبل أن تتحول إلى أيقونة وقد وضعتها مجلة الإكسبرس مع صورة موت الأميرة ديانا...

إن إعادة تأويل الصور الإعلامية من خلال النحت والأفلام يعني أننا سنكون في موقع القريب من الألم، ومن آلام الآخرين مستندة إلى حائط مستشفى زمرلي/ الجزائر، آيلة للسقوط، ارتفع صياحها كي يسمعها العالم، شاحبة الوجه، تنهمر في البكاء، تعبير فظيع فعلي لا إرادي لامرأة حقيقية... ماذا تفعل بنا دموع النساء تماماً كما تفعل بنا دموع الرجال ولو حُرِّموا من ذرفها؟ المنظر العام مريب، مجهولة وسط الضحايا، ستصبح بإرادتها أمماً بالرغم عنها مادونا الجزائر. بتعبير آخر، هكذا أراد الغرب وإعلامه الحريص على الحريات العامة، أكانت برضى المنتهكين أم بالرغم عنهم... فعلياً تصنّف الصورة في منظومة خارج سياقها الثقافي العربي - الإسلامي والجزائري، ولو أنها توثق حتماً لحدث يخص هذه المنظومة. يتساءل ديدي هويبرمان: «ألسنا نستعمر مجدداً آلام الناس في بنطلحة عندما نضع هذه السيدة في شبكة من المعاني محورها السيدة العذراء»<sup>(16)</sup>.

الإطار محدّد والمستوى قريب من النظر ونقطة الارتكاز تقع على «المادونا». أما العمق، فيتجلى في لقاء منظوري لأربعة خطوط هروب تنطلق من الجدار لجهة الشمال إضافة لبعض الظلال. يأتي النور من الأعلى، فالزمن محدّد، نصف النهار تقريباً. تضاء الوجوه أفقياً على خلفية مربعات الجدار الأبيض وتبرز ثنيات الثياب من خلال لعبة الفاتح/ الغامق والظل/ النور. أما الخطوط والمنحنيات العامة فإنها تعطي انطباعاً عاماً لما هو متحرك أو جانح، يموّج في بحر هائج. وحين نُمعن النظر في انحناء الرأس، نرى فيها علامة تشدّ النظر معها إلى الأعلى. أما عن التعبير العام، فإنه الفاجعة وكلّ المسألة في دواخله. تذوب النظرة وتضيع في الفراغ، الفم مفتوح في صرخة أو استغاثة

Georges Didi-Huberman, *Ce que nous voyons, ce qui nous regarde*, Paris, Éditions de (16) Minuit, coll. «Critique», 1992, p. 105 et 106.

والصوت مكبوت... أوقعت هذه الصورة الفتنة، جذبت وكان لها سلطتها ونفوذها، حصدت الجوائز المختلفة في عدة مهرجانات لأنها تختصر معاناة شعب بكامله. إن تجميلية الألم المتجسد في «المادونا» الجزائرية كما وفي نفس العنوان في «بياتا» كوسوفو وكل الباكيات في عالم الصحافة وجوائزها، هو بحث عن تعالي وسمو ومثالية للحزن والبؤس الإنساني. وكسائر الفئات الفنية، تفرض الفوتوغرافيا هذا التوجه التجميلي<sup>(17)</sup> وتنطبق على الصور التي أفرزتها الحروب، خاصة تلك التي لا تتخذ صور الموت بالشكل المباشر، فتقينا من الهلع الحقيقي وتجرتنا نحو البعد الجمالي «مفعمة منتعشة بالجمال المتشنج». فهل ينبغي أن نسيء إلى الناظر أو أن نستثير الشفقة والرأفة؟ «أمام ألم الآخرين، لا يسعنا أن نفهم أو نتصور» تقول سونتاغ، ويصرح هوبرمان من ناحيته، «كي نعلم، يجب أن نتصور»<sup>(18)</sup>... ويمكننا استكمال هاتين الفكرتين بما يلي: كي نفهم الحدث، يمكننا أن نتصور ونعيشه ذهنياً على الأقل.

### الجزء الثالث: «البياتا» اليمينية المنقبة

يختلف الوضع مع «البياتا» اليمينية المنقبة، والنقاب علامة تحمّل أكثر من تأويل في الصراع الثقافي القائم بين الإسلام والغرب. تقول نينا برمان، عضو لجنة التحكيم للجائزة، «نادرا ما نرى في الصحافة الغربية الحجاب والنقاب في لحظة حميمية، وكأن كل أحداث الانتفاضات العربية اختصرت في لحظة، لحظة كهذه»<sup>(19)</sup>. إن الألم الإنساني يبدو وكأنه يأخذ شكلاً موحّداً في كل الديانات... ولكن للنقاب علامات وإشارات نستنبط منها معاني الخلاف. مما لا شك فيه أن النقاب يدعو إلى وقفة وتأمل بما أنه علامة تحوي ما هو متخفي / Différance<sup>(20)</sup>، وهذا المصطلح الأخير يعود لدريدا وقد ابتدعه للغة الفرنسية بإضافة حرف (a) إلى الكلمة.

Susan Sontag, *Ibid.*, p. 135. (17)

Didi Huberman, *ibid.* (18)

Pierre Haski, «La «Piétaslamique» du Yemen prime par le World Press Photo,» **le nouvel observateur**, 9/24/2014. See also Claire Talon, «‘Islamic Pieta’ under the veil, revolt,»

**Le Monde**, 24/9/2014.

Jacques Derrida, «Différance,» **Margins of Philosophy**, Chicago & London: University (20) of Chicago Press, 1982, p. 17.

لماذا أدهشت «البياتا» المنقبة الإعلام الغربي؟ وهل كان وقعها على الشعوب ذات الثقافة العربية الإسلامية كوقعها على الشعوب الغربية؟ سوف نتكلم عن النظم الدالة لهذه الصورة وسوف ندرس تباعاً العلامات المثيرة من النقاب والقفاز والوضعية والمكان والخلفية وكل ما من شأنه استبطان المعاني الخفية...

لا شك أن تاريخية الإعلام الغربي وبحثه لالتقاط صور مؤثرة تعود الى الذاكرة الجماعية لأمّ الآلام، لهو واضح كما رأينا حتى الآن. لكن هذه «البياتا» اليمينية تُثير الشبهات، فهي طبق الأصل صورة أو نسخة/ Replica للنماذج الأصلية من حيث الوضعية والتأليف (أنظر إلى التشابه الحاد مع رسام «البياتا» الإسباني لويس دي مورالس، (صورة 6). للوهلة الأولى يخيل للمرء أنها مركبة وأنه قد تمّ إخراج مُسبق لها، على غرار العديد من «البياتات الإعلانية» السابقة الذكر. الأمر محسوم هنا والصورة عفوية التقطت في الجامع حيث التجأ المصاب وحيث تفنّقه أمه على الأرجح. أولاً وأخيراً، فقط الأمّ قد تتحكّم بهذه الوضعية ولا يمكن للزوجة أو



صورة رقم 6: بياتا، لويس دو مورالس،  
زيت على خشب، 1560، أكاديمية  
الفنون الجميلة/مدريد، إسبانيا.



الأخت أن تظهر بهذا الشكل الهجين ولا أن تكشف عن هذا المزيج من الحب والعاطفة والألم في الفضاء العام، دون الاصطدام بالعوائق الثقافية للحياء العام. في وقت من الأوقات، دار نقاش حول واقعية وضعية «البياتا» لمايكل أنجلو. وتبين أن معظم السيدات يلتقطن الأطفال بهذه الطريقة بشكل محكم. لا سيما أن رأس الطفل/الولد يكون متلقياً جانب قلب الأم... هنا في البياتا اليمينية، تتلمس الأم ولدها غير آبهة لما يحيط بها، وكأنها لا تصدق الحدث، وكأنها تؤكد أن وضعية مايكل أنجلو هي الأساس والحقيقة والواقع.

بالعودة إلى المضمون الفني، فإنه لا يوجد في الفن التمثيلي الإسلامي مواضيع كالشفقة، ولم تك يوماً المفجوعات وأمها الآلام من المواضيع التي عالجهما الفن الإسلامي في التصوير والمنمنمات ولا في الخط العربي<sup>(21)</sup>. من ناحية أخرى، نكاد لا نرى في تاريخ الفن الإسلامي، وضعية تلامس بين الجنسين، والوضعية هنا حميمة. وإن استكملنا في التأليف الهرمي للصورة فهي من تقاليد الغرب لا محال. عندما تنظر إلى الصورة للوهلة الأولى، يمكنك أن تجزم أن صاحبها غربي في الثقافة والمهنية، وفي الإنشاء والتركيب مقارنة مع صور سابقة متعددة للشفقة. أما الإيقاعات، فهي تدور حول حركة الأيدي وثنيت الثياب تماماً كما في الفن الغربي.

### 1- تحليل «البياتا» اليمينية

إن التناقضات الجلية هي أيضاً علامات يمكن أن نستحصل منها على المزيد من التأويلات والمعاني. يدهشنا هذا التضاد في ثنائية الأبيض/الأسود وفي ثنائية الملمس العاري/ الملمس المنقب وفي ثنائية اليد العارية واليد المستترة بالقفاز، وهناك أيضاً تضاداً في سكون المصاب/ فجع الأم. هذه الصورة الغربية الأصل لأبطال يمينيين، هي إعلامية في الأساس، تبدو وكأنها مرسومة يدوياً خاصة في تقيش الخلفية. يقول ديريدا، إن المعاني تكمن في المحيط وفي الخطوط الكفافية<sup>(22)</sup>، ويقول بارت، أنه في مجال التصوير هنالك عدة عوامل تتحكم<sup>(23)</sup>: أولاً ماذا يريد

(21) ممكن الرجوع إلى: Alexander Papadopoulos, *L'Art Musulman*, Bordas, Paris, 1992.

(22) Derrida, *De la grammatologie*, *Ibid*, pp. 90.

(23) Susan Sontag, *A Barthes Reader*, Hill and Wang, New York, 1961, *The photographic message*, pp. 200-205.

الإعلامي أن يعبر عنه وماذا يريد المصوّر أن يعبر عنه لذاته وللآخرين. فالصحفي أراد أن يصنع حدثاً هاماً، فقدّم عملاً راقياً كلاسيكياً ومعاصراً في آن معاً. كلاسيكياً من حيث التأليف والتركيب والموضوع، ومعاصراً من حيث التقنية والتناقضات وفئة الفوتوغرافية الفنية الإعلامية. لذا ساهم في تجميل الصورة واللعب بخلفياتها وإبراز التناقضات فيها. لقد استباححت «البياتا» اليمينية دواخل الناظرين وأثارت من الصدمة والدهشة وقوّة الانفعال ما أثقل فكرهم وأربكه. أما الأمّ والابن فلم يكُ هنا من دور لهما في التعبير عن ذاتيهما. من جهة هي المفجوعة، وهو الحاضر الغائب (حاضر بجسده وغائب بروحه). عادة تستغل الشعوب المتمرّدة وجود الإعلام كي تؤجّج الرأي العام، وتختار الوضعيات الملائمة فتساهم مع المصور بلغة بارت، في مضاعفة القوّة التعبيرية للصورة، وتؤثر في الشكل الذي تود إيصاله للمتلقّي أو للآخر. من الواضح هنا أن هذه الأمّ والولد المصاب فاقد الوعي بالطبع، هما غائبين عن إضافة أي معنى ذاتي للصورة، غير مشاركين في شكلها أو في مضمونها. وإن استرسلنا في الكلام، فمن تكون تلك المنقبة، لا نعرف ملامحها، نجعل كل شيء حول إنسانيتها، بسيكولوجيتها، هويتها، الوجه متخف، ممحو، شكل شبه مُحرم، يوحي لنا بالشعور بالإثم، ويستدعينا لإعادة النظر بالأنا والآخر، بالعاري والمستتر. ويتفاقم هذا الشعور كلما تجاور النقاب الكلي مع العري الكامل، ليثير القلق بين الجسد الشهبواني (المتحرك) والآخر الغائب (الجامد). فإن في هذا العناق الروحي للجسدين معاً، لا وجود لواحد دون الآخر، فهما صورة الفراغ والألم معاً.

## 2- الغرب والنقاب والمعضلة الثقافية

يرفض الغرب أن يرى في الحجاب عامة أبعاداً روحانية كما في الثقافة الإسلامية حيث الله محتجب، غير مرئي إضافة إلى حجاب كل ما هو ذي مقام جليل<sup>(24)</sup>. كانت الجوّاري غير محجّبات، لكن الخليفة غالباً ما كان يكلم العامة من وراء ستار أو حجاب. وإن كانت اليمينيات منقّبات في الثقافة والعرف، إلا أنه في فترة الحراك العربي، اختارت الملتزمات سياسياً منهن النقاب، حفاظاً على هويتهن

(24) الله في الإسلام لا يخاطب الأنبياء إلا من وراء حجاب: انظر تفسير الآية 51/ الشورى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيَاءً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ...﴾.

وحجباً للذات أمام الرجال والأهل الذين رفضوا دزهن في الحقل العام. بالعودة إلى ليوتارد، إن البديع المدهش هنا، هو ذلك اللغز وراء وحدة الثنائي المرأة والرجل بما تحمل من تناقضات. وبما أن دراسة الصورة هي دراسة علاماتها وصيرورة المعاني/ Semiosis فيها، وبما أن ميزة أي علامة أنها تمثل، تدلّ أو تُشير إلى شيء آخر كما يقول إمبرتو إيكو<sup>(25)</sup>، ماذا يمثل النقاب للغرب؟

البرقع أو النقاب، شيء مثير للربغبات، رمز للحجب أو الاختفاء، هو موضوع حاضر بامتياز في كل المحافل الغربية، في السياسة والميديا، في النقاشات والأبحاث. اختلفت تسمياته، ولا معنى لكل التسميات ما دام لا يعني للغرب سوى اضطهاد وطغيان للمرأة الضحية. النقاب أصبح شيئاً إسلامياً دولياً، يثير الخوف. تكلم بورديو عن «القلق واللاعقلانية حيال النقاب والحجاب»، من قبل الفرنسيين، ورأى أمام واقع ارتداء الحجاب الإسلامي ودور الميديا التي لا تعرف إلا البحث عن «المثير والفاضح» متذرعة باستطلاعات رأي محوّرة تحوّل للقضايا الديمقراطية إلى مشاكل<sup>(26)</sup>.

قد نَجْزُم أن وجود النقاب الإعلامي سبب لوجوده الفني، لقد جذب النقاب الفنانين في الغرب وبات حالة من الانسياب الجنوني للحساسيات الإبداعية، شيئاً ما قوياً ومهمناً. قد يكون محاولة عقيمة لفهم الآخر، فهناك تجارب جريئة ومتطرفة في الفضاء التشكيلي، من الرقص إلى المسرح، ومن عروض الأزياء إلى الكاريكاتور والفن التشكيلي والإخراج... لمدة شهر ارتدت الفنانة التشكيلية بيرانجير لوفرانك النقاب في أداء فني/ Performance، كتجربة ممنوعة محرّمة وبهدف نزع صفة الإسلامي عنه. دوّنت إحساسها بـ«الاختفاء»، واعتبرت هذه التجربة «مقاومة»، مقاومة لأن النقاب مرفوض من الجميع. حتى الرجال لم يحرموا من ارتدائه في مجال الفن. فإن كان لحجب الجمال، هنالك أيضاً ضرورة لحجب جمال الرجل.

تصبح المنقّبة رمزاً، لكنها أيضاً إشارة جاذبة للغرب. فبقدر ما يخيفه النقاب ويربّكه، بقدر ما ينظر إليه بعين حذرة، خاصة مع الإسلاموفوبيا الصاعدة، وبقدر

Eco Umberto, *Le Signe*, Essai Poche, Paris, 1992, p. (25)

T. Collectif, *Le foulard Islamique en questions, un probleme peut en cacher un autre*, (26)

Ed. Amsterdam, Paris, 2004, pp. 45-46.

ما يبحث عن فهم واكتشاف ما يخبئ وراءه من لغز و«دهشة» شرقية. هنا صلب الرسالة التي توجه بها أرناندا للرأي العام الغربي. فقد استعان بقالب جمالي، آثار الدهشة بلغة بليغة فهمها الجمهور المرسل إليه. ترتقي الأم الخائفة أو الثكلى لتصبح أم الآلام، وجماليتها مستمدة من تضارب هذين البعدين. وبالرجوع إلى والتر بنجامان «كل ما هو محتجب جميل»<sup>(27)</sup>، فالصورة ليست الواقع، والحواس تخدع، لذا يجب أن ننتبه إلى ما نتلمسه، إلى كل ما نلاحظه، لأننا نغيّر ونحوّل حاله من رؤيتنا ونظرتنا والمعاني التي نضيفها للعمل. لا شك أن الصورة هي وسيلة للتسلّط ولشحن العواطف، فهي قادرة على التواصل بسرعة، فكلما كانت الأشياء والعناصر مشبعة جمالياً، كلّما أصبحت بليغة ومقنعة.

الحجاب والنقاب خاصةً أمر مرفوض في الرأي العام الغربي ومُنِع بقرارٍ سياسيّ ولو أن المسلمين وجدوا في ذلك حكماً منافياً لحقوق الإنسان. يقول إدوارد سعيد «عندما نتكلم عن الحجاب في الغرب يذهب الزمان والمكان»<sup>(28)</sup>. طالبت نائبة رئيس البرلمان الأوروبي «سيلفانا كوخ ميرين» المعروفة بليبراليتها حظر النقاب باعتباره اعتداء على حقوق المرأة، ويسلبها شخصيتها، كما أن تستر النساء لهُو من القيم التي لم يعتد عليها الناس في أوروبا. وصرّحت بأنها ترتبك كلما صادفت منقّبة تتقدم منها، لأنها لا تتبصر بأية نية هي فاعلة. لكن تجربة «إليزابيث إلكسندر»، من مجلة ماري كلير الفرنسية، والتي ارتدت النقاب لمدة 5 أيام، في محاولة أيضاً لفهم الآخر ولاكتشاف اللغز، فقد توصلت إلى ما يلي: «... لدي أحكام مسبقة... أول ملاحظة لي هي أن الزي غير عملي... يمنع الآخرين من معرفة ردة فعلك ومشاعرك، وعليك أن تتعامل مع من أمامك على أنه من العميان؛ فهو لا يراك، وعليك أن تصف له مشاعرك... الكلمات تصبح هي اللغة الوحيدة المتاحة بعد اختفاء لغة الرؤية... في صالة التحرير، خلق ظهوري بهذا الشكل مسافة بيني وبينهم، وجعل من العمل الجماعي حلاً مستحيلاً... في المترو، كان الركّاب يُمعنون النظر فيّ.. وكأني شخص مسخ بغيض... النقاب يحول المرأة لشخص منغلق»... في اليوم الرابع تعترف أن الاختفاء الكامل للجسد والوجه يمحو من

BuciGluxman Christine, *L'enjeu du beau*, Galilee, Paris, 1987, p. 35–68–102... 72. (27)

[www.alarabiya.net/articles/2010/04/28/107138.html](http://www.alarabiya.net/articles/2010/04/28/107138.html) Apr 28.2010, Ref July 2014. (28)

داخلك أي إحساس بالغرور أو النرجسية، .. «جعلني حساسة تجاه جسدي.. إن ظهر جزء منه؛ اعتبرت ذلك خدشاً لبراءتي،.. ونظرة الرجال أصبحت عبثاً.. تحوّلت لقبلة جنسية وكأنني فح لغواية ما.. تحرش بي أحدهم قائلاً: ترتدين مثل نساء الحكايات.. مثيرة للهوام ولمعرفة ما هو في داخل النقاب». وتستخلص الإعلامية أن حظر النقاب أمر طبيعي، ولكن تنصح بما يلي «ضعوا أنفسكم مكان الآخر قبل الحكم عليه»<sup>(29)</sup>.

مقال آخر سطره د. هنري ماكوو حمل عنوان «البرقع مقابل الملابس الداخلية للمرأة الأمريكية»، يحيي فيه الحياء كصفة ملازمة للفتاة المسلمة التي تكرس حياتها لأسرتها وتنشئة أولادها، مقابل الانحطاط الأخلاقي الذي تعيشه الفتاة الأمريكية. أثار مقال د. هنري ردود أفعال في الشارع الأمريكي بين مؤيد ومعارض، وأشار إلى الدوافع الخفية لحرب الغرب على الشعوب العربية الإسلامية قائلاً: «إن الحرب في الشرق الأوسط إنما هي لتجريد العرب من دينهم وثقافتهم.. أدافع عن القيم التي يمثلها البرقع لي، أي التستر، الذي يشير إلى تكريس المرأة إلى ذاتها وإلى زوجها وعائلتها». وأخيراً، ينتقد د. هنري الحياة الشاذة التي تعيشها المراهقة الأمريكية... تجد نفسها منقاداً إلى السلوك الذكوري، فتصبح عدوانية، وأخيراً يكشف أن تحرير المرأة هو مجرد ادعاءات، ويصفها بالخدعة القاسية<sup>(30)</sup>.

### 3- «البياتا» اليمينية: استشراق جديد أم «ما بعد الاستشراق»؟

بداية، كانت صور المستشرقين مع كل ما تحمل من تجاوزات في نقل الواقع، تحاكي متعة الفن الغربي وتنقل لغز الشرق من أجل السطو والتغلب عليه. في الصورة اليمينية لغز ودهشة وروعة، إنها تحاكي صورة السيدة العذراء، لا بل تتماهى معها، ما يدفع الناظر إلى التعاطف مع المنقبة، ليس من باب الموافقة على شكلها، بل لاعتبارها ضحية رجل جلاذ شرقي، ومن واجبه أن يساهم في إصلاح وضعها، أما من حيث المدلول، فهي متعة جديدة للناظر الغربي، فبدلاً من أن تكون عارية غاوية، إنها منقبة تحتضن لغزا وإرهاباً وهو ما على طريقتها. حضورها وظيفي

*Ibid.*, 29. (29)

[www.hurras.org/vb/archive/index.php/t-36982.html](http://www.hurras.org/vb/archive/index.php/t-36982.html), Ref July 2014, 30. (30)

بامتياز، إنه متعة في تحفيز الرغبات الدفينة من خلال الاستعارة، فالنقاب وما يحمل في جوفه من مدلولات متخفية يثير تساؤلات للمعرفة والهيمنة والاستيلاء. تتمثل الأدبيات الإعلامية وغيرها من الدراسات في أشكال من التعبير مهينة، فعندما يقال: «يمثل العرب والمسلمون العنف، «ونحن في الغرب لسنا مثلهم...» أو «إنهم هكذا ونحن لا...»، إنما تعتبر تلك الأقوال أحكاما مسبقة، تزيد الهوة بين الحضارات. في القرن التاسع عشر تمحورت وسائل الاستشراق في ابتداء صور من خيال الفنان، تخاطب هومات الناظر الغربي، تدور غالبا حول المرأة الشرقية، موضع الشهوانية الغربية والرغبات اللامحدودة. فالحريم وسوق الجواري والعاريات المستلقيات / Odalises، وكل ما لا تسمح بتصويره الرقابة الغربية كان مشاعا تحت عنوان «إنه المجتمع الآخر الهمجي». ولكن في هذا الاستشراق الجديد اختلاف بسيط، هنالك مقابلة فن عربي عابر للثقافات فرض وجوده على الساحة العالمية واختار الغرب أن يتعرف على كل أبعاده وأن يستلهم منها في إبداعه<sup>(31)</sup>...

ربما من الأجدر أن نطلق على هذا الاستشراق الجديد مصطلحا أكثر دقة «ما بعد الاستشراق». من ناحية مبدئية، أصبح الفنانون العرب موضة ووسيلة الغرب للتعرف عليهم. ويكاد لا يكون من باب الصدفة إعطاء عنوان «إزاحة الحجاب» / Unveiled، لندن 2009، لمعرض نظمته مؤسسة ساتشي، هدف الكشف عن فنانيين عرب أو مسلمين. ويجدر بنا أن نضيف أنه في هذا الزمن المعاصر، من حق الفن غير الغربي أن يصبح عالميا. فعليا هذا الاستشراق الجديد بدأ بعد 11 أيلول للاستدلال والمعرفة حول الإسلام والإرهاب.

وبالعودة إلى المقاربة الجمالية، كان الجميل ينبثق من تجانس الأجزاء مع الكل وأخذ هذا المفهوم حقه في حداثة القرن العشرين. ولكن، في زمن ما بعد الحداثة، هناك إضافات ناتجة عن كل ما هو معقد، متنوع وهجين بين الثقافات والتقنيات. يرى إدوارد سعيد أن «كل ثقافة هي هجينة»<sup>(32)</sup>، لذا، فإن كل ما نتلمسه في أشكال الفن العربي المعاصر هو إعادة إنتاج للمتنوع، أو تراداه في تقنيات أو فئات فنية مختلفة كفن الإعلام والإعلان «المرتهن». إنها اللاجمالية / Anti-

Veronique Rieffel, *Islamania*, Ed. Beaux Arts, Paris, (année non citée), pp. 100–102. (31)

Edward Said, *op. cit*, pp. 71–73. (32)

Esthetism، تتجلى في استعمال الوسائط الهجينة في مرحلة تتاح فيه كل الممرات بين الشرق والغرب. تدعو بوسي كلوكسمان هذه الحقبة بما بعد الاستطيقا النقدية المترابطة باستعارات من ثقافات مختلفة<sup>(33)</sup>. فإذا كان فنانو الحداثة الغربية أعادوا اختراع الشرق لأجل استكشاف الحداثة الغربية، يبقى أن هذا «الشرق اختراع غربي» وفقا لدراسات إدوارد سعيد، اختراع الغرب العقلاني المتطور لشرق قديم روحاني ولاعقلاني وجب الاستيلاء عليه.

يرى ليوتارد بعبارات مختلفة أن ما بعد الجمالية أخذت مكان اللاجمالية التي «شهدت انهيار القصص الكبيرة». تم ذلك مع ظهور تنوع عالمي للفنون، تنوع يستمد كونيته من غرابة لها أوجه متعددة، لكنها لا محال هي من مميزات الفن المعاصر في العالم.

### الخاتمة: «البياتا» اليمينية بعيون عربية والإبداع الفني

كيف كان للناظر العربي أن يقرأ صورة «البياتا» اليمينية المنقبة؟ بالمبدأ، هنالك وحدة الحزن الإنساني، وبالتالي ما يوقع الأثر في مكان ما، من شأنه أن يؤثر لدى الثقافات الأخرى بالرغم من اختلاف أشكال التعبير والطقوس الاجتماعية والجمالية، فلكل إثنية طريقته في بناء هذا العالم وقد تختلف النظم الدالة وفقا للمجتمعات. إن صورة الأم الثكلى في الشرق هي فعل ومسلسل يومي، نشاهده على الأخبار حول العنف المبرح. أما أن يكون للناظر العربي حيال «البياتا» نفس الأبعاد التي تتكون لدى الناظر الغربي، فذلك ليس أكيدا. لا شك أن البعد الديني متجذر وراسخ في الوجدان العام، الغربي أو الشرقي، وفقا لصور وفكر موروث ومختلف. في هذا السياق، يشير «آلان تورين»<sup>(34)</sup> إلى العودة الكبرى للأديان في البلاد الأكثر تحديثاً كما في البلاد المتأثرة بقوة التحديث الإجماري، أي عالمنا العربي الإسلامي. إذن، تبقى «البياتا» اليمينية متعددة المعاني. من ناحية، إن النقاب هو رائج في المنطقة اليمينية تحديداً. والصورة رائجة خاصة مع صعود الإحيائية

Buci-Gluxman, Esthétique de l'hybride, *Revue Art Absolument*, 15 oct. 2011. (33)

Alain Touraine, *Critique of the modernité*, Les Sciences sociales contemporaines, (34) Montreal, 1995, p. 420.

الإسلامية والإسلام السياسي، ونمطية في واقع إعلامنا ولو غائبة من تراثنا الفني، ومما لا شك فيه أنها أدهشت بمعالجتها وأحدثت أثراً وصدمة جمالية.

في حين بدا إبداع التمرد العربي مختلفاً، جاءت مواضيعه تمجّد الشهداء بشكل خاص، وليس حزن الأم. فتاريخنا مليء بقيم الاستشهاد والشهادة، وإن مات الشهيد «فليكن»، ستصل صورته وتخرق أذهان الملايين لتؤجج الفعل الثوري. كان الاهتمام في «البيات» اليمينية ينصبّ على أمّ الآلام بالنسبة للغرب، ولكن في هذا الجزء من العالم، الشهيد والمصاب هو الأساس، إنه محمد الدرة، إنه جسد البوعزيزي الملتهب... فظلت مواضيع الكرامة والحرية والتكاتف والعيش الواحد والسخرية من الديكتاتور والفكاهة والرسالات السياسية/الإعلانية ووحدة الأديان واستعارة واقتباس شخصيات وطنية (عبد الحليم، أم كلثوم) وشجب الفساد وحب الوطن والمشاكل الاقتصادية، من أسمى ما صور. وظهرت صور النساء علناً في ثورة يناير في القاهرة، على الجدران العامة، واخترقت النظم البالية والحرمان التقليدية<sup>(35)</sup>.

كما أبصرت النور فئات فنية جديدة أهمها فن الغرافيتي وفنون الملتقيات الإلكترونية. وقد تفاعلت الملتقيات الفنية الافتراضية/ Electronic encounters Artistic، وأصبح الفن معها بمتناول الجميع إلى جانب الفئات الفنية التقليدية من رسم وتصوير التي أحييت بمعارضها الثورات مستثيرة حالة جمالية جديدة. أصبح الفن أداة للتواصل وجمع الناس ولتحطيم الحدود بين الرجال والنساء في الشوارع، فالكل ينادي بالمساواة والعدالة. أما الموسيقى والأناشيد والنكات والشعر والأدب فقد عكسوا هذا الواقع الذي لم يحرم الطبقات العاملة من غناء مشاكلها في الشوارع. تكاثرت الرموز الموروثة والشعبية ذات الأثر الأقوى على الناس. فنشط الحرف العربي والزخارف الإسلامية المستمدة من التراث، إضافة إلى الرموز الوطنية والفرعونية أو غيرها. ولم يكن فنانون الثورة من المحترفين بالضرورة، فغلب الطابع الشعبي والرموز المباشرة على الإبداع والابتكار. فعلياً، في عجلة الصياغة للألحان والأشكال أتى حضور الهم السياسي والهدف التعبوي على حساب المطلب الفني

(35) محور تعبيرات وأشكال مبتكرة. انظر دراسة منى أباطة في كتابنا.



والجمالي. غالباً ما كانت الألوان محدودة، والرسومات طفولية محكومة بالعلامات الوطنية، كما وكثر الدخلاء على حساب المحترفين. تحت شعار العولمة، تحوّلت الفنون التشكيلية في أغلب أقطار العالم إلى تفاعل الفنان بالثقافة والمجتمع، صرح زياد ماجد أن «الثورات العربية أيقظت حساً إبداعياً وتعبيراً فنياً يواكب قضايا التحرر ومواجهة القمع والاستبداد... اتخذ في سوريا أبعاداً غير مسبوقة في جمالياتها وسعة خيالها وجوانب السخرية فيها»<sup>(36)</sup>. فإن ندرت التجارب الفريدة، يجب أن نؤكد أن المستقبل واعد لأعمال خالدة ستصاغ بهدوء بعيداً عن عفوية الحدث وسيشكل الحراك العربي التاريخي رافعة فكرية وجمالية تؤجج الإبداع العربي في زمن ما بعد الاستشراق. مما لا شك فيه أن المشهد الفني انتعش بوسائل معاصرة لأن فن النخبة لم يفلح أن يتواصل مع خطاب الناس. يقول بيتر كينارد (المعهد الملكي للفنون ورئيس قسم التصوير الفوتوغرافي/لندن)، أصبح مفهومنا للفن «فوق تجميلي/ suresthetic»، وما يمكن تغييره هو التعرف على الآخر وفنونه.

في ظلّ هذه الدعوات النادرة للتعرف على الآخر ولبناء الجسور والتبادل الفعلي، تعترضنا مشكلة أساسية: إن تاريخ الفنّ المدوّن هو تاريخ الفن الغربي فقط، فهل صحيح أن الفن المعاصر هو الفن الغربي فقط؟ تجاوب بعض الأصوات المعاصرة فقالت إن البلدان العربية – الإسلامية قد فاتتها فرصة التحديث، لأنها أتت سريعة، لكنها التحقت ودخلت في معاصرة غير غربية، سائرة نحو الوجود وثائرة على الوجود. ونختم مع ليوتارد الذي يعتبر أن ما بعد الحداثة، مرحلة لم يفقد الفن فيها قدرته على زعزعة وإزعاج المشاهد، هذا المدهش السامي/المتعالي/الرائع أو المدهش هو مؤشر للمختلف، غير المعد للتمثيل. مهمة متناقضة، تثير لدى الناظر شعوراً مزدوجاً من المتعة والألم، تلك هي «البياتا اليمينية، شيئاً ما عميقاً جداً لا تتمكن من تحديد ماهيته. إنه فن ما بعد الحداثة لديه أهمية سياسية (ليوتارد)، لأنه «الساحة المفضلة التي تتحقق فيها تلك المشاهدة»<sup>(37)</sup>.

Ziad Majed, Syria, *the Orphan revolution*, L'orient des livres, Beirut, 2014. (36)

Lyotard, Jean-François. Textes dispersés In *Esthétique et théorie de l'art: Miscellaneous* (37) *Textes I: Aesthetics and Theory of Art*, Louvain: Leuven University Press, 2012, pp. 122.

192. 220.238.andpp. 29. 406.

# بعض سينما الربيع العربي: رؤية نقدية تحليلية

إبراهيم العريس  
ناقد أدبي وسينمائي  
alariss@alhayat.com

## الملخص

أين هي السينمات العربية بعد أربع سنوات تقريبا انقضت منذ بدايات الربيع العربي؟ هناك الألوفا من المشاهد التي التقطت خلال الأحداث. وهناك العشرات من الشرائط التي وُلِّفت إنطلاقاً من تلك المشاهد. بل إن هناك عدداً من أفلام حُقِّقت في مصر أو تونس أو سوريا - وهي بعض «أبرز بلدان الربيع العربي» - ناهيك بأن مهرجانات سينمائية كثيرة في العالم، وربما أكثر مما في مهرجانات العالم العربي، كزست تظاهرات مفصلة أو جزئية لما أسمته «سينما الربيع العربي». فهل يعني هذا انه بات لدينا متن سينمائي متكامل، أو شبه متكامل يعكس وجهة نظر السينمائيين في الأحداث وتفاصيلها ودلالاتها؟ وفي سؤال آخر، هل يمكننا القول إن الأحداث السياسية العربية العاصفة التي كانت هي بؤرة الربيع العربي، أنتجت معادلاتها الفنية ولا سيما السينمائية فيما يعيننا هنا؟ ليس من المنطقي، انطلاقاً من مشاهدة العديد من الشرائط التي حُقِّقت ووصل بعضها إلى مستويات فنية وتعبيرية وفكرية تبدو مُرضية، القول إن الجواب يمكن أن يكون نعم. في معنى أن السينما الثورية العربية قد وُلدت من أحضان الأحداث العربية، مطمئنة كانت أو مرعبة. ما تحقَّق وانتشر، ونال من الإعجاب حصة ومن القبول حصة ومن الشجب حصة ثالثة، ربما كان في الإمكان وصفه بأنه سينما عن الثورة. سينما ترصد الحدث وتعلق عليه. أما السينما الثورية بالمعنى الحرفي للكلمة فلا يزال عليها أن تنتظر... وبقينا إنها حين تنبعث، ستعرف كيف تساهم في خلق وعي إضافي سيلعب دوره الكبير في رقد الربيع بربيع إضافي، ربيع وعي لن يكتمل الربيع الموعود إلا به.

الكلمات المفتاحية: سينما؛ سينما الربيع العربي؛ متن سينمائي متكامل؛ الثورات العربية؛ السينما الثورية.

## Abstract

### “Arab Spring» Cinema: A Critical View

Ibrahim al-Ariss

Cinema and Literary Critic

*Where Arab cinemas stand almost four years since the Arab Spring began? Thousands of shots have been taken during the Arab Spring's events, and tens of films were composed from such shots. Many films were shot in Egypt, Tunisia and Syria – these are some key Arab Spring countries – while many cinema festivals around the globe, probably more than Arab festivals, consecrated detailed or partial events for “The Arab Spring Cinema,” as they called it. Does this mean that we've got a comprehensive or semi-comprehensive cinematic context reflecting filmmakers' views about these events and their details and meanings? Also, can we say that the volatile Arab political events, which were at the core of the Arab Spring, gave birth to artistic, including cinematic products? After seeing many of the films made, including some with seemingly acceptable artistic, expressive and intellectual levels, it's not logical to say that answer can be yes. The Arab revolutionary cinema was born from the womb of Arab events, both satisfying and frightening. What has been achieved and become popular, receiving some applause, some acceptance and some denunciation, can be described as a cinema about revolution, following and commenting about events. A revolutionary cinema, verbatim, still has to wait. Once it arises, it will certainly know how to create additional awareness that will play a key role in supporting the Arab Spring with an additional spring, an awareness spring without which the promised Arab Spring will not be complete.*

**Keywords:** Arab Spring; Cinema; Cinematic Integrated Text; Revolutionary Cinema; Arab revolutions.

## المقدمة

بعد شهور قليلة من الآن تكون أربع سنوات قد مضت منذ بدأت تلك التغييرات العاصفة التي تصيب عالمنا العربي، بغثها وسمينها، مطاولة كل البلدان العربية وإن بأشكال متفاوتة... عنيفة دموية تنذر بالكوارث في هذا البلد، سياسية مرتعبة في ذلك...، تميل نحو ديمقراطية ما هنا، او نحو دكتاتورية كثيبة هناك. حروب طائفية في هذه المنطقة، حروب مذهبية في تلك... وفي كل مكان ألعاب أمم تتجدد وتستشري. وأسئلة، ألوف من الأسئلة وملايين من علامات الاستفهام ورعب في كل مكان قد يدفع البعض إلى الاعتذار ولو المتأخر من الطغاة الذين أطيح بهم.

في اختصار شديد قد يكون من الأسلم ان نقول اننا من مشرق العالم العربي إلى مغربه، ومن أقصى جنوبه إلى أقصى شماله، نعيش ما يمكن اعتباره مرحلة انتقالية هي على أية حال واحدة من أكثر المراحل الانتقالية التي عرفتها تحركات الشعوب، دموية ولا يقينية.

لكن هذا كله بدأ قبل نحو أربع سنوات ما خلق نوعاً من الضوء في آخر النفق العربي الذي كان يُعتبر مظلماً. أما في ما يُهمنا هنا، فهو ان المبدعين، على عادتهم كانوا حينها في طليعة جماهير الشبان الذين عبر وسائل التواصل الاجتماعي ثم عبر النزول إلى الميادين، كانوا في طليعة الحركات التغييرية، ولكن قبل ان يُصيب تلك الحركات ما أصابها. ومن هنا كانت لنا أسئلة في تلك الأزمان التغييرية المبكرة عن الكيفية التي بها تفاعلت ضروب الإبداع والفنون ولا سيما منها السينما والسينمائيون مع ما كان يسمّى في ذلك الحين - وربما حتى الآن بالنسبة إلى كثير - بالربيع العربي. ولعل علينا قبل أي شيء آخر أن نؤكد هنا ان السينما، من بين الفنون كافة، وربما باستثناء الأغنية وريفيها الشعر ورسوم الجدران، كانت أكثر الفنون ومن أولها، تجاوباً مع الثورة وتفاعلاً معها... وتعبيراً عنها بالتالي. وهي لا تزال حتى اليوم على شيء من الزخم بأشكالها المختلفة، كما لا تزال عند نهاية العام الرابع للثورات، وفي خضمّ دموية هذه في معظم الحالات وإفلاتها من كل منطق، الصوت الذي يوصل بعض الأحلام حتى ولو تحوّلت كابوساً، إلى العالم الخارجي، حيث

لا يعقد مهرجان سينمائي في العالم إلا وفيه حصة لسينمات الربيع العربي. كان آخر الغيث في هذا السياق مهرجان «كان» في الجنوب الفرنسي الذي عرض في دورته الأخيرة - أيار/ مايو 2014 - ثلاثة أفلام ذات بعد عربي أو شبه عربي تمّت بصلة ما إلى ما يحدث حالياً في هذا الجزء من العالم العربي أو ذلك: «ماء فضي» للمخرج السوري أسامة محمد، «تموكتو» للمخرج الموريتاني عبد الرحمن سيساكو، و«شلاط تونس» للتونسية كوثر بن هانيا... وهي شرائط سنعود لتتوقف عندها بعد قليل. فقبل هذا لا بد لنا من ان نعود إلى سؤالنا عن الكيفية التي تفاعل بها السينمائيون العرب مع ربيعهم العربي.

لقد كان من الطبيعي أن يكون التعبير السينمائي الأول عما حدث تعبيراً وثائقياً، حتى وان كنا نتفق مع أولئك الذين لا يرون في تصوير، وحتى تركيب، مشاهد ملتقطة مباشرة من ساحات الثورة وأحداثها، فعلاً سينمائياً حقيقياً. ومن هنا نميل، عند هذا المستوى من الكلام، إلى استخدام عبارة «التعبير السينمائي» أكثر من استخدام عبارة «تحقيق أفلام سينمائية»، ذلك أن الفعل الثاني يتطلب ما لا يقل عن إعادة تركيب وتوليف عدد ما من التعبيرات السينمائية، لتتنظم في سياقات فيلمية، يكون نتيجة الواحدة منها فيلماً متكاملًا يحمل رؤيته وتعبيره، لكنه يحمل أيضاً منظومته الجمالية والفكرية وربما الايديولوجية أيضاً. وآية الأمر هنا هو اننا نعرف، منذ جعل التقاط المشاهد السينمائية - أو التلفزيونية، أو حتى تلك المرتبطة ببقية وسائل التواصل الحديثة من انترنت ويوتيوب وفايسبوك وما شاكلها - السينما واحداً من أكثر النشاطات «الإبداعية» ديمقراطية، بفضل التقنيات المتجددة ذات الكلفة الزهيدة، صار في إمكان أي فرد يملك كاميرا - قد لا يتعدى ثمنها الخمسين دولاراً، ما يجعلها في متناول غالبية الناس - ان يلتقط ما شاء له الهوى من مشاهد في أي مناسبة من المناسبات. وهل ثمة مناسبة تحمل إغراءاتها، أكثر مما تفعل ثورات واعتصامات شعبية، من نوع تلك التي اندلعت في مدن - وأرياف - كثيرة من العالم العربي، على الأقل منذ انتحار محمد بوعزيزي التونسي، الذي يعزى اليه اشتعال العالم العربي؟

إذا، منذ تلك اللحظة، كانت الكاميرات - بالآلاف طبعاً - هناك، تصوّر، تفاجئ، تستفهم، تحاور، بحيث يمكن القول إن ثمة الآن متناً مصوراً ربما يحسب بملايين

الصور والمشاهد. فهل يمكن اعتبار هذا كله متنأ سينمائياً؟ الجواب البديهي والأول هو: إبدأ... ونعرف، ويعرف كل معني بالسينما، أن المتن لكي يكون سينمائياً، في حاجة إلى أن يمرّ أولاً، بين يدي مُبدع ما - من دون أن يكون هذا الوصف حكم قيمة -، يُعيد تركيب المشاهد والصور مولفأ ايها، تبعاً لرؤية معينة، لا يمكن في أي حال من الأحوال، ان تعتبر موضوعية ونهائية بشكل مطلق. فرؤية التوليف هي، في نهاية الأمر، البعد الذاتي/ الايدلويوجي، الذي يسبغه صاحب «الشريط» على عمله التوليفي. وهذا، على أية حال، ما فعله كثر، منذ ذلك الحين. بعضهم صور مشاهد رآها بأمر عينه واصطادتها كاميراها، ثم طفق يجمعها ويصنّفها في اختيارات قد لا نكون مخطئين ان نحن وصفناها بـ«الذاتية». أما البعض الآخر، وهو - على الأرجح - الأكثر حرفية، فقد راح يشتري ويجمع مئات المشاهد والصور التي التقطها آخرون ليولّف بينها ويصيغ فيلمه الخاص، ما شكل في نهاية الأمر، بين هؤلاء وأولئك، ذلك المتن السينمائي الذي يحلو لكثير أن يسموه اليوم: سينما الربيع العربي. أما سؤالنا الاساس هنا فهو هذا السؤال البسيط: هل حقاً ما أسفر عنه ذلك كله، سينما ثورية؟

### شروط السينما الثورية

من ناحية مبدئية، قد يكون من الاسهل علينا وصفها بأنها «سينما الثورة» أكثر من وصفها بأنها «سينما ثورية». والحال اننا للتفريق بين التعبيرين لن ندخل هنا في تفاصيل سجلالات لا تزال قائمة منذ ايزنشتاين، وحتى اليوم مروراً، بغلاوبر روشا وكريس ماركر، وحتى سينما التمرد السياسي الأميركي في السبعينيات وسينما الثورة الفلسطينية والحرب اللبنانية وما شابهها. فهذا السجال النظري يحتاج لعرض محاججاته المتكاملة، إلى مجلّدات. أما هنا فلسوف نكتفي بأن نقول ان ثمة فارقاً جذرياً بين «سينما الثورة» و«السينما الثورية»، أبرز علاماته ان سينما الثورة هي تلك التي تلتقط المشاهد والصور على الأرض، كما هي، وتلتقط ضمن إطار ذلك مشاهد القمع والثورة المضادة - «موقعة الجمل» بالنسبة إلى الثورة المصرية مثلاً، أو هجوم قوات الأمن على المتظاهرين في تونس أو طهران -، لتعرضها وربما تعلق عليها كاشفة أمام أعين المتفرجين «ما حدث» من وجهة نظر كاميرا، ليست

موضوعية ومحايطة بالضرورة، لجمهور قد يكون هو الآخر غير موضوعي وغير محايد بالضرورة. أما السينما الثورية فهي تلك التي تستخلص من تلك المشاهد المصوّرة - أو التي تصوّر، وثائقياً أو حتى روائياً - مشاهد أخرى مفترضة لتستخلص - مواقف وظروفاً محددة لا تقول فقط «ما الذي حدث أو يحدث»، بل لماذا يحدث وما الذي سوف يؤول إليه. ولن تكون قيمة هذا القول، هنا، محصورة فقط في تصوير ذلك والوصول إلى أهدافه، من موقع «الماذا» و«اللماذا» و«الكيف»، بل كذلك من موقع القدرة على سلوك دروب فنية ملائمة، لا تكتفي بـ «إقناع من هم مقتنعين سلفاً» - أهل الثورة أنفسهم - بل تتجاوز ذلك إلى عرض موضوعها أمام فئات كانت تعتبر نفسها، أصلاً، غير معنية بالثورة أو مضادة لها، أو في اية حال، غير متمكنة من عناصر «الملف» ما يكفي لجعلها في صف الثورة. فهل نحن في حاجة إلى القول إن صعوبة هذا السياق الأخير، إنما تجد استجابتها في قوة الإقناع التي قد يمتلكها العمل، وهي عادة ما تكون قوة إقناع تستند إلى البعد الفني... الجمالي لهذا العمل؟

وهل نحن، بالتالي، في حاجة إلى القول ان هذا البعد «الإقناعي» عن طريق الفن والجمال - اللذين هما، في نهاية الأمر لغة الذات لدى المبدع -، لا يمكن أن يتأمن إلا من طريق اللعبة الفنية التي يتقنها مبدعون كثر (إنما ليس الأكثرية التي نفكر فيها حين نقول ان التقاط الصور والمشاهد السينمائية بات لعبة ديمقراطية). ولعلنا في هذه العجالة نكون قد فرّقنا، إلى حد ما بين ما نعتبره «سينما الثورة» و«السينما الثورية»، ما يسمح لنا بأن نعود إلى سياق موضوعنا الأساس الذي به بدأنا هذا الكلام: سينما الربيع العربي.

تحت هذا المسمى، إذأ، لدينا الآن بالتأكيد ألوف الساعات المصوّرة، والتي لا تزال تصوّر، ولعل الأقسى من بينها في ايامنا هذه، هي تلك التي تأتي من المدن والبلدات السورية متراوحة بين مشاهد للتظاهرات الشعبية السلمية المطالبة بإسقاط النظام من ناحية، وتصوير المجازر والمعارك وأعمال دك المدن وقصف الاحياء ومقتل الأطفال، من ناحية أخرى... وفي إمكاننا أن نقول إن ألوف الساعات هذه، باتت تشكل أرشيفاً ضخماً لا شك ان عشرات المبدعين سوف يستندون إليه، خلال المراحل المقبلة لاستخدامه في أعمال ابداعية، سواء أكانت روائية أو وثائقية،

سيكون بعضها، بالتأكيد، أكثر إقناعاً وفتية مما تحقق حتى الآن، في معنى ان التفاعل النقدي وتفاعل المتلقي العام معها، سوف ينبعان، ليس فقط من تعاطف مسبق كما هي الحال الآن، بل من تفاعل فني يقلّ أو يزيد تبعاً لقيمة العمل نفسه. وكذلك تبعاً لنوعية الجمهور المتلقي.

فهل ننتقل من هنا لنقول، استخلاصاً، انه انطلاقاً منه، يمكن رصد واقع أن معظم ما حقق حتى اليوم من أعمال «سينمائية» - ولم لا نقول اختصاراً وتماشياً مع الأمر الواقع، تلفزيونية؟ - ضمن إطار سينما الربيع العربي، كان، ولا يزال، أفلاماً وثائقية؛ استطراداً، قد يصحّ القول أيضاً، ان هذه الحقيقة لا تعود فقط، إلى مسألة الاستسهال، بل تتجاوزها إلى مسألة الصدق الفني - سواء أكان تعبيره وثائقياً أو روائياً -، انطلاقاً من أن كل عمل إبداعي حقيقي، إنما يحتاج قبل أن ينجز، إلى مسافة زمنية تمكّن صاحبه من أن يلتقط مختلف جوانب المسألة/ الموضوع الذي يود تناوله. إذ مهما كان من شأن حدث ما، والتفاعل معه، لا بد للمبدع من أن يفكر فيه، ليس ربطاً بالحدث نفسه، بل بخلفياته وآفاقه، وتفاعل فاعليه معه. فالحدث، أي حدث، لا يمكن أن تكون له قيمة فنية - ونشدّد هنا على صفة «فنية» - في حد ذاته، تجرده عن ماضيه ومستقبله. وما «التقاط اللحظة» بالمعنى الإبداعي للكلمة، سوى التقاطها لتلخيص ماضيها والتمهيد والإرهاص بمستقبلها. وفي يقيننا ان «الأحداث الثورية» التي عرفتها وتعرفها مدن وبلدان عربية منذ ما يقرب من عامين الآن، لا تشذ عن هذه القاعدة.

ولعل في إمكاننا، في هذا السياق نفسه، ان نتقي من السينما المصرية - الروائية - المعاصرة لنا، فيلم «ميكروفون» لأحمد عبد الله، كنموذج لسينما حققت ما - قبل - الثورة، بشهور طويلة، ومع هذا من المستحيل فصلها عن سياق سينما الثورة، وربما أيضاً في هذه الحال: عن سياق السينما الثورية إلى حد ما، المرتبطة بالربيع العربي. بالفيلم، كما نعرف، ينطلق من حكاية المدون خالد سعيد وقضية استشهاده تحت وطأة تعذيب أجهزة الأمن له ما شكّل، قبل شهور من اندلاع الثورة المصرية، شرارة لهذا الاندلاع. وفي هذا الإطار يستوي هذا الفيلم، في فاعليته وارتباطه بما حدث، مع فيلم «18 يوماً» الروائي بدوره، كما مع فيلم يسري نصر الله اللاحق «بعد الموقعة» الذي عرض في المسابقة الرسمية لدورة العام 2011 من



مهرجان كان وهو روائي يحكي عن علاقة بين شاب شارك في الموقعة في صفوف ما يسمى بـ«الفلول»، وصبية بوجوازية شاركت في الثورة في صفوف الثوار. إلى حد كبير قد يبدو موضوع هذا الفيلم تبسيطياً خطياً، يغلب نوعاً خاصاً من القول الايديولوجي على اللعبة الفنية، غير انه، رغم خيالية موضوعه، لا يفوته أن يحمل صدقه الخاص، وبالتالي نظرة مبدعه إلى الثورة، حتى وان كان في المستطاع القول انها نظرة لا تزال مبكرة وبالتالي مفتعلة.

### الحرب وصورتها

غير أن هذا النوع من الأفلام الروائية المرتبطة، بشكل أو آخر، بالثورة، تمهيداً أو استنتاجاً، لا يزال يشكل الاقلية، وحسناً فعل، في مقابل كمّ لا بأس به من أفلام تسجيلية تحاول أن تدلي بدلوها. وليس ثمة، في رأينا، ما هو أكثر منطقية من هذا، طالما اننا نعرف، - ومنذ بث محطة «سي. إن. إن» ذات مساء من شهر يناير (كانون الثاني) 1991، مشاهد بدء قصف الحلفاء لبغداد بشكل مباشر-، ان الحرب وصورتها صارا شيئاً واحداً. ونعرف ان عشرات ألوف الصفحات كتبت حول هذا الموضوع خلال العقدين الأخيرين من السنين. وحتى وان كنا لا نرى هنا مجالاً للاستفاضة في حديث هذا الواقع، نجد من المفيد أن نذكر ان جزءاً كبيراً من الأحداث الكبرى التي تحصل خلال العقدين الأخيرين، بات يرتبط بوجود الصورة وبثها الفوري من على شاشات التلفزة.

ولعل المقارنة بين ما حدث في 2 شباط، من عام 1982 في سوريا لمدة 27 يوماً، حين دمرت قوات السلطة البعثية مدينة حماة قاتلة عشرات الآلاف من المدنيين من أهالي المدينة لأنهم حاولوا الانتفاضة ضدها، وما يحدث في سوريا نفسها اليوم، كاف لتوضيح صورة ما حول ما نذهب اليه: ففي المرة الأولى لم تكن الكاميرات موجودة، وبالتالي كانت حرباً دامية لا صورة لها، فاعتبرت حرباً دون وجود. اما اليوم فإن الصور تنتشر، بفضل التقنيات الحديثة دائماً، لتقول بوجود تلك الحرب مع ان أعداد القتلى وضروب الدمار خلال حرب 1982، تفوق إلى حد ما ما يحدث في الحرب السورية الجديدة. ومن هنا حتى نقول ان الصورة باتت جزءاً أساسياً فاعلاً في الحرب - وفي غيرها من الأحداث - خطوة قد نقطعها

برواية «حدث صغير» هو في عرفنا الأساس الكامن خلف كل ما يسمى بـ«ثورة الأرز» في لبنان، أي تحديداً بما حدث يوم 14 آذار (مارس) 2005، ليعطي الحركة الثورية اللبنانية برمتها اسم «14 آذار». يومها كانت القوى الغاضبة لاغتيال رئيس الحكومة السابق الشهيد رفيق الحريري، راغبة في القيام بتظاهرات ضخمة تحاول من خلالها تعديل المسار السياسي للبنان. إن رغبة مئات الألوف من الناس في التظاهر كانت حقيقية أيضاً. والخوف من انفجارات مقبلة كان حقيقياً. لكن القوات السورية كانت حاضرة، والقوى المؤيدة لها حاضرة أيضاً، وحواجز الجيش منتشرة في كل مكان... والكاميرات التلفزيونية كانت هناك أيضاً. وكان الناس في بيوتهم يراقبون ما تصوّره الكاميرات. في تلك اللحظة لم يكن ليخطر في بال أحد أن ما صورته الكاميرات، كان هو الذي أحدث الفرق. كيف؟ فيما كانت الكاميرات تصوّر والخوف منتشر، تجرأت مجموعات قليلة من متظاهرين على اختراق حاجز للجيش. فاندفع العشرات من المحتجين نحو الساحة، ثمّ المئات. والناس في بيوتهم عندما شاهدوا هذا تجرؤوا على مغادرتها مندفعين حتى امتلأت الساحة بأكثر من مليون شخص. هكذا كسر حاجز الخوف، ربما بفضل الصورة المتلفزة التي هي في يقيننا من صنع ذلك الحدث الكبير.

ونحن هنا، ما سقنا هذين المثليين إلا لنؤكد على المكانة التي صارت للصورة في الأحداث المعاصرة لنا.. وهي مكانة ازدادت أهمية خلال أحداث الربيع العربي، كما اسلفنا، وباتت حاسمة إلى درجة صار يمكن القول معها إنه لولا الصورة - وبالتالي الانترنت والفضائيات إلى جانب الفايسبوك وما شابهه - لما كان «لربيع العربي» وجود - طبعاً قد نفتح هلالين هنا، لنذكر، بأن هذا الدور سرعان ما اختفى حين بدأت الثورات تستوعب أو حتى «تسرق» من قبل قوى منظّمة قفزت على الحاضر لتصل إلى الحكم، في تناقض صارخ مع القوى الثورية الحقيقية التي كانت تريد أن تتكون كمعارضة ونجحت في ذلك حتى وان وهنت بعد ذلك، غير أن هذه حكاية أخرى، بالطبع.

والحال ان المرء إذ يميل هنا، انطلاقاً من هذا كله، إلى التوقف بإيجابية عند هذا الدور المدهش، الحيوي، والفاعل بقوة، الذي تلعبه الصورة - والأفلام المنبثقة منها - في الأحداث الكبرى التي يشهدها عالمنا العربي اليوم، يتوقف لحظة ليسائل

نفسه: هل حان الوقت لتقييم هذا المتن السينمائي الضخم، والذي بات، منذ عامين تقريباً، يشكّل قاسماً مشتركاً بين المهرجانات السينمائية، فنياً أو حتى سياسياً؟ هل يمكن للنقد، مهما كانت صوابيته، أن يقول كلمة فصل في اعمال مثل التونسي «لا صمت بعد اليوم» او «18 يوماً» أو «تحرير» أو «بعد الموقعة» أو عشرات غيرها من الشرائط، وثائقية كانت أو روائية، انبثقت من الثورة وأرادت ان تعبر عنها؟

اننا، تماماً كما نقول ان الوقت لا يزال أبكر من أن يسمح للمبدعين بأن يحكوا - في أعمال لهم - حكايات الثورة، في أفلام تكون حقاً ثورية، ولا تكتفي بأن تكون أفلاماً للثورة، ونعني بالتحديد أفلاماً تقول الثورة بنقد ثوري (تماماً كما كنا نقول في الماضي ان السينما السياسية الحقيقية هي السينما التي تقول السياسة بلغة سياسية ناقدة) وبذهنية مستقبلية، تعتبر الثورة نفسها خطوة على طريق نضالي إبداعي طويل، لا هدفاً مشيئاً صنمياً فقط، وتفهم ان الحرية لا تحمل قيمتها في الوصول اليها، بل في معرفة الغاية من ذلك الوصول (حيث اثبتت ثورات تونس ومصر وليبيا واليمن، على الأقل، حتى الآن، انه لا يكفي الوصول إلى إسقاط الدكتاتوريات أو الانظمة الفاسدة والحصول على الحرية، بل المطلوب ان نعرف إلى أين سيقودنا ذلك حقاً)، تماماً كما نقول هذا، نعرف أن الوقت لا يزال أبكر من أن يسمح لنا - ولغيرنا - بإصدار حكم قاطع ونهائي على ما تمّ إنجازه حتى الآن. بيد اننا، إذ نقول هذا، كتقرير لأمر واقع لا تواضعاً، لا بد أن نضيف هنا، وبشكل قاطع هذه المرة، ان العمل الفني، سواء أكان سينمائياً أو غير سينمائي - وككل عمل فَعَالٍ آخر - هو سيرورة، لا صيرورة. هو خطوات متواصلة على طريق طويل، لا أحد يعرف له بداية، ولا أحد يمكنه أن يحدد له نهاية، أو حتى غاية مطلقة.

في المجال الذي نتناوله هنا، من الصعب أن نقول ان «سينما الثورة» بدأت مع اندلاع شرارة الربيع العربي إلا إذا كنا نحصر كلامنا في نطاق تقني حديثي. أما إذا وسعنا دائرة حديثنا بشكل أرحب فسنقول ان «سينما الثورة» معطوفة بشكل أفضل على تصوّرنا لـ «السينما الثورية»، لم تبدأ مع البوعزيزي ولا حتى مع «ميكروفون» أحمد عبد الله وخالد السعيد، بل مع انتقال السينما العربية من قناعاتها الترفيحية التجارية، إلى كينونتها الجادة والإبداعية، مع توفيق صالح ويوسف شاهين ورضوان الكاشف وبرهان علوية ومارون بغداددي ومحمد ملص وخالد الصديق وعبد الله

المحيسن ومي مصري ونوري بوزيد ومفيدة التلاتلي وايليا سليمان وميشال خليفي وعمر اميرالاي وعشرات غيرهم من سينمائيين، أقل ما يمكن ان يقال عنهم اليوم انهم كانوا جزءاً ممهداً وأساسياً، ليس فقط للسينما الثورية، بل أيضاً لسينما الثورة.. وذلك في حركة متواصلة، أي في سيرورة متكاملة لا تزال تعيش كل حياتها وكل زخمها، وربما لا تكون بعيدة عن تلك الكاميرات التي صوّرت وتصوّر ارهاصات ثورة الأرز في لبنان (14 فبراير، 2005) بعد مقتل الرئيس رفيق الحريري، ومقتل الشاب خالد سعيد ضرباً على ايدي مخبري الشرطة المصرية (26 يونيو، 2010)، وغضب الشارع التونسي لمأساة حرق البوعزيزي نفسه علناً (17 ديسمبر، 2010)، ومشاهد عشرات الأطفال القتلى في سوريا تحت وطأة قسوة النظام (بدءً من تعذيب أطفال درعا يوم 9 آذار 2011- إلى الآن). وفي يقيننا، عند هذا المستوى من كلام يمكنه، بدوره أن يكون سيرورة تتواصل طويلاً، ان كل هذا، روائياً كان أم وثائقياً، هو الخلفية التي تشتغل وتستشغل أكثر وأكثر على بناء متن سينمائي متواصل لا نقول فقط انه يلعب دوراً أساسياً في ما يحدث، بل انه جزء أساس من هذا الذي يحدث.

### العمل قيد الإنجاز

فالأمر خلال مثل هذه الأحداث والتعبير عنها يبدو، في نهاية المطاف، من نوع «العمل قيد الإنجاز» حيث يكون الواقع المعبر عنه هنا، والتعبير هنا أيضاً. وما الفيلمان السوري والموريتاني - مع ان أحداث هذا الأخير تدور في مالي - سوى المثلين الأوفى على ما نرمي إليه. علماً بأنهما الفيلمان الأجدّ حتى الآن من بين عشرات الشرائط التي تحققت ضمن إطار ما نصلح على تسميته بـ«سينما الربيع العربي»، على اعتبار ان فيلم «شلاط تونس» يبدو أقدم منهما بل إنه يتابع احداثا وشخصيات استبقت وجودها الثورة التونسية حتى وإن كانت ذهنية الفيلم تتماشى مع ذهنية «الكشف» عن ارتباط ذلك النوع من الجرائم بالنظام بشكل او بآخر. وقد يكون من الملائم هنا ان نذكر للمناسبة فيلماً تونسياً آخر يفوقه أهمية بكثير هو فيلم «مانموتش» للمخضرم نوري بوزيد، الذي بدلاً من ان يسير على الموجة «الإبداعية» الرائجة التي تحمّل «النظام البائد» كلّ المفاسد والشورور، يتصدى بجرأة لممارسات المتطرّفين في تعبتهم ضدّ المرأة التونسية بصورة خاصة. ولعل قوّة هذا الفيلم تكمن

في كونه عُرض في وقت كان الإسلام السياسي مسيطراً على تونس بعد «استيلائه» على الثورة. ومن المؤكّد ان المعاملة التي كانت من نصيب نوري بوزيد وفيلمه على يد ذلك الحكم الذي عبر في الفضاء التونسي في عز الربيع العربي ساهمت في رفض الناس في تونس لذلك الحكم، فأبعدوه عن السلطة بشكل ما.

يبقى ان فيلم «ماء فضي» لأسامة محمد يمكن اعتباره الفيلم التسجيلي الذي عرف كيف يدنو من الثورة السورية بشكل يفضل دنو أي فيلم آخر حاول ان يعبر عن تلك الثورة، يوازيه في هذا وبصدد الثورة نفسها فيلم روائي حقّقه محمد ملص بعنوان «سَلَم إلى دمشق» مصوّراً اياه في سوريا نفسها، متحدثاً فيه من خلال بعض الغموض والأبعاد الثقافية عن الثورة، بشكل بدا لنا مبكراً بعض الشيء، وإن كان الفيلم سجّل على صعيد لغته السينمائية تطوّراً واضحاً في مسيرة محمد ملص وتعامله مع موضوعه. أما «ماء فضي» فهو في جانب منه على الأقل - نصفه الثاني بالتحديد - اتى عملاً متميّزاً مبنياً على يوميات شابة كُردية سورية تعيش في حُصص خلال الأحداث وتتواصل مع المخرج نفسه عبر وسائل التواصل الاجتماعي واصفة له، هو الذي يقيم في «منفاه» الباريسي هرباً من قمع النظام له، ومن امكانية تعرّض محوّلي الثورة إلى حرب طائفية له، ما يحدث في عالم يختنق بدمويته ويؤاد حلمه التحرري ألف مرة في اليوم. رسائل هذه الصبغة المصورة وذات اللغة الشاعرية الأكيدة هي التي تشكل الجزء الثاني والأكثر قوة في الفيلم، مقابل الجزء الأول الذي يهيمن عليه بوح المخرج نفسه وتوليف يبدو أقرب إلى السورالية ورؤية ذاتية للحرب وللوطن... من بعيد. والحال انه على رغم من التفاوت الكبير في اللغة والنظرة بين جزأي الفيلم، نال العمل إعجاباً عاماً عند عرضه في «كان» واعتبر تجديداً ليس في السينما «الثورية» فقط بل في السينما العربية ككل.

أقل منه تجديدية أتى فيلم الموريتاني عبد الرحمن سيساكو. لكنه لم يقلّ عنه راهنية. بل إن الأحداث السياسية التي هيمن على مجرياتها المتطرفون «الإسلاميون» في مالي الإفريقية حيث مدينة تومبوكتو التي أعارت الفيلم عنوانه، سرعان ما تفاقمت بعد عرض الفيلم مباشرة عبر استشارة سيطرة نفس أولئك المتطرفين على الثورة السورية ثم على مناطق عديدة في العراق، لتُضفي على الفيلم راهنية مدهشة. فيلم «تومبوكتو» فيلم روائي تدور أحداثه غير بعيد من تلك المدينة الإفريقية الإسلامية

العريقة التي كانت بمكتباتها وتسامحها الديني وعلوم ابنائها تُعتبر نموذجاً للتسامح الديني والاعتدال، فإذا بسيطرة الإسلام «السياسي» المتطرف عليه تحولها إلى بؤرة تعصب وقتل وعنف ضد الناس. والفيلم يروي لنا هذا من خلال حكاية عائلة بدوية بسيطة ينذرها المتطرفون بالقتل والتهجير إن لم تمنع إناثها من العيش كما اعتدن ان يفعلن.

والحقيقة ان راهنية هذا الفيلم تجعله واحدا من الشرائط الهامة التي تنتمي إلى ما نسميه هنا بسينما الربيع العربي. وما حيرة الفيلم أمام موضوعه سوى صورة لحيرة الربيع العربي نفسه وللسينما العربية أمام ما يحدث اليوم من حولها وقد غاب كل يقين باستثناء اليقين بأن هذه المرحلة لن تكون في نهاية المطاف سوى مرحلة انتقالية وما على السينما - بين فنون أخرى - إلا ان تواكب ما يحدث، بانية بالتدرج مدماك تحولها هي الأخرى من سينما عن الثورة إلى سينما ثورية.



# الثورة كسؤال للفن: الغرافيتي مسرح الشارع

ميسون علي

أكاديمية الفنون المسرحية، سوريا

mayssounali@gmail.com

## الملخص

يتناول هذا البحث موضوع «الثورة كسؤال للفن» من حيث انعكاسات الثورة السورية وتأثيراتها على الصعيد الفني. إذ بات الفن أداة اشتباك مع واقع سوري معقد، تبدل أكثر من مرة بين لحظات اليأس والأمل والرجاء، التي كان يستحيل معها التقاط الأنفاس والتوقف لتأمل ما يجري! كيف تقاطع الفن مع الظرف والثورة؟ وهل كان ذلك على حساب فنّيته؟ أم أمكن إنجاز عمل فني إبداعي ذي مقومات فنية قادرة على القفز فوق تلك اللحظات. وضمن هذا التقاطع بين الثورة والفن، هل عثر الفن على موضوعه وعلى إشكاليته؟ وفي هذا السياق سيتم التركيز على «الغرافيتي»، ففي قلب الفن، كان «الغرافيتي» الأكثر فعالية، إذ استعادت الثورة هذا الغائب المهمّش (في بلد مثل سوريا)! لا سيما أن هذا الفن هو الذي أطلق شرارة الثورة في مدينة درعا في 15 آذار 2011، عندما خطّت أنامل أطفال عبارات شكّلت مفصلاً تاريخياً في سوريا، حيث باتت الجدران الملائد الأخير! فالغرافيتي هو الفن الأكثر تفاعلاً كفعل احتجاج يتجدد باستمرار، متحدّياً السلطة التي تمنعه وتحاربه، ضمن عملية محو الأثر المستمرة التي تقوم بها الأجهزة الأمنية، كما يكتسب أهميته كفن يقوم على صدمة جمالية تستوقف الناظر مهما كانت خبرته الثقافية والجمالية والإنسانية. سيتضمن هذا البحث التعريف بفن الغرافيتي والخلفية التاريخية له وارتباطه بثقافة الهيب هوب، ومن ثمّ التركيز على مضامينه وأهدافه ودوره في الحراك الاجتماعي والثورة السورية، وكذلك الموتيفات البصرية التي ابتدعها. كما سادعّم البحث بصور متعددة للغرافيتي، وقراءة تحليلية سمبولوجية لهذه النماذج.

الكلمات المفتاحية: فن الغرافيتي؛ ثقافة الهيب هوب؛ الثورة؛ الحراك الاجتماعي؛ سوريا.



## Résumé

### La révolution en tant que questionnement de l'art: Le graffiti comme un théâtre de la rue

Mayssoun Ali

*Le thème de ce travail est celui du « questionnement de l'art à travers la révolution » à travers les répercussions de la révolution syrienne au niveau artistique. Il est actuellement de fait que l'interaction de l'art avec la réalité syrienne est d'une complexité considérable et d'une oscillation entre espoir et désespoir durant laquelle il était très difficile de faire une halte afin d'appréhender les événements et de se questionner à propos de l'efficacité de son aspect artistique et de sa capacité à produire une œuvre d'art capable de dépasser les événements factuels. L'art a-t-il trouvé son chemin et décelé sa problématique dans cette interaction entre art et révolution? Dans cette étude, nous allons se concentrer sur le phénomène artistique du graffiti révélé le plus efficace. La révolution a su récupérer efficacement cet art absent et opprimé, notamment en Syrie. Cette forme artistique a déclenché la révolution à Daraa le 15 mars 2011: des petites mains d'enfant sont tracé sur les murs des phrases devenues le symbole d'une nouvelle étape. Le mur est devenu le dernier refuge en tant qu'un acte renouvelable de contestation malgré les efforts du pouvoir de l'effacer. Il représente également une valeur artistique qui frappe l'imagination de tout le monde. Le but de ce travail est de chercher à définir l'art du graffiti, son contexte social et artistique ainsi que sa relation avec la culture Hip Hop. L'étude se porte également sur le fond et les objectifs de cet art et son rôle dans la contestation sociale en Syrie ainsi que ses motifs visuels. Des exemples de cet art ainsi qu'une étude sémiologique de quelques exemples sont utilisés à l'appui.*

**Mots-clés:** Graffiti; art; culture Hip Hop; révolution; Syrie.

## المقدمة

الغرافيتي هو الفن الذي يمنح الجميع حرية التعبير والتأثير في الحيز العام. كيف يتقاطع هذا الفن مع الظرف والثورة؟ وضمن هذا التقاطع بين الثورة والفن، هل عثر الفن على موضوعه وعلى إشكاليته؟ تساؤل تطرحه هذه الدراسة تحت عنوان «الثورة كسؤال للفن»<sup>(1)</sup> من حيث انعكاسات الثورة السورية وتأثيراتها على الصعيد الفني إذ بات الفن أداة اشتباك مع واقع سوري معقد وفي قلبه كان «الغرافيتي» الأكثر فعالية؛ كما لا ننسى أن هذا الفن هو «الذي أطلق شرارة الثورة بدرعا في 15 آذار 2015، عندما خطّت أنامل أطفال عبارات شكّلت مفصلاً تاريخياً في سوريا»<sup>(2)</sup>. تبدأ هذه الدراسة في البحث في الأصول التاريخية لظهور الغرافيتي ومضامينه وأهدافه ودوره وعلاقته بالحراك الاجتماعي السياسي، يتم بعده التركيز على فن الغرافيتي باعتباره مرآة للثورة السورية بالإضافة إلى قراءة تحليلية سمبولوجية لنماذج من الموتيفات<sup>2</sup> البصرية المبتدعة. الهدف هو الإجابة على هذا السؤال: هل اهتم فنانون الغرافيتي بالمضمون والشكل على حد سواء، أم احتوت هذه الأعمال قدراً من المباشرة التي تنعكس سلباً على جماليات العمل الفني؟ وهل تمّ التغاضي عن الشرط الجمالي فيها لحساب المضمون والهدف السياسي؟

### 1- فن الغرافيتي

#### أ. نظرة تاريخية

شعر الإنسان منذ بداية تاريخه بالرغبة في ترك بصمة أو أثر (Tag) في مكان وجوده أو عبوره، وبعد الرسم انتقل إلى الكتابة، أي إلى أن يقول ما يشعر به أو أن يُوصل معلومة، حتى أن فعل الكتابة موجود في أصل الكلمة التي سُمي بها هذا الفن الـ Graffiti وهي جمع كلمة Graffito الإيطالية، والتي أصبحت تُطلق على هذه الممارسة. بالعموم اشتُقّت الكلمة من صفة Graffiato التي تعني «ما هو مُخربش» أو

(1) زياد ماجد، سوريا الثورة اليتيمة، شرق الكتاب، بيروت، 2013، ص 15.

(2) «الموتيف» هنا بمعنى «الحافز» الفني.

«محفور ليظهر طبقة ثانية تحته»، وفي جذر كل هذه الكلمات «كتب» باللغة اليونانية Graphein<sup>(3)</sup>.

منذ الحضارات القديمة كتب ورسم الفراعنة واليونان والرومان على جدران المدن والمعابد والقبور... وكانت هذه الكتابات «المدينية» تنقل قصة حب جارفة أو تنادي بأحد الآلهة أو تستعيد مقاطع أدبية أو لمجرد الإعلان عن تجارة غير قانونية. كما حفر العشاق أسماءهم على جذع شجرة أو لتخليد حبهم، وترك الجنود دليل عبورهم في الخنادق خوفاً من اختفاء أثرهم على ساحة المعركة.

وفي المدن الكبيرة وضواحيها، يمكننا أن نقرأ على جدران الأبنية شهادات عن الحب، أو كلمات تُعبّر عن قلق الساكنين، وأحياناً مواعيد، ويُحكى أن العجر المُتقلين، كانوا يضعون علامات في الأماكن التي تستقبلهم، وفي الأماكن التي ترفض استقبالهم ويعتبرونها مُعادية. البسيكولوجيون علماء النفس والاجتماع والفنانون، يدرسون منذ عدة سنوات معنى وأسلوب هذه الإشارات «الغرافيتي»، التي تُعبّر بكثير من العفوية عن أهواء واهتمامات الأشخاص الذين كتبوها. وبالرغم من أن أغلب المُجتمعات تنظر بكثير من الإدانة والشك إلى الغرافيتي، وتعتبره نشاطاً خاصاً سرياً ووقحاً، لكن يمكننا القول إنه بفضل هذه الإشارات أو الكلمات، يستطيع الفنان أن يوجّه - ومن دون خوف - رسالة أو طلب إلى المجتمع، أو أن يتخلص من كل شواغله. وقد لاحظ عالم اللغويات السويسري فريناند دو سوسير (1857-1913) أن الكتابة تحرك الكلمات من عالم الصوت إلى عالم الفراغ المرئي، والناظر يلتقط من مظهر الكتابة إحساساً بالكلمة في الفراغ، كما يُشير دو سوسير إلى فوائد الكتابة وخطورتها، فيرى أن الكتابة تُعيد بناء الوعي. كما ينظر إلى الكتابة باعتبارها نوعاً من مُكلمات الكلام الشفهي، وليس باعتبارها أداة تحويل التعبير اللفظي<sup>(4)</sup>.

### ب- الغرافيتي وثقافة الـ Hip Hop

يرتبط الغرافيتي اليوم بشكل أساسي بثقافة الـ Hip Hop التي انطلقت في مدينة نيويورك في سبعينيات القرن الماضي. فالغرافيتي هو أحد أهم عناصر ثقافة الهيب

Alpha Encyclopédie, tome 8, GRANG ERATELIERE, PARIS, EDITIONS. A, GENEVE, (3) 1974, p.2903.

Ferdinand de Saussure, Cours De Linguistique General, Éditions du seuil, 1975, p. 56. (4)

هوب الأربعة وهي: graffiti وغناء الراب Rap وموسيقى DJ، ورقص الـ Break Dance، أي أن جميع هذه العناصر مرتبطة بثقافة الشارع باعتباره مصدر إلهامها ومكان إنتاجها وعرضها من دون سابق إنذار.

الهييب هوب (Hip Hop) هو أحد أنواع الموسيقى والثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية. ويُعتبر حركة ثقافية للسود أو الأمريكيين من أصول أفريقية وقد بدأت منذ عام 1970 ونشأ الهييب هوب كرد فعل لما تعرضوا له من عنصرية ولإظهار ثقافة وفن مستقل بهم، وكنوع من التعبير عن أنفسهم وعن المشاكل من الفقر والبطالة والعنصرية والظلم. أما موسيقى الراب فهو عنصر أساسي في الهييب هوب. هذه الظاهرة كانت موجودة قبل ثقافة الهييب هوب بعقود. كلمة RAP هي اختصار لجملة «Rhythmic African Poetry» والجملة تعني «الشعر الأفريقي المُقْفَى» إذ أن الكلمة كانت جزءاً من لغة الأمريكيين الأفارقة منذ الستينيات. انتشر الراب في أمريكا في بداية السبعينيات في حي برونكس بنيويورك، ثم عالمياً بعد ذلك.

وبالعودة إلى الجرافيتي نجد أن العلاقة بين الكتابة على الجدران وثقافة الهييب هوب قد نشأت عندما كان أوائل فناني الشعارات والكتابة على الجدران أيضاً عناصر في فرق الهييب هوب، والتي كانت في مناطق فيها عناصر أخرى من الهييب هوب، فأصبحت كل مجموعته تطوّر أشكالها الفنية. والكتابة على الجدران يمكن تعريفها بأنها تعبير البصري لموسيقى الراب، فكما يُعبّر الراب عن الاحتجاج والتمرد ويتبنى قضايا راهنة سياسية - اجتماعية.. يُعبّر الجرافيتي عن ذلك بالكلمات والرسم.

يوجد نوعان من الجرافيتي وهما المرسوم والمكتوب، وتسمى باللغة الإنجليزية Graffiti - (Tag Handstyle)، وغالباً ما يُستخدم بخاخ البويا في المرسوم وأيضاً يُمكننا استخدامه للتوقيع. وهناك تقنيات أخرى مثل الإكريبليك وغيره<sup>(5)</sup>.

### ج- الجرافيتي والحراك الاجتماعي - السياسي

يبلغ فنّ الجرافيتي ذروته في الفترات التي تشهد تغييرات سياسية واجتماعية، ويصبح في حدّ ذاته شكلاً من أشكال القوّة العامة لمقاومة السّلطة الحاكمة. ينتقي فنّانٌ أو مجموعة من الفنّانين أو النُشطاء السياسيين شارحاً مكتظاً لنقل الرّسالة عبر الكلمات

(5) المرجع نفسه، ص 42.

أو الصورة أو الاثنين معاً، والتي تحتوي في معظم الأوقات على سُخرية مريرة. «لقد بدأ الفنانون بكتابة أو على الأصح «بخ» أسماء وألقاب أهم ناشطي هذه الحركة الفنية الاجتماعية في أماكن مختلفة من المدن، إلى أن راحت السلطات الرسمية تُطارد «المُخربين» وتعمل على محو أثرهم عن الممتلكات العامة. ومنذ ثورة الطلاب في فرنسا أيار 1968 تأكد دور الجدار كمكان للحوار أو الاحتجاج، كما ظهر الجرافيتي السياسي بطريقة أكثر وضوحاً، وأصبحت تجذب اهتمام الجمهور، وقد تنبه علماء النفس إلى حجمه على الجدران، وإلى عنفه، واعتبروه فجاً، يُعبّر عن الحب - الكره - الخوف من الموت... أو يُعبّر عن الجنس: قلوب مع أسهم - أعضاء تناسلية - دوائر مثلثات، وإن كانت فيها الكثير من التنوعات: قلب مع سهم - قلب مع أحرف - قلب مكسور مُحطّم. إضافة إلى هذه التصويرات الرمزية، نجد الكثير مما له علاقة بالميثولوجيا المعاصرة: طائرات - كاريكاتور سياسي - رسوم ل «زورو» أو لمغنيين، ونجوم، أما بالنسبة للأسلوب فيمكن أن يكون هناك طبقات للتعبير، أو الأشكال الجيومترية التي تُستخدم في الرموز، كما نجد اختصارات لتعبير ما.

منذ منتصف القرن العشرين، بدأت هذه الممارسة العفوية للجرافيتي تأخذ منحىً نقدياً سياسياً واجتماعياً مع مختلف الحركات المدنية باتجاه المجتمعات الحديثة، مما جعلها تتصف بتخريب الممتلكات العامة vandalism.

رافق الجرافيتي حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية، وثورة الطلاب في فرنسا 1968 التي لخصت في إحدى كتاباتها العبارة أحد الأسس الفكرية التي قامت عليها: «الملل مُعادٍ للثورة» وانتقلت هذه العبارة من الحائط إلى البوسترات Poster وغيرها من مطبوعات وأدوات ترويج هذه الحركة الشبابية التي غيرت إلى الأبد تكوين المجتمع الغربي»<sup>(6)</sup>.

إلا أنه وفي ثمانينيات القرن العشرين، بدأ الجرافيتي يكتسب شرعية جديدة مع ظهور أعمال فنية حقيقية على جدران المدن وتنوع الأساليب من بخ وحفر وكتابة، حتى أن أهم رسامي النصف الثاني من القرن العشرين الأمريكي Jean-Michel Basquiant انتقل من كتابة شعار SAMO خلسة في مختلف أنحاء مدينة نيويورك،

Alpha Encyclopédie, op. cit. (6)

إلى عرض لوحاته في أهم المعارض والمتاحف العالمية.

ومع ظهور أعمال كالتّي يقوم بها الفنان البريطاني روبرت بانكسي (1974-) «المُشاغِب» المُلقَّب بـ«Bansky» الذي وُلِد في بريستول، وبدأت أعماله في هذه المدينة، ثم انتقل إلى لندن ومن ثم إلى نيويورك ولوس أنجلوس، وقد تحوّل إلى أحجية ورمز للتمرد، وتُعتبر أعماله كوميديا سوداء مُناهضة للحرب والرأسمالية والسلطة والمؤسسة الحاكمة بقي حتى الآن مجهول الهوية خشية أن يتم إلقاء القبض عليه، وذلك على الرغم من شهرته العالمية التي توجّها بالرسوم الناقدة للاستيطان الإسرائيلي، فقد وضع رسومه على الجدار الفاصل في الضفة الغربية ليهدمه رمزياً برسومه التي جعلته تارة شفافاً مثل زجاج لا يحجب الأرض الفلسطينية والطفل المسلح بحجارة، وتارة أخرى مدخل نفق يصل الأرض ولا يقطعها أو ستارة إذا فُتحت ظهرت واحة مياه ونخلة<sup>(7)</sup>. وكذلك ظهور فيلم Exit through the gift shop أو «الخروج من محل الهدايا» الذي رُشِح عام 2011 لنيل أوسكار أفضل فيلم وثائقي وهو من إخراج بانكسي، وهو فيلم عن مخرج فرنسي يحاول بشكل مهووس أن يُسجّل طريقة صنع فن الغرافيتي بواسطة فناني الغرافيتي المشهورين أمثال «شيبارد فيري» و«انفيدار» و«بانسكي» و«جان ميشيل باسكيا»، وهو لا يقوم فقط بتتبع فناني الغرافيتي في الساعات المتأخرة من الليل ومشاهدتهم وهم يتسلقون المباني لكي يضعوا عليها بصماتهم الجريئة، ولكنه أيضاً يصبح صديقاً لهم ومُتدرباً على حرفتهم.

ذلك كله يُؤكّد كيف صار الغرافيتي أثراً ينتقل - عن قصد أو غير قصد - من التخريب إلى الفن، وكأنه تدخل فني اجتماعي في فضاء المدينة، إلى أن أعلنت السلطات الرسمية في مدن عدة مثل نيويورك، لندن، برلين ومدن أمريكا اللاتينية، أعلنت ضرورة الحفاظ عليه، فدخل المتاحف، ووجهت تعليمات إلى عناصر الشرطة بعدم التعرّض لبعض الفنانين غير الرسميين أو إلى الرسوم التي يتكوّنُها خلفهم على أي جدار كان.

من منا لا يذكر كيف تهافت الجميع للحصول على قطعة من جدار برلين

(7) يوسف غزاوي، «الغرافيتي فن شعبي مُحتج وصوت للمهمشين»، جريدة السفير، عدد 6، حزيران 2014.

المليء بالرسوم والكتابات «الرافضة» - ونُظمت له مهرجانات خاصة ترعاها المدينة وأهم المؤسسات الثقافية الرسمية، حتى أنه تحوّل إلى وسيلة ترويج قانونية، إذ يمكن لشركة ما أن «تشتري حائطاً» وتطلب من أشهر «المشاغبين» أن «يُخربش» شعارها عليه.

تُثير قوة الجرافيتي، باعتباره وسيلة للتعبير الحرّ، قلقاً متزايداً لدى العديد من الحكومات والأنظمة السائدة. فتأخذ التدابير القمعية لإسكات صوت الشارع، ومن أفضل الأمثلة على هذا النوع من ردود الأفعال ما حدث في بريطانيا مع قانون السلوك غير الاجتماعي لسنة 2003 وتوقيع الثواب على ميثاق يفيد بأن «الجرافيتي ليس فنّاً، بل جريمة»<sup>(8)</sup>.

لا يسعنا التوسّع في تاريخ تطوّر هذه الممارسة، التي أصبحت رمزاً للفن المدني أو المدني، فما يهمننا فعلاً هو التساؤل عن وجودها في معظم البلدان العربية، التي لا يخفى على أحد صعوبة التعبير فيها عن الكثير من الأشياء، وحيث العادات الاجتماعية غالباً ما تدعو إلى الخجل والتوازي (تعتبر جدران بيروت والمدن الفلسطينية استثناءات حقيقية نظراً لطبيعة الظرف السياسي والتاريخي، الحرب والاحتلال، مما جعلها فضاءً خصباً للتعبير على الحائط). شهد مطلع العام 2011 تعاظم انتفاضات شعبية وانطلاق ثورات تحرّر من الطغيان السياسي تتابع اليوم مساراتها المتعرجة وتبلور نتائجها المختلفة في تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين، في حين تحولت الثورة في سوريا، لما واجهته من عنف إلى كفاح مسلّح مرير ومتواصل. وكما يقول زياد ماجد:

«عبّرت الثورات العربية في بعض جوانبها عن توق لاحتلال أو تحرير مكان الفعل السياسي، أي وسط المدينة. فمن تونس إلى القاهرة، ومن صنعاء إلى المنامة، ومن بنغازي إلى درعا وحمص، تمركزت أول الحشود الضخمة بين مطلع العام 2011 وشهره الثالث في الساحات الرئيسية لتتوجّ أياماً أو أسابيع من التظاهرات والتجمعات المتفرّقة والتأسيسية. وليس ظهور الأغاني والهتافات كما الجرافيتي والكتابة على الجدران، إلا جزءاً من عملية الاحتلال إياها، ومحاولة لتحسينها

(8) المرجع نفسه.

وحمايتها وتعديل المشهد المكاني لجعله حاضنة لها»<sup>(9)</sup>.

الغرافيتي في مصر مثلاً ظهر من أجل «ثورة ملونة وذاكرة لا تموت». ومنذ الأيام الأولى للثورة المصرية، تبنى الثوار طريقة أسلافهم لتوثيق أحداثها، عبر نقشها على جدران ميدان التحرير وسط القاهرة، معقل المتظاهرين، ولكن حمى الكتابات والرسوم الجدارية ما لبثت أن تجاوزت ميدان التحرير لتطاول جدران القاهرة كلها. وشاعت الرسوم حتى بعد سقوط النظام. وعكس الفنانون في إنتاجهم مراحل الثورة المختلفة، معتبرين الجداريات وسيلة لإحياء ذكرى شهدائها، وقد برع بتوثيق الثورة فنانون مثل علاء عوض - عمار أبو بكر وإياد عرابي<sup>(10)</sup>.

وسنركز في ما يلي على فترة الثورة السورية الراهنة، فقد شهد الغرافيتي منذ بدايتها وحتى الآن ازدهاراً لم نعرف له مثيلاً من قبل.

## 2- الغرافيتي مرآة الثورة السورية

ليس من السهل الوقوف على المشهد الفني والأدبي السوري القائم على أرض الثورة. ثلاثة أعوام من عمر هذه الثورة قد لا تكفي لظهور ما يمكن تسميته أدب أو فن الثورة. فالفن يحتاج إلى المزيد من الوقت كي تتبلور صورته الجماعية. لم يكتمل فن الثورة، لكن ما صدر أو ظهر منه يُشتر بمرحلة أدبية وفنية جديدة، فن لا ينقطع عن التجارب المُضنية السابقة، لكنه يبتعد منها ليحقق ثورته الفريدة، ثورة الحرية، ثورة المواطن الذي حرّمته السلطة من مواطنته وإنسانيته وحرّيته، فن مُضرج بالدم، سينهض على أطلال وطن مُدمر.

لم تنطلق الثورة السورية انطلاقاً أيديولوجية، لقد كسرت المقولة اللينينية «لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية» ذلك أن تحرك الشعب أتى عفويّاً وخارج إطار أي نظرية وخارج عمل الأحزاب أو جماعات مُتمردة، في بلاد مُنعت فيها الأحزاب وصدّورت فيها الحياة السياسية والمواطنة والديموقراطية والحرية والعدالة.

أكتب بحثي هذا، بينما الثورة السورية لا تزال مُستعرة، وأجد نفسي وكأنني

(9) زياد ماجد، سوريا الثورة اليتيمة، ص ص 14-15.

Mia Grondahl, **REVOLUTION GRAFFITI**, the American University In Cairo. New York, 2012, p. 52.



أكتب ما يمكن وصفه بـ «التاريخ الجاري»، في محاولة للحاق بصفحات التاريخ وهي تُكتب يومياً في شوارع دمشق وحلب وحماة وحمص وسائر أرجاء سوريا. من هنا، تأتي صعوبة الكتابة عن الثورة السورية وفنونها. يحاول الفن والأدب للحاق بهذا الحراك، إنتاج ما يمكن أن يُشبه اللحظة التي نعيش مخاضها اليوم. هل تفوّقت المحطات الإخبارية للمرة الأولى على الفن، نظراً لسخونة الحدث الذي تواكبته على الهواء مباشرة؟ وهل ما نشاهده في الثورة السورية واقعاً يصعب إعادة إنتاجه، أو التفوّق عليها تخيلاً، مهما كان الفنان أو الكاتب بارعاً ومهنيّاً؟

بعد ثلاثة أعوام على اندلاعها، بدت الثورة السورية مثل معرض مفتوح على الخيال. الشعارات التي رفعها المتظاهرون تُشير إلى أنّ راية الخيال لم تسقط بعد. تنافس الجميع على ابتكار أدوات للتعبير عن مواقفهم السياسية بطريقة جمالية. تفاوتت القدرات، لكنّ فرص العرض تساوت، ومعها فرص النقاش حول الإنتاج الفني المعروف ومحتواه السياسي الجمالي. وتلك فرصة لم تتح لفنانين محترفين قدّموا أعمالهم في أهم صالات العالم.

استعادت الثورة فناً تغيّب أو تهمّش، وشُغل الفنانون في ما يمكن أن يُقدّم إلى الثورة، فكان الغرافيتي أحد أهمّ الفنون التي حزرتها الثورة، وذلك في بلد يُصعد النظام فيه من عبادة الرئيس، ومن نشر صورته في الفضاء العام واحتلال هذا الفضاء بالتماثيل، ويتم التصويت والولاء له بالدم، ويُجبر تلامذة المدارس على التهاتف له ثلاث مرّات كل صباح. لكن خلال الثورة، وبينما كان في السجون عشرات الألوف، وبينما كانت سورية تعجّ بأجهزة الأمن المرعبة، بدت الإنتاجات الفنية التي عبّرت عن هذا المفترق كثيرة ومتشعبة ومتنوّعة، على رأسها الغرافيتي الذي كان نجم المرحلة بامتياز.

وما أوّد قوله إنني (وقبل الثورة) أمضيتُ فترة طويلة وأنا أبحث في شوارع دمشق عن «مُخربشنا»، وغالباً ما كنت أصاب بخيبة أمل عند اقترابي لقراءة كتابة ما على أحد جدران المدينة، والتي لا تتجاوز في معظم الأحيان الإعلان عن مكتب تكسي أو محل للفظائر أو أن «أحمد يُحب سعاد»...! كنتُ أبحث لأعرف إلى أي مدى تُفرز هذه المدينة أشكال تعبير عفوية يشعر من يمارسها بالحاجة الملحة إلى تثبيتها في مكان عبوره وكأنه يتحدى بها الجميع. وإن كنتُ لا أنسى ذلك اليوم من

نيسان 1992 الذي لا زال عالقاً في ذاكرتي عندما فُتح تحقيق وحدثت بلبله في مدرستي لأن جدران الباحة كانت مليئة برسومات وكتابات وضعها بعض الطلبة خلال الليل، على الرغم من أن معظمها كان طريفاً بالفعل.

في بلد يعج بالصور والشعارات المؤيدة للرئيس، صور وتماثيل في وضعية المُجابهة<sup>(11)</sup> هذا القانون في الفن الذي تحدث عنه أرنولد هاوزر، ففي البورتريهات الرئاسية، تأخذ صور الرئيس نفس الطابع المُجابه والمُتجهّم والرسمي. هذه الصور تبدو في المدينة عُرضة للتكاثر والتوالد، حتى لا يكاد يفلت منها البصر في كل مكان، هي وسيلة لتكريس الحضور المُهيمن والطاغي للسلطة، ولتوليد الإحساس برقبتها التي لا تغيب. تكون صور الرئيس في بعض الأحيان تماثيل عالية مُهيمنة، تتوسّط الساحات، أو تماثيل نصفية تنتشر في المؤسسات والمكاتب الحكومية.

في وطن خاضع للاستبداد، وقابع تحت هيمنة أجهزة الأمن المُرعبة، تعبّر الأيدي في الهجيع الأخير من الليل، تتحدّى القهر والصمت القسري، وتكتب الحرّية على الجدران. الجدران لا تموت، الحرّية أيضاً لا تموت. لكن ماذا نقول عن مدن تُخفي قمعها، بل وقهرها وعصبيّاتها، خلف واجهة بزّاقة وعصريّة ومُغرّية؟ أين المتنفس في سوريا؟ في مدن تبدو جُرحاً في خاصرة مجتمع ماضٍ إلى التصحّر السياسي والمدني والثقافي. هكذا أصبحت الجدران، بالنسبة إلى جيل الثورة - المحروم على أكثر من صعيد - الملاذ الأخير، باتت الجدران فضاء التمرد والعصيان المدني بامتياز... والسلطة لا تُحارب هذا الفن فقط، بل وتُصي بطلائه. ولفهم القوّة الحقيقية للغرافيتي، لتتذكّر الشّارة التي أشعلت الثورة السوريّة سنة 2011، كما ذكر زياد ماجد<sup>(12)</sup>، أدى غرافيتي مكتوب في درعا إلى اعتقال 15 طفلاً على الأقلّ بتهمة كتابة غرافيتي مناهض للنّظام على جدران مدرسة. وهكذا، قرّر الأمن والمحافظة إنزال أشدّ العقاب بالمدينة، الأمر الذي فاجأ السكّان. ثمّ فجأة، تذوّقت سوريا طعم الثورة لأوّل مرّة في الربيع العربي.

وقد يجوز القول إن الغرافيتي كان في أصل اندلاع الثورة السورية في 15 آذار

(11) أرنولد هاوزر، الفن والمجتمع عبر التاريخ، ج1، ترجمة: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، 1981، ص 45.

(12) زياد ماجد، سوريا الثورة اليتيمة، المرجع نفسه، ص 25.

2011، لكن شعلة الثورة في سورية أضرمتها «غرافيتي» في محافظة درعا، عندما كتب مجموعة من الأطفال في درعا على جدار المدرسة عبارتين من أربع كلمات «إجارك الدور (جاء دورك) يا دكتور» و«الشعب يريد إسقاط النظام»، فسارعت السلطات السورية إلى اعتقال الأطفال وتعذيبهم ورفض الإفراج عنهم، وإهانة الآباء ومطالبتهم بنسيان أولادهم وإنجاب غيرهم.

من المعروف أن هناك قولاً شائعاً وهو «الحيطان لها آذان»، ولكن يا للمفارقة لقد صار للجدران ألسنة كذلك. فهي تتكلم وما تقوله قد يكون بالغ الأثر وكأنه مرآة لوعي الشعوب. يظهر فنانون الغرافيتي بعد هبوط الظلام، يتسلحون بعبوة دهان أو «بخاخ»، ويرسمون لوحاتهم، قد تقتصر على كلمة أو بيت شعر كما هي الحال في شوارع سوريا أو لازمة أغنية.

والغرافيتي في كل المجتمعات وسيلة تعبير بديلة، خارجة عن القانون أساساً، بالأحرى عن الثقافة الرسمية والثقافة المكرّسة، ثقافة الصالونات والغاليريات والمتاحف والأكاديميات، والدوائر المغلقة، والطبقات المنتشية بيقينها، والنخب المهيمنة الراضة من سلطتها وامتيازاتها. تلك النخب قد تكون يسارية وتقدمية طبعاً، لكنها تشكل سلطة قمعية في النتيجة، الغرافيتي ضد السلطة، أي سلطة، كل سلطة، تقدمية كانت أو رجعية، متنورة أو ظلامية، عادلة أو مستبدة. وسيطه الجدران والجدران ستحتضن الثورة في المدينة. وسيلة تواصل فقيرة وشعبية لا تحتاج إلى أدوات باذخة، قارورة من الرذاذ الأحمر تكفي... وبضع كلمات طالعة من الوجود. رسم جريء ساخر من المحظورات التي تفرضها المرحل الغرافيتي - كما ذكرنا الأحداث الأخيرة - تحد للسلطة للأوضاع القائمة. إنها وسيلة تعبير متاحة للجميع وتصل إلى الجميع بلا إقصاء. عبر النزول إلى الشارع، لتحرير الفضاء العام أو إعادة امتلاكه. تفترض تماساً جسدياً ومخاطرة حقيقية، لا يوفرهما الفضاء الافتراضي.

وإذا كانت حكومات العالم تُجمع على إدانة الغرافيتي، أي الرسوم أو الكلمات المطبوعة على ملكيات عامة أو خاصة من غير استئذان المالك. ولكن، في بعض الدول، وسوريا خاصة، قد يفقد المرء حياته جزاء كلمة أو صورة على جدار المدينة أو البلدة. وهذا ما حدث للفنان نور زهراء المعروف في سوريا باسم «الرجل البخاخ». وهو الذي أرخ لاندلاع شرارة الثورة بسلسلة من الرسومات والكتابات،

رمت الجسور بين السياسة والفن وأشكاله التعبيرية البسيطة. وزهراء الذي كان أحد أبرز فناني الغرافيتي المكتوب على الجدران السورية، ومن بينها تلك المتاخمة لقصر الرئيس، كان يلعب بالرجل البخاخ، نظراً لكثرة رؤيته من قبل مواطني حي كفر سوسة وما حولها في العاصمة السورية، راکضاً بعبوته الأسطوانية النفاثة للطلاء (البخاخ)، كسلاح وحيد يحارب به أمن النظام المدججين بالسلاح القاتل.

عمل هذا الفنان لم يكن سهلاً. فعملية محو الأثر مستمرة. رجال الأمن حاولوا مُطاردته والقبض عليه أكثر من مرة، إلى أن تمكنوا من قتله في النهاية، وقد ورد في صحيفة «الشرق الأوسط»:

بعد أكثر من عام من الركض شبه المتواصل في شوارع حي كفر سوسة، وما جاوره من أحياء العاصمة السورية، دمشق، لا يتخلله سوى الوقوف للحظات سريعة لكتابة العبارات المناهضة للحكم، أو الشعارات المحفزة للثورة على النظام... هدأت أنفاس الشاب السوري نور زهراء إلى الأبد بعدما أفلحت رصاصات قوات الأمن أخيراً في اصطیاده، أول من أمس (...). جنازة نور زهراء التي شيعها آلاف السوريين من حي كفرسوسة، تحوّلت إلى مظاهرة حاشدة مُتددة بالنظام، تحت أعين القنّاصة الذين انتشروا على عدد من مباني الحي.. حيث استقبل المشيعون الجثمان المغطى بالورود لحظة خروجه من المنزل بالتكبير والتهاتف، وتحول الكثير من المشاركين في تشييع الجنازة من رجال ونساء إلى «بخاخين» بدورهم، حيث قاموا بكتابة الشعارات المناهضة للنظام السوري ليغطوا بها جدران الحي<sup>(13)</sup>.

غير أن كل تلك الأفعال لم تُبطل فكرة المواجهة الصادمة في هذا الفعل الفني، كما أن أجهزة الدولة الأمنية لم تُوقف عمليات محو الأثر التي تعيشها الشوارع في سوريا، لدواع أمنية تبدأ عملية الإزالة والاعتداء على التاريخ الجديد. حتى إن كثيرين رأوا في هذا اعتداءً شخصياً على المُخيلة.

في تفسيرنا لظاهرة «الغرافيتي»، لا بد من أن نُفرّق بين عمل فنان الغرافيتي في العالم العربي وعمله في الغرب. هناك، يحتجّ الفنان عبر تشويه الجمال البارد

(13) محمد الحميد، «اغتيال الرجل البخاخ»، جريدة الشرق الأوسط، لندن، عدد الثلاثاء 2 مايو 2012م الموافق 10 جمادى الآخرة 1433هـ.

ومواجهة الزيف والتنميط. وبالتالي، فهو عمل ثوري من وجهة نظر صاحبه. أما في عالمنا العربي، فالكثير من الشوارع لا تحتاج إلى التَشوّهات، فهي مشوّهة بما يكفي. وفي أحيان كثيرة، يأتي الغرافيتي ليجمّلها ويخفّف من قبحها. وقد أصبح في الوقت الراهن ممارسة ثورية، مما زاد من قيمة هذا الفن الدلالية.

### 3- نماذج من الغرافيتي

سأقدّم في ما يلي قراءة تحليلية سميولوجية لبعض النماذج من الغرافيتي<sup>(14)</sup>، وبدايةً أقول، إذا كانت الصورة مثل الكلمة تتضمن معنىً ما، فهنا تكمن مشكلة تفسير الصورة أو الرسم، إذ يجب أن يقرأ المرسل إليه، أو المُشاهد هذا المعنى، والجميع يعرف من خلال التجربة المباشرة، أننا لا نرى الصور بطريقة واحدة، يُحددها كلياً جهاز الإدراك، وإنما نرى ما نستطيع فهمه. إن مسألة تفسير الصورة، هي كمسألة تفسير الكلمة، مسألة سيميائية وفلسفية عامة، تتخطى بشدة المعنى المباشر للصورة، فالمعنى كما يقول تزيفتان تودوروف (1939-) مرتبط بالتفسير، وقد اختلفت مدارس التفسير في تعليقها على الصورة مع المشروع السميولوجي الألسني في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، في مشروع حاول إعطاء إجابة عامة عن تفسير الصورة من خلال مفهوم الرمز. فكل عناصر الصورة المفسرة هي رمزية، بالمعنى الواسع، أي أنها تشمل إشارات ثقافية، تكشف عن روحية خفية ما، أو مدرسة ما، أو تيار ما، كما تكشف عن شخصية صانع الصورة.

سأقدّم - كما قلت - قراءة لنماذج من الغرافيتي، بالاستعانة بمنهج السميولوجيا (علم العلامات) Semiology، الذي سيساعدنا على فهم عمل الصورة والغرافيتي وتفكيكها، وقد ميّز العالم الأمريكي بيرس Peirce Charles sanders، مؤسس نظرية السيميائية المعاصرة، ميّز بين ثلاثة أنواع من العلامات هي: الإيقونة Icone والرمز Symbole والدلالة Index، والشكل الثالث للعلامة الإيقونية، يتجسّد في الاستعارة Métaphore وهي ليست صورة شفوية، إنما آلية أو طريقة استبدالية، تربط بين شيء

(14) الصور مأخوذة من موقع اتحاد تنسيقيات الثورة السورية:



غرافيتي (1)  
«إجلك الدور يا دكتور»

ظاهر مبین، فكرة ضمنية أو غير مبيّنة<sup>(15)</sup>.

سنقرأ كل نموذج من النماذج التالية على أنه مجموعة من العلامات، علامات لغوية أو إيقونية، ونحدّد مفهوم العلامة Signe (بحسب دوسوسير) على أنها ليست مسطّحة وبسيطة، إنما هي مكوّنة من دال Signifiant ومدلول Signifié، والعلامة ليست الدال بذاته، ولا المدلول بذاته، بل هي بنيتهما، أي ما ينهض بهذه العلاقة بينهما، وبهذه العلاقات بين الناس وموجودات العالم. ونشير إلى أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست علاقة تطابق، فالدال له مدلولات متعددة، كما يمكن أن تشترك عدة دوال لتشير إلى مدلول واحد<sup>(16)</sup>.

هذا الغرافيتي على قدر كبير من الأهمية، لأنه هو الذي أطلق شرارة الثورة، وهو عبارة عن جملة واحدة مكتوبة على عجل وبالبحاخ، على الجدار الخارجي لإحدى مدارس درعا. الجملة هي «إجلك الدور يا دكتور». بمعنى أتى دورك يا دكتور، والدكتور هنا هو رئيس الجمهورية، فبعد قيام ثورة تونس 17 ديسمبر 2010، وثورة مصر 25 يناير 2011، حان الآن الوقت لسقوط النظام في سوريا، ومن كتب هذه الغرافيتي، كتبه باللهجة العامية، كلمات خاصة بالعامية السورية تحديداً، جملة

Keir Elam, *The Semiotics Of Theatre And Drama*, Methum, London & New York, (15) 1980, p. 92.

Saussure, Ferdinand de, *Cours De Linguistique General*, Paris: Éditions du Seuil, 1973. (16)

فيها قافية وجناس (دور - دكتور) وهي نابعة من الهوية المحلية، تُرجع إلى جملة مثل (إجاك الدور) التي تُستخدم عند حدوث أمرٍ ما، وأن هذا الأمر سيُطال أحد غيره، ويخاطب الرئيس ب «يا دكتور» بمهنته كطبيب عيون، هذه الجملة مكتوبة باللون الأحمر، وهو كدال له مدلولات الثورة - المواجهة - التمرد - الطاقة - الانطلاق... ولا ندري إن كان من كتبها قد كتبها أثناء النهار أم تحت جُح الظلام خوفاً من بطش رجال الأمن (غرافيتي (1)).



غرافيتي (2) «ثورة لكل السوريين»

في غرافيتي (2) نجد رسماً يُمثل خريطة سوريا، وفي داخلها عبارة «ثورة لكل السوريين» وفي هذا إشارة إلى أن الثورة لم تكن لمنطقة أو لطائفة، إنما شملت سوريا من أقصاها إلى أقصاها، شارك بها السوريون جميعاً، وفي هذا دحض للصورة التي يُروّجها النظام عن الشعب على أنه جماعات إرهابية، وأن ما يجري ليس ثورة، إنما عصابات وإرهاب، وعلى الدولة أن تُحارب هذه الجماعات.<sup>(17)</sup>

الكلمات مكتوبة على خلفية بيضاء هي خريطة سوريا اللون الأبيض كدال يرمز إلى السلام والصفاء والانسجام والمساواة، وكان لون راية الدولة الأموية في ما مضى. الكلمات أو الشعار غير مكتوب بلون واحد، فبينما نجد كلمة ثورة باللون الأخضر رمز الخير والأمان، وهو لون يتفاعل الناس به، لأنه لون الزرع والطبيعة، وتجدد الحياة على الأرض... لون الحقول المعطاءة، وعبارة «لكل السوريين»

(17) كما ورد في صحيفة تشرين، العدد 5432، الإثنين 26 أيار 2011، وكل وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب.



غرافيتي (3) «لن تقتلوا ثورتنا»

باللون البني وهو لون الأرض. تماهي السوريين بالأرض السورية أو بالوطن. في هذا الغرافيتي نجد عدة مدلولات منها أن الثورة لا يمكن القضاء عليها أو إجهاضها، لأن الثورة تؤلد ولكن لا تموت، الثورة لا يُمكن قتلها، الثورة تتألم مع صانعيها الحقيقيين، الثورة تنتصر على نفسها وتستمر، الثورة لا نهاية لها، الثورة مُستمرة. اللون الأحمر يرمز إلى البطولة والتضحية من أجل الحرية، ودماء شهداء الوطن. اللون الأزرق، ويرمز هذا اللون إلى السمو والرفعة وعلو المكانة. اللون الأبيض ويرمز هذا اللون إلى السلام والصفاء والانسجام والمساواة، وكان هو لون راية الدولة الأموية في ما مضى. أما اللون الأسود فيرمز إلى البسالة والوقار والعظمة، كما أنه يرمز إلى جموع الناس.

«لن» مكتوبة بالأسود، «تقتلوا» بالأحمر، أما كلمة «ثورتنا» مكتوبة بثلاثة ألوان، هي الأحمر والأبيض والأسود، تُشكّل بمجموعها ألوان العلم. كلمة ثورة كدال، تضاف إليها (نا) الدالة على الفاعلين، وهذا مدلول على أن الثورة ل «نحن»، للشعب كله، لجميع السوريين (غرافيتي (3)).

«حرية لا بدّ منها» (غرافيتي (4))، هي الشعار الذي رفعه السوريون منذ بداية الثورة، عندما هتفوا حرية، خرجت الكلمة من حناجرهم هكذا. ليست شعاراً ولا أهزوجة، إنها شيءٌ ما يُشبه كلمة سرّ تموج في الصدور، يهتفون لها ويُرددونها، حرية، حرية، حرية. الثورة أطلقت هذه الكلمة المحتجزة في الصدور. لم يهتف الشعب السوري في البداية ضد أحد، صدحت حناجره بما تاق إليه، نادوا على





غرافيتي (4) «حرية لا بد منها»

حرمانهم وعوزهم الشديد للتحزّر، طالبوا بما يُحقّق لهم إنسانية لم ولن تتحقّق بالخبز وحده. هتفوا لرغبتهم في أن يكونوا قيمة إنسانية، هتفوا لرغبتهم في أن يُسهموا في صياغة قدرهم، عن شؤونهم الخاصة، والحرية هي المدخل الأول والأنسب لهذا، لقد أريقت دماء، وستراق دماء كثيرة في سبيل ذلك. فقط لمقاومة تلك العطالة التي أنتجت عقود طويلة من العطالة التي حوّلتهم، بطاقة القمع، إلى هُلام لا حول له ولا شكل ولا قوة ولا حرية. والجملّة مكتوبة أو بالأحرى مرسومة على شكل علم الثورة بألوانه الأخضر والأبيض والأسود ومكتوبة باللغة الإنجليزية أعلى الرسم. وهذه الحرية حتمية، لا بديل عنها فهي كلمة «لا بد منها» باللون الأبيض وهو يرمز كلون إلى المساواة، في هذا إشارة إلى أن الجميع متساوون في السعي نحو تحقيق الحرية، أما الخلفية فهي ملونة بالأحمر، وهو لون الثورة والتمرد، ولون دماء الشهداء المُراقّة على مذبح الحرية (غرافيتي (4)).

والمُلاحظ استخدام الألوان الأحمر والأخضر والأزرق بشكل كبير في الغرافيتي، لتكون هي الأساسية غالباً، لأن هذا يتفق مع حقيقة فيزيولوجية، وهي أن



غرافيتي (5) «حنظلة - حرية - أنا حر»

العين البشرية تميز هذه الألوان أكثر من غيرها، وتستطيع رؤيتها عن بعد. في هذا الغرافيتي، يضع الفنان رسماً لحنظلة في وسط الصورة، وحنظلة هو الشخصية التي ابتدعها فنان الكاريكاتير ناجي العلي (1937-1997) وهو صبي في العاشرة من عمره، عقد يده وراء ظهره، حافي القدمين، وقد وصفه ناجي العلي بأنه «الأيقونة التي تمثل الانهزام والضعف في الأنظمة العربية». لا نرى له وجهاً، نراه من الخلف برأسه الدائري عديم الملامح، انعقدت يده وراء ظهره، حنظلة الذي ألهم الفنانين والمسرحيين والشعراء، ها هو يلهم فناني الغرافيتي في الثورة، حنظلة وإن كان بلا وجه، إلا أن هذا الوجه يتطلع إلى الأمام، إنه يشهد على الحاضر، يرى ويسجل، لكنه ينظر إلى غدٍ لم يُشرق بعد! ينظر إلى مستقبل لم يتشكل، لكنه أيضاً يستشرف المستقبل، إنه ذاكرتنا، ذاكرة الآلام والمُقاومة التي يُعانها الشعب السوري، فيما هو أيضاً مُعلق العينين بالمستقبل الذي لا بدّ آتٍ، لذا لا نرى لحنظلة وجهاً، هو ابن هذا المستقبل، لذا هو قيد تشكّل مُستمر، هو وعد أكثر منه واقع، لا نعرف إلى أين تصل عيناه، ولكننا نفهم من وجوده أن الغد

سيأتي، وسيكون محاكمة شاملة لكل ما يحدث الآن. حنظلة هو شاهد يراقب ويُسجّل ويحفظ، وجوده يعني أن معاناة الشعب لن تذهب سُدى، لن تمضي بدون حساب، سيكون المستقبل محكمة ماثلة للحاضر، لكل ما قاساه الشعب، ولكل ما اقترفه الحكّام، والجشعون والمستبدون. حنظلة مُقيّد بالسلاسل، ولكنه «أنا حرّ» وينظر من وراء القضبان إلى الحرية! يحمل علم الثورة، يعلوه طائر يمثّل العلم الذي سيحلّق في المستقبل عالياً كهذا الطائر بجناحيه الملّونين بألوان العلم ونجومه الثلاث (غرافيتي (5)).

هذا العلم الذي يعود إلى زمن الانتداب الفرنسي في سوريا 1928، أقرته لجنة صياغة الدستور، وهو من حيث الشكل: طوله ضعف عرضه ويُقسم أفقياً إلى ثلاثة ألوان متساوية متوازية، أعلاها الأخضر فالأبيض فالأسود، على أن يحتوي القسم الأبيض في خط مستقيم واحد على ثلاثة كواكب حمراء ذات خمسة أشعة. منذ بداية الثورة، وهذا العلم كان الفعل الأول والمُعبر عن تمايز الحراك الشعبي عن النظام هو رفع علم الاستقلال من قبل المتظاهرين، وذلك في رفض معلن للعلم الرسمي المعروف منذ استيلاء البعث على السلطة، عام 1963. وهو ذو ثلاثة ألوان متساوية متوازية أعلاها الأحمر فالأبيض فالأسود ويحتوي القسم الأبيض في خط مستقيم على ثلاثة نجوم خضر خماسية الأشعة تفصلها أبعاد متساوية. فسوريا لا تزال تحت الاحتلال، ونظام الوصاية (غرافيتي (5)).

يختلف غرافيتي (6) عما سبقه من نماذج، إذ تم تنفيذه على جدران مُهدمة بفعل القصف والتدمير الذي مارسه وتمارسه السلطة ضد الشعب، ولكن جمالية هذا الغرافيتي تكمن بأن الأمل يُولد من رحم الدمار والخراب والاعتداء على الحياة، فكلّما حاصرنا الموت احترقنا الحياة، كما يقول كاتب الغرافيتي. ونبقى محكومون بالأمل.

#### 4- عناصر وسمات مُبتكرة

هناك سمات للنماذج السابقة، وهي الخروج عن الإطار، أن لا مسافات بين الكلمات، والكتابة تميل إلى أن تكون زخرفية، ووجود عناصر زخرفية مُتكررة. كما نجد المشاهد الرئيسية في الموقع الأمامي لإعطاء الحدث أهمية ومعنى،



غرافيتي (6) «كلما حاصرنا الموت احترقنا الحياة»

وهذه الظاهرة كانت معروفة في رسوم الواسطي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، ولديه كان المنظور البصري حلّ محله منظور معنوي، يعطي أهمية للعناصر الرئيسية في اللوحة، وذلك إما عن طريق التغيّر في الحجم واللون، أو وضعها في الصدارة لجذب عين الناظر نحوها<sup>(18)</sup>. وبعد، قد يكون الغرافيتي وكذلك الأعمال التي أُنتجت لمناصرة الثورة، تحوي قدراً من المباشرة التي تنعكس - ربما - سلباً على جماليات العمل الفني، ذلك أن خلق أعمال فنية تعبّر عن الأحداث - المفصلية في تاريخ الشعوب، يحتاج إلى فترات زمنية طويلة من البحث والتحليل والتأمل. وأخيراً، فإنّ دور الفنانين في تلك المرحلة يحتاج في الأساس إلى محاربة الأفكار القديمة الرثّة، ومحاولة تحريك الساكن داخل النظام نفسه، تمهيداً لمرحلة جديدة تستوعب الفنون الملهمّة والمعاصرة لتكون أداة ضمن أدوات التقدّم والتنوير. وما يميّز الغرافيتي أنه «يشهد على حالة انصهارٍ تمّت ما بين المواطن والوطن. تمّت وزالت، كوجهٍ بغم مفتوح لصرخةٍ حفرها الفنان وشعبه في صوت المدينة. تمّت

(18) الواسطي، منمنمات الواسطي، تحقيق: شوقي عبد الحكيم، دار العودة، بيروت، 1978، ص 64.

وزالت وستعود، كسمات شهيدٍ لها رسمٌ يقيها هنا، في وجه المدينة، ولو تحت طبقات الزمن»<sup>(19)</sup>.

وهكذا لا يمكننا إغفال مدى أهمية الجرافيتي في خضم الثورة، ولن تغيب الطاقة الكرنفالية المهيمنة في هذا الفن، هذه الطاقة التي وسّعت مساحات الحوار بين الفنانين والجمهور العادي، كما لن تغيب عنه روح التحدي الكامنة وراء ما يفعله فنانون الجرافيتي، الذين راهنوا على النزول بالفن إلى الشارع، وسعوا إلى تأكيد مقولة «الشارع لنا». هذه الروح تعاظمت أثناء الثورة، فكان النزول إلى الشارع أولى خطوات المواجهة. في هذا السياق، يتغاضى البعض عن الشرط الجمالي في هذه الأعمال الفنية لحساب المضمون والفحوى والهدف السياسي. ويُدرّك الجميع أنّ الفن بات الآن أداة اشتباك مع واقعٍ مُعقد، تبدّل أكثر من مرة بين لحظات اليأس والأمل والرجاء، التي كان يستحيل معها التقاط الأنفاس والتوقف لتأمل ما يجري أو إنجاز عمل بصري ذي مقومات فنية قادرة على القفز فوق تلك اللحظات. لقد اكتفى مثل غيره بالفن لتوثيق اللحظات التي عاشها أيام الثورة، والاشتباك معها على طريقتهم، فنانون الجرافيتي الذين أرادوا فتح المجال لتعامل مُغاير مع الثورة كفعل جمالي.

والجدير بالذكر أن الجرافيتي كما تقول مليحة مسلماني:

«ورغم تميّزه في كل بلدٍ عربيّ بسماتٍ خاصة بثقافة هذا البلد، إلا أنه يحتوي على سماتٍ مشتركةٍ من الممكن ملاحظتها في رسوماتٍ من مختلف البلدان العربية، تلك السمات المشتركة هي: ثقافة المقاومة، والإعلاء من قيمة الاستشهاد، والعدائية تجاه السياسات القمعية للأنظمة، ومناهضة الاحتلال (كما في فلسطين وبلدان عربية أخرى تناهض إسرائيل من خلال الجدران)، والجدل والتعارك عبر شعارات ورسومات الجدران بين الأحزاب والقوى السياسية المختلفة، والاستلهام من الشعر العربي الشعبي، الحديث والقديم، ومن الفن الإسلامي بزخارفه وخطوطه، ومن الإرث الديني المسيحي، وهي سماتٌ تميز الجرافيتي العربي وسط مشهد الجرافيتي

Basma Hamdy & Don Karl, *Walls Of Freedom*, FROM HERE TO FAME PUBLISHING, (19) Marienburger, Germany, 2014.

الغربي والعالمي»<sup>(20)</sup>.

كان الغرافيتي وسيبقى الفن الأكثر فعالية في خضم الثورة، فهو فعل احتجاج يتجدد باستمرار، ويقوم على صدمة جمالية تستوقف الناظر مهما كانت خبرته الجمالية والإنسانية، والغرافيتي في كل المجتمعات وسيلة تعبير بديلة، خارجة عن القانون وعن الثقافة الرسمية والثقافة المكرسة، ثقافة الصالونات والغاليريات والمتاحف والأكاديميات، والدوائر المغلقة، والطبقات المنتشية بيقينها، والنخب المهيمنة الواثقة من سلطتها وامتيازاتها. الغرافيتي ضد السلطة، أي سلطة، وسيطه الجدران، الألوان وبضع كلمات طالعة من الوجود. وسيلة تعبير ديموقراطية متاحة، للجميع وتصل إلى الجميع، بلا إقصاء. تتطلب النزول إلى الشارع، لتحرير الفضاء العام أو إعادة امتلاكه. تفترض تماساً جسدياً ومخاطرة حقيقية، لا يوفرها تماماً الفضاء الافتراضي، وفي هذا السياق كم يبدو عمل من يقومون بهذا الفن شاقاً، ضمن عملية محو الأثر المستمرة التي تقوم بها الأجهزة الأمنية.

### فاصلة وليست خاتمة

في خضم هذا الدمار والخراب، لا يمكننا إلا أن نؤمن بالمستقبل! والفن عموماً، كان وسيبقى أحد جسور الخلاص... في نهاية فيلم «سلفادور الليندي» للتشيلي باتريسيو غوسمان... في نهاية هذا البورتريه لشخص قتل قبل عقود، بعد مقابلات مع أناس عاصروا انقلاب بينوشيه وها هم الآن، آباء عائلات، إخوة فقدوا إخوة لهم، أبناءهم يسمعون عن خال أو عم.... في نهاية كل الوثائق والمقابلات المنجزة، يظهر فجأة شاعر لا نعرفه. رجل من السبعينيات، بشارب كثيف، في صورة تلفزيونية بالأبيض والأسود. رجل في هيئة متواضعة ونبيلة، يؤمن بالكلمات وبأننا يمكن أن نموت من أجل أفكار. رجلٌ لعله مات منذ تلك اللحظة في ذلك الاستديو التلفزيوني في تشيلي، أو في منفى ما. رجل يعرفه أهل بلده لا ريب في ذلك ولا نعرفه نحن. رجل لعل كثيرين يحفظون كلماته. لعل كثيرين شاهدوه على أشرطة الفيديو والـ «سي دي» في منافعهم، أو سراً في وطنهم تحت حكم الجنرال الديكتاتور اللثيم. رجل يقرأ بالإسبانية، بالأبيض

(20) مليحة مسلماني، جرافيتي الثورة المصرية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، القاهرة، 2013.

والأسود، قصيدة.

في قصيدته، نتعرّف - نحن مشاهدي فيلم على كلمة «لامونيدا»، لأنّه اسم قصر الرئيس الشرعي المقصوف، فنطبّق ما تعلمناه فوراً. يقول الشاعر إن الطلقات تخرج من الصدور، وتعود إلى بنادقها. والجنود الذين رأيناهم يطلقون النار يعودون إلى ثكناتهم، وشرفة القصر المنهارة التي رأيناها تسقط تعود إلى الواجهة، والغيوم ترجع إلى البحر. ثم فجأة يخرج الرئيس إلى الشرفة، يتسم ويقول: سنتصر. هذا الفيلم هو أحد الدروس البليغة لمعنى سعادة الفن. ليس أفضل أفلام غوسمان ولا أشهرها. لكن «عادية» بنائه التوثيقي تتصعد في هذا الفعل الفني المتمثل في قصيدة الشاعر التي - بعد دروس المعرفة ومهمة إيصال الحقيقة التي يُنجزها المخرج - تغدو بمعجزة قصيدة للجميع. تغدو قصيدة بالمعنى الكامل والشرعي للكلمة لأنها تعني كل من شاهد الفيلم ويبحث عن الفن، عن جسر الخلاص وعن سعادة الفن الذي يُبشّر بالمستقبل، ولا يمكننا إلا أن نؤمن بالمستقبل.

## قائمة المراجع

- مسلماني، (مليحة). جرافيتي الثورة المصرية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، القاهرة، 2013.
- هاوزر (أرنولد). الفن والمجتمع عبر التاريخ، ج1، ترجمة: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، 1981.
- الواسطي، منمنمات الواسطي، تحقيق: شوقي عبد الحكيم، دار العودة، بيروت، 1978.

## Références

- Elam, keir. *The Semiotics of Theatre and Drama*. London & New York Methum, 1980.
- Alpha Encyclopédie*, tome 8, GRANG ERATELIERE. PARIS: EDITIONS. A, 1974.
- Gron Dahl, Mia. *REVOLUTION GRAFFITI*. New York: The American University in Cairo, 2012.
- Hamdy, Basma & Karl, Don. *Walls Of Freedom, FROM HERE TO FAME PUBLISHING*. Germany: Marienburger , 2014.
- Kisson, Ralf. *Roots Of The Rap*. USA: SK a smith and Kraus Book, 1990.
- Saussure, Ferdinand de. *Cours de Linguistique General*. Paris: Éditions du seuil, 1973.

## مقالات:

- البنّا، (هيفاء). «الغرافيتي... تاريخ من التعبير الحرّ»، جريدة الحياة، عدد 1 تموز 2014.
- الحميد، (محمد). «اغتيال الرجل البخاخ»، جريدة الشرق الأوسط، لندن، عدد الثلاثاء 2 مايو 2012 الموافق 10 جمادى الآخرة 1433هـ.
- غزّاوي، (يوسف). الغرافيتي فن شعبي مُحتج وصوت للمهمشين، جريدة السفير، عدد 6 حزيران 2014.



## الإنترنت:

موقع اتحاد تنسيقيات الثورة السورية

www.syrcu.org : (Syrian Revolution Coordinators Union)

موقع تنسيقية سراقب (جدران سراقب):

<https://diary.thesyriacampaign.org/sarakeb-walls>

# الجسد حامل الثورات وفاعلها

منى فياض

الجامعة اللبنانية

mona.fayadh@gmail.com

## الملخص

في هذه الورقة سنعالج موضوع الجسد كوعاء للثورة وفاعل نشط على الأرض انطلاقاً من «حركته» التي تتجسد في الفضاء وتُحدث التغيير الهائل في وجوده وسيورته هو نفسه وفي العالم الواقعي الذي يحتويه. فالثورة فعل اعتراض غاضب، والحديث عن معارضة يعني وجود حركة أو قوة تتعارض مع قوة أخرى، أي ديناميتان متضادتان ما يفترض وجود مساحة وفضاء وهذا ما يحيلنا بدوره إلى ما هو مادي وواقعي في الممارسة العملية، فالمساحة لها حدود ويمكن السيطرة عليها وهذا ما يسمى بمفاهيم الانتروبولوجية «الحيز المكاني»، أي المساحة المسكونة أو التي ينتظم فيها الجسد. المعارضة تحيل إلى الجسد. فعندما نفكر بجسد، نفكر أنه «جسد فلان» كتمثل لمعنى عام تتشكل بحسبه العواطف والانفعالات كظواهر ذاتية. الجسد مع ذلك غير فردي: فهو يفيض دائماً، إنه طفح بحد ذاته، نتوء متجسد في المكان. وهو لهذا بالذات موضع السلطة بامتياز، يُقمع ويُروض ويُكره ويُرغم؛ يُسجن ويُعتقل ويُعذب ويُقتل. من هنا كان لجوء الأنظمة العربية لاستخدام قوانين الطوارئ لضبط الإنسان العربي، تقيّد وجوده وأمكنة تحركه من ناحية والسماح بتفوّت رجال الشرطة من ناحية أخرى لاستباحة حرّامات الأجساد دون قيود.

الكلمات المفاتيح: ثورة، جسد، بيوبوليتيك؛ وعاء للثورة؛ حركة نسائية؛ تونس؛ مصر؛

سوريا.

## Abstract

### The body as a vessel and an actor of revolutions

Mona Fayad

*This paper deals with the subject of the body as a vessel for the revolution and an active actor on the field, initiating from its «movement» which is embodied in space and causing great transformation in its being, its own progression and to the reality. Revolution is the act of an anger–full protest. The act of protesting implies the existence of two opposing forces or contrasting dynamics within a material and realistic space which manifests in our practical life. A space has its own boundaries and is controllable; it is what the field of anthropology conceptually defines as a spatial domain, i.e. the habitable space where the body systematically functions. Protesting infers an act of the body. The human body, however, is not individualistic: for it overflows constantly beyond its limits. It is emanation by itself, standing by itself and embodied into space. Therefore, it is the source of authority per excellence, liable to be oppressed, harassed, hated, tortured and even killed. As a result, the Arab regimes resorted to an emergency law in order to control the Arab citizen restricting his presence and movement while allowing the police to have the freedom to violate the sacredness of his without any accountability. By using the concept of Biopolitics or bio power in the study, we will try to understand the situation that preceded the Syrian revolution and what became of it; how people were owning, managing or anything to their pure biological existence (the so–called «bare life»), individually and collectively, taking the burning of Bou Azizi's body and Kalid Said'd «dead without assassin» as founder acts.*

**Keywords:** Revolution; body; biopolitics; vessel of the revolution; Tunisia; Egypt; Syria.

## المقدمة

### الفعل المؤسس

انتفضت الشعوب العربية أخيراً ونهضت تطالب باسترجاع كرامتها؛ فيما يبدو أنه بزوغ عهد جديد يخرج فيه المواطن العربي من عصور «الرجل الصغير» بحسب تسمية العالم النفسي ولهلم رايش<sup>(1)</sup>؛ إلى مرحلة جديدة تبشر بأن عهود الاستبداد، الذي نعت بالشرقي كصفة جوهرية وأبدية، هي مجرد مرحلة آيلة إلى السقوط. الرجل الجبان الخائف غير المسؤول الذي يهرب ولا يستطيع النظر إلى نفسه ولا يجرؤ على أن يكون حراً، بل يقبل أن يظل ككلب مضروب؛ هذا الرجل الصغير الذي يجعل من نفسه عبداً وشرطياً على نفسه عرف أخيراً انه وحده المسؤول عن عبوديته. فكان أن انتفض صارخاً حريته، حرية لم يكتسبها إذ لا ضرورة «لاكتساب» الحرية، انها موجودة بشكل عفوي في كل الوظائف الحيوية، ما يقوم به هو» القضاء على جميع الموانع أمام حريته».

أخيراً صار ممكناً أن يتحقق حلمنا بالحرية، الحرية هي التي تجلب الحرية. جعلتنا الأحداث التي انتقلت من تونس مفجرة الثورات إلى مصر ومنها إلى ليبيا واليمن والبحرين وإلى سوريا التي تخضع لأكثر الأنظمة الشمولية تشوهاً والذين لا يزال يتنظروهم الكثير من العنف الأعمى.. أعطى كل ذلك الإشارة إلى أن شرارة التغيير انطلقت، وأن قمع هذه الثورات الآن لن يجدي نفعاً إلا في تأخير التغيير وفي جعله دامياً وعنيفاً. يتأمر المستبدون على أوطانهم ويقدمون التنازلات عن كرامة وحقوق شعوبهم باسم ممانعة كاذبة ويصرخون أمام استفاقة هذه الشعوب: إنها «مؤامرة!! يريدون من الضحية أن تموت تحت أقدامهم مبتسمة! لقد نجح هذا لثلاثين وأربعين عاماً، لكن الآن انتهى عهد العبوديات. التغيير مكلف ومؤلم لكنه آتٍ.

ففي مثل هذه الأنظمة المستبدة لا أهمية لأرواح البشر<sup>(2)</sup> ولا وجود لشيء

Wilhelm Reich, *Écoute, petit homme!* n.c., Payot, 1999. (1)

(2) انظر التحليل الرائع الذي قدمه الباحث ميشال سورا ودفع حياته ثمناً لذلك في بداية الثمانينات في كتابه: Michelle Seurat, *L'Etat de barbari*, Sindbad, 1977 et Seuil, Paris, 1989.

اسمه الرحمة لأنها ضعف، وعلى قول هتلر «القرود يقتلون ضعافهم والبشر ليسوا أفضل من القرود»، هناك الكثير من الضحايا المدنيين؟ فليكن ما أهمية ذلك؟ إنهم مجرد أعداد في سجل الديكتاتور؛ أليس الشعب هو من اختار هذه القيادة؟ عليه أن يتحمل مسؤولية هذا الخيار وتبعاته، كما يقول أحدهم! يأتي الديكتاتور باسم الشعب وباسم تخليصه وتحريره والارتقاء به .. و.. وعندما يفقد الأمل بالتحكم بهذا الشعب بشكل مطلق يفقد صوابه ولا يحسن التصرف أو اختيار الحلول أو السلوك الملائم.. بل يصبح، في تفكيره المشوّه، من واجبه القضاء على هذا الشعب الذي لم يلب أفكاره المختلة! ولم يكن عند حسن متطلباته منه..

اعتادت الأنظمة العربية خلال سنوات طويلة على جماهير ممثلة وتابعة ولا تعرف معنى المحاسبة والمبادرة للإسك بمصيرها وتحمل مسؤولية خياراتها ومستقبلها. جميع الديكتاتوريات دون استثناء أقامت سلطتها على عجز ولا مسؤولية الجماهير النفسية والاجتماعية. إن العجز الفردي هو الذي يولد الجماهير العاجزة. لكن الجماهير العربية استفاقت، شرارة جسد بوعزيزي أشعلت المنطقة بكاملها، وانتشرت عدوى الحرية مثل النار في الهشيم. فالعالم العربي كان مجرد هشيم. الثورة المصرية أطلقت إمكانات مجهولة من أصحابها أنفسهم. الحكام العرب لم يصدقوا بعد أنهم فقدوا مفتاح السيطرة على الشعوب.

لكن الذل والهوان الذي عرفته الشعوب العربية لم يتوقف على الاحتلال الصهيوني بل تحولت الأنظمة الحاكمة نفسها إلى نوع من الاحتلال الوطني في ظل قوانين الطوارئ على مدى عقود طويلة إلى أن وصل إلى حدوده القصوى ولم يعد ممكناً السكوت.

إن استرداد كرامة الوجود الإنساني والتطلع إلى الحرية هو ما يفسر الثورات العربية الراهنة وقلبها للأوضاع رأساً على عقب عبر حركة رمزية قام بها فرد معترض.

### بوعزيزي: أن تشتعل كي تكون

اندلعت الثورات العربية انطلاقةً من جسد قام بحركة مفاجئة. جسد الشاب التونسي بوعزيزي كان مسرحها وموضعها. أضرم النار في نفسه، في جسده. تحوّل هذا الجسد إلى تجسيد للرفض المطلق ورمزاً له. اشتعلت النيران ملتزمة الجسد

والخوف معاً، مفسحة المجال لانبثاق طاقة تجاوزت في تفجرها الرهبة والرعب القديرين. وجدت الثورة لها جسداً. صار للثورة موضع انحفرت فيه هويتها ومآلها. صار لها جسد مقتحم ومشارك بقوة لن تقهر بعد الآن<sup>(3)</sup>.

تندرج هذه الحركة في صميم الوجود الجسدي الذي يمتلك جوانب عدة، خارجية وداخلية. فالجسد يُدرك من صاحبه بتعابير ذاتية وضمن خصوصية تجربته الشخصية ومعانيها ودلالاتها وليس فقط بوظائفه المعروفة التي تترك للعالم بمعنى الخارج.

وإضرار النار في الجسد ليس من العادات الثقافية العربية، هي عادة معروفة في الهند. تقول الأسطورة الهندية انه عندما أشعلت ساتي (زوجة شيفا) النار في غلافها الجسماني فهي قامت بذلك كي تلاقي جسد زوجها.. ومن هنا عادة إضرار الزوجة النار في جسدها في الهند بعد ترمّلها كي تلحق بزوجها فتستعيد وجودها إلى جانبه من أجل حياة جديدة.

في ثقافتنا نعرف طائر الفينيق الذي نشبهه به عند كل حرب جديدة نشعلها بيننا، ونقول إن لبنان ينبعث من تحت الرماد مثل فينيقنا!!

والفينيق طائر أسطوري يتميز بقدرته على الولادة المتجددة بعد ان يحرق نفسه بحرارة الذاتية. وهو يرمز بهذا إلى حلقتي الموت والانبعاث. وهو إذ يعيش طويلاً لكنه غير قادر على التناسل؛ لذا عندما يشعر أن نهايته قد حلت، يهيئ عشاً من أغصان معطّرة ومن بخور ويترك نفسه للاحتراق الذاتي.. ومن رماد هذا الاشتعال، ينبعث فينيقاً جديداً يتوصل لضبط النار أكثر فأكثر عند كل اشتعال.

في الحاليتين، لا يحصل إضرار الجسد للقضاء عليه، بل لكي يتمكن من الانبعاث مرة أخرى، لكي يتجدد.

من هنا وجه القرابة بين فعل بوعزيزي وبين الأسطورة: وصلت الأوضاع في تونس وفي العالم العربي إلى طريق مسدود، إلى «زنقة» مقللة؛ فجاء اشتعال النار في جسد بوعزيزي مؤشراً وإيداناً بانبعاث أزمته أخرى لأجساد جديدة.

(3) نشر مقال صغير من ألف كلمة من هذا الموضوع في 29/5/2011 في مجلة الدوحة بعنوان «تمرد الجسد المهان».

فعلى المستوى الرمزي النار تفني ولكنها تجدد وتبعث. تعطي فرصة للبناء من جديد. يمكن أن تكون إذن وسيلة لامتلاك النفس من جديد، وبإضرار النار فيها نقضي على ما يقضي عليها.. طائر الفينيق يفني نفسه كي لا يفنى. إنها وسيلة للإشهار وللإعلان عن النفس، للحق في الظهور: أنا هنا وموجود!!

ففي هدم الحدود بين الداخل والخارج، يتحول الجلد إلى المتنفس الوحيد لامتلاك لغة. لغة تقول «اللا»، وأن أقول لا يعني أنني أؤكد ذاتي واستقلالي على ما يشير علينا سبيتز<sup>(4)</sup>.

### «خالد سعيد» قتل من دون قاتل: التمثيل بالجسد – الحجة

عندما دخل خالد سعيد إلى مقهى الإنترنت القريب من منزله، في 6 يونيو 2010<sup>(5)</sup>، هاجمه شخصان بملابس مدنية (مخبرين سريين)، أمسك به أحدهما وقيد حركته من الخلف والآخر من الأمام وعندما حاول تخليص نفسه منهما ضرباه حتى الموت. فحالة الطوارئ المفروضة في مصر منذ عام 1981 تعطي الحق لأفراد الأمن التصرف كما يشاؤون مع من يشته بهم.

وكان هذا عقاباً له على نشر مقطع فيديو يظهر قيادات لهم وهم يقاسمون تجاراً للمخدرات حصيلة تجارتهم المحظورة، حسبما تقول أسرته. فيما ردت الشرطة والنظام السابق بكامل أجهزته بأن سعيد ضبط وهو يتعاطى المخدرات، وحاول الفرار من الشرطة، وابتلع لفافة من نبات البانغو المخدر، ما أدى إلى اختناقه ووفاته. وأطلقوا عليه صفة «قتيل البانغو».

وقال الشهود لبعثة تقصي الحقائق إن اثنين من رجال مباحث سيدي جابر أمسكا بالمجنبي عليه وأخذوا يضربانه بشكل هستيري وكأنه انتقام منه لوجود ثأر قديم بينهما وبينه، فقاومهما لأنه لم يعلم من هما، كما أنهما ضرباه بشكل جنوني

(4) René Spitz, *Le non et le oui*, PUF, Paris, 1976.

(5) المعلومات مأخوذة من مصادر صحافية متنوعة تمّ تجميعها في حينها.

ومن: جمال علي زهران، «الاتجاهات المنطقية وعلاقتها بالمركز إبان ثورة 25 يناير في مصر»، في: الثورة المصرية، المركز العربي للأبحاث والدراسات، مجموعة مؤلفين، بيروت، 2012.  
ومن: بهجت قرني، الربيع العربي مصر الثورة وما بعدها، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012، ص 135-136.

بالأيدي والأرجل بطريقة مبرحة، وأضاف أن المجني عليه أخذ يصرخ «من انتما ولماذا تفعلان بي هذا» ولما حاول أن يدير وجهه للخلف قاما برطم وجهه في رخامة على باب المقهى مما تسبب في كسر أسنانه وفكه، وبدأت الدماء تنزف منه بشدة وهو يحاول الخلاص بأي طريقة، فسقط أرضا وقاما بسحله على الأرض جرحاه إلى مدخل البناية المجاورة. وأمسكا بشعره وراحا يضربان رأسه ببوابة البناية الحديدية ويضرباه في وجهه وبطنه. ركلاه بقوة بالغة فسقط على السلم. ثم أمسكا برقبته وشعره وضربا رأسه في السلم، ثم ضربا رأسه في الباب الحديدي، وهو ما أدى لخلع جزئي للباب، ثم ضربا رأسه في سلم المبنى وفي جدران مدخله. وتابع الشهود «كان هناك بالمصادفة اثنان من الأطباء ضمن المتواجدين واللذين حاولا إنعاش قلبه وقياس نبضه ولكن دون جدوى، ورغم ذلك استمرا في الاعتداء عليه بالضرب ليتأكد من قتله»، وأشار الشهود إلى أن خالد أثناء الضرب كان يصرخ ويستغيث «أنا بموت»، فرد عليه أحدهما وقال «أنا مش هاسيبك غير لما تموت»، ثم اقتاداه معهما، وبعد ربع ساعة عادا مجددا وألقيا به على الأرض. وعقب ذلك جاءت مجموعة من المخبرين ومعهم ثلاثة ضباط وطلبوا الإسعاف لحمل الجثة فرفض هؤلاء في البداية حيث أكد الطبيب وفاة خالد، إلا أنهم هددوا سائق السيارة على حمله وأجبروا الموظف المختص على كتابة تقرير أن خالد كان حيا. ثم غسلوه من الدم ووضعوه في كمية كبيرة من الثلج، حيث ظهرت على الجثة آثار تكسير الأسنان والجمجمة وتشوهات بالوجه وتسليخ باليدين والقدمين نتيجة السحل.

العقاب هنا تخطى كل الحدود. قتل الضحية وحده لم يكف. السرعة بالقتل تحفظ حرمة الجسد وحرمة الشخص. كان يتوجب إدامة «فعل القتل» عبر أطالته من أجل التمتع بالتمثيل بالجسد وبسحقه وتعذيبه وتحويله إلى أشلاء من أجل هتك حرمة عبر الانتقام الأعمى.

لم يتم الاكتفاء بذلك المشهد الدامي. تبعه قيام حملة إعلامية لقبته بـ «شهيد البانجو» للنيل من سمعته وإظهاره على إنه من محترفي الإجرام. وتعارض ذلك مع التغطية المحايدة للصحف المستقلة والقنوات الفضائية الخاصة. جعل هذا التناقض أحد الكتاب يقول «كلما قرأت تفاصيل هذا الذي وقع في سيدي جابر، شعرت



بأن هناك شائين يحمل كلاهما اسم خالد محمد سعيد، تواجدا في الإسكندرية في تلك الساعة من يوم 6 يونيو عام 2010 وتُوفياً إلى رحمة الله في نفس اللحظة. هناك «خالدهم» خالد تقارير الحكومة وكتاب الصحف القومية، و«خالدنا» نحن المصريين الذين يملؤون الشوارع ويتمنون أن يتعدوا عن الحكومة وتبتعد الحكومة عنهم»<sup>6</sup>

أثبت تقرير الطب الشرعي الذي طلبته النيابة العامة بعد الوفاة مباشرة وجود كسر في الفك ونزول في عظام الوجه «تحطيم للججمة» إضافة إلي رضوض وكدمات في الوجه وإصابات متعددة بالوجه وبعض أجزاء الجسم، إضافة إلي وجود سقوط الأسنان نتيجة لتلقي ضربات شديدة» لم يحدد نوع الأداة» كما أكد أن الإصابات بجثة الضحية هي إصابات حيوية، أي حدثت قبل الوفاة وليس بعدها. مع ذلك لم يثبت التقرير الأولي للطب الشرعي، بحسب محامي مركز النديم لحقوق الإنسان جميع الإصابات ولم يربط بين الإصابات وبين الوفاة. وظل القتل طلقاء إلى ما بعد قيام ثورة 25 يناير بمدة.

كان هناك جسد قتيل دون اعتراف بفعل القتل أو بوجود قاتل.

ونتيجة لإصرار النظام السابق على تبرئة أفراد الشرطة من جريمة موت سعيد نتيجة التعذيب، انطلقت المئات من الوقفات الاحتجاجية والتظاهرات في شتى أنحاء البلاد لمدة ستة أشهر، إلى أن رضخ النظام السابق إلى الضغوط الشعبية والخارجية الآتية من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، وقدم أفراد الشرطة إلى المحاكمة، إلا أن التظاهرات لم تتوقف، بسبب التباطؤ في المحاكمة، وتعرض أسرة الضحية لمضايقات، لإجبارها على التنازل عن الدعوى القضائية.

وفي 10 يونيو أسس وائل غنيم صفحة «كلنا خالد سعيد» على الفيسبوك<sup>(6)</sup>، وكان هذا تمهيداً وإيداناً باندلاع ثورة 25 يناير التي لا تزال مفاعيلها مستمرة.

### بروز الجسد المعارض

الحديث عن معارضة يعني وجود حركة ما ضدية أو قوة تتعارض مع قوة أخرى، أي ديناميتان متقابلتان ما يفترض وجود مساحة وفضاء وهذا ما يحيلنا بدوره

(6) نرمين سيد، «الإعلام الجديد وفرص التحول الديمقراطي» في: الثورة المصرية، مرجع سابق.

إلى ما هو مادي وواقعي في الممارسة العملية. فالمساحة لها حدود ويمكن السيطرة عليها وهذا ما يسمى بمفاهيم الانتروبولوجيا الحيز المكاني، أي المساحة المسكونة أو التي ينتظم فيها الجسد. المعارضة تحيل إذناً إلى الجسد، لضرورة وجود قوة دافعة مضادة لقوة أخرى ما أو لسلطة.

الجسد أحد مفاتيح الخروج على الفردانية؛ بالرغم من أنه غالباً ما يتم الربط بين الجسد والفرد. فالجسد يعين الفرد ويجعله فريداً. وعندما نفكر بجسد، نفكر أنه «جسد فلان» كتمثل لمعنى عام تتشكل بحسبه العواطف والانفعالات كظواهر ذاتية، غير قابلة للالتقاط تنبثق عن حميمية القلب التي يتعذر علينا سبرها. الجسد مع ذلك غير فردي: فهو يفيض دائماً، إنه طفح بحد ذاته، نتوء متجسد في المكان. وهو لهذا بالذات موضع السلطة بامتياز، يُقمع ويروّض ويكره ويُرغم؛ يسجن ويعتقل ويعذب ويقتل.

حركة بوعزيزي بدأت كحركة لجسد مفرد له حكايته الخاصة والفردية، له تاريخه الشخصي؛ لكنها سرعان ما تخطت نفسها وتاريخها الخاص لكي تصبح رمزاً لحكاية جسد الثورة نفسها. تحولت حركة مدفوعة من تاريخنا السحيق الممتد، المظلم والمحنط والمتجمد، مطيحة به ومحركة له في نفس الوقت.

تحدث الثورة في الواقع وفي سياق العالم المادي وهي تفود إلى التغيير الملموس والمحسوس له فتحتل الأمكنة والساحات والميادين لتطالها جميعها. وفي كل مرة يتكثف فيها الصراع ويصبح ممكناً انتزاع نصر مهما كان صغيراً فهو يحصل فيزيائياً: يلزمه أجساد للدفاع عن حاجز أو سياج أو ميدان. يلزمه القوة السياسية المرتكزة دائماً على قوة مادية وجسدية. والقمع السياسي أيضاً يحتاج إلى أجساد تتلقاه وتخضع له.

الجسد مبعث الثورة وسببها ومجسدها، فالثورة تحتاج إلى الحنجرة لتطلق الكلام والهتاف وإلى الذراع لترتفع عالياً في الهواء وإلى القبضات لتلوح والأصابع لترسم الشارات وإلى نظرات الغضب لكي تنزل كالصاعقة على الخصم وإلى الساقين والذارعين لكي تحمل الثورة وتنقلها وتحميها وتدافع عنها.. تحتاج الجسد منبع الحركة.

صادرت الشرطة بضاعة بوعزيزي من الخضار، استعادها؛ عادت فصادرتها؛

اعترض، صفعته الشرطية، رفض رئيس بلدية بوخضرة في ولاية تبسة استقباله وكان قد رفض تشغيله. هدد بحرق نفسه. «أحرق نفسك» قيل له. فأحرقها نفسه تلك.

جسد بوعزيزي فتح الهوة التي ستبتلع الظلم والقمع والذل وامتهان الكرامة. حركة بسيطة، جسد يحترق ويتحوّل العالم، ينقلب رأساً على عقب، تقلّب الأجساد الغاضبة والثائرة. صار للتغيير جسد وصوت، خرجت الثورة من جسد مفرد غاضب ويائس ورافض فاجتاحت الساحات وانفلشت على امتداد العالم العربي لتجد لها مسرحاً وملعباً.

الحياة العارية اكتست جسداً رافضاً مقاوماً.

الجسد المحترق تسبب في تغيير مستقبل الأوطان العربية؛ تحولت ناره كرة ثلج تدرجت من بوخضرة إلى تونس العاصمة متسببة بثورة الياسمين التي جرفت أجسادها الثائرة النظام التونسي متخطية الحدود حيث حطت في ميدان التحرير لتندلق ثورة اللوتس، بحسب تسمية سعد الدين إبراهيم، التي كانت تتحضر وتنتظر اللحظة المناسبة منذ أن سُحل جسد خالد سعيد. وهي لا تزال تتدحرج. تتعثر في سوريا حيث تأبدت حالة الاستثناء، وحيث شعار النظام: نقتلكم أو نحكمكم... لكنها ستستمر.

### تمرد الجسد المهان وثورته

في الحقيقة لطالما تساءلت، كيف للمصريين، أصحاب إحدى أكثر الحضارات عراقية وإدهاشاً القبول بعيش الذل والهوان والفساد؟ حتى الدماثة والल्पف والتهذيب والتسامح، الصفات التي يتمتع بها المصريون، تحولت مرادفاً للاستكانة والقهر والسلبية، ليس فقط بسبب رؤيتنا لهم كذلك، بل للسبب الجوهرى أنهم صاروا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مغلوبين على أمرهم ومهانين في كرامتهم ولا أمل لهم في الخروج من تلك الدائرة الجهنمية التي غرقوا فيها. وانسحب هذا الشعور بالمهانة على العرب جميعاً بسبب من مكانة مصر وأهميتها وبسبب تشابه الأنظمة العربية.

عرفنا في لبنان هذا الشعور بانتقاص الكرامة جيداً لذا قامت انتفاضة 14 آذار

2005. لكن بعد نجاح ثورة تونس، انكسر حاجز الخوف عند المواطن العربي إلى الأبد. واندھش العالم. حقق انبعاث ثورة شباب مصر أنجح جراحة تجميلية يمكن أن يخضع لها جسد. فجأة انقلبت صورة الجسد العربي، اختفت صورة جسد الكلب المضروب، فانتصب الجسد الجديد شامخاً معتداً يملأ الشاشات وتحولت اللفحة التي استخدمها الثوار ضد قنابل الغاز من رمز للحجاب الذي يختلط في نظر الغربيين بالإرهاب إلى شعار لمقاومة العبودية ولاستعادة الحرية والكرامة. وغطت صور الأجساد الرشيقة الفتية الثائرة الشاشات كإعلان عن أول ثورة مسالمة ومبدعة للفن في التاريخ. أول ثورة متحضرة، يحرص القائمون بها على تنظيف ميدان ثورتهم.

واكتست الأجساد بالألوان واكتسبت حرية حركة وطاقة تعبيرية هائلة وحملت الأيدي الشعارات المعبرة عن الأفكار السياسية وعن النكتة المهضومة عميقة المعنى وتحولت ألوان العلم المصري موضحة وبدأت الكاميرا تبحث عن أجساد الثورة في تنوعها فأظهرت صورة المنقبة الوحيدة حينها وخاف البعض: إنهم الإسلاميون!! لكن عاكستها صورة الفتاة ذات الشعر الأحمر الأقرب إلى الهيبي لكي تطمئن الخائفين واستعرضت فتاة حقيبة الفيتون إلى جانب المسلمات العاديات والمودرن والمحافظات والشباب بالأحذية الرياضية والشعارات والنكات والمجلات والرسوم ووو.. عالم جديد وأجساد شابة حرة.

في 25 يناير انبثق جسد الكرامة والعنفوان. في اتصال مع ابني الشاب الذي كان يدرس في كندا؛ وصف لي أن المصري تغيرت هيئته ومشيته وأنه صار معتداً بنفسه وفخوراً بانتمائه؛ وليس هذا فقط بل صار الكنديون ينظرون إليه بطريقة مختلفة، بإعجاب.

وبتغير جسد الشباب المصري، تغير سلوكهم. وصارت هيئتهم ومظهرهم فجأة مصدر إلهام للعالم، ونموذجاً للشباب العصري وصار على الآخرين تقليده وحتى الغربيين بينهم الذين طالما قلدناهم.

الثورات تجمل الأجساد. الثورات تشفي الروح وتعالجها، كتب أحد المتظاهرين في ميدان التحرير: «انتصار الثورة هو حل لجميع المشاكل النفسية للشعب المصري»، وكتب آخر أيضاً: «ثوروا تصحوا»، وصرحت صبية «حاسين

مصر بقت بتاعتنا»، استعاد الجسد قلبه الذي كان خارجه.

### الاحتجاج بتعرية الجسد

في ظل هذه الأوضاع برزت حركة اعتراض نسائية مستخدمة تعرية الجسد بدأت في مصر وانتقلت إلى تونس وإلى المغرب مؤخراً. فعلى غرار حركات الرفض الغربية التي تعبر عن معارضتها أو دفاعها عن حقوق المرأة أو غيرها عبر تعرية الجسد وكشفه في تظاهرة ما، وأبرزها حركة فيمين الأوكرائية التي تعتمد أسلوب تعرية الصدر للاعتراض، والتي أسست في العام 2008 ومركزها في كييف<sup>(7)</sup>، قامت علياء المهدي المصرية بنشر صور عارية لها تعبيراً عن رفضها لحكم الإخوان في مصر على الفيسبوك. وتشير موسوعة ويكيبيديا أنها نشرت صورتها لأول مرة في مدونة أسمتها «مذكرات نائرة» تحت عنوان «فن عاري» في 23 أكتوبر 2011 وتظهر فيها كذلك صورة عارية لمن يعتقد أنه صديقها وأخرى لمجهولين بالإضافة إلى صور عارية من رسم فنانين مصريين؛ غير أن الصورة لم تشهد اهتماماً واسعاً حتى ظهور فيديو على اليوتيوب في 15 نوفمبر تظهر فيه صور مدونتها مع شعار لحركة 6 أبريل، غير أن كلا من الحركة وعلياء نفيا انتمائها لها.

وفي ديسمبر 2012 تعرّت علياء المهدي وناشطات ينتمين إلى منظمة «فيمين»، أمام السفارة المصرية في السويد رفضاً للدستور المصري الجديد وقد كتبت علياء على جسدها العاري عبارة «الشرعية ليست دستوراً» ورفعت علم مصر. وأثارت صورها جدلاً واسعاً بين من أيدها واعتبرها ثورة على الواقع وبين من رأوا في ذلك خروجاً على الواقع. ولقد تمت متابعة أخبارها في العالم العربي بشكل محموم فبلغ زوار صفحتها 882 ألف زائر في يومين بحسب الويكيبيديا<sup>(8)</sup>.

هذا وتم تقديم العديد من البلاغات للنيابة العامة في مصر للتحقيق في اتهام علياء وصديقها المدون كريم عامر بخدش حياء المجتمع المصري ونشر الرذيلة فيه بالإضافة لازدراء الأديان، الأمر الذي يُخالف - وفقاً لمُقدمي الاتهامات- نصوص

(7) لمراجعة وتعريف سريعين لحركة «فيمين» انظر: «نهود متمردة»، الكفاح العربي، (2014) 4148 آذار، ص ص 51-48.

(8) انظر علياء مهدي على الغوغل تجد مدونتها وأخبارها.

مواد قانون العقوبات المصري، وطالب البعض بتطبيق الحد الشرعي عليهما ليكونا عبرة لغيرهما. وأعربت بعض الإسرائيليات عن تضامنهن مع علياء المهدي<sup>(9)</sup>.

كما أن علياء تعرضت خلال مشاركتها لاعتصام الثوار في ميدان التحرير ليلة الخميس في 24 نوفمبر 2011، للاعتداء عليها بالضرب وطردها من الميدان، وأظهر تسجيل فيديو تم تداوله عبر موقع الفاييسوك عدداً من الموجودين في الميدان وهم يدفعون بها خارج المكان فيما حاول آخرون التهدة ومنع استخدام القوة المفرطة ضدها.

وتشير بعض المواقع الإلكترونية إلى حصول علياء المهدي على منحة دراسية وجواز سفر سويدي في مطلع العام 2012<sup>(10)</sup>. كما راجت مؤخراً أنباء عن مقتلها لكنها أخبار غير مؤكدة.

وعلى خطى علياء المهدي قامت وفي شتاء 2013 التونسية أمينة تايلر بنشر صورها عارية على صفحتها على الفاييسوك مع شعار كتبتة على جسدها: جسدي ملكي وليس شرف أحد. ودافعت عن تحركها قائلة إنها رأت أن حركة فيمين التحرك الراديكالي الوحيد في العالم للدفاع عن المرأة. واعتبرت أن التعري هو أفضل طريقة لإيصال رسائل تعبر عن مدى تعاسة وضعية المرأة في العالم العربي. هذا وبدأت مجموعة من الناشطات من حركة فيمن حملة واسعة لتعرية أجسادهن تضامناً مع أمينة التونسية والتي اختفت في ظروف غامضة بعد قليل من تلقيها تهديدات من جانب بعض الإسلاميين في تونس<sup>(11)</sup>.

هذا كله يظل ضمن دوائر السواء أو المقبول. عكس ما حصل ويحصل في سوريا.

### البيبوليتيك أو الحياة العارية: خصوصية الوضع السوري

الثورة المصرية ومآلها مختلفة بشدة عما حصل ويحصل في سوريا. يبدو المسار السوري مختلف نوعياً عن مسارات الثورات العربية في البلدان الأخرى.

(9) 23.11.2011 | jspace.com. عن روسيا اليوم: <http://arabic.rt.com/news/572389/>

(10) عزيز خليل، العراق نت في 20/2/21 انظر العراق.

(11) انظر صور «حملة نسائية تضامناً مع المتعربة التونسية»، في الحياة نيوز 23/3/2013.

فمن سوء حظهم أن نظام الأسد استفاد من دروس تلك الثورات. وإذا كان تأثير الثورة في مصر لعب دوراً في تحرير وتجميل «الجسد الثائر»؛ نجد أن الوضع في سوريا طغا عليه الجانب المظلم كامتداد لما يسود في تلك البلاد منذ أربعين عاماً من استغلال وإهانة وظلم وقمع وسجن وتمثيل وقتل وتعذيب.

وأكثر ما يبرز الفرق بين الوضعين كتاب «جرافيتي الثورة المصرية»<sup>(12)</sup>، وهو ينقل مختلف أنواع الكتابات والصور والرسوم والجداريات وكل أشكال التعبير التي ملأت الحيطان إبان ثورة 25 يناير في القاهرة. هذه الشعارات والكتابات التي خُطت على الجدران جسدها أيدي وأصابع فنانة قامت برسم الوجوه، وجوه كثيرة، وجوه متعددة ومتنوعة، مختلفة ومتشابهة؛ وأجساد، أجساد متواترة، جامدة أو متحركة، واقفة أو مستلقية أو راقصة وفي وضعياتها الراضية والمناضلة أو المتأهبة مع وجوه من استشهدوا التي تقطع مشاهد الأجساد الحية لتذكرنا ان للحرية والكرامة ثمن.. يتطول الجسد والشخص كي تبقى الأوطان ولكنه يعزز النفس ويطهرها.

أما في سوريا فلقد بلغت الممارسات العنيفة التي طاولت البشر والحجر مبلغاً غير مسبوق في العالم إن لجهة أنواع التنكيل والتعذيب أو لجهة الحجم أو الامتداد الزمني. خاصة وان ذلك يجري تحت أنظار العالم كافة وعبر النقل المباشر؛ الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل.

كيف يمكن أن تحصل هذه الممارسات؟ وما هي خلفيتها؟

### قوانين الطوارئ وحالة الاستثناء

تضبط قوانين الطوارئ في العالم العربي الإنسان العربي عبر تحويله إلى جسد مضبوط مقيّد الوجود عبر تحديد مواقيته وأمكانته وكيفية تحركه وتعطي الجهاز الحاكم وسلطته البوليسية القدرة على القيام بأعمال غير خاضعة للقانون العام حتى في الأحوال العادية وهو ما سمح لرجلي البوليس السريين بقتل خالد سعيد بدم بارد دون خوف من مساءلة أو من عقاب.

(12) مليحة مسلماني، جرافيتي الثورة المصرية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013. وهو عبارة عن تجميع وتبويب ملصقات وصور وشعارات انتشرت خلال وبعد الثورة المصرية.

مع ذلك يظل هناك حدود واضحة في هذه الحالة يضبطها مبدئياً القانون ومن هنا لاحظنا إمكانية تحرك جمعيات المجتمع المدني وحقوق الإنسان عندما قتل خالد سعيد. بينما توجد حالة ثانية، كما في ليبيا القذافي أو كما في سوريا الأسد، يطلق عليها حالة الاستثناء الممتدة من دون حدود ولا ضوابط. حيث الآلاف من سجناء الرأي المعرضين للتعذيب والتنكيل ولمختلف الانتهاكات الممكنة تصوّرنا دون أن تتم مجرد الإشارة إلى وجودهم. فحين تعلق القوانين وتستباح حقوق المواطنين؛ يصبح الدستور والمؤسسات غطاء لسوء استخدام السلطة بدل أن يكون لحماية المجتمع.

من هنا يمكن التمييز بين حالتين: حالة الطوارئ التي ينص عليها القانون والدستور وحالة الاستثناء<sup>(13)</sup> ما قبل القانونية والتي يستفرد فيها الحاكم بالمجتمع ككل كما هي حالتي ليبيا وسوريا. يصبح توصيف الوضع المعاش في مثل هذه الدول وفي ظل بعض قوانين الطوارئ هو العيش في حالة ما قبل قانونية، حالة استباحة إرادة الحاكم التامة للمجتمع دون أي حرمة. إنها الخضوع لتسلط الحاكم الفرد المطلق حيث لا ضابط ولا قانون يخضع له سوى إرادته. وما أسهل ما تكون هذه الإرادة عبثية.

يصاغ الدستور في مثل هذه الحالات لكي يحقق الغلبة المطلقة لحالة الاستثناء ولسلطات الحاكم على الدستور. وبدل أن يشكل الدستور المنطلق والأساس للحكم، يجري مسخه إلى جملة قواعد يستخدمها الحاكم كأداة سيطرة وتكتيك سلطة لفرض الانصياع على الجموع<sup>(14)</sup>. يعامل الأفراد في ظل هذه الحالة على أنهم كائنات مستباحة بلا كيان ولا حرمة قانونية. مجرد أجساد بيولوجية.

هنا تبرز أهمية مفهوم البيوبوليتيك الذي أوجده فوكو<sup>(15)</sup> أو من قاموا بقراءته وأهمية عمل أغامبن على هذه المسألة. تعبير البيوبوليتيك موجود منذ بدايات القرن العشرين، لكنه اتخذ مع فوكو<sup>(16)</sup> معناه المفهومي الدقيق: فاعتنى بتحديد مجاله التطبيقي خاصة

(13) حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، تحرير مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2010.

Caroline Donati, *L'exception Syrienne*, la découverte, Paris, 2009. (14)

Michel Foucault, «La naissance de la médecine sociale», in *Dits et écrits*, t. 2, Paris, Gallimard, 2001, p. 207–228. (15)

*Methodos*, Issues 4, 2004. Katia Genel, «Le biopouvoir chez Foucault et Agamben», in (16)



في كتابه «إرادة المعرفة»، وهكذا تحققت هوية البيوبوليتيك نفسها، البيوسلطة صارت امتلاكاً أو إدارة أو الإمساك بكل ما له علاقة بالوجود البيولوجي للفرد وللسكان، منفردين وجماعات. وهذا ما تحقق بشكل تام في المجتمع الرقابي - الانضباطي في القرن التاسع عشر ولذا تركز عمل فوكو حول الجنون والسجن والصحة والسلطة الرعوية وتطور الخطاب بصلته بالممارسات الاجتماعية. وبما أن ممارسة الحجر هو القاعدة، لذا قام فوكو بدراسة: المدرسة، المصنع، المستشفى والثكنة<sup>(17)</sup>.

يقدم أغامبن جينولوجيا لمفهوم الحياة ولاستخداماتها السياسية من حيث توقّف فوكو، وسوف يستخرج مفهوم الحياة العارية، الحياة البيولوجية التي سوف يقوم بتحليلها كتنتاج لبنية ميتافيزيقية وسياسية محددة.

تتأسس المهمة النظرية لأغامبن على رهان: انه يمكن للنظرية السياسية أن تلتقط شيئاً من التجارب التوتاليتارية للقرن العشرين بواسطة مفهوم الحياة وفي سؤال تعريفها، وخاصة في الإنتاج السياسي للحياة العارية. وهكذا استخرج الكاتب وجود «بنية للاستثناء»: الحياة العارية<sup>(18)</sup>.

توصل أغامبن إلى اكتشاف بنية الاستثناء هذه عن طريق مساءلة التجارب البيوسياسية للرايخ الثالث خاصة في معتقلات التعذيب: كيف توصلت الحياة لأن تصبح موضوعاً للسياسة؟ كانت بقايا أوشفيتز المتاحة هي الطريق المفضي الذي سمح له بمقاربة هذا الموضوع الثقيل. ما هي العلاقة بين السياسة والحياة إذا كان بالإمكان نزع كل قيمة عنها بواسطة قرارات سياسية؟ تنزع القيمة عن الحياة بالتحديد بسبب القيمة التي تمتلكها أو أسبغت عليها بالدرجة الأولى.

طبق الحكام في العالم العربي القواعد الذهبية للإخضاع على الجسد البيوبوليتيكي العربي، عبر اعتماد أقصى درجات القمع والتعذيب والسجن والنفي. وفي نقد الفلاسفة الغربيين لمجتمعاتهم نجدهم يركزون على امتداد السيطرة عبر الرأسمالية، ليس فقط

KLESIS- Pietro Montani, «Esthétique et an-esthétique du biopouvoir», in *La biopolitique*, (17) En collaboration avec L'Université de SALERNE. No. 8, KAHZIZ, Revue Philosophique, 2008.

Giorgio Agamben, *Homo sacer I. Le pouvoir souverain et la vie nue*, traduit par Marilène (18) Raiola, Paris, Le Seuil, 1997.

على الجسد بل على الذات وعلى الذهن، جاعلة الإنسان من دون قيمة<sup>(19)</sup>.

والأنظمة العربية المتخلفة على جميع الصعد خاصة على الصعيد التنموي والاقتصادي، كانت سريعة في استخدام أكثر آليات القمع تطوراً، وأكثر ما تمثل ذلك في آليات الإذلال والتحقيق التي استخدمتها الأنظمة العربية تجاه شعوبها طوال سنوات وأكثر ما «أبدع» في ذلك نظام البعث في سوريا والعراق والنظام الليبي غير قابل التوصيف. وهذا ما تمت الإشارة إليه منذ اليوم الأول للثورات عبر شعار «الشعب يريد» و«الشعب يريد الحرية والكرامة»، وفي سوريا: «الشعب السوري ما بينذل، الشعب السوري ما بينهان».

قامت ليزا وايدن في كتابها «السيطرة الغامضة»<sup>(20)</sup> بإظهار آليات السيطرة التي استخدمها نظام الأسد من خلال العروض والخطاب البلاغي والشعارات الرسمية وغيرها من الأساليب.

هذا الشعور العميق بالخضوع للسيطرة عبر الإذلال والإهانة الجسديين والنفسيين يكفي وحده لتفسير الثورات التي قامت على رفض ذل ابتلاع الإهانات في مجمل جوانب الحياة اليومية من دون أي قدرة على الرد، الإهانة من قبل شبيحة النظام الشمولي، الإهانة عبر تلقي وجبات الكذب والبروباغندا اليومية على التلفزيون وفي الصحف والتظاهر بتصديقها، إظهار الاحترام لمن نحتقر بل الاضطرار إلى مديحه أيضاً، الإحساس المطلق بالعجز<sup>(21)</sup>... لقد أهينت الشعوب العربية طويلاً.

### حيوات عارية: بقاء النظام مقابل بقاء البلد، نقتلكم أو نحكمكم

إن ما آلت إليه الثورة السورية التي انطلقت سلمية لشهور ومع ذلك جوبهت منذ البداية بالعنف. لكن خطة المواجهة كانت في منتهى الخبث، حيث تدرج استخدام العنف عبر ضربات تجريبية متصاعدة كتمارين بطيئة لرصد رد الفعل الدولي الذي ترك الحبل للنظام على غاربه ولم يبد ردود الفعل المتناسبة مع الأفعال ما أتاح له

Philippe Nantes, **Pourquoi étudier la notion de biopolitique**, le 22 juillet 2010 (19)  
<http://nantes.indymedia.org/article/21641>

(20) ليزا وايدن، السيطرة الغامضة، بيروت، دار رياض الريس، 2001.

(21) كارستن ويلاند، سورية، الاقتراع أم الرصاص؟، بيروت، دار الريس، 2011.

التوصل إلى استخدام أسلحة دمار شامل ضد سكان مدنيين عزّل. وهذا هو البرهان على أن البشر في مثل هذه الأنظمة التي تعيش على حالة الاستثناء ليسوا سوى أجساد وحيوات عارية تقتل وتسحق وتدمر مثل المتاع فاقد القيمة. ينقل عن أن لسان حال هذا النظام هي: استلمنا سوريا بثمانية ملايين شخص وسنعيدها كما كانت.

في هذا الإطار يكتسب مفهوم الحياة العارية لنظرية البيوبوليتيك كل معناه. نقلت الصحف أن شبيحة الأسد ملأوا جدران أطراف غوطة دمشق المحاصرة بعبارات: «الجوع أو الركوع»<sup>(22)</sup>. ومع استمرار محاصرة مخيم اليرموك للفلسطينيين والغوطة صار الشعار «الاستسلام أو الموت جوعاً»، ما أرغم المراجع الدينية على الإفتاء بتناول طعام الققط والكلاب والحمير<sup>(23)</sup>. هذا ومنذ بداية الثورة كان الشعار «الأسد أو نحرقت البلد»<sup>(24)</sup> الذي كتبه جنود النظام وأتباعه منذ الأسابيع الأولى للثورة، وترجم على أرض الواقع على مدى عامين ونصف من القتل المنظم والتدمير والتهجير.

إلا أن ممارسة القتل تجويعاً الأخيرة تفوق كل التوقعات وترجم حريفاً سياسة الأنظمة المشابهة التي تعتبر أن أجساد وحيوات البشر هي ممتلكات خاصة يمكن التصرف بها، إنها حيوات عارية وخاضعة لإمرة الحاكم – الإله<sup>(25)</sup>.

### التنكيل بالجسد العاري

أصبح الجسد موضوع تنكيل وتشويه واغتصاب: «أقف مشدوها غير قادر علي انتقاء تعبيرات مناسبة أصف بها حجم الكراهية المتفشية في أوصال الجسد المصري والمعبّرة عن نفسها بقوة على مدى أسبوع كامل بفيديوهات قتل وحشي وسحل وتمزيق أجساد وانتهاك حرّات»، بهذه الكلمات طالعنا مقالة الكاتب نادر

(22) انظر ميشال كيلو، «القتل تجويعاً»، الحياة، 16 أكتوبر، 2013. وبالنسبة للبلدان الأخرى أيضاً: اغتصاب نساء ليبيا» فيلوموند فرنسا 15 ت/2 نوفمبر 2013.

(23) انظر محمود سرحان، «اليرموك يفتي بأكل الققط... وآلاف المدنيين قد يصبحون ضحايا الصمت»، الحياة اللندنية، 20 أكتوبر 2013.

(24) محمد منصور، «الأسد أو نحرقت البلد»: الجوع أو الركوع! ورينت نت، عن هدهد، 6/10/2013.

(25) ولقد شاهدنا عدداً من أفلام الفيديو في بداية الثورة تظهر جنوداً نظاميين يطلبون من رجال مدنيين أخضعوا للتعذيب راكعين ويطلب منهم تكرار جمل تفيدي بأن إلههم هو بشار.

بكار في الأهرام<sup>(26)</sup>.

إذا كان هذا الوصف يطال الوضع المصري حيث الضحايا مهما ارتفعت أرقامها تظل بالمئات أو الآلاف التي لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

فماذا نقول عما يحصل في سوريا إذن؟ حيث يتم انتهاك حرمة الأجساد ويدجن العنف والموت ويتحول منظر الجثث المكدسة والمنكل بها إلى روتين يكاد يصبح مضجراً لشدة تكراره يومياً وعلى امتداد ساعات النهار المتتالية. تنقل لنا الصحافية بيسان الشيخ كيف أعادها إعدام بائع القهوة الحلبي محمد قطاع إلى ما سمعته من زميل لها صحافي إيراني عن طفولته في طهران غداة الثورة «حين كانت الإعدامات تتم في الساحات العامة ووسط الشوارع ولا تستثني الأطفال والنساء. كانت الجثث تُعلّق على الأشجار أو أعمدة الكهرباء وتترك ليومين أو ثلاثة، فيعبر المارة من تحتها إلى بيوتهم وأعمالهم كأنها جزء من المشهد العام. ويروي ابن طهران ذلك كيف كان هو وأطفال حيّه يهبطون صباحاً من منازلهم قبل وصول حافلة المدرسة ليلهوا بالجثث ويقذفوها بالأقلام والحقائب، ثم يتحرّقون شوقاً لدى عودتهم بعد الظهر لمعرفة إن أزيلت أم لا، فيتسنى لهم مزيداً من ذلك اللعب الشيطاني»<sup>(27)</sup>.

## أرشيف الدم

إن شيوع وسائط الاتصال الحديثة والهواتف الذكية جعل ممكناً تسجيل الفظائع الممارسة وتحويلها إلى بث مباشر وغب الطلب للحم الحيّ المدمى والمقطّع والمشوّه.

فما يحصل في الثورة السورية من عرض قباحت العنف الوحشي وغير الإنساني بأكمل صورة توصلت إليها ممارسته على الكرة الأرضية. إنه عرض للقتل اليومي الوقح المفتقد لأي احتشام. قديماً كنا نتخيل ممارسات العنف بعد أن نسمع عنها أو نشاهد بعض لقطاتها أو صورها. اليوم صارت هذه الممارسات تعرض أمامنا وتدخل منازلنا من على الشاشات حيث يتم التفنن في تخيل مشاهد

(26) نادر بكار، «ثقافة الكراهية»، الأهرام، 8/7/2013.

(27) بيسان الشيخ، «تدجين العنف.. إعدام طفل»، الحياة في 15/6/2013.

وتنفيذها كي تكون أكبر تأثيراً أو تخويفاً وترهيباً. كما جعل هذا النقل المباشر منا، المشاهدين، ومن الجلاد ومن الضحية شركاء في الجريمة. وهذه الشراكة تعمن في تفكيك النسيج الاجتماعي وفي تفتت الروابط الإنسانية وتفلت الغرائز وطغيانها ووحشيتها.

ما يحصل جعل الصحافية لميس فرحات تعنون مقالة لها «السوريون يتبادلون لقطات جرائم قتل غير إنسانية وكأنها بطاقات معايدة»<sup>(28)</sup>.

يكتب عبد الباري عطوان واصفاً بعض هذا العنف على مسرح الجسد الإنساني: «تفاصيل المشهد السوري التي تنقلها الوكالات الأجنبية إلى العالم بأسره تقدمنا، كعرب ومسلمين، جزارين قساة القلوب، لا نعرف الرحمة، ولا نمت إلى الإنسانية بصلة، وكل همنا هو الذبح وسفك الدماء... جنود سوريون يطعنون رجلاً ببطء في ظهره عشرات الطعنات حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويقدم زعيم معارض على قتل جندي، وتقطيع جثته، وانتزاع قلبه ويقضمه أمام الكاميرا، ويقدم فتى لا يتجاوز العاشرة من عمره على جزر رأس سجين، بينما يقوم جندي بقطع العضو التناسلي لجثة رجل مذبوح»<sup>(29)</sup>.

### التنكيل الجنسي بالنساء

لطالما كان التعذيب والتنكيل ممارسين في العالم أجمع، لكن ذلك كله كان يتم بعيداً عن الأنظار وفي حقب غابرة وصار الآن ممجوجاً ومرفوضاً ومداناً. لكن بلادنا ما زالت تزخر بالعنف على أنواعه، فعدا الاقتتال والحروب المتنقلة بين مكونات مجتمعاتنا المتعددة وعدا ظواهر الإرهاب والقتل العشوائي وتفجير الكنائس والمساجد الذي طالنا وطال العراق ومصر والجزائر واليمن، كان هناك الانتحار والعنف المنزلي الذي يشمل الطفل والمرأة يضاف إلى ذلك كله العدائية في جميع أنواع السلوك. مارست الأنظمة جميع أنواع التنكيل والتعذيب طوال عقود طويلة وحولت الشعوب العربية إلى ضحايا عاجزة ومريضة محوّة الشخصية

(28) لميس فرحات، «السوريون يتبادلون لقطات جرائم قتل غير إنسانية وكأنها بطاقات معايدة»، إيلاف، 14/5/2013.

(29) عبد الباري عطوان، «التمثيل بالجنث»، القدس العربي، 16/5/2013.

أجسادها «ميتة - حية»، أجساد عبيد.

عرضت جريدة الحياة ملفاً كاملاً عن موضوع العنف والتحرش الممارسين في كل من تونس والجزائر واليمن والعراق<sup>(30)</sup>. إذن التنكيل بالجسد الأنثوي والتحرش بالنساء ظاهرة معتادة في العالم العربي ولطالما استخدم جسد المرأة للثأر من معسكر الأعداء الذين تنتمي إليهم هذه المرأة. ولقد أشار علاء الأسواني، من بين عديدين غيره، إلى التنكيل والتحرش الجنسي تجاه النساء قبل الثورات وبعدها في إحدى مقالاته: «إن التحرش الجنسي المنظم الذي ارتكبه نظام مبارك ضد المتظاهرات هو ذاته التحرش الذي تعرضت له المتظاهرات تحت حكم «الإخوان»، وهو يتطابق في المضمون مع جرائم المجلس العسكري في سحل البنات وتعريتهن وهتك أعراضهن بكشوف العذرية. الفاشية الدينية مثل الفاشية العسكرية في عدائها للمرأة وذعرها من فكرة تحررها»<sup>(31)</sup>.

### الجنس كسلاح والاعتصاب كسياسة

لكن في سوريا لم يقتصر التنكيل الجنسي على النساء بل تحول سياسة للنظام تطال الأولاد والرجال والنساء. وتكتب الصحافية نادين العلي «بات العنف الجنسي سياسة منهجية يتبناها نظام بشار الأسد. ويُقال إن رجاله يعتدون جنسياً على نساء ورجال المعارضة، مدمرين العائلات وحياتها. ونتيجة للحرب الدائرة، نادراً ما تطلب النساء والفتيات اللواتي يتعرّضن للاغتصاب أثناء الحرب المساعدة أو الدعم، ولا يطلع المختصون على ما تتعرض له المغتصابات»<sup>(32)</sup>.

ولقد حذرت الممثلة الخاصة للأمين العام للأمم المتحدة المعنية بالعنف الجنسي أثناء الصراعات زينب بانغورا من الانتشار الواسع للعنف الجنسي في سوريا. وتناولت بانغورا في إحاطتها أمام مجلس الأمن، الذي عقد جلسة مشاورات

(30) «العنف والتحرش يترصدان بالمرأة العربية والقوانين... غائبة»، الحياة، الخميس 2 فبراير 2013.

(31) علاء الأسواني، «من يحترم المرأة؟»، السفير في 19/3/2013.

(32) نادين العلي، «نظام الأسد يعتمد «العنف الجنسي» ضد النساء والرجال: متى العدالة؟» ناو ليانون، في 26 أيار 2013.

تقرير الأمم المتحدة: «هناك انتهاكات مريعة لحقوق الإنسان في سوريا»، نشرته البي بي سي في الثلاثاء، 4 يونيو/ حزيران 2013.

مغلقة حول الوضع الإنساني في سوريا، مسألة الاستخدام المنظم للعنف الجنسي في سوريا، واصفة إياها «بالمثيرة للقلق»!!.

وأعلنت بانغورا أمام الصحفيين في المقر الدائم بنيويورك، إن العنف الجنسي ضد النساء والرجال، وضد الفتيان والفتيات، منتشر بشكل واسع في سوريا، مشيرة إلى إنهم لا يستطيعون الدخول إلى معظم المناطق التي تسيطر عليها المعارضة. وأضافت «وجدنا أن العنف الجنسي ضد الرجل والفتيان هو وسيلة لاستخراج المعلومات منهم في السجون، إذاً، يستخدم هذا الأسلوب كتقنية للحصول على المعلومات»<sup>(33)</sup>.

### الحل المرعب: إبادة جماعية وتغيير ديموغرافي

يبدو أن النظام وجد حلاً مرعباً لمواجهة الثورة في سوريا. وشعار نقتلكم أو نحكمكم ليس مجرد شعار، فكل ما يحدث في سوريا يشير إلى تطبيقه الحرفي ومن دون هوادة.

« يحاصر جيش بشار الأسد شعب الغوطين وحمص منذ نيف وعام. وبعد أن عجز عن كسر إرادة شعب هاتين المنطقتين بالقوة، ها هو يقرر شطبه من الوجود بالحصار والتجويع، ويفرض عليه طوقاً من حديد ومرترقة لا ثغرة فيه، ويتركه للموت جوعاً وتحت وابل من القصف المستمر، الذي لا يتوقف ليلاً أو نهاراً» بهذه الكلمات طالعنا مقالة ميشال كيلو<sup>(34)</sup>. كما حصل تخوف من إمكانية هدم سد الفرات بعد أن قُصف منذ فترة، من ضمن ما ينقل عن اعتقاد أهل النظام بأن كل عمران سوريا واقتصادها هو من الإنجازات «الشخصية» لآل الأسد.

تنقل صحافية إسرائيلية زارت حلب<sup>(35)</sup>:

فالحال كالحال في الصومال أو في إثيوبيا: فالأولاد ذوو جلود صفراء من

(33) تقرير الأمم المتحدة تحذر من أن العنف الجنسي منتشر بشكل واسع في سوريا، نشر في 28 شباط 2013. والتقرير للعام 2012.

(34) ميشال كيلو، «القتل تجويعاً»، مرجع سابق.

(35) فرانسيسكا بوري، «حلب مدينة جائعة ومستنزفة وقتل أبنائها لا يحرك الضمير العالمي»، يديعوت، 11/2013، ترجمة صحيفة القدس العربي.

حمى التيفوس، ونظرات عميقة تنغرس فيك حينما تحاول المرور بهم. فهم يبدوون مثل أولاد حرب حقيقيين ممن لا يظهرون أبداً في الصحف أو في التلفاز. وهم لا يبتسمون شُكراً حينما يُعطون كعكة. فهم مرهقون لا كلمات عندهم، وعيونهم في دهشة للمشاهد الفظيعة. هؤلاء هم الأولاد الحقيقيون. هم والأولاد الذين حصدتهم صواريخ الأسد ممن بُعثت أجزاء أجسامهم في المستشفيات. ويأتي الضحايا هنا دائماً في أزواج لأنه يوجد بالقرب من كل قتيل جثة أخرى لمن حاول أن يُخلّصه وأطلق قناص النار عليه.

### الخاتمة: كرامة النفس وكرامة الجسد

مع أن كُتِب التاريخ مليئة بذكر الثورات العربية، لكن في الحقيقة لم تكن بينها ثورة بمعناها الشعبي الحقيقي، بل كلها كانت انقلابات أو تغييرات قسرية. الثورة العربية الكبرى عام 1916 ظلت مجرد فكرة ولم تصبح ثورة تقلب الأوضاع كما حصل مؤخراً مع الانتفاضات العربية. وثورة الضباط الأحرار المصرية في عام 1952 كانت انقلاباً عسكرياً، وكذلك الانقلابات التي قام بها حزب البعث بشقيه السوري والعراقي.

جاءت الثورات العربية بعد مرحلة طويلة من الركود والصمت مطالبة بالحرية والكرامة. الكرامة تختصر معنى وجود الفرد، معنى الحياة. رفض الذل والعيش دون امتهان من أي نوع كان! الكرامة التي تختصر البعد الرمزي لوجود الإنسان والتي لا يتم الالتفات إليها دائماً<sup>(36)</sup>.

والكرامة الإنسانية التي تعني حق الفرد في أن يعيش باحتشام على جميع مستويات وجوده. فالعيش الكريم يشتمل حق الفرد بالحصول على حاجاته المعيشية الأساسية، والتمتع بجميع حقوقه المدنية منها والسياسية والتي تضمنها له شرعة حقوق الإنسان بما فيها حقوقه الفردية وكرامته وحرية الشخصية وقبلتها جميع الأديان. والكرامة تعني عدم تعرّض الفرد لأي إهانة مهما كانت. كرامة العربي

(36) انظر كتابي فتح الجسد، طبعة أولى دار الريس 2000، وطبعة ثانية دار النهضة العربية، بيروت، 2012. من أجل توضيح العلاقة الجدلية بين نفس وجسد: بمعنى أننا نحن أجسادنا.



الضائعة والمداسة من قبل الأنظمة الفاشية الحاكمة هي العامل المشترك الذي يكمن في عمق التحركات الراهنة وهي في الخلفية الكامنة لما يحصل. الكرامة تعطي الحياة معناها وهي في جوهر البعد الرمزي للوجود الإنساني. ولقد برهن العديد من الانتروبولوجيين أن الجوهر الإنساني يتركز في إرث البشر الاجتماعي أكثر من إرثهم البيولوجي.

ويعني هذا أن جوهر الإنسان هو خارج الفرد ويحيل إلى مجموع علاقاته الاجتماعية. وبهذا المعنى حتى اللاوعي لا يعود محبوساً في قعر الفرد وفي جسده. فهو لا يتجسد فقط في خطابات الأفراد المعنيين بل في تجسيد الخطابات الجماعية والتي تتمثل في المؤسسات وفي الأدوات والمجسّدات الفنية والمواد الأرشيفية والتراث... باختصار في مجموع التراث الإنساني الذي ينفصل ويتعدى منتجيه ليشكل بعداً ثالثاً أسماه إدوارد هال «البعد المخفي»<sup>(37)</sup> أي الثقافي بالنسبة له ومن المتفق عليه أنه البعد الرمزي.

وهذا البعد يفترّ تزامن ما يحصل في العالم العربي كما فترّ ظاهرة الاستشهاد أو «عارض» قتل النفس؛ أليست «ظاهرة» أن يحمل الصبية أنفسهم ويذهبون كما في نزهة للقيام بعمليات من هذا النوع فيعودون إلى أسرهم أشلاء؟ إن من «لا يفهم» لماذا يقوم واحد بهم بهذا، على عنفه والرفض المبدئي له، يكون لا يقيم أي اعتبار لوجود الإنسان الرمزي وللامتداد الثقافي لهذا الوجود.

### نهاية الرجل الصغير

الشعوب العربية انتفضت أخيراً ونهضت تطالب باسترجاع كرامتها؛ فيما يبدو أنه بزوغ عهد جديد يخرج فيه المواطن العربي من عصور «الرجل الصغير» بحسب تسمية العالم النفسي ولهلم رايش. إنها مرحلة آيلة إلى السقوط. الرجل الجبان الخائف غير المسؤول الذي يهرب ولا يستطيع النظر إلى نفسه ولا يجروء على أن يكون حراً، بل يقبل أن يظل ككلب مضروب؛ هذا الرجل الصغير الذي يجعل من نفسه عبداً وشرطياً على نفسه عرف أخيراً أنه وحده المسؤول عن عبوديته. فكان

Edward Hall, *La dimension Cachée*, Seuil, Paris, 1984. (37)

أن انتفض صارخاً حريته، حرية لم يكتسبها إذ لا ضرورة «لاكتساب» الحرية، إنها موجودة بشكل عفوي في كل الوظائف الحيوية، ما يقوم به هو «القضاء على جميع الموانع أمام حريته»..

إن ما يريده الجسد الاجتماعي الثائر هو استرداد كرامة الوجود الإنساني. وهذا ما يُفسّر الثورات العربية الراهنة. لكن لا شك أنها ستكون مرحلة قد تطول قبل أن تتوصل إلى تغيير الأوضاع وإعادة بنائها على أسس جديدة؛ إذ لا يجب أن ننسى أن ما يُعرف بأنه «الثورة الفرنسية» هي تلك الحقبة من الفوضى التي اندلعت في العام 1789 وطالت لمدة عام ومن ثم تبعتها فترة من العنف والفوضى ولم تتوصل الثورة الفرنسية إلى تحقيق شعاراتها إلا بعد مرور عشرات السنوات.

إنها مجرد بداية لحقبة مقبلة ستتحقق في نهايتها أحلام ومطالب الشعوب بالحرية والكرامة الإنسانية.



# شعارات التأسيس في الثورة السورية وتسميات أيام الجمع

عمر كوش

باحث منفرد وكاتب

Kouch.omar@gmail.com

## الملخص

تنطلق الورقة من النظر إلى اللغة، بوصفها مكوناً أساسياً للتواصل بين الناس، وإطاراً للمفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية، التي تمتلك رمزية خاصة. ويجري الخوض في شعارات التأسيس، وفي رمزية الشعار السياسي في الثورة السورية، من منطلق اعتبار الشعارات السياسية، في زمن الثورة، ظاهرة، تنهل من معين حياة الناس وذاكرتهم، وتعكس طموحاتهم ومطالبهم وآمالهم وتطلعاتهم، ولها تفاعلاتها، وامتداداتها، الداخلية والخارجية. ويمكن القول أن الثورة السورية تميزت بلغة شعاراتها، التي اختلفت باختلاف الأطوار التي مرت بها الثورة، حيث بدأت كحركة احتجاجية سلمية، ثم بات لها مركبات ومكونات وأطر، سياسية وإعلامية وعسكرية. وامتازت التظاهرات السلمية بشعارات عفوية، ومفكر فيها أيضاً، وتحولت إلى مشهديات احتفالية، تمازج فيها الموروث الشعبي، من أغاني وأهازيج وعروضات، محلية شعبية، مع ابتكارات فنية جديدة، لم تشهد سائر ثورات العالم الحديث مثل لها. وتميزت مختلف أطوار الثورة السورية بكثرة وتغاير الشعارات المطروحة، إذ كانت في البداية تركز على الكرامة والحرية، حيث انطلق أول شعار في الثورة السورية، وهو «الشعب السوري ما بينذل»، تبعه شعار «الله سوريا حرة وبس»، ثم مع الامتداد الأفقي للثورة، وتزايد سقوط الشهداء، وسيلان الدم في الشوارع والساحات، اختلفت الشعارات، لتطالب بإسقاط النظام الأسدي، ومحاسبة رموزه وأركانها، ولإظهار التضامن والتعاضد مع المدن والبلدات والقرى، التي تعرضت للقمع الشديد، ولحرب شاملة، مدمرة، لا تميز بين البشر والحجر.

نحاول في هذه الورقة قراءة لغة الشعارات، وتسميات أيام جمع التظاهر، وتبيان مدلولاتها ومركباتها، والبحث عن جذورها في المخزون الشعبي، والابتكارات التي قام بها شباب الثورة وناسها.

كلمات مفاتيح: الثورة السورية؛ مرحلة التأسيس؛ الشعار السياسي؛ الحراك الاحتجاجي؛ الثقافة الشعبية؛ اللغة الثورية؛ كوجيتو الثورة؛ أيام الجمع.

## Abstract

### Establishing Slogans in the Syrian Revolution

**Omar Kouch**

*This paper starts from considering language as an essential form of communication between people and as a framework for cultural, political and social concepts which possess special symbolism. The establishing slogans are being studied from the starting point as a phenomenon in the time of the revolution. This phenomenon draws from the lives of the people and their memory. The Syrian Revolution is distinguished with the language of its slogans which changed according to its stages; the revolution which started as a peaceful protest, then possessed political, media and military compounds and frameworks. The peaceful demonstrations were characterized with the spontaneous and thoughtful slogans at the same time. It turned into celebrating scenes which combined between public heritage (songs and carnivals) and new artful inventions; a phenomenon which was the first of its kind in the modern revolutions. The different stages of the Syrian revolution were characterized with the multiplicity and changeability in slogans rose. In the beginning, they were concentrating on freedom and dignity. And then with the horizontal spread of the revolution, the increase in the number of martyrs and the flowing of blood in the streets, the slogans changed and started to demand toppling of the Assad regime and holding those in charge responsible. In this paper we try to read the language of the slogans, the names of the Fridays, to explain their denotations and components, to search their deep roots in the popular heritage and study the inventions created by the youth and people of the revolution.*

**Keywords:** Syrian revolution; slogan; popular heritage; language; names of Fridays; Youth; Syria.

## المقدمة

كتب المحتجون السوريون آلاف الشعارات في تظاهراتهم السلمية، ورسوموا، وخطّوا حروفها بدمائهم وآلامهم. وجعلوا من الجدار واللوحة واللافتة صورهم، التي حاولوا أن يُفهموا العالم من خلالها، تعبيرات ثورتهم ومطالبهم، من أجل الحرية والكرامة، والخلاص من الاستبداد المقيم عقوداً على صدورهم.

وشكّلت الشعارات التي رفعتها أيادي المتظاهرين السوريين ظاهرة مبدعة وغنية، تدعو إلى التأمل والبحث عن مكونات هذا المخزون ومصادره، التي تنهل من ذاكرة الإنسان السوري، ومما أنتجه عقله رداً على سنوات القهر. سنوات الرعب والصمت والقمع والإذلال والكبت، والحرمان من مختلف أشكال التعبير، وبخاصة التعبير السياسي، في ظل عهود الاستبداد الثقيلة. ولعل تعبيراتها الرمزية واللغوية والثورية، تكشف مكونات ما تكتننه دواخل السوريين من تعبيرات واحتفاليات، حرموا منها لعقود طويلة، وتلقي الضوء على حصيلة وعي، استخدم الموروث التاريخي والتراث الشعبي، وكيفه في خدمة الحراك الثوري، ومطالب وتطلعات غالبية الناس في سوريا.

ولا تغادر مصادر ومراجع كتابات الثورة، ولغتها، تأثيرات ثورات الحرية والكرامة العربية، أو ما عُرف بثورات الربيع العربي، إضافةً إلى عمق ارتباطها بجذور عميقة، تمتد إلى الثقافة الشعبية، والحديثية، وتنهل من المعرفة، والحسّ السياسي، ومن التراث الشعبي، وترتبط بالزمن السوري الضارب عميقاً في التاريخ، وفي الوجدان، وحيث الأشواق والأمنيات. وعليه فإن محاولة دراسة المصادر الثقافية والتراثية التي نهل منها السوري، لا تنفصم عن فهم ظاهرة الحراك الثوري الاحتجاجي، وتبيان مصادر الشعارات والكتابات، التي تشكل ثقافة جماهير المحتجين، بوصفها ثقافة ثورة الإنسان السوري الجديد.

## المنهج والمقاربة

تنطلق الورقة من النظر إلى اللغة بوصفها مكوناً أساسياً للتواصل بين الناس، وإطاراً للمفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية، التي تمتلك رمزية خاصة<sup>(1)</sup>. ويجري الخوض في شعارات مرحلة التأسيس، والتظاهر السلمي في الثورة السورية، التي بدأت شرارتها الأولى مع مظاهرة حيّ الحريقة، يوم 17 شباط (فبراير) 2011<sup>(2)</sup>، القلب التجاري للعاصمة دمشق، ثم عرفت انطلاقها في تظاهرة سوق الحميدية، يوم الثلاثاء 15 آذار (مارس) 2011<sup>(3)</sup>. وامتدت على طوال فترة سبعة أشهر من الحراك السلمي لناس عزل، لتنتهي في «جمعة ماضون حتى إسقاط النظام»، المؤرخة يوم 16 أيلول (سبتمبر) 2011، التي رفع خلالها شعارات عديدة، أهمها: «عندما نقتل.. نزداد إصراراً»، و«عندما نعتقل.. نزداد إصراراً»، والأهم هو شعار «الثورة انطلقت... ولن يوقفها، سوى إسقاط النظام»، بوصفه الشعار الذي نفترض أنه أعلن اكتمال مرحلة «التظاهر الأعزل» في الثورة السورية وسيرها نحو مسارات متعددة.

وتهتم الورقة بالنظر إلى رمزية الشعار السياسي في الثورة السورية، لكن من منطلق اعتبار الشعارات السياسية، في زمن الثورة، ظاهرة، تنهل من معين حياة الناس وذاكرتهم، وتعكس طموحاتهم ومطالبهم وآمالهم وتطلعاتهم، ولها تفاعلاتها الداخلية والخارجية.

وتتأسس مقاربتنا للغة الشعار السياسي على إدراك وفهم عام لعلاقة التناسب

(1) مانفريد فرانك، حدود التواصل، ترجمة عز العرب الحكيم بناني، الدار البيضاء، 2002، 15. وكذلك: J. Habermas, *Théorie de l'agir communicationnel*, trad. J.M. Ferry, Paris, 1987, T. 1, p. 9.

(2) انطلقت مظاهرة عفوية في سوق الحريقة في دمشق، للمرة الأولى منذ أربعة عقود، وصل عدد المتظاهرين إلى ما يقارب الألفي شخص، احتجاجاً على إهانة أحد رجال الأمن لابن أحد التجار، ردّد خلالها المتظاهرون، شعار «الشعب السوري ما بيندل»، لأول مرة، وخوفاً من امتداد المظاهرة، حضر وزير الداخلية في محاولة لامتصاص غضب المتظاهرين والتفاهم معهم، ووعد بمعاينة رجل الأمن والضابط المسؤول عنه.

(3) شهدت العاصمة دمشق، مظاهرة احتجاجية في سوق الحميدية والجامع الأموي، تطالب بالحرية، شارك فيها العشرات. واعتقلت قوات الأمن ستة من المحتجين. وأظهر شريط فيديو عرضته، بعض المواقع المعارضة للنظام، عشرات المواطنين نساءً ورجالاً، وهم يتظاهرون في سوق الحميدية المجاور للجامع الأموي في وسط العاصمة دمشق. وردد المتظاهرون شعار «الله سورية وحرية وبس»، لأول مرة، بينما كان مصور الشريط يعلن انطلاق الشرارة الأولى للانتفاضة السورية، انظر: [www.youtube.com/watch?v=NwagE-jPSXA](http://www.youtube.com/watch?v=NwagE-jPSXA).

الطرد المتبادلة بين اللغة والفكر من جهة أولى، وبين اللغة وطبيعة الثورة السورية من جهة أخرى. ولا شك في أن هذا يستلزم تحديداً أولياً لتبيان وظائف لغة الشعار السياسي، والنهج الذي تعمل به، والإرهاصات والتداعيات التي تنتج عن استخدامها، إلى جانب تحديد كيفية انتشارها وامتداد جذورها.

وقد مثلت الشعارات والكتابات الجدارية، في مرحلة التأسيس والتظاهر الأبرز للثورة السورية، رسائل إعلامية، وراءها مرسل يعيها ومستقبل يتلقاها، مثلها في ذلك مثل أية رسالة إعلامية أخرى، يضع المرسل في اعتباره وجهة الرسالة، وغايتها، والهدف المتوخى منها، ولذلك يتأثر شكل الرسالة ومضمونها على الدوام بطبيعة المرسل والمستقبل.

ويمكن القول إن الثورة السورية تميزت بشعاراتها السياسية والمطلبية والاجتماعية<sup>(4)</sup>، واختلفت مضامينها ولغتها، باختلاف مراحل أو أطوار الثورة، التي بدأ حراكها الشعبي سلمياً، ثم باتت لها مركبات ومكونات وأطر تنظيمية وسياسية وإعلامية وعسكرية.

### مركب التأسيس

صدحت حناجر المحتجين في التظاهرات السلمية بشعارات عفوية أحياناً، ومفكر فيها في غالب الأحيان، لكنها اكتسبت حمولات عديدة مع تحول التظاهرات اليومية إلى مشهديات بصرية وجسدية، وتشكيلات فنية، تمازجت فيها شعارات وأغاني الثورة الجديدة مع ما يختزنه الموروث الشعبي، من أغاني وأهازيج وعروضات، محلية شعبية، مع ابتكارات فنية جديدة، لم تشهد سائر ثورات العالم الحديث مثيلاً لها.

وركزت الشعارات المرفوعة على الكرامة والحرية، حيث انطلق شعار «الشعب السوري ما بينذل» بوصفه أول شعار في الثورة السورية، هتفت به جموع من السوريين في منطقة «الحريقة»، القلب التجاري لمدينة دمشق، وتأقلم نفس الشعار في درعا في صيغة «الموت ولا المذلة»، بعد سقوط عدد من الشهداء، ثم

(4) جمال شحيد، «شعارات الانتفاضة والموت في سوريا»، في أوراق بحثية، كانون الثاني (يناير)، 2012، انظر:

<http://www.arab-reform.net/ar>



تحولت لغة الشعارات، من رفض المذلة وإعلاء قيمة الكرامة، وتفضيل الموت على الخضوع، إلى المطالبة بالحرية، وجعلها مقام تشييد للغة ثورية، وذلك بالتلازم مع رفض الاستمرار في العيش في ظل الوضع القائم. وبات شعار «الله سوريا حرة وبس»، يكمل ثنائية الكرامة والحرية، بوصفهما مركبي التأسيس للثورة السورية.

وجرى التأسيس للثورة السورية حول مطالب وشعارات وطنية جامعة لكافة الفئات، تمحورت حول الكرامة والحرية، إضافة إلى مطالب اجتماعية، وتجاوز التحريض والنزعات الطائفية، وصولاً إلى المطالبة بإسقاط النظام.

وإذا كانت الشعارات الأولى تتمحور حول الحرية والكرامة، إلا أنه مع الامتداد الأفقي للحراك<sup>(5)</sup>، كرس الالتفاف حولهما تعاضد فئات اجتماعية، وسطي وفقيرة، واسعة، وعلى وحدة السوريين، بمختلف مدنهم وبلداتهم وقراهم، وبمختلف أطيافهم الدينية والمذهبية والإثنية، جسدها شعار «واحد واحد واحد.. الشعب السوري واحد»، بل إن الشعار ذاته، «بالروح بالدم نفديك يا درعا»، أعلن امتداد التعاضد والتكاتف إلى مختلف المناطق، حيث تناوبت وتالت أسماء المدن والبلدات السورية الأخرى فيه، من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق<sup>(6)</sup>.

وبالرغم من محاولات تنمية وتقوية مختلف الانتماءات - ما قبل المدنية - من مناطقية وعشائرية وطائفية ومذهبية، التي فعلت فعلها على مدى عقود عديدة من الزمن، وأنتجت وعياً إيديولوجياً زائفاً، بل ومقلوباً وعصابياً، وسلوكاً أقلبياً

(5) بدأ الامتداد الأفقي للثورة السورية منذ الأيام الأولى لها، حيث خرجت في أول يوم جمعة (جمعة الكرامة: 18 مارس 2011) مظاهرات في العديد من المدن والبلدات السورية، منها: درعا وحى الميدان والمزة والمرجة في دمشق، وفي الزبداني، وفي منطقة القامشلي وعامودا واللاذقية ودير الزور، وفي حمص وطرطوس، وإدلب وحماة وسواها. وفي جمعة الإصرار (15 أبريل 2011)، التحمت مظاهرة دوما بمظاهرة حرسا في مشهد مهيب، هز وجدان السوريين، ثم انضمت روافد من عربيين وزملاكا، وسارت الحشود الكبيرة إلى ساحة العباسيين في دمشق، كي تلتقي بمظاهرين آخرين، وحاول المتظاهرون الاعتصام في الساحة لكن قوات الأمن واجهتهم بإطلاق الرصاص. وقبل ذلك بثلاثة دخلت الاحتجاجات أيضاً حرم الجامعات السورية لأول مرة، في دمشق و«حلب» يومي الاثنين والثلاثاء 11-12 أبريل 2011.

(6) وكذلك كان الأمر حين تقتحم قوات النظام مدينة أو بلدة أو تتركب مجزرة فيها، يرتفع شعار دعم ومساندة لها، مثل: «يا درعا.. حنا معاكي للموت»، أو «يا حمص حنا معاكي للموت» أو «يا حلب حنا معاكي للموت» وسوى ذلك.

لدى البعض، إلا أنّ جموعاً هامة من الناس لم تنكص إلى انتمائها الضيقة، بل تبنت انتماءات إنسانية واسعة، من دون القفز على - أو تجاوز - انتمائها الوطني، ولم ترتعن إلى نزعات جهوية أو فئوية أو أنانية وذاتوية. وانطلقت شعارات ترد على الشحن الطائفي الذي قام به النظام منذ اليوم الأول للثورة، مثل «نحننا بدنا الحرية.. إسلام ومسيحية.. ودروز وعلوية». «لا إخوان ولا سلفية.. نحننا بدنا الحرية». و«لا سلفية ولا إخوان.. ثورتنا ثورة شجعان». و«لا سلفية ولا إرهاب.. ثورتنا ثورة شباب».

ولا يعدم الأمر وجود ارتكاس في بعض الحالات إلى مختلف الانتماءات ما قبل المدنية، بسبب غياب المواطنة، إلى جانب ممارسات وسياسات التمييز، والاضطهاد والقمع والتهميش، من طرف سلطة طاغية، عاملت الناس على أساس كونهم رعايا لها، وليسوا مواطنين في دولة، لهم حقوقهم، وعليهم واجبات، يضمنها دستور البلاد. إضافة إلى تعميم الخوف، ونشر ثقافته، التي سادت، بوصفها ظاهرة راسخة، تحوّل - في ظلها - ناسٌ كثير إلى كتلة صماء من الخانعين، الذين لا يتفوهون، إلا ما تقوله السلطات والأجهزة السياسية والإعلامية، وليس لهم إلا السمع والطاعة، وترداد الشعارات السلطوية الطنانة<sup>(7)</sup>.

ومع تزايد سقوط الشهداء وسيلان الدم في الشوارع والساحات تغيرت الشعارات، لتطالب بإسقاط النظام ورحيل رمزه، ولإظهار التضامن والتعاقد مع مختلف المدن والبلدات التي تعرضت للقمع الشديد<sup>(8)</sup>. أما عندما برز المكون العسكري، من منسقين عن الجيش النظامي ومدنيين فارقوا إدارة الدولة، راحت الشعارات تطالب بحماية المدنيين، وتحبيي الجيش الحرّ، وتطالب بالتسليح، وسوى ذلك<sup>(9)</sup>.

في شعارات التأسيس للثورة، اختُصر الشعار السياسي في أبسط صورته، في كلمة واحدة، هي «حرية»، يؤطرها الترداد وحركات الأيدي والأجساد، وتصدح بها

(7) مثل شعار: «بالروح بالدم.. نفديك يا بشار» و«إلى الأبد إلى الأبد... يا حافظ الأسد».

(8) حسب إحصاءات قاعدة بيانات شهداء الثورة السورية، بلغ عدد الشهداء خلال الشهر الأول للثورة 119 شهيداً، بينما ارتفع في الشهر الثاني إلى 724 شهيداً، ووصل إلى 1107 شهداء في الشهر العاشر مع عمر الثورة، انظر: <http://syrianshuhada.com/?a=st&st=8>.

(9) مثل شعار: «الله محيي الجيش الحر».

حناجر المحتجين، صغاراً وكبار، نساءً ورجالا. ويستمد اقتضاب الشكل روحيته من تركيب المعنى، بالنظر إلى أن هذا اللفظ البسيط يحيل في البداية إلى معرفة ثقافية خاصة في اللغة العربية، لكن هذه المعرفة تتجاوز حدود ما تمثله الدائرة اللسانية، لأنه اكتسب بعداً عربياً ثم بعداً عالمياً. والفضل يعود إلى الثورات العربية في تحوّل الشعار إلى مفهوم له أبعاد إجرائية متنوعة على مستوى القراءة، حتى باتت كلمات مثل «حرية» و«ارحل» مقروءة عالمياً، وغدت كل منها علامة من غير تركيب، تقترح خطابات عالمية، وتدرك ضمن المقولات المشكّلة.

ولا يغيب عن لغة شعارات الثورة عنصرا الذات والذاكرة، فـ «أنا» المحتج ليست حاضرة في صرخاته فقط، بل حاضرة في أكثر من خطاطة وشعار<sup>(10)</sup>. وتحوّل العديد منها إلى مقولات مفهومية في الثورة، حوّلت أصحابها إلى أيقونات.

## الذاكرة والتاريخ

جرت الإحالة في أكثر من شعار إلى الذاكرة السورية والتاريخ السوري، حيث راح المحتجون في درعا، مثلاً، يرددون شعاراتهم على وقع الأهازيج، التي ترخ بها منطقة حوران، من «الميحة»، و«السحجة»، و«الدرازية»، و«الجوفية»، و«الشعرافية»، و«الحوارانية»، و«الشمالية» و«النسورانية»<sup>(11)</sup>. ولعبت الأهازيج والعروضات ومختلف أنواع الدبكات والرقص دورها الخاص في التأثير المباشر في الناس، وفق طبيعة تعبيرية خاصة. وباتت تتحكم في الانفعالات ولا تكتثر للمفاهيم، بوصفها شعلة تضيء ظلاماً. وفي حالات الانفعال لا يفكر الإنسان، لذلك ارتبطت الموسيقى والأهازيج بالجسد الفاعل، والجسد المتحرك. وهذا ما يميز طبيعة الهوى، بوصفه تجاوز الحدود العادية المحرر للانفعال والدافع به في كل الاتجاهات. وقد تحقق ذلك في التظاهرات التي عمّت مختلف المدن والبلدات والقرى السورية، من خلال

(10) مثل شعار: «علمني التاريخ... الذي يكتب بالدم لا يمحي».

(11) تزخر حوران بالعديد من أنواع الدبكات الشعبية، أهمها «الميحة» و«السحجة» و«الدرازية» و«الجوفية» و«الشعرافية» و«الحوارانية» و«الشمالية» و«النسورانية»، التي اقترنت بالعبادات الاجتماعية، وطبيعة العمل الزراعي، ومناسبات الأعراس والتقاليد الاجتماعية بالحقل والبيدر. وهي أنواع من الرقص، تعبّر عن الأحزان والأفراح والاحتفالات، وتميز بطابعها الجماعي التراثي.

تلاطم أمواج أجساد المتظاهرين في مشهديات، لم تعرفها سوريا من قبل<sup>(12)</sup>. ولعل الجديد الذي قدمته الثورة السورية في حركات الجسد هو الكرنفالات أو الاحتفاليات المرافقة لها، حيث، وتنظيم متناغم ومدروس، تصطف أجساد المتظاهرين بشكل خطوط وصفوف أو دوائر في ساحة أو شارع، ثم مع ترداد الشعارات يجلسون دفعة واحدة، وحين تشتد الحماسة في مقطع معين من الشعارات أو الأغاني، تنهض الأجساد دفعة واحدة، يليها الارتفاع ثم الانخفاض في حركات تشبه الأمواج المتتالية بتسارع متناغم، مشكلةً أجساد بشرية.

ولا شك في أنه لا يمكن للمحتجين أن يتظاهروا لساعات وأيام وشهور دون أن يغنوا، ويتغنوا أغانيهم الخاصة بهم، في كل منطقة، أو حي أو بلدة، ويرددوا شعارات لها وقع وتأثير في الأذن قبل العقل. وباعتبار أن الدبكات المرافقة للأهازيج والعروضات تطاول الجانب الحسي من الإنسان، فإن هذا الجانب عندما يتجسد في الجسد الثائر، فإنه يحتاج إلى طاقة روحية، لكي يستمر، ويفرز كل طاقاته ومكنوناته، فكثير من المتظاهرين اكتشفوا أجسادهم وأصواتهم، لأول مرة، في حياتهم في ميادين التظاهر وخلال فترات الحرية.

### مشهديات التشيع

لعل ما يلفت النظر هو الشعارات التي تطلق في مراسم الدفن، مثل «يا شهيد ارتاح ارتاح... رح مواصل الكفاح». و«يا شهيد ويا مجروح... دمك هدر ما بروح». «والله لناخذ بالتار... جهّز حالك يا بشار». وتحولت مراسم دفن الشهداء، الذين يسقطون يومياً برصاص وقذائف وصواريخ وبراميل قوات النظام، إلى طقوس احتفالية، تروي وتجدد حكاية الشهادة، حيث يستحضر مشيعو مواكب شهداء الثورة التاريخ وبيعترونه، ويُعيدون ترتيبه، بغية صناعة مستقبل جديد.

(12) مشهديات تلاطم أجساد المتظاهرين، بدأت في أحياء مدينة حُصص القديمة، في وقت مبكر من الثورة، لكن من أقوى المشهديات هي تظاهرة حماة في «جمعة إرحل» (1 يوليو 2011)، التي شارك فيها أكثر من نصف مليون متظاهر، انظر على اليوتيوب:

http://www.youtube.com/watch?v=8-QFVL5rDyI وكذلك:

http://www.youtube.com/watch?v=LUFwil1bF38

وأمام مشهديات التشييع، يتوجب الوقوف طويلاً، لتفحص ملامح الثائرين، أولئك الذين يخرجون - كل يوم - إلى التظاهرات رافعين جثامين الشهداء، قبل أن يرفعهم رصفاؤهم في نعش جديد. أبطال حالمون بالحرية، مجهولو الاسم والعنوان. شهروا مقام البطولة الماثلة في إسقاط الخوف. ومن يقتل الخوف يمكنه أن يفعل ما يريد.

ويمتد الأمر إلى معنى أن يشييع إنسان أحد رصفائه، وهو يعلم أنه قد يأخذ مكانه في تابوت التشييع في يوم ما، لذلك يأخذ طقس التشييع معنى مختلفاً في زمن الثورة السورية، ويثير انفعالات خاصة، حين يحمل نعش الشهيد، الملقوف بعلم الثورة، على أكتاف المشيعين الذين يدورون على محيط دائرة، تتسع مع الهتافات والصيحات، فتزداد الحمية، ويتصاعد الهوى، ويصل الانفعال إلى حدّ النشوة الروحية، ويبلغ الحال أوجه.

لقد باتت مشاهدة الموت في سوريا يومية، ويمكن أن تحدث في أية لحظة، ولعل الموت فجائي، ولحظته أقصر من أي تسجيل مصوّر يُبثّ على «يوتيوب»<sup>(13)</sup>. ويمكن مشاهدة الموت عبر لقطة تظهر رجلاً ملفوفاً بكفن أبيض، تحيط برأسه شرائط بيضاء، وتحشو أنفه قطعة قطن بيضاء. لكن الموت أيضاً تحوّل إلى شبح يحوم فوق الأطفال والرجال والنساء والشيوخ، حيث يحوّلهم إلى مجرد أجساد أطفال مكدسة فوق بعضها البعض، في خطوط طويلة لا تنتهي. إنه موت السوريين المكدمين بسرعة خارقة، ومع ذلك يمكن القول أن لا شيء يخفف من رغبة السوريين في الانعتاق والتحرر، والرغبة في الوصول إلى فضاءات جديدة، وبناء صروح الحرية وتشبيد مقاماتها.

## لغة الشعارات

تشير لغة الشعار السياسي في الثورة السورية إلى رمزية خاصة، وإلى تحوّلها وتجسّدتها في ثنايا خطاب يتوجه إلى عموم السوريين، حتى باتت مكوناً أساسياً

(13) استخدم إعلاميو الثورة ونشطاءها اليوتيوب لبث مقاطع مصورة وفيديوهات، تصوّر المظاهرات، والمجازر، ومواكب تشييع الشهداء، ولحظات القصف الذي تتعرض له المناطق الثائرة. وهناك أرشيف كبير جداً.

للتواصل بين المحتجين والجمهور العام، الأمر الذي شكّل ظاهرة لمأسسة مفاهيم الثورة، ومخاطبة جموع الداخل والخارج.

إنّ من ينظر في لغة شعارات الثورة السورية التأسيسية، يجد أنها لم تك أسيرة التظاهرات والاحتجاجات وظرفيتها، بل إن كثيراً منها لا يصلح للإنشاد في المظاهرات، مثل شعار: «مظاهراتنا سلمية.. مطالبنا شرعية» و«النظام اللي بيحك منكو شبيح سقطوا واستريح». «الشعب الفلسطيني المذبوح يتضامن مع الشعب السوري المذبوح». «ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلاً». «تصبحون على وطن» و«تصبحون على حرية». «عمو الشهيد عدنان وهبة سلّم لي على رفقاتي أطفال الحولة». «سوري = علوي + درزي + مسيحي + سني + إسماعيلي + إلخ».. «الفرق بين العدل والانتقام كالفرق بين الثورة والنظام» و«رصاصكم لن يقتل سوى الخوف فينا».

وتنطوي كلمات مثل هذه الشعارات على أبعاد، تتجاوز ما يخاطب وجدان المتظاهر، ففيها خيبة ورجاء وحزن وفرح، تشكل ما هو أعقد من توظيفها في تظاهرة أو حراك احتجاجي إلى ما هو وطني. وبالتالي، يمكن القول بأن لغة بعض شعارات الثورة، تسعى إلى تجاوز الثورة للوصول إلى ما هو دائم ومستمر في الناس، أي تجاوز الجوهر السياسي للشعار السياسي إلى جوهر إنساني، الأمر الذي يكشف أن الثورة السورية إنسانية وليست سياسية<sup>(14)</sup>.

وقد اعتبر الفيلسوف الألماني، مارتن هايدغر، اللغة أحد المكوّنات الأساسية، التي لا تشكل وسيلة للتواصل بين الناس فحسب، بل إطاراً يحدد المفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تشكل المنظومة الفلسفية لمجتمع ما. ومن ضمن هذه

(14) من الأمثلة على الطابع الإنساني والأخلاقي للثورة السورية أن قادة الحراك المدني السلمي الذي قتلته قوات النظام، مثل غياث مطر ويحيى الشريجي، كانوا يوزعون التمر والخبز والماء على الجنود الذي يقتحمون مناطقهم، ونظموا مظاهرات كانت تحمل الورود وأغصان الزيتون، وكانوا يعطون أجهزة هواتفهم للجنود على الحواجز كي يُطْمَئِنُوا وَيُطْمَئِنُوا على أهاليهم. ومن الأمثلة الأخرى، الكلمات الخالدة، التي قالها الشهيد العقيد يوسف الجادر، قائد عملية تحرير مدرسة المشاة، حين سُئِلَ عن شعوره بعد تحريرها، فقال: «والله مزعوج، لأنو هاي الدبابات دبابتنا، وهدول العناصر إختوتنا، والله العظيم.. والله العظيم، كلما بشوف إنسان مقتول معنا، أو منهم، بزعل».

انظر: <http://www.youtube.com/watch?v=zifYd0zVdSM>.

المفاهيم ما يرتبط إلى حد ما بمسألة «رمزية» اللغة، وهي مسألة يغوص فيها الناس، من دون إدراك، أو بشكل لاواع<sup>(15)</sup>.

إنّ من قام بكتابة الشعارات هم الشباب، من الذكور والإناث، المنخرطون في العمل الميداني، وخاصة شباب التنسيق، إلى جانب بعض الأفراد والمجموعات غير المنظمة. وهم في الغالب من الشباب، الحاصل على قسط لا بأس به من التعليم والثقافة، أما صياغة الشعار، فقد تكون من فعل الكتاب أنفسهم أو بتوجيه من القيادات الميدانية<sup>(16)</sup>.

وقد تكون الكتابة بعد تخطيط مسبق أو توجيه خارجي، كما قد تكون بمبادرة فردية ذاتية، حيث يقوم مجموعة أشخاص تربطهم صداقة أو علاقة ضمن تنظيمية في تنسيقية الحي أو المدينة، ويكون هنالك تنسيق وتخطيط سابق واتفق على ما يراد كتابته.

ولا تغادر مصادر ومراجع، شعارات الثورة ولغتها، تأثيرات ثورات الحرية والكرامة العربية، أو ما عرف بثورات الربيع العربي، إضافة إلى عمق ارتباطها بجذور عميقة، تمتد إلى الثقافة الشعبية، وتنهل من المعرفي والحسي، السياسي والاجتماعي، ومن التراث الشعبي، وترتبط بالزمن السوري، الضارب عميقاً في

(15) إبراهيم أحمد، أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، بيروت، الدار العربية للعلوم، ط1، 2008. وكذلك: إيلي حداد، حول رمزية اللغة، في:

[http://www.maaber.org/issue\\_april12/lookout4.htm](http://www.maaber.org/issue_april12/lookout4.htm)

(16) انتشرت التنسيقيات في مختلف أحياء المدن والبلدات والقرى السورية، وظهر أغلبها في أوائل شهر مايو 2011، ونشأت في ضوء الحاجة الملحة إلى قيادة وتنظيم المظاهرات ومختلف فعاليات الحراك الاحتجاجي الشعبي. من التنسيقيات التي اشتهرت، تنسيقية كفرنبيل، نظراً لتمييز شعاراتها ورسوماتها. ويتقاسم العمل في التنسيقية مجموعة مكونة من حوالي عشرين شاباً، موزعين على مكاتب للحراك المدني والتشديد، والعمل الإسعافي والإغاثي، وعلى المكتب الإعلامي، حيث المسؤول عن الرسومات على اللافتات الصغيرة هو الفنان احمد جليل، أما الرسومات على اللافتات الكبيرة من القماش، فهو الفنان رائد فارس. وهناك من يترجم الشعارات إلى اللغة الإنكليزية. ويستقي أعضاء التنسيقية أفكار شعاراتهم من نقاشهم الجماعي ومن الناس أيضاً.

انظر: <http://the-syrian.com/archives/99083>

أنظر أيضاً:

<https://www.facebook.com/media/set/?set=a.348641575220978.85947.115708715180933&type=3>

التاريخ، وفي الوجدان، حيث الأشواق والأمنيات والأحلام تكمن دافئة في ثنايا الذاكرة الجمعية.

ولا شك في أن اللغة الثورية تُنتج فكراً ثورياً، وبنفس الوقت يمكن القول بأن الفكر الثوري يُنتج لغة ثورية. هذه العلاقة الطردية تنطبق أيضاً على العلاقة بين اللغة وطبيعة النخبة الثورية، التي تقود الثورة. وفي المقابل، فإن السلطة الاستبدادية أنتجت على مدار أربعة عقود لغة استبدادية، بحيث باتت اللغة العربية التي يتكلم بها أهل الحكم لغة تسلطية قمعية، نتيجة الاستبداد السياسي المقيم<sup>(17)</sup>.

وإن كان الانفعال طاقة تعبيرية تسعى الكلمات إلى تنظيمها وترويضها، فإن اللغة الثورية التي وظفها حراك الشباب السوري في التظاهرات وميادين العمل الميداني المختلفة، أنتجت فكراً ثورياً جديداً، مختلفاً كل الاختلاف عن لغة ثوريي الأمس، ثوريي أفكار وأحزاب ومخلفات الحرب الباردة وإرهاصاتنا. وهو أمر يفسر وجود هوة كبيرة بين خطاب الثائرين السوريين وخطاب مختلف مجالس وتنظيمات وهيئات المعارضة السورية، بل ويبدو أحياناً أن خطاب بعض شخصيات المعارضة المتقدمة، يفترق تماماً عن خطاب جيل الثورة الجديد، بل، ويقترّب، ويلتقي، في أجزاء منه مع خطاب السلطة الاستبدادية.

غير أن الحروف الواضحات، والغامضات كذلك، التي تحيل إلى الشعار، إنما تحيل إلى اللغة التي تقول الأشياء، أشياء الوطن، والوطن موجود في الثورة، والثورة لا تنتظر أحداً ولا شيئاً، بل، لا تعرف الانتظار، فمن تأخرت ولادته، فإن أحداً لا ينتظره، ذلك أن الماضي يمضي كما هو، لا يُقَاد ولا يقود، ولا يتبقى منه غير آثار قد تذوب ولا تذوب، وذكريات قد تمحى ولا تمحى.

وفي الإنشاء الثوري أو لِنَقْل الخلق الثوري، يستخدم الإنسان الكلمات والحروف، ويركبها جمالياً ليخلق منها صياغات تعجُّنها الأحاسيس والانفعالات، وهذا يجعل اللغة ترتعش وتتعثّغ، أو حتى تغني وتهتف وتصرخ، وهو ما يميّز شعارات الثورة السورية، إذ نجدها تستبدل الانفعالات ومختلف المؤثرات، من مشاهد ووجوه ورؤى وصيرورات بحقول، أو مركبات أحاسيس تحل محل اللغة،

(17) انظر خطاب بشار الأسد، بتاريخ 10 يناير 2011 <http://www.cflit.net/speeches.htm>



فتنشأ بذلك لغة أخرى داخل اللغة.

لغة اللغة هذه، تنادي شعباً للمجيء وأرضاً أو وطناً كي يستريح، ولأجل ذلك يطوّع المحتج السوري لغته، يبعثرها ويجعلها تهتز ويحضنها ويداعبها. وقد يمزقها كي يحصل منها على ما يريد من أحاسيس، تجسّد العذاب الإنساني المتجدد على مدى يقارب الثلاث سنوات.

وقد دخل العديد من الشعارات والكتابات مرحلة العقل الثوري، بعد أن أزاحت عن طريقها العقل السلطوي، ثم انتقلت من بعد لتتراص على مقامات تشييد، جسّدها سوريون في مظاهراتهم وهتافاتهم وحركات أجسادهم. وجرّت الإحالة في أكثر من شعار إلى الذاكرة السورية والتاريخ السوري. على أن يفهم من كلمة سوريا، البشر والإقليم والبيئة المكتنفة.

وعلى مدى أشهر عديدة، ارتبطت شخصية المتظاهر السوري ببطولة مفهومية في حدث الثورة، جسّدت مظاهرات درعا وبانياس والبيضاء والميدان والزبداني وحمص وحماة ودير الزور وجامعة حلب وسواها.

### لغة السلطة

في المقابل، أنتجت السلطة الاستبدادية في سوريا، على مدار أكثر من أربعة عقود، لغة استبدادية، بحيث باتت اللغة العربية التي يتكلم بها أهل الحكم لغة تسلطية قمعية، نتيجة سيادة مركبات الاستبداد المتعدد المركبات والحوامل. ويمكن تتبع الدور الذي مارسته لغة السلطة، عبر الشعارات الفارغة التي رفعتها، بدء من شعار «الله، سوريا، بشار، وبس»، وصولاً إلى شعار «الأسد..أو نحرق البلد».

وقد أسهمت شعارات النظام الأسدي، بنسخته، الأب والابن، في تثبيت سطوته وهيمنته، ونشر ثقافة الخوف، وفي صناعة أسطورة الأسد، بوصفه الزعيم الأوحده، وتعزيز ديكتاتوريته، وفي شل قدرة الآخرين على المقاومة والرفض.

وبالنظر إلى الوظيفة التي تقوم بها اللغة السياسية للأنظمة الاستبدادية الحاكمة، نجد أن وظيفة اللغة التي سكنت جميع الخطب والكتابات السياسية لرموز النظام السوري، تنحصر في الدفاع عن سياسات، لا يمكن الدفاع عنها، أو تبريرها في الواقع، وتقدم نموذجاً للغة تحاول إلباس الأكاذيب ثوب الحقائق، في محاولة لجعلها

أداة فرض لضمان استمرار النظام.

وقد أفضى ذلك إلى خلق نوع من اللغة الفاسدة والمضللة، وإلى تقويتها حتى تُصبح مهيمنة ومسيطرة، بينما تُحارب اللغة الثائرة، كل من يحاول إخفائها وإسكاتها وتكميم أفواه أصحابها. إضافة إلى أن لغة السلطة الاستبدادية، كانت عامودية، موجهة من أعلى إلى أسفل، لا يدخلها الحوار، بل ولا تقرّ به، بعكس لغة السلطة الديمقراطية والليبرالية، فهي أفقية تفتح باستمرار على لغة «الأخر».

ربما تستطيع اللغة الديكتاتورية تحقيق وظيفتها الرئيسة؛ أي الدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه، بواسطة ظواهر من قبيل التلطفات، والغموض الإبهامي المطلق، إضافة إلى الاستعارات الفاسدة والكلمات الطويلة والمصطلحات المنهكة. هذه الظواهر تمثّل بعض الخصائص اللغوية والبلاغية للخطاب السياسي الفاسد، التي يلجأ إليها الشخص بشكل غريزي، حين توجد فجوة بين أهدافه الحقيقية والمعلنة.

ولعبت لغة السلطة دوراً في تثبيت سطوتها وهيمتها، وفي صناعة أسطورة الزعيم الأوحد، وتعزيز ديكتاتوريته، وفي شل قدرة الآخرين على المقاومة والرفض. إن لغة السلطة تُعد نموذجاً واقعياً للخداع والتضليل، وهي في الوقت ذاته، أداة القهر الأساسية. فحين لا تنجح اللغة في تضليل الآخرين، تُستخدم في قهرهم<sup>(18)</sup>.

غير أن زمن الثورة حطّم جميع دوائر الخوف، وكسر كل الحواجز، وأنتج لغة للشعار السياسي، ساهمت في تحطيم لغة السلطة، بوصفها نموذجاً للخداع والتضليل، وفي الوقت ذاته، أداة القهر الأساسية، حيث فقدت لغة السلطة القامعة، في زمن الثورة، قدرتها في السيطرة على أفعال الناس، وبات أصحابها يدركون أن لا مكان لهم في العالم الجديد الذي خلقتة الثورة.

### كوجيتو الثورة

شكلت الصرخة التي خرجت من أعماق «أحمد عبد الوهاب»: «أنا إنسان..

(18) عماد عبد اللطيف، «اللغة والثورة.. نقد الخطاب السياسي في أعمال جورج أورويل»، مجلة نزوى، 69 (يناير، 2012)، انظر:

ماني حيوان»، كوجيتو الثورة السورية بامتياز، ودخلت قاموسها الفلسفي، بوصفها المفهوم - الحدث المؤسس للثورة، التي انبثقت عن حراك احتجاجي سلمي عام، انطلق يوم 15 مارس 2010، وراح أبناؤه العزل ينشدون الأغاني ويرددون الشعارات، ويطالبون بالخلاص من ثقل الاستبداد المقيم على صدورهم<sup>(19)</sup>.

وأحمد عبد الوهاب، إنسان ينشد الحرية واسترجاع الكرامة، مثله مثل عامة السوريين. ليس فيلسوفاً ولا عالماً، بل ولد في الثورة السورية ومعها، حيث وجد تحقق كينونته - مثل كثير من السوريين - فيها، وتحول إلى أيقونة من أيقوناتها، بعد أن دشنت عبارته كوجيتو كينونة الثورة، بوصفها مفهوماً رصفت مركباته مقام الثورة، ودمج عناصره الذات والذاكرة، وأعلن اكتشاف الذات والصوت واللسان، الأمر الذي يشي بأن «أنا» المحتج باتت حاضرة ليس فقط في صرخاته، بل حاضرة كذلك في لغة الشعارات والكتابات، التي خطها أطفال درعا ومبدعو كفرنبل وشباب بستان القصر وجامعة حلب والميدان والزبداني ودوما وحمص وإدلب والقامشلي ومختلف شوارع وساحات الثورة في سوريا.

ويمكن أن نستخرج من الصيغة: «أنا إنسان.. ماني حيوان» معاني ومركبات ودلالات كثيرة لا حصر لها، ونحملها بحمولات متعددة، تتكاثر أو تتكثر مكوناتها وتتوالد الواحدة من الأخرى، بتغير الفعل وزمنه، والفاعل وضميره، أو بتغيير صيغة الجملة. ذلك أن اللغة العربية، شأنها شأن كثير من اللغات، تمتلك سياقات كثيرة بمعنى واحد أو بمعان كثيرة، هذه القدرة على استخراج التعدد والاختلاف في المعاني والدلالات، أسماها الفلاسفة، القدرة على التفلسف.

في هذه الصيغة يؤسس كوجيتو الثورة السورية مفهوماً فلسفياً، أو لنقل مفهوماً ثورياً، يمكن استعراض مستويين يؤطرانه، الأول: في صيغة «أنا إنسان» التي تجمع بين الذات والوجود الإنساني، إذ حين تمتهن الكرامة، يعتصر القلب ألماً، ويصرخ الإنسان بكل جوارحه: أنا إنسان، بوصفها مقولة تأكيد وجود حر. أما المستوى الثاني، فيتحدد في صيغة «ماني حيوان» التي تنفي عن الإنسان الفرد صفة الحيوانية، تمييزاً عنه، بامتلاك الكرامة. ومن يمتلك الكرامة يشعر بوجوده الإنساني المعزز،

(19) تعبير النبي الأعزل يعود إلى إسحاق دويتشر، وذلك في كتابه النبي الأعزل، الذي تناول فيه حياة تروتسكي.

ويتحرر من العبودية، حيث الكرامة والحرية، هما مركبا التأسيس في الثورة السورية، جمعتهما أنا الثائر كي تجسد كينونته، فالوجود هنا وجود كينونة، والكرامة هي كرامة إنسانية، لذلك نهضت الثورة السورية على كينونة حرة، رافضاً للإذلال والإهانة، الأمر الذي يفسر أن شعار التأسيس منذ الشرارة الأولى للثورة انطلق في صيغة «الشعب السوري ما بينذل» في ساحة «الحريقة»، في قلب دمشق، ثم وجد أقلمته في مدينة درعا في صيغة «الموت ولا المذلة»، وترادف مع شعار «حرية.. حرية»، وراحت جموع المحتجين العزل تردده في سائر أحياء المدن وشوارع البلدات والمناطق السورية.

ويحيل المستوى الأول للكوجيتو على الذات الإنسانية الحرّة، التي يكتمل وجودها في المستوى الثاني، بوصفه وجود كينونة كريمة أيضاً، ولا أسبقية فيما بين مكونات الكوجيتو، بل ترابط، لا يحيل إلى بناء تراتبية ما، حيث الكرامة والحرية هما شرطا تحقق الكينونة، فيما الثورة فعل هادف لتحقيق الحرية والتحرر، أي شرط تحقق للكينونة، بوصفه شرط وجود الذات، وناظم علاقتها وجودها بالآخر، والعالم والأشياء، وضمن ذلك وجود الوطن والبشر والإقليم والتاريخ.. إلخ.

وعلى الإجمال، فإن كوجيتو الثورة السورية ذاته، يحيل إلى قول إشاري حوارى، يأخذ صيغة جملة شرطية، ويحتوي على مكونات الكينونة والحرية والكرامة وتغلق في: «أنا إنسان ماني حيوان»، حيث تقدّم مكُوناته ومركباته نفسها، بوصفها قيماً تستند إلى الموروث الإنساني، وليس فقط موروثنا الثقافي، أما مرجعه فيعود إلى الحداثة وإنجازاتها المعرفية المتعددة.

## تسميات أيام الجمع

التسمية، بشكل عام، تُجسّد عملية انتقال الحدث السياسي، من الحقل الواقعي إلى الحقل التعبيري، بمعنى تثبيته قولياً. وفيما يخص تسمية أيام الجمع، في الثورات العربية، فهي عملية سياسية بامتياز، القصد منها تحديد وقائع الحدث اسماً، وعكس تعدد مراحل الثورة وتطورها.

ويتضمّن خطاب التسميات، عموماً، مجموعة من العناصر المكونة، التي تتألف وتتسق طبقاً لقوانين محدّدة. ومن المفترض تحليل هذه العناصر، والكشف عن

ماهيتها واستخلاص العلاقات التي تربطها ببعضها، أي معرفة النظام السيميائي الكامن وراء الخطاب المرسل لها<sup>(20)</sup>.

وقد اتخذت التسميات التي أطلقت على أيام الجمع في مرحلة تأسيس والتظاهر السلمي في الثورة السورية، طابعاً أخلاقياً في البداية ثم سياسياً وتاريخياً، ولم تتخذ طابعاً دينياً في مرحلة التأسيس والتظاهر السلمي، حيث حملت أول جمعة تظاهر اسم «جمعة الكرامة» يوم 18 آذار (مارس) 2011، تلتها جمعة العزة بيوم 25 آذار (مارس) 2011.

ويلاحظ على «تسميات جمع التظاهر» أنها تختلف عن الشعارات، من جهة تحميلها خطاباً موجهاً، ومفكراً فيه، يعكس مطالب الثوار والرسائل، التي يريدون إيصالها إلى الداخل السوري، وإلى الخارج، كما يحمل مسحة إيديولوجية دينية.

ويستند مقياس اختيار الاسم إلى المستجدات على الأرض، والتطورات السياسية، وبشكل يعكس المناخ العام الذي يسود بين صفوف المحتجين ضد النظام الأسدي. وهناك من يعتبر أن الإصرار على مواصلة إطلاق التسميات، «يُعَدُّ رافداً إعلامياً، يُغذّي الثورة، ويجعلها تحافظ على حيويتها الثورية»<sup>(21)</sup>.

وقد انبرت صفحة «الثورة السورية ضد بشار الأسد»، للإشراف على إطلاق تسميات أيام المجمع، حيث تقترح عدة تسميات، تطرح على تصويت إلكتروني على الفيس بوك، ليتم اختيار الاسم الأعلى تصويتاً. وإذا كانت عملية التصويت لها بعض الإيجابيات وخاصة الطابع الديمقراطي لها، والذي يرضي الغالبية من الذين يقومون بالتصويت، فإن هذه العملية لم تكن دائماً موفقة، من حيث الإجابة عن الأسئلة السابقة الذكر. كما أن عملية التصويت من خلال الإنترنت، ليست متاحة بسهولة للشعب السوري في الداخل، ولذلك فالنتائج قد لا تعكس تماماً وجهة نظر الداخل، وبناء على ذلك طرحت العديد من التساؤلات حول دور تسميات

(20) د. رجاء أحمد آل بهيش، سيميائية إطلاق التسميات في الخطاب الدعائي، مجلة الباحث الإعلامي، بغداد، العدد 18، 2013، ص 10 و 11.

(21) مراد علي، تسمية جُمع الثورة تنوعت باختلاف الظروف، البيان، 23 مارس 2012، انظر: <http://www.albayan.ac/one-world/arabs/2012-03-23-1.1616739>

الجمعة»<sup>(22)</sup>. واعتبر بعضهم أنها محاولة تهدف إلى «تحويل اتجاه الخطاب العام للثورة إلى توجه أيديولوجي محدد»<sup>(23)</sup>.

وعند العودة إلى مرحلة التأسيس والانطلاق، نجد أن التسميات كانت تراعي مسألة عمومية الثورة، بمعنى أنها ثورة لكل السوريين، من خلال مخاطبتها الشعب السوري، دون تمييز، بوصفها عاملاً جامعاً له. وحاولت لغتها كسب الكتلة الصامتة منه، لذلك اتخذت مضامين أخلاقية، مثل «الكرامة» و«الصمود» و«العزة»، و«الشهداء»، «آزادي»، و«حرائر الشام»، يتوافق ويجمع عليها مختلف تكوينات الشعب السوري، وخطابها موجه للخلاص من سطوة النظام الأسدي، ومركز على القيم الأخلاقية المسلوبة للإنسان السوري.

وكانت أول جمعة تظاهر قد حملت اسم «جمعة الكرامة» في 18 مارس 2011، إيذاناً ببدء حراك شامل، لحشد الناس في ميادين وساحات التظاهر. ثم توسعت حركة الاحتجاج في «جمعة العزة» يوم 25 آذار (مارس)، حاملة رسالة واضحة، ضممتها مطالب: الحرية والكرامة والديموقراطية، بعدها أتت «جمعة الشهداء» في الأول من نيسان (أبريل)، وامتدت فيها التظاهرات إلى مدن سورية جديدة، من بينها مدن كردية، ثم انتشرت التظاهرات في «جمعة الصمود»، بزخم كبير وإصرار على الصمود. وجاءت «الجمعة العظيمة» متقاطعة مع الجمعة العظيمة لدى الطوائف المسيحية وتكريماً لها، ثم جاءت «جمعة الغضب» في 29 نيسان (أبريل)، تلتها كل من «جمعة التحدي» في 6 أيار (مايو) 2011، التي صادفت ذكرى الاحتفال بعيد الشهداء، ثم «جمعة الحرائر» في 13 أيار (مايو) 2011، وفيها توسعت بؤر التظاهرات وازدادت، وأتت «جمعة آزادي» أو الحرية في 20 أيار (مايو) 2011، رمزاً للتعاقد والتضامن بين الأكراد والعرب. وفي 27 مايو 2011 جرى اختيار «جمعة حماة الديار»، بوصفها رسالة تذكير للجنود والضباط بمهمتهم الأساسية، وهي حماية الديار، وتحمل دعوة لهم للانضمام إلى الاحتجاجات المنادية بإسقاط النظام. ثم جاءت «جمعة أطفال الحرية» في

(22) مرة أخرى عن تسمية أيام الجمع في الثورة السورية، انظر:

<https://www.facebook.com/notes/ebn-al-balad/>

(23) ياسين الحاج صالح، في «ثلاث نظريات في أسماء الجمعة»، نائل الحريري، <http://jidar.net/Policy>

3 حزيران/ يونيو 2011، تحية للأطفال الشهداء، مثل حمزة الخطيب. بعدها أتت «جمعة العشائر»، التي وجهت دعوة للعشائر إلى التحرك والانخراط في الاحتجاجات، ثم «جمعة الشيخ صالح العلي» في يوم 17 حزيران/ يونيو 2011، لتأكيد التلاحم مع المكون العلوي. ثم تنالت أسماء الجمع، وتزايد معها عدد من المتظاهرين والشهداء في الثورة السورية، وصولاً إلى جمعة «ماضون حتى إسقاط النظام» في 16 أيلول/ سبتمبر 2011، التي أعلنت اكتمال مرحلة التأسيس والانطلاقة. وفيها كتبت شعارات كثيرة، مثل «عندما نقتل نزداد إصراراً.. عندما نعتقل نزداد إصراراً»، و«الثورة انطلقت، ولن يوقفها سوى إسقاط النظام». وجاء الشعار المصلي «الثورة تذكرة دخول، لا تذكرة خروج»، كي يعلن استحالة التراجع أو التوقف، وعن انتقال الثورة إلى مرحلتها العسكرية.

والملاحظ أنه مع إمعان النظام في استعمال العنف والسلاح في وجه المحتجين السلميين، بدأ خطاب تسميات الجمع ينحو نحو السياسة أكثر فأكثر، وبرزت العناوين السياسية، مثل «سقوط الشرعية»، «ارحل»، «لا للحوار»، و«أسرى الحرية»، و«صمتكم يقتلنا»، و«ماضون حتى إسقاط النظام»، ثم تطور الأمر إلى مسارات خطيرة مع مرحلة العسكرية، وتشكيل المجاميع الإسلامية المسلحة.

وقد صاغ المحتجون شعار «لم تقتل فينا إلا الخوف»، رداً على الإمعان في القتل والتدمير، وللتأكيد على أن استنفار النظام المجرم لمختلف وسائل القمع والتهديد والتنكيل، هو أمر لن يزيد غالبية الشعب السوري، إلا إصراراً على التحدي، والمضي قدماً في المواجهة، مهما كانت التكلفة والتضحيات، لأن «الثورة انطلقت، ولن يوقفها، سوى إسقاط النظام»، بوصفه الشعار الذي أعلن اكتمال مرحلة «التظاهر الأعزل» في الثورة السورية، وسيرها نحو مسارات متعددة، مختلفة.

## الخاتمة

تناولت الدراسة شعارات التأسيس في الثورة السورية، من جهة تبيان وظائف لغة الشعار السياسي، ورمزية الشعار السياسي في زمن الثورة، حيث عكست الشعارات، التي طرحت، مطالب المحتجين وتطلعاتهم وآمالهم، ونهلت من معين حياتهم وذاكرتهم وثقافتهم.

ونهضت لغة الشعار السياسي، بمختلف وظائفها التعبيرية والانفعالية والإفهامية والميتالغوية، على مقامات تشييد، جمعت بين عنصري الذات والذاكرة، من خلال حضور أنا المحتج ورموز ذاكرته وتاريخه الجمعي في أكثر من شعار. ولم تك أسيرة ظريفة حركة الاحتجاجات والمظاهرات، بل تضمنت أبعاداً تجاوزت ما هو فردي إلى ما هو وطني، منشدة تخطي البعد السياسي للشعار السياسي إلى بعد إنساني، أكثر رحابة واتساع، تطبيقاً لشعار «نريد وطناً يتسع للجميع».

وإن كانت اللغة الثورية قد أنتجت فكراً ثورياً، فإنها أنتجت - أيضاً - المعادل الضدي للغة السلطة الاستبدادية، التي أوجدت على مدار أربعة عقود لغة استبدادية، قامت على نفي الآخر وتهميشه وإلغائه، في امتداد عامودي، تعابيره متعالي، ولسان حاله يقول للآخرين «من أنتم؟»، و«من تمثلون؟»، حاملاً إساءات للآخر، واحتقار ودونية، فضلاً عن استعلاء يسكن عقل المستبد، الراض لأي تغيير، أو طموح يتخطاه.

وفي ميادين الحراك الاحتجاجي وساحاته، أسهمت جسديات التظاهر في زيادة شحنات الانفعال، فولدت طاقة تعبيرية، سعت الكلمات إلى تنظيمها وترويضها، من خلال خلق لغة ثورية، وظّفها حراك الشباب السوري في التظاهرات وميادين العمل الميداني المختلفة، واستبدلت فيها الأحاسيس والانفعالات بحقول وصورات، ومركبات أحاسيس، حلت محل اللغة، وأوجدت لغة أخرى داخل اللغة. وراحت تنشأ خلاصاً ومستقبلاً ينادي شعباً للمجيء وأرضاً أو وطناً كي يستريح، ولأجل ذلك طوّع المحتج السوري لغته، كي يحصل منها على ما يريد من أحاسيس، تجسد العذاب الإنساني المتجدد على مدى أكثر من أربع سنوات.



## ملحق

### أسماء الجمع في مرحلة التأسيس

- «جمعة الكرامة» (18-3-2011).
- «جمعة العزة» (25-3-2011).
- «جمعة الشهداء» (1-4-2011).
- «جمعة الصمود» (8-4-2011).
- «جمعة الإصرار» (15-4-2011).
- «الجمعة العظيمة» (22-4-2011).
- «جمعة الغضب» (29-4-2011).
- «جمعة التحدي» (6-5-2011).
- «جمعة حرائر سوريا» (13-5-2011).
- «جمعة أزاوي الحرية» (20-5-2011).
- «جمعة حماة الديار» (27-5-2011).
- «جمعة أطفال الحرية» (3-6-2011).
- «جمعة العشائر» (10-6-2011).
- «جمعة الشيخ صالح العلي» (17-6-2011)
- «جمعة سقوط الشرعية» (24-6-2011).
- «جمعة ارحل» (1-7-2011).
- «جمعة لا للحوار» (8-7-2011).
- «جمعة أسرى الحرية» (15-7-2011).
- «جمعة صمتكم يقتلنا» (29-7-2011).
- «جمعة الله معنا» (5-8-2011).
- «جمعة لن نركع إلا لله» (12-8-2011)
- «جمعة بشائر النصر» (19-8-2011).
- «جمعة الصبر والثبات» (26-8-2011).

- «جمعة الموت ولا المذلة» (2-9-2011).
- «جمعة الحماية الدولية» (9-9-2011).
- «جمعة ماضون حتى إسقاط النظام» (16-9-2011).

### بعض شعارات الثورة السورية في مرحلة التأسيس والانطلاقة

- «عاشت سورية ويسقط بشار الأسد».
- «يا بشار ويا عميل جهاز حالك للرحيل».
- «أوقفوا القتل نريد أن نبني وطناً لكل السوريين».
- «ما دمت محترماً حقّي فأنت أخي.. أمنت بالله.. أم أمنت بالحجر».
- «حماة لن تركع»، «درعا لن تركع».
- «انتهى زمن الحرية مقابل الخبز.. نريد الاثنين معاً».
- «ربّ أخ لم تلده أمك بل جلبته ثورتك».
- «لا للطائفية»، «الطائفية تقتل الشعوب».
- «وكلنا أخوة كلنا سوريا».
- «إيد وحدة إيد وحدة».
- «الشعب إيد وحدة».
- «الطائفية مقبرة الأوطان».
- «إيد بإيد نحنا ضد الظلم».
- «سوريا للكل».
- «نحننا إيد وحدة».
- «يا بثينة يا شعبان الشعب السوري مو جوعان».
- «يا درعا يا أبنية يا مشعل الحرية.. فدتنا حمص العدية بفرعتها الأوية».
- «ونحننا أهالي درعا أهل النخوة والفرعة.. ارحل يا ابن الطقعة.. وبشار خاين سوريا».
- «ما منحبك ما منحبك ارحل عنا إنت وحزبك».
- «يا بشار اسمع اسمع شعب درعا لا يركع».
- «مكتوب على البارودة بشار أيامك معدودة».
- «الموت ولا المذلة».
- «الله يا جبار عن درعا فك الحصار».

- «سفك الدماء وسيلة الجبناء».
- «جار البحث.. لم يتم العثور على ضمير حي يرجى البحث في كوكب آخر».
- «فلا نامت أعين الجبناء».
- «ما منحك ما منحك ارحل عنا أنت وحزبك ما منحك ما منحك ارحل عنا أنت وكذبك».
- «علينا الراية وعلينا الراية».
- «الما يشارك ما فيه ناموس».
- «سلمية سلمية سنية وعلوية اسلام ومسيحية ودروز وسمعولية مطالبنا شرعية».
- «ما بدنا إلا الحرية نحنا مو إرهابية».
- «نحننا شباب الحرية ما بدنا إلا الحرية».
- «يا بشار مانك منا خود ماهر وارحل عنا».
- «يا الله ما إلنا غيرك يا الله».
- «يا الله عجل فرجك يا الله».
- «يا الله نصرك نصرك يا الله».
- «يا للعار يا للعار سلمية تضرب بالنار».
- «يا للعار يا للعار حمص تصرخ تحت النار».
- «يا للعار يا للعار عالشب قاعد بالدار».
- «هؤور يا بو الهوارة دبّرهما وما لا دبارة.. نحننا بدنا الحرية والأسد بدو الدمارة».
- «شامنا لا تهتمي بفديكي بروحي ودمي».
- «دير الزور إنتي إمي والله محيي اللاذقية يا محلي هالحرية».
- «لله محييكي بانباس يلاً أومي ارفعي الراس الشبيحة بحمص بتنداس ودرعا الله محييا يا محلي هالحرية».
- «الشعب بدو freedom وبشار Go out من هون..
- «إذا بتطلع على ال moon ال people بدو حرية».
- «يا بشار يا بورثة ارحل عنا يا جدبة».
- «لا إيران ولا حزب الله بدنا رئيس يخاف الله».
- «النظام اللي بيحك منه شبيح سقطوا واستريح».
- «الشعب الفلسطيني المذبوح يتضامن مع الشعب السوري المذبوح».
- «ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلاً».

- «تصبحون على وطن»، «تصبحون على حرية».
- «عمو الشهيد عدنان وهبة سلم لي على رفثاتي أطفال الحولة».
- «التريمسة جرح جديد».
- «أيها العالم لسنا معارضة، نحن شعب يريد الحرية والكرامة».
- «ما منحك ما منحك قاتل ظالم ناهب شعبك».
- «الشعب السوري جاي يردك وعند مبارك بدو يكبك».
- «إحنا شباب البلد ما نهاب الأسد».
- «يا بشار اسماع اسماع دم السوري ما بينباع».
- «يا بشار اسمع اسمع لغير الله ما بنركع».
- «اسمع اسمع يا بشار الشعب السوري عليك ثار».
- «طق وفرقع يا فشار إجاك الدور يا بشار».
- «يا بشار صبرك صبرك بدرعا رح نحضر قبرك».
- «يا بشار اخرس اخرس هاد شهيد مو مندس».
- «زنقة زنقة دار دار بدنا نشيلك يا بشار».
- «زنقة زنقة دار دار بدنا راسك يا بشار».
- «شارع شارع دار دار سوريا كلها أحرار».
- «شدي حيلك يا بلد الحرية بتنولد».
- «يا جزيرة يا أميرة والله إنك صرتي كبيرة».
- «بدنا نحكي عالمكشوف سرقونا عيلة مخلوف».
- «بدنا نحكي عالمكشوف حرميه ما بدنا نشوف».
- «يا رامي ويا مخلوف الشعب السوري مو متوف».
- «يا رامي ويا مخلوف الشعب السوري مو خروف».
- «يا بشار يا حيوان ودي كلابك عالجولان».
- «بالروح بالدم نفديكي يا درعا».
- «الفزعة الفزعة يا حوران».
- «القصاص القصاص من من أطلق الرصاص».
- «أهل درعا يا بشار بدن ياخذوا منك ثار».
- «نحنأ بدنا الحرية إسلام ومسيحية ودروز وعلوية».

- «الشعب والجيش إيد وحدة».
- «يا الله يا جبار أسقط الظالم بشار».
- «يا الله يا جبار انصرنا على بشار».
- «يا الله يا صمد أسقط بشار الأسد».
- «النخوة النخوة يا جيش».
- «من قامشلي لهوران الشعب السوري ما بينهان».
- «يا حيف درعا يا حيف شعبك واقف عالرصيف».
- «مظاهراتنا سلمية مطالبنا شرعية».
- «منطالب بالحرية ومنطلب ديمقراطية».
- «الشعب السوري ما بينذل بعمر و ما انهان وما مل».
- «يا ثوار ليبيا الأحرار متبرا من بشار».
- «الشعب السوري ما يبجوك لا انت ولا عمك ولا أخوك».
- «عن كرسيك رح يخلعوك أو بتروح لعند أبوك».
- «سوريا الله حاميها وبشار حراميها».
- «يا بشار باي باي بدنا نشوفك في لاهاي».
- «لا إيران ولا حزب الله بدنا مسلم يخاف الله».
- «يا بشار اسماع اسماع صوت الحق ما بينباع».
- «يا سوريا ويا إمي والله بفديكي بدمي».
- «افتحي بوابك يا جنة إجاكي شهيد من عنا».
- «ويا حوران نحنا معاكي عالموت».
- «ينصر دينك يا حوران الشعب السوري ما بينهان».
- «ينصر دينك يا بانياس الشعب السوري ما بينداس».
- «الله أكبر عالظالم».
- «لا سلفية ولا إرهاب الإعلام السوري كذاب».
- «هيك عنا وهيك صار سوريا بلد الأحرار».
- «يا حيف حلب يا حيف أختك حمص عم بتصيح».
- «حاميها حراميها».

## عراضتي إبراهيم القاشوش

### ياالله ارحل يا بشار

يا بشار مانك منا.. خود ماهر وارحل عنا.. وهاي شرعيتك سقطت عنا  
 ويالله ارحل يا بشار  
 يا بشار ويا كذاب.. مين كتبلك هالخطاب.. الحرية صارت عالباب  
 ويالله ارحل يا بشار  
 يا بشار العيب فيك.. وعيب بكل مين بيحييك.. وع الكرسي ما ح نخليك  
 ويالله ارحل يا بشار  
 يا بشار حاجة تدور.. دمك الفاسد مهدور.. وخطأك مانو مغفور  
 ويالله ارحل يا بشار  
 يا ماهر يا جبان.. يا عميل الأمريكان.. الشعب السوري ما بينهان  
 ويالله ارحل يا بشار  
 يا بشار وعد مني.. ما رح تقدر تخلص مني.. من بعدي ملايين تغني  
 ياالله ارحل يا بشار  
 أنا قاشوش وعد مني.. ما رح تقدر تخلص مني.. من بعدي ملايين تغني  
 ياالله ارحل يا بشار  
 لا حوار ولا نقاش.. مع هالشلة الأوباش.. يا بشار يا غشاش  
 ويالله ارحل يا بشار  
 يا بشار ويا مندس.. تضرب انت وحزب البعث.. وروح صلح حرف الاس  
 ويالله ارحل يا بشار  
 هادا صوتي عم بينادي.. ياالله روح تريك بلادي.. ياللي كذبك صاير عادي  
 ويالله ارحل يا بشار

### أنشودة سورية بدها حرية

بدنا نشيلو لبشار بهمتنا القوية.. سوريا بدا.. حرية  
 طالبنا بالحرية سمونا إرهابية.. سوريا بدا.. حرية  
 حيوا شباب الرستن والشباب الحموية.. سوريا بدا.. حرية  
 مكتوب على علمنا بشار خاين وطننا.. سوريا بدا.. حرية

مكتوب على علمنا مخلوف سارق وطننا.. سوريا بدا.. حرية  
 نحنا شباب التغيير مطالبنا شرعية.. سوريا بدا.. حرية  
 حاجة تطلع قوانين قوانينك كذابية.. سوريا بدا.. حرية  
 حاجة تطلع قوانين شرعيتك منتهية.. سوريا بدا.. حرية  
 لو طيرتوا هالقاشوش في متلو الف ومية.. سوريا بدا.. حرية

### عراضة حمصية

يا وطننا ويا غالي.. وبياضة ردوا عليا  
 هبت من درعا ثورة.. بتنادي بالحرية  
 داعل انخل وجاسم.. والقرى الحورانية  
 والشام يا بخت الشام.. والمراجل خالدية  
 وسباع يا باب سباع.. والمراجل خالدية  
 رستن تليسة وبياضة.. مقابر للبعثية  
 بابا عمرو يا عمري.. وتلكلخ يا عينيا  
 بانياس اللي بترفع الراس.. وأهل البيضا زكرتيا  
 طرطوس منبع ناموس.. ويا محلاها اللادقية  
 يا ربي حماه حميها.. أهل الفدا نشميا  
 والشهبا كلها تنام.. وتصحا رجال الحمية  
 والحسكة أهلها كرام.. وأهل النخوة كردية  
 قامشلي تبيد الظلام.. ودير الزور بتكويها  
 على العين ثورة على العين.. نحن بدنا الحرية  
 على العين ثورة على العين.. والشهدا يوميا  
 عم يقولوا مندسين.. بشمركة وسلفية  
 ببيجو يعتقلوا الشرفاء.. ويتركوا الحرامية  
 ويا وطننا ويا غالي.. الشعب بدو الحرية  
 ويا وطننا ويا غالي.. ويا بياضة ردو عليا  
 خلي يقولوا مندسين.. بشمركة وسلفية  
 ويا وطننا ويا غالي.. الشعب بدو الحرية.

## محور IV

المسيحية والإسلام  
في الثورات العربية





# وثائق الأزهر خلال الثورة وآفاق الإصلاح الإسلامي

رضوان السيد

الجامعة اللبنانية

rwafsayed@yahoo.com

## الملخص

جاءت بيانات المؤسسة الدينية العريقة بمصر (مؤسسة الأزهر) بعد حراك 25 يناير 2011، مفاجئةً أو غير متوقعة. فالمؤسسات الدينية السنية الأخرى، إما صمتت أو أيدت الاستمرار في «طاعة» النظام؛ بينما عمد الأزهر منذ بيانه الأول عن مستقبل نظام الحكم في مصر، إلى دعم قيام الدولة الدستورية الديمقراطية العصرية. وتناالت البيانات بعد ذلك: من بيان نبذ العنف، وإلى بيان دعم الحركات التغييرية العربية، وإدانة النظام السوري لاستخدامه العنف ضد شعبه، فإلى بيان الحريات الأربع، وأخيراً البيان المتعلق بقضايا المرأة وحرياتها.

يقرأ الدكتور رضوان السيد في المقالة بيانات الأزهر، وطرائق صياغتها، ودلالاتها. ثم يقوم باستكشاف موجزٍ لإمكانيات الإصلاح الديني وسط تحديات صعود العنف باسم الإسلام، واستمرار عنف الأنظمة في بعض البلدان، والحرب الطائفية المشنونة على العرب، وعمليات تحويل المفاهيم الدينية وتحويلها طوال العقود الماضية. ويصل الباحث بعد تحليلٍ معمقٍ إلى أنّ الإصلاح الديني يمكن أن يمتلك حظوظاً للنجاح رغم شراسة التحديات، إذا اقترن بإصلاحٍ سياسي، وأعمالٍ جادةٍ من جانب شبان التغيير ودعاة الدولة المدنية الآخرين استمراراً في السعي لإنجاز أنظمة للحكم الصالح والرشيد.

لكن ما هي حظوظ الاقتران السالف الذكر إذا صحَّ التعبير؟ كاتب المقال يعتبر أنّ العقبان الثلاث التي واجهت التغيير العربي هي: مقاومة القوى القديمة والتي ما تزال مستمرة، وظهور الإسلاميين السياسي والجهادي، والتدخل الخارجي الإيراني والتركي. وهذا يعني أنّ المناعة الموجودة والتي يمكن أن تُكتسب ينبغي أن تكون مزيجاً من قوة الدولة، ومن قوة المؤسسة الدينية، ومن النهوض الثقافي والديني. أما بالنسبة للعامل الأول (= قوة الدولة)؛ فإنها تظهر بأشكال مختلفة أبرزها ما جرى في تونس ومصر. لكنه ليس كافياً ليشكّل ظاهرة

إنما المأمول أن يحدث ذلك قريباً. في حين تظل المؤسسة الدينية، ويظل النهوض عاملين أساسيين في مكافحة التشدد والتطرف، وفي إعادة السكينة للدين، وتصحيح المفاهيم. وفي هذا الصدد تظل بيانات الأزهر الجريئة والمستنيرة دليلاً على الحيوية المتجددة في المؤسسة الدينية، والتي يمكن بالفعل أن تشكل فارقاً في المدى المتوسط.

كلمات مفاتيح: الأزهر؛ المؤسسات الدينية؛ الإصلاح الديني؛ نهج التجديد والتأويل؛ فتح التقليد؛ الدولة المدنية والإسلام.

## Abstract

### Azhar Documents during the revolution and the horizons of Islamic Reform

Ridwan al-Sayyid

*The declarations by al-Azhar, the most prestigious religious institution in Egypt, following the mobilizations of January 25, 2011, have been surprising or unexpected. In fact, other religious Sunnite institutions have remained silent or have endorsed the «obedience» of the regime. Meanwhile, since its first public statement with regard to the future of governance in Egypt, al-Azhar has intentionally supported the establishment of a constitutional, democratic and modern state. Other declarations have followed in order to support mobilizations advocating for change in the Arab world, to condemn the recourse to violence by the Syrian regime, and to promote the declaration on the four fundamental freedoms and finally the declaration in respect to women's rights and freedom.*

*Dr. Ridwan al-Sayyid presents a reading of the documents of al-Azhar; the way they are presented and drafted, and their connotations. He then briefly explores the possibilities of religious reform against the backdrop of challenges posed by the emergence of violence in the name of Islam, the protracted violence used by some regimes in the region, and the ongoing sectarian violence against the Arabs as well as the transformation and distortion of religious concepts during the last decades. He argues that religious reform has the potential to succeed despite such challenges if it is coupled with political reform in addition to the efforts of young people striving for change and the establishment of a civil state in pursuit of a good governance regime.*

*Yet what are the chances of the connection between religious and political reforms? Al-Sayyid considers that three obstacles have hindered change in the Arab world: the resistance of the old regimes that are still in place, the emergence of political and jihadi Islam, and Turkish and Iranian interference. Accordingly, immunity should be reinforced by a combination of state strength, already available in Egypt and Tunisia in different ways, the strength of religious institutions necessary for fighting radicalism and extremism, the clarification of concepts, and the return of tranquility to the religion. In this vein, the daring and enlightened al-Azhar declarations attest to the ability of the religious institution to renew itself and play a crucial role in the near future.*

**Key Words:** Azhar; religious institutions; Islamic reform; policy for renewal and hermeneutics; reopening the door of ijthihad; civil government and Islam.

## المقدمة

دفع حراك شبان 25 يناير 2011 بميدان التحرير إلى حيوية زاخرة وكبرى بداخل مصر، وفي سائر أنحاء العالم العربي. وقد دخلت المؤسسة الدينية العريقة بمصر، مؤسسة الأزهر، على الأفق الذي فتحه الحراك وعلى فعالياته. وما كان دخولها دخولَ الفاعل السياسي، بل الفاعل الوطني والعربي والثقافي والديني. وانطلقت من أربعة ثوابت ما فارقتها: ثابت الدولة الوطنية المصرية العريقة والجامعة والباقية. وثابت السلم والبقاء تحت سقف العرف الوطني والقانون. وثابت إرادة التطوير والتجديد والحكم الرشيد بما يخدم نضالات الشعب المصري، والشعوب العربية الأخرى. وثابت الوسطية والاعتدال الإسلامي في مواجهة تيارات التطرف والتشدد، واصطناع التفرقة أو العنف أو الانكماش. وفي الشهور الأولى لحركة التغيير المصرية، عمد الأزهر إلى إنشاء «بيت العائلة المصرية» لتجاوز ما يمكن أن يحدث ويسيء إلى الوحدة الوطنية. ثم انصرف الأزهر إلى إصدار البيانات والوثائق الرامية إلى بلورة إجماعات وطنية من ضمن الثوابت الأربعة. وهذه «الإجماعات» ما كانت صيغَ التوصل إليها القصد الإرشادي وحسب؛ بل كانت طرائق الصياغة مجالاً لاستحداث أجواء وطنية عامة وتوافقية. إذ كان يجتمع عليها وبدعوة من شيخ الأزهر، عشرات المثقفين المصريين من سائر الاتجاهات، إضافة إلى علماء الأزهر القائمين على العملية كلها. وبسبب هذا الروح التوافقي العام، استطاعت بيانات الأزهر الجماعية هذه أن تحقق عدة أهداف وطنية وعربية وإسلامية - كما أنها صمدت وسط التقلبات في المراحل الثلاث للأحداث بمصر: مرحلة الانطلاقة الشبابية التغييرية - ومرحلة صعود الإسلام السياسي - ومرحلة الثوران على الإخوان، واستعادة الزمام، ومكافحة التطرف والإرهاب<sup>(\*)</sup>. وهكذا فإن تلك البيانات تحولت بالفعل إلى «وثائق»، تظل معلماً من معالم الوطنية المصرية والعربية والإسلامية، ومعلماً من معالم الاستنارة وبعْد النظر، والأفق الواسع. وأخيراً معلماً هادياً في طرائق مكافحة العنف والتطرف في قلب الدين ومن حوله.

(\*) قارن عن الأزهر بعد الثورة، ناثن براون: الأزهر في حقبة ما بعد الثورة. مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي (سبتمبر، 2011)، والإسلام السياسي في مصر الثورة. مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي (أبريل، 2013).

## أولاً: البيانات والإعلانات والوثائق(\*):

### أ. وثيقة الأزهر حول مستقبل مصر (14 يونيو 2011):

بدأ البيان باعتراف الجميع بدور الأزهر القيادي في المجال الديني والوطني، ودوره الرائد في بلورة الفكر الإسلامي الوسطي. وهو الفكر الذي ينبغي انطلاقاً منه تحديد طبيعة المرجعية الإسلامية في عددٍ من القضايا الكلية المستخلصة من النصوص الشرعية القطعية الثبوت والدلالة؛ بوصفها المعبرة عن الفهم الصحيح للدين. وجاءت المحاور الأساسية على النحو التالي:

أولاً: دعم تأسيس الدولة الوطنية الدستورية الديمقراطية الحديثة، التي تعتمد على دستور ترتضيه الأمة، يفصل بين سلطات الدولة ومؤسساتها القانونية الحاكمة. ويحدد إطار الحكم، ويضمن الحقوق والواجبات لكل أفرادها على قدم المساواة، بحيث تكون سلطة التشريع فيها لنواب الشعب؛ بما يتوافق مع المفهوم الإسلامي الصحيح، حيث لم يعرف الإسلام - لا في تشريعاته ولا حضارته ولا تاريخه - ما يعرف في الثقافات الأخرى بالدولة الدينية الكهنوتية التي تسلطت على الناس، وعانت منها البشرية في بعض مراحل التاريخ، بل ترك للناس إدارة مجتمعاتهم واختيار الآليات والمؤسسات المحققة لمصالحهم، شريطة أن تكون المبادئ الكلية للشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع، وبما يضمن لأتباع الديانات السماوية الأخرى الاحتكام إلى شرائعهم الدينية في قضايا الأحوال الشخصية.

ثانياً: اعتماد النظام الديمقراطي القائم على الانتخاب الحر المباشر، الذي هو الصيغة العصرية لتحقيق مبادئ الشورى الإسلامية، بما يضمنه من تعددية ومن تداول سلمي للسلطة، ومن تحديد للاختصاصات ومراقبة للأداء ومحاسبة للمسؤولين أمام ممثلي الشعب، وتوخي منافع الناس ومصالحهم العامة في جميع التشريعات والقرارات، وإدارة شؤون الدولة بالقانون - والقانون وحده - وملاحقة الفساد وتحقيق الشفافية التامة وحرية الحصول على المعلومات وتداولها.

(\*) أنظر دراسات عن الوثائق ودور الأزهر في؛ رضوان السيد: أزمة التغيير، الدين والدولة والإسلام السياسي (2014) ص 247-290، وأيمن فؤاد سيد: وثائق الأزهر بعد الثورة؛ بمجلة التفاهم العمانية، م 40، 2013، ص ص 61-81.

ثالثاً: الالتزام بمنظومة الحريّات الأساسية في الفكر والرأي، مع الاحترام الكامل لحقوق الإنسان والمرأة والطفل، والتأكيد على مبدأ التعددية واحترام الأديان السماوية، واعتبار المواطنة مناط المسؤولية في المجتمع.

رابعاً: الاحترام التام لأداب الاختلاف وأخلاقيات الحوار، وضرورة اجتناب التكفير والتخوين واستغلال الدين واستخدامه لبعث الفرقة والتنايد والعداء بين المواطنين، مع اعتبار الحث على تجنب الفتنة الطائفية والدعوات العنصرية لأنها جريمة في حق الوطن. ووجوب اعتماد الحوار المتكافئ والاحترام المتبادل والتعويل عليهما في التعامل بين فئات الشعب المختلفة، من دون أية تفرقة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين.

خامساً: تأكيد الالتزام بالمواثيق والقرارات الدولية، والتمسك بالمنجزات الحضارية في العلاقات الإنسانية، المتوافقة مع التقاليد السليمة للثقافة الإسلامية والعربية، والمتسقة مع الخبرة الحضارية الطويلة للشعب المصري في عصوره المختلفة، وما قدمه من نماذج فائقة في التعايش السلمي ونشدان الخير للإنسانية كلها.

سادساً: الحرص التام على صيانة كرامة الأمة المصرية والحفاظ على عزتها الوطنية، وتأكيد الحماية التامة والاحترام الكامل لدور العبادة لأتباع الديانات السماوية الثلاث، وضمنان الممارسة الحرة لجميع الشعائر الدينية من دون أية مُعوّقات، واحترام جميع مظاهر العبادة بمختلف أشكالها، من دون تسفيهٍ لثقافة الشعب أو تشويهٍ لتقاليدِهِ الأصلية، وكذلك الحرص التام على صيانة حرية التعبير والإبداع الفني والأدبي في إطار منظومة قيمنا الحضارية الثابتة.

سابعاً: اعتبار التعليم والبحث العلمي ودخول عصر المعرفة قاطرة التقدم الحضاري في مصر، وتكريس كل الجهود لتدارك ما فاتنا في هذه المجالات، وحشد طاقة المجتمع كلّ لمحو الأمية، واستثمار الثروة البشرية وتحقيق المشروعات المستقبلية الكبرى.

ثامناً: إعمال فقه الأولويات في تحقيق التنمية والعدالة الاجتماعية، ومواجهة الاستبداد ومكافحة الفساد والقضاء على البطالة، وبما يفجر طاقات المجتمع وإبداعاته في الجوانب الاقتصادية والبرامج الاجتماعية والثقافية والإعلامية، على

أن يأتي ذلك على رأس الأولويات التي يتبناها شعبنا في نهضته الراهنة، مع اعتبار الرعاية الصحية الحقيقية والجدادة واجب الدولة تجاه كل المواطنين جميعاً.

تاسعاً: بناء علاقات مصر بأشقائها العرب ومحيطها الإسلامي ودائرتها الإفريقية والعالمية، ومناصرة الحق الفلسطيني، والحفاظ على استقلال الإرادة المصرية، واسترجاع الدور القيادي التاريخي على أساس التعاون على الخير المشترك، وتحقيق مصلحة الشعوب في إطار من النديّة والاستقلال التام، ومتابعة المشاركة في الجهد الإنساني النبيل لتقدم البشرية، والحفاظ على البيئّة، وتحقيق السلام العادل بين الأمم.

عاشراً: تأييد مشروع استقلال مؤسسة الأزهر، وعودة «هيئة كبار العلماء» واختصاصها بترشيح واختيار شيخ الأزهر، والعمل على تجديد مناهج التعليم الأزهري؛ ليسترد دوره الفكري الأصيل، وتأثيره العالمي في مختلف الأنحاء.

حادي عشر: اعتبار الأزهر الشريف هو الجهة المختصة التي يُرجع إليها في شؤون الإسلام وعلومه وتراثه واجتهاداته الفقهية والفكرية الحديثة، مع عدم مصادرة حق الجميع في إبداء الرأي متى تحققت فيه الشروط العلمية اللازمة، وبشرط الالتزام بأداب الحوار، واحترام ما توافق عليه علماء الأمة.

## ب- وثيقة الربيع العربي ومساندة حركات التحرر العربي (31 أكتوبر 2011)

جاء إصدار هذه الوثيقة من أجل دعم إرادة الشعوب في تحقيق الشورى والعدالة والحرية وحقوق الإنسان وخاطبت الحكام والرؤساء بضرورة الاستجابة لمطالب شعوبهم. وقال شيخ الأزهر في أعقاب الجلسات التي ناقشت الوثيقة: «إن مواجهة أي احتجاج وطني سلمي بالقوة والعنف المُسلَّح وإراقة دماء المواطنين المسالمين هو بمثابة نقض لميثاق الحكم بين الأمة وحكامها، ويُسقط شرعية السلطة ويُهدر حَقَّها في الاستمرار بالتراضي، فإذا تماذت السلطة في «طغيانها» واستهانت بإراقة دماء المواطنين الأبرياء حفاظاً على بقائها غير المشروع- على الرغم من إرادة الشعوب- أصبحت السلطة مُدانَةً بجرائم تلوث صفحاتها، وأصبح من حق الشعوب المقهورة أن تعمل على عزّل الحكام المتسلّطين ومحاسبتهم».



## بنود الوثيقة:

أولاً: تعتمدُ شرعية السلطة الحاكمة من الوجهة الدينية والدستورية على رضا الشعوب، واختيارها الحرّ، من خلال اقتراعٍ علنيٍّ يتمُّ في نزاهة وشفافية ديمقراطية، باعتباره البديل العصري المنظم لما سبقت به تقاليد البيعة الإسلامية الرشيدة، وطبقاً لتطوُّر نُظُم الحكم وإجراءاته في الدولة الحديثة والمعاصرة، وما استقرَّ عليه العُرف الدستوري من توزيع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، والفصل الحاسم بينه، ومن ضبط وسائل الرقابة والمساءلة والمحاسبة، بحيث تكون الأمة هي مصدر السلطات جميعاً، ومانحة الشرعية وسالبتها عند الضرورة. وقد درَج كثيرٌ من الحكام على تعزيز سلطتهم المطلقة مُتَشَبِّهينَ بفهم مبتورٍ للآية القرآنية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ (سورة النساء: 59) متجاهلين سياقها الواضح الصريح في قوله تعالى قبل ذلك في الآية التي تسبق هذه الآية مباشرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ (سورة النساء: 58) مما يجعل الإخلال بشروط أمانة الحكم وعدم إقامة العدل فيه مُسَوِّغاً شرعياً لمطالبة الشعوب بحكامهم بإقامة العدل، ومقاومة الظلم والاستبداد، ومن قال من فقهاؤنا بوجود الصبر على المتغلب المستبد من الحكام حرصاً على سلامة الأمة من الفوضى والهزج والمزج- قد أجاز في الوقت نفسه عزل المستبد الظالم إذا تحققت القدرة على ذلك وانتفى احتمال الضرر والإضرار بسلامة الأمة ومجتمعاتها.

ثانياً: عندما يرتفع صوت المعارضة الوطنية الشعبية والاحتجاج السلمي، الذي هو حقٌّ أصيلٌ للشعوب لتقويم الحكّام وترشيدهم، ثم لا يستجيب الحكّام لنداء شعوبهم، ولا يُبادرون بالإصلاحات المطلوبة؛ بل يُمعنون في تجاهل المطالب الوطنية المشروعة التي تنادي بالحرية والعدالة والإنصاف، فإن هؤلاء المعارضين الوطنيين لا يُعدُّون من قبيل البُغاة أبداً، وإنما البُغاة هم الذين تحدّدت أوصافهم فقهيّاً بامتلاك الشُّوكة والانعزال عن الأمة ورفع الأسلحة في مواجهة مخالفيهم، والإفساد في الأرض بالقوة. أما الحركات الوطنية السلمية المعارضة فهي من صميم حقوق الإنسان في الإسلام التي أكّدتها سائر المواثيق الدولية؛ بل هي واجب المواطنين لإصلاح مجتمعهم وتقويم حُكامهم، والاستجابة لها واجبٌ على الحكّام

وأهل السلطة دون مُراوغةٍ أو عنادٍ.

ثالثاً: تُعدُّ مواجهة أيِّ احتجاجٍ وطنيٍّ سلميٍّ بالقوة والعنف المسلَّح، وإراقة دماء المواطنين المسالمين، نقضاً لميثاق الحكم بين الأمة وحكامها، ويُسقطُ شرعية السلطة، ويهدر حقَّها في الاستمرار بالتراضي فإذا تمادت السلطة في طغيانها، وركبت مركب الظلم والبغي والعدوان واستهانت بإراقة دماء المواطنين الأبرياء، حفاظاً على بقائها غير المشروع - وعلى الرغم من إرادة شعوبها- أصبحت السلطة مدانة بجرائم تُلوِّثُ صفحاتها، وأصبح من حق الشعوب المقهورة أن تعمل على عزل الحكام المتسلطين وعلى محاسبتهم، بل تغيير النظام بأكمله، مهما كانت المعاذير من حرص على الاستقرار أو مواجهة الفتن والمؤامرات، فانتهاكُ حرمة الدم المعصوم هو الخطُّ الفاصل بين شرعية الحكم وسقوطه في الإثم والعدوان. وعلى الجيوش المنظَّمة - في أوطاننا كلها - في هذه الأحوال أن تلتزم بواجباتها الدستورية في حماية الأوطان من الخارج، ولا تتحوَّل إلى أدواتٍ للقمع وإرهاب المواطنين وسفك دمائهم: فإنه: ﴿... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (سورة المائدة: 32).

رابعاً: يتعيَّن على قوى الثورة والتجديد والإصلاح أن تبتعد كلياً عن كل ما يؤدي إلى إراقة الدماء، وعن الاستقواء بالقوى الخارجية أياً كان مصدرها، ومهما كانت الذرائع والتعليقات التي تتدخل بها في شؤون دولهم وأوطانهم، وإلا كانوا بُغاةً خارجين على أمتهم وعلى شرعية دولهم. ووجب على السلطة حينئذٍ أن تردهم إلى وحدة الصف الوطني الذي هو أولى الفرائض وأوجب الواجبات. وعلى قوى الثورة والتجديد أن تتحد في سبيل تحقيق حُلُمها في العدل والحرية، وأن تتفادى النزعات الطائفية أو العرقية أو المذهبية أو الدينية، حفاظاً على نسيجها الوطني، واحتراماً لحقوق المواطنة، وحشداً لجميع الطاقات من أجل تحوُّل ديمقراطي يتمُّ لصالح الجميع، في إطار من التوافق والانسجام الوطني، ويهدف لبناء المستقبل على أساس من المساواة والعدل، وبحيث لا تتحوَّل الثورة إلى مغنم طائفية أو مذهبية، أو إثارة للحساسيات الدينية؛ بل يتعيَّن على الثوار والمجدِّدين والمصلحين الحفاظ على مؤسسات دولهم، وعدم إهدار ثرواتها، أو التفريط لصالح المتربِّصين

، وتفادي الوقوع في شرك الخلافات والمنافسات، والاستقواء بالقوى الطامعة في أوطانهم أو استنزاف خيراتها.

خامساً: بناءً على هذه المبادئ الإسلامية والدستورية، المعبرة عن جوهر الوعي الحضاري؛ فإن علماء الأزهر وقادة الفكر والثقافة يُعلنون مناصرتهم التامة لإرادة الشعوب العربية في التجديد والإصلاح ومجتمع الحرية والعدالة الاجتماعية والتي انتصرت في تونس ومصر وليبيا، ولا تزال محتدمة في سورية واليمن، ويدينون آلات القمع الوحشية التي تُحاول إطفاء جذوتها، ويُهيئون بالمجتمعين العربي والإسلامي أن يتخذا مبادرات حاسمة وفعالة لتأمين نجاحها بأقل قدرٍ من الخسائر، تأكيداً لحقّ الشعوب المطلق في اختيار الحُكّام، وواجبها في تقويمهم منعاً للطغيان والفساد والاستغلال، فشرعية أية سُُلطةٍ مرهونة بإرادة الشَّعب، وحقّ المعارضة الوطنية السلمية غير المسلحة مكفولٌ في التشريع الإسلامي في وجوب رفع الضَّرر، فضلاً عن كونه من صميم حقوق الإنسان في المواثيق الدولية جميعاً.

سادساً: يُناشد علماء الأزهر والمثقفون المشاركون لهم النظم العربية والإسلامية الحاكمة الحرص على المبادرة إلى تحقيق الإصلاح السياسي والاجتماعي والدستوري طُوعاً، والبُدء في خطوات التحوُّل الديمقراطي، فصحة الشعوب المضطهدة قادمة لا محالة، وليس بوسع حاكم الآن أن يحجب عن شعبه شمس الحرية، ومن العار أن تظلّ المنطقة العربية وبعض الدول الإسلامية قابعةً من دون سائر بلاد العالم في دائرة التخلف والقهر والطغيان، وأن يُنسب ذلك ظلماً وزوراً إلى الإسلام وثقافته البريئة من هذا الُبهتان، كما يتعين على هذه الدول أن تشرع على الفور في الأخذ بأسباب النهضة العلمية والتقدم التكنولوجي والإنتاج المعرفي، واستثمار طاقاتها البشرية وثرواتها الطبيعية خدمة لمواطنيها، وتحقيقاً لسعادة البشرية كلّها.

#### جـ. بيان الأزهر والمثقفين عن منظومة الحريات الأساسية (8 يناير 2012)

صدر هذا البيانُ في يناير سنة 2012م وأشار في ديباجته إلى أن ثورات التحرير التي اجتاحت مؤخراً قسماً من البلاد العربية رَفَعَت سَقْفَ الحريات وأذكت روح النهضة الشاملة لدى مختلف الفئات، وبالتالي فقد تطلَّع المصريون والأمة العربية

والإسلامية إلى علماء الأمة ومفكريها المثقفين كي يحزّروا العلاقة بين المبادئ الكلية للشريعة الإسلامية السمحاء ومنظومة الحريات الأساسية التي أجمعت عليها المواثيق الدولية وأسفرت عنها التجربة الحضارية للشعب المصري تأصيلاً لأسسها وتأكيداً لثوابتها وتحديداً لشروطها التي تحمي حركة التطور وتفتح آفاق المستقبل. وحدّد البيان هذه الحريات الأساسية في أربع: حرية العقيدة، وحرية البحث العلمي، وحرية الرأي والتعبير، وحرية الإبداع الفني. وعدّ البيان حُرّية الرأي والتعبير أمّ الحريات كلّها.

وأشارَ البيان كذلك إلى أنّ إقرار جُملة من المبادئ والضوابط الحاكمة لها في ضوء اللحظة التاريخية الراهنة لا يتأتى على الوجه الأكمل إلا إذا تضافر الخطاب الديني المُستنير مع الخطاب الثقافي الرشيد ليندرجا معاً في نسق مُستقبلي مُثمر يُوحّد بينهما في الأهداف والغايات التي يتوافقُ عليها الجميع، ويحافظ في الوقت نفسه على جوهر التوافق المجتمعي ويرعى الصالح العام في مرحلة التحوّل الديمقراطي؛ حتى تنتقل الأمة إلى بناء مؤسساتها الدستورية بسلام واعتدال.

### أولاً: حرية العقيدة:

اعتبر البيان حرية العقيدة وما يرتبطُ بها من حق المواطنة الكاملة للجميع القائم على المساواة التامة في الحقوق والواجبات حَجَر الزاوية في البناء المجتمعي الحديث، وهي حرية كفلتها الأصول الدستورية والنصوص الدينية القطعية، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ (سورة البقرة: 256)، ويقول: ﴿...فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (سورة الكهف: 29)، مما يترتّب عليه تجريم أي مظهر للإكراه في الدين أو الاضطهاد أو التمييز بسببه، فلكل فرد في المجتمع أن يعتنق من المبادئ ما شاء من دون أن يُنقص ذلك من أهليته باعتباره مواطناً حُرّاً.

ولما كان الوطن العربي مهبط الوحي السماوي وحاضن الأديان فهو أشدّ التزاماً برعاية قداساتها واحترام شعائرها وصيانة حقوق الأفراد في الإيمان بحرية وكرامة. وهو الأمر الذي يترتّب عليه التسليم بمشروعية التعدّد ورعاية حق الاختلاف ووجوب مراعاة كل مواطن مشاعر الآخرين والمساواة الكاملة بينهم على أساس

متين من المواطنة والشراكة وتكافؤ الفرص في جميع الحقوق والواجبات، ويترتب عليه كذلك رفض نزعات الإقصاء والتكفير وإدانة عقائد الآخرين أو التفتيش في ضمائرهم بناءً على ما استقر من نظم دستورية وعلى ما استقر بين علماء المسلمين من تقاليد سَمحة قررتها الشريعة.

### ثانياً: حرية البحث العلمي:

جاء تَبَيُّنُ حرية البحث العلمي إحقاقاً للحق ودفعاً للشبهات عن الإسلام وليضع حداً لمُهاترات شتى. فقد آن الأوان ليدخل المصريون والعرب والمسلمون ساحة المنافسة العلمية والحضارية. وإذا كان التفكير في عُمومه فريضةً إسلاميةً في مختلف المعارف والفنون، كما يقول المجتهدون، فإنَّ البحث العلمي النَّظري والتجريبي هو أداة هذا الفكر. وأهم شروطه أن تمتلك المؤسسات البحثية والعلماء المتخصصون حرية أكاديمية تامةً في إجراء التجارب وافتراس الاحتمالات واختبارها بالمعايير الدقيقة وأن تمتلك الخيال الخلاق والخبرة الكفيلة بالوصول إلى نتائج جديدة تُضاف للمعرفة الإنسانية لا يحدها في ذلك سوى أخلاقيات العلم وضرورات إنتاجه.

### ثالثاً: حرية الرأي والتعبير:

اعتبر البيان حرية الرأي أم الحريات كلها، والتي لا يمكن أن تتجلى إلا بالتعبير عنه بمختلف الوسائل من كتابةٍ وخطابةٍ وإنتاجٍ فني وتواصلٍ رقمي، وهي في الوقت نفسه إحدى مظاهر الحريات الاجتماعية التي تتجاوز الأفراد لتشمل غيرهم في تكوين الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني، كما تشمل حرية الصحافة والإعلام المسموع والمرئي والرقمي وحرية الحصول على المعلومات اللازمة لإبداء الرأي، ومن ثم في جوهر الحريات العامة.

ولا بد أن تكون مكفولةً بالنصوص الدستورية لتسمو على القوانين العادية القابلة للتغيير. واستشهد البيان للتدليل على ذلك بتوسيع المحكمة الدستورية العليا في مصر لمفهوم حرية التعبير كي يشمل النقد البنّاء، ولو كان حادّ العبارة، ونصّت على أنه «لا يجوز أن تكون حرية التعبير في القضايا العامة مُقَيّدةً بحدّ التجاوز؛ بل يتعيّن التسامح فيها» مع ضرورة التنبية إلى وجوب احترام المُعتقدات والشعائر

الدينية وعَدَم المساس بها؛ لما في ذلك من خطورة على النسيج الاجتماعي والأمن القومي، بحيث لا يحق لأحد أن يُثير الفتن الطائفية باسم حرية التعبير.

واتفق الحاضرون كذلك على أن حرية الرأي والتعبير هي المظهر الحقيقي للديمقراطية ودعوا إلى تنشئة الأجيال الجديدة وتربيتها على ثقافة الحرية وحق الاختلاف واحترام الآخرين، وأهابوا بالعاملين في مجال الخطاب الديني والإعلامي مراعاة هذا البُعد المهم في ممارساتهم، وتوخي الحكمة في تكوين رأي عام يتسم بالتسامح وسعة الأفق ويحتكم للحوار ونبذ التعصب.

#### رابعاً: حرية الإبداع الأدبي والفني:

بما أن الآداب والفنون تستهدف في جملتها تنمية الوعي بالواقع وتنشيط الخيال وترقية الإحساس الجمالي وتثقيف الحواس الإنسانية وتوسيع مداركها وتعميق خبرة الإنسان بالحياة والمجتمع، كما تقوم بنقد هذا المجتمع أحياناً والحلم بما هو أرقى وأفضل منه، وكلُّها وظائف سامية تؤدي في حقيقة الأمر إلى إثراء اللغة والثقافة وتنشيط الخيال وتنمية الفكر، وتلتقي في جوهرها مع الأهداف العليا للأديان السماوية، فالواجب تشجيعها ودعمها، مع الأخذ في الاعتبار أن القاعدة الأساسية التي تحكم حدود حرية الإبداع هي قابلية المجتمع من ناحية وقدرته على استيعاب عناصر التراث والتجديد في الإبداع الأدبي والفني من ناحية أخرى، مع الاحتكام لرأي الخبراء والنقاد والعارفين بهذه الفنون وعَدَم التعرُّض لها ما لم تمسّ المشاعر الدينية أو تؤدي القيم المجتمعية المستقرة.

#### د. وثيقة الأزهر الشريف لنبد العنف (31 يناير 2013)

وقد صدرت بشكل عاجل بسبب تصاعد درجات العنف في مصر وسورية وغيرهما. وقد نصّت على: حق الإنسان في الحياة، وحرمة الدماء والممتلكات العامة والخاصة - والتفرقة الحاسمة بين العمل السياسي والعمل التخريبي - وواجبات الدولة في حماية أمن المواطنين - ونبذ العنف بكافة أشكاله وإدانة التحريض على العنف أو تسويغه - والالتزام بالوسائل السلمية في العمل الوطني العام - والالتزام بأسلوب الحوار بين أطراف الجماعة الوطنية - وحماية النسيج الوطني الواحد من الفتن الطائفية المصنوعة والحقيقية - وحماية كيان الدولة المصرية والدول العربية الأخرى.

### هـ. وثيقة الأزهر لحقوق المرأة:

هذه الوثيقة كانت أكثر الوثائق الخمس إثارةً للجدل وما صدرت رسمياً إلا قبل ستة أشهر. وجاء الإعلان عن تأجيل صُورها في البداية لحاجة مجمع البحوث الإسلامية لمزيدٍ من الوقت لدراستها، إلا أن الملامح الأولية لها حظيت بترحيبٍ وحفاوةٍ بين الناشطات النسويات والعاملات في مجال حقوق المرأة.

وتأتي أهمية الوثيقة من أنها أعدت بمبادرةٍ مُخلصةٍ من الأزهر الشريف لتكون سنداً للمرأة المصرية في معركتها ضدّ من يستخدمون الدين للخطّ من مكانة المرأة وتقليص دورها والانقضاء على مُكتسباتها.

وتنطلق الوثيقة من عدّة مبادئ أهمّها: الرفض التام لتسييس القضايا المجتمعية أو استغلال المرأة في الصراع السياسي بين القوى المختلفة، لذلك تدعو الوثيقة في ديباجتها إلى ضرورة الانطلاق في معالجة قضايا الأسرة من الاحتياجات الحقيقية، ومن المعارف العلمية والدينية الحديثة والدراسات الميدانية الاجتماعية، والحرص على أن تكون التشريعات الخاصةً بالمرأة ذات صبغة اجتماعية توافقية تراحمية لا صراعية، والاتجاه إلى مشاركة المرأة في المجالات العامة ومساواتها في الكرامة والقدرات الإنسانية وتجريم اختزالها في الوظائف الجسدية، وتأكيد القيم الوسطية المعتدلة المميّزة للثقافة المصرية والثقافة الأسرية المُنبتة منها والبعيدة عن التشدّد والانغلاق الثقافي والديني، والذي يؤثّر سلباً على منظومة العلاقات الأسرية وعلى اختيارات الأسرة الاجتماعية الحياتية، ويعوق التنمية والتغيير الاجتماعي السليم.

لذلك فقد هاجم مُثَقّقون مصريون وقيادات إنسانية أثناء مناقشة الوثيقة التيار الديني واتهموه بمحاولة انتقاص حقوق المرأة، وأشاروا إلى أن احترام المرأة لم يسُد في الفكر العربي الإسلامي إلا لحظّات قليلة، هي التي علا فيها صوتُ التيار العقلاني وسَمَح فيه الحاكمُ ببعض الديمقراطية التي أدّت إلى الانفتاح العقلاني على النصوص الدينية ونُظِر فيها للمرأة كشريكٍ للرّجل. وعلى ذلك فإنّ هناك علاقة وثيقة بين الاستبداد والتطرّف الديني المتمثّل في الفكر الديني الاتباعي المُتعبّص الذي لم ينقطع إلا في الفترات التي غلب عليها التنوير ابتداءً من الخديوي إسماعيل؛ حيث بدأت الكتابات الأولى عن حقوق المرأة، وبالتالي فلم يكن قاسم أمين - كما يشيخ بين الناس أول من تحدّث عن حرية المرأة؛ حيث كتبت المرأة المصرية

والشامية قبل ذلك عن حقوقها خلال القرن التاسع عشر.

وأخذت حركة تحرير المرأة في الصعود بعد ذلك مع صعود الفكر الديمقراطي في مصر على نحوٍ غير مسبوق، إلى الدرجة التي دفعت هدى شعراوي والكثير من السيدات منهن صفة زغلول لخلع النقاب التقليدي والإسفار عن وجوههن، واستمرت هذه الحركة إلى نهاية أربعينيات القرن العشرين، ومع قيام ثورة يوليو سنة 1952م وَجَدَت دَعْمًا من الرئيس جمال عبد الناصر الذي رفض طلباً للإخوان المسلمين بدعوة النساء المصريات للحجاب.

كما أن الجامعات المصرية لم تعرف حجاب المرأة حتى سبعينيات القرن العشرين، ومن يتابع تسجيلات حفلات أم كلثوم في هذه الفترة يستطيع أن يلحظ ذلك بوضوح.

وكانت بنود الوثيقة الأكثر جدلاً هي ما يتعلق بالأعراف والتقاليد، التي تختلف بين صعيد مصر والوجه البحري، وكذلك ما يتعلق بالحجاب؛ لأن الوثيقة جعلته بين الأمور الاختيارية للمرأة. كما نصّت على أن يكون الطلاق بالتراضي بين الزوجين، وهو ما رفضه أعضاء مجمع البحوث الإسلامية مشيرين إلى أن التراضي لا يكون إلا في الخلع فقط.

واختلف أعضاء المجتمع كذلك حول البنود المتعلقة بالطفل فيما يخص الحضانة والرؤية وهي البنود التي أدت إلى خلافٍ حادٍ بين الأزهر والمجلس القومي للمرأة.

### ثانياً: مؤسسة الأزهر والإصلاح الديني<sup>(\*)</sup>

تعمدت أن أعرض الوثائق الخمس التي صدرت عن الأزهر بين عامي 2011 و 2014. لأشير إلى عدة أمور. أول تلك الأمور أن هذه البيانات والوثائق ما كان صدورها عادياً حتى عن مؤسسة دينية بروتستانتية في زمن لاهوت التحرير! فهي

(\*) تختلف التقديرات بشأن حجم دور الأزهر في الأعوام القادمة. قارن بأحمد محمود السيد: مستقبل الأزهر بعد الثورات العربية (2013)، وعمار علي حسن: الإصلاح السياسي في الأزهر قبل الثورة وبعدها (2013)، ورضوان السيد: المؤسسات الدينية، وهل يشكل الأزهر نموذجاً في: أزمة التغيير، الدين والدولة والإسلام السياسي (2014)، ص ص 247-290.



مشبعة بالروح الإصلاحية والنهضوي من جهة، وبروح التقليد العريق الذي لا يهتز ولا يخشى اتخاذ الموقف الجريء مهما كانت المحاذير. ومستندة في ذلك رؤيةً منفتحةً للعالم، ومعرفةً عميقةً بفقهاء العيش المتعدد في عالم الإسلام، ووعي عميقاً بخطر الجمود في الدين، والطغيان في السلطة، والانشقاقات باسم الإسلام. وثاني تلك الأمور: الاستعداد للإفادة من حركة الإصلاح ومنجزاتها وقد ذكر شيوخها في بيان «مستقبل مصر» أنّ المصلحين هم الشيخ حسن بن محمد العطار (1766م-1835م) ورفاعة رافع الطهطاوي (1801م-1873م) ومحمد عبده (1849م-1905م) ومحمد مصطفى المراغي (1881م-1945م) ومحمد عبد الله دراز (1894م-1958م) ومحمود شلتوت (1893م-1963م). وإذا عرفنا أنه كانت قد مضت أربعة عقود على سطوة الأصوليات التي نشرت أجواء إدانة وتكفير بحق هذه الشخصيات بالذات؛ فإننا ندرك وعي الأزهر أن حراك شبان 25 يناير ما كان تصحيحاً لمسار الدولة المصرية فقط؛ بل هو ضربة أيضاً للأصوليات المنتشرة والمستولية على الملفت الإسلامي. وثالث تلك الأمور استعداد الأزهر المتحمس للإصلاح والنهوض. وما كان ذلك بادياً في أوساطه، لأنه كان واقعاً بين الأنظمة والأصوليين. وهكذا فإن حركات التغيير ما فتحت أفقاً للدولة الوطنية العربية لإنقاذ ذاتها؛ بل فتحت باباً أيضاً للمؤسسات الدينية للخروج من الاستتباع واختراقات الإحيائيات والأصوليات والجهاديات. ورابع تلك الأمور: الانفتاح في الوقت نفسه على فقهاء العيش العربي-الإسلامي، وعلى العالم تطلباً للفهم والتفاهم والمشاركة. فلا قطيعة مع العالم كما يريد الأصوليون، ولا خضوع لعولميته كما يريد النيوليبراليون.

وخامس تلك الأمور: اتخاذ التلاقي والتلاؤم بين التقليد العريق والتأويل المتجدد، منهجاً للرؤية والتصدي للمشكلات. فالإجماعات تعبيرة عن التجربة التاريخية. والدخول في إشكاليات المعاصرة ومشكلاتها تأويل أو قراءة توليدية وتواصل بين التقاليد والمستجدات.

إن هذا كله لا يعني أنه ما عادت هناك قضايا كبرى تستدعي المعالجات والبدائل بين الدين والدولة، وبداخل الإسلام والمؤسسة الدينية، وبين المسلمين والعالم. وإنما المعنى أن حركات التغيير أتاحت فتحاً للأفاق المسدودة، وللحيويات المجهضة. وقد تعمدت إظهار الإشكاليات التي ما تزال تحفّ قضية المرأة وحرّياتها

في الوثيقة الخامسة الخاصة بذلك.

والواقع أن لدى أهل الدين والعلم والمرجعيات ثلاث مشكلات توهم كأنما هي موروثه من التقليد ( كما ظنّ المثقفون العرب على مدى العقود الماضية)؛ بينما هي تنتمي في الحقيقة إلى زمن الانسدادات السلطوية والأصولية: مسألة المؤسسة الدينية - ومسألة التحويلات المفهومية - ومسألة الخيارات المتاحة في الزمن الجديد.

أعلنت المؤسسة الدينية السنيّة عن ظهورها في الخلاف مع المأمون العباسي بشأن مسألة خلق القرآن. وكانت وجهة نظر زعيم الاتجاه السني أحمد بن حنبل (164-241هـ) أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الطاعة لأمر المؤمنين في الشأن السياسي وإدارة الدولة، إنما لا علاقة له بتحديد العقيدة بل الأمر في ذلك لأهل العلم والفقهاء والحديث. وبعد تجاذبات استمرت قرناً، استقرّ الرأي على «تقسيم العمل» بين أهل الدولة وأهل الدين، فساد إنسجام تاريخي طويلاً مع استمرار التجاذب في مسائل على أطراف المجالين. وبلغ التنسيق ذروته أيام المماليك (660-922هـ) ثم أيام العثمانيين (925-1300هـ). ففي أيام المماليك جرى الاعتراف بالمذاهب الفقهية الأربعة. وفي أيام العثمانيين ظهر منصب «شيخ الإسلام» الذي ساد النظام الديني كله في ظلّ السلطان. لكن المؤسسة الدينية السنيّة ما كانت مقدّسة في أي عصرٍ من عصورها، ولا من خلال القيام بأي مهمّة من مهمّاتها في العبادات والقضاء والأوقاف والتعليم والفتوى والإرشاد العام. بل كانت مؤسسة مفتوحة وذات اختصاص، وتعتمد الكفاءة، وتنتمي للدولة التي تتناول معها التأييد؛ لأنّ مهمات الدولة كانت «حراسة الدين وسياسة الدنيا». إن هذا الترتيب التاريخي الطويل، تعرّض كله للاهتزاز عندما ظهر الاستعمار الغربي على مسرح دار الإسلام في القرن الثامن عشر. ومع أنّ الهمّ الأول كان الإصلاح السياسي لمواجهة الغزو الغربي؛ فإنّ الدعوة للإصلاح الديني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تضمّنت أوّل ما تضمّنت من جانب السلفيين والتجديديين: مكافحة التقليد (= المؤسسة الدينية) باعتبارها صارت رمزاً للجمود والابتداع والانحطاط وسدّ باب الاجتهاد! لقد قال الطرفان إنّ المؤسسة نفسها ابتداعٌ إذ لا حاجة إليها وإلى تجربتها المنقضية، ولا بد من العودة للكتاب والسنة مباشرة. وخلال خمسين

عاماً من النقد والنقض القاسي تحطمت ثوابت المؤسسة أو بالأحرى تحطمت تقاليد المذاهب وانفتحت المؤسسات على مقولات الإصلاحيين والسلفين معاً. وفي حين انخرطت المؤسسات الباقية في حواشي الدول الوطنية الجديدة؛ بدأت الإحيائيات والأصوليات تملأ الفراغ الذي خلفه تحطم التقليد. وما أمكن للإحيائيات تطوير سطوتها في المؤسسات لامتناع أهل المؤسسة وأهل الدولة عليها؛ فدخلت في المجتمعات وابتدعت مناهج وبرامج لتربية جديدة وعقائديت جديدة، تحفظ من التغريب ومن مستجدات الدولة الوطنية معاً. وهكذا ومع انتقال قيادة الدولة الوطنية إلى أيدي العسكريين والأمينين، وصعود الإحيائيات والأصوليات في مواجعتهم؛ وقعت المؤسسات الدينية بين الاستتباع والاستنزاف. وقد بدا ذلك بوضوح قبل حركات التغيير وخلالها. فالسلفيون الجهاديون قاموا بقتل وزير الأوقاف المصري الشيخ محمد حسين الذهبي عام 1977. وحركة الجهاد السلفية قامت بقتل الرئيس أنور السادات عام 1981. وبعد الثورة اعتبر السلفيون الذين دخلوا في العملية السياسية أنه لا حاجة للأزهر كمرجعية دينية. أما الإخوان فقد أرادوا استتباع الأزهر واختراقه، وقضوا أكثر من عام يتظاهرون من حول مشيخة الأزهر. أما بعد سقوط الرئيس محمد مرسي فقد ثار شبان الإخوان بالأزهر وأحرقوا بعض الكليات. وهذا معنى حركة الأزهر بعد الثورة. فقد أراد الخروج من الاستتباع للنظام، واستعادة دوره في حماية الدين من استنزاف حركات الإسلام السياسي. فما عاد أحد بعد الثورة - حتى من اليساريين والعلمانيين - يتساءل عن جدوى وجود وقوة المؤسسة الدينية. فقد انفجرت الأصوليات في وجه الدول والمجتمعات، وصار الاهتمام بالمؤسسة الدينية جزءاً من جهود الدولة للحيلولة دون إدخال الدين في بطنها، وصونه من الانشقاقات والانفجارات. ومن هنا جاء ذلك النص ذو الدلالة في دستور العام 2013 عن الأزهر:

الأزهر الشريف هيئة إسلامية علمية مستقلة، يختص دون غيره بالقيام على كافة شؤونه. وهو المرجع الأساسي في العلوم الدينية والشئون الإسلامية. ويتولى مسؤولية الدعوة ونشر علوم الدين واللغة العربية في مصر والعالم. وتلتزم الدولة بتوفير الاعتمادات المالية الكافية لتحقيق أغراضه. وشيخ الأزهر مستقل غير قابل للعزل. وينظم القانون طريقة اختياره من بين

أعضاء هيئة كبار العلماء.

إنّ الأزهر هو هيئةٌ مختصةٌ بالعلوم الدينية والشؤون الإسلامية. وباعتباره كذلك فهو مستقلٌّ، وله دورٌ وطنيٌّ كبيرٌ بدا في بياناته. لكنّ ليس له دورٌ سياسيٌّ أو أنه ليس فاعلاً سياسياً. ففي تصريحٍ لشيخ الأزهر أحمد الطيّب نقلته صحيفة الشرق الأوسط في 8/2/2014 قال: «ليس للأزهر دورٌ سياسي، ولم ولن يكون يوماً يطمح أن يقدم عالماً من علمائه أو شيخاً من شيوخ الأزهر ليكون والياً أو خليفةً أو حاكماً أو رئيساً أو غيره. ودلائل ذلك كثيرةٌ تاريخياً. فالأزهر يقود الثورات الوطنية، ثم يعود إلى أروقه، ومن ثمّ لا يلعب دوراً سياسياً مطلقاً».

ولنمض بعد سؤال المؤسسة إلى سؤال التحويلات المفهومية التي أحدثت الانفجار بداخل الدين. فبعد خمسة عقودٍ وأكثر، وتحت وطأة الحرب الباردة، والصراع مع نظام الدولة الوطنية في العالمين العربي والإسلامي، اكتملت لدى الأصوليين المسلمين من جماعات الإسلام السياسي والسلفيين الجدد أطروحة الدولة الإسلامية التي لا بد منها لاستعادة الشرعية في المجتمع والدولة بتطبيق الشريعة! وفي حين نجح الأصوليون الشيعة في الوصول للسلطة وأقاموا نظاماً دينياً بإيران، ما نجح الأصوليون السنة في ذلك فانفجروا في جهادياتٍ ونضالاتٍ سياسية، حوّلت الإسلام إلى مشكلةٍ عالمية. إنّ الواضح من التصريح السابق لشيخ الأزهر الحالي أنه لا يرى ما يراه الأصوليون بشأن وجود نظام سياسي في الإسلام معصوم أو غير معصوم وواجب التطبيق دينياً. لكنّ مقولة: «الإسلام دينٌ ودولة»، وبعد خمسين أو ستين عاماً من التأويلات والتحويلات، صارت مثل «الحل الإسلامي» بديهية. وهذه المقولة وضعت الدين في مواجهة كل السلطات، وكل العالم؛ فهددت الدين، وزعزعت المجتمعات. ولذلك فإنّ المؤسسات الدينية في الزمن الجديد، والتي تريد إخراج الدين من أتون الصراع على السلطة؛ يكون عليها إضافةً للقيام بوظائفها في العبادات والتعليم الديني والفتوى والإرشاد؛ أن تتصدى لعمليات تحويل المفاهيم وتحويلها، وأن تتصدى للحملات على التقليد العريق، ولتحويلات الجهاد وعلاقات الدولة بالدين وقدسيتها والخلافة والإمامة.. إلخ. ففي التقليد الإسلامي السني أنّ السلطة مصلحة وتدير وليست شأنًا اعتقادياً. ومن

الواضح أنّ المهمة ليست خاصةً بالمؤسسات الدينية؛ بل تقتضي نهوضاً فكرياً عاماً يتجاوز ذلك الرُكام الضخم من البحوث والدراسات عن تطبيق الشريعة كأنها قانون. والشريعة هي الدين، والدين ليس قانوناً ولا يمكن أن يكون. وهذه المهمة جليئةٌ وصعبةٌ. فلو تأملنا المشهد من حولنا، لوجدنا أنّ الدول والمجتمعات تفتت وتسقط بفعل ثلاثة عوامل، اثنان منها دينيان: الخلافة التي صارت ركناً من أركان الدين، والإمامة الإيرانية الهاجمة باسم تشييع ولاية الفقيه على العرب والمسلمين، والهجمات الدولية التي تناضل القاعدة وأبناءها وأحفادها! فهل بوسع المؤسسات الدينية أن تنهض للقيام بمهمة تسكين الدين وتأمينه وإنقاذه من أهوال النزاع على الدولة والمجال الاستراتيجي والاستنزاف الذاتي؟ إذ من الواضح أنّ الداعشيات والقاعديات من قبل ومن بعد إنما كانت وما تزال انشقاقاتٍ في ديننا، تضرنا أكثر بكثير مما تضرّ من تصورهم أعداءها!

ولنختم بسؤال الخيارات المُتاحة. أرى أنّ حركات التغيير العربية حررت فيما حررت المؤسسات الدينية من قبضة السلطات، واستنزافات الإسلاميين. وقد تلقّف الأزهر هذه الواقعة ونهض للقيام بالمهام التي ما كان بوسعه القيام بها من قبل. وبياناته ووثائقه دليلٌ على ذلك. ودليلٌ آخر هو العلاقة المتجددة التي أقامها بالكنيسة القبطية. وها هو يدعو لمؤتمرٍ كبيرٍ وتشاوريٍّ في مسائل مهمة مثل التطرف الديني، والعلاقات الإسلامية-المسيحية، والنزاع السني-الشيوعي. بيد أنّ الأزهر الذي بقيت بنيته سليمة، لا يُقارَنُ أو لا تُقارَنُ به المؤسسات الدينية الأخرى في العالمين العربي والإسلامي، والتي حطمتها السلطات، أو حطّمتها الأصوليون بحجة مصارعة التقليد والابتداع. ثم إنّ الأزهر أيضاً وأيضاً وعندما نقرأ مجلته الشهرية، ونشرايته الأخرى، نلاحظ الحاجة إلى عملٍ كبيرٍ وكثيرٍ في مجالات التجديد الفكري والديني والتربوي والتعليمي. فالخروج من الأصوليات كلّها بعد هذه التحويرات المفهومية الجاذبة والخادعة، ليس بالأمر السهل. والمشكلات التي أثّرت بشأن إعلان أوبيان حرية المرأة إشارة لا تخطئها العينُ على ذلك. لقد انفتح المجال، وتضاءلت الشكوك والهواجس. لكننا محتاجون إلى استعداداتٍ كثيرةٍ يتطلبها النهوض الكبير.

الجزء الثالث

رصد بيبيوغرافي



# ما يكتب عن الربيع العربي؛ بيبلوغرافيا مشروحة قصيرة

فاطمة شرف الدين

الجامعة الأميركية في بيروت، مكتبات الجامعة

fc01@aub.edu.lb

## الملخص

تقدم هذه الورقة وصفاً لنموذج من الكتب التي صدرت في العالم العربي حول الثورات العربية، بعض الكتب الصادرة باللغة الإنكليزية، ووصف لمحتويات بعض الدوريات العربية. تم انتقاء المنشورات لتمثل إصدارات مراكز الأبحاث والدراسات بانتماءاتها السياسية المختلفة وكتابات عينية من المؤلفين والباحثين الضالعين في الشأن السياسي الحديث. تشير الورقة إلى نقاط الالتقاء بين العديد من الكتاب حول طبيعة الثورات، أسبابها، أدواتها، تحدياتها ومصيرها. كما تضيء الورقة على أهداف، إضافات وخصوصيات كل من الكتب المتناولة في هذه الورقة.

الكلمات مفاتيح: الربيع العربي؛ الثورات العربية؛ بيبليوغرافيا؛ مفكرين؛ الإسلام السياسي.



## Abstract

### Literature on Arab Spring: short explained bibliography

**Fatmeh Charaffeddine**

*This paper presents a sample of Arabic books covering the Arab Spring, some books published in English, and the content of few Arabic periodicals. The publications were selected to represent the publications of think tanks and research centers from different political affiliations and the works of some prominent writers specialized in political affairs. The paper highlights points that are in common among many of the discussed writers concerning the nature of the revolutions, its reasons, tools, challenges and future. The paper also sheds the light on the goals, additions and special aspects of each of the discussed books.*

**Keywords:** Arab Spring; Arab revolutions; bibliography; Arab thinkers; political Islam.

## المقدمة

الربيع العربي، الثورات العربية، الانفجار العربي، الأنظمة المتكسرة، الخريف العربي، تعددت الأسماء والحدث واحد. كذلك تعددت حتى تضاربت التفسيرات والتحليلات لحقيقة ما جرى تباعاً من تحركات شعبية ابتداءً بتونس (كانون الأول، 2010) مروراً بمصر، البحرين، ليبيا، اليمن، وصولاً إلى سوريا (آذار، 2011).

ما سأقدمه في هذه الدراسة هو محاولة لتقديم نماذج مما نشر حول الثورات العربية وذلك بتقديم وصف لتسعة عشر كتاباً وتقارير مؤتمرات حول «الربيع العربي» صدرت باللغة العربية؛ وعشرة كتب باللغة الإنكليزية، ومسح لمحتويات خمس دوريات متخصصة صدرت خلال السنة الأولى للثورات. سيتم تقديم الكتب ومحتويات الدوريات بشكل مختصر من دون الغوص في التحليل والنقد. فمن الصعب الإحاطة الكاملة والشفافية بظروف نشأة وتطور الحركات الشعبية في جميع تلك الدول والتعليق عما كتب عنها في دراسة واحدة. كما أن اختيار الكتب والمجلات الأفضل تمثيلاً وتحليلاً لهذه الأحداث هو أيضاً ليس بالعملية السهلة. فقد استفز هذا الموضوع وشغل المفكرين والكتاب والأكاديميين العرب حتى كدنا نجد كتاباً عن «الربيع العربي» لكل مفكر أو ناقد سياسي. هذا بالإضافة إلى الكمّ الكبير من الكتب التي نُشرت لُتسجّل وقائع الأحداث ككتب اليوميات، الشهادات الشخصية الحيّة، المقابلات مع الفاعلين/ات والناشطين/ات وكتب تصف فنون التعبير وطرق تنفيذ هذه التحركات.

لقد حرصت في هذه الورقة على اختيار كتب تمثل التيارات الفكرية السائدة والمختلفة الاتجاه. فتمّت مراعاة تمثيل مراكز الأبحاث السياسية بمختلف توجهاتها السياسيّة ومواقعها الجغرافية: مؤسسة الفكر العربي (بيروت)، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي (بيروت)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (الدوحة)، مركز الأهرام للدراسات الاجتماعية والتاريخية (القاهرة)، مركز دراسة الإسلام والديمقراطية (تونس)، مركز دراسات الشرق الأوسط (عمان).

أما مواضيع الكتب المختارة فتنوعت بين الكتب التي تصف الثورات بشكل عام؛ الأوضاع الاجتماعية التي أدت إلى الاحتجاجات؛ تاريخ الحركات السياسية في المنطقة؛ صعود الإسلام السياسي؛ صعوبات الانتقال الديمقراطي؛ ومصير هذه الثورات. كما تمّ اختيار بعض الكتب لتميّز مواضيعها، ومنها كتاب الربيع العربي: آخر عمليات الشرق الأوسط الكبير لحسن محمد الزين الذي يقدم دراسة توثيقية لمحاولة تقديم براهين تثبت نظرية المؤامرة في أحداث الثورات. كتاب الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ، للباحث صالح هاشم؛ غرافيتي الثورة المصرية، للباحثة مليحة مسلماني؛ مصر الثورة وشعارات شبابها: دراسة لسانية في عفوية التعبير، للباحث نادر سراج.

أما بالنسبة للمؤلفين فقد تمّ انتقاء مجموعة من الكتاب المعروفين في مجال التأليف السياسي أو المنخرطين في العمل السياسي وهم: فواز طرابلسي، حازم صاغية، بول سالم، علي حرب، يوسف زيدان، هيثم مناع والسيد ولد أباه.

لقد تمّ استبعاد الكتب التي تخصصت بوصف الأحداث في بلد معين وذلك لضيق الوقت ولحصر موضوع الورقة. حاولت قدر المستطاع الحفاظ على توازن وتقارب في طريقة عرض المعلومات لكل كتاب، إلا أن خصوصية كل كتاب عكست على طريقة تقديمه.

### ملاحظات عامة حول نقاط الالتقاء بين معظم المؤلفين

تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من الاختلاف الكبير في وجهات النظر بين الكتاب من التيارات المختلفة إلا أن هناك إجماعاً عند معظم ممن تناول هذا الموضوع على النقاط التالية:

- للثورات أسباب داخلية تضخمت وأدت إلى الانفجار وهي باختصار: وجود أنظمة ديكتاتورية قامعة مع توريث سياسي، فساد وسيطرة الطبقة الحاكمة على اقتصاد البلاد، ازدياد عدد السكان مع تهيش الشعوب، انعدام الفرص وانتشار الفقر والبطالة.
- العولمة وانفتاح جيل الشباب على قيم الحداثة أدى إلى رفع مستوى الوعي السياسي والإيمان بحقوق الإنسان لتحقيق الكرامة، الحرية، الديمقراطية،

## والعدالة الاجتماعية.

- تزامنت التحركات مع الحملة الأميركية لنشر مبادئ الحرية والديمقراطية في العالم العربي وهي تأتي لتكمل الأحداث المماثلة والتي سبقتها في بعض دول في أوروبا الشرقية.
- يرتبط توقيت الثورات بتفاقم الأزمات الاقتصادية العالمية واحتدام الصراع على مصادر الطاقة مع صعود دور روسيا والصين في المنطقة والعالم.
- استعانت الثورات «بالقوة الناعمة» بتعبير علي حرب من الاعتماد على وسائل التواصل الاجتماعي والدعوات إلى التجمعات الشعبية السلمية.
- ليس لهذه الثورات إبطال، زعماء، عقيدة معينة، أو مشروع محدد مما ترك فراغا بعد سقوط الأنظمة وأدى إلى وصول التيارات الإسلامية، المتمرسه في التنظيم السياسي، إلى الحكم.
- وضعت الثورات الإسلام السياسي أمام امتحان النجاح في الحكم.
- تسببت الثورات في حدوث فوضى، وشجعت على الصراعات العرقية والطائفية وبالتالي فإنها تهدد بتفتيت العالم العربي إلى دويلات.
- عملية تفتيت المنطقة عرقياً وطائفيًا، والافتتال الداخلي يصبان في مصلحة إسرائيل ككيان قائم على أساس الهوية الدينية.
- ربط الكثير من الكتاب اندلاع الثورات بنظرية فوكوياما «نهاية التاريخ» وإن ما نشهده من تطورات سياسية ليس نهاية للحرب الباردة، وإنما نهاية للتاريخ، بوضع حد للأفكار الإيديولوجية في التاريخ الإنساني وانتشار قيم الليبرالية الديمقراطية الغربية. كذلك رأي بعض الكتاب أن الصراع القائم هو ترجمة لتأثر الغرب بنظرية «صراع الحضارات» لصموئيل هنتنغتون.

## 1- الكتب العربية الصادرة عن المؤسسات البحثية وأعمال المؤتمرات

سأبدأ بعرض الكتب العربية المحررة الصادرة عن مؤسسات بحثية أو نتيجة لأعمال مؤتمرات. شارك في هذه الكتب العديد من الكتاب من مختلف الاختصاصات من أكاديميين، ونشطاء، وسياسيين ودبلوماسيين. نظرا لتعدد المؤلفين

والمواضيع سيتم وصف هذه الكتب بشكل عام مع التطرق بشكل انتقائي لتفاصيل بعض الفصول. سيتم عرض الكتب بالترتيب الهجائي لعنوان الكتاب. إلى أين يذهب العرب؟ رؤية 30 مفكراً في مستقبل الثورات العربية- بيروت: مؤسّسة الفكر العربي، 2012. 491 صفحة.

هو عنوان عدد خاص من سلسلة كتب معارف التي تصدرها «مؤسّسة الفكر العربي» شهرياً. يجمع الكتاب رؤية 30 مفكراً عربياً حول مستقبل الثورات العربية عبر طرح عشرة أسئلة عليهم للوقوف عند آرائهم حول مواضيع أساسية في تفسير وفهم الثورات العربية ومستقبلها. قدم للكتاب سليمان عبد المنعم، الأمين العام لمؤسّسة الفكر العربي سابقاً. شارك في الإجابة على الأسئلة مفكرون من مشرق العالم العربي ومغربه وهم أكاديميون، كتاب، وناشطون، ومفكرون منخرطون في العمل السياسي والدبلوماسي. نذكر منهم أستاذ الفلسفة البروفسور في جامعة عين شمس مراد وهبة، الباحث والأكاديمي في الدراسات الإسلامية رضوان السيد، رئيس تحرير مجلة العربي سليمان العسكري، محيي الدين عيمور المفكر ووزير الثقافة السابق في الجزائر، الناقد الأدبي عبد السلام المسدي، الأديب أحمد إبراهيم الفقيه، الناشط السياسي ميشال كيلو وغيرهم من الكتاب، المفكرين والباحثين المتمين إلى تيارات فكرية مختلفة كاليسار الإسلامي، الليبرالية، اليسار، والإسلام الحدائثي. اقتصرت المشاركة النسائية على سيدتين وهما ابتسام الكتبي وليلى شرف.

تمحورت الأسئلة العشر حول أسباب هذه الثورات، محرّكها وأبطالها، فرص وعوائق نجاحها، صعود دور الإسلام السياسي، تحديات التحوّل الديمقراطي والحدائث، نماذج الحكم المتوقعة وإمكانية قيام نموذج عربي إسلامي خالص. ضم الكتاب نصوص إجابات جميع المشاركين على كل من الأسئلة. في القسم الأخير من الكتاب وردت ملخصات الإجابات ونتائجها على شكل جداول بيانية لكل سؤال وإجاباته.

من الملفت للنظر أن بعض الإجابات قد أحرزت إجماعاً منها: «العوامل التي أدت إلى الثورات هي عوامل خارجية وداخلية (94٪ جواب إيجابي)، «مع الانحياز للثورة حتى لو كان المخطط أجنبي» (84٪ جواب إيجابي)، «خيار النموذج التركي

للأنظمة العربية الجديدة» (50٪) «النموذج الإيراني» (25٪) و«نموذج عربي خاص» (25٪).

بلقريز، عبد الإله، ويوسف الصواني، محرر أن الثورة والانتقال الديمقراطي في الوطن العربي: نحو خطة طريق بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد السويدي بالإسكندرية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012. 1024 صفحة.

يتضمن الكتاب وقائع الندوة التي أعدها مركز دراسات الوحدة العربية، بالتعاون مع المعهد السويدي بالإسكندرية، التي انعقدت في تونس، مدينة «الحمامات»، بتاريخ 6-9 شباط 2012. شارك في الندوة ثمانون باحثاً وباحثة، من مختلف الدول العربية وشتى الاتجاهات الفكرية والانتماءات العقائدية. يقدم للكتاب خير الدين حسيب رئيس مركز دراسات الوحدة العربية معتبراً أن هذا العمل يهدف إلى إسهام المفكرين العرب في وضع خطة طريق للإصلاح السياسي والانتقال إلى الديمقراطية في دول الربيع العربي.

وقد توزعت بحوث هذا الكتاب (= الندوة) إلى خمسة أقسام في عشرين فصلاً أو محاضرة:

القسم الأول يتضمن فصل واحد «الثورات العربية والثورات الديمقراطية المعاصرة: نظرة مقارنة»؛ القسم الثاني تحت عنوان «الثورات الشعبية في الوطن العربي: الديناميات، القوى، التداعيات» ويتضمن خمسة فصول تناقش الدوافع الاجتماعية والسياسية لقيام الثورات، دور المؤسسة العسكرية في الثورة، وأثر الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي؛ القسم الثالث «الثورة والديمقراطية من أجل خطة طريق (برنامج عمل)» يتضمن ستة فصول وهي عبارة عن محاولات لوضع خطة طريق للانتقال الديمقراطي وتحقيق الإصلاح السياسي في كل من تونس، مصر، ليبيا، اليمن، سوريا والمغرب؛ القسم الرابع «الثورة وتداعياتها» يتضمن ستة فصول وهي تغطي تداعيات الثورة على دول الخليج، العراق، قضية فلسطين، لبنان، الأردن والسودان؛ القسم الخامس «مستقبل النظام العربي والمواقف الإقليمية والدولية من الثورة».

يقدم كل فصل في الكتاب نص المحاضرة في الندوة يليها نصوص المعقبين

عليها. معظم المحاضرات موثقة مرجعياً. ويرد في نهاية الكتاب فهرس موضوعات. التقرير الأدبي للمؤتمر السنوي الثاني حول الإسلام والديمقراطية: الانتقال الديمقراطي في العالم العربي تونس كنموذج. تونس: مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، 2013. 23 صفحة. <http://tinyurl.com/oae4ohl>

يتناول هذا التقرير ملخصات عن مداخلات المشاركين في مؤتمر مركز الإسلام والديمقراطية في تونس حول الانتقال الديمقراطي في العالم العربي. يغطي المؤتمر أحداث واستحقاقات ما بعد الثورة: كتابة دستور جديد، إجراء انتخابات نزيهة، الحفاظ على الحريات، رعاية حقوق الإنسان، القضاء على الفساد وغيرها من مبادئ الديمقراطية. تم التركيز في معظم المداخلات على أهمية عملية انتقال السلطة بشكل سلمي وضرورة التوفيق بين الجناح الإسلامي المعتدل والجناح العلماني المعتدل. «جمع هذا المؤتمر شخصيات تمثل أكثر من خمس وعشرين دولة شقيقة وصديقة وأكثر من أربع مائة شخصية وطنية وعالمية لتقديم ورقات والتحاور حول مواضيع وتجارب مختلفة تساهم في إنجاح عملية الانتقال الديمقراطي في تونس وفي بلدان الربيع العربي». من بين المشاركين في المؤتمر نذكر راشد الغنوشي (وطارق رمضان) والكثير من الأكاديميين، من جامعات أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، المهتمين بدراسة الإسلام السياسي.

في الكثير من المداخلات نوقش موضوع توافق الإسلام مع مبادئ الديمقراطية ووردت تركيا كنموذج لتعايش الإسلام السياسي في نظام علماني.

حيدر، محمود، محزر. ثورات قلقة - مقاربات سوسيو - استراتيجية للحراك العربي. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2012. 392 صفحة.

الكتاب من إعداد وتقديم رئيس «مركز دلتا للأبحاث المعمّقة» في بيروت، الباحث محمود حيدر. شارك في تأليف هذا الكتاب مجموعة من المؤلفين. وهو من سلسلة الدراسات الحضارية التي يصدرها «مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي». يقسم الكتاب إلى ستة فصول تدور حول البعد الاجتماعي والإيديولوجي للثورات.

في الفصل الأول من الكتاب يرى خليل احمد خليل أن الثورات العربية تحمل

في طياتها صراع بين الرأسمالية العالمية مع تبعاتها الفكرية والاقتصادية وبين ودول الممانعة العربية الإسلامية التي تدافع عن تحررها من السيطرة الغربية واستقلالها وعلى رأس هذه الدول إيران؛ في الفصل الثالث، ينبه طلال عترسي إلى التحديات التي تهدد نجاح تجربة الإسلاميين في الحكم المطالبين بتقديم التطمينات إلى الغرب من جهة، وإرضاء جماهيرهم المعبّأة ضد السياسات الغربية من جهة أخرى؛ في الفصل الخامس يناقش حسن جابر ظاهرة انهيار الإسلاميين بالتجربة التركية وصعود الإخوان المسلمين سياسياً مما سيعزز من دور تركيا في المنطقة مهدداً نفوذ وأمن كل من المملكة العربية السعودية، روسيا الاتحادية؛ في الفصل الخامس، وهو الأطول، يقدم توفيق شومان دراسة مفصلة عن الأوضاع المعيشية الاجتماعية في الدول العربية، قبل الثورات، متضمنة المؤشرات التي تدل على تأخر وفشل عمليات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات العربية؛ يتضمن الكتاب دراسة مطولة عن مفهوم الثورة في الفكر العالمي وعن تاريخ الثورات في العالم العربي والإسلامي قدمها هيثم مزاحم. يستنتج مزاحم أن الثورات العربية لم تكتمل بعد فهي أدت إلى انهيار أنظمة لكنها لم تحدث تغييرات اجتماعية واقتصادية تنعكس عادة في تغييرات فكرية، سياسية، أدبية، فنية، تكنولوجية في مجتمعاتها؛ الفصل الأخير من الكتاب مخصص للأحداث في البحرين وهو مؤيد لها وهو بذلك يتميز عن غيره من الكتب التي تجاهلت موضوع التحركات في البحرين أو ذكرتها بشكل عرضي.

عبد الفتاح، نبيل، محرّر. الاحتجاجات الاجتماعية والثورات المدنية: تحولات السياسة في دول البحر المتوسط العربية القاهرة: مركز الأهرام للدراسات الاجتماعية والتاريخية، 2011. 326 صفحة.

هو كتاب مترجم عن الفرنسية، حرّرت الطبعة الفرنسية سارة بن نفيسة وهي باحثة في «مؤسسة الأبحاث من أجل التنمية» الفرنسي في القاهرة، بلاندين ديستريمو؛ حرّز وقدم الطبعة العربية نبيل عبد الفتاح مدير «مركز الأهرام للدراسات الاجتماعية والتاريخية».

تمت الدعوة للمشاركة في هذا الكتاب قبل ظهور الثورات وكعدد خاص لمجلة العالم الثالث **Tiers Monde** نيسان 2009. كان الهدف منه دراسة الحركات



الاجتماعية في المنطقة وتحديد دور السياسة في هذه الحركات. قامت الثورات أثناء الإعداد للكتاب وفي مراحل المراجعات الأخيرة للكتاب. كان كل من الرئيسين زين العابدين بن علي وحسني مبارك قد تمّ طردهما من مصر وتونس نتيجة الثورات الشعبية فتقرّر إضافة باب من فصلين حول الثورات.

الباب الأول من الكتاب خصص لدراسة الحركات السياسية والاجتماعية التي سبقت الثورات والتي تعتبر في من جذورها وعواملها. يقدّم كل من أمين علال وكارين بن نافلة دراسة حول الحركات الاحتجاجية في قفصة (تونس) وسيدى أفنى (المغرب)، تقدم ماري ديوك دراسة حول تحركات عمال الصناعات النسيجية في مصر منذ سنة 2004، وتقدم لور جرجس دراسة حول الحركات الاحتجاجية القبطية المعاصرة في مصر، تقدّم بشرى سيدى حيدة دراسة عن التعبئة الجماعية في المغرب، ينتهي الباب بمقال لسايين بلانل تدرس فيه التعبئة الشعبية والجمود السياسي في الأجزاء الداخلية من ميناء طنجة المتوسطي. الباب الثاني تناول بعض جوانب الثورات في كل من تونس ومصر. وقدم ميخائيل بشير عياري مقالا عن الفقر والكرامة كحافزين رئيسيين لقيام هذه الثورات، وقدم العربي شويخة مقالا حول سقوط نظام بن علي، ووصفت سارة بن نفيسة وناقشت الأيام الأولى للثورة في مصر و«التي غيرت وجه مصر».

تكمن أهمية هذا الكتاب في أهدافه وتوقيته. فهو من الكتب القليلة التي قدّمت دراسات ميدانية تنقل صورة التعبئة الشعبية والحراك السياسي الشعبي في بعض الدول العربية في فترة ما قبل الثورات مباشرة.

عبد اللطيف، كمال، وليد عبد الحي، محرر. إن الانفجار العربي الكبير في الأبعاد الثقافية والسياسية الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012. 352 صفحة.

أشرف على إعداد الكتاب، كل من كمال عبد اللطيف (القسم الأول) ووليد عبد الحي (القسم الثاني). وشارك في هذا العمل عدد من الباحثين والأكاديميين العرب من جامعات المغرب، مصر والأردن:

يناقش القسم الأول من الكتاب البعد الثقافي للثورات. يتضمن هذا القسم عدة مقالات تناقش التحديّات التي تواجه الثورات العربية على صعيد الثقافة السياسية

لمجتمعات ما بعد الثورات. فقد برز الانقسام الثقافي بعد الثورة بين أنصار الدولة المدنية ومؤيدي الدولة ذات المرجعية الإسلامية، وأصبحت قضية الهوية والانتماء تهددان الوحدة الوطنية في العديد من البلاد. وبذلك يحتل الموضوع الثقافي السياسي أولوية في رسم السياسات المستقبلية للثورات العربية. أما القسم الثاني من الكتاب فيتناول البعد التاريخي للثقافة السياسية في العالم العربي. يقدم وليد عبد الحفي، في هذا القسم، دراسة مفصلة من مئة صفحة عن تاريخ الفكر السياسي الإسلامي، نُظِمَ الحكم في الدول العربية الحديثة، ومستويات النمو والتطور الاقتصادي والاجتماعي في هذه الدول، يرافق هذا المقال قائمة مراجع هامة بالمؤلفات العربية حول الفكر السياسي الإسلامي والعربي. يتضمن هذا القسم أيضاً دراسة قَدِّمها نظام بركات حول أوجه الشبه والخلاف بين نظام الديمقراطية والشورى.

يتميز الكتاب بطابعه البحثي والأكاديمي. جميع المقالات موثقة مرجعياً وللكتاب فهرس عام.

قويسي، حامد، وعصام البشير، محرر. الإسلاميون وتحديات الحكم في أعقاب الثورات العربية. عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 2012. 317 صفحة.

يتضمن الكتاب مجموعة أوراق لندوة علمية عقدت في مركز دراسات الشرق الأوسط في عمّان، الأردن. شارك في الندوة سياسيون وأكاديميون متخصصون من أحد عشر بلداً عربياً. من بين المشاركين رموز وقيادات في الحركة الإسلامية، وخصوصاً جماعة الإخوان المسلمين، مثل رئيس حركة النهضة التونسي راشد الغنوشي، وزير الاوقاف السوداني السابق عصام البشير، والامين العام لجماعة الاخوان في مصر محمود ياسين وغيرهم.

يُقَسِّم الكتاب إلى أربعة أقسام. الأقسام الثلاثة الأولى منها غطت الأوراق العلمية التي قدمت في للندوة. أما القسم الرابع فقد تناول أهم المداخلات والنقاشات وردود الباحثين التي دارت أثناء جلسات الندوة.

تقوم محاور القسم الأول حول إدراك الإسلاميين للتحديات التي تنتظرهم في حال الوصول إلى السلطة ومنها إزالة المخاوف حول أسلوب حكم الإسلاميين والتي تتعلق بالحرص على الحريات العامة، الدفاع عن حقوق المرأة، ضمان حقوق غير المسلمين، تثبيت القيم الديمقراطية والبعد عن النموذج الشيوعي للحكم.

ويتبنى معظم المشاركين نموذج الدولة المدنية بمرجعية إسلامية والتي تؤمن مبدأ الشراكة، تداول السلطة، المساواة والعدل، ضمان الحقوق وحفظ الحريات. في القسم الثاني، يناقش المحاضرون تحديات بناء وتطبيق سياسات داخلية تتماشى مع تعاليم الإسلام من دون المساس بالحريات الشخصية ومنها تحديد العلاقة مع الآخر (العلماني، السلفي، غير المسلم)، التعامل مع بعض مظاهر الثقافة القائمة والتي برأيه «لا تتماشى بالضرورة مع تعاليم الإسلام» (دور السينما، الأزياء، الفنون...)، ضمان حرية الإعلام، التفكير والتعبير، وكيفية تعزيز الوجود الإسلامي في الإدارات الرسمية. أما القسم الثالث فقد خُصص لمحاوَر تناقش المشاريع الإسلامية والسياسات الإقليمية والدولية. وهي تستعرض مواقف الإسلاميين من السياسات الخارجية وتحديد العلاقات مع الدول الكبرى والدول المجاورة. تقدم حالات كل من إيران، تركيا، السودان وإندونيسيا كنماذج لتجارب دول تبنت السياسات الإسلامية وما كان لها من تأثير على علاقاتها الخارجية والإقليمية.

## 2- نماذج من كتب لمفكرين اهتموا بالثورات العربية

أبو رمان، محمد. السلفيون والربيع العربي: سؤال الدين والديمقراطية في السياسة العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013. 302 صفحة.

يضيء هذا الكتاب على حركات الإسلام السلفي في العالم العربي. فمن مفاجآت الربيع العربي كان دخول السلفيين إلى المشهد السياسي بعد أن كان هذا التيار خلال العقود الماضية رافضاً الدخول في اللعبة السياسية ومركزاً على العمل التربوي والدعوي.

يقدم أبو رمان الحالات السلفية المعاصرة باتجاهاتها المتعددة: الخط المحافظ الذي يرفض مبدأ المشاركة السياسية، أصحاب مبدأ «طاعة أولياء الأمور»، تيار السلفية الجهادية، وأخيراً الاتجاه الوسطي الذي يؤمن بالإصلاح السياسي وسلمية التغيير. كما يؤرخ الكاتب للحركة السلفية الوهابية الحديثة التي تأسست في شبه الجزيرة العربية وشهدت ازدهاراً في سبعينات القرن الماضي مع الفورة النفطية والشراكة في الحكم بين رموز الوهابية وآل سعود.

في استشراف تأثير الربيع العربي على الحركات السلفية توصل المؤلف إلى

بعض الخلاصات أهمها: شكلت التجربة السلفية المصرية حافزا لانخراط السلفيين بالعملية السياسية الديمقراطية في بلاد أخرى، فانتقلت التجربة المصرية إلى اليمن والأردن والمغرب. يعلّق الكاتب أن دخول السلفيين في الحراك الديمقراطي يمثل إشكالية حقيقية إذ إنهم يستفيدون من الآلية الديمقراطية في حين أنهم غير مؤمنين بها. يرد في نهاية الكتاب ملحق يتضمن تراجم لقيادات عالمية في الدعوى السلفية وملحق آخر يتضمن برنامج حزب نور السلفي.

حرب، علي. ثورات القوى الناعمة في العالم العربي: من المنظومة إلى الشبكة. ط. 3. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2013. 286 صفحة.

يتألف الكتاب من مجموعة مقالات للكاتب تواكب الثورات العربية منذ بداياتها في تونس وصولاً إلى الثورة في سوريا مع التركيز على الثورتين التونسية والمصرية.

الكتاب في طبعته الثلاث يغطي الأحداث في هذه الثورات بمفاصلها الأساسية: الطبعة الأولى عام 2011 تغطي بدايات الثورات في مصر وتونس كانون الأول 2010 ومعها موجة الأمل والتفاؤل بمصير هذه الثورات أو ما عرف بالربيع العربي؛ الطبعة الثانية صدرت عام 2012 وذلك بعد امتداد الثورات إلى ليبيا واليمن وما شهدته من عنف وتدخلات خارجية وإخفاقات؛ أما الطبعة الثالثة فقد أتت عام 2013 لتتضمن مقالات حول تهاوي نظام الإخوان المسلمين في مصر في ثورة يوليو 2013 وسقوط فكرة الأصولية ومشروع الإسلام السياسي بحسب تعبير الكاتب.

مواضيع الكتاب متعددة إلا أن تحديد طبيعة الثورات وتوصيفها بالناعمة هي السمة الأساسية في الكتاب. فهي حسب وصف الكاتب ثورات سلمية، شعبية غير نخوية، غير عقائدية، أفقية بدون زعيم أو منظر، بطلها الإنسان العادي لا البطل المجاهد، أدواتها سلمية وحديثة.

من الواضح أن الكاتب بوصفه وتعريفه لهذه الثورات يركز على المراحل الأولى لقيام الثورات العربية لا سيما في مصر وتونس. يأتي الكاتب في بعض الفصول على ذكر عمليات العنف في ليبيا وسوريا ويعزوها إلى سوء تعامل الأنظمة والحكام مع الثورات ومحافظتهم على مناصبهم بأي ثمن. وهو مدرك لمخاطر

خروج الثورات عن مسارها الأول وتحولها بدورها إلى عبوديات جديدة ومراكز انتفاع وفساد لزعماء جدد وأطراف جدد.

يرى الكاتب أن خلاص الثورات يقوم بالتركيز على المطالب الوطنية الداخلية والبعد عن التبعية والتأثر بتجاذبات السياسات الدولية والإقليمية. يركز حرب على أهمية القوى الناعمة للنهوض بمجتمعات ما بعد الثورات وهي تقضي بالاهتمام بالفرد أو المواطن وجعله الأولوية للأنظمة السياسية، إتاحة الفرص أمامه للعلم والمعرفة، إعطاءه حرية التعبير والاختلاف، والتشجيع على التجديد والإبداع.

زيدان، يوسف. فقه الثورة. القاهرة: دار الشروق، 2013. 330 صفحة.

يوسف زيدان، الباحث والمتخصص في التراث والمخطوطات، وفي الفكر الإسلامي، التصوف، والفلسفة. تمّ اختيار كتابه في فقه الثورة لكونه يمثل بشكل أساسي شهادة حية من مفكر ومواطن مصري عاش الثورة وأراد وصفها ونقل فهمه لها.

يعرّف الكاتب كلمة الفقه هو «الفهم العميق والإدراك الكلي للشيء». وفقه الثورة يقصد به فهم طبيعة ما جرى في مصر والبلاد العربية.

يتألف الكتاب من سبعة فصول. الفصول المخصصة للثورة هي خمسة: «الآفاق المصيرية للثورة المصرية»؛ «الثورة على الاحتقار»؛ «إجهاض الثورة إبقاء الفورة»؛ «الأسئلة التأسيسية»؛ «وقائع انهيار مكتبة الإسكندرية». يسجل الفصل المخصص لمكتبة الإسكندرية رصداً للصراعات الإدارية الداخلية التي تعرضت لها هذه المكتبة خلال عمليات الاحتجاجات الشعبية وتداعياتها على سير الأمور فيها ودورها المستقبلي. وهو بذلك يقدم عرضاً مصغراً للاضطرابات والأزمات التي قد تكون تعرضت لها أكثر من إدارة ومؤسسة حكومية في مصر خلال الثورة. «منارات الحكمة العربية» و«الحكمة المؤنثة» فصلان وردا في نهاية الكتاب وهما يؤرخان لشخصيات من التاريخ المصري والعربي.

يمكن تلخيص فكرة الكتاب الأساسية في تعريف زيدان للأصول السبعة للفقه الثوري وهي: الثورة لا تتم بشكل فجائي وتمرّ بعدة مراحل؛ الثورة عمومية ومؤنثة أي هي عمل اجتماعي وللمرأة دور هام فيها؛ الثائر لشرط شخصي لا يعول عليه؛

الثورة غير مطلوبة لذاتها بل لتغيير واقع معين؛ الثائر نبيل وليس نبياً فهو غير معصوم عن الخطأ؛ الوعي والعمق وقود الثورة؛ وجود وانضباط تجمعات كبيرة من الناس المختلفة الأطباع؛ اللغة مسار ثوري إذ تولد لكل ثورة لغة تعبر عنها.

الزين، حسن محمد. الربيع العربي: آخر عمليات الشرق الأوسط الكبير. بيروت: دار القلم، 2013. 280 صفحة.

يحاول هذا الكتاب (بالدرجة الأولى) تقديم قراءة وثائقية لظروف قيام الثورات العربية بهدف تقديم براهين تدل على ضلوع الإدارة الأميركية في التخطيط والتحضير لهذه الثورات. يقوم المؤلف بعرض بعض الوثائق وربطها بأحداث وتطورات الثورات العربية.

معظم الوثائق المتناولة في هذا الكتاب مصدرها إدارات أميركية رسمية كمركز الأمن القومي الأميركي، المخابرات القومية الأميركية، وزارة الخارجية الأميركية. كذلك يعتمد الكاتب على عدد من الوثائق الصادرة عن مراكز دراسات استشارية أميركية ومرتبطة بمشاريع الإصلاح السياسي والديمقراطي في الشرق الأوسط وتعزيز العلاقات مع مجتمعات ومؤسسات الإسلام المعتدل. كما يشير الكتاب إلى الارتباط والتنسيق بين الإدارة الأميركية ودولة قطر فيما يتعلق بإطلاق مشاريع الإصلاح الديمقراطي في المنطقة وذلك تنفيذاً لسياسات ومبادرات أميركية.

يتطرق الكتاب أيضاً إلى الاتهامات الموجهة إلى دول الغرب لتورطها بإدخال فرق القناصة إلى دول الثورات العربية وتوظيفها لتأجيج الصراع وإدخال العنف إليه.

قد تكمن أهمية هذا الكتاب في عرض الوثائقية المفصلة التي تحاول أن تبرهن وجود تخطيط وتدخل غربي مباشر في جوانب عديدة من ظروف قيام الثورات. إلا أنها لا تأخذ وجود أسباب داخلية للثورة كما أنها لا تلغي دور الشعوب التي نزلت إلى الساحات وحملت شعاراتها الخاصة والتي لا تعكس أي مصلحة أجنبية.

سالم، بول. الأنظمة المتكسرة: دوافع الربيع العربي وتداعياته الإقليمية والدولية. بيروت: دار النهار للنشر؛ مركز كارنيغي للشرق الأوسط، 2013. 245 صفحة.

يضم هذا الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات التي تتناول الثورات العربية واستحقاقاتها. معظم المقالات قد نشرت سابقا في صحيفة الحياة وصحف ومجلات أخرى. وكذلك يتضمن الكتاب بعض الدراسات للكاتب صادرة عن «مركز كارنيغي للشرق الأوسط». يتراوح تاريخ نشر المقالات بين عام 2008 وعام 2012.

يقسم الكتاب إلى خمسة أقسام: الربيع العربي؛ النظام الإقليمي؛ الصراع العربي الإسرائيلي؛ النظام الدولي؛ سوريا ولبنان.

في القسم الأول من الكتاب يعطي الكاتب أهمية كبيرة إلى ضرورة التغيير الديمقراطي والإصلاح السياسي إلا أنه يعبر عن قلقه لوجود عوامل عدة قد تعثر مسارات التغيير، من أهمها: تحقيق الوحدة الوطنية، عملية انتقال السلطة بكل تعقيداتها، أهمية دور المؤسسة العسكرية في حماية أو محاربة التغيير، صعوبة تحقيق ديمقراطية تعددية شاملة، وتحديات وصول الإسلاميين إلى الحكم.

يعتبر الكاتب أن التغيير نحو الديمقراطية باق ولو جاء متأخرا» وان الملكيات العربية ليست محصنة ضده بما فيها دول الخليج العربي؛ ويعرض الكاتب في القسم الثاني من الكتاب قضايا النظام الإقليمي مشددا على تداعيات النفوذ الإيراني المتزايد في المنطقة وما يشكّله من تهديد لأنظمة الخليج العربي. كذلك يناقش في هذا القسم نمو الدور التركي في المنطقة ويرى الكاتب «إن مصر والسعودية وإيران ليست المستقبل، لكن تركيا قد تكون»، يرد في هذا القسم مقال هام عن دور قطر الراعي والداعم للثورات العربية القريب من مواقف الولايات المتحدة الأميركية والصديق للأحزاب الإسلامية التي وصلت إلى الحكم بعد الثورات؛ يركز القسم الثالث من الكتاب على الصراع العربي الإسرائيلي ومخاطر الحرب في المنطقة، والتحديات التي تواجه عملية السلام؛ في القسم الرابع وتحت عنوان «وداعا» الشرق الأوسط الجديد» بتاريخ آذار 2008 يعلن الكاتب فشل مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي بدأ مع غزو الولايات المتحدة للعراق ويبحث في أدوار كل من روسيا والصين وغيرها من القوى الصاعدة في المنطقة؛ في القسم الخامس والأخير يركز الكاتب على تطور الأوضاع في سورية التي أصبحت ساحة لتصارع النفوذ في الشرق الأوسط ونقطة تهديد مباشرة وكبيرة للنفوذ الإيراني وانعكاس

ذلك على البيئة الاستراتيجية لحزب الله.

سراج، نادر. مصر الثورة وشعارات شبابها: دراسة لسانية في عفوية التعبير. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014. 408 صفحة.

يهدف الكتاب حسب مؤلفه مقارنة موضوع شعارات ثورة 25 يناير 2011 في مصر من وجهة نظر لسانية. يعتمد الكاتب في دراسته على قاعدة بيانات من 1700 شعار جمعت من منظومة الشعارات والهتافات التي ابتدعها شباب الثورة ورددوها في ميادين القاهرة وغيرها من المدن المصرية وما استتبعها من كتابات جدارية ورسوم غرافيتية وتعليقات ونكات، تشكّل هذه القاعدة مادة للفرز والتصنيف والدرس والتحليل في ضوء المبادئ اللسانية.

تنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام. يتكون القسم الأول من خمسة فصول، يتناول أولها اللغة الشعراوية؛ فيما تناول الفصل الثاني منتجي هذه الشعارات والهتافات ومروجيها؛ أما الفصل الثالث، فقد تناول وظيفة الشعار التجميعية الحائثة على المشاركة في الفعل السياسي؛ وفي الفصل الرابع، تناولت الدراسة إصرار الثوار على توضيح مواقفهم ولو عنى ذلك استعمال لغة أجنبية، أو لغة لاذعة؛ ويتناول الفصل الخامس موضوع الضمائر المستعملة في الشعارات حيث احتل ضمير المتكلم المرتبة الأولى. في القسم الثاني الذي تناول بلاغة الواقع، تمحور الفصل السادس حول الجملة الخبرية والجملة الإنشائية في خدمة الشعارات؛ بينما تناول الفصل السابع التناص بين الشعار والفنون المرئية؛ أما الفصل الثامن فتم تخصيصه لدراسة شعار «إرحل» بوصفه أنموذجاً لخطاب الاعتراض. ويتطرق القسم الثالث إلى الدراسة السيميائية لرموز المظهر والملبس والمأكل وغيرها.

صاغية، حازم. الإنهيار المديد: الخلفية التاريخية لانتفاضات الشرق الأوسط العربي. بيروت: دار الساقى، 2013. 320 صفحة.

يقول صاغية في مقدمة الكتاب «الكتاب محدود بحددين: انه يتوقف عند لحظة انفجار الثورات فلا يتعداها، وانه يقتصر على الشرق الأوسط العربي من العراق شرقاً إلى مصر غرباً». يتابع شارحاً بأن الفكرة المركزية في هذا الكتاب من شقين: «إن نزاعنا السياسي مع الغرب فاض عن السياسة إلى الثقافة والاجتماع. أما الشق الثاني فإن الأنظمة الاستقلالية، عملت على تكريس العصبية وهربت من مهمة بناء



الدولة مما زاد في تدين وتوتر مجتمعاتها كما استخدمت هذه الأنظمة الموضوع الفلسطيني لتحقيق اللحمة مع شعوبها متناسية قضايا وحاجات هذه الشعوب».

يقدم الكتاب في فصوله الستة عشر التاريخ السياسي للمنطقة انطلاقاً من العلاقة الشائكة مع الغرب كقوى مستعمرة. يعرض الكتاب بتسلسل زمني جميع الأزمات السياسية، الانقلابات والثورات، الحروب الإقليمية والأهلية التي مرت بها المنطقة من دون أن تحدث أي تطور إيجابي في حياة المواطنين. بل على العكس في الكثير من الأحيان أدت هذه الأحداث إلى نشوء أنظمة قمعية وفئوية أخرت بناء الدولة الحديثة. ويفسر الكاتب تخلف قيام الدولة العربية الحديثة سببه انشغال الشعوب بالسياسات والقضايا الخارجية غير واعيين إلى ضرورة بناء أوطانهم على أسس حديثة تضمن حقوقهم المواطنة وترعى مصالحهم الاقتصادية، كما يشير صاغية إلى أن الأنظمة العربية استعملت العدا للغرب كعقيدها للحكم وذلك لتأمين اللحمة مع شعوبها ولتوجيه أنظارهم عن ضرورة القيام بالإصلاحات السياسية وتحديث البناء الداخلي للدول.

بالنسبة إلى الكاتب «إن الشعوب العربية بنزولها إلى الشارع أوتت بأنها تكسر ثلاثة حواجز: حاجز الخوف حيال السلطة الأبوية، حاجز العدا للغرب وحاجز إسرائيل حيث استعمل الصراع العربي الإسرائيلي في السابق كشاغل عن كل مطالبة بالتغيير».

صالح، هاشم. الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ. بيروت: دار الساقى، 2013. 350 صفحة.

يحاول الكاتب تقييم أهمية الثورات العربية كعامل تغيير جذري في تاريخ المنطقة العربية مقارنة بأحداث تاريخية غيرت مجرى التاريخ وشكلت قطيعة مع الماضي. من بين هذه الأحداث انتصار التنوير الأوروبي على الأصولية المسيحية، انتشار مبادئ الثورة الفرنسية، ربيع الشعوب الأوروبية، سقوط جدار برلين وغيرها من الأحداث التي أسست لبداية مسار جديد.

الكتاب موزع على مقدمة وسبعة عشر فصلاً. يعلن الكاتب في كل الفصول فشل الثورات العربية في تبني المبادئ التنويرية التي من شأنها إحداث التغيير الجذري في الحياة السياسية أو الاجتماعية. وهو يرى أن المشكلة الكبرى تكمن في

التعلق بالماضي وتمجيده من دون محاولة مراجعته بهدف فهمه وتفكيكه. يستعين الكاتب بالمنظور الفلسفي لهيغل ونيشه ليؤكد على أهمية الفكر التنويري الديني لإحداث التغيير والتجديد الفكري بعيداً عن التفسير القديم لرجال الدين. وهو يفسر أن التنوير العربي واقع بين فكي الأصولية والصهيونية والحل يكمن في فصل قضية التنمية عن هم محاربة الصهيونية وفي حسم المسألة التراثية ببلورة تأويل ديني جديد ومستنير قادر على المصالحة مع الحداثة الكونية. إلا أنه يلاحظ كذلك أنه لا يمكن الانخراط في تفكيك العقائد الدوغماتية الإسلامية حالياً لتعلق الشعوب بها وغياب الفكر التنويري بشكل عام.

يستعين الكاتب بفكر محمد أركون ليؤكد على أهمية الحرية الفكرية في إحداث التغيير، ويستحضر فكر إدوارد سعيد ليشدد على أهمية تبني النزعة الإنسانية التي هي أوسع وأشمل من الانتماءات العرقية والدينية.

يستنتج الكاتب أن التاريخ أحياناً مضطراً للعودة إلى الوراء لكي يقفز إلى الأمام بعد أن يصفى حساباته التاريخية ويفكك الانغلاقات التراثية الضخمة وهو ما يحصل الآن برأيه في العالم العربي ككل.

طرابلسي، فواز. الديمقراطية ثورة. بيروت: دار الريس، 2012. 284 صفحة.

يقسم الكتاب إلى قسمين أساسيين: الأول عبارة عن دراسات ومقالات تناقش موضوع التحول الديمقراطي في العالم العربي وارتباطه بالتغيرات الاجتماعية والثاني يقدم مختارات من مقال الكاتب الأسبوعي في جريدة السفير التي توأمت تطورات الانتفاضات العربية.

في الفصل الأول يتناول الباحث طبيعة الثورات التي أسقطت أفكار مغلوطة عن طبيعة المجتمعات العربية وطرق تقدمها وتحديثها. فقد سادت فكرة «الاستثناء الإسلامي» غير القابل للاندماج في موجة الحداثة العالمية ونظرية «النقصان الديمقراطي» للشعوب العربية والتي تقضي بأن الشعوب العربية غير مؤهلة لممارسة الديمقراطية. أتت الثورات العربية لتؤكد غير ذلك ولتبرهن عن نضج ووعي سياسيين عند هذه الشعوب التي استطاعت أن تنزل إلى الشارع وأن تعبّر عن مطالبها بلسان حالها، شعاراتها وقدراتها الذاتية. في الفصل الثاني يشرح الكاتب أن الانتفاضات العربية لم تتبنّ الشعارات النيولبرالية المنادية بتقلص دور الدولة بل هي تمسكت

بدور الدولة العادلة وبشعار «الشعب والنظام». في الفصل الثالث يتطرق الكاتب إلى صمود فكرة الانتماء العربي خلال التحركات الشعبية والدليل على ذلك أن الثورات حملت اسمها. إلا أن ذلك لا ينفي أن الانتماءات العرقية الأخرى تأثرت بشعارات الثورة وهي باتت تطالب نصيبها من الحرية العدالة والمساواة. الفصل الرابع يناقش أطروحة المفكر الألماني يورغن هابرماس عن دور «المجال العام» و«الفضاء الحضري» في التحول الديمقراطي في إطار من المقارنة التاريخية بين التجربتين العربية والغربية. الفصل الخامس يعالج موضوع النفط والديموقراطية انطلاقاً من مقولات في التاريخ الاقتصادي المقارن طرحها المفكر تيموثي ميتشل. الفصل السادس هو محاولة لإنقاذ إدوارد سعيد من اختزاله بكتاب «الاستشراق» وتبيان ذروة تطوره الفكري وصولاً إلى رؤياه الإنسانية العلمانية التي شكلت الديمقراطية مكوناتها الأساسية.

مسلماني، مليحة. جغرافيتي الثورة المصرية. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 356 صفحة.

يتناول الكتاب فن الجغرافيتي الذي ظهر خلال ثورة 25 يناير المصرية. وفي الكتاب 516 رسماً جمعت من حيطان مصر، علاوة على دراسة مسهبة في تحليل الموضوعات التي تصدت لها. يتضمن الكتاب سبعة فصول: يعرض الفصل الأول للمرحلة الأولى من انطلاقة الجغرافيتي مع شعار «ارحل»؛ ويعرض الفصل الثاني الرسومات التي عكست الصحوة الشعبية؛ ويتناول الفصل الثالث الأحداث التي مرت بها مصر خلال عامين من تاريخ الثورة؛ والفصل الرابع أحداث «ماسبيرو»؛ الخامس «ثورة الجغرافيتي ضد العسكر»؛ أما الفصل السادس، فيعرض للكيفيات التي حولت فن الجغرافيتي إلى وسيلة تعبير مضادة للإعلام الرسمي ودوره في التوعية والتحرير؛ وختاماً فصل عن فن الجغرافيتي النصي من خلال عرض بعض الرسومات التي كان النص محوراً الرئيسي، والمستلهم في بعضها من جماليات الخط العربي والزخرفات الإسلامية.

تكمن أهمية هذا الكتاب في إبرازه لفن الجغرافيتي وكيفية تحوله إلى أداة تعبيرية ثورية عكست المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في زمن الثورة. هو أشبه ما يكون بثورة فنية متحررة موازية للثورة المصرية، ثورة غير رسمية تتكلم

لغة الشارع وتجسد ذلك الغضب الصامت المعبر الذي أضحى تشكيلاً ونصاً ولوناً وإبداعاً.

مناع، هيثم. ربيع المواطنة. بيروت: دار عشتروت، 2013. 141 صفحة.

هيثم مناع - المعارض السوري في المنفى رئيس هيئة التنسيق الوطنية السورية في المهجر، والناشط السياسي المتحدث باسم اللجنة العربية لحقوق الإنسان - يجمع في هذا الكتاب مجموعة من مقالاته المنشورة والتي تقدم شهادات حية وقرارات لأهم المواقف والأحداث في بدايات «الربيع العربي» لا سيما في تونس، مصر وليبيا مع التركيز على ظروف انطلاق «انتفاضة الكرامة» في درعا في سوريا والتحويلات التي فرضت على هذه الانتفاضة لاحقاً.

جميع مقالات هذا الكتاب نشرت في صحف ومجلات عربية وأجنبية خلال عام 2011 وتغطي أحداث تلك السنة. يشرح الكاتب في مقالاته المشكلات الأساسية التي أنجبت الثورة كالتهميش الاقتصادي والاجتماعي، والفساد والاستبداد. وهو يؤكد على إرادة الثوار أن تكون الثورة سلمية بعيدة عن التعبئة الطائفية والتبعية السياسية والمالية. كما ينبّه من سهولة تحويل الثورة إلى حرب أهلية وحرب إقليمية مما يحول الثورة إلى صراع طائفي ويضع الأسباب الحقيقية لقيامها وبالتالي والفرص لتحقيق مطالبها.

يتضمن الكتاب ثمانية عشر مقالاً تتبعه ملاحق لمجموعة من نصوص للبيانات والاتفاقات الموقعة من قبل أعضاء هيئة التنسيق الوطنية لقوى التغيير الديمقراطي. تعكس تلك النصوص العلاقات والصراعات بين اللاعبيين الأساسيين في المعارضة السورية الداخلية والخارجية، إشكاليات تمثيل المعارضة والتدخل الخارجي في هذه المعارضة.

ولد أباه، السيد. الثورات العربية الجديدة المسار والمصير: يوميات من مشهد متواصل بيروت: دار جداول، 2011. 152 صفحة.

في هذا الكتاب، يعرض ولد أباه، الباحث والأكاديمي الموريتاني، معرفته لبعض جوانب الثورات العربية ويقدم أفكاره وتوقعاته لنتائجها معتمداً أسلوب اليوميات السردي الذي يناقش ويحلل حدث تاريخي معين.

تبدأ يوميات الكاتب في تونس، 7 تشرين الثاني، 1987 وهو يوم إعلان تنحية بورقيبة لأسباب صحية وانتقال السلطة إلى بن علي رئيس الوزراء والعسكري ذي القبضة الحديدية. من خلال خواتمه اليومية يستعرض الكاتب بإيجاز تاريخ تأسيس بعض الدول العربية، أساليب الحكم فيها، ضرورة الإصلاحات السياسية، وأسباب قيام الثورات فيها. كما يناقش تحديات المرحلة الانتقالية بعد قيام الثورات وفتح باب المشاركة السياسية أمام فئات وأحزاب متناقضة ومتنافرة المصالح مع ما يرافق ذلك من صعوبات التعامل مع رموز الأنظمة السابقة، مهادنة المؤسسة العسكرية القابضة على أمن الدولة وضرورة إحداث تطوّر إيجابي في شكل الحكم من خلال التصوّر الدستوري للنظام السياسي المقبل.

في محاولته تعريف الثورات لا يشبهها الكاتب بثورات التنوير في أوروبا وشعاراتها القائمة على تحرير العقل من سلطة رجال الدين، وهي ليست كالثورات الاشتراكية التي تبنت الفكر الماركسي. فهي ثورات غير إيديولوجية لا تحمل مشروع تغيير جاهز. هي قامت مطالبة بالتغيير ضد الاستبداد والفساد. لذا يمكن القول إن الثورات العربية هي اقرب إلى الثورات في أوروبا الشرقية في نهاية الثمانينات.

من العوائق الأساسية لإحداث التحول الديمقراطي الذي تنشده تلك الثورات، في رأي الكاتب، هو تحديد العلاقة بين المرجعية الدينية والعقيدة العامة للدولة ومقتضيات التعددية الفكرية والسياسية في المنظومة الديمقراطية وهو يرى أن الطرفين العلماني والإسلامي تقدّما في السنوات الأخيرة في اتجاه الانفتاح على بعضهما فظهر نهج «العلمانية المتصالحة مع الدين» والعلمانية الجزئية.

تكمن أهمية هذا الكتاب في الجانب الشخصي منه إذ يستحضر الكاتب في الكثير من الحالات معلومات تنم عن معرفته الشخصية للفاعلين ومرافقته الحية للأحداث لذلك هي جاءت على شكل يوميات وليست كتابة منهجية وعلمية.

### 3- الكتب الإنكليزية

سأقدم في هذا القسم نماذج صغيرة من الكتب التي صدرت باللغة الإنكليزية حول الربيع العربي. عملية انتقاء الكتب كانت صعبة وقد تم اختيار الكتب ذات الطابع الأكاديمي والتي قامت بنشر معظمها دور نشر تابعة لجامعات.

Dabashi, Hamid. *The Arab Spring: the End of Post-colonialism*. London: Zed Books, 2012. 272 pages.

حميد دبشي، أستاذ الدراسات الإيرانية والأدب المقارن في جامعة كولمبيا في كتابه هذا الربيع العربي: نهاية ما بعد الاستعمار، ينظر إلى الثورات العربية نظرة متفائلة مبشرا بولادة مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة تنهي مرحلة ما بعد الاستعمار السياسي وما رافقها من تشردم وتبعية في بناء وسياسات الدول العربية. فقد شهدت تلك المرحلة انقسام العالم والمنطقة إلى معسكر سوفياتي وآخر أميركي. من ثم ومع انهيار الاتحاد السوفياتي بدأ التبشير بولادة نظام عالمي جديد بقيادة الولايات المتحدة الأميركية كقوة عظمى واحدة. أما الربيع العربي فبحسب الكاتب يفتح مرحلة جديدة تحررية واستقلالية في العمل والفكر السياسي لدى المواطن العربي. يربط الكاتب هذه الثورات بثورات مماثلة سبقتها في دول أخرى في أوروبا الشرقية ولا سيما بالثورة الخضراء التي قامت في إيران سنة 2010.

يحلل الكاتب الأحداث من منظور ماركسي، يبدأ كتابه بمقولة لكارل ماركس تشيد بتغيير الرؤية السابقة للماضي والقيام بتقديم فهم وتفسير جديدين لأحداث الماضي. تقسم مواضيع الكتاب على عشرة فصول يشرح فيها الكاتب جوانب عدة من الثورات: أسبابها، نتائجها المحتملة وما قد تحدثه من تغيرات جذرية في تكوين وجغرافية المنطقة - تأثيرها على أوضاع المرأة، الأقليات والصراع الطبقي، وغيرها من المواضيع المتعلقة بشكل وأسلوب تلك الثورات لغتها، شعاراتها ومساحاتها العامة.

Ghonim, Wael. *Revolution 2.0: The Power of the People Is Greater than the People in Power: A Memoir*. New York, New York; Houghton Mifflin Harcourt Publishing Company, 2012. 308 pages.

ثورة 2.0 سلطة الشعب أكبر من رجال السلطة: مذكرات. هو شهادة حية لتجربة وائل غنيم أحد أبرز الناشطين في الثورة المصرية ورائد من رواد استخدام وسائل الاتصال الاجتماعية للتشبيك بين الناشطين ولنشر وتنظيم تحركات الثورة.

يتألف الكتاب من تسعة فصول تروي التطورات السريعة لبدايات الثورة حتى سقوط مبارك من خلال تجربة غنيم المباشرة في تلك الحقبة. يروي غنيم بشكل

متسلسل التحاقه بالثورة ابتداءً من إنشائه صفحات على الفيسبوك نالت شعبية هائلة وكانت لها التأثير الكبير في نجاح الثورة، أولها صفحة لدعم ترشيح البرادعي إلى رئاسة الجمهورية، والثانية «كلنا خالد سعيد» تحية لخالد سعيد الذي مات ضرباً تحت أيدي القوى الأمنية. يبين الكتاب شعبية وأهمية صفحة «كلنا خالد سعيد» إذ وصل عدد المنضمين الجدد إلى الصفحة في اليوم الواحد إلى عشرة آلاف، وعدد المنضمين إلى دعوة تجمع 25 يناير إلى المليون. ينقل غنيم في كتابه الكثير من محتويات هذه الصفحة من نصوص وردود فعل القراء عليها. خصص الكتاب فصلين لسرد تفاصيل عملية اعتقال غنيم والتحقيق معه بتهمة التحريض على عمليات الشغب والتعامل مع قوى خارجية لقلب النظام. ينتهي الكتاب مع حدث تنحي مبارك عن السلطة وينقل عبارات التهئة التي نشرت على الفيسبوك عند إعلان سقوطه.

يشيد غنيم بالدور الذي لعبته وسائل الاتصال الاجتماعية في نجاح الثورة في تونس مما شجع الشباب المصري أن يحذو حذوها. وما ساعد في فعالية تلك الوسائل في حالة الثورة في مصر، بحسب غنيم، هو انتشار تلك الوسائل وشعبيتها عند جيل الشباب، حرية الاتصال الذي تمنحه تلك الوسائل، وعدم إدراك السلطات السياسية لأهمية وفاعلية تلك الوسائل. بحسب غنيم فقد ساعد استعمال تلك الوسائل بشكل أساسي على كسر حاجز الخوف بين الناس، وأمن وسيلة للتواصل والتضامن بين الشعب خارج سلطة ورقابة الدولة.

Tripp, Charles. *The Power and the People: Paths of Resistance in the Middle East*. New York: Cambridge University Press, 2013. 358 pages.

المؤلف شارل تريپ، أستاذ السياسة في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، في كتابه هذا قوة الشعب: طرق المقاومة في الشرق الأوسط يحاول تقديم دراسة متكاملة حول تاريخ حركات المقاومة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بكل أشكالها مع الإضاءة على أهمية النواحي غير التقليدية والسلمية في هذه الحركات.

يتألف الكتاب من ستة فصول مقسمة على أنواع المقاومة المختلفة: المقاومة المسلحة ضد الاحتلال كالثورة الجزائرية والمقاومة الفلسطينية المقاومة المسلحة

ضد نظام سياسي قامع؛ المقاومة السلمية من خلال نزول الناس واحتلالهم الساحات العامة ابتداءً من انتفاضة الصفار في العراق (1977) مروراً بالثورة الإيرانية (1978) وصولاً إلى الربيع العربي؛ المقاومة الاقتصادية ابتداءً من مظاهرات الخبز في عهد السادات (1977) حتى تحركات عمال النسيج في مصر (1995-2011) وغيرها؛ المقاومة النسائية للمطالبة بحقوق المرأة؛ المقاومة الفكرية من خلال تفكيك ومراجعة التاريخ المكتوب؛ والمقاومة من خلال الفن كالمصنوعات السياسية والجرافيتي والفنون التشكيلية الأخرى.

يُنْبَه تريب إلى ارتباط أشكال المقاومة وتأثيرها ببعضها البعض، ويرى أن الوسائل السلمية في الثورات العربية وأهمها احتلال الساحات العامة من قبل الناس العاديين قد غيّر نظرة المواطن العربي لدوره وحقوقه وخلق سياسة مقاومة بديلة فعالة وغير عنيفة.

Brown, Nathan J. *When victory is not an option: Islamist movements in Arab politics*. Ithaca: Cornell University Press, 2012. 260 pages.

عندما لا يكون الانتصار خياراً: الحركات الإسلامية في السياسات العربية، كتاب من تأليف ناثن براون، أستاذ العلوم السياسية في جامعة جورج واشنطن والمتخصص بدراسة الحركات الإسلامية السياسية.

جاء هذا الكتاب نتيجة صعود تمثيل الحركات الإسلامية في العمليات الاقتراعية، وتزايد وجودها في الحياة السياسية في معظم دول الشرق الأوسط. يحاول براون في هذا الكتاب أن يشرح عقيدة وتنظيم هذه الحركات وأن يدرس ظروف ونتائج انخراطها في العملية الديمقراطية مع التشديد على صعوبة فوزها أو توصلها إلى الحكم.

يتألف الكتاب من تسعة فصول تتمحور بشكل أساسي حول تجربة حزب الإخوان المسلمين. خصص الفصل الرابع لدراسة تنظيم الإخوان المسلمين في مصر كالحركة الأم. وناقش الفصل الخامس نشأة وتطور ودور حركة الإخوان المسلمين في الحياة السياسية في الكويت، الأردن، وفلسطين. وشكّل تأخر الحركات الإسلامية في الانضمام إلى انتفاضات الربيع العربي ومن ثم وصول هذه الحركات إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع محور الفصل الثامن. وناقش الكاتب في



الفصول الأخرى البعد الإيديولوجي لهذه الحركات والتحديات التي تواجهها بعد انخراطها في العملية الديمقراطية. ومن تعقيدات وصول هذه الحركات إلى السلطة هو بعدها الديني والذي من أهدافه إعادة بناء المجتمع والأفراد بما يتماشى مع قوانين الشريعة الإسلامية وهو ما يناقض مبدأ الحرية في الحياة السياسية والتي استفاد منه الإسلاميون للوصول إلى السلطة.

Beinin, Joel, Frédéric Vairel, ed., *Social Movements, Mobilization and Contestation in the Middle East and North Africa*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2011. 308 pages.

الحركات الاجتماعية، تحرك واحتجاج في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هو كتاب اشترك في تحريره وتأليفه مجموعة مؤلفين وأكاديميين من جامعات أميركية وأوروبية.

يهدف الكتاب إلى دراسة الحركات الاجتماعية والسياسية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. تمّ التحضير للكتاب قبل اندلاع أحداث الربيع العربي. فاجأت الانتفاضات محرري الكتاب وزادت من أهمية الأبحاث الواردة فيه التي قدمت رصداً ميدانياً حول الحركات السياسية والاجتماعية في الشارع العربي عشية انتفاضات الربيع العربي.

تم التركيز في الكتاب على دراسة الحركات الاحتجاجية العمالية والنقابية، التحولات الفكرية والإيديولوجية لدى النخب المثقفة، والأبعاد الاجتماعية لصعود الإسلام السياسي.

يتألف الكتاب من أحد عشر فصلاً تتوزع على أربعة محاور. معظم الفصول تشكل دراسة لحالة قائمة في بلد عربي أو أكثر. تشير نتائج بعض الدراسات إلى تغيرات في فكر المعارضة السياسية التي بدأت تتحول من الانتماءات الإيديولوجية اليسارية إلى الانخراط في النشاط المدني والمنظمات غير الحكومية للدفاع عن مبادئ عامة كالحريات وحقوق الإنسان. من الفصول الهامة في الكتاب: الحركة العمالية في مصر؛ البطالة عند حملة الشهادات في المغرب؛ ساحات وتاريخ الاحتجاجات المطالبة بالديمقراطية والحرية في مصر والمغرب. ينتهي الكتاب بفصل إضافي من تأليف محرري الكتاب خصص للإضاءة على أحداث الثورات

العربية، وهو يشير إلى أهمية تلك الأحداث التي لم يتنبأ بها الباحثون، يستعرض مع التعليق على أحداث بدايات الثورتين التونسية والمصرية.

Noueihed, Lin, Alex Warren. *The Battle for the Arab Spring: revolution, counterrevolution and the making of a new era*. New Haven: Yale University Press, 2012. 350 pages.

معركة الربيع العربي: ثورة، ثورة مضادة، صناعة عهد جديد. الكتاب من تأليف لين نوييهض، مراسلة وكالة رويتر في الشرق الأوسط لمدة عشر سنوات، وألكس وارن مدير شركة أبحاث استشارية حول منطقة الشرق الأوسط.

يقدم الكتاب عرضاً للثورات العربية أسبابها، أحداثها ومرتباتها السياسية على المنطقة. يتألف الكتاب من اثني عشر فصلاً موزعة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول يضع الثورات العربية في إطارها التاريخي عارضاً أحداث التمرد السابقة وطرق صدها وشارحا أسباب وظروف ولادة الربيع العربي وأهمها الاستبداد، قمع الحريات، الفساد المالي عند الطبقة الحاكمة، الانفتاح الاقتصادي الذي أدى إلى عدم توازن في توزيع الثروات وخلق فرص عمل، التطورات النوعية والكبيرة في مجالات الاتصالات والبث الفضائي.

في القسم الثاني من الكتاب تتوزع الفصول على وصف الأوضاع في دول الربيع العربي تونس، مصر، البحرين، ليبيا، اليمن وسوريا. في كل من الفصول هناك وصف للحالة الخاصة لنظام الحكم فيها وما يسببه من قمع وقهر للمواطن العادي، الفساد المالي والضييق الاقتصادي، دور وسائل الاتصال كالمدونات ووسائل الاتصال الاجتماعية، اللجوء إلى العنف، مواقف المجتمع الدولي ومؤسساته والتدخل العسكري الخارجي.

في القسم الثالث تناقش الفصول التحديات التي تنتظر المنطقة بعد قيام الثورات والمتغيرات التي فرضتها ومنها: مصير الأنظمة الملكية وغير الديمقراطية، الإسلام السياسي وأساليب الحكم، التحالفات الخارجية الجديدة التي ستنشأ بعد تغيير الأنظمة.

Pollack, Kenneth et al. *The Arab Awakening: America and the Transformation of the Middle East*. Washington DC: Brookings Institution, 2011. 381pages.

الصحوة العربية: أميركا والتحول في الشرق الأوسط، هو كتاب ضخمة يتألف من ستة وثلاثين فصلاً كتبها ثمانية عشر كاتباً وكاتبة. شارك في تأليف الكتاب مجموعة من الباحثين المتخصصين في قضايا الشرق الأوسط والتابعين لمركز صبان في مؤسسة بروكينغز في واشنطن. قدم للكتاب محرره بولاك الذي وصفه بأنه مشروع كتابة مشترك بين جميع المؤلفين الذين تناقشوا وتبادلوا الأفكار حول محتويات الكتاب والمنهجية المتبعة لتقسيم الكتاب وكتابة فصوله.

الهدف الرئيسي من الكتاب كما ورد في المقدمة هو القيام بدراسة وافية لإحداث الصحوة العربية التي تعتبر من أهم تطورات السياسية في القرن الواحد والعشرين إذ هي حركات السكون السياسي الذي خيم على المنطقة لعقود طويلة. والكتاب موجه إلى الإدارة الأميركية والمجتمع الأميركي بهدف تصحيح مغالطات عن طبيعة الشعوب والأنظمة العربية.

قسّمت مواضيع الكتاب على الشكل التالي: القسم الأول ويتناول الأوضاع في المنطقة التي مهّدت لحركات التمرد، القسم الثاني يناقش تطورات الأوضاع في الدول التي حدثت فيها الثورات أو التغييرات: العراق، مصر، تونس وليبيا. القسم الثالث يناقش جهود الإصلاح التي سارعت إلى القيام بها دول عربية استباقاً لحدوث حركات احتجاج فيها وهي الكويت، المغرب، الجزائر، الأردن، البحرين والسعودية. القسم الرابع يغطي تطوّر الأحداث في البلاد التي لم تحسم فيها الثورات وهي سوريا واليمن. القسم الخامس يناقش دور دول المنطقة المؤثرة على الأحداث وهي إسرائيل، إيران وتركيا. أما الفصل السادس والأخير فيناقش دور القوى الدولية المؤثرة على الأحداث وهي الصين، أوروبا والولايات المتحدة.

Lynch, Marc. *The Arab uprising: the unfinished revolutions of the new Middle East*. New York: Public Affairs, 2012. 269 pages.

الانتفاضة العربية: الثورات غير المنتهية في الشرق الأوسط الجديد. الكتاب من تأليف مارك لينش أستاذ العلوم السياسية والشؤون الدولية في جامعة جورج واشنطن، وهو من الأكاديميين الناشطين في الشأن العام ومن داعين الإدارة الأميركية إلى الإصغاء لمطالب الشعوب العربية، والتنبّه إلى ممارسات الحكم غير الديمقراطية للدول العربية المدعومة من قبل الولايات المتحدة.

يقدم في كتابه هذا نظرة متفائلة للثورات العربية التي أدخلت عملية التغيير السياسي بعد فترة جمود طويلة. يتألف الكتاب من ثمانية فصول: الفصول الثلاث الأولى منها خُصّصت لشرح بعض نواحي التاريخ السياسي للمنطقة لاسيما الشق المتعلق بالتحركات الشعبية السابقة مثل حركات الوحدة العربية في الخمسينيات والستينيات، الانتفاضة الفلسطينية وغيرها من الأحداث التي أثّرت على دور الولايات المتحدة في المنطقة وشكلت نقاط تحول في سياساتها. الفصل الرابع يناقش بدايات الثورات ونجاحاتها في كل من تونس ومصر. الفصل الخامس خصص لتسجيل الانتقال السريع لموجات الاحتجاج والمطالبة بتغيير النظام إلى الدول المجاورة اليمن، الجزائر، البحرين، ليبيا، عمان، المغرب، العراق، العربية السعودية، فلسطين، سوريا، الأردن ولبنان. يناقش الفصل السادس إسراع بعض الأنظمة بمحاصرة التحركات وتقديم الإصلاحات والتنازلات السياسية ومنها البحرين، المغرب والأردن. الفصل السابع خصص للدول التي شهدت حروباً أهلية مثل ليبيا وسوريا. في فصله الأخير يعلّق لينش على خطاب أوباما حول الانتفاضات العربية وعمليات التغيير مشدداً على دعم مبادئ الحرية والديمقراطية. ينهي لينش كتابه بدعوة الولايات المتحدة إلى دعم مطالب الشعوب والى استعمال الدبلوماسية في تفعيل عملية السلام وتفهم دور الحركات الإسلامية.

Gerges, Fawaz A. ed., *The New Middle East: Protest and revolution in the Arab World*. New York: Cambridge University Press, 2014.

**الشرق الأوسط الجديد: احتجاج وثورة في العالم العربي، حرره جرجس فواز، أستاذ العلاقات الدولية ومدير مركز الشرق الأوسط في كلية لندن للاقتصاد والسياسة.**

يتألف الكتاب من واحد وعشرين فصلاً موزعين على أربعة أقسام: القسم الأول خصص لمناقشة الأسباب السياسية والاقتصادية التي أدت إلى الثورات. من بين فصول هذا القسم دراسة إحصائية حول الأوضاع الاقتصادية في الدول العربية خلال العقود الثلاثة السابقة. يشرح فيه كاتب المقال علي قدري تعثر عملية التنمية الاقتصادية وارتباط ذلك بفشل عملية بناء الدول وبالاضطرابات والحروب التي حدثت في تلك الدول. القسم الثاني يتناول ظواهر معينة في هذه الثورات كأشكال

المقاومة السياسية، مدنية المشاركين في الثورات، دور المؤسسات العسكرية، أوضاع المرأة العربية واحتمالات التغيير بعد الثورة. ويرد في هذا القسم فصل يناقش فيه الكاتب جون سيديل عملية التحول إلى الديمقراطية في مصر مقارنة بالتجربة الإندونيسية ويستنتج أن للحالة المصرية خصوصيتها نظرا لقوة حضور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية ولتنظيم والانتشار الشعبي لحزب الأخوان المسلمين. القسم الثالث من الكتاب يتناول أحداث الثورات في مصر، تونس، ليبيا، والبحرين. يرد في هذا القسم فصلا لصادق العظم حول القومية العربية، الإسلام السياسي والثورات العربية. القسم الرابع يتناول التدايعات الإقليمية والعالمية للثورات العربية، تأثيرها على الأوضاع الداخلية في السعودية، نفوذ كل من إيران وتركيا، موقف ودور الولايات المتحدة وأوروبا. الفصل الأخير في هذا القسم تقارن فاليري بنس بين ثلاث موجات من الانتفاضات على الحكم الحديثة وهي انهيار الاتحاد السوفياتي، الثورات الملونة في دول شرق أوروبا والثورات العربية. وتستنتج صعوبة التنظير العلمي والتنبؤ بتطور الظروف لعملية التحول الديمقراطي. Howard, Philip, Muzammil Hussain. *Democracy's Fourth Wave: Digital Media and the Arab Spring*. New York: Oxford University Press, 2013. 145 pages.

موجة الديمقراطية الرابعة: الإعلام الرقمي والربيع العربي، تأليف فيليب هاورد أستاذ الإعلام في جامعة واشنطن والمتخصص بدراسة تأثير التكنولوجيا الرقمية على الحياة السياسية لا سيما الحركات المطالبة بالديمقراطية. اشترك في التأليف طالب الدكتوراة مزمل حسين.

بالرغم من الاهتمام الكبير الذي أعطي لدور التكنولوجيا الرقمية ووسائل الاتصال في الثورات العربية فإن هذا الكتاب هو الأول باللغة الإنكليزية المخصص لهذا الموضوع. يجمع الكتاب بين أسلوبي البحث النظري والبحث الميداني والإحصائي. يتألف الكتاب من ستة فصول تضيء على جوانب مختلفة من دور وسائل الاتصال الاجتماعية. الفصل الأول يربط بشكل توثيقي بين تحركات الشوار في الميدان مع ما سبقها وحضر لها من خلال وسائل الاتصال لاسيما في مصر وتونس. الفصل الثاني خصص للإضاءة على دور ومسيرة ناشطين قياديين في الثورات من خلال رصد استعمالهم لوسائل الاتصال ومدى اعتمادهم على

تلك الوسائل. الفصل الثالث يشرح التطور التاريخي لدور التكنولوجيا الرقمية في مجتمعات الربيع العربي. فهي نمت وكبرت في مجتمعات يعاني فيه الشباب من الضيق الاقتصادي، والقمع السياسي. الفصل الرابع يحلل المؤلفون مواقف الأنظمة الحاكمة من التحركات الشعبية وعجزها أمام ما أمنتته تلك الوسائل من سهولة في التواصل والتنسيق بين الثوار. الفصل الخامس مخصص لدراسة دور قناة الجزيرة الفضائية الذي جاء مكملاً لحلقة الاتصال وتداول المعلومات. أما الفصل الأخير فيناقش احتمالات مسار الأحداث ما بعد الثورات في كل من الدول العربية.

#### 4- محتويات بعض الدوريات العربية حول بدايات الثورات العربية:

سيتم في هذا القسم عرض ملخص لمحتويات بعض الدوريات العربية التي صدرت في بدايات الثورات. تم انتقاء دوريات تعنى بالشأن السياسي وهي بمعظمها ذات طابع أكاديمي أو بحثي.

إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع: مجلة أكاديمية فصلية محكمة. بيروت: الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، 2008. هي مجلة أكاديمية متخصصة في علم الاجتماع. من مميزات تلك المجلة مشاركة الطاهر لبيب، الرئيس الشرفي للجمعية العربية لعلم الاجتماع في افتتاحيات إعدادها، هو عالم الاجتماع الكبير والذي تفاجأ وتفاعل مع إحداث الثورات لا سيما الثورة في تونس. بعض المقالات المختارة من الأعداد التي صدرت سنة 2011:

ليبيب، الطاهر، «لكي لا تأكل الثورة أولادها باكراً؟». إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع 13 (2011): 13-16.

هو مقال رأي وليس دراسة علمية. يتبّه لبيب بأن الثورات المعروفة عالمياً انتهت بأكل أقرب أولادها والثورات العربية اليوم يتربص بها احتمالان: فوضى شعبية أو قمع جديد. من أجل تفادي فشل هذه الثورات يتبّه لبيب انه يجب التفتن والحذر من سياسات قمع الداخل والارتباط بالخارج. في هذا المقال أعلن لبيب تراجعته عن رأي سابق له حول عدم كون الديمقراطية مطلباً اجتماعياً في العالم العربي. كما أعلن تراجعته عن مقولة لطالما تناقلها «ستون سنة تحت أمام جائر

أصلح من ليلة بلا سلطان».

قبانجي، جاك، «لماذا فاجأتنا انتفاضتا تونس ومصر؟ مقارنة سوسولوجية». إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع 14 (2011): 9-31.

يحاول قبانجي تفسير تخلف الباحثين في علم الاجتماع عن التنبؤ بحدوث الثورات وإهمالهم لدراسة الحراك الاجتماعي. وهو يبرر ذلك بأن المجتمعات العربية لطالما اعتبرت من قبل «العلميين» مجتمعات راكدة وعصية على التغيير تحكمها بنى اجتماعية تقليدية مثل القبيلة والانتماءات الطائفية والإثنية. فمع تراجع العمل السياسي وسيطرة الأنظمة على الحياة العامة انصبَّ اهتمام الباحثين على دراسة طرق أداء السلطة وتفاعلها مع المجتمع بدلاً من التركيز على تطلعات التغيير عند الفئات المختلفة من المجتمع. وبعد فشل الحركات السياسية القومية واليسارية تركّز الاهتمام على دراسة الحركات الإسلامية ولم يعط أي اهتمام لدراسة الأفكار السياسية الأخرى المتداولة في المجتمع.

بدايات: فصلية ثقافية فكرية. بيروت: 2012.

بدايات هي مجلة ثقافية فصلية، رئيس تحريرها فواز طرابلسي الأستاذ الجامعي في العلوم السياسية. تعلن أسرة المجلة عند إطلاقها العدد الأول: «ولدت فكرة المجلة من إحساس متزايد بضرورة المساهمة في بلورة المشروع اليساري في العالم العربي، لكن ما دفعها إلى حلبة المغامرة الصحفية هو انطلاقة الثورات الشعبية العربية».

في كل من أعداد سنة 2012 لهذه المجلة تحتل الثورات العربية موضوع ملف العدد وهي أتت كالتالي: في العدد الأول ملف الثورات بشبابها وهو يتضمن شهادات حية ومشاهدات لشباب عرب نزلوا الشارع وشاركوا في الثورات في مصر، اليمن، البحرين وسوريا؛ كما يتضمن مقالة حول عولمة الشباب العربي للباحثة الأكاديمية ميسون سكرية؛ في العدد الثاني ورد ملف معركة الدساتير؛ في العدد الثالث ورد ملف عن الثورة السورية تحت عنوان الثورة الحرب الشعب وهو يتضمن تسع مقالات تعالج الثورة السورية بمختلف أوجهها، يشارك ميشال كيلو في مقاله «الحرية أم إسقاط النظام» فيشرح موقفه من مطلب إسقاط النظام والذي يراه محقاً لكنه يشكل أيضاً تهديداً لسقوط الثورة والمعارضة أيضاً. من المقالات

المنتقاة لهذه السنة:

فهمني، خالد، «ثورة الجسد». بدايات: فصلية ثقافية فكرية 1 (2012): 17-18.  
 يقدم خالد مقاربة هامة لدور الجسد في الثورات العربية: أتت البداية مع إشعال البوعزيزي لجسده مرسلاً من خلاله رسالة واضحة تعبر عن أزمته بشكل صادق ودرامي. اليقين ببلاغة الجسد رأيناه يتمثل في أشكال أخرى في مصر. فصور جثة خالد سعيد الذي قام شرطيان بضربه حتى الموت أشعلت الشارع المصري وأصبحت أيقونة الثورة المصرية. حالات الإصابات الجسدية وإعلان الإضراب عن الطعام لناشطين سياسيين وضعت الجسد في خط المواجهة الأول. أما جسد المرأة فقد استعمل لتصعيد التحدي وكسر التابوهات. فمن نشر صورة علياء مهدي عارية على مدونتها إلى سحل الجنود للمنقبة «ست البنات» وتعريتها أمام مجلس الوزراء إلى خروج عشرات الآلاف من النساء للشوارع والميادين مندعات بانتهاك الجيش لحرمة أجسادهن، لما وضع جسد المرأة في قلب هذه الثورة. أما قضية كشف العذرية ونجاح سميرة إبراهيم في مقاضاة الجيش فقد اعتبر من أهم الأعمال الثورية ودل على ارتباط الجسد بمبدأ الحرية والكرامة ومحوريته في المواجهة مع العسكر.  
 سياسات عربية: دورية محكمة تعنى بالعلوم السياسية والعلاقات الدولية والسياسات العامة. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

تصدر كل شهرين، بدأ بإصدارها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في قطر بعد الثورات العربية بالإضافة إلى إصداره مجلتي فصليتين محكمتين عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية (2012-) وتبين للدراسات الفكرية والثقافية (2012-).  
 أكثر من نصف المقالات الواردة في أعداد المجلة لسنة 2013 خصصت لمواضيع تتعلق بنتائج الثورات العربية. خصص معظم مقالات العدد الرابع لعملية «الانقلاب العسكري» على الإخوان المسلمين في مصر. أما العدد الخامس فقد ناقشت معظم المقالات فيه الأزمة في سوريا وانعكاساتها الإقليمية والدولية لا سيما احتمالات التقارب الأميركي - إيراني. هناك قسمان يردان في كل عدد من أعداد المجلة: محطات التحول الديمقراطي في البلدان العربية، وهو يقدم مسحا للتعطية الإعلامية لأحداث الربيع العربي في أهم الصحف والجرائد في العالم العربي؛ والمؤشر العربي وهو يقدم نتائج استطلاع للرأي حول قضية سياسية أو اجتماعية معينة.



بعض المقالات المختارة لهذه الدراسة:

محارب، محمود، «إسرائيل والتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي». سياسات عربية 1 (2013): 23-31.

يطرح هذا المقال ما قد تشكله الثورات العربية من مصادر قلق لإسرائيل. فنشوء أنظمة عربية ديمقراطية يشكل تهديداً لإسرائيل لأنها تفتح المجال أمام الشعوب للتعبير والتصرف بحرية؛ أدت الثورات العربية إلى تراجع النفوذ الأميركي، وكشفت نقاط ضعف في السياسة الأميركية الخارجية؛ أصبحت سياسات وممارسات إسرائيل عبئاً إضافياً على الولايات المتحدة؛ تهدد الثورات العربية اتفاقيات السلام مع الأنظمة السابقة؛ وصول الإسلاميين إلى الحكم يعقد العلاقات مع إسرائيل.

حسين، أحمد قاسم، ساتيك، نيروز غانم. «التغيرات في بنية النظام الدولي وانعكاساتها على الثورات العربية». سياسات عربية 3 (2013): 68-83.

يقدم المقال عرضاً للتغيرات التي تطرأ على بنية النظام الدولي معتمداً على نظرية أورغانسكي لدراسة انعكاسات التغير في النظام الدولي على الثورات العربية. فهي تحاول تفسير الاتجاهات الرئيسية للسياسية الدولية منطلقة من أهمية اقتصاد التصنيع، وأثره في نمو الطلب على الطاقة وانعكاسه على التسابق إلى التسليح ونشر القواعد العسكرية. وهو يفسر أن القفزة الصناعية في الصين وما ترتب عليها من طلب للطاقة قد غير الموازين والمعادلات في العالم. كذلك الصعود الاقتصادي لدول أخرى كروسيا، البرازيل، كوريا الجنوبية والهند عزز استقلاليتها عن الولايات المتحدة الأميركية، وأخذت تبحث عن دور دولي لها. أما دول أوروبا الغربية فهي تبحث عن دور يعزز سلطتها ويعيد بعضاً من أمجادها. بحسب الكاتب فقد شجعت أحداث الثورات العربية الدول الصاعدة اقتصادياً لاسيما روسيا والصين وبعض دول أوروبا الغربية كفرنسا على دخول الصراع في المنطقة على أمل تعزيز دورها وتحقيق مكاسب اقتصادية.

مجلة الدراسات الفلسطينية مجلة فصلية محكمة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990.

شكل الربيع العربي موضوع الملف لعدد من أصل أربعة أعداد في سنة

2011: ملف عالم عربي جديد (عدد 86) حمل الملف تواريخ برهان غليون، رشيد الخالدي، محمد لطفي اليوسفي، خالد فهمي، سنان أنطون، وصبري حافظ؛ ملف الثورات العربية والقيم الجديدة (العدد 88) تضمن مقالات موقعة من فواز طرابلسي، ياسين الحاج صالح، رائف زريق، شريف يونس، محمد بنيس، فادي بردويل، أمجد ناصر.

بعض المقالات المختارة لهذه الدراسة:

رشيد خالدي، «الثورات العربية 2011 ملاحظات تاريخية أولية». مجلة الدراسات الفلسطينية 86 (2011): 17-23.

يتحمس خالدي في مقاله هذا للانتفاضات العربية ويشير إلى أنها «انتفاضات ثورية لا سابق لها». أبرز ما يميزها عن الثورات السابقة في المنطقة أنها موجهة للتغيير الداخلي وليست موجهة لقضايا خارجية كسابقاتها. قامت الثورات ضد أنظمة الحكم مطالبة بالديمقراطية، الإصلاحات الدستورية، الحرية والمساواة. ويختم خالدي بالقول إن الثورات أنهت عصر الانصياع والخضوع لإسرائيل والولايات المتحدة اللذان كانا يشكلان سندا أساسياً للأنظمة العربية الراكدة التي يجري تحديها في شوارع المنطقة بأسرها.

بكداش، ندين، عبير سقسوق، رنا جربوع. «الغرافيتي في الثورات العربية: المصالحة مع الجدران» مجلة الدراسات الفلسطينية 89 (2012): 143-153.

يناقش المقال ظاهرة انتشار الغرافيتي في العالم العربي قبل وخلال الثورات العربية والتي تعبر «عن كل ما هو مسكوت عنه: السياسة، الحب، الدين والجنس». فالكتابة على حائط المدينة هو تعبير عن وجدان أهلها وهو عكس ما أرادته السلطات للمدينة من جدران نظيفة خالية إلا من صور ضخمة للرئيس. تناقش كاتبات المقال موضوع الصراع الفعلي على الحيز العام الذي يجد تعبيراته على الجدران ويختلف بشكله ومضمونه من بلد إلى آخر ومن زمن إلى آخر. يتطرق المقال إلى وصف الغرافيتي النصي والغرافيتي المرسوم لنشر شعارات ورسائل سياسية واجتماعية متحدي السلطة وطارحة التغيير. يركز المقال على حركة رسوم الغرافيتي في تونس القاهرة ودرعا. وتتضمن المقالة خلفية سريعة عن حركة الغرافيتي في كل من بيروت والرياض البحرين والإسكندرية.

المستقبل العربي: مجلة فكرية شهرية محكمة تعنى بقضايا الوحدة العربية ومشكلات المجتمع العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1978. هي مجلة سياسية شهرية لاحقت تطورات وتفصيل أحداث الثورات العربية. بعض المقالات المختارة لهذه الدراسة: عبد الله، عبد الخالق. «الربيع العربي: وجهة نظر من الخليج العربي». المستقبل العربي 391 (2011): 117-128.

يناقش هذا المقال ارتدادات الثورات العربية على بلاد الخليج العربي. ويقسم دول الخليج إلى دول تأثرت بتيار التغيير وهي البحرين وعمان والعربية السعودية؛ الدول التي استفادت من التغييرات وهي قطر والإمارات. يشرح الكاتب ويعلق على حركات الاحتجاج في هذه البلاد متعرضاً لخصوصية الحالة في كل منها ولطريقة معالجة السلطات لردود الفعل على تلك الانتفاضات. فبينما أدارت عمان المطالب الإصلاحية بحكمة وبطريقة استباقية، فشلت البحرين بتهدئة المعارضة، أما السعودية فهي معرضة لعدوى التغيير بحكم أزمتها الكثيرة التي تشمل تفاقم الفساد والبطالة والفقر واحتكار السلطة. أما قائمة الراحين فضّمت قطر والإمارات اللذان لم يشهدا مسيرات ومظاهرات شعبية مطالبة بالتغيير. في حين لعبت قطر دور المساند للثورات. أما الكويت فهي لم تخرج بمكاسب أو خسائر ملحوظة.

عوض، محسن. الانتقال إلى الديمقراطية في الوطن العربي بين الإصلاح التدريجي والفعل الثوري (2001-2011) 388 (2011): 50-88.

يقدم هذا المقال دراسة وملخصاً لمحاولات الانتقال إلى الديمقراطية في الدول العربية التي أخذت زخماً ودعماً خارجيين بعد أحداث 11 أيلول 2001. يقسم الكاتب هذه المحاولات إلى مبادرات إصلاح من الخارج وأخرى من الداخل. مبادرات الإصلاح من الخارج جاءت من الولايات المتحدة الأميركية من خلال القوى الناعمة، مشاريع الإصلاح لشرق أوسط جديد، واللجوء إلى الحرب بحجة محاربة الإرهاب والدفاع عن الديمقراطية والحرية. الإصلاح من الداخل جاء في أكثر الأحيان استجابة لإملاءات من الخارج على شكل مشاريع دولية. جاءت الثورات العربية لتطرح التغيير من وبمبادرة من الشعوب طالبة إسقاط الأنظمة وإحداث التغيير الجذري. يتناول القسم الأخير من الدراسة سبل تعزيز مكاسب

الثورة والانتقال الفعلي إلى الديمقراطية. أما القسم الرابع فجاء حول دور منظمات حقوق الإنسان في الإصلاح والانتقال إلى الديمقراطية.

### تعقيب

قدّمت هذه الورقة عرضاً لشريحة صغيرة من الكتب والمقالات حول التحركات الشعبية في العالم العربي. ليس من المبالغة القول إنه يصدر يومياً، كتاب جديد عن هذه الثورات. فإن كثافة التأليف والنشر في موضوع الثورات العربية إنما يدل على مركزيتها في الأوضاع السياسية الراهنة وتأثيرها الكبير على الحالة الفكرية السائدة. نجد أن المثقفين والمفكرين الذين لم يخططوا للثورة أو يشاركوا فيها قد تبوّأوا وساروا إلى متابعتها والكتابة عنها. كذلك مراكز الأبحاث التي لم يسبق أن تنبأت بحدوث هذه الثورات فهي تحاول اللحاق بالثوار ومن احتلوا الشوارع والساحات عن طريق المساهمة في رسم مستقبل تحركاتهم. فها هي مؤسسة الفكر العربي تستفتي ثلاثين مفكراً عربياً من مختلف الاتجاهات والدول للنزول عند رأيهم في فهم أسباب، أدوات وتحديد أفضل السبل لنجاح تلك الثورات. أما مركز دراسات الوحدة العربية فيدعو ثمانين مفكراً عربياً إلى ندوة لنقاش هذه الثورات بهدف المساهمة في وضع خطط طريق لمستقبلها. أما الكتاب في السياسة فقد أجمعوا على تأييد الثورات وإنما اختلفوا أحياناً في توصيفها ورسم مستقبلها.



# التوجهات السياسية والجمالية والأخلاقية

للمبدعات التونسية 2011-2013

Political, aesthetic, and ethical positions  
of Tunisian women artists, 2011-2013

ليليا العبيدي

مراجعة هدى طالب

Review by Huda Taleb

hudasrage@hotmail.com

نشهد اليوم، في زمن المتغيرات، ولادة فنون أقرب ما تكون إلى نبض الشارع. ولعلها ثورة تعبيرية يترجمها المبدعون والمبدعات، وتأتي في موازاة بروز دور المواطن العادي وخاصة الشباب كقاطرة للتغيير. أو ليس الفن بحد ذاته ثورة بحسب القول المأثور لجيل دولوز «الخلق هو مقاومة».

نشرت الوزيرة السابقة الباحثة والأستاذة الدكتورة ليليا العبيدي مقالة رائعة بعنوان «التوجهات السياسية والجمالية والأخلاقية للمبدعات التونسيات 2011-2013» في دورية مجلة «دراسات إفريقية الشمالية» في عدد مارس 2014، باللغة الإنكليزية، منقولة عن الفرنسية<sup>(1)</sup>. تناولت المقالة التي تتسم بالحرفية الأكاديمية العالية كصفات تأثير الربيع العربي على مبدعات ولدت أعمالهن، عبر فنون بصرية متعددة الوسائط، جماليات مستحدثة حاكت الحدث الثوري العربي بثورة تعبيرية لخطاب سياسي اجتماعي في زمن «التحول الديمقراطي». وكانت «تونس» و«الربيع العربي» و«مبدعات» و«النقد الاجتماعي» الكلمات المفتاح في المقالة.

---

See Lilia Labidi, «Political, aesthetic, and ethical positions of Tunisian women artists, (1) 2011-2013,» in *The Journal of African Studies*, vol. 19, Issue 2, 27 March, 2014. To link this article see, <http://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/13629387.2014.880826#>. VEIYmfUfpY

سنقرأ بروية أهم ما تناولته الباحثة في مقالها نظراً لأهميته التوثيقية والنظرة الاستشرافية لمفاهيم مستحدثة في الجماليات والذائقة الفنية. وبحسب الكاتبة فإن المقالة تهدف إلى تعميق فهمنا لمسألة تطور الفنون التي أنتجها فنانات تونسيات في فترة 2011-2013 في مجالات التشكيل والأفلام الوثائقية والتجهيزات والرسومات الكرتونية والتصوير الفوتوغرافي والجرافيتي وغير ذلك.

الافتتاحية التي شكلت فاتحة شهية لنا لمراجعة المقالة، كانت اقتباساً للفنانة العراقية ميسلون فرج بأن الجواب على كل هذا العنف والدمار واليأس في عالمنا اليوم يكمن بالأمل في إنسانية أفضل تتولد على أيادي الفنانين. وتضمنت المقدمة لمحة موجزة لتاريخ نشوء الدراسات عن مساهمات المرأة التونسية في مجال الفنون موازاة مع نمو الدراسات النسوية في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي والكيفيات التي أدت إلى ولادة جيل جديد من المبدعات منذ الستينيات في مجالات متنوعة كالسرح والسينما والفنون البصرية؛ وصولاً للزمن الراهن حيث أصبحت الحركة الفنية النسوية موضع اهتمام وتقدير. فقد عرفت مساهماتهن شيوعاً وبرزت أعمالهن الفنية في المتاحف وصلالات العرض والمسارح، وصولاً إلى الربيع العربي الذي حفّز على استنباط أنماط جديدة للإنتاج، مثل المساهمات المختلطة والأعمال الجماعية.

ووثقت في المقدمة أهم الدراسات التي تناولت دور الفنانين في معالجة قضايا سياسية اجتماعية في زمن الربيع العربي. فذكرت الباحثة «Centin Iclal» وعملها على سينمائيات عربيات ثلاث رأت في أفلامهن تحوُّلاً من تصوير ميلودرامي لموضوع الجندر إلى الواقعية التي تتسم بها صناعة الأفلام الوثائقية. وذكرت الناقدة الفنية «مشكات كريفه» التي نوّهت بتكامل أفكار الفنانين وتصوراتهم عن المستقبل وتحدياته عبر عين استيتيكية جمالية. كما أتت على ذكر «سيوبان شالتون» التي وصفت الأعمال الفنية في زمن الثورة التونسية باعتبارها ابتكرت لغة بديلة، تتعارض مع طبيعتها البصرية الشفافة والمعبرة. وذكرت أيضاً «مريم جمشيدي» التي تناولت الربيع العربي وعلاقته بإعادة تأويل الثقافة والفنون في العالم العربي.

في المحور الأول وتحت عنوان الشراكة بين المؤسسة السياسية والحركة الفنية في فترة ما بعد الاستقلال، تجولت الباحثة متبعة تطواف رحلة المبدعة «صفية

فرحات» الفنية معلّلة ذلك بالمكانة التي احتلتها على الساحة الفنية والمسار الذي سلكته، مؤدية بذلك عرضاً ممتعاً تناول سيرة الفنانة وأعمالها المتنوعة ونظرتها إلى الفن وعلاقته بالوعي والثقافة. حطمت «صفية فرحات» في فترة مبكرة أعرافاً، فأصبحت منذ الأربعينيات المرأة الوحيدة في مجموعة «مدرسة تونس» للفن التشكيلي. وكان للنقاشات والحوارات المعقودة بين فناني هذه المدرسة، والتي أفضت إلى الطلاق مع المشهدية الفنية الموروثة عن الحقبة الاستعمارية، تأثيراتها على مسار «فرحات»، فاستلهمت الفنانة من الآثار الرومانية القديمة وفن العمارة الإسلامية والموروث الشعبي، واستخدمت رموزها في أعمالها المتنوعة من لوحة ونسيج حائطي وخزف وزجاج.

يشكّل المحور الثاني قلب المقال، إذ خصّص لرصد الحركة الفنية لمبدعات في فترة ما بعد ثورة 14 يناير. في البداية، وفي عنوان فرعي، طرحت الكاتبة إشكالية علاقة الفن وثقافة المواطنة. فاستشهدت بتجربتين لحثّ المرأة التونسية للمشاركة بأول عملية انتخاب برلمانية بعد الثورة. أولهما كان الملصق الإعلاني «لزمني نمشي» أي «لازم أمشي» المأخوذ من فيديو كليب تلفزيوني من إنتاج وزارة شؤون المرأة. كان الهدف من الحملة الدعائية وجوب المشاركة بعملية الاقتراع. صوّر الإعلان المرأة عبر حيوات مختلفة: الأستاذة والتلميذة والعاملة والمزارعة وكلهن يقلن «لازم نمشي» في إشارة إلى وجوب الذهاب للتصويت. كان هذا الإعلان جزءاً من مشروع وزاري تمحور حول مفهومي الديمقراطية والمواطنة. وتنوه الكاتبة بأهمية هذا التجربة لتي خصّصت المرأة بأهمية صوتها، ولأنها المرة الأولى، فيما عدا الإعلانات المخصصة لموضوعي منع الحمل والوقاية من مرض الإيدز، التي تخص المرأة بهذه المساحة من الاهتمام الترويجي لرفع منسوب الوعي السياسي لديها. أما التجربة الثانية التي ذكرتها الكاتبة، فكانت مشروع جمعية «التزام المواطنة» التي أسستها مجموعة من النساء. فقد رفعت صورة ضخمة للرئيس المخلوع في أحد أحياء العاصمة؛ ولما همّ المواطنون بإزالتها بعد موجات الحيرة والغضب التي تملكتهم، وجدوا خلفها ملصقاً ضخماً يحمل عبارة «فيق الدكتاتورية تنجم ترجع» أي استيقظ، يمكن أن تعود الدكتاتورية مذيلة بالدعوة إلى المشاركة بالاقتراع لانتخابات الجمعية التأسيسية. خطاب صادم هزّ الجموع وحثّهم على تحصين



مكتسباتهم وبفهمهم إلى أخطار التراخي وعدم المشاركة السياسية.

وتحت عنوان «الفن والفكاهة والنقد السياسي» تناولت الكاتبة سيرة وأعمال فنانتين، مع الإشارة إلى أنه نادراً ما خاضت المرأة حقل الفن الساخر؛ أما اللواتي يمارسنه فعالباً ما تنصب أعمالهن على نقد لاذع للمؤسسة الاجتماعية - السياسية على حدّ قولها. الفنانة الأولى هي «عائشة الفلالي» التي اتسمت أعمالها بنفحات من السخرية والعبثية. في عملها «اختراقات»، وهو تركيب فوتوغرافي مطبوع على القماش، الذي عُرض ضمن فعاليات المهرجان الدولي الثالث للفن المعاصر - الجزائر 2011، احتل المبنى الذي كانت تشغله وزارة شؤون المرأة قبل الثورة مجمل مساحة العمل. هذا المبنى بشباييكه وموظفيه، بالإشارة إلى الوزارة ودورها، كان فاقداً للروح ويتسم بالنمطية الصمّاء البكماء. ويشكل العمل بحد ذاته نقداً لاذعاً لدور وزارة المرأة ومسؤوليها عن عدم تلبية حاجات المواطنين.

أما العمل الثاني للفلالي الذي تطرقت إليه الكاتبة، فكان معرض «شباييك وعتب» حول موضوع ظاهرة الزواج الجماعي من خلال صور حفل الزفاف، حيث استثمرت فيه الفوتوغرافيا وتقنياتها الرقمية، ووظفت المنسوجات ومواد أخرى من جهاز العروس لرسم مشهدية حافلة بتفاصيل غريبة لاستفزاز المتلقي وتحفيزه لفهم ما يحدث حوله.

الفنانة الثانية التي تناولتها الكاتبة في باب الفن الساخر كانت أستاذة الفنون الجميلة ورسامة الكاريكاتور «نادية خياري» التي بدأت برسم الكاريكاتور بعد الخطاب الذي ألقاه الرئيس التونسي السابق بن علي في 13 يناير/كانون الثاني 2011. تتستر «نادية خياري» خلف شخصية كارتونية لقط اسمها «وليس» يقوم بالتعليق والنقد على الأحداث والتظاهرات السياسية التي تجري في تونس، خصوصاً ضد السلفيين. وعبر شبكات التواصل الاجتماعي نالت رسوماتها رواجاً ملحوظاً ونُشرت بعض رسوماتها في الصحافة الفرنسية، وفي عام 2012 نالت خياري العام جائزة Daumier الفرنسية على أعمالها.

في المحور المعنون «الفن والمقاومة»، أدرجت الكاتبة ثلاثة عناوين: توثيق الثورة عبر الأفلام، جسد المرأة في الصورة الفوتوغرافية وأخيراً التجهيزات الفنية في موازاة التدين.

في العنوان الأول تطرقت العبيدي بإسهاب لعمليين سينيمائيين الأول للكاتبة والمخرجة «سونيا شمخي» وفيلمها الوثائقي «مناضلات» الذي يصف حال العديد من الناشطات في مجال حقوق الإنسان، واللواتي ترشحن لانتخابات المجلس التأسيسي بعد الثورة التونسية، وتحدين المشهد السياسي التونسي. يعيد الفيلم رسم مناخ أول انتخابات حزبة، ويجند النساء في تونس من فاعلات وناشطات في المجتمع المدني كما المناضلات والمترشحات للمشاركة في المسيرة الديمقراطية الجديدة. وهو في الحقيقة تكريم للمناضلات الرائدات.

أما العمل الثاني فكان الفيلم الوثائقي «لا ربي لا سيدي» للمخرجة المتمردة «ناديا الفاني» الذي أثار حرباً بين السلفيين والعلمانيين خصوصاً على وسائل التواصل الاجتماعي؛ كما تم اقتحام قاعة العرض الأول للفيلم من قبل سلفيين. الأمر الذي اضطرها لتغيير اسم الفيلم إلى «العلمانية، إن شاء الله». لكن الفيلم الذي فاز بجائزة «العلمانية» من فرنسا أثار جدلاً واسعاً وأشعل نيران طالت كل الحراك الاجتماعي السياسي والقانوني. ولعل الأخطر في الموضوع هو استعمال المتطرفين من الإسلاميين كل الوسائل للنيل من المخرجة بحجة المساس بالذات الإلهية، وهذا ما تناولته الكاتبة بشكل مسهب وبالتفاصيل لكشف عورات المجتمع وازدواجية معاييرها.

في تقديم غني لموضوع حرية التعبير في الإعلام المرئي ووسائل التواصل الاجتماعي، وخصوصاً الساخر منه، وما ناله من مضايقات وملاحقات قانونية ومهنية، وتحت «عنوان التصوير الفوتوغرافي وجسد المرأة»، طرحت الكاتبة قضية «أمانة السبوعي» الناشطة النسوية التونسية، والعضوة في منظمة «فيمن» التي قامت في مارس 2013 بوضع صورتها وهي عارية الصدر وقد كُتب عليه «جسدي ملكي ليس شرف أحد» على الفيسبوك. موضوع شائك أيضاً أشعل نيراناً مماثلة لما ناله فيلم «ناديا الفاني»، ولعله أقام الدنيا ولم يقعدا، خصوصاً أن «أمانة السبوعي» لم تتوان عن تصعيد موقفها بسلسلة مواقف وتصاريح، واستطاعت أن ترسم كلمة «نسوية» جرافيتياً على أحد جدران مقبرة في القيروان احتجاجاً على اجتماع للإسلاميين في المدينة. الأمر الذي أدى إلى اعتقالها ومحاكمتها وتغريمها. وفي المقابل، جيّشت قضية «أمانة» مناصرات ومناصرين لها في العديد من البلاد مطالبين بالإفراج عنها،

ناهيك بالألوف الذين نشطوا عبر وسائل التواصل الاجتماعي. وفي المحصلة تم الإفراج عن «أمينة» في بداية آب 2013. لكنها انفصلت عن حركة «فيمنن» معللة ذلك بطغيان الإسلام السياسي وفقدان الشفافية لمواجهته. وهي اليوم تعيش في فرنسا.

الجسد العاري هو لب موضوع الحرية، وهذا ما تناوله المخرج الكبير «نوري بوزيد» أيقونة السينما التونسية، والتعبير لصحفية قديرة، والمعروف بمعارضته موضوع الحجاب. في فيلمه المعنون «ما نموتش»، وبالإنكليزية «الجمال المخفي» المنتج في عام 2012، هاجم فيه الأصوليين وكل من يعمل للحد من الحرية الفردية. لكنه في المقابل يرضى بما تختاره المرأة كهندام لها.

في موضوع «التجهيزات الفنية» تطرقت الكاتبة الفنانة التشكيلية والأستاذة الجامعية «نادية جلاصي» التي شاركت في معرض «ربيع الفنون» في «العبدلية» الذي نسقته الفنانة «مريم بودربالة». نالت «جلاصي» قسطها من الملاحقة القانونية بتهمة نشر مواد من شأنها تعكير صفو النظام العام، الأمر الذي شكل صدمة لها بسبب ما اعتبرته تعدياً على حرية الفنان. وفي معرض الكلام عما أثاره هذا المعرض الجماعي من جدل وأعمال شغب طالته من قبل المتطرفين الإسلاميين، تناولت الكاتبة سيرتها الفنية وكيفية استلهاهم عملها المعروف من قضية «سكينة محمدي آشتياني» السيدة الإيرانية التي حكم عليها بالإعدام رجماً بتهمة القتل والزنا. وقالت الفنانة إن هذه القضية قد أثرت فيها بالإضافة إلى الكم من صور رجم نساء المدرجة على الأثير العنكبوتي. وعبرت الفنانة جلاصي من خلال تجهيزاتها الفنية الثلاثية الأبعاد أن أولئك الذين يرحمون المرأة باسم حضارة تقوم على الحب والسلام والجمال هم في الحقيقة معلولون.

وتبقى الكلمة الأخيرة في الخاتمة. فقد طفنا من خلال هذا المقال / الدراسة والحواشي والملاحظات الغنية ورأينا مع الكاتبة كيف استطاعت المبدعات، وبغض النظر عن الوسائط المستخدمة، بناء جماليات مستحدثة وأخلاقيات جديدة. فكنّ عبر أعمالهن الفردية أو الجماعية، ومرات نادرة دائرة المؤسساتية، يبدن استعدادهن لابتداع خطاب نقدي ومختلف يتعارض مع الثقافة السائدة. ولعل نتاجهن قد أغنى الواقع الجديد الذي ولده الربيع العربي. والصفة التي يمكن إطلاقها على هذا

الكم من النتاج الفني هي الانفجارية. فهذه الكوكبة من الفنانات اللواتي ولدن بعد الاستقلال، وتعلمن في المدارس الوطنية، التي راعت التقاليد التونسية لكنها أبقّت الباب مفتوحاً على الخارج تحضيراً لملاقاة مفاعيل العولمة، عملن عبر وسائط متعددة منها الملصقات والأفلام الوثائقية والرسوم الكرتونية والصور المنتجة، والتصوير الفوتوغرافي والمنشآت/التجهيزات، على بناء منظومة للجماليات خاصة بهنّ. وسلطت إنجازاتهن الفنية الضوء على الاختلالات الوظيفية التي تعترى المجتمع. أما ميزة أعمالهن فهي أنها كشفت عن عورات جماليات الذائقة الفنية لفترة ما بعد الاستقلال المستنزفة. وهن يعلنن أيضاً عن رفضهن للنسوية الرسمية والمشروع التكفيري على حدّ سواء. وفي المحصلة فهنّ يسعين جاهدات لبناء مفهوم نسوية إنسانية تستند على حرية التعبير، وعلى المساواة في الفضاءين السياسي والعام، وتدعو إلى القضاء على كل أنواع التمييز ضد المرأة، والتي توحد بين كلا التجربة الفردية والقيم الثقافية وتلك الروحية.



## **PART III: Bibliography**

### **Fatmeh Charaffeddine**

Literature on Arab Spring: Short Explained Bibliography ..... 475

### **Huda Taleb**

Review of the “Political, Aesthetic, and Ethical Positions of Tunisian women artists, 2011-2013, by Lilia Labidi” ..... 513

**Saada Kalakesh, Stéphane Bazan and Christophe Varin**

A Web for all Seasons: The Arab Web as a Biotope for Change  
(Article in English) ..... 265

**THEME III: Innovative Forms and Expressions  
in Arab revolutions**

**Mona Abaza**

**Translated and designed by Huda Taleb**

Terrorism, Resistance and Gender Imaginary in Cairo Graffiti ..... 269

**Watfa Hamadé**

Manifestation des révolutions arabes au sein des expressions  
théâtrales des jeunes ..... 287

**Nader Sraj**

Discourse of Objection: “Dégage” as a Prototype ..... 311

**Hind al-Soufi**

La Piéta yéménite entre l’archétype et les révolutions arabes ..... 331

**Ibrahim al-Ariss**

Arab Spring Cinema: A Critical View ..... 357

**Maysoun Ali**

La révolution en tant que questionnement de l’art: le graffiti comme un  
théâtre de la rue ..... 371

**Mona Fayad**

The Body as a Vessel and an Actor of Revolutions ..... 397

**Omar Kouch**

Establishing Slogans in the Syrian Revolution ..... 423

**THEME IV: Christianity and Islam in the  
Arab Revolutions**

**Ridwan al-Sayyid**

Azhar Documents during the Revolution and the Horizons of Islamic  
Reform ..... 453

## **PART TWO: Studies and Researches**

### **THEME 1: Players and Emerging Actors**

#### **Abeir Ibrahim Imneina**

Women in the Libyan Revolution between Presided over  
the Scene and the Marginalization of Roles ..... 55

#### **Shereen Abouelnaga**

From Exploitation to Polarization: Egyptian Women Mapping  
their Space and Discourse  
(Article in English)..... 102

#### **Lilia Labidi**

The Political Role of Women during the Arab Spring in Tunisia  
(Article in English) ..... 140

#### **Amro Salah al-Din ‘Alaa**

Women Activists “Hoda al-Saddah, Mervat al-Tellawi, Mona  
dhu-l Fiqar”: Lobby Group in the Egyptian Khamsin Committee ..... 141

#### **Amel Grami**

Tunisian Women and the Revolution: Expectations,  
Challenges and Stakes ..... 167

#### **Sabrina Saad, Stéphane Bazan and Addis Tesfa**

Infowar on the Web in the Middle-East  
(Article in English)..... 210

#### **Mona Yahya al-Mahakery**

The Yemeni Women: from Marginalization to Revolution ..... 211

### **THEME II: The Arab Revolutions: Innovative Patterns**

#### **Rafif Rida Sidawi**

When the Revolution Imposes its Pattern: Egypt as an Example ..... 233



# CONTENTS

**Foreword** ..... Lebanese Association of Women Researchers ..... IX

**Introduction** ..... XII

## Part I: Testimonies

### **Alia Ibrahim**

Photo Revolution... The Important Thing is not to Drop the  
Camera, only then the Dream will be Over ..... 3

### **Fowziya Abu Khaled**

Recovery from the Evil of Cancer at Dawn of the Arab Spring ..... 13

### **Hind Rajoub**

Nour, a Child Refugee, “her Home” is a Morgue that Resembles  
me or Syria ..... 21

### **Khawla Dunia**

The Pressures of the Revolution and the Syrian Woman ..... 27

### **Ghada Shahbandar**

Youth and the Women Revolution of January 25, 2011, Egypt ..... 31

### **Nadia al-Kawkabani**

Their Interests in the Revolution was Greater than Our Need for it ..... 37

### **Hammadi al-Massoudi**

Ode of «The Will to Live» [Iradat al-Hayat] by Abu-l Qassim  
al-Shabbi ..... 41

### **Salim Mouawad**

A Revolution of Contradictions in the Land of Cedar ..... 47

**ISBN: 978-9953-0-3137-8**

**All rights reserved**

**© 2014, The Lebanese Association of Women Researchers**

Sanayeh, Beirut, Lebanon

Toufic Tabbara Centre

P.O.Box: 113-5375

Tel./Fax: 00961 1 739726

Email: [info@bahithat.org](mailto:info@bahithat.org)

Website: [www.bahithat.org](http://www.bahithat.org)

*“The views expressed herein are those of the author(s) and can therefore in no way be taken to reflect the opinion of the Donors nor of the Lebanese Association of Women Researchers”*

**Distribution:**

**Jadawel S.A.R.L**

For publishing, translation and distribution

Ras Beirut-Karakas Street- Al Baraka Bldg. 1<sup>st</sup> floor

Tel: 00961 1 746638; Fax: 00961 1 746637

P.O.Box: 13-5558 Shuran Beirut- Lebanon.

Email: [d.jadawel@gmail.com](mailto:d.jadawel@gmail.com); [info@jadawel.net](mailto:info@jadawel.net)

[www.jadawel.net](http://www.jadawel.net)

**Price: 20 US Dollars or 25 000 LL**



**Bahithat Book 16**  
**2013 - 2014**

**Editorial Committee**

*Hosn Abboud*

*Amal Habib*

*Ridwan Al-Sayyid*

*Amel Grami*

**Players of the Arab Revolutions**  
**Innovative Forms and Expressions**

The book has been supported by

*Diyar Consultants*

*Al-Mutaz Holding s.a.l.*

*Institute of International Education (IIE)*

**Beirut 2014**



Players of the Arab Revolutions  
Innovative Forms and Expressions